الفولكلور في العهد القديم

تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
مراجعة : د. حسن ظاظا



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢



مقدمة بقلم المترجمة

يقول فريزر فى مقدمة الطبعة المختصرة لكتاب « الفولكلور فى العهد القديم» التى قمنا بترجمتها : «وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشبه مانجده لدى القبائل البدائيــة التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات . واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صدقا وان يكن أقل رومانسية ، بوصــفهم شعبا لايميزه الوحى الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شــعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطىء » . كما يقول فى خاتمة هذه المقدمة : «ولقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم فى النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثــار الهمجية والخـــرافة ، تلك الآثــار التى تنتشر على صفحاته» ..

ولقد نجح فريزر الى حد كبير فى تحقيق مأربه ، فكان يضع يده على طقوس وعادات قديمة ترد بين ثنايا العهد القديم ، من الممكن أن يمر بها القارىء مر الكرام دون أن يفكر فى مغزاها أو أصلها . ومثال ذلك ماورد فى سفر التكوين (١) بصدد مقتل هابيل بيد أخيه قابيل : «فقال

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ ، ١٦ .

قايين للرب ذنبى أعظم من أن يحتمل ، انك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب ، لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه . وجعل الرب لقايين علامة لكى لايقتله كل من وجده» . وهنا يقف فريزر عند عبارة «وجعل الرب لقايين علامة لكى لايقتله كل من وجده » ويتساءل عن كنه هذه العلامة وعن سبب تعليم الرب لقابيل بها ، مستخدما فى ذلك المنهج المقارن الذى تمكن بواسطته من استجلاء مغزى هذا الفعل ، أعنى مقارنته بعادات مماثلة كانت أو لا تزال تعيش بين الشعوب البدائية التى تعيش مرحلة متخلفة من التطور الحضارى • ومثال ذلك أيضا ماورد فى قصة آدم فى سفر التكوين (١) : «وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر . والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد . فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها • فطرد الانسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» . وهنا يتساءل المؤلف عما اذا كان الرب الرحيم الذى أسكن آدم وحواء جناته وأنعم عليهما من كل الخيرات ، كان يخشى حقا أن يأكل الأبوان الأولان من ثمار شجرة الخلد فيصبحا خالدين مثله • وقد دفعه هذا التساؤل لأن يتعرض لفكرة الخلود عند الشعوب البدائية وعلاقتها بالحية التى أوقعت آدم وحواء فى الخطيئة كما هو مذكور فى التوراة • وقد استخلص الكاتب من ذلك كيف أن كاتب السفر قد خلط بين قصة الخلق الأصلية وبين المعتقدات والتصورات البدائية ، وكان نتيجة هذا الخلط أن نسبت قصة التكوين فى التوراة الى الرب صفات لاتليق بوحدانيته والوهيته ..

وبهذا استطاع فريزر من خلال القراءة المتفحصة للتوراة ومن خلال تخصصه العميق فى علم الأنثروبولوجيا ، أن يحصى ما فى التوراة من تقاليد وعادات وتصورات بدائية ، وأن يقوم بتحليلها وفحصها واستبيان كنهها عن طريق المنهج الأنثروبولوجى المقارن •

وربما حق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب احتفاظ الدين اليهودى بهذه الكثرة اللافتة من المعتقدات والطقوس القديمة . فالواقع أن الدين اليهودى هو أول الأديان السماوية . واذا كان الدين المسيحى قد جاء من بعده ثم الدين الاسلامى ، فمن المفروض أن الدين الجديد

---

(١) سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ •

لايأتى لتغيير جوهر دين سماوى سبقه ، اللهم الا اذا كان الناس أنفسهم قد غيروا هذا الجوهر ، وانما يأتى الدين الجـديد لتأكيد الدين الذى سبقه من ناحية ، ولسن تشريعات جديدة أو توضيح وتفصـيل بعض ما أوجزه الدين السابق من ناحية أخرى . ومعنى هذا أن الدين السماوى برىء مما تضمنته التوراة من معتقدات وتصورات بدائية ، وأن هـــذه المعتقدات والتصورات أقحمت على التوراة اقحاما ..

واذا كان فريزر قد استطاع أن يبرز ما فى التوراة من بقايا معتقدات وديانات قديمة،ففى وسعنا الآن أن نشير الى مدى تأثير هذه المعتقدات والديانات على الدين السـماوى وفقا لمفهومه الواسع ، أو بتعبير آخر فاننا نشير الى مدى ما ألحقته هذه المعتقدات والديانات بالدين السماوى من تشويه ..

ان الأديان السـماوية تهدف أولا وقبل كل شىء الى القضاء على عبادة الأوثان بشتى مظاهرها ، كما أنها تهدف الى السمو بمرتبة الأنبياء وتقدير صفاتهم التى تسمو فى مجملها فوق صـفات البشر العـاديين بوصفهم قادة لهم ونماذج بشرية يحتذى بها . وهى تهدف كذلك الى تنزيه الخالق سبحانه عن كل الصفات الانسانية . فاذا نظرنا الى التوراة فى ضوء ما أوضحه فريزر ، فاننا نجد أن الدين اليهودى على هذا النحو تكتنفه بعض مظاهر عبادة الأوثان ، فقد قدس أنبياؤهم بعض الأشجار وبصفة خاصـة شـجرة البلوط كما أشـار المؤلف الى ذلك ، وكمـا استشهدنا على ذلك بكثير من نصـوص التوراة فى المكان المناسب من الترجمة . وكان يعقوب قد رأى فى رؤياه حجرا انتصب فوقه سلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليـه ، فلما استيقظ نصب الحجر وصب فوقه الزيت وعده مقدسا ، ومنذئذ أصـبح الحجر مقدسـا لدى العبريين القدماء . ولم يثق ابراهيم بعهـد الرب فى أن أرض الميعاد ستكون له ولقومه من بعده ، الا بعد أن أدى الطقوس القـديمة التى كان النـاس يتبعونها عندما يتعاهد طرفان على أمر من الأمور ، فتذبح ذبيحة وتشطر ثم يمر بين شطريها الطرفان المتعاهدان . «وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها . فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم أنى أرثها . فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسـط وجعـل شـق كل واحد مقابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه . فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها ، ولما صارت الشـمس الى المغيب وقع على أبرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه . فقال لأبرام اعلم يقينا أن

نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم اربعمائة سنة ، ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها ... ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، واذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين القطع. فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا ، لنسلك أعطى هذه الأرض بين نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات» (١) . ولعلنا نلاحظ فى هذه الأمثلة وغيرها أن اليهودى كان يسعى دائما لأن يكون بينه وبين الرب وساطة حسية تعد من وجهة نظره مقدسة قداسة الرب ، فالبلوطة مقدسة والحجر مقدس والذبيحة المشطورة التى يمر الرب بين شطريها فى شكل دخان مقدسة كذلك . وعلى هذا النحو لم تكن تتمثل قوة شمشون فيما يستمده من الاله من قوة ، بل كانت قوته مستكنة فى خصلات شعره التى لم تقص قط منذ نعومة أظفاره . فلما قصت خصلات شعره ، فقد شمشون قوته وخارت قواه ولم يعد بعد شمشون الجبار .

فاذا انتقلنا الى تصوير التوراة للأنبياء فاننا نقرأ عجبا . ويكفى أن تكون شخصية يعقوب على هذا النحو الذى صورته التوراة من الخداع والغش والحيلة والمكر حتى يمكننا أن نضع أيدينا على الصفات المستحبة عند الرجل اليهودى . فيعقوب فى التوراة رجل مادى ذكى لبق . وقد استطاع بهذه الصفات أن يخفى ما به من صفات لاانسانية مثل الخداع والغش والمكر . ولم تكتف التوراة بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادت فأكدت له هذه الصفات فى معاملته لخاله لابان . فقد كان يعقوب ينوى أن يسلب الجزء الأكبر من قطيع خاله لابان وأن يرحل به سرا مع بناته اللاتى كان قد تزوج بهن وخدم خاله مقابل ذلك عدة سنين نمى له فيها قطعانه وأغنامه . ولننظر الآن الى الحيلة التى عمد اليها يعقوب فى سبيل اتمام هذا الغرض كما تصورها التوراة . فقد اتفق يعقوب مع خاله أن يأخذ لنفسه كل الغنم المخطط والمرقط ويأخذ خاله الغنم الأسود . ووافق الخال على ذلك ؛ لأن الغنم المخطط والمرقط لم يكن كثيرا . «ثم أخذ يعقوب لنفسه قضبانا خضرا من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطا بيضاء كاشطا عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب .. فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا وأفرز يعقوب الخرفان ... وجعل له

(١) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

قطعانا وحـده ولم يجعلهـا مع غنم لابان · وحـدث كلما توحمت الغنم القوية أن وضع يعقوب القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان ·· وحين استضعفت الغنم لم يضعها · فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب · فاتسع الرجل كثيرا جـدا وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير » · ثم جاء الى زوجتيه وقال لهما : « قد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى » · وبهذا « خدع يعقوب قلب لابان الآرامى اذ لم يخبره بأنه هارب » (١) ··

ولم يكن صموئيـل أقل حيلة ومكرا من يعقـوب . فعنـدما ثار الشعب اليهودى ضد الحكم الكهنوتى ونادى بأن يحكمهم ملك دنيوى ، عين صموئيل الملك شاءول ملكا على بنى اسرائيل بتفويض من الرب كما تذكر التوراة . وقد وقع اختيار صموئيل على شاءول بصفة خاصة لأنه كان يود أن يكون الملك الجديد خاضعا لسطوته . وعلى الرغم مما كان يتمتع به شاءول من هيبة وجلال أكسباه حب الشعب اياه ، فانه كان فى الوقت نفســه يتميز بجانب ضعيف فى شخصيته أدركه صموئيل كل الادراك قبل أن يقع اختياره عليه . ولكن عندما بدأ صموئيل يشعر بأن شاءول قد أخذ يستقل عنه ، وأن الشعب أخـذ يتجمع من حـوله ، أسرع يبحث عن مناوىء له متمثلا فى داود . واستطاع داود أن يجمع من حوله زمرة من بنى اسرائيل ، وبذلك دب الخلاف بينه وبين شاءول · ولم يكن فى استطاعة شاءول فى هذه الحالة وهو الانسان المرهف الحس ، أن يقود الجيش ضد الفلسطينيين · ولما كان صموئيل قد مات فى ذلك الوقت ، فقد فزع شاءول الى قبره لعله يعينه فى مأزقه . واســتطاعت ساحرة عين دور أن تســتحضر له روح صــموئيل · فصرخ به شــبح صموئيل قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى . فقـال شـاءول ، قد ضاق بى الأمر جـدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعـد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع · فقال صموئيل ، ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك ، وقد فعـل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى . وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب » (٢) .

والواقع أن من يقرأ سـفر صموئيل لا يرى أن شاءول قد ارتكب اثما فى حق الرب أو فى حق صموئيل · فقـد كان صموئيل قد أمره

---

(١) سفر التكوين ٣٠ : من ٢٧ الى ٤٣ ·

(٢) سفر صموئيل الأول ٢٨ : ١٥ الى ١٨ ·

بمحاربة شعب عماليق وقال له : « ولا تقف عنهم بل اقتلهم رجلا وامرأة ، طفلا ورضيعا » . فامتثل شاءول لأوامره وقبض على أجاج ملك العماليق وأحضره الى صموئيل حيا . ولكن الشعب اليهودى استحل لنفسه ذبح بعض الغنائم مثل خيار الغنم والبقر . فلما تهدده صموئيل قائلا : « لماذا لم تسمع لصوت الرب بل ثرت على الغنيمة وعملت الشر فى عينى الرب » تحداه شاءول قائلا : « انى قد سمعت لصوت الرب وذهبت فى الطريق الذى أرسلنى فيها الرب وأتيت بأجاج ملك عماليق .. فأخذ الشعب من الغنيمة غنما وبقرا أوائل الحرام لأجل الذبح للرب الهك » . واذا كان صموئيل قد عين شاءول ملكا على الشعب اليهودى بتفويض من الرب كما يتضح من قوله : « اياى أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه اسرائيل » ، فانه عاد وعبر عن حقده عليه فى خاتمة تجربته معه فقال : « والرب ندم لأنه ملك شاءول على اسرائيل » (١) ..

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى طريقة تشخيص التوراة للرب ، فاننا نجد فى هذا التشخيص أثر المعتقدات والتصورات القديمة من ناحية ، كما نلاحظ من ناحية أخرى عدم مقدرة اليهودى على السمو بالخالق وتنزيهه عن الصفات البشرية . فقد ظهر الرب ليعقوب فى صورة انسان امسك يعقوب بتلابيبه حتى لا ينفلت منه الا بعد أن يباركه ويبارك قومه ، وكأنه لم يكن ليحصل على بركة الرب الا على هذا النحو «. فبقى يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع فخذ يعقوب فى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر . فقال له لا أطلقك ان لم تباركنى . فقال له ما اسمك ؟ فقال يعقوب . فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك » (٢) ..

واذا كان الرب قد صور فى التوراة على هيئة انسانية ، فلا عجب أنها خلعت عليه صفات انسانية ، بل صفات غير محببة الى النفس البشرية . فقد طرد الرب آدم وحواء وفقا لقصة التوراة ، لا لمجرد مخالفتهما للمحظور الذى حذرهما منه الرب ، ولكن لأنهما سلباه صفة كان يود أن يستبقيها لنفسه دون البشر وهى معرفة الخير والشر . ومن

---

(١) انظر سفر صموئيل الأول الاصحاح الخامس عشر والسادس عشر .

(٢) سفر التكوين ٣٢ من ٢٤ الى ٢٩ .

ثم فقد أسرع الرب فى طردهما من الجنة قبل أن يتمكنا من أن يسلباه صفات الهية أخرى وبصفة خاصة صفة الخلود ، وذلك إذا ما تهورا وأكلا من الشجرة الثانية المحرمة وهى شجرة الحياة . « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر · والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد . فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها » · بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الانسان على شجرة الخلد خلسة ولذلك فقد جعل « لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (١) ··

وربما كان هذا المجال مناسبا لأن نقارن ما رواه القرآن بما روته التوراة فيما يختص بالقصص الدينى الذى تعرض فريزر لبحثه فى هذا الكتاب ، حتى نلقى بذلك مزيدا من الضوء على مدى ما اعترى القصص الدينى فى التوراة من تحوير وتغيير ...

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين · فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين . » كما قال تعالى فى سورة طه : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . » فهذه الآيات تقدم الخطوط الأساسية لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا فى الجنة الى أن أخرجا منها · فبعد أن خلق الله آدم وحواء أمرهما ألا يأكلا من شجرة ما فى الجنة ، فلما عصيا أمره أخرجهما الله من الجنة وجعلهما يهبطان الى الأرض ليعيشا فيها هما ونسلهما من بعد حياة غير خالدة . فالمسألة هنا تتعلق بتحريم وعصيان لهذا التحريم ، أو هى بتعبير آخر اختبار لطبيعة الجنس البشرى ، تلك الطبيعة التى لازمت الانسان منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وهى التى تتمثل فى ضعفه أمام قوة الاغراء المادى . واذا كان هذا هو هدف القصة ، فاننا نجد أن القرآن قد نحا الى التجريد الذى هو من أخص خصائص القرآن الكريم · ومن ثم فان القصة لم تصور لنا كيف استطاع الشيطان أن يقتحم عالم آدم فى الجنة ، كما أنها لم تصف الشجرة التى حرمت عليه . واذا كانت

---

(١) سفر التكوين ٣ من ٢٢ الى ٢٤ ·

الشجرة قد وصفت بأنها شجرة الخلد على لسان الشيطان ، فانما كان هذا على سبيل اغراء الشيطان لآدم بالأكل منها ..

ولما كانت قصة آدم فى القرآن قد عرضت على هـذه الصـورة التجريدية ، فقد كان من الطبيعى أن يخوض المفسرون فى تفصيلاتها ، وأن يتركوا العنان لخيالهم لكى يصور كيف خلق الله آدم ، بل الطريقة التى أحضر بها الطين من الأرض ، وطبيعة الشجرة التى نهى الله آدم عن أكل ثمرها (١) ..

ومن المفسرين من يقف موقف الحذر ازاء هذه التفصيلات حيث ان القرآن لم يتعرض لها فى شىء . ومن ذلك ما ذكره الطبرى معلقا على آراء المفسرين الذين خاضوا فى وصف الشجرة المحرمة ، فقال : « ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن أو فى السنة الصحيحة . فأنى يأتى ذلك من أتى ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها » (٢) ..

ومن المعروف أن تفسير القرآن قد تعرض لتأثير ما سمى بالاسرائيليات . واذا كانت قصة الخلق فى التوراة قد ذكرت غواية الحية لحواء ، فان هذا التصوير لم يكن بعيدا عن أذهان المسلمين الذين حاولوا أن يوفقوا بينه وبين ما ذكره القرآن الكريم من غواية الشيطان لآدم وحواء معا . ومن ثم فقد صور الخيال الشعبى الشيطان وقد دخل فى جوف حية حتى يصل الى الجنة التى كان قد طرد منها من قبل . واذا كانت التوراة قد لعنت الحية على لسان الرب عندما قال لها : « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك » (٣) . فان هذه الصورة قد انتقلت بدورها الى التفسير ، فصورت الحية قبل أن تحل بها اللعنة بأنها كانت لها قوائم كقوائم الجمل . فلما حلت بها اللعنة ، فقدت قوائمها وأصبحت تزحف على بطنها .

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى قصة التوراة ، فاننا نفاجأ أول الأمر بأن القصة تنحو الى تشخيص الرب على نحو انسانى . فهو يتمشى فى

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج ١ من ص ١٥٣ الى ١٨١ (ط. دار المعارف) .
(٢) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٧٩ .
(٣) سفر التكوين ٣ : ١٤ .

الجنة فى المساء الرطب ، وهو ينادى آدم الذى اختبأ وراء الشجر ، ولم يكن يعرف آنذاك أنه قد أكل من الشجرة المحرمة . ثم انه صنع لآدم وحواء ثيابا من الجلد وألبسهما اياها بدلا من ورق الشجر الشحيح الذى غطيا به عورتهما . وعلى هذا النحو تتعرض القصة لذكر تفاصيل عن الشجرتين المحرمتين ، فتذكر أن احدى الشجرتين كانت شجرة معرفة الخير والشر وأن الشجرة الأخرى كانت شجرة الحياة . فلما أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر وأصبحا ندا للاله فى المعرفة ، خشى أن يأكلا من شجرة الحياة فطردهما من الجنة ..

وبهذا تختلف قصة آدم وحواء فى كل من القرآن والتوراة اختلافا جوهريا .. ففضلا على اختلافهما فى طريقة العرض ، فانهما تختلفان فى المغزى والهدف . فاذا كان آدم قد أخرج من الجنة فى قصة القرآن ، فلأن سكناه فى الأرض كانت مقدرة له من قبل بدليل قوله تعالى للملائكة قبل خلقه آدم : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى أعلم مالا تعلمون » . فاذا كان عصيان آدم الله مقدرا له من قبل ، فان هدف القصة يتضح بعد ذلك وهو تأكيد النوازع الانسانية ، وابراز جوانب الضعف فيها التى جعلتها موضوعا لاغراء الشيطان على الدوام . أما قصة التوراة ، فقد أخرج الله آدم من الجنة غيظا منه وحنقا عليه ؛ لأنه أصبح نده فى المعرفة . وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد ..

فاذا انتقلنا الى قصة قابيل وهابيل فى كل من التوراة والقرآن ، فاننا نجد أن قصة التوراة قد أضافت تلك الاضافة التى حيرت مؤلف هذا الكتاب فأخذ يتساءل عن مغزاها الى أن ردها الى المعتقدات والعادات البدائية . فقد تضرع قابيل الى الرب بعد أن قتل أخاه وقال له : « انك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومن وجهى أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » . ويبدو أن الرب قد حنا عليه رغم فعلته الشائنة فقال له : « لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » (١) . وهنا نجد أنه على الرغم من أن قابيل قد قتل أخاه فقد أعلن الرب وفقا لنص التوراة ، أن من قتل قايين ينتقم منه بسبعة أضعاف جريمته ...

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٣ الى ١٦ .

أما قصة قابيل وهابيل فى القرآن فترد على النحو التالى: « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين · انى أريد أن تبوأ باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » (١) · وهنا يؤكد الله سبحانه وتعالى تأصل الشر فى الجنس البشرى ، حيث ان قابيل القاتل سوف يترك من ورائه سلالته التى تنزع مثله الى الشر ، كما أنه أكد نهاية بنى الانسان عندما يموتون ويوارون فى التراب ··

والفرق جلى بين صورة يعقوب فى القرآن وصورته فى التوراة · فأين صورة يعقوب الشيخ الجليل الذى أخذ يبكى على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه ، والذى كان يعلم بمكر بنيه ويرد عليهم فى وقار قائلا : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » (٢) ، من تلك الصورة الماكرة الخادعة التى رسمتها التوراة للنبى الجليل ! ..

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للاله والأنبياء على هذا النحو ، ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات الوثنية . فهل يرجع سبب هذا الى أن التوراة قد كتبها مؤلفون حوروا ما شاء لهم التحوير فى روايات دينهم ، وعبروا عن معتقدات اليهود وتصوراتهم بصفة عامة ؟ ولكن لماذا ظل اليهود مرتبطين بهذه المعتقدات البدائية على الرغم من نزول الدين السماوى على موسى ؟ ربما استطعنا أن نجيب عن هذه التساؤلات المختلفة اذا استطعنا أن نغوص بعض الشيء فى فلسفة الأديان ..

وأول شيء ينبغى علينا أن نقرره بهذا الصدد ، هو أن العقيدة ضرورة روحانية تنبثق من ذات الانسان فى كل زمان ومكان ، سواء كانت العقيدة فى شكلها الأولى الساذج أو كانت فى صورتها المتطورة الراقية . وأساس العقيدة هو احساس الانسان بالارتباط بقوة أكبر منه

---

(١) سورة المائدة من آية ٢٦ الى ٣٠ ·

(٢) سورة يوسف من الآية ١٨ ·

لا يريد أن يتحرك الا من خلالها . فالانسان البدائى لم ير اذن فى الرعد والبرق والمطر والنور والظلمة آلهة لمجرد أنه كان يخاف من الرعد أو يرغب فى المطر الى غير ذلك ، وانما رأى فى هذه الظواهر آلهة تعبيرا عن احتياجه النفسى الى الارتباط بقوة علوية يتحرك ويرغب من خلالها . فالاله والانسان منذ قديم الزمن ليسا قوتين تقف كل منهما فى مقابل الأخرى ، بل هما بالأحرى متداخلتان • ذلك أن الانسان يجد نفسه مرتبطا بالاله وواقعا فى أسره ، وداخلا ضمن ملكوته . ولا عجب بعد ذلك أن نجد العقيدة تحتضن العناصر الآتية : الحب والادراك والمقدرة على تشخيص طبيعة الاله ، والارادة والتأثير . فبدون الحب تكون العقيدة عمياء ، وبدون الادراك تكون العقيدة باهتة ، وبدون المقدرة على تمثل الخالق تكون العقيدة غير حقيقية وبدون الارادة والتأثير تكون العقيدة غير مثمرة (١) . ولا تخلو أكثر الاشكال الدينية سذاجة من ادراك للقوة فوق الطبيعية ومن الاحساس بالحب ازاءها ، ومن المقدرة على تشخيصها ، وأخيرا من العادات والطقوس التى تعبر عن ارادة الانسان والسعى الى التأثير فى هذه القوة الالهية ..

فاذا أصبح تصور القوى الالهية حيا فى نفس الانسان ، أصبح للظواهر الطبيعية والأحلام والموت الى غير ذلك مغزى دينى ، واكتسبت مخاوفه ورغباته صفة روحانية . ويمكننا أن نتمثل موقف الانسان من القوى العليا وطريقة وصوله اليها اذا تصورنا شكلا مخروطيا تقع فى قمته القوة العليا وفى أسفله يقف الانسان ، وبين القوة العليا والانسان يقف الوسيط الذى يتمثل فى الطبيعة بشتى مظاهرها . وهناك وسيلتان يصل بهما الانسان الى القوى العليا ، طريق مباشر دون وساطة وهو ما يسميه الفلاسفة طريق الأحوال الصوفية ، وطريق آخر غير مباشر يصطدم فيه الانسان بالوسيط الذى ربما كان عائقا فى سبيل وصول الانسان للالتحاق بالقوى العليا ، ويسمى طريق الأحوال السحرية . وكلا الطريقين يخوضهما الانسان نتيجة وعيه بذاته • فالوعى بالذات كما قال هيجل يعنى الوعى بذاتية الذات وموضوعيتها • فعندما تسعى الذات الى تشخيص الذات العليا، فان هذا التشخيص يمثل الجانب الموضوعى من هذا الادراك (٢) . والوعى بالذات يقود الى الأجواء غير المادية ، أى أنه يمثل تلك الحالة التى ينغمس فيها الانسان فى الوجود الكلى . ولعل

---

(١) Othamar Spann : Religious Philosophie, p. 12 (Wien 1947).

(٢) Op. cit., p. 38.

هذا يفسر لنا حرص الشعوب جميعا على رواية قصة الخلق ، ذلك أن قصة الخلق تعد تشخيصا لحاجة الانسان الى ارتباطه بالقوى العليا ، فهو اذن مرتبط بها منذ الأزل ، بمعنى أنها هى التى خلقته وهى التى حددت مصيره . أى أن الانسان والطبيعة معا يعدان فيضا من الله . على أن ادراك الانسان للقوى العليا لا ينبع من حاجته الى ارتباطه بالكل الكامل فحسب ، وانما ينبع كذلك من احساسه بعدم كمال ذاته وعدم كمال عالمه . فعن طريق مقارنة وجود الله العلى الكامل من خلال التجربة الصوفية ، بوجود الانسان المادى ، يتبع بالضرورة استبعاد كل مايشعر به الانسان من نقص فى ذاته أو فى عالمه عن الخالق . ولهذا السبب فان الحالة الروحية تنبثق من نزوع الانسان الى التخلص من غربته عن عالم الخالق ، والى السعى نحو التمثل به، وهو الأمر الذى يقوده الى تشكيل حياته بتقاليد محددة وبسلوك ذى طابع روحانى ، أى أن الانسان يخوض تجربة داخلية تسمو به فوق المدركات الحسية أى فوق النطاق المادى المحدود ..

على أن الانسان يخوض هذه التجربة بوصفها كلا اذا بدأ من أعلى الى أسفل ، وذلك نتيجة احساسه الفطرى بارتباطه بالقوى العليا .. ويؤيد هذا قصة ابراهيم عليه السلام عندما سعى من خلال التجربة التأملية الى البحث عن الاله فى العالم الأرضى ، بل فى العالم السماوى البعيد . فاصطدم بالكوكب أول الأمر فقال : « هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (١) . فابراهيم عليه السلام كان يخوض تجربة صوفية بدأها من العالم العلوى وظل يبحث عن تشخيص للخالق حتى أقر بأنه أكبر من كل القوى الطبيعية المتدفقة منه ..

أما اذا بدأ الانسان تجربته الروحية من أسفل الى أعلى ، فانه يسير فى الطريق غير المباشر الذى يصطدم فيه بالظواهر الطبيعية المتعددة التى يخلع عليها صفات سحرية . وهو يظل يعيش فى هذا العالم السحرى الذى يحول بينه وبين خوض التجربة التأملية التى يتصل الانسان عن طريقها بالله اتصالا مباشرا . وفى هذا العالم السحرى تلعب

---

(١) سورة الانعام من آية ٧٦ الى ٧٩ .

الأرواح الخيرة والشريرة التى تعد فى الحقيقة تشخيصا لمخاوف الانسان ورغباته ـ نتيجة احساسه بارتباطه بقوى فوق الطبيعية ـ دورا كبيرا فى حياة مثل هذا الانسان . ولهذا فانه يخشى الاساءة الى ظواهر الطبيعة لأنها فى الوقت نفسه تعد اساءة للقوى العليا . وهو يتجنب هذه الاساءة لأنه يخشى عقاب القوى الخفية المتربصة به ..

فاذا حاولنا أن نتبين فى ضوء هذا الكلام ملامح الدين اليهودى كما يعرض فى التوراة ، فاننا نرى أن اليهودى لم يستطع أن يتصل بالله اتصالا مباشرا عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطنى . وانما وقف فى منتصف الطريق حيث الوسيط أو الوسائط التى يمكن أن تربطه بالقوى الالهية . وهذا يفسر سبب تعلقه بطقوس السحر وبكثير من العادات والتصورات القديمة التى استطاع فريزر أن يكشف عن الكثير منها . حقا ان كل شعب من شعوب العالم أيا كان نوع دينه السماوى . احتفظ أو مازال يحتفظ ببعض المعتقدات القديمة التى ربما استطاع أن يكيفها ويغير صورتها بحيث يمكن أن تتلاءم مع دينه الجديد ، ولكن الدين السماوى فى حد ذاته اجتهد فى أن يخلص العقيدة الجديدة من الشوائب القديمة ومن التصورات الوثنية ومن تلك الوسائط المادية التى يمكن أن تكون عائقا بينه وبين الصعود فى مراتب من النور الباطنى الذى يتصل به الى وجود الله وطبيعته ..

ولم يستطع اليهود ـ كما هو معروف عن تعلقهم الشديد بالمادة ـ أن ينسلخوا من هذه المادية وأن يسموا بدينهم ، أو على الأقل يحتفظوا بأصوله الروحية السامية . ومن ثم فقد ظلوا متعلقين بكل الوسائل المادية التى حجبتهم عن الرؤية الالهية الخالصة . ولا عجب بعد ذلك أن يلجأ شاءول الى ساحرة عين دور لكى تكشف له عن مصير شعبه فى الحرب بدلا من أن يفزع الى الله ليعينه فيها . ولا عجب ألا يثق ابراهيم من عهد الرب الا بعد أن أدى الطقوس الوثنية القديمة التى كانت تتبع عند عقد عهد من العهود بين طرفين . ولا عجب أن شخص اليهودى الرب على هيئة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى يباركه . ولا عجب أن ترسبت فى دينه كثير من مظاهر الوثنية على نحو ما أوضحه المؤلف فى كتابهم المقدس ..

***

وبعد تلك الجولة فى عالم الأديان التى حاولنا من خلالها ان نتبين

طبيعة الدين اليهودى ، نحاول الآن أن نلقى بعض الضوء على منهج فريزر فى هذا الكتاب ، وبوصفه باحثا انثروبولوجيا بصفة عامة ..

لقد كان العالمان الأنثروبولوجيان : مالينوفسكى وفريزر متعاصرين. ومع أن كلا منهما كان له منهجه الخاص به فى البحث الانثروبولوجى الاجتماعى ، الا أن كلا منهما يعد عملاقا فى ميدانه ، فكلاهما كان يبحث وهو على وعى تام بما تتصف به الطبيعة البشرية من تعقيد ، وكلاهما كان يكتب بأسلوب حاذق موضوعى ، وان لم يصل أسلوب مالينوفسكى الى ما وصل اليه أسلوب فريزر من لباقة ودقة . وكلاهما أغرم بوصف المظهر الشعائرى للحياة . وقد كانت عملية تحليل المعتقدات بالنسبة لكليهما رحلة استكشاف للروح الانسانى . وكلاهما كان يبحث دائما عن القرائن للحقائق المدركة كما أن كليهما كان يتحرك من الحقائق الى النظرية ومن النظرية الى الحقائق ، وان كان فريزر أكثر استقصاء للظواهر فى أبحاثه من مالينوفسكى ..

ومع كل وجوه التشابه هذه بين الباحثين ، فان مالينوفسكى قدم للبحث مادة أكثر غنى ووفرة فى كتاباته الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) . وهو فضلا على هذا وضع نموذجا للعمل الميدانى ولتوثيق نظريته التى تتلخص فى تحقيق المنهج الوظيفى على أكمل وجه ، بحيث أصبح منهجه فى الدراسات الشعبية والانثروبولوجيا الاجتماعية مثالا يحتذى به فى العصر الحديث .ولقد أشاد فريزر بمنهجه هذا فقال : « ان من أهم ما يميز منهج مالينوفسكى أنه كان يضع نصب عينيه الطبيعة الانسانية المعقدة بوصفها كلا . فلقد كان ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به لا فى المسطح المكانى الذى يعيش فيه ، ذلك أنه كان يتذكر على الدوام أن الانسان مخلوق تتحكم فيه العاطفة بقدر ما يتحكم فيه العقل . ومن ثم فقد كان كل همه أن يستكشف الجانب العاطفى بقدر ما يستكشف الأساس العقلى لسلوكه »(١) . فهل كان هذا الأساس المنهجى والنظرى ينقص فريزر فى أبحاثه ومن ثم فقد أقر بأهميته ؟ ان ما كان ينقص منهج فريزر بحق هو توسيع نطاق العمل الميدانى واستكشاف الروح الانسانى من جانبيه العقلانى والعاطفى وذلك عن طريق الربط التام بين جميع ممارسات الانسان وسلوكه . أى أنه كان ينقصه ما وصف به مالينوفسكى من أنه ينظر الى الانسان فى المحيط

---

(١) Man and Culture : Edited by Raymond Firth, p. 71, London, 1960.

الذى يحيط به وليس فى المسطح الذى يعيش فيه . فكثيرا ما اعتمد فريزر فى دراساته على ما دونه المبشرون عن القبائل البدائية ، وكثيرا ما اعتمد فى أبحاثه على دراسات الباحثين بدلا من اعتماده على الاتصال المباشر بالناس عن طريق العمل الميدانى . ذلك أن منهجه كان يعتمد على جمع الحقائق جمعا مستقصيا وبشتى الطرق بقصد اثبات نظريته فى ظاهرة من الظواهر الانسانية . ولهذا فقد أخفق فريزر فى أن يجد تفسيرا لبعض الظواهر الاعتقادية . ومثال هذا انه قد تحدث بصدد بحثه عن تقديس بعض الأشجار ، عن عادة تعليق الخرق الملونة عليها . ومع استقصائه البالغ فى البحث بقصد تأكيد هذه الظاهرة ، الا أنه لم يقدم أى تفسير لمغزى تعليق الخرق على الأشجار بقصد التوسل الى روح الشجرة . وسبب هذا أنه لم يكن يهتم باستكناه مغزى الفعل بقدر ما كان يهتم بسرده ..

ومع كل هذا فلقد قدم فريزر للقارىء المتخصص مادة وافرة لا غنى عنها فى دراسة الحياة الانسانية . ولقد استطاع أن يثبت عن طريق دراساته المقارنة تلك التقاليد والمعتقدات التى تخلفت مع الانسان عبر التاريخ والتى ترجع فى أصولها الى الحياة البدائية الأولى . وبهذا استطاع أن يستكشف ما تخلف فى التوراة من معتقدات وعادات قديمة كانت لها أبلغ الأثر فيما اتسم به الدين اليهودى من جوانب ضعف ، فضلا على أنها كشفت عن شخصية اليهودى الذى استغل الدين كل الاستغلال فى سبيل تحقيق أطماعه المادية (1) ..

واذا كان فريزر قد تناول كل الموضوعات التى طرقها تناول العالم المدقق الذى ينقب فى موضوعية تامة عن خبايا الأمور بقصد استكشاف كنهها ، فاننا نرى أنه قد استخدم هذا المنهج فى غير ضرورة فى قصة موسى عليه السلام . فقد حاول فى هذا الفصل أن يعزل القصة عن الحقائق التاريخية ، وأن يقرن بينها وبين ما يماثلها من قصص شعبى مروى . وقد اقتضت منا الأمانة العلمية أن نترجم هذا الفصل كما هو على مسئولية المؤلف ..

هذا وقد تطلبت منا الترجمة الكاملة أن نذيلها بهوامش لتوضيح بعض الأمور التى لم يوضحها المؤلف فى كتابه هذا . كما أننا أشرنا الى

---

(1) فيما يختص بفريزر بوصفه باحثا انثروبولوجيا مرموقا ، انظر مقدمة الجزء الأول من ترجمة الغصن الذهبى التى صدرت وشيكا للأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد .

مصدر آيات التوراة التى أغفل عمدا ذكر مكانها فى التوراة على سبيل الاختصار كما ذكر فى مقدمته . وكذلك استشهدنا فى بعض الأحيان بآيات لم يشر اليها المؤلف وذلك بقصد القاء مزيد من الضوء على ما تعرض له المؤلف فى دراسته من عادات وطقوس عند العبريين القدماء .

وبعد فلنترك القارىء الآن يستمتع بتلك الدراسة المقارنة العميقة التى تغوص به فى أعماق التاريخ البشرى وتجسد له الفكر الانسانى عبر الأجيال ..

المترجمة

مقدمة الطبعة المختصرة

نبهني بعض الباحثين الى أن عددا من القراء الذين لا يقدرون على شراء الطبعة الأصلية من كتابى « الفولكلور فى العهد القديم » ، الذى يقع فى ثلاثة أجزاء ضخمة ، أو الذين لا يجدون متسعا من الوقت لقراءة هذه الطبعة ، يرحبون بظهور طبعة مختصرة لهذا الكتاب . ولهذا فقد قمت باعداد هذا الموجز تقديرا منى لهذه الفكرة ، فحذفت بعض فصول الطبعة الأصلية نهائيا ، واختصرت سائرها . ولكى أفسح المجال للنص نفسه فقد حذفت ، بصفة خاصة ، القدر الأكبر من الهوامش التى تحتوى على الشواهد المقتبسة من أعمال بعض الباحثين ، ولم أبق منها الا القليل ، وذلك فى بعض الأحوال النادرة التى كنت أرغب فيها فى تقديم تفسير ما ، أو أرى من الضرورى ــ فى مجال الاستشهاد بنص من العهد القديم ــ أن أبدى الأسباب التى دعتنى الى أن أتبنى قراءة مخالفة لتلك التى أخذت بها الترجمة الانجليزية الرسمية أو المعتمدة للعهد القديم · أما القراء الذين يرغبون فى التعرف على الأصول الخاصة بأى موضوع فعليهم أن يرجعوا الى الطبعة الأصلية التى تحتوى على كثير من الوثائق ··

ولقد لاحظ « رينان » أن التاريخ البشرى لا يقدم للعقل الفلسفى المشتغل بالبحث عن أصول الأشياء سوى ثلاث حقب ذات أهمية أساسية ، هى : تاريخ الاغريق ، وتاريخ بنى اسرائيل ، وتاريخ روما · ويمكننا الآن ــ على سبيل المثال ــ أن نضيف الى هذه التواريخ الثلاثة التى تعتمد جميعها على وثائق مكتوبة ، تاريخا رابعا على الأقل ، هو تاريخ البشرية فى العصور والبلاد التى لم تكن تعرف الكتابة · فمنذ أن

قدم رينان للعالم تاريخه الكبير عن بنى اسرائيل وعن المسيحية فى عصورها الأولى ، ازدادت معلوماتنا عن التاريخ البشرى اتساعا وغنى ، سواء عن طريق الكشوف الأثرية لعصور ما قبل التاريخ أو نتيجة لدراسة الأجناس البدائية على نحو أكثر دقة ، تلك الأجناس التى تقدم الينا صورة دقيقة ـ على نحو أو آخر ـ لمراحل التطور الاجتماعى المختلفة التى اجتازها قديما أسلاف الأجناس المتحضرة . وقد تضافرت هذه العلوم الحديثة نسبيا على كشف القناع الى حد ما ، ذلك القناع الذى ظل مسدلا حتى هذا الوقت على طفولة البشرية ، وأخذت تتيح لنا أن ننفذ بأبصارنا ـ ان جاز لنا هذا التعبير ـ خلال الحائط المصمت الذى ظل حتى زمن متأخر حجر عثرة فى طريق الباحثين عما وراء نطاق التراث الكلاسيكى ، وتكشف لنا آفاقا تبدو لا نهائية للفكر البشرى ونشاطه فى تلك الأحقاب المظلمة السحيقة التى انقضت بين ظهور الجنس البشرى على وجه الأرض ، وبلوغه حالة النضج الكامل فى اطار الحياة الانسانية المتحضرة. ومن ثم ظهرت هذه الحماسة التى صاحبت الدراسات الفولكلورية ودراسة الآثار القديمة فى الوقت الراهن ، فى نطاق دائرة الباحثين الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم . ويمكننا أن نقول : أنه من بين القوى التى تشكل وجهة نظرنا المستنيرة فى أيامنا هذه وتحور فيها بدأت مناهج البحث الانسانى هذه تؤثر فى حركة الفكر العامة تأثيرا ثانويا فقط بالقياس الى الحافز الذى تركته فى أذهاننا صور التقدم المثيرة التى أحرزتها العلوم الطبيعية . فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك الانسانى من الصعب فصله عن محاولة معرفة أصولها ، تلك الأصول التى مازال علم الفولكلور وعلم الآثار القديمة يلقيان عليها مزيدا من الضوء ..

وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات . واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطيئة ..

مدخل

توصلت الأبحاث الحديثة التى تدرس فجر التاريخ البشرى بشتى اتجاهاتهـا الى نتيجة مؤكدة الى حد بعيـد ، مؤداها أن كل الأجناس المتحضرة قد تطورت ، فى زمن أو آخر ، من المرحلة الهمجية التى تشبه فى قليل أو كثير المرحلة التى لا تزال بعض الشعوب المتأخرة تعيشها اليوم . كما انتهت هذه الأبحاث الى أن هنـاك آثارا ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة فى الحياة والتفكير لا تزال ماثلة فى عادات الناس وتقـاليدهم - حتى بعد أن كانوا قد كفوا منذ زمن طويل عن التفكير والسلوك الهمجيين . وهذه الآثار الباقيـة تدخـل فى اختصـاص علم الفولكلور الذى يمكن أن نعرفه ، بمعنـاه الواسـع ، بأنه العلم الذى يستوعب مجموع المعتقدات والعادات المأثورة لدى شعب من الشعوب ، ما دام مرد هذه المعتقدات والعادات الى السلوك الجمعى لعامة الناس ، وكانت بمنأى عما يكون لعظماء الرجال من تأثير فردى . وعلى الرغم مما كان العبريون القدماء قد أحرزوه من رقى فكرى وتطور دينى ، فليس هناك ما يدعو لافتراض أنهم قد شـذوا عن هـذا القانون العـام ، اذ المحتمل أنهم أيضا قد مروا بمرحلة بربرية بل همجية . وهذا الاحتمال ، الذى يرتكز على ما بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى من تشـابه ، تؤيده النظرة الفاحصـة لأدبهم ، ذلك الأدب الذى يتضـمن كثيرا من الاشارات الى معتقـداتهم وعاداتهم التى لا يمكن أن تفسر الا من خـلال افتراض أنها مخلفات باقية من مسـتوى حضارى أشد انخفاضا بكثير .
ومن ثم كان موضوع دراستى هذه هو أن أوضح وأفسر قدرا محدودا من تلك المعتقدات البالية التى تنتمى الى عصور بدائية ، والتى يحتفظ

بها العهد القديم كأنها حفريات . ولقد أتيحت لى الفرصة من قبل فى غير هذا الكتاب لأن أضع يدى على آثار بدائية أخرى يتضمنها العهد القديم ، لها نظائرها عند القبائل الهمجية ، مثل التضحية بالابن الأول ، وقانون دنس النساء ، ثم عادة تقديم ذبيحة الخطيئة (١) (Scape-goat) ولكن حيث أننى لا أود أن أكرر ما سبق أن ذكرته حول هذه الموضوعات، فاننى أكتفى باحالة القارىء الذى يرغب فى البحث فيها ، الى كتاباتى الأخرى ..

ووسيلتنا فى الكشف عما يتغلغل فى الحضارة من آثار بدائية هو المنهج المقارن ، فهو يمكننا ، فيما يتصل بالعقل الانسانى ، من أن نقتفى أثر تطور الانسان فكريا وأخلاقيا ، بنفس الدرجة التى يمكننا بها ، فيما يتصل بجسم الانسان من أن نقتفى أثر تطوره جسديا من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية . وباختصار فان هناك تشريحا مقارنا للعقل ، كما ان هناك تشريحا مقارنا للجسم . وتشريح العقل تبشر نتائجه البعيدة المدى بأنها لن تكون ، بالنسبة لمستقبل الانسانية ، أقل قيمة من نتائج تشريح الجسم ، لا من الناحية النظرية فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك . وليس بدعا أن نطبق المنهج المقارن على دراسة التراث العبرى القديم ، فقد استخدم العالم الفرنسى صموئيل بوشار القس هذا المنهج فى القرن السابع عشر فى فرنسا استخداما ناجحا ، كما استخدمه فى انجلترا رجل الدين العالم « جون اسبنسر » رئيس كلية « جسد المسيح » (Corpus Christi) بجامعة كمبردج . وقد قيل عن كتابه الذى ألفه حول قوانين الطقوس لدى العبريين القدماء انه أرسى دعائم علم الأديان المقارن . أما فى عصرنا ، وبعد قرنين من الزمان ، فقد استأنف أستاذى المبجل وصديقى « وليم روبرتسون

---

(١) راجع سفر اللاويين اصحاح ١٦ .

«يسميها بعضهم كبش الفداء وآخرون «تيس عزازيل» وهى تعنى فى علم الانثروبولوجيا أن شخصا أو شيئا أو حيوانا يحمل خطايا الفرد أو المجتمع أو يحمل ما يبتلى به الفرد أو المجتمع من أمراض وكوارث ، ومن ثم فان هذا الشخص أو الشىء أو الحيوان يقدم ضحية الاله . ويرجع هذا الاصطلاح الى عادة عبرية قديمة ، اذ كان العبريون يقدمون كبشين ضحية للآلة تكفيرا عن ذنوب الشعب أو الفرد . ثم دخل هذا الاصطلاح فيما بعد مجال علم النفس ومعناه أن يلوم شخص غيره عما يصاب به من خيبة فى أمر ما. فهو ينسب اليه التقصير لا الى نفسه . ومن ثم فهو يعد شكلا من أشكال الاسقاط .

(المترجمة)

سميث » فى كمبردج العمل الذى اضطلع به هذان العالمان الجليلان ٠ والتقدم الذى أحرزته هذه الدراسة فى حياته وبعد وفاته المبكرة جدا يرجع الى حد بعيد ، الى أثره القوى الذى ظفرت به هذه الدراسة بفضل عبقريته الخارقة وعلمه . وقد كان الأمل يحدونى أن أقتفى أثر هؤلاء المتقدمين المرموقين فى هذا المجال من العلم ، وأن أسير به قدما بما يمكننى من أن أسمح لنفسى بأن أسميه تراث كمبردج فى الأديان المقارنة٠

ومن المسلمات الشائعة أن الوصول الى حل كامل لمشكلة مايتضمن حلا لمشكلات أخرى كثيرة ٠ ولكن لا ، فالقليل من العلم بكل شىء لن يكون كافيا لأن يجيب ضمنا عن الأسئلة التى تثيرها أبسط أشكال البحث . وبناء على ذلك ، فان فحص مسألة فولكلورية ، بخاصة فى المرحلة الأولية الراهنة لهذه الدراسة ، من الطبيعى أن يفتح مجالات للتساؤل تتشعب فى اتجاهات عدة ٠ واننا لننساق بطريقة عفوية - فى أثناء تتبعنا لمجالات هذا التساؤل - الى آفاق من البحث تزداد اتساعا على الدوام حتى لتختفى عن أنظارنا النقطة التى بدأنا منها ٠ أو - بتعبير أدق - حتى لتبدو النقطة التى بدأنا منها فى بعدها الحقيقى مجرد ظاهرة ضمن عدد كبير من الظواهر المماثلة ٠ وأن ما صادفته منذ سنين طويلة عندما أخذت على عاتقى أن أبحث مسألة فولكلور ايطاليا القديمة ، يصادفنى الآن وأنا أتهيأ لمناقشة مسائل بعينها فى فولكلور العبريين القدماء ٠ فقد حدث أن البحث فى أسطورة معينة أو عادة أو قانون قد تشعب بى فى بعض الأحيان ، حتى أوشك أن يصبح بحثا بل رسالة . ولكننى آمل - بعيدا عما تضمنته أبحاثى من رأى متعجل فى تراث الاسرائيليين وعادتهم - أن تكون هذه الأبحاث بمثابة اسهام فى دراسة الفولكلور بصفة عامة ٠ ان هذه الدراسة لاتزال فى مرحلة البداية والأرجح أن تظل نظرياتنا ، التى تتعلق بهذه الموضوعات ، تجريبية ومؤقتة على مدى فترة متطاولة من الزمن ، وأن تكون مجرد أدراج تصنف فيها الحقائق الكثيرة الى حين ، لا قوالب حديدية تستقر فيها تلك الحقائق الى الأبد . وفى هذه الأحوال يقدم الباحث المخلص فى مجال الفولكلور فى الوقت الحاضر نتائج بحثه فى قدر من التهيب والتحفظ اللذين يتلاءمان مع ما تتسم به المادة التى فى متناول يده من صعوبة وحاجة الى التمحيص ..

وعلى هدى من هذا كنت أسير دائما . واذا كنت فى أى مكان من هذا البحث قد نسيت هذا التحذير الذى أتجه به الى الآخرين ، وعبرت عن نفسى فى صورة تقريرية لا تؤيدها الأدلة ، فاننى أطلب من القارىء

أن يصحح مثل هذه العبارات التقريرية جميعا ، عن طريق اعلان هـذا النوع من التشكك العام المخلص ..

وقد حاولت فى هذا البحث أن أضع فى الاعتبار النتائج التى توصل اليها أشهر النقاد المحدثين فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها · ذلك أننى أعتقد أن كثيرا من المتناقضات الجلية فى الكتاب المقدس ، لا يمكن أن تقبل تفسيرا منطقيا وتاريخيا معقولا الا فى ضوء هذه النتائج · أما النصوص التى اقتبستها فقد دونتها عادة بألفاظ « الترجمة الانجليزية المعتمدة للعهد القديم » . ومع اننى خاطرت بين الحين والآخر بأن أخالف الترجمة الانجليزية وأن أفضل عليها ترجمة أخرى ، أو أفضل عليها ـ فى مواضع قليلة للغاية ـ قراءة خاصة من قراءات العهد القديم ، فاننى أود أن أقول اننى اذا كنت قد قرأت العهد القديم كله باللغة العبرية قراءة فاحصة ، وبجانبى «الترجمة الانجليزية المنقحة » على الدوام ، فاننى شديد الاعجاب بلباقة المترجمين والمنقحين على السواء ، تلك اللباقة الفائقة فى اختيارهم لعباراتهم مع اخلاصهم البالغ لحرفية النص والتزامهم بروح النص الأصلى · ان « الترجمة الانجليزية المنقحة للعهد القديم » فى جمعها بين الدقة البالغة ووقار اللغة وجمالها ، لا يبزها بدون شك ، بوصفها نصا مترجما ، أى عمل أدبى آخر ، بل المحتمل أنه ليس هناك عمل أدبى آخر يقف معها على قدم المساواة ..

لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم فى النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر فى صفحاته · واذا كنت قد صنعت هذا فليس معناه أننى أجهل الجانب الأعلى من العبقرية العبرية التى كشفت عن نفسها فى ديانة روحية وآثار خلقية سجلها العهد القديم الخالد ، أو أن أحط من قدرها ..

الباب الأول

عصر الحياة الأولى

الفصل الأول

خلق الإنسان

الذين يقرءون الكتاب المقدس قراءة فاحصة لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصارخ بين قصتي خلق الانسان ، اللتين تقعان في كل من الاصحاحين : الأول والثاني من سفر التكوين • ففي الاصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق في اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور ، بل كل الكائنات التي تعيش في الماء أو الهواء ، وكيف أنه خلق في اليوم السادس كل صنوف الحيوان التي تعيش على وجه الأرض ، وأخيرا خلق الانسان ، الذكر والأنثى كليهما ، على صورته • ومن هذه القصة نستنتج أن الانسان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما نتبين أن تقسيم الانسان الى ذكر وأنثى ــ وهو التقسيم الذي تختص به الانسانية ، قد تم على يدي الخالق نفسه ، وان لم يقدم الينا الكاتب أية معلومات تمكننا من التوفيق بين الخلق الثنائي للانسان ووحدة الخالق • فاذا تجاوزنا تلك المشكلة الدينية ، التي ربما شقت على الفهم الانساني ، فاننا نتجه الى مسألة أخرى أبسط منها ، تتصل بالنسق التاريخي للخلق ، ونتدبر العبارات التي تقول : ان الله خلق صنوف الحيوان الدنيا أول الأمر ، ثم أعقبها بخلق الانسان ، وأن الانسان قد انقسم الى ذكر وأنثى تم خلقهما في آن معا ، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الالهي • هذا ما نقرؤه في الاصحاح الأول من سفر التكوين • فاذا نحن انتقلنا الى

الاصحاح الثانى ، انتابتنا الحيرة على نحو ما ، عندما نفاجأ برواية تختلف تماما عن هذه الرواية الخطيرة ، بل انها لتتناقض معها كل التناقض ، اذ نفاجأ فيها بما يثير فينا الدهشة ، وهو أن الله خلق الانسان أولا ، ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده • أما المرأة فقد خلقهـا بعد فراغه من كل هذا ، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل فى أثناء نومه ، كما لو كانت مجرد فكرة خطرت له فيما بعد ••

وواضـح أن نظام خلق الكائنات من حيث قيمتها معكوس فى كلتا الحكايتين •

ففى الحكاية الأولى يبـدأ الاله بعملية خلق السمك ، ثم يمضى بعد ذلك فى خلق الطيور والوحوش حتى ينتهى الى خلق الرجل والمرأة ••

أما فى الحكاية الثانية فهو يبدأ بخلق الرجل ، ويمضى بعد هذا الى خلق الحيوانات الدنيا ، ثم يخلق فى النهاية المرأة ، التى تشير بوضـوح الى أدنى أعمال الصنعة الالهية • وليس هناك فى الحكاية الثانية أدنى اشارة الى أن كلا من الرجل والمرأة قد خلق على صورة الاله ، وانما تحكى لنا الحكاية ببسـاطة فتقول : « وجبل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » (١) ••

وبعد ذلك أراد الله أن يخفف عن الرجل وحشـته ، اذ كان يتجول دون رفيق فى الجنة الجميلة التى كانت قد صنعت من أجله ، فخلق له الطيور والوحوش ، وقدمها اليه فيما يبدو لتسليته ، ولكى تؤنس وحشته• وعند ذاك نظر الرجل اليها وسماها بأسمائها ، ولكنه كان لايزال غير راض عن رفقتها ، فخلق الله له فى النهاية ـ وكأنه كان قد يئس من أمره ـ المرآة من جزء من جسمه لا أهمية له ، وقدمها اليه لكى تكون زوجا له •

هذا التناقض البين بين القصـتين يفسره ببسـاطة أن القصتين قد استمدها الكاتب من مصدرين مختلفين ومستقلين أصلا ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد ونقلهما معا، دون أن يجهد نفسه فى أن يخفف من حدة التناقض فيهمـا أو يوائم بينهما • فقصة الخلق فى الاصـحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتى الذى ألفه كتاب كهنوتيون فى أثنـاء السبى البابلى أو بعده ••

---

(١) سفر التكوين ٢ : ٧ •

وأما قصة الخلق فى الاصحاح الثانى فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهوى الذى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين ، أى أنه ألف ـ فيما يبدو ـ فى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد • واختلاف بين وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين ، فالكاتب المتأخر أو الكهنوتى يصور الاله فى صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الانسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها فى بساطة أن تكون فكانت • أما الكاتب المتقدم ، أو اليهوى ، فقد صور الاله فى صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما يفعل الانسان ، وهو يشكل الانسان من الطين وفقا لنموذج معين ، ويزرع جنة ويسير فيها عندما يميل الجو الى البرودة ، ويطلب من الرجل والمرأة أن يظهرا من بين الأشجار التى كانا يختفيان وراءها ، ويصنع لهما أردية من الجلد ليرتدياها بدلا من الغلالات الهزيلة المصنوعة من أوراق التين التى اهتدى اليها أول أبوين لكى يخفيا بها عورتهما خجلا منها • فالبساطة الجميلة بل المرح ، فى القصة المتقدمة تتعارض مع الجدية البالغة فى القصة المتأخرة ، وان كنا لا نملك الا أن ندهش لذلك الطابع الحزين المتشائم الذى يستخفى وراء صورة الحياة البهيجة فى عصر البراءة ، تلك الصورة التى رسمها لنا الفنان اليهوى الكبير • ولم يستطع هذا الفنان بعد كل هذا أن يخفى احتقاره الشديد للمرأة ؛ فتأخر خلقها ، فضلا على الطريقة الشاذة غير المشرفة التى خلقت بها ـ اذ شكلها الاله من جزء من جسم سيدها آدم ، بعد أن خلقت صنوف الحيوان بطريقة طبيعية لائقة ـ كل هذا يشير اشارة كافية الى رأيه فى حقارة شأن المرأة • وترتيبا على هذا فان كرهه للمرأة ـ كما يمكن أن نسميه بحق ـ يضفى على القصة لونا قاتما ، وذلك حين يعزو الكاتب محنة الجنس البشرى وأحزانه الى سلوك الأم الأولى الذى يتسم بالحماقة الساذجة ، والى شهوتها التى أطلقت لها العنان ••

ولا تتميز القصة المتقدمة عن أختها المتأخرة بأنها أكثر زخرفة منها فحسب ، بل تتميز عنها ، فضلا على هذا ، بغنى عناصرها الفولكلورية ، فلقد أبقت على ملامح واضحة من البساطة البدائية ، طمسها الكاتب الثانى فى حرص • وبناء على هذا فقد تقدم من العناصر ـ فى مجال المقارنة بالحكايات البدائية الساذجة ، التى حاول الناس عن طريقها فى العصور والبلاد المختلفة أن يشرحوا اللغز الكبير لبداية الحياة على وجه الأرض أكثر مما تقدمه الحكاية الكهنوتية • سوف أورد فى الصفحات التالية بعض هذه الحكايات البسيطة ••

ويبدو أن المؤلف اليهوى قد تصور أن الاله قد شكل الرجل الأول من الطين على نحو ما يفعل صانع الفخار تماما ، أو كما يفعل الطفل حين يشكل دمية من الطين • فبعد أن عجن الاله الطين وسـواه على الصورة المعلومة ، بث فيه الروح بأن نفخ فى فم التمثال ومنخريه ، بنفس الطريقة التى يروى عن النبى اليشع أنه أعاد بها الحياة الى جسد الطفل الميت ابن الشونامية (١) ، وذلك بأن استلقى فوق الطفل ، ووضع عينيه على عينى الطفـل ، وفمه على فمـه ، وذلك لكى يمنح الجسـد بطبيعة الحال بعض أنفاسه • وبعد ذلك عطس الطفل سبع مرات وفتح عينيه • على أن فكرة العبريين فى أن الجنس البشرى يرجع فى أصله الى التراب ــ تتضح لنا على نحو طبيعى للغاية ، اذ أننـا نجد أن كلمة « أدمة » فى لغتهم ، ومعناها الأرض ، هى الصـيغة المؤنثة لكلمة أدم ، ومعناها الرجل • ويبدو من نصـوص مختلفـة فى الأدب البـابلى أن البـابليين كذلك كانوا يرون أن الانسان قد خلق من طين • فهناك رواية اغريقية احتفظت بحكاية عن أصل الخليقة « لبيروسوس » الكاهن البابلى تقـول : ان الاله « بل » (٢) قطع رأسه ، وأن سـائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب ، وخلقوا البشر من هذه العجينة المخلوطة بالدم • ولهذا السبب ، كما يقول البابليون ، كان الرجال حكمـاء كل الحكمة ، لأن الطين الذى خلقوا منه كان مخـلوطا بدم الاله • ويروى فى الأسـاطير الفرعونية أن « خنم »(٣) أبا الآلهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه الذى كان يشـكل عليه الفخار ••

وبالمثل يحكى فى الأسطورة الاغريقية أن بروميثيوس(٤) الحكيم قد خلق الانسان الأول من الطين عند بانوبيوس التى تقع فى فوكيس(٥) • وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمن طويل على شكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ••

وقد تراءى لمسـافر يونانى كان يزور هـذا المكان فى القرن الثانى

---

(١) الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ٨ ــ ٣٧ •

(٢) بل هو الاسم البابلى للآله « بعل » (المراجع)

(٣) الاله المصرى القديم خنم الذى تصوره المصريون برأس كبش واسمه مرتبط من حيث الاشتقاق اللغوى بالكلمة العربية «غنم» (المراجع)

(٤) هو خالق الجنس البشرى وبادىء الحضارة الانسانية وفقا للأسطورة الاغريقية وقد حكم عليه الاله زيوس بالنفى الى جبال القوقاز ، حيث أخذ نسر ينهش لحمه ، لأنه كان قد سرق النار وأحضرها للبشر • ثم أطلق هرقل سراحه فيما بعد • (المترجمة)•

(٥) اقليم كان يتوسط بلاد الاغريق فى الزمن القديم • (المترجمة)

الميلادى أن الصخرتين كانتا بلون الطين ، وأن رائحة اللحم البشرى كانت تفوح منهما قوية ٠

وقد قمت أنا كذلك بزيارة هذا المكان بعد ذلك بما يقرب من سبعة عشر قرنا ونصف قرن ، فوجدته واديا مهجورا ، أو بالأحرى تجويفا يقع على الجانب الجنوبى من تل بانوبيوس ، فى أسفل صف من الآثار المتهدمة وان كانت لاتزال تبدو فى شكل حوائط متماسكة وقلاع تتوج صخور القمة الرمادية ٠ لقد كان يوما قائظا فى أواخر أيام الخريف ، هو اليوم الأول من شهر نوفمبر ، وقد بدا الوادى جافا كل الجفاف بعد صيف طويل لم تسقط فيه الأمطار فى بلاد اليونان ٠ ولذلك لم تكن قطرات المياه تتساقط على جانبيه المليئين بالأدغال ، ولكنى أبصرت فى قاع الوادى تربة مفتتة مائلة الى الاحمرار ، ربما كانت مخلفات أثرية من الطين الذى خلق منه بروميثيوس أول أبوين على وجه الأرض ٠ وقد كان المكان موحشا مهجورا ، اذ لم يكن هناك أثر لانسان أو لمسكن سوى صف من القلاع العفنة ، وشرفات تطل من فوق التل تحكى عن الحياة المصطخبة التى ولت منذ زمن طويل ٠ فالمنظر كله ــ شأن كثير من مناظر اليونان ــ كان ملائما لأن يثير فى النفس احساسا بحياة الانسان القصيرة الصاخبة اذا هى قيست بدوام الطبيعة وهدوئها وأمنها الظاهرى على الأقل ٠ وقد ازداد هذا الاحساس عمقا فى نفسى حينما خلدت الى الراحة فى قيظ ذلك اليوم على قمة التل فى ظل بعض أشجار البلوط الجميلة الدائمة الخضرة ، ونفذت ببصرى فى المنظر البعيد الغنى بذكريات الماضى ، فى حين كانت رائحة الزعتر البرى تفوح فى الأرجاء ٠ وفى الجنوب كانت ذروة جبل هيليكون المنحوتة نحتا دقيقا تشرف على سلسلة التلال المنخفضة التى يتداخل بعضها فى بعض ٠ أما فى الغرب فقد برزت كتلة جبل بارناسيوس الصخرية الهائلة ، وقد غطت أشجار الصنوبر منحدراته الوسطى ، كما لو كانت ظلالا من السحب تكسوها النباتات المتسلقة ، وقد أشرفت على الوادى العميق الذى يتلاءم جماله الرومانسى كل التلاؤم مع أفراح بروكنى وفيلوميلا(١) وأحزانهما، وهما الشخصيتان اللتان ربطت بينهما الأسطورة الاغريقية وبين هذا المكان ٠٠

---

(١) «فيلوميلا» هى ابنة الملك الأثينى «بانديون» وفقا للأسطورة الاغريقية ٠ وقد سلبها «بيروس» زوج اختها «بروكنى» شرفها ثم انتزع لسانها حتى يظل حبه لها سرا خافيا ٠ ولكن «بروكنى» انتقمت من «بيروس» بأن قتلت ابنه ٠ وأخذ «بيروس» بعد هذا يتعقب الأختين ، ولكن الآلهة حولت بروكنى الى بلبل كما حولت فيلوميلا الى طائر السنونو وبذلك استطاعتا أن تهربا منه ٠ (المترجمة)

أما فى الشمال عبر السهل الفسيح الذى ينحدر اليه تل بانوبيوس العارى ، فان العين تستقر على فجوة فى التلال يشق فيها نهر سيفيسيس طريقه المتعرج وهو يتدفق أسفل أشجار الصفصاف الرمادية التى تقع فى سفح التلال الصخرية العارية ، حتى تختفى مياهه العكرة لا فى مستنقعات بحيرة كوبياك الممتدة النحيلة التى اختفت الآن ، ولكن فى كهف مظلم يقع داخل صخرة من الحجر الجيرى • وفى الشرق يتصل حطام شايرونيا ، حيث ولد بلوتارك ، بمنحدرات سلسلة الجبال العارية التى يكون تل بانوبيوس جزءا منها • هناك فى هذا السهل قامت المعركة الفاصلة التى انتهت بخضوع الاغريق لمقدونيا ، وهناك أيضا اشتبك الشرق والغرب فى الأزمنة الغابرة فى معارك دامية ، انتهت بهزيمة جيوش ميثريداتس (١) الآسيوية على يد جيوش روما بقيادة سولا • لقد كان هذا هو المنظر الذى بدا أمام عينى فى أحد أيام الخريف الأول التى تثير روعتها النفس ، عندما كان الصيف المدبر ما زال ينسحب فى ادلال ، كما لو كان يشق عليه أن يترك للشقاء جبال اليونان الساحرة • وفى اليوم الثانى تغير المنظر ، اذ كان الصيف قد ولى • وأطل ضباب شهر نوفمبر الرمادى على التلال التى كانت حتى الأمس تتألق فى ضوء الشمس • وتحت ستائره الحزينة اكتسى سهل شايرونيا المنبسط الهامد ، الذى يخلو من الأشجار ، وتحيط به المنحدرات الموحشة من كل جانب ــ اكتسى بحزن رهيب يتفق مع المعركة التى فقدت فيها أمة حريتها •

اننا لا نستطيع أن نشك فى أن مثل هذه الأفكار الساذجة عن أصل الانسان التى كانت مألوفة لدى الاغريق والعبريين والبابليين والمصريين القدماء ، قد انتقلت الى الشعوب المتحضرة القديمة عن طريق أجدادهم الهمجيين أو المتبربرين • فمن المؤكد أن مثل هذه الحكايات رواها الهمجيون الذين يعيشون اليوم أو كانوا يعيشون بالأمس ، فقد حكى سكان استراليا السود ، الذين يقطنون ضواحى « ملبورن » ، أن « بند ــ جل » الخالق ، قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينه الكبير ، ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح ، وأخذ يسويه بسكينه حتى صار قوامه معتدلا ،

---

(١) «ميثريداتس» أو «ميثراداتس» ملك بونطوس • حكم فيما بين ١٣٢ الى ٦٣ ق٠م٠ وقد سولت له أطماعه أن يستولى على آسيا الصغرى • فاشتبك مع الجيوش الرومية بقيادة «سولا» من سنة ٨٨ الى ٨٥ ق٠م٠ وهزم «سولا» «ميثريداتس» واضطره الى اللجوء الى زوج ابنته فى أرمينيا • وظل الرومانيون يتعقبونه حتى قتل فى مملكته •

(المترجمة)

ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان، فصنع الأقدام فى أول الأمر ، ثم الأرجل فالجذع فالأذرع فالرأس · وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر ، وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا · وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الديكاليبتوس وصنع منها شعرا لصقه فى رأسى رجليه المصنوعين من الطين · ثم نظر اليهما مرة أخرى وأعجب بعمله ، ورقص من حولهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته · وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنفه وسرته · وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو ·

ويحكى الماءوريون ، سكان نيوزيلندة ، أن آلها معينا يسمى بأسماء مختلفة هى تو ، وتيكى ، وتانى ، أخذ طينا أحمر من جانب النهر وعجنه بدمه ، وشكله على صورته ، بعينين ورجلين وذراعين وغير ذلك من الأعضاء · بحيث أصبحت الصورة مطابقة للاله · وبعد أن أتقن صنع نموذجه ، بعث فيه الحياة بأن نفخ فى فمه ومنخره · وفى الحال اكتسبت الدمية الطينية الحياة وعطست · ولقد كان الرجل الذى صنعه « تيكى » اله الماءوريين شديد الشبه به الى درجة أنه سماه « تيكى أهوا » أى شبيه تيكى ··

ومن الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى أن الاله « تاروا » ، الاله الأكبر ، خلق أول زوجين · فهو بعد أن خلق العالم ، كما يقولون ، خلق الانسان من الطين الأحمر الذى كان الانسان يستخدمه كذلك فيما بعد طعاما له ، وذلك قبل أن يزرع الثمار التى صنع منها الخبز · ويحكى بعض سكان تاهيتى أن « تاروا » نادى الرجل باسمه ، فلما جاء اليه سلط عليه النوم · فلما استغرق فى نومه انتزع منه عظمة من عظامه (وتسمى العظمة فى لغتهم «ايفى») ، وصنع منها امرأة قدمها الى الرجل ليتخذ منها زوجة له · ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية فيما بعد · وقد دونت هذه الرواية من أفواه أهالى تاهيتى فى السنين الأولى من وفود المبشرين اليهم · ويعلق المبشر « وليم اليس » على هذه القصة التى دونها بنفسه قائلا : « ان القصة تبدو لى مجرد سرد للحكاية الموسوية عن الخليقة ، تلك الحكاية التى سمعها الأهالى من الأوربيين · ولكننى لم أعول على هذه الرواية ، على الرغم من أن الأهالى ذكروا لى مرارا أنها حكاية مأثورة عرفوها قبل أن تطأ قدم أى أجنبى أرض بلادهم · كما قرر بعضهم أن المرأة كان اسمها ايفى Ivi · وهم ينطقون هذه الكلمة حسبما تكتب كلمة Eve أى « ايف » · وايفى Ivi كلمة أصلية فى لغتهم ، وهى لا تعنى العظمة

فحسب ، بل تعنى كذلك الأرملة ، كما أنها تعنى ضحية الحرب . وعلى الرغم من تأكيد الأهالى لهذه المعانى ، فاننى أميل لأن أعتقد أن كلمة Evi أو Eve ، هى الجزء الأصلى الوحيد فى القصة ، وذلك فى نطاق علاقتها بالأم الأولى للجنس البشرى » . ومهما يكن من شىء فان هذه الحكاية المأثورة بعينهـا قد دونت فى مناطق أخرى من بولينيزيا الى جانب تدوينهـا فى تاهيتى ، فأهالى فاكاؤمو أو جزيرة بادويتش يقولون:ان الرجل الأول خلق من حجر ، وأنه قرر بعد مرور فترة من الزمن أن يخلق امرأة ، فجمع ترابا وشكله فى صورة امرأة ، ثم انتزع ضلعا من جنبه الأيسر وزج به فى تمثال المرأة ، فدبت فيها الحياة توا ، وأطلق عليها اســـم « ايفى » أى الضلع ، واتخذ منها زوجة له ومنهما معا تناسل الجنس البشرى فيما بعد. وقد روى كذلك أن الماءوريين يعتقدون أن المرأة الأولى قد خلقت من ضلوع الرجل الأول . وانتشار هذه الحكاية على هذا النحو فى بولينيزيا يثير الشك فيما اذا كانت ، كما اعتقد « اليس » ، مجرد تكرار لحكاية الكتاب المقدس كما سمعها الأهالى عن الأوربيين أم لا .

وعلى كل فان قصة خلق أول امرأة من ضلع أول رجل تصادفنا فى أماكن أخرى فى شكل روايات شديدة الشبه بحكاية الكتاب المقدس ، الى درجة أننا لا يمكن أن نعدها مستقلة عنها . فالكارينيون سكان بورما يقولون : « ان الله خلق الرجل ، ولكن من أى شىء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق الرجل من التراب ، ثم أتم من بعده عملية الخلق ثم خلق المرأة ، ولكن من أى شىء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضلاع الرجل وخلق منه المرأة » . ومرة أخرى نجد التتار البيدليين سكان سيبيريا يروون حكاية مأثورة ، مؤداها أن الله فى بادىء الأمر خلق الرجل الذى عاش وحده على وجه الأرض . وأنه بينما كان الرجل ينام وحده ذات مرة ، لمس الشيطان صدره ، فبرزت عظمة من بين ضلوعه ، وحينما سقطت على الأرض أخذت تنمو ، وصارت المرأة الأولى .

وهنا نلاحظ أن التتار قد عمقوا نغمة الســخرية عند كاتب ســفر التكوين حينما جعلوا للشيطان يدا فى خلق أمنا الأولى . ولنعد مرة أخرى الى أقاليم المحيط الهادى ..

ويروى سكان « جزر بيليو » (١) أن أخا وأخته صنعا رجالا من طين

---

(١) جزر « بالاو » أو « بيليو » وهى مجموعة جزر فى المحيط الباسفيكى وتبعد عن الفيليبين بحوالى ٥٥٠ ميلا . (المترجمة)

عجن بدماء صنوف من الحيوان ، وأن شخصيات هؤلاء الرجال الأولين ونسلهم تحددت وفقا لخصائص صنوف الحيوان التى مزجت دماؤها بالطين الأصلى ، فالرجال الذين امتزج طينهم بدم الفيران أصبحوا لصوصا ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الثعابين اتصفوا بالغدر ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الديوك اتصفوا بالشجاعة · ووفقا لأسطورة مالينيزية تروى فى جزيرة « موتا » احدى « جزر البانك » (١) أن البطل « كات » خلق الرجال من الطين ، وعلى وجه التحديد من الطين الأحمر ، الذى أخذه من شواطىء النهر التى تكثر فيها المستنقعات عند « فانوا لافا » · وقد صنع « كات » فى بادىء الأمر الرجال والخنازير متشابهين ، ولكن اخوته ثاروا ضده لهذا السبب ، فضرب الخنازير وجعلها تسير على أربع ، فى حين جعل الرجل يسير على قدميه فحسب · أما المرأة الأولى فقد صنعها « كات » من غصن لدن ، فلما ابتسمت عرف أن الحياة قد دبت فيها · وقد أطلق أهالى « ماليكولا » احدى جزر الهبريد الجديدة (٢) ، اسم « بوكور » على الخالق الكبير آلذى خلق أول رجل وامرأة من الطين ··

ويروى سكان اقليم نو ـ هو ـ روا ، الذى يقع فى جزر «كاى» (٣) أن الاله الأعلى « دوادليرا » خلق أجدادهم من الطين ، بعد أن نفخ فى أجسادهم الطينية أنفاس الحياة · ووفقا للتورادجيين ، سكان « سيلبس الوسطى » (٤) ، الذين يتحدثون اللغة البارئية ، أنه لم يكن هناك فى البداية أى كائن حى على وجه الأرض ، ثم قرر « اى لاى » ، اله العالم العلوى ، و « اى ندارا » ، الهة العالم السفلى ، أن يخلقا البشر ، فأسندا هذا العمل الى « اى كومبينجى » الذى صنع نموذجين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة من الحجر وفقا لأحد الآراء ، أو من الخشب وفقا لرأى آخر · وبعد أن أتم « اى كومبينجى » عمله ، أوقف النموذجين على جانب الطريق

---

(١) « جزر البانك » وهى مجموعة من الجزر الصغيرة ويبلغ عددها خمسا وتقع فى الجنوب الغربى من المحيط الباسفيكى · وأهم هذه الجزر جزيرة فانوا ولافا وموتا وجاوة ·

(المترجمة)

(٢) مجموعة جزر تقع فى المحيط الهادى وسكانها الأصليون من الميلانيزيين ·

(المترجمة)

(٣) مجموعة جزر أندونيسية وأكبرها جزيرة «توهو ـ شوت» · (المترجمة)

(٤) احدى الجزر الأندونيسية الكبرى · (المترجمة)

الذى يوصل العالم العلوى بالعالم السفلى ، حتى يتسنى للأرواح العابرة أن ترى صنعه وتحكم عليه ٠وفى المساء اجتمعت الآلهة لتتداول الرأى حول خلق النموذجين ، واتفقوا على أن سمانة ساق كل من الرجل والمرأة ليست مستديرة استدارة كافية ٠ وعندئذ صنع « اى كومبينجى » نموذجين آخرين وعرضهما على الآلهة لتبدى رأيها فيهما ، فلاحظت الآلهة هذه المرة أن البطن فى كلا النموذجين منتفخة الى حد كبير ٠ ولهذا صنع « اى كومبينجى » للمرة الثالثة نموذجين رضيت عنهما الآلهة بعد أن أحدث تعديلات طفيفة من الناحية التشريحية ، وذلك بأن قام بنقل جزء من جسم الذكر الى المرأة ٠ ولم يبق بعد ذلك سوى أن تدب الحياة فى النموذجين ٠ وعندئذ صعد الاله « لاى » الى مسكنه فى المساء لكى يحضر النفس الأبدى لكل من الرجل والمرأة ٠ ولكنه ـ فى أثناء هذا ـ ترك الريح ، اما نتيجه غفلة منه ، أو لأنه كان فى عجلة من أمره ، تهب على النموذجين ، حاملة معها الأنفاس والحياة اليهما ، فاستنشقهما النموذجان بدورهما ٠ وهذا هو السبب فى أن نفس الانسان يعود الى الريح عندما يموت ٠ ويروى « الدياكيون » (١) ، الذين يسكنون « ساكاران » فى جزيرة بورنيو التابعة للاحتلال البريطانى ، ان أول رجل على وجه الأرض خلقه طائران كبيران ٠ وقد حاول هذان الطائران أن يخلقا البشر من الشجر فى بادىء الأمر ، ولكن دون جدوى ، فنحتوا أشكالهم من الصخور ولكنها كانت خرساء ٠ عندئذ شكلا رجلا من الطين ، ودفعا فى عروقه صمغ شجرة الكومبانج الأحمر ، وناداياه فرد عليهما ، فلما جرحاه تدفق الدم من جروحه ٠ عندئذ أطلقا عليه اسم « تانا كومبوك » أى « الطين المشكل » ٠ على أن بعض « الدياكيين » يروون حكاية أخرى مخالفة لهذه الحكاية ، فهم يعتقدون أن الها بعينه اسمه « سالا مبانديا » هو الذى قام بخلق البشر ، اذ أخذ يشكل الطين بمطرقته حتى سوى أجساد الأطفال الذين كان مقدرا لهم أن يولدوا فى الحياة ٠ وعندما يسمع الدياكيون صوت حشرة عندهم تحدث صلصلة غريبة فى الليل فانهم يقولون : انه صوت مطرقة « سلامبانديا » وهو يقوم بعمله ٠ ثم تستمر القصة فتحكى أن الآلهة أمرت « سلامبانديا » أن يصنع رجلا ، فصنعه من الحجر ٠ ولكن التمثال كان أخرس ، ولذلك فقد رفضته الآلهة ٠ فاستأنف « سلامبانديا » العمل وشكل رجلا من الحديد ولكنه كان أخرس كذلك ٠ ولهذا رفضته الآلهة كما

---

(١) هم سكان جزر الملايو الأصليون ٠ وتعد « بورنيو » من أكبر جزر الملايو ٠ (المترجمة)

رفضت التمثال الأول · وفى المرة الثالثة صنع سلامباندیا رجلا من الطين كانت له القدرة على الكلام ، فسرت به الآلهة وقالت له : « ان الرجل الذى صنعته يبشر بالخير ، فلتجعل منه جدا للجنس البشرى ، وعليك أن تصنع أشــكالا مثله » · عنــدئذ بدأ « سلامبانديا » فى صنع النماذج البشرية ـ وهو مازال يقوم بصنعها مستعينا بسندانه وآلاته ـ فى مناطق مجهولة · فهو هناك يشــكل الطين فى شكل أطفال ، وكلما فرغ من صنع أحدهم أحضره الى الآلهة ، فتوجه اليه الآلهة هذا السؤال : « ما الشىء الذى تود أن تمسك به وتستعمله ؟ » فاذا هو أجاب بقوله : « السيف » نادت به الآلهة ذكرا ، أما اذا أجاب بقوله : « القطن ودولاب الغزل » ، نادت به أنثى · ومعنى هذا أن الأطفال قد ولدوا ذكورا أو اناثا وفقا لرغباتهم ··

ويحفظ أهالى « نياس » ، وهى جزيرة تقع فى الجنوب الغربى من سومطرة ، قصيدة طويلة تصف قصة الخلق ، وينشدونها عندما يرقصون فى أثناء الاحتفال الجنــائزى لوفاة أحد زعمائهم · وفى هذه القصــيدة ـ المؤلفة على نظام المزدوجات مثل نظام الشعر العبرى ، حيث يعيد جزؤها الثانى فكرة الجزء الأول بعبارات أخرى مختلفة بعض الشىء ـ نقرأ أن الاله الأعلى « ليوزاهو » عندما كان يستحم فى نبع سماوى ، انعكست صورته فى مياهه الصافية كالمرآة ، فلما أبصر صورته فى الماء ، أخذ حفنة من التراب فى حجم البيضة وشكلها فى صورة تشبه صور الأجداد ، تلك التى كان أهالى « نياس » يصنعونها · وحين فرغ من ذلك وضع هذا التمثال فى كفة ميزان ووزنه ، ثم وزن الريح كذلك ، ووضعها بعــد وزنها على شفتى التمثال الذى صنعه · عند ذلك تحدث التمثال على نحو ما يتحدث الرجل أو على نحو ما يتحدث الطفل ، وأطلق عليه الاله اسم « سيهاى » · وعلى الرغم من أن « سيهاى » كان يشــبه الاله فى شكله فانه لم يعقب ذرية · وقد كانت الدنيا آنذاك مظلمة ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر قد خلقا بعد ، فتدبر الاله الأمر وأرسل « سيهاى » الى الأرض ، ليعيش فى بيت شيد من أشجار السرخس · ولكن « سيهاى » توفى ظهر يوم ، قبل أن يرزقه الله بزوجة أو ولد ، ولكن شــجرتين نبتتــا من فمه ، وأينعتا وأزهرتا ، وهز الريح الزهر فتساقط على الأرض ، ومن هذا الزهر نشأت الأمراض · ثم نبتت من حنجرة « سيهاى » شجرة كان يستخلص منهــا الذهب ، كما نبتت من قلبه شجرة أخرى ينتسب اليها الرجال · وفضلا على ذلك فقد بزغت الشمس من عينه اليمنى وبزغ القمر من عينه اليسرى ·

وفي هذه الأسطورة نلاحظ أن فكرة خلق الانسان فى صورة الاله تراءت للخالق بعد أن رأى صورته منعكسة على صفحة النبع الصافى ٠

وتحكى قبيلة « بيلا ــ آن » البدائية ، وهى قبيلة من قبائل « منداناو » ، احدى جزر الفيلبين ، قصة خلق الانسان الأول كما يلى : كان هناك فى بداية الحياة كائن بعينه يدعى « ميلو » ، وكان ضخما للغاية ، الى درجة لا يمكن مقارنته بشيء معلوم لدينا ٠ وكان هذا الكائن أبيض اللون ، ذا أسنان ذهبية ، وكان يجلس فوق السحب فيشغل كل أجواز السماء ٠ وحيث انه كان بطبعه نظيفا للغاية فقد كان دائم التدليل لنفسه حتى يحتفظ ببياض جلده نقيا ٠ وكان يلقى بجانبه القشور التى يزيلها من جسمه ، حتى تجمعت منها كومة أزعجه منظرها ، فخلق منها الأرض لكى يتخلص منها ٠ ولما سر بعمله هذا قرر أن يصنع شكلين يشبهانه ولكن دونه حجما ٠ وقد شكلهما مطابقين له كل المطابقة ، وذلك من القشور التى سبق له أن خلق منها الأرض ٠ وقد كان هذان الشكلان أول مخلوقين بشريين ٠ وبينما كان هذا الخالق يقوم بعمله ، فأتم صنع أحد النموذجين فيما عدا أنفه ، كما أتم صنع النموذج الثانى فيما عدا أنفه وجزءا آخر منه ، جاءه « تاو دالوم تانا » وطلب منه أن يسمح له بأن يصنع أنفى الشكلين ٠ وبعد جدل عنيف بينه وبين الخالق حول هذا الموضوع انتهى « تاو دالوم تانا » الى صنع الأنفين ٠ ولكنه حينما شاء أن يركبهما على وجهى أول أبوين فانه وضعهما على نحو معكوس ٠ ومرة أخرى دب الخلاف العنيف بين الخالق ومساعده حول تركيب الأنفين الى درجة أن الخالق نفسه نسى كلية أن يكمل الجزء الباقى من الشكل الثانى ، وصعد الى مكانه فوق السحاب ، تاركا نموذج الرجل الأول أو المرأة الأولى (فالقصة لم تحدد النوع) ناقصا ، كما هبط « تاو دالوم تانا » الى عالمه السفلى ٠ ثم أخذت أمطار غزيرة تهطل بعد ذلك ، الى درجة أن كاد يهلك أول مخلوقين بشريين، لأن المياه أخذت تتدفق على قمة رأسيهما متخللة أنفيهما المعكوسين ٠ ولحسن الحظ أبصر الخالق النموذجين فى هذا الموقف الحرج ، فخف لنجدتهما وخلع أنفيهما وأعادهما الى وضعهما الطبيعى ٠٠

وتحكى قبيلة « الباجوبوس » ، وهى قبيلة وثنية تقطن جنوب شرق « ميندناو » أن خالقا بعينه يدعى « ديواتا » قد خلق فى بداية الحياة البحر والأرض وغرس أشجارا مختلفة الأنواع ، ثم أخذ حفنتين من تراب وشكلهما فى هيئة شكلين آدميين ، ثم بصق عليهما فتحولا الى رجل وامرأة ٠ أما الرجل الشيخ فسمى « توجلاى » ، وأما المرأة العجوز

فسميت « توجليبنج » . ثم تزوجا ، وابتنى الرجل بيتا عظيما وزرع أنواعا متعددة من الحبوب التى كانت المرأة قد قدمتها اليه .

وقد حكى « الكوميون » الذين يسكنون بقاعا من « أراكان » وتلال « وتشيتاجونج » فى الهند الشرقية ، حكوا للكابتن « لوين » الحكاية التاليه عن خلق الانسان ، التى تقول : ان الله خلق العالم والأشجار والحيوانات الزاحفة فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك شكل رجلا واحدا وامرأة واحدة من الطين . على أن حية كانت تتسلل فى كل ليلة ، بعد أن يفرغ الاله من عمله ويخلد للنوم ، وتبتلع النموذجين اللذين صنعهما الاله . وتكرر حدوث هذا مرتين أو ثلاثا ، حتى كاد الاله أن يفقد صوابه ، اذ كان عليه أن يعمل طوال اليوم ، ولم يكن فى وسعه أن يتم صنع النموذجين فى أقل من اثنتى عشرة ساعة . واذا هو لم يسترح بعد تعب النهار «فان حالته تسوء » ـ على حد تعبير القصاص الكومى ـ ولهذا فقد كاد الاله أن يفقد صوابه كما ذكرت ، ولكنه فى نهاية الأمر استيقظ مبكرا ذات صباح ، وشكل نموذجا لكلب وبث فيه الحياة ، وعينه حارسا على النموذجين الآدميين . فلما تسللت الحية اليهما نبح الكلب فهربت الحية فزعا . وهذا هو السبب فى أن الكلاب تأخذ فى النباح عندما يحتضر الانسان . على أن « الكومين » يعتقدون أن الاله فى هذه الأيام يغط فى نوم عميق ، أو أن الحية صارت أشجع مما مضى ، وذلك لأن الناس يموتون على الرغم من نباح الكلاب . ولو لم ينم الاله لما كان هناك مرض أو موت ، فالحية لا تأتى وتنتزعنا الا فى أثناء الفترة التى ينام فيها الاله . وشبيه بهذه الحكاية حكاية يرويها الخاسيون « سكان أسام » . فهم يقولون : ان الله خلق الرجل فى بادىء الأمر ووضعه على الأرض ، وعندما عاد ليعيد النظر فيما صنعته يداه وجد أن الروح الشريرة قد حطمت الرجل ، فلما حدث هذا مرة أخرى خلق الاله الكلب أولا والرجل ثانيا ، فسهر الكلب على حراسة الرجل ، ومنع الروح الشريرة من أن تصيبه بأذى . وبهذا أبقى على عمل الاله .

وقد برزت هذه الحكاية نفسها ملونة بمسحة طفيفة من الميثولوجيا الهندوكية عند قبيلة « كوركوس » ، وهى قبيلة عريقة تقطن الأقاليم الوسطى فى الهند . وخلاصة هذه الحكاية أن « راوان » ، ملك « سيلان » الشيطان ، لاحظ أن سلسلة جبال « فندهيان » و « ساتبورا » غير مأهولة، فتضرع الى الاله الكبير « ماهاديو » أن يعمرها بالسكان . عندئذ أرسل « ماهاديو » ، الذى يعنون به « سيفا » ، غرابا لكى يبحث له عن كثيب الرمال ذى التربة الحمراء ، فعثر الطائر على هذا الكثيب بين جبال

« بيتول » • عندئذ رحل الاله الى هذا المكان ، وأخذ حفنة من التربة الحمراء وصنع منهـا تمثالين لرجل وامرأة • ولم يكد الاله يفعل هـذا حتى بزغ حصانان ناريان من الأرض ، أرسلهما « اندرا » ، فأحالا التمثالين الى تراب • وعاود الاله المحـاولة فى يومين متتاليين ، ولكن تماثيله كانت تتحطم بمجرد فراغه من عملها • وأخيرا صنع الاله تمثالا لكلب ونفث فيه أنفاس الحياة ، فاستطاع الكلب أن يبعد حصانى « اندرا » الناريين عن التمثالين • ومن ثم تمكن الاله من أن يصنع تمثالى الرجل والمرأة دون ازعاج ، ومنحهما الحياة وسماهما « مولا » و « مولاى » • وقد أصبح هذا الرجل وهذه المرأة الأبوين الأولين لقبيلة « كروكوس » •

ويروى عن قبيلة « موندا » ، وهى قبيلة بدائية قديمة فى « شوتانجبور » ، حكاية شبيهة بالحكاية السابقة مع بعض الاختلاف المثير، تقول : ان اله الشمس الذى يدعى « سنجبونجا » قد شكل تمثالين من الطين : أحدهما فى صورة رجل ، والآخر فى صورة امرأة ، ولكنه قبل أن يمنحهما الحيـاة داسهما الحصان بحوافره ، ناظرا بعين المستقبل الى ما يمكن أن يلقاه منهما من متاعب • وقد كان للحصـان فى تلك الأيام أجنحة ، وكان فى وسعه أن يركض أسرع منه فى هذه الأيام • ولما رأى اله الشمس أن الحصان قد حطم تمثاليه خلق حشرة العنكبوت أولا ، ثم عاد فشكل تمثالين آخرين شبيهين بالتمثالين اللذين داسهما الحصان بحوافره ، وأمر العنكبوت بأن يحرسهما ، فنسج العنكبوت خيوطه حول التمثالين بطريقة لم تمكن الحصـان من أن يدوس التمثالين مـرة أخرى بحوافره • وبعد ذلك تمكن اله الشمس من أن ينفث الحياة فى التمثالين اللذين أصبحا أول بشرين على وجه الأرض ••

ويحكى « الشيريميون » فى روسيا ، وهم قوم من أصل فنلندى ، حكاية عن خلق الانسان تذكرنا بحوادث فى أساطير الهنود و «التورادجيين» عن الخلق • فهم يروون أن الاله شكل جسم الانسان من الطين ، ثم صعد الى السماء ليحضر الروح الذى يحيى به الانسان ، بعد أن ترك الكلب يحرس التمثال فى غيابه • ولكنه ما أن تجاوز مكان التمثال ، حتى اقترب الشيطان من التمثال وأثار ريحا باردا على الكلب ، واستطاع أن يرشوه برداء من الفرو كى يتنحى عن حراسة التمثال • وبعد ذلك بصق الشيطان على التمثال فلوثه بطريقة غاية فى القذارة ، الى درجة أن الاله عنـدما أبصر ذلك ، لم يتمكن من تنظيفه ، ووجد نفسه مضطرا لأن يقلب التمثال ظهرا لبطن • وهذا هو السبب فى أن باطن الانسان قد أصبح قذرا كل

القذارة . وفى ذات اليوم نفسه صب الاله اللعنة على الكلب جزاء اهماله الذى استحق عليه العقاب .

فاذا انتقلنا الى افريقيا فاننا نجد أن أسطورة خلق الانسان من الطين تنتشر بين قبائل الشلوك التى تسكن اقليم النيل الأبيض . وتفسر أساطيرهم بطريقة بارعة اختلاف ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة باختلاف ألوان الطين الذى خلقت منه . فيروى فى حكاياتهم أن الخالق « جووك » شكل الناس جميعا من التراب ، وأنه كان يتجول فى أنحاء العالم ، فى أثناء قيامه بعمله . ففى بلاد الأجناس البيضاء عثر على تراب أو رمل أبيض نقى ، فشكل منه الناس ذوى البشرة البيضاء .. ثم وفد على أرض مصر ، فشكل من طمى النيل أناسا ذوى بشرة حمراء أو بنية .. وأخيرا وصل الى أرض الشلوك ، ووجد بها تربة سوداء ، فشكل منها الناس ذوى البشرة السوداء .

وقد اتبع الاله « جووك » الطريقة الآتية فى تشكيل النموذج الانسانى : كان يأخذ حفنة من التراب ويقول لنفسه : سأشكل نموذجا للانسان بشرط أن يكون قادرا على السير والجرى والخروج الى الحقول ، ولهذا سأمنحه رجلين طويلتين كرجلى طائر « البشروش » فلما فرغ من صنع الرجلين قال لنفسه مرة أخرى : « ولا بد أن يكون هذا الانسان قادرا على أن يزرع الذرة ، ولهذا فسأمنحه ذراعين : ذراعا تحمل الفأس ، وأخرى تنتزع العشب الضار بالزرع » . ومن ثم صنع له ذراعين . ثم تدبر الأمر مرة ثالثة وقال : « ولا بد لهذا الانسان أن يرى النبات ، ولهذا فسأمنحه عينين » . وركب له عينين فى وجهه . ثم قال بعد ذلك : « ولا بد أن يكون قادرا على أكل مالديه من ذرة ، ولهذا فسأمنحه فما» . ومنحه الفم . ثم تدبر الأمر وقال: « ولا بد أن يكون الرجل قادرا على الكلام والرقص والغناء والصراخ، ولكى يستطيع أن يفعل كل هذا فهو فى حاجة الى لسان » . ثم ركب له لسانا . وأخيرا قال الاله لنفسه : « ثم لابد أن يكون الانسان قادرا على سماع ضجيج الرقص ، وحديث العظماء من الرجال ، ولهذا فهو فى حاجة الى أذنين » . ثم ركب له أذنين وبعث به على هذا النحو انسانا كاملا الى الحياة . ويحكى « الفانيون » الذين يسكنون فى غرب افريقيا ، أن الله خلق الانسان فى بادىء الأمر على شكل سحلية من الطين ، ثم وضعه فى حوض به ماء مدة سبعة أيام . وفى نهاية اليوم السابع صاح به وقال له : « اصعد من الماء » . فبرز من الماء شكل

فى هيئة رجل لا فى هيئة سحلية . وتعتقد القبائل التى تسكن « توجولاند » فى غرب افريقيا ، وتتحدث لغة قبائل « ايوى » (١) ، ان الاله مازال حتى اليوم يشكل الناس من الطين ، فاذا تبقى قليل من الماء الذى يبلل به التراب ، سكبه على الأرض ، وخلق منه الأشرار والعصاة من الناس . فهو حينما يود أن يخلق انسانا صالحا ، فانه يشكله من طين جيد ، أما عندما يود أن يخلق انسانا شريرا ، فانه يشكله من الطين الردىء . وقد شكل الاله الرجل فى بداية الأمر ، وأوقفه على الأرض ، ثم شكل المرأة من بعده . فنظر الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر ، وشرعا يضحكان ، فبعث الاله بهما اثر ذلك الى الحياة .

وكذلك يروى « الاسكيمو » والهنود الذين يسكنون فيما بين الاسكا وبراجواى فى أمريكا أسطورة خلق الانسان من الطين . فالاسكيمو الذين يسكنون فى «بوينت بارو» فى الاسكا يقولون انه مضى زمن على الوجود لم يكن فيه رجل على وجه الأرض ، واستمر الأمر كذلك الى أن جاء روح بعينه اسمه « آسى لو » فأقام فى « بوينت بارو » ، وشكل رجلا من الطين ، ثم وضعه على الشاطىء ليجف ثم نفخ فيه أنفاسه ومنحه الحياة . ويحكى قوم آخرون من اسكيمو الاسكا أن الغراب شكل أول امرأة من الطين لكى تكون رفيقا لأول رجل ، ثم ألصق فى مؤخر رأسها عشبا مائيا لكى يكون لها شعرا ، ثم نشر جناحيه على التمثال الطينى فانتصب امرأة شابة جميلة . وقد حكى الهنود « الاكاجشميم » فى كاليفورنيا ان كائنا مهولا كان يدعى « شينجشنيش » خلق الانسان من الطين الذى وجده على شواطىء احدى البحيرات . وقد قام بخلق الرجل والمرأة من الطين ، وعنهما تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم فى تلك البقاع .

وقد قامت شخصية غامضة تدعى « العارف بالأرض » بخلق أول رجل وامرأة وذلك وفقا لرواية الهنود « المايدو » الذين يسكنون كاليفورنيا وقد هبطت هذه الشخصية من السماء عن طريق حبل مصنوع من الريش ، وكان جسمه يشرق كالشمس وان كان قد أخفى وجهه فلم يره أحد قط .

---

(١) « ايوى » مجموعة من القبائل التى تنتمى الى الزنوج السودانيين وتقطن فى جنوب « تونجو » و « داهومى » . وهى تكون منذ عام ١٩٥٧ العنصر السائد فى جمهورية « تنجو » .

(المترجمة)

وفى عصر أحد الأيام أخذت هذه الشخصية كمية من التراب الأحمر الداكن ومزجتها بالماء ، وصنعت منهـا شكلين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة • وعندما عادت هذه الشخصية الى مسـكنها العلوى وضعت الرجل عند جانبها الأيمن ، والمرأة عند جانبها الأيسر ، ورقدت بينهما ، وأخذ العرق يتصبب منها طوال عصر هذا اليوم وفى أثناء الليل • وفى الصباح الباكر أخذت المرأة تدغدغ جنبها ، ولكنها ظلت ساكنة ولم تستسلم للضحك • ثم نهضت بعد قليل وغرست قطعة من الخشب مطلية بالقار فى الأرض ، فاندلعت النار فى الحال • وقد كان الزوجان المخلوقان ناصعى البياض ، وليس فى الناس اليوم من يماثلهما فى نصاعتهما • وكذلك كانت عيونهما وردية وشعرهما أسود وأسنانهما براقة ، كما كانا غاية فى الوسـامة • وقد قيل : ان « العارف بالأرض » لم يصنع لشكليه أياد ؛ لأنه لم يهتد الى الطريقة المثلى فى تشكيلهما •

ثم أبصر « الكويوت » ، أو ذئب البرارى الذى يقوم بدور كبير فى أساطير الهنود الغربيين ، أبصر التمثالين فيما بعد ، ورأى ضرورة خلق أياد لهما مثل يديه • ولكن « العارف بالأرض » رد عليه قائلا : « لا ، بل ان أيديهما ستكون مثل يدى » • ومن ثم أكمل صـنع الزوجين • فلما سأله « الكويوت » عن سبب صنعه الأيادى على هذا النحو أجاب : « حتى اذا طاردتهما الدببة استطاعا أن يتسلقا الأشجار » • وقد سمى أول رجل « كوكسو » ، كما سميت أول امرأة « المرأة نجمة الصباح » •

ويروى الهنود « الديجونيو » أو — كما يسـمون أنفسـهم — « الكواكيبايس » وهم الهنـود الذين يسـكنون الركن الجنـوبى الغربى الأقصى من ولاية كاليفورنيا ، يروون أسطورة يفسرون بها كيف خلق العالم والجنس البشرى على نحو ما همـا عليه الآن • فهم يقولون أنه لم يكن هناك فى بادىء الأمر تراب أو أرض صلبة ، أو أى شىء آخر سوى المياه الملحة التى كانت تملأ محيطا واحدا قديم العهد شاسعا • وقد كان يسكن تحت سطح الماء أخوان يدعى أكبرهما « تشايباكومات » ، وكان كلاهمـا يعيش بعينين مغمضتين ، لأنهما ان لم يفعلا ذلك أصـابتهما المياه الملحة بالعمى • وبعد مرور وقت خرج الأخ الأكبر الى سطح المحيط فلم يستطع أن يبصر شيئا سوى الماء • ثم اتخذ الأخ الأصغر طريقه الى السـطح كذلك ، ولكنه فتح عينيه فى غير حذر فى أثناء صعوده ، فأصيب بالعمى ، فلما وصل الى السطح لم يبصر شيئا • ومن ثم فقد هبط ثانيـا الى قاع المحيط • ولما وجد الأخ الأكبر نفسه وحيدا على سطح الماء وشرع فى خلق

تراب صالح للسكنى عليه من مهملات المحيط،فخلق فى أول الأمر نملا أحمر صغيرا غطى المياه بأجسامه الدقيقة حتى تحول سطح المياه الى جسم صلب • وقد كان الكون حتى ذلك الوقت مظلما ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر قد خلقا بعد ، فلما خلق « تشاياباكومات » بعد ذلك طيورا معينة سوداء مفلطحة المناقير حدث أنها ضلت طريقها فى الظلام ولم تجد لها مستقرا • وبعد ذلك أخذ « تشاياباكومات » ثلاثة أنواع من الطين : أحمر وأصفر وأسود ، وصنع منها شيئا مستديرا مسطحا أمسكه فى يده وقذف به نحو السماء فالتصق بها ، وأخذ ينبعث منه ضوء خافت تكون منه القمر بعد ذلك • ولكن « تشاياباكومات » لم يقنع بهذا الضوء الخافت الذى ينبعث من هذا النجم الشاحب ، فأخذ مزيدا من الطين وشكله على هيئة قرص آخر مستدير ومسطح ، وقذف به نحو السماء ، فى الجانب الآخر منها ، فالتصق بها ، وأصبح هو الشمس التى تضىء الكون بأشعتها • وبعد ذلك أخذ « تشاياباكومات » قطعة من الطين ذات لون فاتح وشطرها شطرين ، وشكل منها الرجل •• ثم أخذ ضلعا من الرجل وشكل منه المرأة التى أطلق عليها اسم « سينى أكساو » ، ومعناه المرأة الأولى • وكلمة « سينى » تعنى المرأة ، وكلمة « أكساو » تعنى الأولى • وقد تناسلت البشرية من هذين الشكلين اللذين شكلهما هذا الخالق من الطين ••

وعلى هذا النحو يعتقد الهنود « الهوبى » أو « الموكوى » الذين يسكنون أريزونا أنه لم يكن فى بداية الحياة سوى الماء يعم كل البقاع ، وأن الهين ـ وربما كانتا الهتين ـ كلتاهما كانت تدعى « هوروينج وهتى » ، كانتا تعيشان فى بيتين يقعان فى المحيط ، أحدهما يقع فى الشرق والآخر فى الغرب • وقد استطاعت هاتان الالهتان بجهودهما أن تجعلا الأرض الصلبة تظهر وسط المياه • على أن الشمس لاحظت ، فى أثناء مرورها يوميا فوق الأرض الجديدة ، أنه ليس هناك كائن حى من أى نوع يعيش على هذه الأرض ، فلفتت نظر الالهتين الى هذا العيب الجوهرى • وبناء على ذلك اجتمعت الآلهتان للتشاور فى هذا الأمر ، واتخذت الالهة التى تسكن شرقا من قوس قزح جسرا عبرت عليه الى أختها التى تسكن غربا • وبعد أن تشاورتا معا قررتا أن تخلقا طائرا صغيرا ، فشكلت الهة الشرق طائرا صغيرا للغاية ثم أخذتا معا تتلوان عليه التعاويذ ، فدبت الحياة فى الطائر على الأثر • وعند ذاك أطلقت الالهتان الطائر ليطوف فى أرجاء العالم ليرى ما اذا كان هناك على وجه الأرض أى كائن حى ، فلما عاد الطائر أخبرهما بأنه لم ير أثرا لأى كائن حى • وعند ذاك خلقت الالهتان بنفس الطريقة أنواعا مختلفة من الطيور ، وبعثتا بها

الى الأرض لكى تعمرها • وفى نهـــاية الأمر استقر رأى الالهتين على أن تخلقا الانسان ، فأخذت الهة الشرق قطعة من الطين وشكلت المرأة أولا ثم الرجل بعد ذلك ، وبثت الالهتان الحياة فى الرجل والمرأة على نحو ما فعلتا مع الطيور والوحوش •

ويزعم الهنود « البيما » الذين يسكنون فى أريزونا أن الخالق أخذ قطعة من الطين فى يده ثم مزجها بعرق جسده وصنع من هذا المزيج كتلة من العجين ، ثم راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحياة ، وأخذت تتحرك ، وتحولت الى رجل وامرأة • وقد قال أحد كهنة الهنود « الناقشيز » الذين يسكنون « لويزيانا » ـ قال ل « دوبراتز » « ان الاله عجن قطعة من الطين الذى يشبه ما يستعمله صانع الخزف فى صنع الأوانى الخزفية ، وشكل منه تمثالا صغيرا لرجل • وبعـد أن تفحصه ووجد شكله لائقا نفخ فيه فدبت الحياة فى التمثال ، وأخذ الرجل يكبر ، كما أخذ يســير ويسلك مسلك البشر • ثم نظر هذا الرجل الى نفسه فوجد نفسه مصورا أحسن تصوير » • أما بالنسبة للطريقة التى خلقت بهـــا المرأة فقد أقر الكاهن ل « دوبراتز » صراحة بأنه لا يعرف شــيئا عن هذا الموضـوع ، فتراث قبيلته القديم لم يذكر شيئا عن الفرق بين الجنسين فى طريقة خلقهما • وهو يعتقد كذلك أن الرجل والمرأة قد خلقا بطريقة واحدة •

وقد روى « المتشـــواكان » وهم من سكان المكسيك أن الاله الكبير « توكاباشا » شكل الرجل والمرأة فى بادىء الأمر من الطين ، ولكن عندما نزل الزوجان الى النهر ليستحما امتص الطين الماء وتفتت • ولكى يتفادى الاله هذا العيب فقد شكل التمثالين مرة أخرى من الرماد ، ولكن النتيجة لم تكن سارة فى هذه المرة كذلك • وأخيرا فقد قام بتشكيلهما من المعدن حتى يتجنب الاخفاق للمرة الثالثة • وقد كان عمله محمودا هـذه المرة ، اذ أنه أحكم صنعهما بحيث لم تعد المياه تتسرب اليهما ، فلما نزلا الى الماء لكى يستحما لم يتعرض جسماهما للتفتت • ومن هذين الزوجين تناسلت السلالات البشرية • وقد حكى هنود « بيرو » لقس أسبانى من « كوزكو » أسطورة ، مؤداها أن الجنس البشرى عاد الى الظهـور مرة أخـرى فى « تياهوانكو » بعد أن قضى الطوفان عليه جميعا ، فيما عدا رجل وامرأة • فهناك فى « تياهوانكو » التى تبعد حوالى سبعين فرسخا عن « كوزكو » بعث الخالق الناس والشـــعوب التى هلكت فى تلك البقاع بأن شـــكل أفراد كـــل أمة من الطين ، ولون رداء كل فرد باللون الذى يميزه عن أردية الأمم الأخرى • واذا كان الفرد ينتمى الى أمة كان أفرادها يسدلون

شعورهم ، خلق له شعرا مسدلا ، وأما اذا كانت أمته تحلق شعورها ، فانه كان يخلقه بشعر قصير • كما أنه جعل كل أمة تتحدث اللغة التى كانت تتحدث بها ، وتغنى الأغانى التى كانت تتغنى بها ، ومنح كلا منها الحبوب والأطعمة الخاصة بها • ولما فرغ الخالق من تشكيل شـــخوص كل أمة ، وتلوين ملابسها ، بث الحياة فى هذه الأشكال ، الذكور منها والاناث ، وأمرهم أن يسيروا تحت الأرض ، ثم صعدت كل أمة من المكان الذى أمرها الله أن تصـــعد منه » • ويعتقد الهنود « الليبنجوا » الذين يسكنون « براجواى » أن الخالق كان فى شكل خنفساء يسكن جحرا فى الأرض ، وأنه شـــكل الرجل والمرأة من الطين الذى كان يطوح به من مسكنه تحت الأرض •

وقد كان الزوجان ملتصقين فى بادىء الأمر «مثل التوأم السيامى» • وفى هذه الصـــورة الشاذة بعث بهما الخالق الى العالم الأرضى ، حيث تنازعا ــ وهما على هذه الصورة غير الملائمة ــ مع جنس من الكائنات القوية التى كان الخالق قد خلقها من قبل • وعند ذاك توسل الزوجان الى الخالق الخنفساء أن يفصل أحدهما عن الآخر ، فاستجاب لمطلبهما ، ومنحهمـــا القدرة على التكاثر ، ومن ثم أصـــبحا الأبوين الأولين للجنس البشرى • أما الخالق الخنفساء فقـــد كف ، بعـــد أن خلق الكون ، عن أن يقوم بعـــد ذلك بأى عمل ايجابى فيه ، كما لم يعد يهتم لشىء فيه • وتذكرنا هذه الرواية بحكاية أرستوفان الخيالية فى « محاورات أفلاطون » تلك الحكاية التى يحكى فيها أرستوفان عن الشكل الأصلى للجنس البشرى ، وكيف أن المرأة والرجل قد خلقا فى بداية الأمر ملتحمين فى شكل واحد مركب له رأسان وأربع أذرع وأربع أرجل ، حتى جاء زيوس فشقهما من النصف، وفصل الجنسين أحدهما عن الآخر » •

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من الحكايات السالفة الذكر تتفق جميعا فى أن الطين الذى شـــكل منه أول أبوين كان أحمر اللون ومن المحتمل أن اللون الأحمر يقصد به تفسير لون الدم • وعلى الرغم من أن الكاتب اليهوى قد أغفل ، فى حكايته فى سفر التكوين ، ذكر لون الطين الذى استخدمه الله فى خلق آدم ، فاننا نحدس ، ولعلنا لا نكون متعجلين فى حدسنا ، أن الطين الذى استخدم فى هذه المناســبة كذلك كان لونه أحمر • فالكلمة العبرية التى تطلق على الرجل فى العموم هى « أدم » ، والكلمة التى تطلق على الأرض هى « أدمة » ، كما أن الكلمة التى تطلق على اللون الأحمر هى « أدوم » • وبذلك نصـــل عن طريق التســـلسل

الطبيعى ، بل الضرورى ، للعلل ، الى أن الأبوين الأولين قد خلقا من التراب الأحمـر • فاذا ساورنا شك فى هـذا فربما كانت ملاحظة أن تربة فلسطين تميل حتى اليوم الى الحمرة الداكنة تبدد هذا الشك • « وهذا يشير ـ وفقا لرأى الكاتب الذى لاحظ هـذه الملاحظة وعلق عليها فى انصاف ـ « الى العلاقة بين آدم والتربة التى خلق منها • وهـذا اللون يبدو بشكل واضح عندما تقلب التربة ، اما عن طريق المحراث أو عن طريق الحفر » • فالشىء اللافت أن الطبيعة نفسـها تحمل شواهد على الدقة الأدبية فى الكتاب المقدس •

الفصل الثانى

سقوط آدم

١ ـ القصة فى سفر التكوين :

يصـور الكاتب اليهوى عن طريق القـاء قليل من الضوء ، ولكن بريشة فنان ماهر ، الحياة السعيدة التى عاشها الأبوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنا فيها • هناك نمت فى وفرة كـل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها ، وهناك عاشـت صنوف الحيوان فى وئام مع الانسان ومع بعضها بعضا ، وهناك لم يكن الرجل والمرأة يعرفان الخجل ، لأنهما لم يكونا يعرفان العيب ، فقد كان هذا عصر البراءة •

ولكن هذه الحياة السعيدة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما غشى الغمام ضوء الشمس • وينتقل الكاتب فجأة من قصـة خلق حواء ، وتقديمها لآدم ، ليحكى لنا قصة سقوطهما الحزينة ، وفقدانهما للبراءة ، وطردهما من جنة عدن ، وما قدر لهما هما ونسـلهما من بعد من العمل والحزن والموت • ففى وسط الجنة نمت شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ، التى حرم الرب على آدم أن يأكل من فاكهتها قائلا : « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منهـا ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » (١) ،

---

(١) سفر التكوين ٢ : ١٧ •

ولكن الحية كانت ماكرة ، كما كانت المرأة ضعيفة ومن السهل أن يغرر بها . فذهبت الحية الى حواء وأغرتها أن تأكل من الثمار المشئومة ، وقدمت حواء بدورها الثمار لزوجها ، فأكلها كذلك . وما كادا يتذوقان الثمار حتى تفتحت عيونهما على الحقيقة وأدركا أنهما عاريان ، فسترا عورتيهما ، وقد ملأهما الخزى والارتباك ، بغطاء من أوراق التين : وفى هذه اللحظة ولى عصر البراءة الى غير رجعة . وبعد أن خفت وقدة حر الظهيرة ،وانتشرت الظلال فى ربوع الجنة ، أخذ الرب يتمشى ، كما كانت عادته ، فى ساعة العصر الرطبة . وسمع الرجل والمرأة وقع خطواته ، وربما سمعا كذلك حفيف الأوراق وهى تتساقط تحت قدميه (اذا كان يمكن لأوراق الشجر فى الجنة أن تتساقط) . فاختبآ بين الأشجار ، وقد ملأهما الخجل من أن يراهما عاريين . فصاح بهما الرب أن يخرجا من خلف الأشجار . ولما علم من الزوجين الخجولين أنهما قد عصيا أمره وأكلا من شجرة المعرفة . ثارت سورة غضبه ، ولعن الحية ، وحكم عليها بأن تزحف على بطنها ، وأن تأكل التراب ، وأن تكون عدو الانسان الى الأبد ، ولعن الأرض وقضى عليها أن تنبت الشوك والحسك ، ولعن المرأة وحكم عليها أن تلد أولادها فى ألم ، وأن تكون خاضعة لزوجها ، ولعن الرجل وقضى عليه ، أن يستخرج خبز يومه من الأرض بعرق جبينه ، وأن يعود فى نهاية حياته الى التراب ، كما خلق من التراب . وخفت سورة غضب الرب بعد أن نطق بهذه اللعنات المتعددة . ومع ذلك فان الرب الغاضب ، بل الرءوف بحق ، أشفق على المذنبين الى حد ما ، وصنع لهما رداءين من الجلد ، ليرتدياهما بدلا من الغلالات المصنوعة من ورق التين . أما آدم وحواء فقد انسحبا الى الوراء من خلال الأشجار فى رداءيهما الجديدين والخزى يشيع فى وجهيهما ، فى حين كانت الشمس تختفى شيئا فشيئا جهة الغرب ، والظلال تتراكم فى الجنة المفقودة .

ان كل حدث فى هذه القصة يرتبط بشجرة معرفة الخير والشر ، فهى تقف مع الرجل والمرأة والحية الناطقة ، فى بؤرة المأساة الكبيرة ، اذا أمكن لنا أن نقول هذا ، على أننا اذا أمعنا فى النظر ، فاننا نجد شجرة أخرى تقف مع شجرة المعرفة جنبا الى جنب وسط الجنة ، وهذه الشجرة تلفت النظر للغاية ، لأنها ليست سوى شجرة الحياة التى تكسب كل من يأكل من فاكهتها الخلود . ومع ذلك فان هذه الشجرة الرائعة لا تلعب أى دور فى قصة السقوط الحقيقية ، فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هذه الثمار أى تحريم الهى ، على عكس ما حدث مع شجرة المعرفة ،

فان أحدا من الابوين لم يفكر فى قيمة تناول شىء من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الأبد • ولكن يبدو أن شـــخوص المأساة الكبيرة وقد تركزت أبصارهم حول شجرة المعرفة ، لم يبصروا شـجرة الحياة ، بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التى تقف بامكانيتها غير المحدودة مهملة وسط الجنة ، الا بعد أن قضى الأمر وانتهى كل شىء • وقد خشى الرب بعد أن أصبح الانسان صنوه‌فى المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، أن يصبح كذلك خالدا مثله اذا ما أكل من شـــجرة الحياة ، ولذلك فقد أسرع بطرده من الجنة ، وعين فريقا من الملائكة الذين يحملون سيوفا لامعة لتحرس الشجرة من كل من يقترب منها ، حتى لا يتسنى لأحد أن يأكل من فاكهتها السحرية ، فيعيش الى الأبد ، ومن ثم فانه على حين تتركز أبصارنا ، طوال حركة المسرحية فى الجنة ، حول شجرة المعرفة كل التركيز ، فان النظرة الأخيرة الى الجنة السعيدة تطلعنا عندما يتغير المشهد فى النهاية ويخبو بهاء جنة عدن الى الأبد ، ويتحول نهارهـــا الى نهار عادى ــ تطلعنا على شجرة الحيـــاة وهى تقف بمفردها وقد أضاءها بصيص الضوء المنبعث من سيوف الملائكة المشرعة •

ومن المســـلم به بوجه عام ، فيما يبدو ، أن حكاية الشجرتين قد اعتراها بعض الخلط ، وأن شجرة الحياة لم تلعب فى الحكاية الأصلية هذا الدور المثير السلبى الصرف الذى لعبته فى هذه الحكاية • ومن ثم فقـد اعتقد البعض أنه كان هناك فى الأصل حكايتان مختلفتان عن السقوط ، صورت فى احديهما شجرة المعرفة على حدة ، كما صـــورت فى الأخرى شجرة الحياة منفردة ، وان كاتبا مزج بين الحكايتين فى غير حذق ، وجعل منهما حكاية واحدة • وعلى حين احتفظ باحداهما فى شـــكلها الأصلى على وجه التقريب ، اختصر الحكاية الثانية وشذبها حتى كادت تفقد معالمها • وربما كان الأمر كذلك كما يعتقد هؤلاء ، ولكن ربما اســـتطعنا أن نجد حلا لهذه المشكلة بطريقة أخرى •

فالهدف من حكاية السقوط ، فيما يبدو ، هو محاولة لتفســـير فناء الانسان ولتقديم السبب الذى من أجله أصبح الموت جزءا من كياننا الدنيوى • حقا ان القصة لم تذكر أن الانسان قد خلق خالدا ، وأنه فقـد هذا الخلود عن طريق عصيانه ، ولكن الحكاية لم تذكر كذلك أنه خلق فانيا • بل انه حرى بنا أن نفهم من سياق الحكاية ، أن امكانية الخلود والفناء كانت متروكة له ، وكان عليه أن يختار أحد الأمرين ، ذلك أن شـــجرة الحيـــاة كانت فى متناول يده ، ولم تكن فاكهتها محرمة عليه ،

وما كان عليه سوى أن يمد يده ويقطف ثمارها ، ويأكلها فيكتسب الخلود الى الأبد • بل انه من المفهوم ضمنا ، بعيدا عن أن الانسان قد حرم عليه أكل ثمار هذه الشجرة ، أن الخالق قد سمح له أن يأكل منها ، ان لم يكن قد شجعه على ذلك ، فلقد قال له صراحة : انه فى وسعه أن يأكل فى حرية من ثمار أية شجرة من أشجار الجنة فيما عدا شجرة معرفة الخير والشر • فمن الواضح اذن أن الرب ، بغرسه شجرة الخلود فى الجنة ، وعدم منعه آدم من أن يأكل من ثمارها ، كان يهدف الى أن يجعل للانسان الخيار أو على الأقل يتيح له الفرصة ، لأن يكون خالدا ، ولكن الانسان ضيع على نفسه هذه الفرصة حينما اختار أن يأكل من الشجرة الثانية التى حذره الله من أن يمسها ، والا استعجل فناءه • وهذا يؤكد أن الشجرة المحرمة كانت فى الحقيقة شجرة فناء لاشجرة معرفة ، وأن مجرد تناول فاكهتها المهلكة ، بغض النظر عن موضوع طاعة الأمر الالهى أو عصيانه ، كان كفيلا بأن يفضى بالانسان الى الموت • ويتمثل هذا الاستدلال كل التمثل فى تحذير الرب لآدم عندما قال له أنك لن تأكل منها ، واليوم الذى تأكل فيه من ثمارها شيئا ، سيكون مصيرك الموت المحتوم • وبناء على ذلك ، يمكننا أن نفترض أن القصة الأصلية أشارت الى شجرتين : شجرة الحياة وشجرة الفناء ، وأنه كان للانسان الخيار فى أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا الى الأبد ، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصبح انسانا فانيا • وأن الرب ، رحمة بمخلوقه ، نصحه أن يأكل من شجرة الحياة وحذره من أن يأكل من شجرة الفناء ، ولكن الانسان ، عندما أضلته الحية ، أكل من الشجرة المحرمة ، وبذلك حرم عليه الخلود الذى كان ربه الرحيم قد رسمه له •

ومن شأن هذا الافتراض أنه يوجد – على الأقل – نوع من التوازن بين دور الشجرتين فى القصة ، وأن يكسب القصة بوصفها كلا الوضوح والبساطة والتماسك • كما أنه يقدم حلا لضرورة افتراض وجود قصتين أصليتين متميزتين مزج بينهما كاتب سقيم التفكير فأفسدهما • بل ان هذا الافتراض يرجحه أكثر من ذلك اعتبار آخر أكثر عمقا ، يصور السلوك الالهى فى صورة مقبولة ، فهو ينزهه كل التنزيه عما أثير عن حقده وحسده ، فضلا على الجبن وتعمد الأذى ، تلك الصفات الشائنة التى ظلت ، بتأثير قصة سفر التكوين – بقعة سوداء فى حق الصفات الالهية • ذلك أن الاله ، وفقا لهذه القصة ، قد نفس على الانسان امتلاكه للمعرفة والخلود معا ، ورغب فى أن يستبقى هذه الصفات الطيبة لنفسه وخشى أن يصبح الانسان مناوئا لخالقه ، اذا ما استحوذ على أحدهما أو كليهما ، الأمر

الذى لم يكن من الممكن للرب أن يتقبله بحال من الأحوال · ومن ثم فقد حذر الانسان ، وفقا لهذه القصة ، أن يأكل من شجرة المعرفة ، ولما لم يكترث الانسان لهذا التحذير ، طرده الرب من الجنة وأوصد بابها دونه ، حتى يحول بينه وبين الشجرة الأخرى التى ان هو أكل من ثمارها أصبح خالدا · ان الدافع الذى تقدمه القصة دنىء ، كما أن السلوك الذى تنسبه للرب يستحق الازدراء · وفضلا على هذا فان كلا من هذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب ازاء الانسان فى بداية الأمر كما صورته القصة ، فقد كان الرب بعيدا كل البعد عن أن ينفس على الانسان شيئا ، بل انه بذل كل ما فى وسعه لكى يجعله سعيدا هانئا ، فخلق له جنة رائعة الجمال لينعم بها ، وخلق له الطيور وصنوف الحيوان ليأتنس بها ، كما خلق له المرأة لتكون زوجا له ·

حقا ان التلاؤم بين عناصر مغزى القصة من ناحية ، وبينها وبين الصفات الالهية من ناحية أخرى ، يكون أبعد مدى اذا افترضنا أن الرب شاء أن يتوج عطفه على الانسان بمنحه الخلود ، وأن قصده النبيل لم يحبطه سوى مكيدة الحية ·

على أنه مازال علينا أن نواجه هذا السؤال : لماذا دبرت الحية تلك المكيدة للانسان ؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشرى من المميزات الكبيرة التى كان الرب يعتزم أن يخلعها عليه ؟ فهل كان تدخلها فى هذا الأمر مجرد فضول ؟ أم أنها كانت تكن هدفا أبعد من هذا ؟ كل هذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى اجابة · فالحية لم تغنم شيئا من وراء تلك المكيدة ، بل انها كانت على عكس هذا ، من الخاسرين ، اذ حلت عليها اللعنة الالهية ، وقضى عليها أن تزحف على بطنها وأن تلعق التراب · وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية ، بل ربما كانت تقوم بعمل لاهدف وراءه كما يبدو من ظاهر القصة · ولكن اذا كانت القصة تخبرنا بأنها كانت أشد ميلا للخديعة من أى حيوان آخر ، فهل شاءت حقا أن تدل على حكمتها بأن تطيح بآمال الانسان دون أن تحقق لنفسها شيئا منها ؟ وربما ساورنا الشك فى أن الحية فى القصة الأصلية قد أثبتت لنفسها مكانا مرموقا بأن استولت على البركة التى حرمت منها الجنس البشرى ، اذ أنها فى الواقع أكلت هى نفسها من شجرة الحياة فاكتسبت الخلود ، فى الوقت الذى أغرت فيه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء · ويبدو أننا لسنا مغالين فى هذا الفرض ، فنحن نقرأ فى حكايات بدائية ليست بالقليلة ، تحكى عن أصل الموت ، وسأعرضها على القارىء وشيكا، أن الحيات سعت فى تدبير حيلة لتسخر من الانسان أو لتلقى الروع فى

قلبه ، حتى تحتفظ لنفسها بالخلود الذى كان الانسان معنيا به • فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيات وبعض أنواع من الحيوان تجدد شبابها وتحيا الى الأبد ، وذلك عن طريق تغييرها لجلدها مرة فى كل عام • ويبدو أن الشعوب السامية قد عرفت هذه العقيدة كذلك ، فالحية ـ وفقا لرأى الكاتب الفينيقى القديم « سانشونياثون » ، كانت أطول الحيوانات عمرا ، لأنها كانت تجدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها • واذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحية معمرة ، وأن سبب هـذا يرجع الى تغييرها جلدها ، فليس ببعيد أن جيرانهم وأقرباءهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه• والشيء الذى لا جدال فيه ، هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسور تجدد شبابها عندما تغير ريشها • واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لايعتقدون بالمثل أن الحيـة كذلك يتجدد شبابها بتغير جلدها ؟ على أن فكرة خداع الحية للانســان ، وسلبها منه الخلود ، عن طريق استيلائها على عشب الخلود ، الذى كانت الآلهة تقصد الاحتفاظ به للجنس البشرى ـ تتمثل فى الواقع فى ملحمة جلجامش التى تعد معلما من المعالم الأدبية القديمة لدى الجنس السامى ، أكثر قدما من سفر التكوين •

ففى هذه الملحمة نقرأ كيف أن أوتنابيشتيم الانسان المؤله ، أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة سحرية على اعادة الشـباب الى الانسان ، يطلق عليه اسـم « الرجل الكهل يعود شـابا » ، وكيف أن جلجامش اهتدى الى هـذا النبات ، وأصـابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذى ولى ، ثم كيف أن حيـة تسللت ، قبل أن يأكل جلجامش من هذا العشب ، وسرقت النبات السحرى ، بينما كان جلجامش يسـتحم فى الميـاه الباردة فى أحد الينابيع أو الغدران ، ثم كيف أن جلجامش ، بعد أن فقد الأمل فى اكتساب الخلود ، جلس وبكى • حقا ان الملحمة لا تذكر صراحة أن الحية اكتسـبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ، ولكن ربما كان حذف هـذا مرده الى غموض النص وما فيه من عيب • واذا كان شاعر الملحمة قد سكت عن هذا الموضوع ، فان الروايات الأخرى التى سأذكرها وشيكا مطابقة لهذه القصـة ، تمكننا من أن تسد هذه الثغرة على أساس احتمال معقول • وأكثر من هذا فان هذه الروايات تشير دون دليل الى أن الحية فى الحكاية الأصلية التى أفسـدها الكاتب اليهوى وشوهها ، كانت رسولا من الله للانسان يحمل اليه نبأ الخلود السار ، ولكن هذا المخلوق الماكر اسـتغل الرسالة لصالح نوعه ولدمار البشر • أما منحة الكلام التى استغلتها الحية من أجل تحقيق غرضـها الخبيث فقد زودها الاله بها لتكون قادرة على تبليغ رسالته الى الانسان •

وباختصار فاننا يمكننا أن ننتهى ، من خلال الموازنة بين روايات هذه الحكاية المختلفة ، المنتشرة بين الشعوب المختلفة ، الى أن حكاية سقوط الانسان الأصلية الحقيقية كانت تجرى على النحو التالى على وجه التقريب: ان الخالق الكريم ، بعد أن شكل الرجل الأول والمرأة الأولى ، وأحياهما عن طريق عملية بسيطة بأن نفخ فى فميهما وأنفيهما ــ أسكن الزوجين السعيدين فى جنة أرضية ، حيث عاشا متحررين من كل عناء ومشقة ، يأكلان من ثمار هذه الجنة السعيدة اليانعة ، ويستأنسان بالطيور والحيوانات وهى تمرح من حولهما فى اطمئنان لا يتسرب اليه الخوف . ثم فكر الرب فى أن يتوج سعادة الزوجين بأن يمنحهما نعمة الخلود الكبيرة . ولكنه قرر ، فى الوقت نفسه ، أن يكونا هما نفساهما حكما على مصيرهما ، وذلك بأن ترك لهما حرية قبول أو رفض المنحة المقدمة اليهما . ولهذا الغرض أنبت فى وسط الجنة شجرتين عجيبتين تحمل كل منهما فاكهة من كل نوع ، وتجلب فاكهة احداهما الفناء لآكلها ، بينما تكسب ثمار الشجرة الثانية الخلود لمن يأكل منها . وبعد ذلك أرسل الحية برسالة لكل من الرجل والمرأة لتقول لهما : لا تأكلا من شجرة الفناء ، ففى اليوم الذى تأكلان فيه من فاكهتها يكون مصيركما الموت المحتوم . على أن الحية التى كانت أكثر الحيوانات مكرا ، فكرت ، وهى فى طريقها الى الرجل والمرأة ، فى أن تغير فحوى الرسالة . فلما وصلت الى الجنة السعيدة ، حيث وجدت حواء بمفردها ، قالت لها : « ان الله يقول : لا تأكلا من شجرة الحياة ، لأنه سيقضى عليكما بالموت المحتم فى اليوم الذى تأكلان فيه منها ، ولكن كلا من شجرة الفناء لتعيشا الى الأبد. وصدقتها المرأة الحمقاء وأكلت من الفاكهة المهلكة ، وأعطت منها لزوجها فأكل منها كذلك . أما الحية الماكرة فقد أكلت من ثمار شجرة الخلود . ولهذا السبب أصبح الانسان فانيا والحية خالدة الى الأبد ، اذ أن الحية تغير جلدها كل عام ، وبذلك يتجدد شبابها . ولو أن الحية لم تشوه رسالة الخالق ، ولم تخدع أمنا الأولى ، لمنحنا الخلود بدلا منها ، ذلك أننا كنا سنغير جلودنا فى كل عام ، كما تفعل الحية ، ومع تغيرها يتجدد شبابنا على الدوام .

ومما يزيد من احتمال أن هذه الرواية ، أو ما يشبهها ، كانت هى الصيغة الأصلية للحكاية ، مقارنتها بالحكايات التالية التى يمكننا أن نصنفها فى يسر تحت عنوانين رئيسيين هما « حكاية الرسالة المحرفة » وحكاية « تغيير الجلد » .

٢ ـ حكاية الرسالة المحرفة :

تربط قبائل « الناماكوا » أو « الهوتنتوت » كما يصنع غيرهم من « الشعوب البدائية ، أطوار نمو القمر ونقصانه بفكرة الخلود • فما يبدو لهم من زيادة ونقصان فى شكل القمر ، يفسر على أنه عملية حقيقية من التفكك واعادة التكامل ، ومن الاضمحلال والنمو ، تحدث بصفة مستمرة • بل انهم يفسرون بزوغ القمر ومحاقه بميلاده وموته • فهم يقولون ان القمر شاء ذات يوم أن يبلغ الانسان نبأ خلوده ، وأخذ الأرنب البرى على عاتقه أن يقوم بتبليغ هذه الرسالة ، فوافق القمر وطلب اليه أن يقول للناس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحياة ، فانكم ستموتون وتعودون الى الحياة مرة أخرى كذلك » • وبناء عليه ذهب الأرنب الى الناس وحرف الرسالة ، اما نتيجة نسيانه أو اضماره الشر للانسان ، وأبلغها اياهم على النحو التالى : « كما أننى أموت ولا أعود الى الحياة مرة أخرى ، فانكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحياة مرة أخرى » • ثم عاد الى القمر الذى طلب منه أن يعيد عليه ما قاله للناس • فأخبره الأرنب بما أبلغه الناس فلما سمع القمر منه الرسالة المحرفة غضب كل الغضب الى درجة أنه رماه بعصا شقت شفته • هذا هو السبب فى أن شفة الأرنب لا تزال مشقوقة حتى اليوم • ثم ولى الأرنب مسرعا عندما رماه القمر بالعصا ، وهو ما زال يجرى بسرعة حتى هذا اليوم • على أن بعض الناس يقولون : ان الأرنب خدش وجه القمر قبل أن يهرب ، ولهذا فان القمر ما زال يحمل فى وجهه آثار هذا الخدش الذى يمكن أن يراه كل فرد عندما يكون القمر بدرا فى ليلة صافية • ولا تزال قبائل « الناماكوا » غاضبة على الأرنب حتى اليوم ؛ لأنه سلبهم الخلود • وقد تعود الرجال المسنون فى هذه القبيلة أن يقولوا : « اننا ما زلنا غاضبين من الأرنب ؛ لأنه حمل لنا هذه الرسالة المشئومة ، ومن ثم فنحن لا نأكل لحمه » • ولهذا فان الصبى اذا بلغ سن النضج ، واتخذ مكانه بين الرجال ، فانه يمنع من أكل لحم الأرنب ، بل يمنع من استخدام نار سبق أن طهى عليها أرنب • فاذا خالف رجل هذا المحظور فانه يبعد عن القرية ، كما يحدث هذا فى كثير من الأحيان ، اللهم الا اذا دفع دية ، وعند ذاك تقبله جماعته مرة أخرى •

وتحكى قبائل « البوشمان » حكاية شبيهة بهذه الحكاية مع اختلاف طفيف • ففى سالف الأزمان ، وذلك وفقا لروايتهم ، قال القمر للناس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحياة مرة أخرى ، فانه سيصيبكم ما يصيبنى • فاذا متم ، فانكم لن تموتوا كلية ، بل سرعان ما تعودون

للحياة مرة أخرى » • وسعد الجميع بهذا النبأ السعيد ، سوى رجل واحد لم يستطع أن يسكت عن الجهر بعدم تصديقه لهذا النبأ ، فقد حدث أن توفيت أم هذا الرجل فبكاها بعويل وصراخ ، وما من شيء استطاع أن يقنعه بأن الحياة ستعود اليها مرة أخرى ، عند ذاك دبت مشاجرة حامية بينه وبين القمر حول هذا الموضوع المؤلم ، فقد قال القمر له : « ان أمك نائمة ولم تمت » •فأجابه الرجل : « لا بل انها قد ماتت » • عند ذاك احتد بينهما الشجار حتى نفد صبر القمر وضرب الرجل بقبضة يده ضربة شجت فمه ، وصب عليه اللعنة قائلا : ان فمه سيظل مشجوجا على هذا النحو وان تحول الى أرنب • ذلك لأنه سيمسخ حتما فى صورة أرنب • ولسوف يقفز بعيدا عنا ثم يرتد الينا ، ولسوف تعدو الكلاب فى أثره ، حتى اذا أمسكت به مزقته شر ممزق ، ولسوف يفنى الى الأبد ، وكذلك سائر البشر • ذلك أنه أبى أن يصدقنى عندما طلبت منه ألا يبكى أمه لأن الحياة ستعود اليها مرة أخرى ، ورد على قائلا : « لا ان أمى لن تحيا مرة أخرى » • من أجل هذا السبب فانه سوف يتحول كلية الى أرنب ، كما أن الناس سيفنون جميعا بسبب أنه عارضنى بتبجح عندما أخبرته أن الناس سيصيبهم ما يصيبنى ، فيعودون للحياة بعد الموت » • وهكذا عوقب هذا الرجل عقابا عادلا جزاء شكه ، فلقد مسخ فى صورة أرنب ، وما زال ممسوخا فى شكل أرنب حتى اليوم ، وان كان لا يزال محتفظا فى فخذه بلحم انسانى • وهذا هو السبب فى أن « البوشمان » ، عندما يذبحون أرنبا ، لا يأكلون هذا الجزء ويرمونه جانبا ، لأنه لحم آدمى • وما زالوا يقولون : « لقد لعننا القمر بسبب الأرنب ، ومن ثم قضى علينا بالموت الذى لا رجعة فيه • ولولا ذلك لعدنا للحياة بعد الموت • ولكن ما حيلتنا فى هذا ، وقد أنكر الرجل ما أخبره به القمر وعارضه معارضة صريحة » • فالأرنب فى رواية البوشمان لم يكن رسولا من الخالق الى الانسان ، ولكنه انسان شاك مسخ فى صورة أرنب ، وقد حكم على الجنس البشرى كله بالفناء ، لأنه شك فيما بشره القمر به من خلود الانسان •

وتحكى قبيلة « ناندى » التى تسكن «أفريقيا الشرقية البريطانية» ، حكاية تعزو فيها ابتلاء الجنس البشرى بالموت الى افتقار كلب ما لروح الفكاهة : فقد كلف كلب بأن يحمل رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكنه لما لم يستقبل بالحفاوة التى تتلاءم مع مهابة الرسالة ، انتابته نوبة من الغضب وحكم على الانسان بهذا المصير الحزين الذى قدر له منذ ذلك اليوم •

وتجرى الحكاية على النحو التالى : ذات يوم جاء كلب الى القوم الأولين الذين كانوا يعيشون على وجه الأرض وقال لهم : « انكم سوف

تموتون كما يموت القمر ، ولكنكم لن تعودوا الى الحياة كما يفعل القمر ٠ اللهم الا اذا قدمتم لى قليلا من اللبن اشربه من وعائكم ، وقليلا من الجعة أرتشفها عن طريق عود من قشكم ، فان فعلتم هذا فسوف أساعدكم على أن تحملوا الى النهر يوم تموتون ، ثم تعودون الى الحياة فى اليوم الثالث من وفاتكم » ٠ ولكن الناس سخروا من الكلب ، وقدموا اليه قدرا من اللبن ليشربه من وعاء يتبولون فيه ، فغضب الكلب لأنه ؛ لم يشرب من الوعاء الذى يشرب منه الانسان ٠ وعلى الرغم من أنه شرب اللبن والجعة باشمئزاز من الوعاء الذى قدم اليه،فانه رحل والغيظ يملأ صدره وهو يقول : «سوف يموت الناس جميعا الى الأبد ، ولن يعود الى الحياة على الدوام سوى القمر ٠ وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون موتة واحدة لا يعودون بعدها الى الحياة ، فى حين أن القمر يختفى ويعود الى الظهور بعد اختفائه بثلاثة أيام ٠ ولو كان الناس قد قدموا وعاءهم للكلب ليشرب منه اللبن ، وعودا من القش ليرتشف منه الجعة ، لعدنا الى الحياة بعد الموت بثلاثة أيام كما يفعل القمر ٠ ولا تذكر هذه الحكاية شيئا عن حمل الكلب رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكننا نستدل استدلالا منطقيا من خلال اشارة الكلب الى القمر ، ومن خلال مقارنة هذه الرواية برواية « الهوتنتوت » الشبيهة بها ، على أن القمر هو الذى كلف الكلب بالقيام بهذه المهمة ٠ ولكن هذا الحيوان الغافل لم يستغل هذه الفرصة فى أن يحتفظ لنفسه بمنحة لم يؤهل لها بحق ٠٠

فى هذه الحكايات كلف رسول واحد بحمل الرسالة ذات الشأن الخطير الى البشر ٠ وقد أخفق الرسول فى تأدية رسالته ، اما بسبب اهماله أو بدافع مكره ٠ على أن هناك بعض الحكايات الأخرى التى تحكى عن سبب ابتلاء الانسان بالموت ، كلف فيها رسولان بحمل الرسالة ٠ وسبب ابتلاء الانسان بالموت فى هذه الحكايات هو تأخر الرسول فى تبليغ رسالة الخلود الى الانسان ، أو سوء تصرفه ٠ ومن بين هذه الحكايات حكاية تروى كذلك عن قبائل « الهوتنتوت » وهى تجرى على النحو الآتى : أرسل القمر ذات مرة حشرة الى بنى الانسان وقال لها : « اذهبى الى الناس وقولى لهم : كما أننى أموت ثم أحيا بعد الموت ، فأنتم كذلك ستموتون وتحيون بعد الموت » ٠ فذهبت الحشرة لتبلغ الرسالة ٠ وبينما كانت تزحف فى الطريق ، اعترضها أرنب برى ووقف بجانبها وسألها : « الى أين تسيرين ؟ » ٠ فردت عليه قائلة : « لقد أرسلنى القمر الى الناس لكى أبلغهم أنه ، كما يموت القمر ويحيا بعد الموت ، كذلك هم سيموتون ويحيون بعد الموت » ٠ عندئذ قال لها الأرنب : « حيث انك تعوزك الرشاقة فى

الحركة ، دعيني أنا أذهب اليهم وأبلغهم الرســالة » · ثم جرى الأرنب وسارت الحشرة تزحف وراءه : ولما وصل الى الناس ، غير من فحوى الرسالة التى أخذ على عاتقه أن يبلغها الناس بطريق غير رسمى · فلقد قال لهم : « ان القمر أرسلنى اليكم لأبلغكم رسالته التى قال فيهـــا : « كما أننى حينما أموت أفنى الى الأبد ، فأنتم كذلك ستموتون وتفنون الى الأبد » · ثم رجع الأرنب الى القمر وأعاد عليه ما قاله للناس · فغضب عليه القمر أشـــد الغضب وعنفه وقال له : « كيف تجرؤ على أن تقول للناس كلاما لم أنطق به ؟ » ثم أمسك بعصا وهوى بها على أنف الأرنب فشجه · وهذا هو السبب فى أن أنف الأرنب ما زال مشقوقا حتى اليوم ·

وتحكى قبـــائل « تاتى بوشمان » أو « ماساروا » التى تســكن « محمية بتشوانالاند » وصحارى « كالاهارى » وبقاعا فى جنوب روديسيا، هذه الحكاية نفسها مع تغيير طفيف · فهم يقولون : ان أجدادهم فى قديم الزمان حكوا الحكاية التالية : لقد شاء القمر أن يرســـل رســـالة الى الرعيل الأول من الناس يقول لهم فيها : انه كما مات وعاد الى الحياة مرة أخرى ، فهم كذلك سيموتون ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى · عند ذاك صاح القمر بالســلحفاة وقال لها : « اذهبى الى هؤلاء النـــاس وبلغيهم رسالتى · قولى لهم كما أنى أعيش بعد موتى فانهم كذلك سيعيشون بعد موتهم » · على أن السلحفاة كانت تسير سيرا بطيئا للغاية ، كما ظلت تردد رسالة القمر فى أثناء الطريق حتى لا تنســـاها · ولكن القمر أقلقه بطء السلحفاة وضعف ذاكرتها فصاح بالأرنب وقال له : « انك تستطيع أن تجرى فى سرعة فاذهب الى الناس الذين يسكنون بعيدا هناك وقل لهم : « كما أننى أحيا بعد موتى ، فهم كذلك سيحيون بعد موتهــم » وأسرع الأرنب ليبلغ الرسالة ، ولكنه سرعان ما نسى مضمونها · ومن ثم فقد بلغ الناس الرسالة على النحو التالى ، فقال لهم على لسان القمر : « كما أننى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فانكم حين تموتون فستموتون الى الأبد » ·· وفى أثناء هذا تذكرت السلحفاة الرسالة وآستأنفت سـيرها وهى تقول لنفسها : « لن أنسى مضمون الرسالة بعد ذلك » · وفى النهاية وصلت الى مكان تجمع الناس وأبلغتهم الرسالة الصحيحة · فلما سـمع الناس قولها غضـبوا كل الغضـب من الأرنب الذى كان يجلس على بعـد منهم يقرض الحشيش · فجرى أحد الرجال ورفع حجرا ورماه به · فأصـاب الحجر الأرنب اصابة مبـاشرة ، وشج شـفته العليا · ولا تزال شـفة الأرنب العليا مشجوبة حتى اليوم · وبهذا تنتهى الحكاية ·

وكذلك يروى زنوج ساحل الذهب حكاية الرسولين هذه . والرسولان فى روايتهم هما شاة وعنزة . وفيما يلى صيغة الحكاية كما رواها مواطن زنجى لمبشر سويسرى فى « أكروبنج » : عندما خلقت السماء والأرض فى بداية الحياة ، لم يكن على وجه الأرض بعد أثر لانسان . ثم هطلت أمطار غزيرة ، تدلت فى أعقابها سلسلة كبيرة من السماء وقد علق بها سبعة من الرجال . لقد كان الاله قد خلق هؤلاء الرجال ، وجعلهم يهبطون الى الأرض عن طريق هذهالسلسلة . وكانوا قد أحضروا معهم نارا طهوا عليها طعامهم . ولم يكد يمضى بعض الوقت على استقرار هؤلاء الرجال على وجه الأرض ، حتى أرسل الاله اليهم من السماء عنزة لتحمل اليهم الرسالة التالية : « ان هناك شيئا يسمى الموت ، وسوف يصاب به بعضكم يوما ما ، ولكن على الرغم من أنكم ستموتون ، فانكم لن تفنوا فناء كليا ، فلسوف ترجعون الى هنا فى السماء » . وذهبت العنزة تحمل الرسالة . وعندما اقتربت من بلاد هؤلاء الرجال ، تريثت عند أيكة حسبتها صالحة للأكل . فتلكأت عندها وأخذت تقرض الأشجار . ولما استبطأها الاله ، أرسل فى اثرها شاة لتبلغ الرسالة . فذهبت الشاة ولكنها لم تبلغ الرجال ما أمرها الاله به ، اذ أنها غيرت الرسالة وقالت لهم : « انكم اذا متم مرة ، فانكم ستفنون الى الأبد ، ولن تبعثوا فى أى مكان » ولم تكد تمضى الشاة حتى وصلت العنزة وقالت للرجال : « ان الاله يقول لكم انكم حقا ستموتون ولكن هذه الميتة لن تكون هى نهايتكم ، لأنكم سوف ترجعون الى » . عندئذ رد عليها الرجال قائلين : لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل هذا ، فما أخبرتنا به الشاة من قبل ، سوف نلتزم به » ..

والرسولان فى رواية أخرى لهذه الحكاية التى تروى عن قبيلة « أشانتى » ، هما أيضا شاة وعنزة . ويعزى تحريف رسالة الخلود الى هذه أو الى تلك . ويقول « الأشانتيون » : ان الناس عاشوا فى سعادة زمنا طويلا ، لأن الاله كان يقيم بينهم ويتحدث معهم وجها لوجه . ولكن هذه الأيام المباركة لم تدم طويلا . فقد حدث فى يوم مشئوم أن كان بعض النسوة يسحقن الحنطة بالمدق فى الهاون ، بينما كان الاله واقفا ينظر اليهن . ولسبب ما تضايقت النساء من وقوف الاله بجوارهن وطلبن منه أن يرحل بعيدا عنهن . ولما رفض ، ضربنه بالمدق ، فانتابت الاله نوبة من الغضب الشديد واعتزل العالم الانسانى كلية ، ورحل الى عالم الآلهة . ومازال الناس يقولون حتى اليوم : « كم كنا نكون سعداء ، لولا هؤلاء النساء العجائز » .

وعلى الرغم مماحدث فقد كان الاله رحيما طيبا ، اذ أرسل من ملكوته البعيد رسالة الى الناس فى الأرض عن طريق عنزة يقول لهم فيها : « ان هناك شيئا يسمى الموت الذى يقضى على عدد منكم • ولكنكم لن تفنوا فناء كليا حتى عندما تموتون، اذ أنكم سوف تعودون الى فى السماء بعد ذلك» • وبهذا النبأ السعيد رحلت العنزة الى الناس • ولكنها قبل أن تصل الى بلدتهم ، أبصرت أيكة على قارعة الطريق أعجبها منظرها فتوقفت لتأكل من ورقها • ولما نظر الاله من السماء ، وأبصر أن العنزة تتلكأ فى السير ، أرسل شاة لتبلغ الناس الرسالة نفسها على التو • ولكن الشاة لم تبلغ الرسالة على نحو صحيح ، بل حرفتها تحريفا كليا وقالت لهم : ان الاله يبلغكم كلمته ، وهى أنكم ستموتون ، وفى هذا تكون نهايتكم » • أما العنزة فانها بعد أن انتهت من وجبتها ، أسرعت الى البلدة وأبلغت الناس الرسالة وقالت لهم : « أن الاله يرسل اليكم كلمته ويقول : حقا انكم ستموتون ، ولكن هذا لا يشكل نهايتكم ؛ لأنكم سترجعون اليه بعد الموت» • ولما سمع الناس كلام العنزة أجابوها قائلين : «لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل لك هذا ، ونحن نعتقد أن الرسالة التى حملتها الشاة الينا هى الرسالة الصحيحة » • وقد ابتلى الانسان بالموت منذ أن حدث سوء التفاهم المشئوم هذا • ويختلف الدور الذى لعبته كل من الشاة والعنزة فى رواية أخرى لهذه الحكاية تروى عن «الأشانتيين» • فالشاة هى التى حملت أولا رسالة الخلود من الاله الى الانسان • ولكن العنزة سبقتها وأبلغته نبأ موته بدلا من أن تبلغه بنبأ خلوده • وقد استقبل الناس ببراءتهم ، نبأ الموت بحماسة ، لأنهم ما كانوا يعرفون ما الموت ، وطبيعى أن الموت أخذ يفنيهم منذ ذلك الحين ••

واذا كانت الرسالة فى كل الحكايات السابقة ، قد أرسلها الاله للناس ، فان هناك حكايات أخرى رويت فى «توجولاند» فى غرب افريقيا، تحكى أن الرسالة أرسلت من قبل الناس الى الاله • فقد أرسل الناس الى الاله ذات يوم كلبا ليخبره بأن الناس يودون أن يعودوا الى الحياة بعد الموت • ومضى الكلب يحمل رسالة الناس الى الاله • ولكنه شعر بالجوع فى أثناء الطريق فدخل بيتا كان صاحبه يغلى أعشابا سحرية ، فجلس الكلب وقال لنفسه : «ان الرجل يطهو طعاما وأود أن آكل منه» • وفى أثناء ذلك كانت الضفدعة قد رحلت الى الاله لتخبره بأن الناس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد موتهم • ولم يكن هذا السلوك من قبل الضفدعة سوى مجرد فضول ووقاحة ، اذ لم يكن أحد قد طلب منها أن

تبلغ الاله هذه الرسالة ، ولكنها ذهبت على كل حال • أما الكلب الذى كان يراقب فى أمل الحساء وهو يغلى ، فقد أبصر الضفدعة تجرى مسرعة أمام باب البيت • ولكنه قال لنفسه ، سوف ألحق بها بعد ما أتناول شيئا من الطعام • ولكن الضفدعة سبقته وقالت للاله : «ان النـاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد ما يموتون» • ووصل الكلب من بعدها مباشرة وقال للاله : «ان الناس يودون أن يعودوا الى الحيـاة مرة أخرى بعد ما يموتون» وكان من الطبيعى أن يشعر الاله بالحيرة ، ورد على الكلب قائلا : « انني لا أفهم حقيقة هاتين الرسالتين ، ولكن حيث ان الضفدعة هى التى بدأت بعرض مطلب الناس ، فسأمتثل لمطلبها ، لا لمطلبك» • وهذا هو السبب فى أن الناس لا يعودون الى الحياة مرة أخرى بعد الموت • ولو أن الضفدعة اهتمت بشئونها الخاصة ، ولم تتدخل فى شـئون الناس لكان الأحياء يعودون بعد الموت الى الحياة حتى يومنا هذا • على أن الضفادع تحيا مرة أخرى عندما ترعد السماء فى بداية الفصل الممطر بعد أن تظل ميتة طوال فصل الجفاف الذى تهب فيه الرياح « الهارماتانية » (١)• ومن ثم ، فانك قد تسمع نقيق الضفدع فى المروج ، بينما تسقط الأمطار ويدوى الرعد • وبنـاء على ذلك فنحن نرى أن الضـفدعة قد حرفت الرسالة لصالحها • ولهذا اكتسبت الضفادع الخلود الذى حرم منه الانسان ••

ونلاحظ أن سبب ابتلاء الانسان بالموت فى هذه الحكايات يرجع الى خطأ فاضح أو الى خـدعة ماكرة دبرها أحد الرسـولين • على أن الموت لم يتسبب ، وفقا لرواية أخرى للقصة تنتشر انتشارا واسعا بين قبـائل «البانتو» فى افريقيـا ، عن خطأ ارتكبه الرسـول ، بل عن تردد الاله نفسه ، الذى انتهى الى أن يكون الانسان خالدا ، ثم عدل عن رأيه وقرر أن يفنيه أو أن يتركه يفنى • ولسوء حظ الانسان أن الرسول الذى كان يحمل رسالة الموت اليه وصل قبل الرسول الذى كان يحمل اليه رسالة الخلود • وقد قامت الحرباء فى هذا النوع من الحكايات ، بدور الرسول الذى حمل نبأ الخلود ، كمـا قامت السحلية بدور الرسول الذى حمل رسالة الفناء • فتحكى قبائل «الزولو» أن «أنكولونكولو» أن «الاله القديم القديم » ، كلف الحرباء أول الأمر بأن تحمل رسالة للناس وقال لهـا : «اذهبى الى النـاس وأخبريهم بأنهم لن يقضى عليهم بالمـوت» • فمضت الحرباء ، ولكنها كانت تزحف فى بطء كما أنها تلكأت فى الطريق لتأكل

(١) رياح قوية متربة تهب من الشمال الى الشرق على ساحل شمال غينيا •
(المترجمة)

ثمار التوت ذات اللون الأرجوانى من شجيرة «أوبو كويبيزافى» أو من شجرة التــوت • ويقول بعض النــاس أنهـــا تسلقت شجرة لتستلقى فى دفء الشمس وابتلعت الذباب حتى ملأت جوفها به ثم استغرقت فى نوم عميق• وفى أثناء ذلك راجع « الاله القديم القديم » نفسه فى هذا الأمر وأرسل بسرعة البرق سحلية من بعد الحرباء لتبلغ الناس رســـالة تختلف كل الاختلاف عن الرسالة الأولى • فلقد قال لها : « عندما تصلين الى الناس قولى لهم : « أنه قد قضى عليكم بالموت » • فرحلت الســـحلية وسبقت الحرباء ، وأبلغت الناس هذه الرســـالة وكرت راجعة الى « الاله القديم القديم » • ثم وصلت الحرباء بعد ذلك الى الناس تحمل اليهم النبأ السار بخلودهم وقالت بصوت عال : «لقد طلب منى أن أبلغكم أنكم لن تموتوا» • فرد عليها الناس قائلين : «لقد بلغتنا من قبلك رسالة السحلية ، اذ قالت لنا : «انه قد قضى عليكم بالموت • ومن ثم فنحن لن نستمع لرسالتك • وسوف نموت تنفيذا لرسالة السحلية» • ومنذ ذلك اليوم دارت على الناس دائرة الموت • ولهذا فان «الزولو» يمقتون السحلية ويقتلونها حيثما يتيسر لهم ذلك • فهم يقولون : «انها الشيء المقيت نفسه الذى أسرع الى الناس أول الأمر وأخبرهم أنهم سيموتون» • وبعضهم يمقتون الحرباء ويبعدونها عنهم أو يقتلونها ويقولون : « انها الشيء الحقير الذى تلكأ فى حمل نبأ الخلود الى الانسان • ولو أنها أبلغت النبأ فى حينه لخلدنا وخلد أجدادنا ولمـا كان للمرض وجود على وجه الأرض • ولكن تلكؤ الحرباء تسبب فى حرماتنا من هذا كله » •

وتحكى قبائل أخرى من قبائل «البانتو» هذه الحكاية على هذا النحو نفسه على وجه التقريب • وهذه القبـــائل هى : البيتشوانا وانباسوتو والبارونجا والنجونى كمما يبدو أن قبيلة «واسانا» التى تسكن «افريقيا الشرقية البريطانية» تحـــكيها كذلك • ويحكيها بتغيـــير طفيف شــعب «الهاوسا» الذى لا ينتمى الى قبائل البانتو • ولا تزال قبيلتا «بارونجا» و «نجونى» تكنان الضغينة للحرباء حتى اليوم ، لأنها جلبت الموت للعالم بسبب اهمالها • فاذا هم رأوا الحرباء تتسلق احـــدى الأشجار فى بطء أخذوا فى اغاظتها حتى تفتح فمها ، فيضعون عندئذ على لسانها قطعة من التبغ ، ثم يراقبونها فى متعة وهى تتلوى من الألم وتغير لونهـا ، وهى تعانى سكرات الموت ، من اللون البرتقالى الى اللون الأخضر ، ومن اللون الأخضر الى اللون الأسود • وبهذا ينتقمون لأنفسهم من الحـــرباء بسبب الكارثة الكبرى التى جلبتها لبنى الانسان •

وهكذا نرى أن الاعتقاد فى أن الاله قد فكر ذات مرة فى أن يمنح الانسان الخلود دون أن تتحقق هذه الفكرة الطيبة نتيجة خطأ ارتكبه الرسول الذى عهد الاله اليه بتبليغ البشارة للانسان ـ قد انتشر فى افريقيا انتشارا واسعا ·

٣ ـ حكاية تغيير الجلد :

يعتقد كثير من البدائيين أن بعض الحيوانات وبصفة خاصة الثعابين، يتجدد شبابها ولا تموت أبدا ، بفضل مقدرتها على تغيير جلدها فى مواسم معينة · وهؤلاء يحكون بسبب تصورهم هذا ، حكايات تبين كيف اكتسبت هذه الحيوانات ، بناء على ذلك ، منحة الخلود ، وكيف حرم الانسان منها ·

ومثال ذلك ما تحكيه قبيلتا «وافيبا» و «وابندى» اللتان تسكنان فى «افريقيا الشرقية» ، من أن الاله الذى يسمونه «ليزا» هبط ذات يوم الى الأرض وسأل الكائنات الحية جميعها قائلا : « من منكم يود ألا يموت ؟ » ولسوء الحظ كان الناس نائمين ، وكذلك كل صنوف الحيوان ، فيما عدا الحية التى كانت مستيقظة آنذاك فردت هذه على سؤال الاله قائلة « أنا أرغب فى هذا » · ولهذا فان الانسان وكل صنوف الحيوان فيما عدا الحيات ، يموتون · أما الحية فلا تموت الا اذا قتلت ، فاذا لم تقتل فانها تغير جلدها ، وبذلك يتجدد شبابها كما تتجدد قوتها · وشبيه بهذه الرواية ما يحكيه « الدوسون » سكان « شمال يورينو البريطانية » ، فهم يقولون : ان الخالق ـ حينما فرغ من خلق كل شىء ـ سأل الكائنات الحية: « من منكم يستطيع أن يغير جلده ؟ · ان من يفعل هذا لن يموت أبدا» · ولم يطرق هذا السؤال سمع أحد من الكائنات الحية سوى الثعبان الذى أجاب على الفور : «أنا أستطيع أن أفعل هذا» · ولهذا السبب فان الثعابين حتى يومنا هذا ، لا تموت الا اذا قتلها الانسان · أما « الدوسون » فلم يسمعوا سؤال الاله ، ولو أنهم سمعوه لغيروا جلودهم كذلك ، ولأصبحوا خالدين ·

وكذلك يحكى « التودجو تورادجا » سكان « سيليبس الوسطى » أن الاله استدعى الناس وصنوف الحيوان ذات يوم لكى يقرر معهم مصيرهم · ومن بين المصائر المختلفة التى قدمها الاله ما قاله لهم : « انكم ستغيرون جلدكم القديم» · ولسوء الحظ أن الجنس البشرى كانت تمثله فى هذه المناسبة المصيرية امرأة عجوز لم يمكنها تدهور قواها العقلية من الاستماع الى هذا الاقتراح المغرى ، فى حين سمعته الحيوانات التى تغير

جلدها مثل الثعابين ، وحيوان الجمبرى الذى يعيش فى البحر • وطبيعى ان هؤلاء وافقوا على هذا الاقتراح • ومرة أخرى نجد أن اهالى جزيرة « فواتوم » ، وهى جزيرة تقع فى«أرخبيل بسمارك»يقولون : ان كائنا بعينه يدعى «كونوكونو ميـــانجى» طلب من غلامين أن يحضرا نارا ، ووعدهما أنهما لن يذوقا طعم الموت ، ان هما لبيا رغبته ، أما اذا لم يلبيا رغبته فان جسديهما سيفنيان ، ولن يبقى خالدا ســوى ظليهما أو روحيهما • ولكن الغلامين لم يولياه أذنا صاغية ، فصب عليهما اللعنة قائلا : «لقد كنت أعمل على أن يخلد الجنس البشرى بأسره ، أما الآن فســوف يفنى الى الأبد ، وان ظلت أرواحه خالدة • أما الضـــب « الجونيكيفالوس » والســـحلية «فارانوس انديكوس» ، والحية «اينجروس» فسوف تعيش الى الأبد ؛ لأنها ستغير جلدها القديم على الدوام • » ولما سمع الغلامانهذا الكلام بكيا وندما أشد الندم على سلوكهما الأحمق فى عدم تلبية رغبة « كونوكونو ميانجى» واحضار النار له •

ويحكى «الأراواك» سكان غانا البريطانية أن الخالق هبط ذات يوم الى الأرض ليستطلع أحوال مخلوقه الانسان • ولكن الناس كانوا غاية فى الحمق ، الى درجة أنهم حاولوا أن يقتلوا الخالق • ولهذا فقد حرمهم الخالق الخلود ، ومنحه صنوف الحيوان التى تغير جلدها مثل الثعابين والسحالى والخنافس • وتحكى قبيلة « تاماناشير » ، وهى قبيـلة هنـــدية تسكن «أورينوكو» ، رواية مختلفة بعض الشىء عن الرواية السابقة • فهى تروى أن الخالق بعد أن مكث بعض الوقت بين الناس ، استقل قاربا ليعبر به الى الشاطىء الآخر من البحر المالح الشاسع الذى كان قـد ركبه اليهم • ولم يكد يتجاوز الشـــاطىء حتى صاح بهم فى نغمة مختلفة وقال لهم : «انكم ستغيرون جلودكم» • وكان يعنى بهذا أن يقول لهم: «انكم ستجددون شبابكم كما تفعل الحيات والخنافس» • ولسوء الحـظ أن كانت امرأة عجوز تستمع الى هذه الكلمات،فصرخت فى نغمة ، ملؤها الشك ، انلم تكن ملؤها السخرية ، وقالت «آه» • فتضايق الخالق كل الضـــيق ، وتغيرت نغمة صوته فى الحال وقال غاضبا : « آنكم ستموتون » • وهذا هو سبب ابتلاء الناس بالموت •

ويحكى أهالى «نياس» ، وهى جزيرة تقع فى غرب «سومطرة» ، أن كائنا بعينه أرسل من السماء الى الأرض التى كان قد تم خلقها ، ليضع عليها اللمسات الفنية الأخيرة • وقد كان ينبغى على هذا الكائن أن يكون صائما فى هــذه الحالة • ولكنه لما لم يستطع أن يتحمل وخز الجوع ، فقد

أكل بعض الموز · وقد كان اختياره لهذا النوع من الطعام غير موفق ، اذ لو كان قد أكل من سرطان النهر ، لغير الناس جلودهم كما يفعل هـذا الحيوان ، ولعاشوا الى الأبد نتيجة تجدد شبابهم على الدوام · ولكن حيث ان الكائن المعنى قد أكل ثمار الموز ، فقد ابتلى الانسـان بالموت نتيجة ذلك (١) · ونضيف رواية أخرى تروى عن أهالى جزيرة «نياس» كذلك أن «الحيات ، على العكس ، أكلت السرطان النهرى الذى يغير جلده ولا يموت وفقا لاعتقاد سكان «نياس» · ولهذا فان الحيات لا تموت كذلك ، بل تغير جلدها فحسب » ··

ويلاحظ أن خلود الحيـــات فى هذه الرواية الأخيرة يعزى الى أكلها سرطان النهر الذى يجدد شبابه كلما غير جلده ، وبذلك تعيش الى الأبد· وكذلك يعزى خلود السمك الصدفى الى السبب نفسه ، وذلك فى رواية «ساموائية» تحكى عن أصل الموت · ففيها يروى أن الآلهة عقدت مجلسا لتقرر مصير الانسان · وأبدى أحدهم اقتراحا هو أن يغير الناس جلودهم كما يفعل السمك الصدفى وبذلك يتجدد شبابهم · ولكن الاله « بالسى » رأى ، على العكس ، أن يغير السمك الصدفى جلده فيتـجدد شـبابه على الدوام ، فى حين يحتفظ الانسان بجلده حتى يهرم ويموت ، وبينما كانت المداولة تدور ، قبل أن ينعقد المجلس رسميا ، هطلت الأمطار لسوء الحظ وعطلت مناقشة هذا الموضوع · وفى الوقت الذى أخذت الآلهة تجرى فيه لتبحث لها عن مأوى من المطر ، ووفق على رأى «بالسى» بالاجماع · ولهذا السبب فان السمك الصدفى ما زال يغير جلده حتى اليوم ، فى حين يعجز الانسان عن فعل ذلك ·

وهكذا يبدو لنا أن عددا غير قليل من الشعوب ، يعتقد أن هبة الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بسيطة تتمثل فى تغيير الجلد بانتظام فى فترات ثابتة ، كانت يوما ما فى متنـــاول الجنس البشرى ، ولـكنها تحولت عنه الى الكائنات الدنيئة ، نتيجة حدث غير ســعيد ، فاكتسبتها نتيجة ذلك الحيات وسرطان النهر والسحالى والخنـافس · على أن هناك شعوبا أخرى تعتقد أن الجنس البشرى كان يستحوذ بحق فى وقت ما على تلك الهبة التى لا تقدر بثمن ، ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز ·

---

(١) من المعروف أن شـجرة الموز الأم تنبت الى جانبها شـجيرة قبل أن تموت · وقد أصبح الانسان مثل شجرة الموز بعد أن أكل منها هذا الكائن · فهو يترك أولادا من بعده وأما هو فيموت ·

(المترجمة)

«فالميلانيزيون» سكان «جزر البانك» ومثلهم سكان جزر «الهبريد الجديدة» يقولون : ان الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الامر على الاطلاق ، بل لأن الناس يغيرون جلودهم حينما يهرمون ، كما تفعل الحيات وسرطان الماء ، وبذلك كانوا يستعيدون شبابهم • ثم حدث بعد مرور وقت أن ذهبت امرأة عجوز الى النهر لتغير جلدها فى الماء • وهذه المرأة ، وفقا لما يقوله بعض هؤلاء السكان ، هى أم البطل الأسطورى « كات » ، وهى ، وفقا لما يقوله البعض الآخر «أول ــ تا ــ ماراما» ، صاحبة الجلد المتغير فى العالم • فلما وصلت هذه المرأة الى النهر ، انتزعت جلدها القديم وألقت به فى الماء • ولكنها لاحظت ، أن جلدها اصطدم ، وهو يهبط الى قاع النهر ، بعصا • على أنها عادت بعد ذلك الى بيتها حيث كانت قد تركت ابنها • ولما أبصرها الابن رفض أن يعترف بها بوصفها أمه ، وصرخ فى وجهها قائلا : ان أمه كانت عجوزا ولا تمت لهذه المرأة الشابة الغريبة بصلة • فرجعت الأم الى النهر ، واستردت جلدها القديم ، لكى تطيب خاطر ابنها ، ولبسته • ومنذ ذلك اليوم كف الجنس البشرى عن أن يغير جلده ومن ثم أخذ يتعرض للموت •

ويحكى سكان «جزر شورتلاند» وبالمثل قبيلة «كاى» وهى قبيلة من «البابو» تسكن شمال شرق «غينيا الجديدة» ، حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن أصل الموت • فقبيلة «كاى» تحكى أن الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر ، ولكن الناس كانوا يغيرون جلودهم • فعندما كانت جلودهم القديمة ذات اللون البنى تتجعد وتصبح قبيحة الشكل ، كانوا ينزلون الى النهر ، ويخلعونها ، ويرتدون بدلا منها جلودا جديدة بيضاء تنطق بالشباب • وفى هذه الأيام كانت هناك جدة عجوز تعيش مع حفيدها • وفى يوم من الأيام ضاقت الجدة ذرعا بهرمها وذهبت لتستحم فى النهر ، وخلعت عنها جلدها الذابل ، وعادت الى القرية جديدة كل الجدة فى جلدها القشيب • وبهذه الصورة المتغيرة صعدت السلم ودخلت البيت • وعندما أبصرها حفيدها على هذا النحو بكى وصرخ • وأبى أن يصدق أنها هى بعينها جدته • وفشلت كل محاولاتها معه فى تهدئته واقناعه بأنها جدته • وأخيرا عادت فى غضب الى النهر واصطادت جلدها القديم المجعد ولبسته ، ورجعت الى بيتها عجوزا شمطاء قبيحة الشكل • وسعد الولد برؤية جدته مرة أخرى ، ولكنها قالت له : «ان الجراد يغير جلده ، أما نحن البشر فسوف نموت من الآن فصاعدا» • وقد ابتلى البشر بالموت حقا منذئذ • ويحكى سكان «جزر أدميرالتى» هذه الحكاية بعينها مع تغيير طفيف • فهم يقولون انه كان فى سالف الزمان امرأة عجوز ضعيفة،

وكان لها ولدان خرجا ليصطادا ، بينما ذهبت هى لتستحم · وهناك فى الماء خلعت جلدها القديم وارتدت جلداً جديدا ، ورجعت الى بيتها شابة كما كانت منذ زمن طويل · فلمـا عاد ولداها من الصيد وأبصراها دهشا لمنظرها ، فقال أحدهما للآخر : «انها أمنا» فرد عليه الآخر قائلا : « ربما كانت أمنا ، ولكننى سأتخذها زوجة لى » · وسمعت الأم هذا الحـديث مصادفة ، فسألتهما قائلة : «ماذا كنتما تقولان الآن ؟» · فرد عليها الولدان قائلين : «اننا لم نقل شيئا سوى أنك أمنا» · فقالت الأم : «انكما تكذبان، فلقد سمعت حديثكما · ولو أننى ملكت من الأمر شـــيئا لكنا نكبر فى السن ـ رجالا ونساء ـ ثم نغير جلودنا فنعود فتيانا وصبايا · ولكنكما شئتما أن تتبعا أهواءكما،ولذلك فسوف نكبر ونهرم ثم نموت» ·وعند ذاك عادت الأم الى الماء وأحضرت جلدهـــا القـــديم وارتدته فارتدت امرأة عجوزا · ولذا فنحن سلالتها نكبر ونهرم · ولولا هذان الولدان المتهوران لما كانت هناك نهاية لأيامنا ، ولعشنا الى الأبد ·

فاذا ابتعدنا عن «جزر البانك» ، فاننا نجد أن قبيلة « توكولاوى » وهى قبيلة جبلية تسـكن « سيليبس الوسطى » تحـكى حـكاية شبيهة بالحـكاية السابقة الى حد كبير · وتروى هذه الحـكاية ـ وفقا لما ذكره المبشرون الهولنديون الذين اكتشـــفوها منتشرة على نطاق واسع ـ على النحو التالى : كانت للناس فى قديم الزمان المقدرة على تغيير جلودهم على نحو ما تفعل الحيات وبراغيث البحر (الجمبرى) ، ومن ثم كانوا يستعيدون شبابهم دائما أبدا · وكانت بينهم امرأة عجوز تعيش مع حفيدها · وذهبت الجدة لتستحم ذات مرة ، وخلعت جلدها القديم ، وعلقته على شـــجرة ، وارتدت جلدا جديداً · ثم عادت الى بيتها وقد استعادت شبابها · ولكن حفيدها لم يستطع أن يتعرف عليها ، ومن ثم لم يكترث بمقدمها ، وأخذ يقول لها : «انك لست جدتى، لأن جدتى كانت عجوزا وأنت امرأة شابة» · فعادت المرأة توا الى الماء واستعادت جلدها القـديم وارتدته · ومنذ ذلك اليوم لم تعد للناس المقدرة على استعادة شبابهم ، ومن ثم صاروا يموتون ·

وبينما يعتقد بعض الناس أن الجنس البشرى كان خالدا فى الأزمنة الأولى بفضل المقدرة التى اكتسبها على تغيـير جلده بانتظـام ، فان هناك آخرين يعزون هذه الخاصية الى تعـاطف بين الانسان والقمر · فالانسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت الى غير نهاية ، مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله ·

فالانسان وفقا لوجهة النـظر هـذه ، يموت بحق ، ولكنه سرعان

ما يبعث فيما يبدو بوجه عام بعد موته بثلاثة أيام ، وهى المدة التى تفصل بين اختفاء القمر القديم وظهور القمر الجـــديد ، فقبيلة « منتراس » أو «مانتراس» الهمجية التى تعيش منعزلة فى أحراش شبه جزيرة الملايو ، تزعم أن الناس فى العصور الأولى لخلق العالم لم يذوقوا طعم الموت ، بل كانوا يتضاءلون مع تضاؤل القمر ، ثم تعود أجسامهم الى وضعها الطبيعى مع اكتمال نموه • ولم يكن السكان يتحققون من تعدادهم الذى كان يتزايد تزايدا مخيفا • ولكن ابن الرجل الأول لفت نظر أبيه الى هـــذا الأمر ، وسأله عما يجب فعله ازاء هـــذا التزايد المطرد • ورد الرجل ذو الروح البسيطة الطيبة قائلا : « دع الأمور تسير على ما هى عليه » • ولكن الابن الثانى الذى كان ينظر الى هذا الأمر نظرة أكثر «مالثوسيانية» (١) من ذلك قال لأبيه : «بل لنترك الناس يموتون كما تموت شجرة الموز ، تاركة ذريتها تعيش من بعدها » • وعند ذاك طرح الأمر على اله العالم السفلى الذى تبنى رأى الابن الثانى • ومنذئذ لم يعد الناس يستعيدون شبابهم من جديد كما يفعل القمر ، بل أصبحوا يموتون كما تموت شجرة الموز •

ويروى أهالى « جزر كارولين » أن الناس لم يكونوا يعرفون الموت فى الأزمنة القـــديمة ، أو هم بالأحرى كانوا ينظرون اليه بوصفه فترة نوم وجيزة • فالناس يموتون فى اليوم الذى يصبح فيه القمر محـــاقا ، ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى مع ظهور القمر الجديد ، وكأنهم يستيقظون بعد غفوة يستعيدون بعدها نشاطهم • على أن روحا شريرا دبر بعد ذلك مؤامرة لكى لا يستيقظ الناس قط عندما يغفون اغفاءة الموت • وقد حكت قبيلة « ووت جوبالوك » ، وهى قبيلة تسكن جنوب شرق استراليا ، أنه عندما كانت الحيوانات جميعا فى هيئة رجال ونساء ، وكان بعضها يموت، كان القمر يصيح بها قائلا : « هيا استيقظوا » • وعند ذاك يعود الناس الى الحياة مرة أخرى • على أنه حدث ذات مرة أن قال رجل هرم : « بل ليمت الناس الى الأبد » • ومنـــذ ذلك الوقت لم يعد أحد الى الحيـــاة بعد الموت ، فيما عدا القمر الذى يموت ويحيا حتى يومنا هذا • ويروى عن قبيلتى « أونتماتجيرا » ، و « كايتش » وهما قبيلتـــان تسكنان وسط استراليا ، أنهم تعودوا أن يدفنوا موتاهم اما فى الأشجار أو تحت الأرض ،

---

(١) نسبة الى « مالثوس » الذى عاش فيما بين (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤م) • وهو صاحب النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وبأن النسل يجب أن يحدد •

(المترجمة)

وبعد ثلاثة أيام يعـــود هؤلاء الموتى بانتظام الى الحيـاة كما تحكى قبيلة « كايتش » عن انقضاء هذه الأيام السعيدة،فتقول: ان هذا حدث نتيجة خطأ ارتكبه رجل ينتسب الى «الكروان» الطوطم ، فقد أبصر هذا الرجل بعض الرجال الذين ينتسبون الى «الكنغر الصغير» الطوطم ، وهم يشرعون فى دفن رجل من جماعتهم · ولأمر ما استشاط الرجل الأول غضبا ، وركل الجسد فدفعه الى البـحر · وكان من الطبيعى ألا يعود هـذا الرجل الى الحياة بعد ذلك · وهذا هو السبب فى أن موتاهم لا يعودون الى الحياة بعد موتهم بثلاثة أيام كما تعودوا أن يفعلوا هذا من قبل ·

وعلى الرغم من أن هذه الحكاية التى تحكى عن أصل الموت ، لا تذكر شيئا عن القمر ، فانه من المحتمل ، اذا ما قارنا هذه الحكاية بما سبق من حكايات ، أن تكون الأيام الثلاثة التى تعود الميت أن يرقد خلالها فى القبر قبل أن يعود الى الحياة ، هى بعينها الأيام الثلاثة التى « يختفى فيها القمر فى كهفه الشاغر عندما يصبح محاقا» · وبالمثل ربط «الفيجيون»(١) بين احتمال خلود الانسان وأطوار نمو القمر ، وان لم يذكروا أن الانسان ظل يتمتع بالخلود بحـــق حقبة من الزمن · فهم يذكرون أن الهين من الآلهة القديمة ، وهما الاله «القمر» والاله «الفأر» ، تناقشا فى أمر نهاية الانسان على وجه التحديد · فقال الاله «القمر» : «لندع مصير الانســان يكون مثل مصيرى ، فيختفى فترة ثم يعود الى الحيــاة مرة أخرى» · فرد عليه الاله «الفأر» قائلا : «بل ندعه يموت كما تموت الفئران» · وقد كان رأى الاله « الفأر » هو الفائز ·

ويحكى « الأوبوتيون » سكان الكنغو كيف أن الانســـان فاتته هبة الخلود ، فى حين حصل عليها القمر ، فيقولون : ان الاله الذى يطلقون عليه اسم « ليبانزا » أرسل ذات يوم فى طلب سكان القمر وسكان الأرض · فخف سكان القمر الى الاله ، ومن ثم فقد كافأهم الاله جزاء امتثالهم السريع لأمره ، فلقد قال للقمر : « انك لن تموت أبدا ؛ لأنك جئت الى توا عندما ناديتك · ولن تموت فى كل شهر سوى يومين ، لم أقصد بهما الا راحتك، ثم تعود بعدهما الى الحياة أكثر بهاء » · فلما مثل أهل الأرض بعد ذلك أمام الاله « ليبانزا » تحدث اليهم فى غضب وقال : «أما أنتم يا أهل الأرض، فلأنكم لم تلبوا ندائى توا · فانكم ستموتون حتما ، ولن تعودوا الى الحياة مرة أخرى ، الا عندما تبعثون الى » ·

---

(١) هم سكان جزر « فيجى» وهى مجموعة جزر فى المحيط الهادى · (المترجمة) ·

ولا يربط « الباهناريون » سكان شرق « كوشنصين »(1) بين خلود الانسان البدائى وأطوار نمو القمر ، كما أنهم لا يعزونه الى تغيير الانسان لجلده ، بل يعزونه الى قدرة شجرة معينة على الشفاء • فهم يقولون : انه حينما كان الناس فى بداية الحياة يموتون ، كانوا يدفنـــون عنــد جذع شجرة تسمى «لونج بلو» ، ثم يبعثون فى العــادة بعد مضى وقت ، لا فى صورة أطفال بل فى صــــورة رجال ونساء مكتملى النمو • وبذلك عمرت الأرض بالناس فى مدة وجيزة ، وكانوا جميعا يسكنون بلدة واحدة يشرف عليها الأبوان الأولان •

وقد أخذ عدد الناس يتزايد تزايدا بالغا الى درجة أن سحلية بعينها لم تكن تزحف على وجه الأرض دون أن تطأ قدم أى فرد ذيلها • فتضايقت وقدمت لحفارى القبور نصيحة غادرة وقالت لهم : «لماذا تدفنون الموتى عند شجرة «لونج بلو» ؟ ادفنوهم عند شجرة «لونج خونج» فلا يعودون الى الحيــاة مرة أخـــرى • أتركوهم يموتون ميتـــة واحدة وكفى » وعمل حفارو القبور بهذه النصيحة ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأموات الى الحياة مرة أخرى •

ونلاحظ فى هذه الحكاية الأخـــيرة ، كما هى الحال فى كثير من الحكايات الافريقية ، أن سبب ابتلاء الانسان بالموت يرجع الى السحلية • ويمكننا أن نحدس أن السبب فى نسبة هذا العمل الذى يتسم بالغدر الى السحلية ، هو أن السحلية شأنها شأن الثعبان ، تغير جلدها فى أوقات معينة من الســـنة ، الأمر الذى دعا الانســـان البدائى الى أن يعتقد أن السحلية ، مثل الثعبان ، يتجدد شبابها بتغيير جلدها ، ومن ثم فهى تعيش الى الأبد • وعلى ذلك ، فربما كان الدافع وراء نشأة الأساطير التى تحكى كيف أصبحت الحية أو السحلية الرسول الشرير الذى حمل رسالة الفناء للانســـان ، يرجع الى فكرة قديمة عن غــيرة بعينها وتنافس بين الناس والمخلوقات التى تغير جلدها ، وبصفة خاصة الحيات والسحالى ، بل ربما افترضنا أن أية حكاية نشأت حول هذا الموضوع ، كانت تصور الصراع بين الانسان والحيوان الذى ينازعه الحصـــول على الخلود ، وهو صراع تم النصر فيه ، سواء كان ذلك نتجية خطأ أو بسبب تدبير مكيدة ، للحيوانات

---

(1) هو اقليم دلتا نهر ميكونج الذى يقع فى جنــوب فيتنام وينتمى هــذا الاقليم اليوم الى كمبوديا •

(المترجمة)

التى أصبحت من بعد خالدة • أما الانسان فقـد صبت عليه لعنة الابتلاء بالموت •

٤ ـ الحكاية التى جمعت بين الرسالة المحرفة وتغيير الجلد :

تجمع بعض الحكايات التى تحكى عن أصل الموت ، بين موضـوع الرسالة المحرفة وموضوع تغيير الجلد • فان « الجالا » الذين يسكنون فى شرق أفريقيا يعزون فناء الانسـان وخلود الحيات الى خطأ ارتكبه طائر معين ، أو نتيجة مكيدة منه ، فحرف لذلك رسالة الخلود التى عهد اليه بها الاله لكى يبلغها للانسان • والطائر الذى أخطأ هذا الخطأ الذريع فى حق الانسان ، ذو لون أسود أو أزرق داكن ، وله بقعة بيضاء على كل من جناحيه ، كما أن له تاجا على رأسه • وهو يحط على قمم الأشجار ويعول عويلا شبيها بثغاء الشاة ، ومن ثم فان « الجالا » يسمونه « هولاواكا » أى « شاة الاله » وهم يفسرون ما يبدو على هـذا الطائر من حزن خلال الحكاية التالية • فقد أرسل الاله هذا الطائر ذات مرة للناس ليخبرهم أنه لا ينبغى لهم أن يموتوا ، وانما ينبغى أن يغيروا جلودهم عندما يبلغ بهم الكبر والوهن مبلغهما ، وبذلك يتجدد شبابهم • ولكى يضفى الاله على هذه الرسالة صفة الشرعية ، وضع فوق رأس هذا الطائر تاجا ليكون علامة على المهمة السامية التى كلفه الاله بها • وطار الطائر على الفور ليبلغ الانسـان نبأ الخلود السعيد • على أنه لم يكن قد طار الى مسافة بعيدة عندما صادف حية تأكل من جيفة • فنظر الطائر الى الجيفة بشهية بالغة وقال للحية : « اعطينى شيئا من لحم الجيفة ودمها وأنا أفشى لك برسالة الاله الى البشر » • فردت الحية عليه بجفاء وقالت له : « اننى لا أرغب فى سماع فحوى هذه الرسالة » • ثم استأنفت أكلها • ولكن الطائر أخذ يلح عليها فى أن تستمع الى الرسالة حتى وافقت فى شىء من التردد • عند ذلك قال الطائر : « ان الرسالة كالآتى : اذا تقدم السن بالانسان فانه سيموت ، فى حين أنك عندما تهرمين فستغيرين جلدك وتجددين شبابك » • وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون بعد أن يبلغ بهم الكبر مبلغه ، فى حين أن الحياة يتجدد شبابها على الدوام بتغيير جلدها • وقد عـاقب الاله هذا الطائر المهمل أو الأحمق بسبب تحريفه البالغ للرسالة ، وذلك بأن ابتلاه بداء أبدى وبيل ما زال يعانى منه حتى الآن • وهذا هو السبب فى أن هذا الطائر يقف فوق قمم الأشجار ويعول هذا العويل • وبالمثل يحكى « الميلانيزيون » الذين يسـكنون ساحل « شبه جزيرة الغـزال » فى « نيوبريتن » أن « توكامبينانا » الروح الطيب كان يحب الناس ويود أن

يجعلهم خالدين . فاستدعى أخاه « توكورفوفو » وقال له : « اذهب الى الناس وافش لهم سر خلودهم . قل لهم أن يغيروا جلودهم مرة فى كل عام ، وبذلك يتحصنون ضد الموت ، لأن حياتهم ستجدد بذلك على الدوام وعليك أن تخبر الحيات أنها ستموت حتما من الآن فصاعدا » . على أن « كورفوفو » لم يحسن أداء الرسالة ، فقد أمر الناس أن يموتوا ، وأفشى فى الوقت نفسه سر الخلود للحيات . ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنس البشرى فانيا، فى حين أصبحت الحيات تغير جلدها مرة فى كل عام ، ولهذا فانها تعيش الى الأبد . وتروى فى « أنام » (١) حكاية عن أصل الموت شبيهة بالحكاية السابقة . فهناك يقول الأهالى : ان « نحبك هوانج» أرسل رسالة من السماء الى الناس يقول لهم فيها : انه يتحتم عليهم أن يغيروا جلودهم عندما يهرمون ، وأن يعيشوا بهذه الوسيلة الى الأبد ، أما الحيات فيتحتم عليها أن تفنى عندما تهرم . فلما هبط الرسول الى الأرض أبلغ الناس الرسالة صحيحة بحق . فلقد قال لهم : « ان الانسان سوف يغير جلده عندما يهرم ، أما الحيات فسوف تموت عندما تكبر ، وتوضع فى اللحد » والى هذا الحد سارت الأمور على خير ما يرام . ولكن لسوء الحظ ، أنه كان هناك عدد من الثعابين الصغيرة يستمع لهذا القول . فلما علمت الثعابين أن اللعنة قد حلت ببنى جنسها تملكها الغضب وقالت للرسول : « أعد كلامك واعكس العبارة والا لدغناك » . فخاف الرسول وأعاد العبارة وغيرها على النحو التالى : « اذا كبرت الحيات فانها ستغير جلدها ، أما الانسان فسوف يموت عندما يكبر ويوضع فى اللحد » . وهذا هو السبب فى أن كل المخلوقات تفنى فيما عدا الحيات ، فانها تغير جلدها عندما تكبر ، ولهذا فهى تعيش الى الأبد .

خاتمة :

وهكذا نرى أن الفيلسوف البدائى ـ قياسا على حكايات القمر أو حكايات الحيوان الذى يغير جلده ـ أشار الى أن كائنا طيبا قد وعد أبناء الجنس البشرى فى بداية الحياة بهبة القدرة على تجديد شبابهم على الدوام ، أو أنهم كانوا يتمتعون بهذه النعمة حقا . ولولا حدوث جريمة أو حادثة أو خيانة لظلوا يتمتعون بهذه النعمة حتى اليوم . أما الشعوب التى تربط فكرة خلود الجنس البشرى بتغير الحيات أو السحالى أو الخنافس أو ما أشبه

---

(١) يعد هذا الاقليم أصل فيتنام . (المترجمة)

ذلك ، لجلودها ، فهى تنظر بطبيعة الحال الى هذه الحيوانات بوصفها منافسا بغيضا سلبهم الارث الذى شاء الاله ، أو شاءت الطبيعة أن تمنحنا اياه حقا · ومن ثم فان هذه الشعوب تحكى حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبرت مكيدة لكى تحرم الانسان من هذا الحق الذى لا يقدر بثمن · وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشارا كبير فى أنحاء العالم ، وليس غريبا أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية · ويبدو أن قصة سقوط الانسان التى تروى فى الفصل الثالث من سفر التكوين ، تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية ، فهى فى حاجة الى قليل من الاضافة حتى يكتمل تشابهها بمثيلاتها التى لا تزال القبائل البدائية تحكيها فى بقاع كثيرة من العالم · فالجزء المحذوف فى الحكاية العبرية ، وربما كان الجزء الوحيد ، هو الذى يتمثل فى سكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحياة ، وما نتج عن ذلك من حصول هذا الحيوان الدنىء على الخلود · على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة فى الحكاية العبرية ، فالاتجاه العقلانى الذى يبدو فى ثنايا قصة الخلق العبرية ، ذلك الاتجاه الذى سلبها كثيرا من الملامح التى تزين الرواية البابلية المطابقة لها ، أو تشوهها ، قد شكل عقبة فى سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة الى الحية · وقد استبعد مؤلف القصة فى صيغتها الأخيرة عاقبة الاساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة ، هى حذف هذه الحادثة كلية من القصة العبرية · ومع ذلك فان هذه الفجوة الواسعة التى أحدثها الكاتب فى القصة العبرية نتيجة تطفله ، لم تغب عن الدارسين الذين أخذوا يجيلون النظر ، فى غير جدوى ، فى الدور الذى كان يجب أن تلعبه الحياة فى القصة العبرية · واذا كان تفسيرى للقصة العبرية صحيحا فاننى أدعه للمنهج المقارن لكى يسد الفجوات فى التراث الفنى القديم ، بعد أن مرت عليه آلاف السنين ولكى يحتفظ له ، على ما فيه من سذاجة بدائية ، بالألوان البربرية المرحة التى خففت من حدتها أو محتها يد الفنان العبرى الماهرة ·

الفصل الثالث

علامة قابيل

نقرأ فى سفر التكوين أن « قابيل » لفظه مجتمعه عندما قتل أخاه « هابيل » وأصبح بعد ذلك هائما شريدا على وجه الأرض • ولما كان يخشى من أن يقتله أى فرد يقابله ، احتج على الرب لما آل اليه حظه العثر • وأشفق الرب عليه كل الاشفاق ، الى درجة أن « جعل الرب لقابيل علامة لكى لا يقتله كل من وجده » (١) •

فما العلامة التى ميز بها الرب أول قاتل على وجه الأرض ؟ أو ما الاشارة التى حددها له ؟

من المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتلة • وعلى الرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نأمل فى أن نحدد الشكل الحقيقى لهذه العلامة أو الاشارة ، فان الموازنة بين العادات التى يتبعها القتلة فى بقاع أخرى من العالم ، ربما أعانتنا على تفهم ملامحها العامة على الأقل •

لقد رأى « روبرتسون سميث » أن تلك العلامة التى نتساءل عنها ، كانت علامة القبيلة ، وهى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الاشارة الى أنه ينتمى الى جماعة يمكن أن تثأر لقتله • ومن المؤكد أن مثل هذه العلامة مألوفة بين الشعوب التى احتفظت

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ •

بالنظام القبلى • ومثال ذلك ، هناك شعار رئيسى تعرفه القبائل البدوية التى تعيش فى العصر الحاضر يتمثــل فى طريقة معينـــة فى تصفيف شعورهم • وفى كثير من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة فى افريقيا ، يكون شعار القبيلة وشما أو « شلخا » يحفر فى عضو من أعضاء الانسان - ومن المحتمل أن تكون وظيفة هذه الشعارات هى حماية الفرد الذى ينتمى الى قبيلة ما على نحو ما افترض « روبرتسون سميث » • على أنه ينبغى لنا آن نتذكر ، من ناحية أخرى ، أن هذه الشعارات ، على العكس ، ربما زادت من خطورة موقف الفرد اذا ما كان فى بلد معاد لقبيلته ، ذلك لأنها تبرزه بوصفه شخصا معاديا لهم • على أننا اذا سلمنا بأن مهمة هذه الشعارات هى حماية حاملها ، فما زال هذا التفســـير ، اذا ارتضيناه بالنسبة لعلامة «قابيل» لايتلاءم مع موقف «قابيل» تماما ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة • فاذا كانت العلامة من شأنها أن تحمى كل فرد من أفراد القبيلة ، ســواء أكان قاتلا أم غير قاتل ، فان حوادث قصة قابيل فى مجموعها ، تنحو الى أن تبرز لنا أن علامة قابيل لم يكن يحملها كل فرد من أفراد جمــاعة « قابيل » ، وانما كانت خاصـــة بقابيل وحده • ومن ثم فنحن مضطرون لأن نبحث عن تفسير آخر من زاوية أخرى •

فنحن نخلص من حكاية « قابيل » نفسها الى أن قابيل كان معرضا لأخطار أخرى خلاف كونه معرضا لأن يقتله أى فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه • فلقد قال له الرب : « ماذا فعلت • صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها • تائها وهاربا تكون فى الأرض » (١) ••

ومن هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل ، فقد لوث دم القتيل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها • ومن ثم كان الاعتقاد فى أن القاتل قد بث السم فى منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقد عرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر • ومن المسلم به ، بناء على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذى يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام • انه أصبح أشبه بمبتلى بالطاعون ، ومحاطا بجو من السموم ، ومصابا بعدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده • وفى هــذا المجال يمكننا أن نفهم نظــاما بعينه فرضه قانون

(١) سفر التكوين ٤ : ١٠ الى ١٢ •

« أتيكا » ، فالقاتل الذى نفى من « أتيكا » ، واتهم فى أثناء غيابه بتهمة أخرى ، كان يسمح له بالعودة الى بلده لكى يدافع عن نفسه · ولكنه لا يسمح له بأن تطأ قدمه الأرض ، وانما عليه أن يدافع عن نفسه وهو على ظهر السفينة · وحتى هذه السفينة لا يسمح لها بأن تلقى مرساها أو أن تنزل سلمها ، كما لا يسمح للقضاة بأن يتصلوا بالمذنب ، وانما عليهم أن يصدروا حكمهم جالسين عند الشاطىء أو واقفين عليه · ومن الواضح أن الغرض من هذا النظام هو وضع القاتل فى الحجر الصحى ، حتى لا يصيب « أتيكا » بآفة ، اذا ما مست قدماه ترابها ، أو حتى اذا اتصل بها بطريق غير مباشر عن طريق مرساة السفينة أو سلمها · ومن أجل هذا السبب نفسه ، فان مثل هذا الرجل اذا ما كان عثر الحظ ، وقذف به البحر ، فى أثناء ابحاره ، على شاطىء البلد الذى ارتكب فيه جرمه ، فانه ، وان كان يسمح له حقا أن ينصب خيمته على الشاطىء حتى تفد سفينة وتقله معها ، الا أنه كان يتحتم عليه أن يجلس على الشاطىء ويدلى قدميه فى الماء طوال الوقت ، حتى يبطل مفعول السم الذى يظن أن يغرسه بقدميه فى التربة اذا ما مستها قدماه ، أو هو على الأقل يخفف بذلك من تأثيره ·

ونظام الحجر الصحى الذى فرضه قانون « أتيكا » على القاتل ، له ما يناظره عند أهالى جزيرة « دوبو » البدائيين ، وهى جزيرة تقع فى أقصى جنوب شرق « غينيا الجديدة » ، فهؤلاء مازالوا يفرضون العزل على القتلة حتى اليوم · وقد كتب حول هذا الموضوع مبشر أقام فى هذه الجزيرة سبعة عشر عاما ، فقال : « ان الحرب يمكن أن تقوم ضد أقرباء الزوجة · فاذا قتل شخص فى هذه الحرب ، فانه لا يجوز أكل لحمه · فاذا قتل شخص أحد أقرباء زوجته ، يحرم عليه بعد ذلك أن يتناول طعاما أيا كان نوعه أو أية فاكهة من قرية زوجته · ولا يجوز لأحد أن يعد له الطعام سوى زوجته · فاذا خبت النار عندها وهى تطهو لزوجها الطعام ، لايجوز لها أن تحضر شعلة من النار من أى بيت من بيوت قريتها · وعقوبة مخالفة هذا التحريم هو موت الزوج عن طريق تسميم دمه · ويكون التحريم أشد قسوة من ذلك ، اذا ما قتل الرجل أحد أقربائه ·

فعندما قتل الزعيم « جاجانومور » أخاه (وهو وفقا لاصطلاحهم ابن خالته) لم يسمح له بالعودة الى قريته ، وكان عليه أن يشيد قرية يسكن فيها ، وأن يكون له وعاء خاص به من نبات القرع مطلى بالجير ، كما يكون له سكين وزجاجة ماء وفنجان ، ومجموعة من أوعية الطبخ · كما كان

عليه أن يحصـــل على شراب جوز الهند وعلى الفاكهة من مكان آخر غير قريته . وكان عليه أن يظل موقدا ناره أطول وقت ممكن ، فاذا ما انطفأت لا يمكنه أن يعيد ايقادها من نار أخرى ، بل عليه أن يحصـــل على شعلة النـــار عن طريق قدح الزند . فاذا خالف الزعيم هذه المحرمات ، فمن الممكن أن يبث دم أخيه القتيل السم في دمه ، فيتورم جسمه ويموت ميتة رهيبة .

من خلال هذه الأمثلة نرى أن أهالي جزيرة « دوبو » يعتقدون أن دم القتيل يفعل فعل السم في جسم القاتل ، وذلك اذا ما جرؤ القاتل على أن تطأ قدمه أرض قرية القتيل ، أو حتى ان اتصل بها بطريق غير مباشر - فعزله عن جماعته وقاية يحرص عليهـــا لصالحه أكثر من حرصـــه عليهم لصالح الجماعة التي ينعزل عنها . ومن المحتمل أن النظام الذي يفرضه قانون « أتيكا » على القاتل ، يمكن أن يفسر على هذا النحو . ومن المحتمل على أي حال أن الناس كانوا يعتقدون في وجود الخطر المتبادل ، وبتعبير آخر ، أنهم كانوا يعتقدون في أن كلا من القاتل ومن يتصل به معرض لأن يصاب بتسميم دمه الذي يحدث عن طريق العدوى . ومن المؤكد أن « الأكيكويو » الذين يسكنون « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، يعتقدون في أن القاتل يمكن أن يصيب غيره بعدوى ميكروب كريه . فهم يظنون أن القاتل اذا نام في قرية وتناول الطعـــام مع عائلة من العـــائلات في كوخها ، فانه يصيب الشخص الذي تناول الطعام معه بدنس (ثاهو) الأمر الذي يهدد العائلة بحدوث كارثة ، ما لم يتمكن الطبيب من ازالة الدنس في حينه . فالجلد الذي ينام عليه القاتل يمتص ما ابتلى به من دنس ، ومن ثم فهو يعرض من ينام عليه بعد ذلك للاصابة بهذا الدنس - ولهذا فان العائلة تستدعي الطبيب لكي يطهر الكوخ وسكانه .

وكذلك «يعد القاتل» عند المغاربة سكان مراكش « شخصا نجسا على نحو ما،وهو يظل هكذا سائر سني حياته . فالسم ينضح من تحتأظفاره، ومن يشرب من الماء الذي غسل فيه يديه ، يصـــاب بداء وبيل ، كمـــا أن لحم الحيوان الذي يقوم بذبحه لايعد صالحا للأكل ، وبالمثل كل طعام يشارك في أكله . فاذا وفد على مكان تحفر فيه بئر ، فان المياه تتسرب في باطن الأرض في الحال . وقد أخبرني أهالي منطقة « الحياينة » في بلاد المغرب، أن القاتل لم يكن يسمح له أن يسير في حقوق الخضر ، أو يدخل حدائق الفاكهة ، أو أن تطأ قدمه مكان درس الحنطة أو يدخل مخزن الغلال أو أن يسير بين الخراف . والقاعدة المألوفة ، وان كانت لا تتبع بشكل عام ،

الا يقوم القاتل بذبح ضحية عيد الأضحى بنفسه • وهناك تحريم مشابه بهذا تلتزم به بعض القبائل التي يتحدث أغلبها اللغة البربرية ، وهو تحريم يفرض على من يقتل كلبا ، اذ أن الكلب يعد من وجهة نظرهم حيوانا نجسا ، وكل نقطة من الدم تخرج من جسم الكلب تعد نجسة ومأوى للجن •

على أن دم هابيل في القصة التورانية ليس هو الشيء الوحيد الذى شخصه القاص • فاذا كان قد صور الدم يصرخ صراخا عاليا ، فقد صور الأرض فاغرة فاها لتستقبل دم الضحية • وفي ملحمة الالياذة شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ، اذ صور الأرض تشرب من دم أغا ممنون القتيل• ولكن خلع الصفات الانسانية على الأرض يمتد خطوة أبعد من ذلك فى قصة سفر التكوين ، ذلك أن « الأرض أحلت اللعنة بالقاتل » كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها ، لأنه قد قدر له أن يصبح هائما شريدا على وجه الأرض • والمقصود بذلك فيما يبدو هو أن الأرض ، وقد تلوثت بدم القتيل واستاءت لجريمة الدم ، أبت أن تتيح للحب الذى بذره المجرم أن ينمو ويحمل ثمارا ، بل انها طردت القتيل من الأرض الخصبة التى شب عليها من قبل ، وأخرجته الى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعام • وليست فكرة أن الأرض كائن حى يصارع ضد ما يرتكبه سكانها من اثم ويطردهم بازدراء من أحضانها ، غريبة فى العهد القديم • فنحن نقرأ فى سفر الأحبار « أن الأرض تقذف سكانها » اذا هم دنسوها • كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيرا رهيبا من ألا يحافظوا على شريعة الرب وأحكامه : « فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم اياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم » (١) •

ويبدو أن الاغريق كانوا يصطنعون مثل هذه الأفكار عن تلوث الأرض بدم القتيل المسفوح ، أو بدم الأقرباء بصفة عامة ، فقد حكى فى تراثهم كيف أن « الخاميون » كان يطارده شبح أمه « ايريفيلى » التى قتلها ، فهام على وجهه فى الأرض فى غير راحة ، حتى لاذ فى النهاية بنبوءة معبد « دلفى » • وهناك أخبرته الكاهنة أن « المكان الوحيد الذى لن يطارده فيه شبح أمه « ايريفيلى » ، هو أكثر الأماكن حداثة ، وهو المكان الذى عراه البحر من بعد أن سفك دم أمه » • أو أن الكاهنة أخبرته وفقا لما ذكره « توسيديد » : « أنه لن يتخلص من فزعه الا اذا عثر على

---

(١) انظر سفر الأحبار (اللاويين) ١٨ : ٢٨ •

البلد الذى لم تكن قد أشرقت عليه الشمس عندما قتل أمه ، وكان مغمورا بالميـــاه حتى ذلك الحين ، فيســكنه ، لأن سائر بقـــاع الأرض قد تلوثت بجريمته » • فرحل « الحاميون » مقتفيا أثر الطريق الذى أخبرته به النبوءة ، حتى اكتشف عند منبع نهر « أشيليوس » جزر « ايخيناديان » الصغيرة العارية التى قيل : ان النهر قد صنعها من الطين الذى جرفه من شواطئه بعد أن اقترف الآثم جريمته ، فاتخذ القاتل هذه الجزر مأوى له • ووفقا لرواية أخرى للأسطورة ، استقر القاتل بعض الوقت فى وادى « بسوفيس » المرتفع الأجرد الذى يقع بين جبال اركاديا المهيبة • ولكن حتى هـــذه الجزر رفضت أن تقدم خيراتها للقـــاتل ، ومن ثم اضطر أن يستأنف تجواله المضنى كما فعل قابيل •

والاعتقاد فى أن الأرض ذات ألوهية قوية ، يدنسها ويسىء اليهـــا دم الانسان المسفوح ، ومن ثم يتحتم أن تقدم لها التضحيات حتى تهدأ ، عقيدة تنتشر ، أو كانت تنتشر حتى زمن قريب بين بعض قبائل « السنغال الأعلى » ، التى تكفر حتى عن الجراح التى انسكب الدم منها ، دون أن يفضى هذا الانسكاب الى الموت • ففى اقليم « لارو » موطن « البوبو » يقدم القاتل شاتين وكلبا وديكا لزعيم القرية الذى يقدمها بدوره ضحية للأرض ، بأن يذبحها ويربطها فى خشبة يثبتها فى الأرض • أما أسرة القتيل ، فلا يقدم لها شىء • وبعد هذا يأخذ أهالى القرية ومعهم الزعيم ، نصيبهم من الضحية ، ويستثنى من ذلك أسرة القاتل وأسرة المقتول • أما اذا حدث شجار بين بعض أفراد « البوبو » ، وجرح بعضهم جراحا لم ينسكب منها الدم ، فانهم لا يقدمون ضحية عند ذاك • أما اذا انسكب الدم ، واستاءت الأرض لمرآه ، لزم تقديم الضحية لها حتى يهدأ غضبها ، فيقدم المذنب لزعيم القرية نعجة وألف محارة (١) • أما النعجة فيقدمها الزعيم ضحية للأرض ، وأما المحار فيوزعه على أكبر رجال القرية سنا ، كما يوزع عليهم لحم النعجة بعد أن تقدم للأرض • وأما أهل القتيل فيهملون كلية فى هذا الاحتفال ، ولا يقدم اليهم شىء ، وهو تصرف منطقى لأبعد حد ، فليس الغرض من هذه الطقوس تعويض أهل القتيل على حساب القاتل ، بل الغرض منها تهدئة سورة غضب الأرض ، تلك القوة الالهية الجبارة ، التى استاءت لمنظر الدم المسفوك • ومن ثم فان الطرف الذى لحقت به الاساءة ، لا يمنح شيئا فى هذه الظروف ، وانما يكفى أن تبتلع الأرض روح النعجة

(١) صدفة صفراء كانت تستخدم كعملة وبخاصة فى أفريقيا وآسيا •

(المترجمة)

حتى يهدأ غضبها فالأرض عند « البوبو » وغيرهم من الشعوب السوداء ينظر اليها بوصفها الهة الأرض العظيمة ٠

وتتشابه معتقدات قبيلة « ناونوما » وعاداتها ، وهي قبيلة أخرى تسكن « السنغال الأعلى » ، مع معتقدات البوبو وذلك فيما يختص بدم القتيل المسفوح ٠ فقد نفت القبيلة قاتلا لمدة ثلاث سنوات وألزمته بدفع دية كبيرة من القطيع والمحار ، لا لتقدم الى عائلة القتيل ، بل الى الأرض والالهة المحليين الذين استاءوا لمرأى الدم المسفوك ٠ ويقوم الكاهن الذى يحمل لقب « سيد الأرض » بتقديم الثور أو الثيران ضحية للأرض الغضبى ، كما يقسم لحم الضحية والمحار معا على أكبر رجال القرية سنا ، ولا تنال أسرة القتيل من ذلك شيئا ، أو هى على أحسن تقدير تأخذ نصيبا مناسبا من اللحم والنقود ٠ أما فى حالة المشاجرات التى لا يقتل فيها أحد ، بل يسيل فيها الدم فحسب ، فان المعتدى يدفع دية تتكون من ثور وشاة وعنزة أربع دجاجات لتقدم ضحية للآلهة المحليين الذين غضبوا لرؤية الدم ٠ ويقدم « سيد الأرض » الثور ضحية للأرض فى حضرة كبار رجال القرية كما تقدم الشاة ضحية للنهر ، والدجاج للصخور والغابة ٠ وأما العنزة فيقدمها زعيم القرية ضحية لحيوانه المبارك (الفتيش) الذى ينتسب هو اليه ٠ واذا لم تقدم كل هذه الدية ، فان الأهالى يعتقدون أن الآلهة ربما قتلت المذنب وجميع أفراد أسرته وهى فى سورة غضبها ٠

كل هذه الحقائق السابقة تشير الى احتمال أن العلاقة التى يميز بها القاتل لا يقصد بها أولا حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حماية الآخرين الذين يصادفهم والا انتقلت اليهم عدوى الدنس اذا ما اتصلوا به ، فيحل بهم غضب الاله الذى استاء لفعلته ، أو يحل بهم غضب شبح القتيل الذى يطارده ٠ أى أن العلامة ، باختصار ، ربما كانت اشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شأنها شأن الرداء الخاص الذى كان يتحتم على المجذوم فى بنى اسرائيل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره ٠

ومع ذلك ، فان هناك حقائق أخرى تنحو الى أن تبين أن العلامة التى يميز بها القاتل ، وكما يفهم هذا ضمنا من قصة هابيل ، كان يعنى بها صالح القاتل وحده ٠ وأكثر من هذا فانها تشير الى أن الخطر الحقيقى الذى تحميه العلامة منه ليس هو غضب أقرباء ضحيته ، بل غضب شبح القتيل ٠ وهنا يتراءى لنا أنه يجب علينا أن نغوص فى أعماق خرافات «أتيكا» ، كما سبق لنا أن تعرضنا لعادات «أثينا» ٠ فأفلاطون يخبرنا أن شبح الرجل الذى قتل حديثا يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات -

فالشبح عندما يثور لمقتل صاحبه ، يطوف في الأماكن التي ألف أن يأوى اليها • ومن ثم كان من الضرورى للقاتل ، أن يغادر بلده طيلة عام ، حتى يهدأ غضب الشبح • ولا ينبغي له أن يعود اليه الا بعد أن تكون الضحيات قد قدمت ، وأقيمت احتفالات شعائر التطهير • فاذا صادف أن كان القتيل غريبا عن البلد الذى قتل فيه ، فعلى القاتل أن ينأى بنفسه عن بلد القتيل وبلده معا ، كما أن عليه أن يسير في الطريق الذى يوصف له ، وهو في طريقه الى منفاه ، اذ من الواضح أنه لا يسمح له أن يتجول في البلد وشبح القتيل الغاضب في أعقابه •

لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « أكيكويو » تعتقد أن القاتل مصاب بدنس (ثاهو) يمكن أن يصيب الآخرين عن طريق العدوى • ويتضح من خلال بعض الاحتفالات التي تقيمها هذه القبيلة بقصد التكفير عن خطيئة القاتل ، أن هذا الدنس يرتبط بشبح القاتل • فشيوخ القرية يذبحون خنزيرا عند احدى أشجار التين المقدسة التي تلعب دورا كبيرا في الطقوس الدينية عند هذه القبيلة • وهناك يقيمون وليمة من أجزاء الحيوان الكثيرة اللحم ، ويتركون الأجزاء الدسمة والأمعاء وبعض العظام لشبح القتيل الذى يعتقدون أنه يأتى الى هذا المكان في تلك الليلة بعينها في صورة قط متوحش ويفترس هذه الأجزاء • فاذا سد رمقه ، فانه يحجم عن أن يعود الى القرية ليضايق أهلها • وجدير بالذكر أن قبيلة « كيكويو » لا تحتفل بشعائر تطهير دنس القاتل ، الا اذا قتل أحد أفراد عشيرته • ومن ثم فهى لا تقيم هذه الشعائر اذا هو قتل رجلا من عشيرة غير عشيرته أو قبيلة غير قبيلته •

ومن عادة قبيلة « باجيسو » التي تسكن جبل « الجون » الذى يقع في « افريقيا الشرقية البريطانية » ، أنه يتحتم على الرجل أن يغادر قريته ، اذا ما اتهم بالقتل وكان القتيل من نفس عشيرته ومن قريته ، وأن يبحث له عن مأوى في مكان آخر • وهو مطالب بأن يصنع هذا كذلك وان استطاع أن يصالح أقرباء القتيل • وعليه بعد ذلك أن يذبح نعجة ، ويلطخ صدره بمحتوى أمعائها ، ويرمى ما تبقى من ذلك على سطح بيت القتيل « لكى يهدىء من غضب الشبح » • ويؤدى المحارب في قبيلة « باجيسو » هذه الشعائر اذا كان قد قتل رجلا في احدى المعارك • ويحق لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن الغرض من اقامة هذه الشعائر ، هو العمل على تهدئة غضب شبح القتيل • ويمكن للمحارب بعد ذلك أن يعود الى قريته ، ولكن بشرط ألا يقضى الليلة الأولى في بيته ، بل يقضيها في بيت أحد أصدقائه•

وفى مساء تلك الليلة يذبح شاة أو نعجة ، ويضع محتويات أحشائها فى اناء ، بعد أن يلطخ بها رأسه وصدره وذراعيه. فاذا كان له أولاد ، فانهم يلطخون أنفسهم على نحو ذلك . حتى اذا ما حصن المحارب نفسه وأولاده على هذا النحو ، مضى الى بيته فى جرأة ، ولطخ جوانب بابه بأمعاء الحيوان ، ورمى ما تبقى منها على السطح لكى يأكلها الشبح ، فيما يبدو ، لأنه يمر فوق هذا السطح ، ان لم يكن قد استقر فوقه . ولا يجوز للقاتل أن يلمس بيده الملوثة بدم القتيل الطعام مدة يوم كامل ، بل يوصل الطعام الى فمه عن طريق زوج من العصى أعد لهذا الغرض . وفى اليوم التالى تترك له الحرية فى أن يعود الى بيته وأن يستأنف حياته العادية . ولا تلتزم زوجة القاتل بهذه القيود ، بل انه يمكنها أن تشارك أسرة القتيل فى الحداد ، وأن تشترك فى مأتمه . فربما هدأ هذا الحزن المصطنع مشاعر شبح القتيل ، وأغراه بأن يترك زوجها وشأنه .

ويعزل القاتل فى قبيلة « نيلوتيك كافيروندو » ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، عن أفراد قريته ، ويسكن فى كوخ مع امرأة عجوز تقوم على شئونه ، وتطهو له الطعام ، وتطعمه كذلك ، لأنه لا يجوز له أن يلمس الطعام بيديه . وتستمر هذه العزلة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يأتى اليه رجل يكون هو نفسه متهما بالقتل ، أو سبق له أن قتل رجلا فى معركة حربية ، ويصطحبه الى نبع ويغسل له جسمه . ثم يذبح هذا الرجل نعجة ، ويطهو لحمها ويضع أربع قطع من اللحم على أربع عصى ، ثم يقدم قطع اللحم الأربع الى القاتل ليأكلها واحدة تلو الأخرى ، ثم يضع الرجل بعد ذلك أربع كرات معجونة من الثريد على العصى الأربع ، ويقدمها للقاتل لكى يأكلها كذلك . وفى النهاية يقطع جلد النعجة الى أشرطة ، ويلف شريطا منها حول رقبة القاتل وشريطا حول كل من معصميه ، وكل هذه الشعائر يؤديها الرجلان منفردين عند النهر . وبعد ذلك يكون القاتل حرا فى أن يعود الى بيته . وتقول القبيلة : ان شبح القتيل لايذهب الى المكان الذى يرقد فيه الميت ، بل يظل يحلق فوق القاتل ، حتى ينتهى من تأدية هذه الشعائر .

ولا يخاف القاتل فى قبيلة « بولوكى » التى تعيش فى « أعالى الكنغو » ، من شبح من قتله ، اذا كان هذا القتيل ينتمى الى البلاد المجاورة لبلده ، وذلك لأن المساحة التى يستطيع أن يتجول فيها الشبح «البولوكى»، محدودة للغاية . على أن جريمة القتل التى يمكن أن ترتكب فى هذه الحالة دون أدنى خوف انما تخلق موقفا أشد خطورة اذا ارتكبت مع رجل من

يلد القاتل نفسه ، فالقاتل يعلم عند ذاك أن الشبح يتجول على مقربة منه ، ومن ثم فان الخوف من انتقامه يؤرقه · وليس هناك لسوء حظه طقوس تذهب عنه هذا الفزع · ولكنه ، رغم غياب هذه الطقوس ، يعلن الحداد على ضحيته ، كما لو كان القتيل أخاه ، فهو يهمل زينته ، ويحلق رأسه ويصوم عن الطعام ، ويبكيه بدموع منسكبة كدموع التمساح ، ومن ثم فان علامات الحزن التى ينظر اليها الأوربى المخلص على أنها دليل على صدق الندم وتأنيب الضمير ، ليست سوى امارات حزن مزيفة يقصد بها خداع الشبح ·

ومرة أخرى نجد أن القاتل عند « الهنود الأوماها » الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، مطالب بأن يخضع لنظام صارم محدد لمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، وذلك بعد أن يصفح عنه أهل القتيل ويبقوا على روحه · فعليه أن يسير حافى القدمين وألا يأكل طعاما ساخنا ، ولا يرفع صوته عند الكلام ، ولا ينظر حوله · وعليه أن يلف ثوبه حول جسمه ويجعله ملتصقا برقبته ، ولا ينبغى له أن يتركه يتدلى أو يفتحه وان كان الجو حارا·ولا يجوز له أن يحرك ذراعيه جانبا ، بل يحتفظ بهما ملتصقتين الى جانبيه · كما لا يجوز له أن يمشط شعره ، ولا أن يتركه يتطاير فى الهواء · ولا يسمح لأحد أن يأكل معه ، ولا يبقى معه فى الخيمة سوى واحد من أقربائه · فاذا خرجت قبيلته للصيد ، تحتم عليه أن يضرب خيمته فى مكان يبعد عن مكان سائر القوم بحوالى ربع ميل ، « لئلا يثير شبح الميت ريحا تحدث أضرارا وتعطل الصيد » · وربما قدم لنا هذا السبب الذى يفسر ابعاد القاتل عن مخيم الجماعة التى تقوم بالصيد ، المفتاح لفهم ما يفرض على القتلة عند الشعوب البدائية من تعليمات محددة · فابعاد هؤلاء الناس عن المجتمع ، ليس بدافع النفور الأخلاقى من جرائمهم ، بل تفرضه الدوافع التحفظية التى تتلخص ببساطة فى الخوف من الشبح الخطير الذى يعتقد فى أنه يقتفى أثر القاتل ويطارده ·

ومن عادة « اليابيم » الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى من « نيوغينيا » أن يضع أقرباء القاتل علامة بالطباشير على جباه أقرباء القتيل ، وذلك اذا قبل أقرباء القتيل دية الدم بدلا من الأخذ بالثأر · والغرض من هذه العلامة هو « تجنب مضايقات شبح القتيل الذى قد يخطف خنازيرهم أو يخلع أسنانهم ، لأنهم فشلوا فى الأخذ بثأرهم » · فأقرباء القتيل هم الذين يعلمون وفقا لهذه العادة ، وليس القاتل نفسه ولكن الهدف واحد على أية حال ، اذ من الطبيعى أن يحيل شبح القتيل

غضبه الى أقربائه القساة الذين لم يثأروا للدم بالدم · ولكنه في اللحظة التي ينقض عليهم فيها ليخلع أسنانهم أو ليخطف خنازيرهم أو يقوم بأى عمل آخر يضايقهم ، يفاجأ برؤية العلامات البيضاء مرسومة على جباههم السوداء أو البنية اللون · فهذه العلامة اذن هى بمثابة الايصال الذى يثبت أن الدية قد دفعت كاملة ، وهى دليل على أن أقارب القتيل قد قبلوا تعويضا ماليا عن القتيل وان لم يطلبوا تعويضا دمويا · وبهذا القدر اليسير من العزاء يجب على الشبح أن يكون قانعا ، وأن يكفى أسرته ايه مضايقات في المستقبل · وربما رسمت العلامه نفسها بوضوح على جبهه القاتل لتثبت أنه دفع المبلغ المطلوب من النقود فورا ، أو دفع ما يساوى هذا المبلغ فوريا وفقا لما يصطلح عليه محليا ، جزاء فعلته · ومن ثم فان الشبح لا يطالبه بشيء بعد ذلك · فهل كانت علامة قابيل من هذا القبيل ؟ وهل كانت اثباتا على أنه دفع ديه الدم ؟ وأنها بمثابة الايصال على أنه قد دفع الدية فورا ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكنه لايزال هناك احتمال آخر ينبغى أن يوضع موضع الاعتبار · فمن الواضح ـبناء على النظرية التى أشرت اليها من قبلـ أن قابيل لم يكن ليميز بعلامة الا اذا كان قد قتل رجلا من قبيلته أو عشيرته ، حيث ان التعويض لم يكن يدفع لأهل القتيل الا اذا كانوا من قبيلته أو عشيرته · على أن خوف الناس من شبح القتيل العدو ليس أقل من خوفهم من شبح القتيل الصديق · وما الوسيلة اذن لتهدئة غضب الشبح العدو ان لم يكن ذلك عن طريق دفع الدية لأقربائه ؟ · لقد كانت الشعوب تصطنع كثيرا من الوسائل لحماية المحاربين من أشباح الرجال الذين عجلوا بهم الى الموت · ويبدو أنه كان من بين وسائل الحيطة أن يتنكر القاتل حتى لا يتعرف عليه الشبح · ووسيلة أخرى هى أن يحيل شكله الى صورة مفزعة أو كريهة تنفر الشبح فلا تجعله يتحرش به · وربما فسرت هذه الوسيلة أو تلك العادات الآتية التى اخترتها من بين عدد هائل من الأحوال المشابهة لما أشرت اليه ·

فقبيلة « با ـ ياكا » ، وهى احدى قبائل « البانتو » التى تسكن فى « ولاية الكنغو الحرة » ، « تعتقد أن الرجل الذى قتل فى احدى المعارك ، يرسل روحه لكى تأخذ بثأره من الرجل الذى قتله · غير أن القاتل قد يهرب من هذا الانتقام بأن يضع على رأسه ريشا أحمر يأخذه من ريش ذيل الببغاء ، وأن يصبغ جبهته باللون الأحمر » · ويعتقد «الثنجاويون» الذين يسكنون جنوب شرق افريقيا ، أن الرجل الذى قتل عدوا له فى

معركة معرض لخطر جسيم من قبل شبح ضحيته الذى يطارده ، وربما أصابه مس من الجنون • ولكى يقى القاتل نفسه شر شبح القتيل ، يتحتم عليه أن يعيش فى عزلة فى عاصمة بلاده عدة أيام لا يذهب فى أثنائها الى زوجته ، ويرتدى الملابس القديمة ، ويستعمل ملاعق وأطباقا خاصة به • وقد كانت من عادة « الثونجاويين » فى الأزمنة السالفة ، أن يصنع القاتل فيما بين حاجبيه وشما وأن يضع دواء فى مكان حفر الوشم ، فتبرز اثر ذلك نتوءات تجعله يبدو كالجاموسة العابسة • « واذا قتل المحاربون « الباسوتو » (١) أعداء لهم ، وجب تطهير هؤلاء المحاربين • فيقوم زعيم القبيلة بغسلهم ويقدم ثورا ضحية فى حضرة الجيش كله • كما أن المحاربين يدهنون أجسامهم بمرارة الثور ، الأمر الذى يمنع شبح العدو من تعقبهم بعد ذلك » •

ومن عادة قبائل « البانتو » التى تسكن فى اقليم « كافيراندو » الذى يقع فى افريقيا الشرقية البريطانية » ، أن الرجل اذا قتل عدوا له فى معركة ، فانه يحلق شعره عند عودته الى بيته كما يدلك له أصدقاؤه جسمه بدواء يتكون من روث البقر ، وذلك لكى يمنعوا روح الميت من مضايقته • أما عند قبائل « نيلوتيك » التى تسكن فى اقليم « كافيراندو » كذلك ، « فان المحارب يعزل عن قريته اذا هو قتل شخصا آخر فى احدى المعارك ، حيث يقيم فى كوخ حوالى أربعة أيام • وهناك تطهو له امرأة عجوز طعامه ، وتطعمه كما يطعم الطفل ، اذ أنه لا يسمح له بأن يلمس بيده أى نوع من الطعام • وفى اليوم الخامس ، يرافقه رجل ويذهب معه الى النهر ، فيغسل له جسمه ، ويذبح له نعجة بيضاء ويطهوها ويطعمه لحمها • أما جلد النعجة فيقطعه الى شرائح تلف حول معصمه وحول رأسه• ثم يعود القاتل الى منزله المؤقت ، ويبيت فيه تلك الليلة • وفى اليوم التالى يأخذه الرفيق الى النهر مرة أخرى ، ويغسل له جسمه ويقدم له دجاجة بيضاء يذبحها القاتل بنفسه ، ويقوم الرفيق بطهيها له واطعامه لحمها • وعندئذ يعلن طهره ويسمح له أن يعود الى بيته • وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يصيب المحارب رجلا بسهامه فى احدى المعارك ، فيموت بعد وقت متأثرا بجراحه ، وعند ذاك ، يذهب أقرباء المصاب بعد أن توافيه منيته ، الى المحارب ويحملون اليه نبأ وفاة المصاب ، وعندئذ يعزل المحارب

---

(١) قبيلة من أكبر قبائل « البانتو » فى جنوب افريقيا •

(المترجمة)

فى الحال عن مجتمعه حتى يتم اجراء الطقوس السالف ذكرها . ويقول الناس : ان هذه الطقوس من الضرورة بمكان ، لأنها تحرر المحارب من شبح قتيله الذى يظل ملازما له ، ولا يفارقه الا بعد تأدية هذه الطقوس . فاذا رفض المحارب أن يؤديها فان الشبح يسأله : « لماذا لم تؤد الطقوس وتتركنى وشأنى ؟ » فاذا أصر المحارب على عدم الاذعان لمطلب الشبح ، أمسك الشبح برقبته وخنقه .

لقد سبق أن رأينا أن القاتل عند قبائل « نيوليتيك » التى تسكن اقليم « كافيريندو » عليه أن يؤدى طقوسا مشابهة لهذه الطقوس من أجل الغرض نفسه ، وهو أن يخلص نفسه من شبح القتيل ، فان هو لم يفعل هذا ، ظل شبح القتيل يطارده .

وهذا التشابه التام بين الطقوس فى هاتين الحالتين ، بالاضافة الى دوافعها التى عبرت عنها القبائل صراحة ، يلقى الضوء على الهدف من طقوس التطهير التى يتحتم على القاتل أن يؤديها ، محاربا كان أم غير محارب . ويتلخص هذا الهدف ببساطة فى تخليص القاتل من شبح قتيله حتى يتجنب ما يمكن أن يصيبه الشبح به من أذى . وربما كان الغرض من لف شرائح جلد النعجة حول معصم القاتل ورأسه ، هو اخفاء القاتل عن الشبح . وعلى الرغم من أن النصوص التى نستشهد بها لا تذكر شيئا عن شبح القتيل ، يمكننا أن ندعى ، ونحن مطمئنون لسلامة ادعائنا ، أن الغرض من طقوس التطهير التى كان يؤديها المحاربون ، أو تؤدى لهم هو تهدئة الأرواح الغاضبة أو ابعادها عن قتلة أصحابها ، أو خداعها . فمن عادة « النجونيين » الذين يسكنون « افريقيا الوسطى البريطانية » أنه عندما يقترب الجيش المنتصر من القرية الملكية ، يقف عند شاطىء مجرى مائى ، ويطلى المحاربون الذين قتلوا أعداء لهم فى المعركة أجسامهم وأذرعهم بالجص . أما المحاربون الذين لم يكونوا هم البادئين بالقتل ، بل كانوا عونا لاخوانهم فى الاجهاز على أعدائهم ، فيطلون أذرعهم اليسرى فقط بالجص . وفى هذه الليلة ينام القاتلون فى حظيرة مكشوفة مع القطيع ، ولا يجرءون على الاقتراب من بيوتهم . وفى الصباح الباكر ينزلون النهر ليزيلوا عن أجسامهم الجص . ثم يحضر الطبيب الساحر ويقدم لهم جرعة من الدواء السحرى ، ويطلى أجسامهم مرة أخرى بطبقة من الجص . وتتكرر هذه العملية ستة أيام على التوالى حتى يتم تطهيرهم . وعند ذاك تحلق رءوسهم ويسمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، بعد التأكد من طهرهم من كل

دنس • ومن عادة « الجالا » من سكان « بورانا » أنهم عندما يعود المحاربون الى القرية ، تقوم النساء بغسل أجسام المنتصرين الذين قتلوا بعض أعدائهم بمزيج من الدهن والزبد ، كما تطلين وجوههم بطلاء أحمر وأبيض • أما المحاربون من « الماساى » فانهم عندما يقتلون بعض الهمجيين فى معركة ، يطلون النصف الأيمن من أجسامهم باللون الأحمر والنصف الأيسر باللون الأبيض • وبالمثل يفعل الرجل من قبيلة « ناندى » اذا قتل رجلا من قبيلة أخرى ، فهو يطلى أحد جانبى جسمه باللون الأحمر والجانب الآخر باللون الأبيض ، وهو يعد نجسا مدة أربعة أيام بعد قتله القتيل ، لا يسمح له فى أثنائها بالعودة الى بيته ، بل يتحتم عليه أن يشـيد لنفسـه مأوى بجانب النهر ، ويعيش فيه ، ولا يسمح له أن يختلط بزوجته أو بعشيقته ، ولا يأكل الا الثريد ولحم البقر والماعز • وفى مساء اليوم الرابع يتحتم عليه أن يزيل عن نفسه الدنس بتناول شراب قوى مسهل مستخرج من شجرة « السيجيتيت » ولبن الماعز الممزوج بدم ثور مخصى • واذا قتل رجل من قبيلة « واجوجو » التى تسكن « افريقيا الشرقية » عدوا له فى معركة ، فانه يرسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ، ودائرة سوداء حول عينه اليسرى •

ومن المألوف عند الهنود « الطومسونيين » الذين يسكنون كولومبيا البريطـانية ، أن يطلى الرجال الذين يقتلون أعداءهم وجوههم باللون الأسود • فاذا أهملوا هذا الاجراء الاحتياطى ، أصابتهم أرواح القتلى ، ووفقا لاعتقاد هؤلاء الهنود ، بالعمى • وكان الفرد من الهنود «البيماويين» اذا قتل رجلا من أعدائه القدامى وهم « الاباتشيون » ، اتبع على نحو منتظم أسلوبا صارما فى العزلة والتطهير يدوم ستة عشر يوما • ولا يسمح له طيلة هذه الفترة أن يمس لحما أو ملحا ، أو أن ينظر الى نار متوهجة ، أو يتحدث مع أى كائن حى • كما كان يقيم وحده فى غابة ، حيث تقوم على رعايته امرأة عجوز ، فتحضر له حصته الزهيدة من الطعام • كذلك كان يغطى رأسه معظم الوقت بطبقة من الطين ، ولا يجوز له أن يلمسها بأصابعه • وقد حدث أن قتلت عصابة من « الهنود التينيهيين » جمـاعة مستضعفة من الاسكيمو عنـد نهر « كوبر » ، وعنـد ذاك عدت نفسـها مصابة بالدنس ، وكان على أفرادها بناء على ذلك ، أن يقوموا على أثر ذلك ببعض الالتزامات الغريبة لفترة ليست بالقصيرة ؛ فهـؤلاء الذين قتلوا أعدائهم بأيديهم ، يمنعون كلية من أن يطهوا لأنفسهم أو لغيرهم الطعام • وكذلك لم يكن يسمح لهم أن يشربوا أو يدخنوا الا من وعاء أو غليـون

يمتلكونه ٠ وكذلك كان يحرم عليهم أكل اللحم المسلوق ، على حين كان يسمح لهم بأكل اللحم النيىء أو المشوى على النار أو المجفف فى الشمس٠ وكان عليهم فى كل وجبـة قبل أن يأكلوا أول لقمة ، أن يطلوا وجوههم بالأحمر الوردى فيما بين الأنف والذقن ، وبين الأذنين عبر الخدين ٠

وكان من عادة « الهنـود التشـينوكيين » الذين كانوا يسـكنون « أوريجون » و « واشنطون » أن يسـود القـاتل وجهه بالفحم المعجون فى الشحم ، ويضع حول رأسه ورسغيه وركبتيه ومعصميه حلقات من لحاء شجر السدر ، وبعد خمسة أيام ، يغسل وجهـه ليزيل الطلاء الأسـود ويطليه مرة أخرى بطلاء أحمر ٠ وفى أثناء هذه الأيام الخمسة لا يسمح له بأن يستغرق فى النوم ، بل له أن يرقد للراحة ، كما لايسمح له بأن ينظر الى طفل أو الى أناس وهم يأكلون ٠ وبعد أن تنتهى طقوس التطهير ، يعلق الحلقات التى كان يضعها حول رأسه على شجرة من المفروض أن تجف نتيجة لذلك فيما بعد ٠

ويعد قتل الهندى وقتل الحوت عملا رائعا عنـد الاسـكيمو الذين يسكنون « خليج لانجتون » ؛ فمن يقتل منهم أحد الهنود يوشم من الأنف حتى الأذن ، وأما من يقتل حوتا فيوشم من الفم حتى الأذنين ٠ وكلا البطلين يمسك عن كل عمل مدة خمسة أيام كما يمتنع لمدة عام عن تناول أطعمة بعينها وبخاصة رأس الحيـوان وأمعائه ٠ وعنـدما تعود جماعة من قبيلة « أرونتا » التى تسكن وسط استراليا من بعثة انتقامية يكونون قد أجهزوا فيها على عدو لهم ، فانهم يخشون شبح القتيل ، لأنهم يعتقدون أنه يتعقبهم فى هيئة طائر صغير يصيح صياحا حزينا ٠ ولهذا فانهم يسكتون بضعة أيام بعد عودتهم عن الحـديث عن فعلتهم ، ويطلون كل جزء من جسمهم بمسحوق الفحم ، ويزينون أنوفهم وجباههم بفروع الشجر الخضراء ٠ وفى نهاية الأمر يطلون أجسامهم ووجوههم بألوان براقة ، ويحل لهم بعد ذلك أن يتحدثوا فى حرية عن فعلتهم ٠ ومع ذلك فهم يستيقظون فى هدوء الليل ويصغون الى شكوى الطائر الذى يتوهمونه صوت ضحيتهم ٠

واذا قتل المحارب عند « الفيجيين » عدوا له فى المعركة ، تخلع عليه صفة القدسية ، أى يصبح محرما ، وعند ذاك يطلى الملك جسمه ، بالكركم من قمة رأسه الى أخمص قدميه ٠ ثم يبنى له كوخ ليقضى فيه الليـالى الثلاث التالية لذلك ٠ ولا يسمح له فى هذه الليالى أن ينام مستلقيا بل

ينام جالسا ٠ كما لا يسمح له آن يغير رداءه أو يزيل الكركم عن جسمه ، أو يدخل بيتا فيه امرأة ، حتى تنقضى الليالى الثلاث ٠

وهناك عادة « فيجيانية » أخرى تشعر بأن هذه النظم التى تتبعها قبيلة « فيجى » كان يقصد بها حماية المحارب الفيجيانى من شبح قتيله ، وان لم تؤكد ذلك ٠ فعندما كان هؤلاء الهمجيون يقومون بدفن رجل حيا ، كما كانوا يفعلون هذا كثيرا ، كانوا يحدثون ضجيجا فى هدوء الليل ، مستخدمين فى ذلك مزامير القصب والطبول المصنوعة من الأصداف البحرية ، الى غير ذلك من الوسائل التى تحدث صخبا ، وذلك بقصد افزاع الشبح حتى لا يحاول العودة الى مسكنه القديم ٠ كما أنهم يجردون هذا المسكن من معالمه ويغطونه بكل ما يمكن تغطيته به ، فيبدو على هذا النحو منفرا للغاية ، فلا يجتذب شبح صاحبه اليه ٠ وقد تعود هنود أمريكا الشمالية كذلك أن يتجولوا فى القرية وهم يصرخون صرخات مزعجة ويضربون على الأثاث وحيطان الأكواخ وأسطحها لكى يطردوا شبح العدو الغاضب الذى عذبوه حتى الموت ٠ ولا تزال مثل هذه العادة تتبع فى بقاع كثيرة من « غينيا الجديدة » و « الأرخبيل البسماركى » ٠

وبناء على ذلك فربما كان القصد من تعليم قابيل بعلامة هو اظهاره للشبح بمظهر كاذب ٠ أو ربما كان الغرض منها اظهاره فى صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعرف عليه شبح القاتل ، أو على الأقل يتجنبه ٠ وقد سبق أن افترضت فى مكان آخر ، أن عادات الحداد فى العموم ، كانت فى الأصل وسيلة للتنكر تصطنع بقصد حماية أقرباء الميت الأحياء من شبحه الذى انفصل عنه حديثا بموته ٠ وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أم غير صحيح ، فمن المؤكد أن الأحياء يظهرون فى بعض الأحيان بمظهر مخادع حتى يهربوا من مراقبة شبح الميت اياهم ٠ ففى الأحياء الغربية من « تيمور » ، وهى جزيرة كبيرة تقع فى « الأرخبيل الهندى » ، تقف زوجات الميت ، قبل أن يوضع زوجهن فى اللحد ، وتبكينه ، كما يتحتم أن تقف بجانبهن رفيقاتهن فى القرية « وقد أسدل الجميع شعورهن على وجوههن حتى لا يتعرف عليهن « نيتو » الميت ، أى شبحه » ٠ وعندما يكون المريض عند « الهيريرو » الذين يسكنون « افريقيا الجنوبية الغربية » فى ساعة الاحتضار ، فانه فى بعض الأحيان يسأل أحد الذين لا يحبهم ويقول له : « متى جئت الى هنا ؟ اننى لا أرغب فى رؤيتك فى هذا المكان ؟ » ٠ وعند ذاك يضغط على أصابع يد الرجل اليسرى بطريقة معينة بحيث يبرز طرف

اصبع الابهام من بين أصابعه • وعند ذاك يعرف هذا الرجل أن المحتضر قد قرر أن يأخذه معه بعيدا (أوكوتوايريرا) ، بعد موته ، أى أنه سوف يموت كذلك • على أن مثل هذا الرجل يمكنه ، فى كثير من الأحيـان أن يتجنب خطر الموت الذى يهدده به الشخص المحتضر ، وذلك بأن يترك المكان الذى يرقد فيه المريض المحتضر فى سرعة ، ويبحث عن « أونجانجا » ومعناه « الطبيب الساحر » ، لكى يخلع عنه ملابسه ويغسل له جسـمه ويدهنه ويلبسه ملابس أخرى • وعند ذاك يهدأ خوفه من تهديد الشخص المحتضر اياه بالموت ، ويقول : « الآن لم يعد شيخنا يعرفنى » (نامبانو تاتى كى نديى اى) ومن ثم فليس هناك أدنى سبب يجعله يخاف الموت بعد ذلك •

ويمكننا أن نفترض على نحو هذا أن قابيل قد هدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة ، معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض ، ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به • وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال ، وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كمـا يفعل « الارونتانيون » ، وربما لون نصف جسـمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « الساى » و « الناندیون » • واذا كان الرب قد قصر جهده الفنى على وجه قابيل ، فربما رسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ودائرة سوداء حول عينه اليسرى على نحو ما يفعل « الواجوجيون » • أو أنه زين وجهه فيما بين الأنف والذقن ، وما بين الفم والأذنين ، بظل خفيف من اللون القرمزى كمـا يفعـل « الهنـود التينيهيون » أو ربما غطى رأسه بطبقة من الطين كما يفعل «البيمايون» • أو أنه غطى جسمه كله بروث البقر كما يفعل « الكافريندیون » • أو ربما وشمه فيما بين الأنف والأذنين كما يفعل « الاسكيمو » • أو أنه فعل كما يفعل « الثنجاويون » ، فوشمه فيما بين الحاجبين ، بحيث يبدو كالجاموسة العابسة • وربما استطاع هذا الحداد الأول (كلمة قابيل «قايين» Cain معناها الحداد Smith) أن يتجول فى بقاع الأرض القاحلة ، مزينا

بهذه الألوان ، دون أن ينتابه أدنى خوف من أن يتعرف عليه شبح أخيه ويتعقبه ·

ان تفسير علامة قابيل على هذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضح فيها ، فان تفسير العلامة بأن الرب علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر ، فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن هناك على وجه الأرض من يقتله ، حيث ان الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه · أما اذا تبنينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح القتيل وليس انسانا حيا ، فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم كلية مع صفات الرب العالم بكل شىء · ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب ·

الفصل الرابع

الطوفان الكبير

١ ـ مقدمة :

عندما دعانى « مجلس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا » لكى ألقى محاضرة « هكسلى » السنوية ، قبلت الدعوة شاكرا · وقد رأيت فى ذلك شرفا كبيرا لى ، أن أتصل بشخص أكن له تقديرا عميقا بوصفه مفكرا وانسانا معا ، كما أتعاطف معه قلبيا فى موقفه ازاء مشكلات الحياة الكبرى · ان أعمال هذا الرجل ستظل تحتفظ له بذكرى نضرة · ومن الملائم أن يكون علمنا بمثابة أكليل من الزهر يوضع سنة بعد أخرى على قبر أحد الذين يحظون بأبلغ تقدير لنصرتهم هذا العلم ·

وبينما كنت أجيل الفكر فى موضوع مناسب للمحاضرة ، تذكرت أن هكسلى فى أيامه الأخيرة ، كان قد كرس جزءا كبيرا من وقت فراغه الثمين فى فحص التراث الذى يتصل بعصور الحياة الأولى كما هو مدون فى سفر التكوين · ومن ثم فقد فكرت فى أن أتخذ من هذا التراث موضوعا ملائما لمحاضرتى · وهذا الموضوع هو القصة المألوفة عن الطوفان الكبير · وكان هكسلى نفسه قد ناقش هذه القصة فى مقال تثقيفى عام كتبه بكل ما عرف عن أسلوبه من سحر فى سلاسته ووضوحه ، وقد كان هدفه أن

يبين أن هذه الحكاية التى ينظر اليها بوصفها سجلا لحادثة الطوفان الذى أغرق العالم كله ، وكل ما كان يعمره على وجه التقريب من انسان وحيوان، تتعارض مع مبادىء الجيولوجيا البسيطة ، ومن ثم ينبغى رفضها ، على أساس أنها أسطورة • على أننى لن أحاول أن أدعم رأيه والنتيجة التى انتهى اليها ، أو أن أرفضها ، لسبب بسيط هو أننى لست جيولوجيا • كما أننى أرى أن ابداء الرأى حول هذا الموضوع يعد خارجا عن نطاق البحث • ومن ثم فقد تناولت هذه القصة من زاوية أخرى ، أى بوصفها تراثا شعبيا • ومن المعروف منذ زمن طويل أن أساطير الطوفان الكبير الذى هلك فيه كل الناس على وجه التقريب ، تنتشر انتشارا كبيرا فى جميع أنحاء العالم • وبناء على ذلك فقد حاولت أن أجمع الروايات المختلفة لهذه القصة ، وأن أقارن بينها ، لكى أرى ما تسفر عنه هذه المقارنة من نتائج • أى أن دراستى لهذه الروايات ، باختصار ، هى دراسة فى علم الفولكلور المقارن • وهدفى من ذلك هو أن أستكشف نشأة هذه الحكايات، وأن أتبين كيفية انتشارها فى جميع أنحاء العالم ، ولم يعننى فى المقام الأول أن أتساءل عن صدقها أو كذبها ، وان كان لا ينبغى اهمال هذا السؤال عند البحث عن موضوع نشأتها • على أن تحديدنا لهذا الموضوع على هذا النحو ليس بجديد ؛ فكثيرا ما حاول الباحثون بحث هذا الموضوع من زاوية التراث الشعبى بخاصة فى السنين الأخيرة • وقد استفدت أيما استفادة • باقتفائى أثر هذه الأبحاث ، من أعمال الذين سبقونى فى هذا المجال ، بخاصة هؤلاء الذين ناقشوا هذا الموضوع بعلم واسع وكفاية ممتازة • وانى مدين بصفة خاصة للعالم الألمانى الجغرافى والأنثروبولوجى المرموق الدكتور الراحل « ريتشارد أندرى » الذى يعد بحثه فى التراث الشعبى حول قصة الطوفان ، شأنه شأن سائر كتاباته ، نموذجا للدرس الرصين والادراك الحصيف ، بالاضافة الى وضوح وايجاز بالغين •

واذا صرفنا النظر عن أهمية هذه الأساطير فى حد ذاتها ، بوصفها سجلا للكارثة التى قضت دفعة واحدة على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فانها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشه الأنثروبولوجيون اليوم مناقشة جادة • وهذا السؤال هو : كيف يمكننا أن نفسر وجوه التشابه الكثيرة القوية بين معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها ، تلك الأجناس التى تسكن فى بقاع متفرقة متباعدة من أنحاء العالم ؟ فهل يرجع هذا التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس بشرى الى جنس آخر ، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن

طريق الاتصــال غير المباشر ؟ أم أن هــذه المأثورات والمعتقدات المتشابهة نشأت مستقلة عند كثير من الأجناس ، نتيجة تماثل الفكر البشرى فى ظروف فكرية متماثلة ؟ واذا كان لى أن أبدى رأيا فى هذا الموضوع الذى طال الجدل حوله ، فاننى أقول توا ، ان هذا السؤال يبدو لى نوعا من العبث ، اذا ما وضع موضع الجدل بين وجهات النظر الخاصة المتبادلة ٠ فكل التجارب وكل الاحتمالات ، بالقدر الذى أستطيع أن أحكم به فى هذا الموضوع ، تخدم النتيجة التى توصلنا اليها ، وهى أن كلتا الوجهتين قد عملت فى قوة وعلى نطاق واسع لايجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها ٠ وبتعبير آخر نقول : ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من خلال عملية الانتقال البسيطة من شعب لآخر ، وما يعترى هذه المأثورات والمعتقدات من تغيير قليل أو كثير أثناء عملية الانتقال ٠ وكذلك فان كثيرا من وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر بأنها قد نشأت مستقلة نتيجة لتماثل حركة التفكير فى العقل البشرى ، الذى يعد استجابة لظروف التطور المتماثلة ٠ فاذا كان هذا قد حدث حقا ، وأنا أميل لأن أرى فيه الرأى الوحيد المعقول والمحتمل ، فانه يتبع هذا ، أنه عندما نتعرض لحالة خاصة من التشابه يمكن أن نقتفى أثرها فى عادات الأجناس المختلفة ومعتقداتها ، يكون من العبث أن نلجأ الى المبدأ العام ، سواء فى انتشارها أو فى نشوئها مستقلة ، اذ أن كل حالة ينبغى أن يحكم عليها فى حدودها الخاصة بعد أن تفحص الحقائق فحصا منصفا ، وبعد أن نرجعها الى هذا الأساس أو الى ذاك ، وربما الى الأساسين معا ، حسبما يميل ميزان الشواهد الى هذا الجانب أو ذاك ، أو يقف فيما بينهما عندما تتوازن كفتاه ٠

ويؤكد الفحص الدقيق للرواياتالخاصة بحكاية الطوفان هذه النتيجة العامة التى تسلم بمبدأى الانتشار والنشوء المستقل ، بوصفهما مبدأين صحيحين وسليمين ، وذلك فى نطاق حدود معينة ٠ ذلك أنه من المؤكد أن أساطير الطوفان الكبير قد عثر عليها منتشرة بين شعوب مختلفة تعيش فى بقاع نائية على وجه الأرض ٠ ويمكننا أن نستدل ـ وذلك فى حدود الاستدلال الممكن فى مثل هذه الأمور ـ على أن التشابه الذى لا يخطئه الباحث بين هذه الروايات ، يرجع من ناحية الى انتقالها المباشر من شعب الى آخر ، ومن ناحية أخرى الى تجارب مشابهة ، وأن تكن مستقلة تماما ، ونعنى بها تجارب الشعوب مع حوادث الفيضانات الكبيرة التى حدثت فى بقاع مختلفة من العالم ٠ ومن ثم فان دراسة هذه الروايات الشعبية ،

بصرف النظر عن النتائج التى تنتهى اليها فيما يتعلق بصدقها التاريخى ، ربما حققت غرضا نافعا ، اذا ما استطاعت أن تخفف من حدة النقاش الذى كان يحتدم حولها فى بعض الأحيان ، وذلك باقناع الجانبين المتطرفين المتعصبين لكلا الأساسين بأن الحقيقة لا تقع كلية فى هذا الجانب أو ذاك ، بل تقع فى مكان ما بينهما ٠

٢ ـ حكاية الطوفان الكبير البابلية :

تعد أسطورة الطوفان البابلية ، أو بالأحرى السومرية ، أقدم أساطير الطوفان المدونة في الأدب ٠ ذلك أننا نعلم أنه على الرغم من قدم الرواية البابلية ، فانها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين الذين استمد منهم سكان بابل الساميون ، فيما يبدو ، العناصر الأساسية لحضارتهم ٠

وقد تعرف الدارسون الغربيون على حكاية الطوفان الكبير البابلية التى عرفتها العصور القديمة ، حيث ان المؤرخ البابلى الأصل «بيروسوس» الذى كتب عن تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان قد دون هذه الحكاية ٠ وقد كان « بيروسوس » يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية ٠ على أن هذه المؤلفات لم تصلنا كاملة ، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الاغريق المتأخرون ٠ ولحسن الحظ أن هذه المقتطفات تحتوى على حكاية الطوفان البابلية التى تجرى على النحو التالى :

لقد حدث الطوفان فى عهد الملك « اكسيسوثروس » ، الملك العاشر الذى حكم بابل ٠ وقد ظهر الاله « كرونوس » لهذا الملك فى رؤياه ، وحذره من أن طوفانا سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعا ، وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ، وهو الشهر الثامن من السنة المقدونية ٠ ولهذا حثه الاله على أن يكتب تاريخ العالم منذ بداية الخلق ، وأن يدفن ما يكتبه فى « سيبار » ، بلد الشمس ، حتى يظل فى مأمن من الطوفان ، كما طلب منه أن يبنى فلكا يأوى اليه هو وأقرباؤه وأصحابه ، وأن يختزن فيه زادا من اللحم والشراب ، كما يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع ٠ فاذا ما فرغ من اعداد كل شىء ، كان عليه أن يبحر بفلكه ٠ عند ذاك سأل الملك « اكسيسوثروس » الاله قائلا : « ولكن الى أين أبحر بالفلك ؟ » فأجابه الاله : « الى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلى من أجل خير الناس » ٠ فأطاع الملك أمر الاله ، وابتنى فلكا طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة ٠ وبعد أن جمع كل مايحتاج اليه ، اختزنه فى الفلك ، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه ٠ وبعد

أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنها فور ذلك ، أطلق «اكسيسوثروس» سراح بعض الطيور . ولكن الطيور لم تجد طعاما تأكله أو مكانا تستقر فوقه ، فعادت الى الفلك . وبعد بضعة أيام ، أطلق سراحها مرة أخرى ، فعادت هذه المرة الى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين . فلما اطلقها للمرة الثالثة طارت بعيدا ولم تعد الى الفلك . عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، فرفع من الفلك بعض ألواحه الخشبية ، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطىء . عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل ، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة ، وسجد للأرض وابتنى مذبحا . وبعد أن فرغ من تقديم الضحية للآلهة ، اختفى هو ومن معه . فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا فى رفقته لم يرجعوا اليهم ، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه، ولكنه لم يكن ليرى فى أى مكان . غير أنهم سمعوا صوتا يدوى فى الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة ، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكى يسكن الى جوارها ، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف . ثم أمرهم الصوت أن يعودوا الى بابل ويستخرجوا الكتابات التى كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيما بينهم . وكذلك أخبرهم الصوت أن الأرض التى يقفون عليها هى أرمينيا . وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة ، ورجعوا راجلين الى بابل . أما الفلك الذى استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحا على هذه الجبال حتى اليوم ، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه فى تعاويذهم . أما ركاب الفلك فقد عادوا الى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة فى « سيبار » ، وشيدوا مدنا كثيرة ، وأعادوا بناء الأماكن المقدسة وعمروا بابل بنسلهم .

ووفقا لما رواه « نيقولاوس الدمشقى » الذى كان معاصرا وصديقا « لأغسطس » و « هيرودس العظيم » ؛ أن هناك فى « منياس » التى تقع فى أرمينيا جبلا ضخما يسمى جبل « باريس » ، وهو الجبل الذى أوى اليه كثير من الناس ، كما تذكر حكاية الطوفان البابلية ، هربا من الطوفان، وبذلك نجوا بحياتهم . وقد قيل كذلك : ان رجلا بعينه كان يبحر فى الفلك حتى رسا عند قمة هذا الجبل . وقد ظل حطام الفلك مطروحا على الجبل زمنا طويلا . وربما كان هذا الرجل هو ذلك الذى ذكره موسى واضع شريعة اليهود . على أن الشك يساورنا فيما اذا كان « نيقولاوس الدمشقى » قد استقى هذه الأخبار من التراث البابلى أو العبرى ، ولكن

ذكر نيقولاوس لموسى على كل حال يشير الى أن نيقولاوس كان يعرف حكاية سفر التكوين التى ربما تعلمها فى يسر من رفيقه « هيرودس » ٠

وقد ظل الباحثون الأوربيون قرونا طويلة لا يعرفون رواية أخرى للحكاية البابلية عن الطوفان الكبير الا تلك التى احتفظت بهـا مقتطفات « بيروسوس » التى كتبت باللغة اليونانية ٠ وقد ظلت الحكاية البابلية معروفة على هذا النحو لدى العلماء حتى العصر الحديث ، الى أن اكتشفت الرواية البابلية الأصلية فى أرشيف « آشور » الذى ظل مجهـولا مدة طويلة ، فقـد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات الحفائر فى « نينوى » ، تلك الحفائر التى كانت من المعالم الرائعة فى القرن التاسع عشر ، والتى بدأت عصرا جديدا لدراســة التاريخ القديم ، فى استكشاف بقايا هائلة من مكتبة الملك العظيم « آشور بانيبال » ، الذى حكم من عام ٦٦٨ ق ٠م٠ حتى عام ٦٢٦ ق٠م٠ فى آخر عصر الامبراطورية الآشورية الزاهر ٠

وفى خلال تلك الفترة بسط « آشوربانيبال » نفوذه حتى شــواطىء النيــل ، وزين عاصمته بأبهى العمــارات ، وجمع فيها من البلاد النائية والقريبة مجموعة كبيرة من الكتب فى التاريخ والعلم واللغة والدين لكى تستنير عقول شعبه ٠ أما كتب الآداب التى استمدت جزءا كبيرا من مادتها من أصول بابلية ، فقد دونت بنقــوش الكتابة المسمارية على ألواح من الطين الطرى ، وكانت تحرق فى الأفران بعد تدوين الكتابة عليها ثم تودع فى مكتبة العاصمة ٠ ويبدو أن المكتبة كانت مرتبة فى طابق علوى من القصر الذى حطمه الحريق فى حوادث النهب الأخيرة التى تعرضت لها المدينة فى آخر أيامها ٠ وكان نتيجة هذا أن تهشمت الألواح ٠ ولا يزال كثير منها مشدوخا قد لفحته حرارة الخرائب المحترقة ٠ وفى العصــور المتأخرة نهب جامعو الآثار القديمة الذين كانوا معاصرين ل « دوسترز ويفيل » ، والذين كانوا يبحثون ، لا عن كنوز العلم المدفونة ، بل عن كنوز الذهب ، نهبوا ما تبقى من آثار ثمينة فى حطام المدينة ، كما نهبها عمالهم الذين اشتركوا معهم فى تحطيم السجلات الثمينة وتكسيرها ٠ ثم هطلت الأمطار بعد ذلك فأكملت تحطيم هذه السجلات ، فقد كانت الأرض تمتص أمطار كل ربيع ، فتمتصها السجلات بدورها بما كانت تحتــوى عليه من المواد الكيماوية التى كانت تتبلور فى شدوخ الألواح وشقوقها٠ ومع تراكم هذه المواد المتبلورة تهشمت الألواح التى كانت محطمة من قبل وأصبحت قطعا متناثرة ٠ ومع ذلك فقد استطاع « جورج سميث » الذى

كان يعمل بالمتحف البريطانى ، استطاع بالعمل المضنى أن يجمع القطع المتناثرة الكثيرة بعضها الى بعض ، ويستعيد شكل ملحمة جلجامش التى ذاع صيتها حتى اليوم ، مكتوبة فى اثنى عشر نشيدا أو بالأحرى لوحا ، ومحتوية على حكاية الطوفان الكبير فى لوحها الحادى عشر • وقد أعلن مستر « سميث » هـذا الاكتشاف الهائل فى اجتماع « جمعيـة الآثار الانجيلية » الذى عقد فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٢ م •

لقد كان « سير هنرى رولينسون » بارعا فى فرضه أن الأناشيد الاثنى عشر فى ملحمة جلجامش تشير الى الاثنتى عشرة علامة التى تميز الدائرة الفلكية ، بحيث أن مجرى الملحمة يسير وفق دورة الشمس فى أثناء شهور السنة • وتتأكد هذه النظرية الى حد ما بالمكان الذى يشار اليه فى أسطورة الطوفان فى النشيد الحادى عشر • وهذا النشيد مخصص للاله « رمان » اله العواصف ، واسمه يعنى فيما يقال «شهر المطر الملعون» (١) ، لأن الشهر الحادى عشر من السنة البابلية يتفق مع دروة موسم الأمطار • وكيفما كان هذا الرأى ، فان حكاية الطوفان على ما هى عليه ، تعد حادثة فرعية أو استطرادا يفتقر الى الرابط العضوى بسائر أجزاء الملحمة • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى ••••

فقد جلجامش ، بطل الملحمة المسماة باسمه ، صـــديقه أنجيدو عندما توفى وحزن لفقده حتى أسلمه الحزن الى المرض • ثم قرر آسفا لما حدث لصديقه وشغوفا بمعرفة ما سيحدث له فى المستقبل ، أن يبحث عن جده « أوتنابشتيم » ابن « أوبارا_توتو » الذى يسكن فى مكان بعيد ، ليسأله كيف يمكن للانسان الفانى أن يكون خالدا ، اذ كان يعرف يقينا أن « أوتنابشـــتيم » على علم بهـذا السر ، حيث ان الآلهة قد رفعته الى مصافها وجعلته يسكن بعيدا فى مكان ما متمتعا بنعمة الخلود • وكان على جلجامش أن يتجشم القيام برحلة مضنية خطيرة حتى يصل اليه ، فمر بالجبل الذى يحرسه رجل وامرأة ، فى شكل ثعبانين ، كما اخترق طريقا مظلما مفزعا لم تطأه قدم انســـان فان من قبل • ثم عبر بحرا مترامى الأطراف كما عبر بحر الموت عن طريق جسر ضيق • وفى النهاية وجـد

---

(١) رمان : معناه فى اللغتين : البابلية والآشـــورية : اله الرعد ، والكلمة هى التى تقابلها فى العربية « رنان » وفى ديانات الساميين الغربيين ، الكنعانيين خاصـة صار اسمه رمون Rimmon أو بعل رمون • (وهذا المعنى يبدو واضحا فى تلخيص المؤلف لملحمة جلجامس هذه ، ص ٥٢) •

المراجع

نفسه فى حضرة « أوتنابشتيم » · ولكنه عندما طرح عليه سؤاله عن كيفية حصول الانســـان على الخلود ، كانت اجابة جده الكبير عن سؤاله غير مرضية ، فلقد أخبره هذا الانسان الحكيم بأن الانسان لم يقدر له الخلود · ولما تعجب جلجامش من هذه الاجابة التى صدرت عن شخص كان هو نفسه انسانا فانيا ثم أصبح خالدا فيما بعد ، كان من الطبيعى لجلجامش أن يطلب من جده الجليل أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من النهاية المحتمة لكل انسان · ولكى يجيب « أوتنابشتيم » عن ذلك ، أخذ يقص على جلجامش قصة الطوفان الكبير التى تجرى على النحو التالى :

تحــدث « أوتنابشـــتيم » الى جلجـامش وقال : « سأكشف لك يا جلجامش عن كل كلمة خبيئة ، وسأفشى لك غرض الآلهة من وراء منحها اياى الخلود : فأنت تعرف مدينة « شوريباك » ، تلك المدينة القديمة التى تقع على شاطىء الفرات · لقد حثت الآلهة التى كانت تسكن تلك المدينة ، كبار الآلهة على أن يرسلوا طوفانا الى الأرض · وقد كان مجمع الآلهة يضم « آنو » أبا الآلهة ، « وانليل » مستشارهم الحربى ، « نينيب » رسولهم ، « وأنوجى » أميرهم ، كما كان يجلس معهم كذلك رب الحكمة « ايا » الذى ردد نداءهم الى كوخ البوص قائلا : « أيها الكوخ المصنوع من البوص ·· أيها الكوخ المصنوع من البوص ·· ويا أيها الحائط ، يا أيها الحائط استمع الى واصغ الى أيها الحائط · ويا رجل « شوريباك » ، ابن « أوبارا ــ توتو » · اهدم بيتك وابتن سفينة ،واهجر ممتلكاتك ، واستمع لندائى انقــاذا لحياتك ·· فقد استقر رأى الآلهة على أن تنقذ حياتك · فانج بنفسك وخذ معك فى الســفينة كل نوع من أنواع الحبــوب · أما عن الســفينة التى ستبتنيها ، فينبغى أن تبنى بدقة محكمة ، بحيث يكون طولها وعرضها متناسقين ، لأنك ستبحر بها فى عرض المحيط · عند ذاك انتبهت الى الهى « ايا » وقلت له : « ان الأمــر يا الهى الذى أمرتنى به ســأحترمه وأنفذه ، ولكن ماذا أقول للناس ولشيوخ قومى ؟ ففتح « ايا » فاه وتحدث الى أنا العبد وقال : « اذا سألك قومك عن هذا الأمر فقل لهم : ان « انليل » يكرهنى ، ولذلك لن أبقى بينكم بعد اليوم ، ولن أدع رأسى يستقر على أرض « انليل » ، بل يتحتم على بعد اليوم أن أغوص فى قاع البحر وأسكن هناك مع الهى « ايا » · وأطاع « أوتنابشتيم » أوامر الله « ايا » وأخــذ يجمع الأخشاب وكل ما يحتاج اليه لبناء السفينة · وفى اليوم الخامس صنع هيكل السفينة فى شكل سفينة بضائع وبنى فى وسطها مسكنا بلغ ارتفاعه مائة وعشرين ذراعا ، وقسمه الى ستة طوابق ، فى كل طابق تسع

حجرات ، ثم ربط بالسفينة مصارف للمياه وطلاها من الخارج بالقطران ومن الداخل بالقار • ثم أمر باحضار الزيت وذبح الثيران والخراف وملأ الدنان بنبيذ السمسم وزيته ونبيذ العنب • ثم أخذ الناس يشربون النبيذ كما لو كانوا يشربون من نهر • وأقام وليمة شبيهة بوليمة العام الجديد • وبعد أن جهز السفينة بكل شيء ، ملأها بكل ما لديه من ذهب وفضة ، وكل ما لديه من حبوب • ثم أدخل فيها أفراد أسرته وخدمه وكل ما معه من قطعان الماشية والوحوش وأصحاب الحرف • وأخذ « أوتنابشتيم » ينتظر الوقت المحــدد الذى عينه اله الشمس « شمش » عنـدما قال لأوتنابشتيم : « ان اله الظلام سيرسل الى الأرض مطرا غزيرا ، فاذا حان هذا الوقت ، فادخل سفينتك وأوصد بابها » • وأخذ الوقت المحدد يقترب، وفى المساء أرسل اله الظلام المطر الغزير • ولما هبت العاصفة عرفت أن البـداية قد حانت ، ولكننى كنت خائفـا من أن أنظر الى العـاصفة • وعند ذاك دخلت الى السفينة وأوصدت بابها ، وسلمت القصر (العائم) بكل ما فيه الى ربان السفينة وبحارها « بوزور أمورى » • وعندما بزغ الفجر ظهرت فى الأفق سحابة سوداء يدوى فى وسطها صوت الاله « رمان » وأمامه يسير الالهان «موجاتى» و «لوحال» • وكان الثلاثة يمرون كالملائكة فوق الجبـال والأرض • ومزق « اراجال » سارية السـفينة • ثم جاء « نينيب » وفجر العاصفة ، كما حمل « أنوناكى » شعلات النار الملتهبة ، فأضاء الأرض ببريقها • ثم صعدت زوبعة « رمان » الى السماء وتحولت الأضواء جميعا الى ظلام » • لقد ظلت العاصفة تهب نهارا كاملا ، وارتفعت المياه حتى وصلت الى قمم الجبال ، « ولم يعد الرجل يبصر أخاه ، ولم يعد الرجال يعرف بعضهم بعضا • وانتاب الفزع الآلهة وهى قابعـة فى سمائها ، فتراجعت وصعدت الى سـماء « آنو » ، وربضت كمـا تربض الكلاب ، وجثمت الى جانب الحيطان • وصرخت « عشتروت » صراخ المرأة التى جاءها المخاض ، وأخذت ملكة الآلهة تعول بصوتها الجميل وتقول : اللعنة على ذلك اليوم الذى أمرت فيه فى مجتمع الآلهة أن يحل الشر بالبشر •• ولكننى حين أمرت بدمارهم ، أردت أن يتم هذا عن طريق القتال • فأين هذا الذى قد أمرت به ؟ انهم يملأون البحر كبيض السمك » • وبكى آلهة « أنوناكى » معها ، وخروا ساجدين وهم يبكون وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض وأخذت الريح تهب ستة أيام وست ليال ، وأغرق الطوفان الأرض وشملتها العاصفة • وعند اقتراب اليوم السابع ، أخذت تهـدأ العاصفة والزوبعة والطوفان ، بعد أن كانت تحارب جميعا محاربة الجيش لأعدائه • ثم سكن البحر وهبطت مياهه كما خمدت الزوبعة والفيضـان

تماما • ونظرت الى البحر ، فاذا هو ساكن واذا بالناس قد تحولوا الى كتل من الطين • وأبصرت المستنقعات أمامى وقد استقرت مكان الحقول • فلما فتحت نافذة السفينة ، سقط النـور على وجنتى ، فخررت ساجدا وبكيت حتى انسابت الدموع على خدى ، ونظرت الى العالم فاذا كل شىء قد تحول الى بحر • وبعد مرور اثنى عشر يوما برزت جزيرة وسط المياه ، فأبحرت بالسفينة فى اتجاه أرض « نيسير » ، والتصقت السفينة بجبل « نيسـير » ولم تنزلق • ومر اليوم الأول والثانى والسـفينة ملتصقة بالجبل • ومر اليوم الثالث والرابع والسفينة لا تزال ملتصقة بالجبل ، ثم مر اليوم الخامس والسادس وكان الجبل لا يزال ممسكا بالسـفينة • وفى اليوم السابع أطلقت حمامة من السفينة • وأخذت الحمامة تطير هنا وهناك ، ولما لم تجدمكانا تستقر عليه عادت الى السفينة • فأطلقت من بعدها طائر السنونو فطار هنا وهناك ولم يجد كذلك مكانا يستقر عليه وعاد الى السفينة • ثم أطلقت غرابا فى المرة الثالثة • وأبصر الغراب أن الميـاه قد انحسرت عن الأرض ، فغـاص فى الطين وأخذ ينبش بمنقاره ويأكل ، ونفق ولم يعد • عند ذاك أطلقت الطيور جميعا لتطير فى الجهات الأربع ، وقدمت الضحية للآلهة على قمة الجبل وسكبت عليها الخمر •

وفى اليوم السابع أعددت أوعية الطهى وأشعلت تحتها الغاب وخشب السدر والرند • واشتمت الآلهة الرائحة الطيبة ، فاجتمعت حولها كالذباب واشتركت فى تقديم الضحية • واقتربت ملكة الآلهة ، ورفعت الجواهر العظيمة التى كان « آنو » قد صنعها لها وفقا لرغبتها ، وقالت : « أيتها الآلهة ، كما أننى لن أنسى حلى اللازورد التى أرتديها حول عنقى ، فاننى سوف أذكر هذه الأيام بحق ولن أنساها أبدا • فدعوا الآلهة تحضر لتقدم الضحية ، ولكن « انليل » لن يشترك معها ، لأنه لم يشارك الآلهة الرأى فى أمر الطوفان وأرسله الى الأرض فتسبب فى دمار شعبى » • فلما اقترب انليل من الآلهة المجتمعين بعد ذلك وأبصر السفينة تملكه الغضب • لقد أبدى غضبه من الآلهة وقال : « من ذا الذى نجا بحياته ؟ اننى لن أسمح لانسان أن يعيش بعد هذا الدمار » • عند ذاك فتح « نينيب » فمه وقال للمحارب « انليل » : « ومن ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا خلاف الاله « ايا » ؟ ان « ايا » هو الذى له علم بكل الأمور » • ففتح « ايا » فمه وقال للمحارب « انليل » : « انك أيها المحارب رئيس الآلهة ، ولكنك لم تستشر الآلهة فى موضوع الطوفان ، وأرسلته الى الأرض من تلقاء نفسك • وكان ينبغى أن يلقى الآثم جزاء اثمه والمذنب جزاء ذنبه • فلتعمل الآن ما يحول دون

القضاء على الجنس البشرى بأجمعه ، ولتكف عن احلال اللعنة بكل شيء • لقد كان فى وسعك أن ترسل الى الأرض أسدا بدلا من الطوفان فيلتهم الناس • وكان من الممكن أن ترسل اليهم نمرا أرقط فيفترسهم جميعا • وكان من الممكن أن ترسل الى الأرض مجاعة فلا تتركها الا خرابا ، أو ترسل اليها اله الوباء فيقضى على الجنس البشرى • على أننى بعد كل هذا لم أكتشف بنفسى ما تنوى فعله ، بل جعلت «أتراكهاسيس» «أثرخاسيس» يرى رؤيا ، فاستمع فى رؤياه الى ما تنوى الآلهة فعله » • واستقر رأى « انليل » اثر هذا الحديث على قرار ، فصعد الى ظهر السفينة وأخذ بيدى ، وأحضرنى أنا وزوجتى وجعلها تركع الى جانبى ••

ثم اتجه الينا ووقف بيننا وباركنا (قائلا) : « ان « أوتنابشتيم » كان يعد انسانا حتى هذه اللحظة ، أما الآن فقد أصبح « أوتنابشتيم » وزوجته شبيهين بالآلهة ، حتى بنا نحن • والآن دعوه يسكن هو وزوجته بعيدا عند منبع الأنهار » • وعند ذاك أخذت الآلهة بيدى وسارت بى بعيدا عند منبع الأنهار ، وتركتنى أعيش هنا فى هذا المكان » •

هذه هى قصة الطوفان التى تدخل فى نسيج ملحمة جلجامش • ولعله يتضح لكل دارس ، أن هذه القصة لم تكن لها فى الأصل صلة بالملحمة • وقد احتفظ لوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة • وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة جلجامش بين أنقاض مكتبة «آشوربانيبال» فى «نينوى» • وهذا اللوح يحتوى على جزء من الحديث الذى قيل انه دار بين الاله « أيا » ونوح البابلى قبل أن يحدث الطوفان • ونوح البابلى هنا يدعى « أثرخاسيس » وهو اسم أطلق عرضا عليه فى الملحمة ، لأنه فى غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى «أثرخاسيس» ، بل «أوتنابشتيم» • ويقال : ان «أثرخاسيس» هو الاسم البابلى الأصلى •

وقد ورد نص « بيروسوس » عن أسطورة الطوفان تحت اسم «آكسيسوثروس» • وقد أمر الاله «ايا» فى الرواية الثانية التى احتفظ بها كذلك لوح مكسور ، تلك التى أشرنا اليها وشيكا ، أمر «أتراكهاسيس» قائلا : «ادخل السفينة وأغلق بابها دونك ، وخذ معك غذاءك وبضاعتك وممتلكاتك (وزوجتك) وأسرتك وعشيرتك وعمالك وقطيعك ووحوش حقلك ، بقدر ما تأخذ من صنوف الحيوان آكلة العشب » • وعند ذاك رد البطل على الاله بأنه لم يسبق له أن ابتنى سفينة ، وتوسل اليه أن يرسم له على الأرض خطة السفينة لكى يستعين بها عند بنائها •

وبناء على ذلك فان الروايات البابلية لأسطورة الطوفان ترجع فقط الى عصر « آشور بانيبال » اى أنها ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد · ويمكننا أن نتصور أن هذه الروايات ترجع الى رواية أصلية أكثر قدما من الرواية العبرية ومنقولة عنهـــا · وعلى كل فان الشواهد القاطعة للآثار القديمة الهائلة لأسطورة الطوفان البابلية تؤيدها الكتابات المدونة على لوح مهشم اكتشف فى مدينة « أبو حبة » التى تقع الآن مكان مدينة « سيبار القديمة ، وذلك فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها الحكومة التركية · ويحتوى هذا اللوح على رواية مشوهة كل التشويه ، ومدون عليها تاريخ كتابتها على وجه التحديد · فهناك فى نهاية المخطوط كلمات أو حاشية تذكر أن اللوح قد كتب فى الثامن والعشرين من شهر « شباطو » (وهو الشهر الحادى عشر من السنة البابلية) فى السنة الحادية عشرة من حكم الملك « عمى صادوقا » أى حوالى عام ١٩٦٦ ق٠م٠ ولسوء الحظ أن هذا اللوح عبارة عن كسر كثيرة متفرقة لا يستطيع الباحث أن يستخلص منها سوى مادة ضئيلة · ولكن اسم « أثرخاسيس » يرد فى ثناياها ، بالاضافة الى اشارات الى المطر الغزير وكذلك الى السفينة فيـــما يبـدو ، ودخول الأفراد الذين أنقذوا فيها ·

بل أن هنـــاك رواية أخرى لاسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت فى « نيبوز » فى أثناء عمليـــات الحفر التى قامت بهـا جامعة بنسيلفانيا · وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق · وقد رأى الأستاذ هـ٠و٠ «هيلبرخت» ، مرتكزا على أسلوب كتابة هذه الرواية، وعلى المكان الذى عثر عليهـــا فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعـــد سنة ٢١٠٠ ق٠م٠ وقـد ورد فى هذه الرواية أن الاله ظهر ليـذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى فى الحـال ، وحذر من هـــذا الطوفان شخصا بعينه ، فطلب منه أن يبتنى سفينة كبيرة ذات سقف قوى لينجو فيها بحياته ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء ·

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية ، البابلية والأشورية · ولكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية · وهذه الرواية مكونة من مقتطفات متفرقة عثر عليها علماء الآثار الأمريكيون فى «نيبور» ، وقد فكت رموزها أخيرا · ومعنى هذا أن هذه الرواية قد دونت بلغة غير سامية كان يتكلم بها الشعب الذى يبدو أنه كان يعيش فى بابل قبل الساميين ، وأسس فى وادى الفرات الأدنى ذاك النظام الحضارى المرموق الذى نسميه عادة بالحضارة البابلية · وقد كانت مدينة « نيبور »

التى عثر فيها على هذه الرواية أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز دينى فى بابل • كما كان «انليل» اله المدينة ، رئيس مجمع الآلهة «البانتيون» البابلى • ويبدو من طابع الكتابة التى كتبت بها الأسطورة المدونة على هذا اللوح ، أنها كتبت فيما يقرب من عصر الملك الشهير « حمورابى » ملك بابل ، أى أنها دونت فى حوالى سنة ٢١٠٠ ق٠م٠ على أنه من المؤكد أن الحكاية نفسها ترجع الى عصر أقـدم من ذلك • ذلك أنه فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كتب فيه هذا اللوح ، لم يكن هناك وجود للسومريين بوصفهم عنصرا مستقلا ، اذ كانوا قد ذابوا فى الشعب السامى • كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغـة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة فى ثنايا تلك الآداب ، ويعيدون كتابتها • ومن ثم فان اكتشاف رواية قصة الطوفان السومرية يدعو الى افتراض أن الأسـطورة نفسـها يرجع تاريخها الى زمن سابق على احتلال السـاميين لوادى الفرات ، هؤلاء السـاميون الذين أخذوا هذه الأسطورة فيما يبدو ، بعد هجرتهم الى وادى الفرات ، عن السومريين الذين سكنوا بابل قبلهم • ومن الطريف أن نلاحظ أن الرواية السومرية لقصة الطوفان تكون تكملة لحكاية عن خلق الانسان عثر عليها ، لسوء الحظ ، فى شكل مقتطفات متفرقة • ووفقا لهذه الحكاية خلقت الآلهة الانسان قبل الحيوان• ومن ثم فان الحكاية السومرية تتفق مع الحكاية العبرية فى سفر التكوين ، من حيث ان كلتيهما تعالج موضوع خلق الانسان وحادثة الطوفان بوصفهما حادثتين حدثتا فى فجر تاريخ الحيـاة ، وترتبط احداهما بالأخرى كل الارتباط وأكثر من هذا فان القصة السومرية تتفق مع المصدر اليهودى ، وتعارض المصدر الـكهنوتى فى الوقت نفسه ، من ناحية أن الاله خلق الانسان أولا قبل خلقه صنوف الحيوان •

وعلى الرغم من أن البـاحثين لم يعثروا الا على النصف السفلى من اللوح الذى نقشت عليه قصة الخلق السومرية ، فان هذا القدر يكفى مع ذلك لأن يمدنا بالخطوط الأساسية لقصة الطوفان • ففى هذا الجزء نقرأ أن « زيو جيدو » أو بالأحرى « زيود سودو » كان ذات يوم ملكا وكاهنا للاله « انكى » ، وهو الاله السومرى الذى يوازى الاله « ايا » السامى • وقد كان هذا الملك الكاهن ينشغل كل يوم بخدمة الاله ، ويكب على خدمته فى خشوع ، ويطيل النظر الى المكان المقدس • ولكى يكافئه الاله « انكى » على ورعه ، فقد أخبره بأنه قد تقرر فى مجمع الآلهة ، بناء على طلب الاله « انليل » ، أن ترسل الآلهة الى الأرض عاصفة ممطرة تقضى على أصـل

الجنس البشرى . وقبل أن يتلقى الكاهن هذا التحذير فى حينه ، طلب منه صديقه الاله أن يقف بجانب حائط وقال له : « قف عند الحائط الذى يقع على جانبى الأيسر وعند هذا الحائط سأسر اليك بكلماتى » . ومن الواضح أن هذه الكلمات تتصل بالعبارة الغريبة فى الرواية السامية ، وهى تلك العبارة التى بدأ بها الاله « ايا » تحذيره الى « أوتنابشتيم » وقال له : « أيها الكوخ المصنوع من البوص ، أيها الكوخ المصنوع من البوص ، ويا أيها الحائط . استمع الى أيها الكوخ وأنصت الى أيها الحائط » .

وكلتا العبارتين تشير الى أن الاله الطيب الذى لم يشأ أن يفشى قرار الآلهة للانسان الفانى بطريق مباشر ، اصطنع حيلة افشاء السر الى حائط البوص الذى كان على « زيود سودو » أن يقف بادىء الأمر عند جانبه الآخر . وبذلك علم الانسان الطيب بالسر الخطير عن طريق استراق السمع ، فى حين استطاع الاله أن يدعى فيما بعد أنه لم يفش القرار الذى اتخذته الآلهة فى مجتمعها . وتذكرنا هذه الحيلة بالحكاية المشهورة التى تحكى أن خادم الملك « ميداش » اكتشف أن لسيده أذنين كأذنى الحمار . ولما لم يستطع أن يكتم هذا السر فى نفسه ، فقد أسر به الى جحر فى الأرض ، ثم غطى الجحر بالتراب . وفى الحال نما حوض من نبات البوص فوق الجحر ثم هبت الرياح فأذاع حفيف البوص عيب الملك على الملأ . وقد فقد شطر اللوح الذى كان من المحتمل أنه يصف بناء السفينة ولجوء « زيود سودو » اليها . ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الاله للانسان الى موضوع الطوفان . فيصف المخطوط العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعا . ثم تستمر الرواية بعد ذلك فتقول : « وبعد أن هبت العاصفة المطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد أن حمل الريح العاصف السفينة على المياه المضطربة ، ظهر اله الشمس وهو يسكب الضوء على السماء والأرض » . وعندما اخترقت أشعة الشمس السفينة خر « زيود سودو » ساجدا لاله الشمس وقدم ثورا وشاة ضحية له . ثم يلى ذلك فجوة فى المخطوط ، وبعدها نقرأ أن الملك « زيود سودو » قد خر ساجدا للالهين « آنو » و « انليل » . ويبدو أن غضب الاله انليل من الجنس البشرى قد هدأ بعد ذلك ، لانه يقول موجها حديثه الى « زيود سودو » « لقد منحته حياة كحياة الآلهة ، وخلقت له روحا خالدا كروح الآلهة . وهذا يعنى أن بطل أسطورة الطوفان ، أى نوحا السومرى قد وهب الخلود ، ان لم يكن قد اكتسب هبة الألوهية . ثم خلعت عليه الآلهة

بعد ذلك لقب « الشخص الذى حافظ على سلالة الجنس البشرى » ، كما جعلته يسكن جبلا يبدو أنه جبل « ديلمون » ذلك ان اسم الجبل غير واضح على وجه التأكيد • أما نهاية الأسطورة فمفقودة •

وهكذا نرى أن قصة الطوفان السومرية تتفق فى ملامحها الأساسية مع قصة الطوفان التى تحتوى عليها ملحمة جلجامش ، تلك القصة التى تتميز عن أختها السومرية بطولها البـالغ وكثرة حوادثها • ففى كلتا القصتين قرر اله كبير («انليل » أو « بل ») أن يهلك الجنس البشرى عن طريق اغراق الأرض بالأمطار • وفى كلتيهما حذر اله آخر (هو « انكى » أو « ايا ») رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل الذى قبل النصح بأن لجأ الى السفينة التى أمره الاله ببنائها • وفى كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته فى اليوم السابع • وفى كلتيهما قدم الانسان ضحية للآلهة بعد أن انتهى الطوفان ، ثم رفعته الآلهة بعد أن أنتهى الطوفان ، ثم رفعته الآلهة بعد ذلك الى مصافها •

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين فيتمثل فى اسم البطل فيهما • فهو فى الرواية السومرية يدعى « زيود سودو » ، وفى الرواية السامية يدعى « أوتنابشتيم » أو « أترخاسيس » • والاسم السومرى « زيود سودو » يشبه اسم « اكسسوثروس » وهو الاسم الذى أطلقه « بيروسوس » على البطل الذى أنقذ فى حادثة الطوفان • فاذا كان الاسمان متشابهين حقا ، فان هـذا يجعلنا نعجب لاخلاص المؤرخين البابليين فى اقتفاء أثر أقدم الآثار المدونة •

ان اكتشاف هـذا اللوح ذى الأهمية البالغة بما يحتوى عليه من قصتين مترابطتين هما قصة الطوفان وقصة الخلق ، يجعل الاحتمال كبيرا فى أن القصص الذى يحتوى عليه سفر التكوين عن فجر تاريخ الحياة ، لم ينشأ أصلا عند الساميين ، بل استمده الساميون من الذين سبقوهم فى الحضارة ، هؤلاء الذين وجدتهم الجماعات السامية النازحة من الجزيرة العربية مستحوذين على أرض الفرات الأدنى الغنية والذين تعلمت منهم ـ سلالة هؤلاء البدو البدائيين ـ تدريجيا طرز الحضارة وتقاليدها على النحو الذى اكتسب به برابرة الشـمال مظاهر الحضارة بعدما استقروا فى الامبراطورية الرومانية •

٣ ـ قصة الطوفان الكبير العبرية :

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هى مدونة فى سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين فى أصلهما ومتناقضتين تناقضا جزئيا ٠ وقد مزج المؤلف بين القصتين لكى يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل ٠ ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارىء ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وان كان القارىء غير مدقق فى قراءته ٠٠

واحدى روايتى الأسطورة اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هى مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتى (Priestly Document) أو القانون ، (ويشار اليه عادة بالحرف *P* أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر اليهودى « Jehovistic or Jahovistic Document » (ويشار اليه فى العادة بالحرف *J*) نسبة للاسم المقدس «يهوه»٠ وكلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافا بينا فى أسلوبه وطبيعته ، كما أنهما ينتميان الى عصور مختلفة ، فبينما يعد المصدر اليهوى هو الأقدم ، كما يرجح ذلك النقاد ، فان المصدر الكهنوتى يؤخذ على أنه أحدث المصادر الأربعة الرئيسية التى جمع بينها لتكون أسفار العهد الفديم الستة الأولى ٠ ويعتقد الباحثون أن المصدر اليهوى قد كتب فى أرض الميعاد فى العصور الأولى من الحكم العبرى ، أى أنه كتب فى القرن الثامن أو التاسع على وجه الاحتمال ٠

أما المصدر الكهنوتى ، فيرجع تاريخه الى ما بعد عام ٥٨٦ ق٠م٠ عندما استولى « بختنصر » ملك بابل على أورشليم وأخذ اليهود أسرى معه الى بابل ٠ فكلا المصدرين تاريخى فى شكله ، ولكن بينما نجد مؤلف المصدر اليهودى يهتم اهتماما حقيقيا بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم ، كما يهتم بمغامراتهم ، فان كاتب المصدر الكهنوتى يهتم بهم فى حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة « العناية الالهية » التى يقصد بها تزويد بنى اسرائيل بمعرفة الهية ، وبنظم اجتماعية ودينية ، شاء بها الرب أن ينظم شعبه المختار حياته عن طريقها ٠ فالتاريخ الذى كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتى أكثر منه دنيوى ومدنى ، ذلك أنه يهتم باسرائيل بوصفها أمة دينية لا بوصفها دولة ٠ ومن ثم فانه بينما يسهب الى حد كبير فى وصف حياة شيوخ بنى اسرائيل وأنبيائهم الذين اختارهم الرب ليظهر لهم ، نجده يمر مر الكرام على أجيال كاملة من البشر

العاديين الذين لا يذكر أسماءهم الا عابرا ، كما لو كانوا مجرد حلقات تربط عصرا دينيا بعصر دينى آخر ، أو مجرد خيط تنظم فيه على مسافات متباعدة ، جواهر الوحى الرائعة • وموقفه من الماضى تفسره كل التفسير أحداث العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان عصر بنى اسرائيل الذهبى قد ولى ، كما انتهى عصر استقلالها وانتهت مع ذلك آمالها فى البهاء والرخاء الدنيوى • أما أحلام الامبراطورية المزدهرة ، تلك التى علقت بقلوب الناس بتأثير ذكرى حكمى داود وسليمان ، والتى ربما عاشت مع الناس فترة من الزمن حتى بعد اضمحلال حكم الملوك كأنها سحب الصباح ، فسرعان ما تلاشت مع سحب المساء فى حياة أمة ، بتأثير واقع الحكم الأجنبى الكئيب • ولما كانت كل الطرق التى تؤدى الى الطموح الدنيوى الخالص قد سدت دون الشعب الاسرائيلى ، فقد وجدت مثالية المزاج الوطنى التى لا تخمد متنفسا لها فى اتجاه آخر ، كما اتخذت أحلامها شكلا آخر • فاذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت دون آمال هذا الشعب ، فان أبواب السماء كانت لا تزال مفتوحة • ومن ثم فقد نصب الاسرائيلى الحالم سلما وراء السحب لكى يهبط عليه حشد من الملائكة يرعون الهائم ويواسونه ، على نحو ما فعل يعقوب عند « بيت ايل » ، والأعداء من قدامه ومن ورائه • وباختصار فان قادة بنى اسرائيل كانوا يبحثون عن سلوى وتعويض لأمتهم فى مقابل المذلة التى كانت تعانيها فى حياتها الدنيوية ، وذلك عن طريق رفعها الى درجة عالية من الروحانية • ولكى يحقق القادة هذا الغرض فانهم وضعوا ، أو ــ بالأحرى ــ أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الالهية والاستئثار بها ، وبذلك تصبح « صهيون » (١) المدينة المقدسة ــ مركزا لمملكة الرب فى الأرض وموئل بهجتها •

وبهذا الطموح وتلك الأهداف أخذ نفوذ رجال الدين يتزايد فى الحياة اليومية كما أصبحت اهتمامات الحياة تتجه نحو بيوت العبادة ، وأصبح تأثيرها السائد روحانيا ، فقد حل الكاهن الأكبر محل الملك ، بل ان هذا الكاهن كان يرث من سالفه الأردية الأرجوانية والتاج الذهبى • وأصبحت الثورة ، التى استبدلت بعدد من الحكام المدنيين فى أورشليم عددا من الأحبار ، شبيهة بثورة روما فى العصور الوسطى التى حولتها من نظام القياصرة الى نظام حكم البابوات •

---

(١) بيت المقدس • (المترجمة)

هــذه الحركة الفكرية ، وهــذا التيار من الطموح الدينى ، اللذان اتجها بعنف وجهة كهنوتية ، انعكسا ، أو بالأحرى تبلورا ، فى المصدر الكهنوتى ؛ فقد انعكست الأبعاد الأخلاقية والفكرية لهذه الحركة فيما ماثل هذا من أبعاد أخلاقية وفكرية لدى الكاتب • فهو لم يهتم الا بالجانب الشــكلى للدين • وهو لا يستشعر المتعــة الحقيقية ، الا عندما يتعرض لتفاصيل الطقوس والاحتفالات وتفاصيل الأثاث والملابس الدينية • أما الجانب العميق من الدين ، فهو بالنسبة اليه كتاب مغلق ، اذ قلما ينظر الى الجوانب الأخلاقية والروحية لهذا الدين ، كما أنه لايسبر على الاطلاق أغوار مشكلات الخلود وأصل الشر • تلك المشكلات التى أثارت النفوس المتسائلة عنها فى جميع القصور • فقد كان المؤرخ الكهنوتى ـ باستغراقه فى تفاصيل الطقوس التافهة ، وعدم اكتراثه بالشئون الدنيوية الخالصة ، وولعه بالتقويم والأنســاب والتــواريخ والأرقام ، أو اهتمامه على الجملة بالهيكل العظمى للتاريخ أكثر من اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه ـ كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين فى العصور الوسطى ، الذين كانوا ينظرون الى الحياة العريضة من خلال كوة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذى الألوان المتعددة • ولقد ضاق أفق تفكير المؤرخ الكهنوتى ، كما تلونت نظرته للأحداث وفقا للوسيلة التى كان ينظر من خلالها اليها • فقد صور مباهج المعابد المتنقلة فى القفار ، تلك المباهج التى كانت تغيب عن كل العيون سوى عينه هو ، صورها كما لو كانت تلوح لخياله الدافىء من خلال الأضواء الأرجوانية التى يعكسها شباك ذو زجاج وردى ، أو من خلال الألواح الزجاجية الرائعة لمشربية تتماوج منها الأضواء • بل انه لم يكن يرى العمليات الطبيعيــة البطيئة أو الكوارث المفاجئة ، تلك التى شكلت مادة الكون أو غيرتها ، لم يكن يرى فيها أكثر من كونها امارات ومعجزات من الرب يعلن بها عن ظهور حقب جديدة من حياة الشرائع الدينية • وكذلك لم تكن عملية الخلق بالنسبة اليه سوى تمهيد كبير ليوم الراحة والعبادة عند اليهود وهو يوم السبت ، كما أن قبو السماء المتلألىء بالأضواء الساطعة لم يكن سوى طبق مستدير رائع مقسم الى درجات ، تتحرك عليه أصابع الرب الى الأبد لتشير الى مواسم الأعياد الصحيحة المثبتة فى التقويم الدينى • وأما الطوفان الذى قضى على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلم يكن سوى مناسبة خلقها الرب النادم ليقيم عهدا بينه وبين الأحياء البؤساء الذين نجوا من الطوفان • كما لم يكن قوس قزح الذى يسطع باشعاعاته المتلونة بين السحب المعتمة سوى الخاتم الالهى المذيل لهذا العهد ضمانا لأصالته وصفته الملزمة •

ولأن المؤرخ الكهنوتي كان محاميا بقدر ما كان كاهنا ، فقد بذل جهدا مضنيا لاثبات أن علاقات المحبة بين الرب وشعبه ترتكز على أسس شرعية صارمة ، حيث انها قد وثقت بمجموعة من العهود التي قبلها الطرفان بكل ما تتطلبه من التزامات ٠ وهو لا يكون في أحسن حالاته الا عندما يعرض لهذه العهود ، وهو كذلك لا يكل على الاطلاق من ذكر مجموعات صكوك التمليك الاسرائيلية الطويلة ٠ ولا يجد هذا الرجل الأثرى الجاف ، والطقوسى الجامد مجالا يسترخى فيه استرخاء معقولا من صرامته المألوفة ، ولا يجد مجالا يسلك فيه مسلكا خاليا من التوتر والتحفظ ، الا عندما يسهب فى موضوعات العهود ووثائق التمليك الملائمة لمزاجه ٠ ومن المسلم به أن تحفة قصصه التاريخى هى حكاية مفاوضة ابراهيم الأرمل مع أبناء الحيثيين لكى يحصل على قبو عائلى يدفن فيه زوجته ٠ ولم تخفف الطبيعة المحزنة لهذا العمل من حيوية القاص الحرفية ، كما أن الصورة التى صور فيها هذه القصة تجمع بين لمسات فنان لا تنقصه البراعة ، والدقة البالغة لكاتب حجج متمرن ٠ ولا يزال المنظر الكلى لتلك الحقبة البعيدة من الزمن يمر بحذافيره أمام أعيننا ، كما يمكن أن تكون المناظر المماثلة له قد مرت أمام عين الكاتب ، وكما يمكن أن تشاهد اليوم فى الشرق عندما يتطاحن شيخان عربيان من أصل طيب فى براعة حول عمل من الأعمال ، وهما يراعيان مراعاة دقيقة الشكليات الرسمية ، وآداب الدبلوماسية الشرقية٠

ولكن مثل هذه الصور نادرة بحق فى معرض صور هذا الفنان ، فهو قلما يحاول وصف المناظر الطبيعية ، كما أن صور أشخاصه غير متقنة وتنقصها مشخصاتها الفردية والحياة والألوان ٠ وفيما يتصل بتصويره لموسى الذى خصه بأكبر قدر من عنايته ، فان صورة هذا القائد الكبير لا تفوق صورة التمثال الأصم الا فى قليل ، كما أن وظيفته تقتصر على توزيع اللباس وغطاء الرأس الكهنوتيين ٠

على أن الصور التى وصلتنا من زمن حكم الشيوخ عن طريق مؤلف المصدر اليهوى تختلف عن تلك التى وصلتنا عن مؤلف المصدر الكهنوتى كل الاختلاف ، فليس هناك ما يبزها فى الأدب ، أو يقف معها على قدم المساواة ، فى صفاء شكلها واشراق لمساتها ورقتها ودفء ألوانها ٠ وان أقل لمسات من ريشة فنانها ، لتحدث أجمل تأثير ٠ ذلك أن كل لمسة منها انما تصدر عن أستاذ فى فنه يعرف بالغريزة على وجه التحديد ما يدعه وما يبقيه ، فبينما يبدو لنا أنه يركز كل التركيز فى مقدم الصورة حول الشخوص الانسانية التى تبرز من الصورة وهى تنبض بالصدق ، اذا به

فى الوقت نفسه يحتال على الأمر ليبرز الطبيعة من خلف هذه الشخوص بقليل من الرشاقة الفنية ولمسات تكاد لا تحس ، وذلك لكى ينجز صورة منسجمة تعلق بذاكرتنا الى الأبد . فمنظر يعقوب وراحيل عند البئر ، على سبيل المثال ، وقد استلقى حول البئر قطيع الخراف فى حرارة الظهيرة القائظة ، هو منظر ينبض بالحياة من خلال ألفاظ الكاتب كما تنبض صورة رفائيل من خلال ألوانه .

والى جانب اختيار الكاتب بعناية لما يستحق التصوير من صور الحياة الانسانية ، يضفى على أوصافه للرب براءة جذابة وطابع البساطة القديمة . ذلك أنه يحملنا الى الزمن القديم الذى لم يكن يعتقد فيه الانسان بأن هناك هوة شاسعة تفصله عن الرب . ففى صفحاته تقرأ كيف أن الرب شكل الانسان الأول من الطين كما يشكل صبى صورة لطفل من قطعة من الطين ، وكيف أنه مشى الى الجنة فى المساء الرطب ، وصاح بالأبوين اللذين كانا قد ملأهما الخزى من فعلتهما ، واختفيا وراء الأشجار ، وكيف صنع لهما ملابس من الجلد لكى يخفيا بها عورتهما بدلا من أوراق التين الهزيلة ، وكيف أنه أغلق باب السفينة بعد أن دخلها نوح ، وكيف أنه اشتم رائحة الضحية المشوية ، وكيف أنه هبط من السماء لينظر الى برج بابل ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن يتمكن من رؤيته من عل . وكيف أنه تحدث الى ابراهيم عند باب خيمته فى الحر القائظ وفى ظل شجرة السنديان الهامسة ، وباختصار فان عمل هذا الكاتب الممتع كله يفيض بنفحات شاعرية تمتزج بشىء من عبير الزمن القديم ونضرته ، مما أكسب عمله سحرا خالدا يفوق كل وصف .

وتتميز العناصر التفصيلية التى تتألف منها قصة الطوفان فى سفر التكوين ، والتى أسهم فى كتابتها كلا الكاتبين : اليهوى والكهنوتى - يتميز بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة . فاذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية فان أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب فى كلا المصدرين، فهو فى المصدر اليهوى « يهوه » وهو فى المصدر الكهنوتى « ألوهيم » ، وكلا الاسمين نقلتهما « الترجمة الانجليزية المعتمدة » على التوالى الى كلمتى « السيد » و « الرب » . والمترجمون الانجليز فى استبدالهم كلمة « سيد » بكلمة « يهوه » ، انما يفعلون فعل اليهود الذين يستبدلون - عندما يقرءون كتابهم المقدس بصوت عال - بكلمة « يهوه » كلمة « أدوناى » أو « السيد » ، أينما صادفهم اسم « يهوه » مكتوبا فى النص . ومن ثم يمكن للقارىء الانجليزى أن يدعى ، كقاعدة عامة ، أنه ما دامت كلمة « السيد »

يقصد بها الرب فى « الرواية الانجليزية » ، فان الكلمة البديلة لها فى النص العبرى المطبوع هى « يهوه » • أما الكاتب الكهنوتى فانه يتجنب فى قصة الطوفان وفى خلال سفر التكوين استخدام اسم « يهوه » ويستبدل به اسم « ألوهيم » ، وهو الاسم المألوف للرب عند العبريين • والسبب الذى دفع الكاتب الكهنوتى الى هذا هو أن اسم « يهوه » وفقا لرأيه ، هو الاسم الذى أوحى به الرب لموسى لأول مرة • ومعنى هذا أن الرب لم يكن يسمى بهذا الاسم فى العصور الأولى السابقة على عهد موسى • أما الكاتب اليهوى فلا يتبنى من ناحية أخرى مثل هذا الرأى فيما يتصل بكون الرب قد أوحى الى موسى باسم « يهوه » ، ومن ثم فهو يسمى الرب بهذا الاسم فى رواياته ، منذ بدء الخليقة دون أن يساوره شك فى هذا الاسم • والى جانب هذا الاختلاف اللفظى الجوهرى بين المصدرين ، هناك اختلافات لفظية أخرى لا تبدو واضحة فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » • فهناك مجموعة من الألفاظ تستخدم فى المصدر اليهوى للدلالة على الذكر والأنثى (١) ، ومجموعة أخرى تخالفها تماما تستخدم فى المصدر الكهنوتى فى نفس الدلالة • كما أن الكلمات التى تنقلها « الترجمة الانجليزية المعتمدة » الى كلمة « يخرب » (٢) مختلفة فى كلا المصدرين ، وبالمثل الألفاظ التى تنقلها الترجمة الانجليزية الى « يموت » (٣) و « جف » ••

على أن الاختلافات المادية بين الحكايات اليهوية والكهنوتية لا تزال تلفت النظر الى أكثر من ذلك • وحيث ان هذه الاختلافات تصل فى بعض الحالات الى حد التناقض القاطع ، فان اثبات أن هذه الحكايات مستمدة من

---

(١) فى المصدر اليهوى يكثر قوله : « الشخص وزوجه » (مثلا : التكوين ٢/٧) • وفى المصدر الكهنوتى يقول فى مكان ذلك « الذكر والأنثى » (مثلا : التكوين ١٩/٦ ، ٩/٧ ، ١٦) — فريزر فى الطبعة الموسعة من هذا الكتاب المجلد الأول — ص ١٣٧ — حاشية (٣) •

(المراجع)

(٢) فى المصدر اليهوى « محا » (مثلا : التكوين ٧/٦ ، ٤/٧ ، ٢٣) • وفى المصدر الكهنوتى « دمر » (مثلا : التكوين ١٣/٦ ، ١٧ ، ١١/٩ ، ١٥) نفس المكان — حاشية(٤) •

(المراجع)

(٣) الفعل « مات » • يترجمه العرب عن العبرية بهذا الفظ ، وهو من المصدر اليهوى • أما الذى يقول فريزر ان معناه « جف » فهو من المصدر الكهنوتى ، ويترجمه العرب عادة بالفعل « هلك » •

(المراجع)

مصدرين منفصلين يصل الى حد اليقين . فالحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، وبينما أخذ نوح معه في الفلك سبعا من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من صنف من صنوف الحيوان النجس . أما الكاتب الكهنوتي فلم يميز ، من الجهة الأخرى بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهي على قدم المساواة مع بعضها البعض ، وان كان قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف . والسبب في هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتي لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فان نوحا لم يكن يعرفها . أما الكاتب اليهوي الذي لم يتعب نفسه بالتفكير في هذا الموضوع ، فقد ادعى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشري منذ العصور الأولى ، كما لو كانت هذه التفرقة ترتكز على أساس طبيعي واضح كل الوضوح بحيث لا يخطئها أحد .

ثم ان هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة الفيضان ، فقد ظلت الأمطار تهطل في قصة الكاتب اليهوي مدة أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم ظل نوح في فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته . ووفقا لهذا الحساب فان الفيضان يكون قد دام واحدا وستين يوما . أما في الحكاية الكهنوتية ، فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوما ، وبعدها أخذت المياه في الانخفاض . أما مدة الطوفان في العموم فقد استغرقت اثنى عشر شهرا وعشرة أيام . وحيث ان الشهور العبرية كانت شهورا قمرية فان الاثنى عشر شهرا تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما . واذا أضفنا الى هذا الرقم عشرة أيام أخرى فان المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أي ثلاثمائة وأربعة وستين يوما . وحيث ان الكاتب الكهنوتي قد حسب مدة الفيضان بما يساوي سنة شمسية ، فانه يمكننا أن ندعي ونحن مطمئنون، أن هذا الكاتب قد عاش في الزمن الذي استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ الكبير في التقويم القمري عن طريق مراقبتهم للشمس .

ومرة أخرى يختلف الكاتبان في مصدر الفيضان ، فبينما يعزوه الكاتب اليهوي الى الأمطار ، يعزوه الكاتب الكهنوتي الى تدفق المياه الباطنية الى جانب سقوط الأمطار الغزيرة .

وأخيرا فان الكاتب اليهوى يحكى عن بنـــاء نوح للهيكل وتقديمه الضحية للرب شــكرا له على انقـــاذه من الطوفان ، فى حين أن الكاتب الكهنوتى لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية · وسبب هذا بدون شك هو أنه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون اللاوى الذى انشغل به الكاتب الكهنوتى · كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادى مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتى لحظة فى أن ينسبه الى الشيخ المبجل ·

وبناء على ذلك فان الموازنة بين الحكايات اليهوية والكهنوتية تؤكد بصورة واضحة النتيجة التى توصل اليها النقاد وهى أنهما كانا فى الأصل مستقلين ، وأن الحكايات اليهوية تعد أقدم بحق من الحكايات الكهنوتية · على أنه من الواضح أن الكاتب اليهوى كان يجهل قانون المكان المقـدس الواحد الذى يحرم تقديم الضحية فى أى مكان فى أورشليم · ولما كان هذا القانون قد أعلنه الملك « يوشيا » لأول مرة ، ونفذه عام ٦٢١ ق·م· فانه يترتب على هذا أن المصدر اليهوى قد ألف قبل هذا التاريخ بزمن يحتمل أن يكون طويلا · وهذا السبب نفسه يؤكد أن المصدر الكهنوتى قد ألف بعد هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير فيما يبدو ، حيث ان الكاتب يعترف ضمنا بقانون المكان المقدس الواحد ، حينما رفض أن ينسب الى نوح عملا يخالفه · ويترتب على هذا أنه بينما يكشف الكاتب اليهوى عن لون بعينه من البساطة القديمة ، حيث أرجع بكل بساطة النظم الدينية فى عصره وطبيعة هذا العصر الى عصور الحياة الأولى ، فان الكاتب الكهنوتى يكشف عن انعكاسات عصر متأخر تحددت فيه نظرية فى التطور الدينى طبقها الكاتب الكهنوتى على التاريخ تطبيقا دقيقا ·

وربما كانت المقارنة السطحية بين حكايتى الطوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ فى الأصل مستقلتين ، بل من المؤكد أن احداهما اعتمدت على الأخرى ، أو أنهما استمدتا معا من أصل واحد · وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا الى محض الصـدفة · ففى كلتا الحكايتين قررت القوى الالهية أن تقضى على الجنس البشرى بأن ترسل الى الأرض طوفانا عظيما · وفى كلتيهما أفشى اله هذا السر الى رجل قبـل اغراق الأرض بالطوفان وقد أرشد الاله هذا الرجل الى بناء فلك كبير لكى يأوى اليه فينقذ نفسه وينقذ معه صنوف الكائنات الحيـة جميعا · ومن

المحتمل أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكون البطل الذى أنقذ من الطوفان فى الحكاية البابلية ـ وفقا لرواية « بيروسوس » ـ هو ملك بابل العاشر ، وأن يكون نوح فى الحكاية العبرية هو الرجل العاشر فى نسل آدم • وفى كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار ، بعد تحذير الاله اياه ، سفينة ضخمة مكونة من عدة طوابق ، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب اليها المياه ، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف • وفى كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة ، فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياما يختلف عددها قلة أو كثرة • وفى كلتيهما غرق الجنس البشرى جميعه فيما عدا البطل وأسرته • وفى كلتيهما أرسل الرجل الذى أنقذ ، طائرين : غرابا وحمامة ليرى عن طريقهما ما اذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض • وفى كلتيهما عادت الحمامة الى السفينة ؛ لأنها لم تجد مكانا تستقر فيه ، أما الغراب فلم يعد فى كلتا الحكايتين ، وفى كلتيهما رست السفينة على جبل • وفى كلتيهما قدم البطل على الجبل ضحية للاله شكرا له على انقاذه اياه ، وفى كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها •

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية فى مجموعهما • فاذ شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات ، فاننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب الى الحكاية اليهوية منها الى الحكاية الكهنوتية • فكل من الرواية اليهوية والبابلية تعطى أهمية للعدد سبعة •

فقد حذر نوح ، فى الرواية اليهوية ، من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالى • كما أخذ معه فى السفينة سبعا من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة • ثم ان المسافة الزمنية بين اطلاقه طائرا وآخر كانت سبعة أيام • وبالمثل دام الطوفان فى الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام • كما أن البطل فيها وضع مجموعات أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية • وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوان التى اختارها •

وفى كلتيهما صورت الحادثة المثيرة ، حادثة ارسال الحمامة ثم الغراب من السفينة • كما أن الضحية قدمت فى كلتا الحالتين ، وقد اشتمت الآلهة فيهما رائحة الشواء وسكن غضبها • على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية فى سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية فى بعض التفصيلات المحددة ، أكثر من اقتراب الرواية اليهوية منها • ففى كل من الروايتين : الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة الى

البطل لبناء السفينة • وبناء على هذه التعليمات ، بنيت السفينتان فى كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق الى عدة حجرات كما أنهما طليت فى كل منهما بالقار أو القطران ، ورست كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الاله عند خروجهما •

فاذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان الى هذا الحد ، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه ؟ ان الرواية البابلية لا يمكن أن تكون مستمدة من الرواية العبرية ، حيث ان الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثنى عشر قرنا • وفضلا على ذلك ، « فان الحكاية العبرية فى جوهرها ، كما لاحظ « تسيمرن » ، تقضى بأن يكون البلد المشار اليه قابلا لحدوث الفيضانات مثل بابل ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الحكاية « نشأت أصلا فى بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك الى فلسطين » • ولكن اذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟ • اننا لا نملك أدنى قدر من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن ثم فان الاجابة عن هذا السؤال لا يكون الا عن طريق التخمين • وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية فى فترة أسرهم فى بابل ، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ الرواية العبرية الى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد • وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة فى الأثر الكهنوتى المنقح وحده • ذلك أن الاحتمال يؤيد ، كما رأينا ، أن المصدر الكهنوتى قد ألف فى أثناء الأسر أو بعده •

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتاب هذا المصدر قد تعرفوا على التراث البابلى ، اما عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة ، وذلك فى أثناء أسرهم أو ربما بعد عودتهم الى فلسطين • ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التى مهد لها الغزو البابلى لفلسطين ، ربما أدت على نحو ما الى انتشار الأدب البابلى فى فلسطين ، كما أدى السبى الى انتشار الأدب اليهودى فى بابل • وبناء على وجهة النظر هذه فان بعض التفصيلات التى تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية • وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران اللذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل • على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا فى الأسر بزمن طويل ، وقرب

حكايتهم فى شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية فى سفر التكوين التى يمكن أن ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد والتى لا يمكن أن تتأخر بحال من الأحوال عن القرن الثامن ٠

فاذا افترضنا أن العبريين فى فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر ٠ فانه ما زال علينا أن نتساءل ، كيف ومتى عرف العبريون هذه الأسطورة ؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال : الاجابة الأولى هى أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل الى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفى عام ٠ وأما الاجابة الثانية فهى أن العبريين فيما رأى البعض ، ربما أخذوا هذه الحكاية بعد أن استقروا فى فلسطين ، عن الكنعانيين ، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلى فى حوالى الألف الثانى قبل الميلاد ٠ على أننا لا نستطيع أن نقرر فى الوقت الراهن أى الرأيين هو الصواب ، هذا اذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة ٠

وقد لعب الخيال اليهودى فى العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف اليها تفاصيل جديدة تميل فى الغالب الى المغالاة ، وذلك فيما يبدو ، بقصد اشباع شغف العبريين فى عصر انحطاطهم ، أو مداعبة مزاجهم فى هذا العصر ، ذلك المزاج الذى لم يكن يقتنع ببساطة حكايات سفر التكوين النبيلة ٠

ومن بين هذه الزخارف الرخيصة أو الاضافات الغريبة التى أضيفت الى الأسطور القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون فى دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا من زراعة واحدة يجنون محصولا يكفى حاجاتهم طيلة أربعين عاما ٠ كما كانوا بفنونهم السحرية ، يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم ٠ ولم تكن الأجنة تمكث فى بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شهور ٠ وبمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل انهم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم ٠

ولقد كانت هذه الحياة السهلة المرفهة هى السبب فيما وصل اليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعا لهم الى ارتكاب الآثام، وبخاصة الفسق والسلب ، الأمر الذى أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضى على العاصين بأن يغرقهم فى الطوفان ٠ ومع ذلك فقد أمهلهم الرب عندما أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم فى

الطوفان جزاء جورهم . وقد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاما ، بل ان الرب منحهم مهلة أسبوع آخر فى نهاية هـذه المدة . وفى هـذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب ، وتغرب فى المساء فى المشرق . ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع الى التوبة، بل انهم على العكس أخذوا يسخرون من نوح الورع ويستهزءون عنـدما أبصروه يبنى الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه المـلاك « رازئيل » الى آدم ، وكان يحتوى بين ثناياه على العلم الدينى والدنيوى جميعا . وقد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق وقد وضعه نوح فى صندوق ذهبى أحكم اغلاقه وأخذه معه فى الفلك ، فقام مقام الساعة فى التمييز بين الليل والنهار فى أثناء فترة الفيضان التى لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر . أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة التى هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التى تدفقت من الأرض . وقد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفا . وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء ، عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب . وهذا هو السبب فى أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالبا بأولاده ، ولكنه لن يحصل عليهم الى الأبد .

وبعد أن أعد نوح الفلك ، بدأ يجمع اليه صنوف الحيوان . وجاءت الحيوانات جماعات فى أعداد كبيرة للغاية ، الى درجة أن نوحا لم يستطع أن يدخلها جميعـا فى الفلك ، وكان عليه أن يجلس عنـد بابه ليختـار بعضها ، فأدخل فى الفلك الحيوانات التى كانت تجلس عند الباب ، وأبعد تلك التى كانت واقفة . وحتى بعد أن نفذ نوح هذا المبدأ من الاختيـار الطبيعى بصرامة ، كان عدد أنواع الزواحف التى دخلت الفلك لا يقل عن ثلاثمائة وخمس وستين صنفا ، كما بلغ عدد أنواع الطيور اثنين وثلاثين نوعا . ولم يحص نوح عدد أنواع الحيوانات الثديية ، أو أن الكاتب على الأقل لم يدون عددها ، ولكن الكثير منها كان ينتشر بين ركاب الفلك كما سنرى وشيكا . وقبل أن يحدث الطوفان كان عدد الحيوانات النجسة يفوق عدد الحيوانات الطاهرة ، ولكن هذه النسبة انعكست بعد حدوث الطوفان ، اذ أن نوحا أدخل فى الفلك سبعة أزواج من كل نوع من أنواع الحيوانات الطاهرة ، فى حين أدخل زوجين اثنين فقط من الحيوانات النجسة . وكان هناك حيوان ضخم هو الريم لم يجد له مكانا فى الفلك لضخامته . ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه فى الفلك ، وأخذ الحيـوان يخب من ورائها . وبالمثل كان المارد « عوج » ملك « باشان » من الضخامة بحيث

لم يجد مكانا فى الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ • أما عن الناس الذين كانوا مع نوح فى الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « انوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتهم •

وهناك أيضا زوج غريب وجد له مكانا فى الفلك وهو النفاق والخيبة • وقد جاء النفاق وحده أول الأمر ووقف عند باب الفلك ، ولكن نوحا منعه من الدخول لأنه لم يكن يسمح بالدخول سوى للمتزوجين • فانصرف النفاق وتقابل مع الخيبة فأقنعها أن يكون زوجا لها ويرحل معها الى الفلك ، وبذلك قبلا معا بالسفينة • فلما اجتمع هؤلاء جميعا داخل السفينة ، وبدأ الطوفان يغمر الأرض ، اجتمع العصاة من حول الفلك فى حشد بلغ عدده ما يقرب من سبعمائة ألف شخص ، وأخذوا يتضرعون ويتوسلون لكى يقبلوا فى الفلك • فلما رفض نوح فى صرامة أن يقبلهم ، اندفعوا نحو باب الفلك كما لو كانوا يريدون تحطيمه • ولكن الحيوانات المتوحشة التى كانت مكلفة بحماية الفلك هاجمتهم وابتلعت بعضهم • أما الذين هربوا من الوحوش فقد أغرقوا فى الطوفان الذى أخذ يعلو تدريجيا • وأخذت السفينة تطفو على الماء طيلة عام كامل وهى تترنح وتتخبط وسط الأمواج المتراكمة ، وكل ما فيها يتأرجح بداخلها ، كما يتقلب العدس داخل الوعاء• ثم أخذت الأسود تزأر والثيران تخور والذئاب تعوى وسائر صنوف الحيوانات تصرخ بأصواتها ، كل حسب طبيعة صوته • على أن مشكلة المشاكل التى كان على نوح أن يواجهها فى الفلك هى مشكلة توزيع المؤن • وقد حكى « سام » ولد نوح بعد ذلك بزمن الى « اليعازر » خادم ابراهيم عن المشقة التى كان نوح يعانيها فى سبيل اطعام جيش الوحوش داخل الفلك ، فقد كان المسكين يصعد ويهبط داخل الفلك عدة مرات فى الليل والنهار ، اذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا ، وحيوان الليل ليلا • كما كان يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب فى سقف السفينة • وعلى الرغم من أن الأسد كان هادئا نسبيا ، اذ كان يعانى طوال الوقت من آلام الحمى ، فانه كان فظا للغاية ، وعلى استعداد لأن يزأر لأقل اثارة • وذات مرة لم يقدم له نوح الغذاء الكافى ، فضربه الحيوان النبيل بكفه ضربة عنيفة أصابته بالعرج سائر أيام حياته ، فأصبح بعد ذلك غير قادر على أن يقوم بعمله بوصفه كاهنا • وفى اليوم العاشر من شهر تموز أطلق نوح الغراب ليستطلع الأمر ويقدم له تقريرا عن الطوفان • ولكن الغراب وجد جسما يطفو على الماء فأسرع وراءه ليلتهمه ، ونسى أن يعود الى نوح ليقدم له التقرير • فأطلق نوح بعد ذلك بأسبوع الحمامة ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة عادت وعلى منقارها ورقة من شجرة

الزيتون كانت قد انتزعتها من فوق جبل الزيتون فى أورشليم ، ذلك أن الطوفان لم يكن قد أغرق المدينة المقدسة • وبعد أن خرج نوح من الفلك بكى عند رؤية المساحات الشاسعة التى كان الطوفان قد أغرقها • ثم قدم « سام » للرب قربان الشكر لنجاتهم من الطوفان ، ذلك أن نوحا لم يتمكن من القيام بهذا الواجب الدينى ، اذ كان لا يزال يعانى من أثر ضربة الأسد •

وقد ذكرت رواية أخرى متأخرة لحكاية الطوفان بعض التفصيلات المثيرة الخاصة بنظام الفلك الداخلى ونظام توزيع الركاب ، فقد سكنت القطعان والوحوش جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الأوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة فى السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء ، فأقام نوح وأولاده فى الجانب الشرقى من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أولادهن فى الطرف الغربى منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وهؤلاء جثة آدم التى كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه • وهذه الرواية التى تخبرنا بعد ذلك بأبعاد الفلك على وجه التحديد بالذراع ، كما تذكر لنا اليوم والشهر الذى ركب فيه الركاب الفلك ـ هذه الرواية مستمدة من مخطوط عربى عثر عليه فى مكتبة دير سانت كاترين فى جبل سيناء • ويبدو أن مؤلف هذا المخطوط كان عربيا مسيحيا عاش فى فترة الفتح الاسلامى • هذا وان كان تاريخ المخطوط متأخرا •

٤ ـ الحكايات الاغريقية القديمة عن الطوفان الكبير :

فى أثناء قراءتنا للأدب الاغريقى القديم ، تصادفنا حكايات عن الطوفان الكبير الذى هلك فيه الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وحكاية الطوفان الاغريقية كما رواها « أبولودوروس » جامع الأساطير تجرى على النحو التالى : « كان « دويكاليون » ابنا « لبروميثيوس » ، وكان يحكم بوصفه ملكا ، على بلد تقع بالقرب من « فيثيا » ، كما كان متزوجا من « بيرها » ابنة « ابيميثيوس » و « باندورا » أول امرأة خلقتها الآلهة • وعندما شاء « زيوس » أن يهلك أهل العصر البرونزى ، صنع « دويكاليون » بناء على نصيحة « بروميثيوس » ، تابوتا أو ابتنى فلكا • وبعد أن جمع كل مايلزمه ، دخل الفلك هو وزوجته • ثم أسقط « زيوس » مطرا غزيرا من السماء أغرق جزءا كبيرا من بلاد الاغريق وغرق معها كل الناس فيما عدا قليل منهم لجأوا الى الجبال العالية القريبة • ثم انفصلت جبال « ثيسالى » وغمرت المياه البلاد التى كانت تقع وراء « استموس »

و « بيلوبونيز » • أما « دويكاليون » فقد سارت سفينته على سطح الماء وهو بداخلها تسعة أيام وتسع ليال الى أن رست على جبل «بارناسيوس» • فلما انقطعت الأمطار ، نزل من السفينة وقدم الضحية للاله « زيوس » ، اله النجاة • ثم أرسل « زيوس « الرسول « هرمس » الى « دويكاليون » وسمح له أن يختار الجنس الذى يعمر الأرض معه ، فاختار « دويكاليون » المذكور • فأمره « زيوس » أن يلتقط أحجارا ويرمى بها وراء ظهره • وفعل « دويكاليون » هذا وتحولت الأحجار الى رجال • أما الأحجار التى رمتها زوجته « بيرها » فقد تحولت الى نساء • وهذا هو السبب فى أن الشعب الاغريقى اسمه « لاوى » (Laoi) ، وهو اسم مشتق من لاس (Laas) ومعناه حجر •

ولا ترجع هذه الحكاية الاغريقية من حيث شكلها الى أقدم من منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، أما من حيث المادة فهى أقدم من هذا بكثير • ذلك لأنها قد رويت عن « هيلانسيوس » وهو مؤرخ اغريقى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد • وقد ذكر هذا المؤرخ أن سفينة « دويكاليون » لم ترس على جبل « بارناسيوس » ، بل رست عند جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهناك رواية أخرى للحكاية الاغريقية رويت عن الشاعر « بنــدار » الذى ترجع مؤلفـــاته الى القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل « هيلانسيوس » ، ذلك أن هذا الشاعر حكى عن «دويكاليون» و «بيرها» ، عندما هبطا من جبــال « بارناسيوس » وأعادا خلق الجنس البشرى من الحجر •

وقد رأى البعض أن المدينة الأولى التى أسسها « دويكاليون » بعد انتهاء الطوفان هى مدينة «أوبوس» التى كانت تقع فى سهل «لوكريان» الخصيب بين الجبال وخليج « أويبويك » • على أنه روى أن « دويكاليون » كان يسكن فى « سينوس » ميناء « أوبوس » ، بعيدا عن السهل بعــدة أميال • وقد كان الأهالى يطلعون المسافرين على قبر زوجته فى مســتهل التاريخ الميلادى ، كما يقال : ان رماد جسد الزوج يرقد فى أثينا • ووفقا لرأى أرسطو الذى كتب مؤلفاته فى القرن الرابع ق•م• فان الدمار الذى لحق بالبلاد بسبب الطوفان الذى حدث فى عصر « دويكاليون » ، شعر به سكان هيلاس القديمة بوضــوح ، تلك المدينة التى كانت تقع على مقربة من « دودونا » ونهر « أشيلوس » ، ذلك أن هذا النهر قد غير مجراه فى أماكن عدة • وفى هذه الأيام كان يسكن هذه المنطقة « السيليون » ، كما كان يسكنها الشعب الذى كان يسمى « الاغريق » (جرايكوى) ، ويطلق عليه الآن اسم «الهيلينيين» » •

وقد كان بعض الناس يعتقدون أن ضريح « زيوس » المقـدس فى « دودونا » قد شيده « دويكاليون » و « بيرها » اللذان كانا يعيشان بين « المولوسيين » سكان هـذا البلد · وقد ذكر أفلاطون كذلك فى القرن الرابع ق·م· الطوفان الذى حدث فى زمن « دويكاليون » و « بيرها » ، دون أن يصفه · وكذلك حكى عن الكهنة المصريين أنهم كانوا يسخرون من الاغريق الذين كانوا يعتقدون أنه لم يحدث سوى طوفان واحد فى حين أن الطوفان قد أغرق الأرض أكثر من مرة · أما المؤرخ « البارياني » الذى دون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى عام ٢٦٥ ق·م· فقد ذكر أن طوفان « دويكاليون » قد حدث قبل عصره بألف ومائتين وخمسة وستين عاما ، أى أنه حدث وفقا لحسابه عام ١٥٣٩ ق·م·

وهناك أماكن مختلفة فى بلاد اليونان تدعى شرف صلتها على نحو ما بدويكاليون والطوفان الكبير · ومن بين سـكان هـذه الأماكن ـ كما يمكن أن نتوقع ذلك ـ سكان أثينا الذين يتباهون بالعصور القديمة التى سكنوا فيها بلاد «أتيكا» . وليس عند الأثينيين مانع أن يزوروا عندما تكون المسألة متعلقة بدويكاليون وطوفانه · وهم عندما يشرحون صلتهم بهذا الحادث يتذرعون بذريعة ، مؤداها أن السحب حينما تجمعت فى كثافة حول قمة جبل «بارناسيوس» ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة فى «ليكوريا» حيث كان «دويكاليون» يحكم بوصفه ملكا ، لاذ «دويكاليون» بأثينا ، وشيد عند وصوله اليها هيكلا لاله المطر «زيوس» ، كما قدم ضحية الشكر على نجاته . وهذه الأسطورة فى شكلها الموجز على هذا النحو ليس فيها ذكر للسفينة ، ويبدو أنه قد ترك لنا أن نحدس أن البطل قد هرب من الطوفان سائرا على قدميه . ومهما يكن الامر ، فان « دويكاليون » ، كما قيل ، قد شيد هيكلا « لزيوس الأولمبى » ، وأنه دفن فى أثينا . وقد ظل المرشدون الأثينيون المحليون ، حتى القرن الثانى الميلادى ، يشيرون بفخر وطنى الى ضريح نوح الاغريقى . بجانب هيكل «زيوس الأولمبى» الأحدث والأكثر فخامة من ضريح «دويكاليون» والذى يتوج حطام أعمدته فى بهاء فريد المدينة الحـديثة · ومازال هذا المعبد يلفت الانظار من بعد ويحمل شـهادة صامتة ، وان تكن بالغـة الدلالة على عظمة الاغريق القدماء ·

وليس هذا الضريح وحده هو الذى كان يشير اليه المرشـدون الاغريق فى ذكرى الطوفان المهول . بل كانوا كذلك يرشدون المسافر المحب للاسـتطلاع داخـل أرباض أثينا التى يحجبها هيكل «زيوس»

المترامى الارجاء الى ربض أصفر من «البقعة الاولمبية» ، حيث كانوا يشيرون الى شق فى الأرض ، عرضه ذراع واحدة ، ويؤكدون أن مياه الطوفان كانت تجرى داخل هذا الشق . ومن ثم فهم يرمون فى هـذا الشق فى كل عام كعكا مصنوعا من دقيق القمح والعسل . ويبدو أنه كان ينظر الى هذا الكعك بوصفه كعكا روحيا صنع للأرواح الفقيرة التى هلكت فى الطوفان الكبير . ذلك أننا نعلم أن طقوسا تذكارية ، أو صلاة جنائزية كانت تقام فى أثينا فى كل عام تكريما لهؤلاء الشـهداء . وكانت هذه الاحتفالات تسمى «بعيد الطفو على الماء» . ولاتوحى هذه التسمية بأن ذوى القـلوب الرحيمة لم يكونوا يرمون فى الشـق الأرضى الكعك فحسب ، بل كانوا يصبون فيه المياه كذلك ، وبذلك يسـدون جوع أشباح العالم الآخر ، بمقدار مايطفئون ظمأهم .

وهناك مكان آخر كان الناس يحتفلون فيه بذكرى الطوفان على نحو ماسلف ، وهذا المكان هو «هيرابوليس» (١) الذى كان يقع على نهر الفرات . وهناك فى هذا المكان كانت الآلهة السامية تقدس حتى القرن الثانى قبل الميلاد بطريقة فرضتها الحضارة الاغريقية الاسمية التى انتشرت فى الشرق بتأثير فتوحات الاسـكندر الأكبر . وبمقتضى هذه الطريقة ، كان الناس يخلعون على هذه الآلهة أردية تنكرية شفافة، فكانت أشبه بالتماثيل القديمة التى ترتدى أردية فضفاضة . وقدكانت الالهة «عشتروت» تحتل مكانا بارزا بين هذه الآلهة القديمة وهى تلك الالهة التى كان يعبـدها الاغريق متخفية تحت اسم « هيرا » . وقد خلف لنا «لوسيان» وصفا قيما للغاية لمعبد «عشتروت» والطقوس التى كانت تقـام فيه . فهو يخبرنا أن المعبد وفقـا للرأى السـائد ، بنـاه «دويكاليون» الذى حـدث فى عهـده الطوفان الكبير . وعنـد ذكر «دويكاليون» وجد «لوسيان» فرصة لكى يحـكى أسـطورة الطوفان الاغريقية التى تجرى على النحو التالى : ان جيل الرجال الحـالى ، كما يقول «لوسيان» ليس هو جيل الجنس البشرى الأول ، بل سبقه جيل آخر فنى فى آخره . أما نحن البشر الذين نعيش اليوم على وجه البسيطة ، فننتمى الى الجيل الثانى الذى تكاثر بعد عصر «دويكاليون». وأما الناس الذين كانوا يعيشون قبل الطوفان ، فيقال : انهم كانوا قد تجاوزوا الحد فى الاستهتار والحماقة ، فلم يكونوا يحفظون ايمانهم أو يكرمون الغرباء ، أو يلقون بالا لطالبى المعونة . وقد كان جزاؤهم أن

(١) وردت نفسها بعد ذلك فى ص ٦٩ .

أصابتهم هـذه الكارثة الكبرى ، فتدفقت الميـــاه من جوف الأرض ، وهطلت الأمطار فى شـكل سيول جارفة ، وفاضت الأنهار وغمر البحر البلاد بحيث لم تعد العين تبصر سوى المياه فى كل مكان . أما الناس فقد غرقوا عن آخرهم ، فيما عدا «دويكاليون» الذى عاش بسـبب حكمته وورعه ، وكان الحلقة بين جيله وجيل الناس من بعده .

وقـد تم انقـاذ «دويكاليون» على النحـو التـالى : لقد كان «دويكاليون» يملك فلكا كبيرا لجأ اليه هو وزوجته وأولاده هروبا من الطوفان . وفى الوقت نفسه جاءته الخنازير والخيول والأسود والثعـابين وسائر حيوانات الأرض أزواجا ، فاستقبلها « دويكاليون » جميعـا ، ولم تحدث له أى أذى . أجـل ، لقـد دبت بينها ، بعون الاله روح الصداقة العميقة ، وأبحرت جميعا فى سفينة واحدة حتى انتهى الطوفان . ثم يقول «لوسيان» بعد ذلك : ان هذه هى حكاية طوفان «دويكاليون» الاغريقية . ثم يستأنف حديثه قائلا : ان سكان «هيرابوليس» يحكون حادثة غريبة . فهم يقولون : ان خندقا انفتح فى بلدهم وتسربت اليه مياه الطوفان عن آخرها . فشيد «دويكاليون» أثر ذلك الهياكل كما شيد معبدا مقدسا للآلهة «هيرا» بجوار الخندق . ويعلق «لوسيان» على ذلك قائلا : «ولقد رأيت هذا الخندق وهو عبارة عن خندق صغير يقع أسفل المعبد . ولست أدرى أكان هذا الخندق كبيرا فى الازمنة السالفة ثم انكمش على مر الزمن ، فان مارأيته كان خندقا صـغيرا ما فى ذلك شك .

وفى ذكرى أسـطورة الطوفان يقوم الناس بالاحتفالات الآتيـة : يحضرون كميـة من مياه البحر الى المعبـد مرتين فى السـنة . ولا يقوم الكهنة وحدهم باحضار المياه ، بل يشاركهم فى ذلك السوريون والعرب، بل النـاس الذين يسكنون فيما وراء نهر الفرات . وتصب كل هـذه المياه فى الخندق . وعلى الرغم من صغر حجم الخندق ، فانه كان يتسع لهذه الكمية الهائلة من المياه . ويعلق الناس على هذا بقولهم : انهم انما يتبعون نظام الطقوس الذى كان «دويكاليون» يؤديه فى المعبد فى ذكرى الطوفان وفى ذكرى رحمة الآلهة بالناس . وفضـــلا على ذلك فقد كان هنـاك عمودان أو بالأحرى مسلتان عنـد المدخل الشـمالى لهذا المعبد العظيم ، يبلغ طول كل منها ثلاثمائة وستين قدما . وقد كان من المألوف أن يصعد رجل احدى هاتين المسلتين مرتين فى كل عام ، ويظل سـبعة أيام جالسا فى الهواء على قمتها . وتختلف الآراء فى سبب صعود هـذا الرجل وفى هدف هذا العمل ، ولكن أغلب الناس يعتقد أنه عندما يصعد

الى هذا الارتفاع الشاهق يكون قريبا من الآلهة فى السماء ، فتستمع بوضوح الى الصلوات التى يؤديها باسم أهل سوريا جميعا . على أن البعض الآخر يرى أنه انما كان يصعد الى قمة المسلة ليبين للناس كيف كان الناس يصعدون الى قمم الجبال وأعالى الأشجار لكى يهربوا من طوفان «دويكاليون» .

هذه الرواية الاغريقية المتأخرة لاسطورة الطوفان تشبه الى حد كبير الرواية البابلية . وقد أضاف «بلوتارك» عنصرا آخر من عناصر التشابك بين الروايتين عندما ذكر أن «دويكاليون» أطلق حمامة من السفينة حتى يستطيع أن يعرف من رجوعها أو عدم رجوعها الى السفينة ما اذا كانت العاصفة الممطرة لا تزال مستمرة أم لا . وبهذا تكون الرواية الاغريقية فى شكلها هذا قد تلونت بدون شك ، ان لم تكن قد امتزجت ، بتأثير سامى ، اسرائيليا كان أو بابليا .

وهناك مدينة أخرى فى آسيا الصغرى ، كانت تزهو ، فيما يبدو، بارتباطها بحادثة الطوفان الكبير . واسم هذه المدينة هو «أباميا سيبوتس » ، التى كانت تقع فى اقليم «فريجيا» . ولقب «سيبوتس» الذى تحمله هذه المدينة ، هو الكلمة الاغريقية التى تعنى التابوت أو الفلك . وتبدو على عملات هذه المدينة التى صكت فى عصر «سيفيروس» و «ماكرينوس» و «فيليب الأكبر» ، صورة السفينة الطافية على الماء وبداخلها راكبان يبدو الجزء الأعلى من جسميهما . والى جانب السفينة هناك شكلان آخران ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة . وأخيرا هناك صورة طائرين يجثمان فوق السفينة ، قيل : ان أحدهما صورة غراب والآخر حمامة تحمل فرع زيتون . وقد نقش اسم «نوى» على السفينة وهو الاسم الاغريقى المرادف لكلمة «نوح» ، كما لو أنه أريد بذلك ازالة كل شك فى سبيل التعرف على الأسطورة . ومما لاشك فيه أن الشكلين يشيران الى نوح وزوجته ، مرة وهما بداخل السفينة ، ومرة أخرى وهما خارجها . وهذا النموذج من العملات يثبت بدون شك أن سكان «أباميا» كانوا يعرفون فى القرن الثالث الميلادى حكاية طوفان نوح العبرية فى الصورة التى حكيت بها فى سفر التكوين . وربما عرف السكان هذه الحكاية من المواطنين اليهود الذين كانوا فى القرن الأول قبل الميلاد كثيرين للغاية ، أو كانوا أغنياء كل الغنى الى درجة أنهم تبرعوا لاورشليم فى مناسبة واحدة بما لايقل عن مائة رطل من الذهب . على أن الباحثين لم يتفقوا على ما اذا كانت حكاية «أباميا» عن الطوفان يهودية الأصل أو أنها تعتمد على أسطورة محلية قديمة عن الطوفان .

وعلى الرغم من أن رواية الطوفان الاغريقية التى ترتبط باسم «دويكاليون» ، هى أكثر الروايات شهرة وذيوعا ، فانهـا ليست الروايه الوحيـدة المدونة فى التراث الاغريقى • فالعلماء يميزون فى الواقع بين كوارث ثلاث كبيرة أصابت العـالم فى أحقـاب مختلفه ، الكارثه الأولى حدثت ، فيمـا يروى ، فى عهـد « أجيجيس » ، والثانية فى عهـد «دويكاليون» ، والثالثة فى عهد «داردانوس» • وقد قيل : ان «أجيجيس» أو «أجيجوس» ، كما ينطق الاسم كذلك فى بعض الأحيان ، نشأ وحكم فى طيبة فى «بيوتيا» . وتعد طيبة ، وفقا لرأى العلامة «فارو» ، أقدم بلاد الاغريق ، حيث انهـا كانت قد بنيت فى عصـور ما قبل حـوادث الطوفان • وصلة «أجيجوس» «ببيوتيا» بصـفة عامة ، وبطيبة بصـفة خاصة ، يؤكدها اطلاق اسمه على البلد وعلى المدينة وعلى احـدى بوابات هذه المدينة •

ويخبرنا «فارو» أن «طيبة البوتيانية» قد بنيت قبـل الزمن الذى كان يكتب فيه كتاباته بما يقرب من ألفين ومائة عام . وقد كتب «فارو» كتاباته عام ٣٦ق•م• أو مايقرب من هذا التاريخ • وحيث ان الطوفان ، بناء على رأيه ، حدث فى عهد «أجيجوس» بعد أن أسس طيبة ، فاننـا نسـتدل من ذلك على أن الطوفان قد حدث وفقا لرأى « فارو » عـام ٢١٣٦ ق•م• أو بعد هذا التاريخ مباشرة . أما وفقا لرأى مؤرخ الكنيسة «أويسيبيوس» فقد حدث الطوفان الكبير فى عهد «أجيجوس» بعـد طوفان نوح بما يقرب من الفين ومائتى عام ، وقبل طوفان «دويكاليون» بمائتين وخمسين عاما . ومن الطبيعى حقا أن يكون شرفا للمسيحيين الأولين أن يدعوا أن قدم قصة الطوفان المدونة فى كتبهم المقدسة يكسبها من التقدير ماتفوق به تلك الروايات المدونة فى الكتابات الدنيوية •

وقد جعل «يوليوس أفريكانوس» ، المؤرخ المسيحى «أجيجوس» يعيش فى عصر موسى لا فى عصر نوح . وكذلك وضع «ايزيدور» أسقف «أشبيلية» العالم ، طوفان نوح على رأس قائمة حوادث الطوفان المختلفة ويليه حسب الترتيب الزمنى طوفان «أجيجوس» ثم طوفان «ديوكاليون» وقد كان «أجيجوس» ، من وجهة نظره ، معاصرا ليعقوب ، فى حين كان «دويكاليون» معاصرا لموسى . وقد كان أسقف «أشبيلية» فيما أعلم ، أول الكتاب الذين لجأوا الى البقايا الحيوانية المدفونة فى الجبال النائية بوصفها شاهدا على حقيقة حكاية نوح المروية ••

فاذا كان « أجيجوس » بطلا بيوتيانيا ، لا بطلا أتيكيا ، وهـذا هو

المرجح فان قصة الطوفان الذى حدث فى عصره ، تتأكد بالتغير الذى طرأ على بحيرة « كوبياك » التى كانت فى الأزمنة السالفة تشغل مساحة كبيرة فى وسط « بيوتيا » • فحيث انه لم يكن للبحيرة منبع خارجى على سطح الأرض ، كانت تعتمد فى مصدر مياهها كلية على الخنادق والممرات الجوفية التى كانت المياه قد حفرتها فى الصخور الجيرية على مر الزمن لتجرى فيها • وقد كان مستوى البحيرة يرتفع وينخفض بناء على انسداد هذه المجارى الجوفية أو خلوها من أى عائق • وربما لم يحدث لبحيرة من البحيرات أن تعرضت للتغيرات السنوية بشكل منتظم واضح كما حدث لبحيرة « كوبياك » • فبينما تملؤها عيدان البوص فى الشتاء ، وتكون مأوى لآلاف الطيور البرية ، تصبح فى الصيف فى كثير أو قليل سهلا مستنقعا ترعى فيه القطعان ، وتزرع فيه المحاصيل وتنمو • ولكن مياهها كانت معرضة لأن ترتفع عن مستواها العادى ، بسبب اختلاف النسبة غير العادية ، قلة أو كثرة ، للأمطار الشتوية ، أو بسبب انسداد المجارى الجوفية أو خلوها من العوائق • وكما أننا نقرأ فى الكتب القديمة عن مدن كانت تقع على مشارف هذه البحيرة ثم غرقت ، فان المسافر فى العصر الحديث يحكى كذلك عن مزارعين اضطروا الى أن يهاجروا قبل أن يعم الفيضان قراهم ، وعن مزارع العنب وحقول القمح التى اختفت تحت المياه • وربما كان من بين هذه الفيضانات فيضان أعنف وأكثر دمارا من سائر الفيضانات التى سبقته ، ارتبط « أجيجوس » به ، وظل مرتبطا به دائما بدا •

وهذه النظرية التى يمكن أن تفسر طوفان « أجيجوس » الكبير بفيضان بحيرة « كوبياك » غير العادى ، يدعمها الى حد ما ، ما حدث فى « أركاديا » • فقد راينا فى الأسطورة الاعريقية ، أن الطوفان الثالث الكبير ارتبط باسم « داردانوس » • و « داردانوس » هذا ، وفقا لاحدى الروايات ، حكم « أركاديا » أول ما حكم ، بوصفه ملكا ، ولكنه ترك هذه البلاد عندما غمر الطوفان الأراضى المنخفضة وجعلها غير صالحة للزراعة لمدة طويلة • أما السكان فقد لجأوا الى الجبال وكافحوا من أجل الحياة بما استطاعوا أن يدبروه من الطعام • ولكنهم عندما أدركوا أن الأرض التى انحسر عنها الطوفان لم تكن كافية لامدادهم بالمحاصيل ، قرروا تركها• على أن بعضهم بقوا فيها مع « ديماس » ابن « داردانوس » واتخذوه ملكا عليهم ، فى حين هاجر البعض الآخر تحت قيادة « داردانوس » نفسه الى جزيرة « ساموثراسى » • ووفقا لرواية اغريقية قبلها « فاروا » الرومانى، أن المكان الذى ولد فيه « داردانوس » هو « فينيوس » الذى كان يقع

فى شمال « أركاديا » • وهذا المكان ذو شهرة ذائعة • فباستثناء منطقة « كوبياك » ، لم يعرف فى بلاد اليونان واد تعرض للفيضانات على نطاق واسع ولأزمنة طويلة ، مثل وادى « فينيوس » • وتتشابه الأحـــوال الطبيعية فى هذين المكانين تشابها جوهريا ، فكلاهما أشبه بحوض وسط مناطق حجرية وليس لهما مصدر مائى فوق سطح الأرض • وكلاهمـــا تصب فيه الأمطار المنحدرة من الجبال المحيطة • وكلاهما يعتمد فى مياهه على المجارى الجوفية التى نحتتها المياه أو فجرتها الزلازل فى الصخور • فاذا ترسب الطمى فى هذه المنافذ ، أو اعترضتها أية عوائق أخـرى ، فان المكان الذى يكون سهلا فى الأحوال العادية يتحول الى بحيرة فى هذه الظروف • ولكن على الرغم من هذا التشابه القوى بين المكانين ، هنـاك وجوه اختلاف جوهرية بينهما • فعلى حين نجد حوض « كوبياك » أرضا منبسطة شاسعة ترتفع فوق مستوى سطح البحر بقليل ولا تحيط بها سوى صخور منخفضة أو منحدرات هينة ، نجد حوض « فينيوس » واديا ضيقا مرتفعا ، تحيط به من كل جانب جبال جهمة منحـــدرة ، تغلف منحدراتها المرتفعة غابات الصنوبر الدكناء ، وتغطى الثلوج قممها الشاهقة معظم شهور السنة • والنهر الذى يمد هـذا الحوض بالمياه عن طريق مجرى جوفى هو نهر « لادون » ، وهو أكثر أنهـار بلاد اليونان سحرا وجمالا • فلقد عاش «ملتون» بخياله على شواطىء نهر «لادون» الرملية التى تنمو فيها أزهار السوسن » • بل ان الكاتب « باوزانياس » ادعى أن هذا النهر لا يدانيه نهر آخر سواء فى بلاد اليونان أو خارجها • وليس هناك ما يثيرنى من بين الذكريات التى تركتها فى نفسى بلاد الأغريق ، مثل تلك الأيام التى قضيتها وأنا أقتفى أثر النهر من منبعه عنـد البحيرة الجميلة ثم منابعه التى تقع على الجانب البعيـد من الجبل ، حتى الأخدود العميق الذى تكثر عنده الغابات وتسرع فيه الميـــاه وهى تهدر وتنحدر فوق الصخور فى شكل ملاءات من الزبد الأبيض المائل لونه الى الاخضرار حتى تلتحم بنهر « ألفيوس » المقدس • على أن الزلازل أخذت تسد من وقت لآخر مجرى نهر « لادون » الذى ينبـــع من وادى « فينيوس » ، وكانت النتيجة أن كف النهر عن الجريان • وعندما كنت أزور منابع هذا النهر عام ١٨٩٥ ، أخبرنى فلاح لحظة وصولى ، أنه منذ ثلاث سنين كفت مياه النهر عن الجريان مدة ثلاث ساعات أثر هزة أرضية عنيفة ، وتعرى الخندق الذى يقع فى قاع البحيرة وشوهد السمك وهو يرقد على الأرض الجافة • وبعد ثلاث ساعات أخرى أخذ النبع يتدفق بعض الشىء • وبعد ثلاث أيام سمع انفجار صوت يدوى أعقبه تدفق المياه بكميات هائلة •

وقد رويت فى الزمن القديم والحديث معا حكايات شبيهة بهذه الحكاية التى تحكى عن توقف النهر لبعض الوقت . وحيثما كانت تدوم عوائق المجرى الجوفى ، كانت تحتل وادى « فينيوس » بحيرة تختلف فى اتساعها وعمقها باختلاف حجم عوائق المجارى الجوفية . وقد اعترت هذا الوادى ، وفقا لرأى « بلينى » ، حتى يومنا هذا خمسة أحوال من التغير الذى كان يحيله من البلل الى الجفاف ، ومن الجفاف الى البلل ، وجميع هذه الأحوال المتغيرة تسببت فى حدوثها الزلازل . وفى زمن « بلوتارك » ارتفع الفيضان ارتفاعا كبيرا حتى أغرق الوادى كله . وقد عزا الشعب الورع هذا الحادث الى غضب « أبوللو » من هرقل الذى كان قد سرق من الاله منذ ألف عام مرجله من « دلف » وحمله الى فينيوس . ومعنى هذا أن غضب ابوللو من هرقل قد ظهر متأخرا . على أن المياه انخفضت بعد هذا فى نفس القرن ؛ لأن الرحالة الاغريقى « بوزانياس » أبصر قاع الوادى جافا ، ولم يكن يعلم بوجود البحيرة الا من خلال الروايات .

وليس من اليسير اهمال الروايات التى تتصل بالطوفان الكبير فى واد عاش ظروفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبلل وبين ظهور بحيرة واسعة ذات مياه زرقاء ، وأرض زراعية شاسعة ينبت فيها الذرة الأصفر . بل ان كل شىء فى هذا المكان يؤكد على العكس احتمال روايتها ، ومن ثم فربما كانت الحكاية التى رددت أن « داردانوس » أحد أهالى «فينيوس» ، قد اضطره الطوفان الكبير الذى غطى الأراضى المنخفضة وأغرق الحقول ، الى أن يهجر بلاده ، كما اضطر الأهالى الى أن يتركوا بلادهم ويلجأوا الى المنحدرات العليا فى الجبال - ربما كانت هذه الحكاية ترتكز بحق على أساس ثابت من الحقائق . وكذلك تصدق الحكاية التى دونها « باوزانياس » عن الفيضان الذى علا وأغرق مدينة « فينيوس » القديمة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى من البحيرة .

وقد قيل : ان «داردانوس » المهاجر قد اتخذ طريقه من مسكنه فى الأماكن العالية فى « أركاديا » الى جزيرة « ساموثراس » . ووفقا لاحدى الروايات أنه طفا على لوح من الخشب . ووفقا لرواية أخرى أن الفيضان لم يباغته فى أركاديا ، بل فى جزيرة « ساموثراس » وأنه هرب على جلد منتفخ طافيا على سطح الماء حتى رسا على جبل « ادا » حيث شيد مدينة « داردانيا » أو « طروادة » .. ومن المؤكد أن أهل « ساموثراس » الذين كانوا يرتبطون بآثارهم القديمة كل الارتباط قد ادعوا أن طوفانهم حدث

قبل أى طوفان آخر على وجه الأرض • فقد روى عنهم أنهم قالوا : ان مياه البحر ارتفعت وغطت مساحة كبيرة من الارض المنبسطه فى جزيرتهم ، وأن الأحيـــاء لجأوا الى الجبـال الشـــاهقة التى لا تزال تكسب جزيرة « ساموثراس » أكثر الملامح شهرة فى شمال منطقة بحر « ايجـــه » ، ولا تزال تبدو واضحة للناظر اليها من طروادة فى الجو المشرق • ثم أخذ البحر يقتفى أثر الهاربين فى أثناء لجوئهم الى الجبال ، فأخذوا يتضرعون للآلهة لكى تنقذهم • فلما أنقذوا نصبوا فى كل مكان من الجزيرة معالم تشهد على انقاذ الآلهة اياهم ، كما شيدوا المعابد التى ظلوا يقدمون فيها الضـــحايا حتى زمن متأخر • وقد ظل الصـــيادون بعد حدوث الطوفان بقرون عدة يجرون فى شباكهم بين الحين والآخر أحجار العمد الرئيسية التى تشهد على وجود المدن الغريقة فى أعماق البحر • أما الأسباب التى يرجع سكان « ساموثراس » الطوفان اليها ، فهى جديرة بالملاحظة • فقد حدثت الكارثة وفقـا لروايتهم ، لا بسبب سقوط الأمطار الغزيرة ، بل بسبب ارتفاع غريب مفاجىء لمياه البحر ، نجم عن تحطم الحواجز التى كانت حتى ذلك الحين تفصل البحر الأسود عن البحر الأبيض • فى هذا الوقت حطمت كميـات الميـــاه الهائلة تلك الحواجز التى كانت مختزنة وراءها ، وشقت طريقا فى الأرض المواجهة لها مكونة بذلك المضـــيقين اللذين يعرفان اليوم باسم البوسفور والدردنيل • ومنـــذ ذلك الوقت أخذت مياه البحر الأسود تتدفق فى البحر الأبيض المتوسط • وبينما كان هذا السيل الجارف يقتحم العيون الجديدة التى فتحت فى الســد ، أغرقت المياه جزءا كبيرا من ساحل آسيا كما أغرقت الأراضى المنبسطة فى جزيرة « ساموثراس » •

وقد أكد علم طبقات الأرض فى العصر الحديث الى حد ما صدق هــذه الرواية « الساموثراسية » • فقد ذكر « هكسلى » أنه حتى زمن ليس بالبعيد جدا ، كانت آسيا الصغرى مرتبطـــة بأوروبا عن طريق الموضع الذى يقع فى مكان اليوم خليج البوسفور • وقد كان هذا الموضع حاجزا يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام ، ويحتجز أمامه مياه البحـــر الأسود • ومعنى هذا أن مساحة كبيرة من « أوروبا الشرقية » و « آسيا الوسطى الغربية » كانت تكون خزانا ضخما على طول مجمع المياه الغربى الحالى لنهر « أوبى » الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى • وقد كانت أكثر فتحات هذا الخزان انخفاضا • تعلو ، فيما يبدو ، ســـطح البحر بحوالى مائتى قدم • وفى هذا الحوض كانت تصب أكبر أنهار أوربا مثل نهر الدانوب والفولجا ، كما كانت تصب فيه كذلك أنهار آسيا الكبيرة

آنذاك مثل « أوكسوس » و « كسارتس » وكل ما كان يتصـل بها من روافد ٠ وفضلا على ذلك فان هذا الحوض كان يستقبل فائض بحـيرة «بالكاش» التى كانت آنذاك أوسع مما هى عليه الآن بكثير ، ومن المحتمل أنه كان يستقبل كذلك مياه البحر الداخلى فى منغوليا ٠ وفى هذا الوقت كان مستوى بحر «أرال» يعلو مستواه الحالى بما لا يقل عن ستين قدما ٠ وقد كان فى مكان البحر الأسود وبحر قزوين وبحـر « أرال » ، تلك البحـار المنفصـلة بعضها عن بعض ، كان هنـاك بحر واحـد هو بحر « بونتو ــ أرال المتوسط » ٠ ولابد أن هذا البحر الواحد كان يمتد فى أحضان أودية نهر الدانوب المنخفضـة ونهر الفولجا (الذى عثر فيه فى الوقت الحاضر على القواقع القوقازية ، وبالمثل فى نهر « كاما ») ونهر آرال وسائر الأنهار الجارية ، فى حين كانت هذه الأنهار تصب فائض مياهها شمالا عن طريق حوض « أوبى » الحالى ٠ ويبدو أن هذا الخزان الهائل أو هذا البحر الداخلى الشاسع الذى كان يحجزه ويدعمه خزان طبيعى عال يربط آسيا الصغرى بشبه جزيرة البلقان ، كان يوجد منذ عصر البلايستوسين ٠ كمـا أنه يعتقد أن تآكل ممر الدردنيل الذى وجدت المياه المحتجزة فى النهاية من خلاله طريقها الى البحر المتوسط ، قد حدث فى نهاية عصر « البلايستوين » أو بعد ذلك ٠ ولكنه من المؤكد أن الانسان لم يسكن أوربا فى عصر « البلايستوسين » ، بل يرى البعض أنه سكنها فى عصر « البليوسين » أو حتى فى عصر « الميوسين » ٠ ومن ثم فانه يبدو محتملا أن سكان « أوروبا الشرقية » كانوا يحتفظون حقا برواية مأثورة تتصل ببحر « بونتو أرال » الداخلى الشاسـع ، وعن جفافه الجزئى الذى نجم عن تحطم الخزان الذى كان يفصـله عن البحر المتوسط ، أو ــ بعبـارة أخرى ــ تتصل بانشقاق بوغازى البوسفور والدردنيل٠واذا كان هذا الفرض صحيحا ، فان الرواية «الساموثراسية» تكون قد احتوت على عنـاصر كثيرة من الحقـائق التاريخية فيما يختص بالأسباب التى ذكرتها لحدوث الكارثة ٠

ويبدو أن علم الجيولوجيا من ناحية أخرى ، لم يدعم رواية الكارثة هذه فى حد ذاتها ٠ ذلك أن الشواهد تنحو الى اثبات أن بوغاز الدردنيل لم ينشق فجأة كما ينفجر سد بسبب ضغط المياه أو بسبب هزة أرضية، بل تكون هـذا البوغاز ، على عكس ذلك ، عن طريق عمليـة التحـات البطيئة التى لابد أنها استغرقت قرونا بل آلافا من السنين ، ذلك أن البوغاز تحيط به طبقات أرضية لم تتغير يبلغ سمكها أربعين قدما وترجع الى عصر البلايستوسين ٠ وفى خلال هذه الطبقات أخـذ البوغاز ينحت

طريقه فى هدوء » • وبناء على ذلك فانه من العسير تماما أن يكون مستوى بحر « بونتو ـ أرال » قد هبط الى مستوى البحر الأبيض المتوسط فجأة وعلى نحو فاجع ، محدثا فيضانا هائلا عبر سواحل آسيا وأوربا • بل الأكثر احتمالا أن يكون هذا البحر قد تغير تدريجا وفى بطء ، بحيث ان كمية المياه التى تدفقت منه خلال جيل واحد فقط ، لا يحسها المراقبون العاديون ، بل لا يحسها المراقبون المدققون غير المزودين بأجهزة دقيقة • ومن ثم فانه يبدو من الأسلم أن ندعى أن هذه الحكاية « الساموثراسية » قد رواها أحد الفلاسفة المبكرين على سبيل الظن • وقد استطاع هذا الفيلسوف أن يتكهن بحق بما كان عليه بوغازا الدردنيل والبوسفور دون أن يكون قادرا على أن يتصور البطء البالغ لعملية النحت الطبيعية ، وذلك بدلا من أن تدعى أن هذه الحكاية احتفظت بذكرى حقيقية عن الطوفان الذى تدفق نتيجة انشقاق بوغاز الدردنيل • وقد أكد هذا الرأى فى الواقع « ستراتو » صاحب الفلسفة الطبيعية المرموق الذى خلف « ثيوفراست » فى زعامة مدرسة المشائين عام ٢٨٧ ق • م • وقد دعم « ستراتو » هذا الرأى على أساس نظرى بحت ، عندما رفض أن ينظر الى هذه الحادثة بوصفها رواية شعبية ، واعتمد فى مناقشتها على ملاحظاته للملامح الطبيعية للبحر الأسود (١) • فقد أشار الى كميات الطمى الهائلة التى كانت تقذفها الأنهار الكبيرة فى « أويكسين » ، واستنتج أنه لولا مخرج بوغاز البوسفور لامتلأ البحر بالغرين مع مرور الوقت • وأبعد من هذا فقد افترض أن هذه الأنهار بعينها قد شقت لنفسها طريقا فى الأزمنة السالفة خلال بوغاز البوسفور ، فتسربت مياهها المتجمعة الى « بروبونتوس » ومنه الى البحر المتوسط عبر بوغاز الدردنيل • وقد تصور « ستراتو » بنفس الطريقة أن البحر المتوسط كان فى سالف الزمن بحرا داخليا ، وأن اتصاله بالمحيط الأطلنطى قد نجم عن تدفق المياه المختزنة وشقها لمضيق جبل طارق • ويحق لنا أن ننتهى بناء على ذلك الى أن السبب الذى فسرت به الحكاية « الساموثراسية » حدوث الطوفان الكبير مستمد من تأمل ذكى أكثر من كونه مستمدا من رواية شعبية قديمة •

وهناك أسباب تدعونا لأن نعتقد أن حكاية الطوفان الأغريقية التى

---

(١) كان البحر الاسود يعرف فى الزمن القديم باسم Pontus Exinus أى البحر الكريم •

(المترجمة)

ارتبطت بشخصيتى « دويكاليون » و « بيرها » ، لم تكن كذلك صدى لحادثة حقيقيه ، بمقدار ما كانت استدلالا ارتكز على ملاحظة حقائق طبيعية بعينها • فقد رأينا فى احدى الروايات الاغريقية أن جبال « فيسالى » قد انشقت بتأثير طوفان « دويكاليون » كما رأينا فى رواية أخرى أن سفينة « دويكاليون » قد جرفها الفيضان وهو بداخلها حتى رست على جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهذه الاشارات تميل الى أن تبرز «ثيسالى» بوصفه المكان الأصلى فى الأسطورة • وهذه الاشارات تدعمها بشكل قاطع وجهة النظر التى تبناها القدماء فى تفسير تشكيل ملامح البلد الطبيعية • فهيرودوت يحكى رواية مؤداها أن «ثيسالى» كانت فى العصور القديمة بحيرة أو بحرا داخليا تحيط به جبال « أوسا » و « بيليون » و « أوليمبوس » و « بندوس » و « أوثريس » الشاهقة • ولم يكن بهذه الجبال فتحة تسمح لمياه الأنهار المختزنة أن تتسرب الى أى مكان • ثم حدث بعد ذلك ، وفقا لما رواه سكان « ثيسالى » أن شق اله البحر « بوزايدون » الذى يتسبب فى حدوث الزلازل ، مخرجا للبحيرة فى الجبال بأن شق خندق « تيمبى » الضيق الذى يروى عن طريقه نهر « بينيوس » سهل « ثيسالى » منذ ذلك الحين • وبهذا يصرح هيرودوت ، المؤرخ الطيب باعتقاده فى واقع الرواية المحلية • فهو يقول : « ان من يعتقد أن « بوزايدون » يهز الأرض ، وأن الأخوار التى تسببها الزلازل من صنع يديه ، فانه يقول عند رؤيته لخندق « بينيوس » أن « بوزايدون » قد صنعه بنفسه ، ذلك أنه لم يساورنى شك فى أن الانفصال الذى حدث فى الجبال انما هو نتيجة زلزال » •

وقد قبل علماء الآثار القديمة الذين جاءوا بعد هيرودوت ، وجهة نظر أبى التاريخ بصورة قاطعة ، وان أرجع أحدهم نشأة الأخدود ، ومصارف البحيرة الى البطل « هرقل » الذى ألف الناس أن يعدوا من بين أعماله النافعة للجنس البشرى خلقه لمصادر المياه على نطاق واسع للغاية • أما الكتاب الأكثر حذرا أو الأبعد فلسفة فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فقد أرجعوا نشأة المضيق الى زلزال أرضى بسيط ، دون أن يعبروا عن أى رأى يشير الى احتمال احداث اله أو بطل لهذا الاضطراب الخطير •

على أنه لا ينبغى لنا أن نعجب من أن الرأى الشعبى يميل فى تفسير هذه الظاهرة الطبيعية الى نظرية الوساطة الالهية أو البطولية • ذلك لأن الملامح الطبيعية لممر « تيمبى » فى الحقيقة ، كفيلة بأن تثير فى النفس رهبة دينية ممتزجة بالاحساس بوجود قوى أولية مهولة أبرزت بعملياتها الخارقة ، التناقض الكبير بين أعمالها وأعمال الانسان الضئيلة • فالمسافر

الذى يهبط فى الصباح من جهة الغرب فى هذا الممر الضيق ، يرى فوق رأسه ثلوج جبل الأولمب تتــلألأ فى بريق ذهبى تحت اشــعه الشمس الساطعه • فاذا سار هابطا مع الممر ، نختفى عن عينيه قمم الجبال ، ولا يبصر حوله من كل ناحية سوى حائط جسيم من المنحدرات القوية التى تنطلق الى أعلى فى عظمة رائعة وتتقــارب من بعضهــا البعض فى بعض الأحيان تقاربا شديدا حتى تكاد تلتقى تاركة فقط مكانا للطريق وللنهر فى أسفلها ، وشريطا من زرقة السماء فى أعلاها • وتعد الصخور على جانب جبل « الأولمب » التى يراها المسافر دائما أمام عينيه طالما انحــــدر فى الطريق نحو الشاطىء الجنوبى أو الأيمن من النهر (١) ، تعـد بحق أكثر المناظر روعة وتأثيرا فى بلاد الاغريق • وتظل أبعد تأثيرا فى الجو الممطر عندما تتساقط المياه على جوانبها لتصب فى تيار النهر الهادى المنتظم • وتصل روعة هذا المنظر الى قمتها عند حوالى منتصف الممر حيث تنتصب صخرة ضخمة فى الهواء بجسامتها ، وتتوج قمتها المرتفعة فى الجو أطلال القلعة الرومانية • على أن الخضرة الغنية النضرة تخفف من جلال هــذا المنظر ، ففى بعض أجزاء هذا المضيق تتراجع الصخور تراجعا كافيا بحيث تترك مسطحات من المراعى عند سفحها ، حيث الأدغال الدائمة الخضرة ، مثــل الغار والرند والزيتون البرى والمشمش البرى والفلفل الكــذاب تزينها فروع الكرم البرى والعليق ، وتدبجهــا أزهار الدفلى القرمزية ، وأزهار الياسمين والقصــاص الذهبية ، بينما تعطر الجو الرائحة الذكية التى تنبعث من كتل النباتات والأزهار العطرية • وحتى فى أكثر الأماكن ضيقا ، تغطى شاطىء النهر أشــجار الدلب المنتشرة التى تمتد جذورها وفروعها المتدلية فى النهر ، وتتراكم أوراقها بحيث تكون أشبه بســتار يحجب الشمس • أما واجهات المنحدرات الصخرية المتشققة فتكســوها أشجار البلوط القصــيرة والشــجيرات • وحيثما وجــد مكان خال بين الأشجار ، فان اخضرارها يبرز فى حيوية التباين بينه وبين الصــخور الجيرية البيضـــاء العارية ، بينما يبرز هنا وهناك على حائط الجبل مشهد مكشوف لغابات السنديان الضخم والصنوبر الداكن تكســو المنحدرات الحادة • ويزداد المسافر تأثرا بهذه الخضرة الوافرة التى تنتشر ظلالها ، عندما ينتقل الى الوهدة فى حر الصيف القائظ بعد مسيرة شاقة فى سهول « ثيسالى » المتربة الخانقة ، دون أن يجد شجرة تحميه من أشــعة شمس

---

(١) يعنى الضفة الغربية لهذا النهر •

(المراجع)

الجنوب الحامية ، أو يحس نسيما يرطب جبينه ، ودون أن يصادف تنوعا فى المناظر الطبيعية اللهم الا بعض التلال والوديان التى تخفف من رتابة الطبيعـة الكئيبة • ولا عجب بعـد هذا فى أن ينشغل الانســـان المتأمل بأصل هذه الوهدة الرائعة الجميلة ، ولا عجب فى أن يرجع الدين والعلم البدائيان سبب نشأتها الى طوفان أولى مهول ، أو الى انفجار مروع مفاجىء لقوة بركانية ، بدلا من أن يرجعاها الى السبب الحقيقى وهو تآكل الصخور الذى يحدث تدريجيا وفى أزمنه طويلة •

ومن ثم يمكننا أن ننتهى بشىء من الثقة ، الى أن الأخدود الموجود فى جبال « ثيسالى » الذى قيل ان طوفان « دويكاليون » قد أحدثه ، لم يكن سوى مضيق « تيمبى » •• حقا انه يمكننا أن نذهب الى أبعد من هـــذا فى غير اسراف ، ونتكهن بأن حكاية الطوفان نشــــأت بدافع الرغبة فى تفسير أصل هذا الأخدود العميق الضيق•ذلك أن الناس حينما تصوروا أنه كانت توجد بحيرة كبيرة تختزن فيها المياه وتحيط بها سلسلة جبال « ثيسالى » ، كان من الطبيعى أن يحدو بهم التفكير الى ذلك الطوفان المهول الذى لابد أن يعقب انفجار الخزان عندما تدفقت المياه فى شكل ســــيل جارف بعد أن انشق لها الطريق الجديد ، وأغرقت الأراضى المنخفضـة وجرت فى اثرها الخراب والدمار • واذا كان هذا التكهن ينطوى على شىء من الصحة ، فان الحكاية « الثسالية » عن طوفان « دويكاليون » وبالمثـل الحكاية « الساموثراسية » عن طوفان « داردانوس » ، تقومان على أساس فرض واحد : فكلتاهمـــا لم تكن سوى مجرد اســـتنتاج مستخلص من الحقائق الجغرافية الطبيعية ، ولم تحتـو احداهما على أى ذكر للحوادث الواقعية • أى أنهما باختصار يندرجان تحت ما سماه «سير ادوارد تايلور» بأساطير الملاحظة ، أكثر من اندراجهما تحت صنف المأثورات التاريخية •

٥ ـ الحكايات الهندية القديمة عن الطوفان الكبير :

ليس هناك ذكر لأسطورة عن الطوفان فى أناشيد الفيدا ، وهى أقدم تراث أدبى هندى ألف فيما يبدو فى أزمنة مختلفة تقع بين سنة ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق•م• فى الوقت الذى كان فيه الآريون لا يزالون مستقرين فى البنجاب ، قبـــل أن ينتشروا شرقا فى وادى نهر الكنج •• ولكن الأدب السانسكريتى المتأخر احتوى على حكاية شهيرة عن الطوفان ، ترد فى صور مختلفة مع احتفاظها بالملامح العامة واختلافها فى بعض التفصيلات • وربما كان كافيا أن نشير الى أقدم رواية معروفة لهذه الحكاية ، وهى تلك

التى نصادفها فى « ساتاباثا براهمانا » وهى رسالة مهمة باللغة النثرية عن الطقوس المقدسة • ويعتقد الباحثون ان هذا المؤلف قد كتب قبل ظهور البوذية بزمن غير طويل • ومعنى هذا أنه ليس متأخراً عن القرن السادس قبل الميلاد • ثم احتل الآريون بعد ذلك الوادى الأعلى من نهر « الكانج » ، كما احتلوا وادى نهر « الهندوس » ، ولكنهم كانوا فيما يبدو آنذاك قليلى التأثر بحضارة آسيا الغربية وحضارة بلاد الاغريق • ومن المؤكد أن تيار الأفكار الاغريقية ، والفن الاغريقى جاءا متأخرين بعد ذلك بقرون مع غزو الاسكندرية عام ٣٢٦ ق•م• وتروى حكاية الطوفان الكبير كما هى مدونة فى « ساتاباثا براهمانا » كالآتى :

فى الصباح أحضروا الماء « لمانوا » كى يغتسل ، كما تعود الناس أن يحضروا الماء لغسل الأيدى • وبينما كان « مانو » يغتسل ، أمسكت يده بسمكة قالت له : « استمع الى فسوف أنقذك » • فسألها « مانو » : من أى شىء سوف تنقذيننى ؟ ، فأجابته السمكة : « سوف يأتى طوفان يحمل معه كل هذه المخلوقات ، ومن هذا الطوفان سوف أنقذك » • فسألها « مانو » : « ولكن كيف يمكننى أن أنقذك أنت من الطوفان » ؟ فأجابت : « ما دمنا نحن على هذا النحو من ضآلة الجسم ، فان الهلاك يلحق بنا ، فالسمكة تبتلع أختها السمكة • ولهذا فعليك أن تحفظنى داخل وعاء ، فاذا كبرت ولم يعد الوعاء يتسع لجسمى ، فاحفر حفرة فى الأرض وخبئنى بداخلها • فاذا كبرت بعد ذلك فخذنى واطرحنى فى البحر ، وهناك أكون بعيدة عن عوامل الهلاك • وكبرت السمكة وأصبحت « غاشا » (أى سمكة كبيرة) ، لأن هذه السمكة تكبر حتى يفوق حجمها أى نوع آخر من السمك • وعند ذاك قالت السمكة « لمانو » : « ان الطوفان سيحدث فى سنة كذا وكذا ، وعند ذاك تحضر الى راكبا سفينة تعدها لهذا الغرض• فاذا علا الطوفان فعليك أن تدخل الى السفينة ، وعلى أن أنقذك منه » •• وبعد أن أنقذها « مانو » على نحو ما شرحته له ، أخذها وطرحها فى الماء ، ثم حدث الطوفان فى السنة التى حددتها له • وعند ذاك أعد « مانو » السفينة وفقا لنصيحة السمكة • ولما علا الطوفان دخل فى السفينة • وجاءت اليه السمكة سابحة ، فربط حبل السفينة فى قرنها وأبحرت به السفينة على هذا النحو فى اتجاه الجبال الشمالية • ثم قالت له السمكة « هأنذا قد أنقذتك ، فاربط السفينة فى شجرة ولا تدع المياه تجرفها وأنت مستقر فيها على الجبل•وعندما تنحسر المياه ، يمكنك أن تهبط منها على مهل » • فهبط « مانو » من السفينة وهى راسية على الجبل ، ولهذا

سمى منحدر الجبل الشمالى « مهبط مانو » . أما سائر المخلوقات فقد أغرقها الطوفان ولم ينج منه سوى « مانو » .

ولما كان « مانو » يود أن تكون له ذرية ، فقد عكف على العبادة ، وألزم نفسه بالتقشف. كما كان يقوم فى أثناء ذلك بتقديم ضحية «الباكا» : فكان يمزج الماء بالزبد الصافي واللبن الرائب والشيراز وماء الجبن . وفى خلال عام تكونت امرأة من هذا المزيج . ولما تماسكت عجينتها هبت واقفة وقد تجمع الزبد النقى فى أثر قدمها . ثم قابلها « مترا » و « فارونا » وسألاها : « من أنت ؟ » فردت عليهما قائلة : « اننى ابنة مانو . فقالا لها : « بل قولى انك ابنتنا » فأجابت : « لا ، بل اننى ابنته وهو الذى خلقنى ». فرغبا فى أن يكون لهما نصيب فيها ولكنها لم تعلن موافقتها أو رفضها لذلك وتركتهما ورحلت الى « مانو » فسألها : « من أنت ؟ » فأجابته : « اننى ابنتك » ؟ فسألها : « وكيف تكون ابنتى على هذا النحو من الجمال الرائع » ؟ فأجابت : « لقد شكلتنى من الماء الذى مزجت به الزبد النقى واللبن الرائب وماء الجبن والشيراز . اننى أنا البركة وعليك أن تنتفع بى فى تقديم الضحية . فان فعلت هذا فستصبح غنيا فى نسلك وحرثك ، فأية بركة تطلبها من الالهة عن طريقى ستمنح لك . فاستخدمها « مانو » بناء على ذلك كما تستخدم البركة وسط الضحية . ذلك أن ما يتوسط ما قبل الضحية وما بعدها يكون وسط الضحية . ثم أخذ يصطحبها معه فى عبادته ومراسيم تصوفه متضرعا الى الآلهة أن تمنحه الذرية . وقد منحته الآلهة منها الذرية وهى ذرية « مانو » ، وكان كلما طلب بركة من خلالها ، منحتها اياه الآلهة » .

٦ ـ حكايات هندية حديثة عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « بهيل » وهى قبيلة متوحشة تسكن أحراش « الهند الوسطى » ، أنه كان فى سالف الزمن رجل ورع « ذوبى » ، اعتاد أن يغسل ملابسه فى النهر . فحذرته سمكة من قرب حدوث طوفان كبير ، وأخبرته بأنها جاءته لتحذره من هذا الطوفان وتحثه على أن يصنع تابوتا كبيرا يهرب فيه من الطوفان ، جزاء له على سلوكه الانسانى فى اطعام السمك على الدوام . فصنع الرجل الورع التابوت ، بناء على ذلك ، ودخل فيه هو وأخته ومعهما ديك . وبعد أن انتهى الطوفان ، أرسل الاله « راما » رسوله ليستطلع شئون الناس . وسمع الرسول صياح الديك ، وبذلك اكتشف الصندوق . فأمر باحضاره وسأل الرجل عمن هو وعن

كيفية هروبه على هذا النحو • فقص عليه الرجل الورع قصته • فأدار « راما » وجهه الى الشمال والى الشرق والى الغرب وأقسم على أن المرأة التى معه هى أخت الرجل بحق • فأجاب الرجل بأنها بحق أخته • فأدار « راما » وجهه مرة أخرى الى الجنوب ، فاذا بالرجل يناقض نفسه ويقول ان المرأة زوجته • وعند ذاك سأله راما عمن دله على الهروب • ولما علم منه أنهـا السمكة ، أمر توا بأن يقطع لسانها ايلاما لها ، وبذلك أصبح هذا النوع من السمك بدون لسان حتى اليوم • وبعد أن نفذ راما حكمه على السمكة لافشائها السر ، أمر الرجل بأن يعمر الأرض الخراب • وبناء على ذلك تزوج الرجل أخته وأنجب منها سبعة بنين وسبع بنات•ومنح «راما» الابن الأول حصانا هدية • ولكنه لما لم يستطع ركوبه ، تركه فى السهول وذهب ليقطع الخشب من الغابة وبذلك أصـبح حطابا كما صار نسـله « البهيليون » يقطعون الخشب من الغابات حتى اليوم • ويشبه تحذير السمكة لصانع الجميل فى الحكاية البهيلية ، الحادثة المقـابلة لها فى الرواية السنسكيرتية عن الطوفان شبها كبيرا ، بحيث يصعب النظر اليها مستقلة عنها • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان « البهيليون » قد أخذوا هذه الحكاية عن الغزاة الآريين ، أم أن الآريين عرفوها عن السكان الأصليين الذين اختلطوا بهم فى أثناء غزوهم للبلاد • وهناك ما يؤيد وجهة النظر الثانية ، وهى أن حكاية الطوفان لم ترد فى أقدم الآداب السنسكرتية ، بل وردت فى كتب دونت بعد أن استقر الآريون فى الهند بزمن طويل •

ويحكى « الكارميون » ، وهم قبيلة درافيدية صغيرة تسـكن مقاطعة «رايبور» والولايات المتجاورة لها فى أقاليم الهند الوسطى ، يحكون الحكاية التالية عن الطوفان الكبير : فهم يقولون ان الاله خلق رجلا وامرأة فى بداية الحياة ، وأنجبا بعد كبرهما ابنا وبنتا • ثم أرسل الاله الى الارض طوفانا لكى يغرق ابن آوى لأنه كان قد أغضبه • فلما علم الزوجان الهرمان بقدوم الطوفان ، وضعا ابنيهما فى جذع شـجرة مجوف • ووضعا معهما مئونة تكفيهما حتى انتهاء الفيضان ، ثم أغلقا عليهما الجذع • وفى الحال فاض الماء ودام فيضانه اثنتى عشرة عاما• وغرق الرجل والمرأة وسائر مخلوقات الأرض جميعا ، فى حين ظل جذع الشجرة طافيا على صفحة المياه • وبعد أثنى عشر عاما خلق الاله طـائرين وأطلقهما ليبصرا ما اذا كان ابن آوى عدو الاله قـد غرق • فانطلق الطـائران الى كل ركن من أركان العالم ، ولكنهما لم يبصرا سوى كتلة من الخشب تطفو على سطح الماء • فاستقرا فوقها ، وسرعان ما سمعا أصـواتا خافتة رقيقة تنبعث من داخلها ، فقد كان الطفلان يقول أحدهما للآخر ان المئونة لن تكفيهما سـوى ثلاثة أيام

أخرى . وعند ذاك طار الطائران وأخبرا الاله بما سمعاه ، فجعل الطوفان ينحسر في الحال ، وأخرج الطفلين وسمع منهما قصتهما . فرباهما الاله حتى تزوجا ، وسمى كل ولد ولد لهما باسم السلالة التى تناسلت عنه . ومن هـذه الأولاد جميعا تناسل الجنس البشرى الذى يعيش على وجه الأرض . ونلاحظ أن حادثة الطائرين فى هذه الحكاية تذكر بحادثة الغراب والحمامة فى حكاية الكتاب المقدس التى ربما وصلت الى « الكاماريين » بتأثير المبشرين .

وتحكى «حوليات أسام» أن الطوفان فاض على العالم فى سالف الأزمان ، وأغرق الناس جميعا عدا رجلا وامرأة كانا قد هربا الى قمة تل «لينج» وتسلقا شجرة واختفيا بين فروعها . وكانت الشجرة تنمو بجوار بحيرة كبيرة مياهها زرقاء بلون عين الديك . وقضى الرجل والمرأة الليل جاثمين على الشجرة . وفى الصباح فوجئا لدهشتهما بأنهما قد تحولا الى نمر ونمرة . ولما أبصر الخالق واسمه «باثيان» ما حل بالأرض من دمار ، أرسل رجلا وامرأة من كهف يقع على تل ليعمرا الأرض الغرقى بالناس . وفزع الزوجان عند خروجهما من الكهف لرؤيتهما النمر والنمرة المهولين، فخاطبا الخالق قائلين : « يا أبانا ، لقد أرسلتنا الى الارض لنعمرها ولكننا نعتقد أننا لن نستطيع أن نحقق مأربك ما دامت الأرض غريقة تحت المياه، وما دام المكان الوحيد الذى يمكننا أن نستقر عنده يعيش فيه وحشان مفترسان يتأهبان لافتراسنا . فامنحنا القوة لكى نقضى عليهما» . ثم تمكن الزوجان بعد ذلك من قتل الوحشين ، وعاشا سعيدين ، وأنجبا البنين والبنات الذين عمروا الأرض الغرقى بنسلهم فيما بعد .

٧ ـ حكايات الطوفان الكبير فى شرق آسيا :

يحكى « الكارينيون » سكان بورما أن الارض أصابها طوفان فى قديم الزمان ، وتمكن أخوان من الهروب منه على رمث فوق الماء . ثم أخذت المياه تعلو حتى وصلت الى السماء . وأبصر الاخ الأصغر شجرة مانجو تتدلى من قبو السماء ، فتسلقها وهو على وعى كامل بما يفعله ، وأكل من ثمارها . ولكن الطوفان انحسر فجأة تاركا الأخ الأصغر معلقا فى الشجرة . والى هنا تنتهى الحكاية فجأة ، وقد تركتنا نحدس كيف تخلص الأخ الأصغر من هذا المأزق الخطير . وبالمثل يروى «الشينجبوويون» أو «السينجفو» الذين يسكنون شمال بورما حكاية عن الطوفان الكبير . فهم يقولون : انه عندما أصاب الطوفان الأرض ، استطاع رجل يدعى « بوبو نان ـ تشونج » وأخته

التى تدعى «تشانج ـ هكو» أن يهربا من الطوفان فى مركب كبير ، وأن يأخذا معهما تسعة ديوك وتسع ابر • وبعد سقوط الأمطار وهبوب العواصف ببضعة أيام ، أطلقا من المركب ديكا ، ورميا ابرة • ولكن الديك لم يؤذن ، كما لم يسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء • فأعادا فعل ذلك يوما بعد يوم ، وكانت النتيجة هى نفسها • حتى كان اليوم التاسع فأذن الديك وسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء • وعند ذاك ترك الأخ وأخته المركب وأخذا يتجولان فى الأرض حتى وصلا الى كهف يسكنه جنيان أو غولان (نات) أحدهما ذكر والآخر أنثى • فتوسلا اليهما أن يمكثا معهما ويستغلا وجودهما فى ازالة الأحراش ، وفلاحة الأرض ، وقطع الأخشاب ، واحضار المياه • ففعل الأخ وأخته ذلك ، ثم لم تلبث الأخت أن ولدت طفلا • وقد تعودت الجنية أن ترعى الطفل فى أثناء غياب الوالدين• وعندما كان الطفل يبكى ، كانت الجنية تهدده بأنها ستفرم لحمه عند مكان تتشعب منه تسعة طرق ، اذا لم يكف عن البكاء • ولكن الطفل المسكين لم يفهم معنى هذا التهديد الرهيب وواصل بكاءه • حتى كان يوم ضاقت الجنية فيه بالطفل ذرعا ، فانتزعته فى غضب ، وأسرعت به الى المكان الذى تلتقى عنده الطرق التسعة ، وقطعته اربا ، ونثرت دماءه ، ورمت أشلاءه فى الطرق التسعة وفى البلد التى تحيط بها • ولكنها حملت معها بعض قطع جسده وصنعت منها بهارا هنديا شهيا • ثم وضعت قطعة من الخشب فى سرير الطفل • فلما عادت الأم من عملها وسألت عن طفلها، قالت لها الجنية : « انه نائم ، وتناولى أنت طعامك من الأرز »•فأكلت الأم الأرز والبهار ثم عادت الى سرير ابنها • ولكنها لم تجد بالسرير سوى قطعة من الخشب • فلما سألت الأم عن ابنها أجابتها الساحرة فى غلظة وقالت لها : « لقد أكلته أنت » • فهربت الأم المسكينة من البيت وأخذت تصرخ وتولول عند مفترق الطرق ، وهى تتوسل للروح الكبير أن يرجع لها ابنها أو ينتقم من قاتله • فظهر لها الروح وقال لها : «ليس فى وسعى أن أستجمع أشلاء ابنك المتناثرة وأعيده اليك كما كان • ولكنك ستصبحين أما لرجال العالم ، بعد أن كنت أما لابن واحد» • ثم برز أثر ذلك الشانيون من طريق ، والصينيون من طريق ثان ، والبورميون من طريق ثالث ، والبنغاليون من طريق رابع ، وسائر أجناس الأرض من بقية الطرق التسعة • وادعت الام بنوتها لهؤلاء جميعا لأنهم نشأوا من أشلاء ابنها المتناثرة فى الطرق التسعة •

ويحكى « الباهناريون » ، وهم قبيلة فى الهند الصينية ، كيف أن حدأة تشاجرت ذات يوم مع سرطان البحر ونهشت جمجمته فى عنف الى

درجة أنها أحدثت فيها فتحة لا تزال ترى حتى اليوم • ولكى ينتقم سرطان البحر من هذا الحادث • جعل البحار والانهار تفيض ، حتى وصل الماء الى السماء ، وهلكت الكائنات الحية جميعا عدا أخا وأخته ، استطاعا أن يهربا من الفيضان داخل تابوت كبير بعد أن أخذوا معهما زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان ، ثم أحكما اغلاقه عليهما وعاما به على سطح الماء سبعة أيام وسبع ليال • ثم سمع الأخ ديكا يصيح خارج الصندوق • وكانت الأرواح قد أرسلت هذا الديك الى جدينا لكى يعرفا أن الطوفان قد انحسر حتى يتمكنا من مغادرة التابوت • وعند ذاك أطلق «الأخ الطيور ، ومن بعدها الحيوانات الأخرى ، ثم خرجت الأخت وسارت على الأرض • ولم يتمكن الأخ وأخته أن يعيشا على وجه الأرض لأن مئونتهما كانت قد نفدت عن آخرها • ولكن نملة سوداء أحضرت لهما حبتين من الأرز فزرعهما الأخ • وفى الصباح التالى كانت السهول تمتلىء بالأرز • وبهذا أنقذ الأخ وأخته من الجوع •

وتحكى قبيلة « بنوا ـ جاكون » وهى قبيلة بدائية أصلية تسكن ولاية «جوهور» فى شبه جزيرة الملايو ـ تحكى أن الأرض التى نقف عليها ليست جامدة ، بل هى مجرد غطاء من الجلد يغطى لجة الماء • وقد حدث فى قديم الزمن أن شق الاله « بيرمان » هذا الجلد فتسربت المياه وفاضت على الأرض ودمرتها • على أن «بيرمان» عاد فخلق رجلا وامرأة ووضعهما فى سفينة مصنوعة من خشب «البولاى» ثم أحكم اغلاقها بحيث لم يكن فيها منفذ واحد • وظل الزوجان فى داخل السفينة وهى تتخبط بهما على سطح الماء • ثم رست السفينة • فخرج منها الزوجان وسارا على الأرض الصلبة ، وتصورا أن العالم كله هو ما امتد أمام أعينهما الى الأفق • وقد كان الكون مظلما فى بادىء الأمر ، اذ لم يكن هناك صباح أو مساء ، لأن الشمس لم تكن قد خلقت بعد • فلما أشرقت الشمس أبصرا سبع شجيرات من أشجار الدفلى وسبعة أكوام من الحشائش التى تسمى «آلسامبو» • ثم قال أحدهما للآخر : «يا له من منفى كئيب ذلك الذى نعيش الآن فيه بلا أبناء ولا أحفاد » • ولكن المرأة حملت بعد حين فى بطنى ساقيها ، وأنجبت من بطن ساقها اليمنى ذكرا ومن بطن ساقها اليسرى أنثى • ولما كبر هذان الوليدان تزوجا ، اذ لو كانا ولدا من بطن واحدة لما صح زواجهما • ومن هذين الزوجين تناسلت الأجناس البشرية جميعا على وجه الأرض •

وتلعب أسطورة الطوفان دورا كبيرا فى أغانى « اللوليين » الشعبية وهم جنس أصلى يحتل أكثر الجبال رسوخا وشموخا على وجه التقريب فى

«يونان» ومناطق آخرى فى جنوب غرب الصين ، حيث نجحوا فى توطيد استقلالهم ضد الزحف الصينى • وهم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، اذ انهم اخترعوا طريقة للـكتابة هى فى أصلها كتابة تصويرية دونوا بها أساطيرهم وأغانيهم وأنسابهم وطقوسهم الدينية ، وتوارثوا هذا التراث المدون جيلا بعد جيل بعد نسخه عدة مرات • ويعتقد شعب « لولو » فى وجود شيوخ يعيشون فى السماء حتى اليوم ، وكانوا من قبل يعيشون فى العالم الأرضى حيث عمروا تسـعمائة وستين عاما ، بل ربما تسـعمائة وتسـعين عاما ، وبذلك فاقوا فى تعمـيرهم «متوشالح»(١) نفسه • وكل أسرة فى هذا الشعب تضم أفرادا يجمعهم اسم واحد ، تدفع ضريبة الولاء لشـيخ بعينه • ومن أشهر هـذه الشـخوص الأسطورية شخص يدعى «تسى ـ جو ـ دريه» الذى يتمتـع بكثير من الصفات الالهية ، فهو الذى أصاب الجنس البشرى بالموت عندما فتح الصندوق الخطير الذى يحتوى حبوب الفناء ، وهو الذى تسبب أيضا فى حدوث الطوفان • وقد حدثت كارثة الطوفان على النحو التالى ق بعد أن أصبح سـكان الأرض آثمين ، أرسل «تسى ـ جو ـ دزيه» أليهم رسـولا يطلب بعض اللحم والدم من انسان فان • فلم يكترث أحد لمطلبه عدا رجلا واحدا اسمه «دو ـ مو» • فأغلق «تسى ـ جو ـ دزيه» فى غضـبه بوابات المطر التى تتـدفق اليها المياه • فتسربت المياه الى الأرض وأخذت تعلو الى السماء • أما «دو ـ مو» الذى عمل بنصيحة الاله ، فقد أنقذ هو وأبنـاؤه الأربعة بأن لجأوا الى تجويف فى كتلة من الخشب من شجرة «البيريس» ، وأخذوا معهم ثعالب البحر والبط البرى وسمك الشلق • وقد تناسل من هؤلاء الأبناء الأربعة فيما بعد الشـعوب المتحضرة التى تعرف الكتابة مثل « الصينيين » و « اللولوبين » • أما السلالة الامية فتنتسب الى الأشكال الخشبية التى كان قد صنعها « دوـمو » بعد أن انتهى الطوفان لكى يعمر بهم الأرض الخراب• ولا تزال ألواح الأجداد التى يعبدها «اللولويون» فى أيام معينة من السنة وفى كل مناسبات حياتهم المهمة ، ما تزال تصنع حتى اليوم من نفس نوع الشجرة التى لجأ جدهم الأكبر «دو ـ مو» الى تجويفها هروبا من الطوفان• وتكاد تبدأ كل أساطير «اللولويين» على وجه التقريب باشارة الى هذا الجد

---

(١) ظهر هذا الاسم فى المخطوطات العبرية القديمة بوصفه كاهنا عبريا • وهو أكثر شخصية عمرت فى الكتاب المقدس ، اذ يتراوح عمره بين ٥٢٧ ، ٩٦٩ عاما • ووفقا للتاريخ العبرى أنه توفى عام الطوفان •

(المترجمة)

أو الى الطوفان الكبير . وينبغي لنا أن نذكر فيـــما يختص بأصل هذا الطوفان أن «اللولويين» عموما يتخذون من اليوم السابع فى الأسبوع يوم راحة لهم ، فيمتنعون عن فلاحة الأرض ، كما لا يسمح للنساء فى بعض الجهات بحياكة الملابس أو غسلها . ويبدو أن هذه العادة ، بالاضافة الى تراثهم عن شيوخهم وعن الطوفان ، تكشف عن تأثير مسيحى . وربما كان «أ. هنرى» على حق فى أن يعزو هذا كله الى تعاليم المبشرين النسطوريين، فقد كانت الكنائس النسطورية تنتشر فى «يونان» فى القرن الثالث عشر، عندما كان «ماركوبولو» يقوم برحلته هنـــاك ، كمـا قيل ان « ألوبين » النسطورى وصل الى الصين فى زمن مبكر حوالى ٦٣٥ ب.م.

ويروى عن « الكامشاداليين » رواية عن الطوفان الذى أغرق العالم كله فى بداية الحياة . وقد نجت البقية الباقية من الناس بأن طفوا على كتل خشـــبية من سيقان الأشجار ربط بعضها بالبعض الآخر ، بعـد أن حملوا معهم متاعهم ومئونتهم وكانوا يدلون الأحجار فى الماء بعد أن يربطوها بأحزمة لتقوم مقام المرساة حتى لا يجرفهم الفيضان الى الماء . فلما انحسر الطوفان خلف وراءه الناس وكتلهم الخشبية على قمم الجبال وقد جفت .

وفى دائرة معارف صينية صادفتنا الفقرة التـالية : « اقليم التتار الشرقى »(١) اذا اتجه المسافر من شاطىء البحر الشرقى الى «شى ــ لو» ، فانه لا يصادف أنهارا أو بحيرات فى هذه المنطقة على الرغم من أن الجبال تخترقها والوديان . ومع ذلك فاننا نجد فى الرمال فى مناطق بعيدة كل البعد عن البحر ، الاصداف البحرية وهياكل السرطان البحرى . ويحكى « المنغولويون » الذين يسكنون هذا المكان أنه قد بلغهم عن سالف الأزمنة أن طوفانا أغرق بلادهم فى عهد سحيق فلما انحسر الطوفان ترك الأماكن التى كانت تغطيها المياه مكسوة بالرمال » .

٨ ــ حكايات عن الطوفان الكبير فى الأرخبيل الهندى :

يحكى « الباتاكيون » سكان سومطرة أن الخـــالق الذى يسمـونه « ديباتا » أرسل طوفانا الى الأرض ليهلك كل ما عليها من كائنات حية ، وذلك بعد أن هرمت الأرض وصارت دنسـة . وقد تمكن آخر زوجين بشريين فيها أن يهربا الى قمة أكثر الجبـال ارتفـاعا ، وكانت المياه قد

---

(١) المعروف أيضا باسم « منغوليا الخارجية » .

(المراجع)

ارتفعت حتى وصلت الى ركبتيهما ، عندما عدل «رب الجميع» عن رأيه في القضاء على الجنس البشرى عن آخره ، فأخذ حفنة من التراب وعجنها ، وربط العجينة فى خيط دلاه على صفحة المياه ، فخطا الزوجان على العجينة وبذلك أنقذا • وكان كلما تكاثر نسـل هذين الزوجين ، كبرت العجينة الطينية فى حجمها حتى تكونت الأرض التى نعيش عليها اليوم •

ويحكى سكان «انجانو» ، وهى جزيرة فى غرب سومطرة ، حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون ان مد البحر ارتفع ذات يوم حتى غمر الجزيرة وأغرق كل ما عليها من كائنات حية عدا امرأة واحدة • وقد نجت هذه المرأة اثر حادثة سعيدة وهى أن شعرها أمسك بشجرة شائكة ، بينما كان التيار يجرفها ، وبذلك تمكنت من تسلق الشجرة • فلما انحسر الماء هبطت من أعلى الشجرة • ولكنها رأت لحزنها البالغ ، أنهـا قـد تركت وحدها فى هذا العالم • ولما بدأت تشعر بالجوع ، أخذت تتجول فى الجزيرة بحثا عن طعام • ولما لم تجد شيئا تأكله ، رجعت الى الشاطىء وقد ملأها الغم ، آملة أن تصطاد سمكة • ولقد أبصرت بالفعل سـمكة حاولت أن تمسك بها ، ولكن السمكة تسربت واختبأت فى أحد الأجساد الطافية على الماء ، أو فى أحد الاجساد التى كانت ترتمى على الشاطىء • وحتى لا تضيع المرأة الفرصة منها التقطت حجرا وضربت به الجسد ضربة عنيفة • ولكن السمكة انسلت من مخبئها فى الجسد الملقى على الشـاطىء وتسربت الى الجثة الطافية على الماء • فتبعتها المرأة ، ولم تكد تخطو بضعة خطوات حتى أبصرت لدهشتها رجلا حيا • ولما كانت المرأة تعلم أنها هى البشر الوحيد الذى أنقـذ من الطوفان ، فقد بادرته بالسؤال عما كان يفعله هناك • فأجابها بأن شخصا ركل جسده المتوفى ، فكانت النتيجة أن عادت الحياة اليه • وعند ذاك قصت عليه المرأة قصتها ، وانتهيا الى أن يحاولا اعادة الحياة الى الموتى على هذا النحو بضرب أجسادهم بالحجارة • فلما فعلا هذا عادت الأرواح الى الأجساد بتأثير الضرب ، وبذلك عمرت الجزيرة بالناس مرة أخرى •

« والابانيون » أو « دياكيو البحر »(١) الذين يسكنون «ساراواك»

(١) هم مجموعة من الشعوب وفقا للكتاب الكلاسيكيين • وكانوا يسكنون بين دولة رومانيا الحالية وبامير ، أى كانوا يسكنون وسط روسيا وبرارى قزوين •

(المترجمة)

فى «بورنيو» مغرمون برواية حكاية تحكى كيف نجا الجنس البشرى من الطوفان الكبير ، وكيف اهتدى أجدادهم الى طريقة لاشعال النار. والحكاية تجرى على النحـو التالى : فى ذات مرة خرجت بعض النسـاء الدياكيات ليجمعن براعم الخيزران للأكل . فلما جمعنها سرن خـلال الأدغال حتى وصلن الى شـكل حسبنه شجرة هاوية ، فجلسن فوقها ، وأخذن يقشرن براعم البامبو . ولشدة دهشتهن لاحظن أن الشجرة تقطر دما كلما قطعن البراعم بالسكين . وفى تلك اللحظة ظهر بعض الرجال الذين أبصروا فى الحال أن ما يجلس عليه النسوة ليس شجرة بل ثعبان أصلة هائل فى شبه غيبوبة . فقتلوا الأصلة فى الحال وقطعوها اربا وحملوا لحمها معهم الى بيتهم . وبينما كانوا منشغلين بشواء اللحم ، سـمعوا أصواتا غريبة تنبعث من وعاء التحمير ، وأخذ المطر الغزير يهطل ، ولم يكف عن السقوط حتى غطت المياه التلال ماعدا أعلاها ، كما غرقت الأرض جميعا . وقد حدث كل هذا بسبب قتل هؤلاء الأشقياء للأصلة وشوائهم لحمها . وقد أهلك الطوفان جميع الكائنات الحية عدا امرأة واحدة وكلبا وفأرا وبعض الحشرات الصـغيرة التى تمـكنت من الهروب الى أعلى قمم الجبال . ثم لاحظت هذه المرأة وهى تبحث لنفسها عن مأوى من الأمطار الهاطلة ، أن الكلب قد وجد مكانا دافئا تحت نبات متسلق كان يتأرجح فى الهواء يمنة ويسرة لكى يدفىء نفسه عن طريق احتكاكه بساق الشجرة . فأدركت فى الحال كيف يمكن أن تتولد النار ، فأخذت قطعة من الخشب وحكتها بشدة فى النبات المتسلق فتولدت النار لأول مرة . وبهـذا اهتـدى الناس الى طريقة اشعال النار عن طريق الزناد بعد حدوث الطوفان . ولـما لم يكن للزوجة رجل ، فقد اتخذت من الزناد زوجا لهـا ، وولدت منه ابنا كان يدعى «شيمبانج ـ امبانج» ولم يكن هذا الابن ، وفقا لما يعنيه اسمه ، سـوى نصف رجل ، حيث انه لم يكن له سـوى ذراع واحدة ، وساق واحدة ، وعين واحدة ، ووجنة واحدة ، ونصف جسم ونصـف أنف . وقد استاء رفاقه من الحيوانات لهذه العيوب الخلقية . ولكنه استطاع فى النهاية أن يتخلص من هذه العيوب بأن استغل فرصة أن روح الريح كان قد بعثر أرزا كان «سيمبانج ـ امبانج» قد نشره ليجف ، فسـاومه على تعويضه عن هذا الضرر الذى لحق به . ولكن روح الريح رفض فى صراحة أن يعوضه عن هذا الضرر ولو بشىء زهيد . ولكن بعد أن قهر «سيمبانج ـ امبانج» روح الريح فى عدة مبارزات ، وافق على أن يمنحه الأجزاء الناقصة من جسمه حتى يصبح رجـلا كاملا ، وذلك بدلا من تعويضه بالنقود أو بأشياء أخرى ثمينة لم يكن «شيمبانج ـ امبانج» يملك منها شيئا بحق .

ووافق «شيمبانج ـ امبانج» في سعادة بالغة على هذا الاقتراح ، ومنذ ذلك الوقت أصبح للانسان أعضاء كاملة مثل أعضاء «شيمبانج ـ امبانج» .

وهناك رواية « دياكية » أخرى لهذه الحكاية تحكى أن رجلا بعينه يدعى «ترو» صنع ، عندما بدأ الطوفان ، سفينة من هاون خشبى ضخم كان يستخدم حتى هذا الوقت فى سحق الأرز. ثم ركب السفينة مع زوجته واصطحب كلبا وخنزيرا ودجاجة وقطة وبعض الكائنات الحية الأخرى ودفعها الى الماء . فأخذت السفينة تجرى فى جنون مع التيار حتى انتهى الطوفان . وعند ذاك ترك « ترو » السفينة ومعه زوجته وحيواناته . ثم واجهت « ترو » مشكلة تعمير الأرض بالناس بعد أن أهلك الطوفان الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلجأ الى وسيلة تعدد الزوجات لكى يحل لنفسه هذه المشكلة ، فصنع زوجات من الأحجار والأخشاب ومن سائر المواد التى كانت تقع فى يده . وسرعان ما ظفر بعائلة كبيرة تعلمت فلاحة الأرض ، وتناسلت عنها القبائل الدياكية المختلفة .

وكذلك يحكى « الترودجانيون » الذى يتحدثون اللغة البارية ويسكنون ـ « سيليبس الوسطى » ، أن الارض ابتليت ذات مرة بطوفان مهول غطى الجبال العالية عدا قمة جبل « واومبياباتو » . وهم يشيرون الى القواقع البحرية التى توجد على قمم التلال التى تعلو سطح البحر بألفى قدم أو أكثر ، وذلك لكى يؤكدوا صحة روايتهم . ولم ينج من هذا الطوفان سوى امرأة حبلى وفأرة حبلى ،بأن جلسا فى مزود خنزير وعاما به على سطح الماء وهما يجدفان بمغرفة بدلا من المجداف، حتى انحسر الطوفان وأصبحت الأرض صالحة للسكنى . وبينما كانت المرأة تبحث عن حبات من الأرز لتزرعها ، أبصرت حزمة من الأرز تتدلى من شجرة اجتثت من جذرها وجرفها التيار حتى استقرت عند المكان الذى كانت تقف عنده المرأة . فتسلقت الفأرة الشجرة وأحضرت لها حزمة الأرز ، وبذلك تمكنت من أن تزرع الأرز بمعونة الفأرة . وكانت الفأرة قد أخذت عليها عهدا ، قبل أن تسلمها حزمة الأرز ، أن يكون للفئران الحق فى أكل جزء من المحصول وهذا هو السبب فى أن الفئران تحضر كل عام الى الحقول لتأخذ نصيبها فحسب من الأرز الناضج دون أن تترك الحقول جرداء . ثم ولدت المرأة أبنا بعد فترة من الزمن . فلما كبر اتخذته زوجا لها حتى تنجب أولادا آخرين . وقد أنجبت منه ولدا وبنتا تناسل عنهما الجنس البشرى كله فيما بعد .

ويحكى سكان « روتى » ، وهى جزيرة صغيرة تقع فى جنوب غرب «تيمور» ، أن البــحر فاض على الارض فى قديم الزمان ، فأغرق الناس جميعا كما أغرق الحيوان وأهلك النبـــات والأعشاب ولم يترك بقعة على سطح الارض الا غطاها بالماء • وحتى الجبال الشامخة غطاها الطوفان ، عدا قمة جبل «لاكيمولا» الذى يقع فى «بلبا» ، التى برزت وحدها فوق الأمواج • والى هذه القمة لاذ رجل وزوجته وأولادهما هروبا من الطوفان• وقد ظل الطوفان يرتفع بعد ذلك شيئا فشيئا لعدة شهور حتى كاد يصل الى هذه القمة ، مما أفزع هذه الأسرة التى توقعت أن يصل الماء اليها بعد حين • فأخذت تتوسل الى البـــحر حتى يعود الى وضعه الطبيعى • فرد عليها البحر قائلا : «اننى على اســتعداد لأن ألبى رغبتــكم اذا قدمتم لى حيوانا أعجز عن عد شعره • فطرح الزوج اليه خنزيرا أعقبه بعنزة وكلب ودجاجة ، ولكن دون جدوى ، اذ استطاع البحر أن يعد شعر كل منها ، ومن ثم فقد استمر فى فيضـانه • وفى النهـــاية طرح الرجل فيه قطة لم يســـتطع أن يعد شعرها ، ولهذا فقد انحسر على الأثر •• وبعد هذا ظهر عقاب البحر ونثر بعض التراب الجاف على الماء ، فهبط الرجل وزوجته وأولادهما عليه ، وأخذوا يبحثون عن مســكن جديد • وعند ذاك أمر الآله عقاب البحر أن يحضر للرجل كل أنواع الحبوب مثل الذرة والقمح والأرز والسمسم وبذور البطيخ ، لكى يبذرها فى الأرض ، ويعيش هو وأسرته على محصولها • وهذا هو السبب فى أن الناس فى « روتى » يضعون فى نهاية الحصاد حزمة من سيقان الأرز فى مكان طلق فى القرية ، على سبيل الضحية لجبل «لاكيمولا» • كما أن كلا منهم يطهو الأرز ويحضره مع ثمار النخيل الهندى وجوز الهنـد والتبــغ والموز والخبز المصنوع من الفاكهة ويقدم كل هذا قربانا للجبل • وهنـاك يجتمـع الناس ويقيمون الولائم ويرقصون كل أنواع الرقص تعبيرا عن ولائهم للجبل ، ثم يتوسلون اليه أن يمنحهم محصولا وافرا فى العام التـــالى كذلك ، حتى يجـــد الناس ما يشبعهم •

ويحـــكى البدائيون سكان جزر « أندامان » التى تقـــع فى خليج البنغال ، حكاية عن الطوفان يمكننا أن نشير اليها فى هذا المجال ، على الرغم من أن هذه لا تنتمى على وجه التحديد الى مجموعة الجزر الهندية • فقد حدث ، وفقا لرواية الأهالى ، أن أصبح الناس ، بعد مضى فترة من خلقهم ، عاصين وغير مبـالين بأوامر الخـالق التى حثهم على اتباعها عند خلقهم• فأرسل عليهم وهو فى ثورة من الغضب طوفانا كبيرا أغرق الأرض

جميعا عدا قمة جبال «ساول» التى يسكن عندها الخالق نفسه • وهلكت فى الطوفان الكائنات الحية جميعا عدا رجلين وامرأتين كانوا لحسن حظهم راكبين زورقا وقت حدوث الطوفان • فلما انخفضت المياه ، رست الجماعة بقاربها على الشـــاطىء • ولكنهم وجدوا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، اذ كانت كل الكائنات الحية قد غرقت فى الطوفان • على أن الخالق الرحيم واســـمه «بولوجا» قدم لهم المساعدة بأن أعاد لهم خلق الطيـــور والحيوانات • ثم بقيت مشكلة اشـــعال النـــار ، اذ كان الطوفان قد أطفأ شعلة كل موقد ، وأصبح كل شىء رطبا غير قابل للاشتعال • وهنا ظهر لهم شبح أحد أصدقائهم الغرقى ، لينقذهم فى اللحظة المناسبة • فلما أبصر ما هم عليه من غم ، طار الى السماء فى صـــورة طائر القاوند حيث وجد الخالق جالسا وبجانبه النار • فأخذ يحرك النار المشتعلة لكى يحملها بمنقاره الى أصـــدقائه الذين يعيشون على الأرض بلا نار • ولكنه ، فى اضطرابه وسرعته ، أسقط شعلة النار على شخص الخالق المهيب نفسه ، الذى تهيج لحقارة الطائر ولما ألم به من ألم ، وطوح بشعلة النار فى سرعة نحو الطائر • ولكن الشعلة أخطأت الهدف وهوت محدثة صفيرا من السماء الى الأرض ، حيث كان النـــاس يجلسون يئنون ويرتجفون من البرد • وعلى هذا النحو استعاد الانسان النـــار بعد حدوث الطوفان • وبعد أن استدفأ هؤلاء ، ولم يعد يشغل بالهم شىء محدد ، استعادوا ما حدث لهم من أحداث وبدأوا يتذمرون من قضاء الخالق على الجنس البشرى • وبلغ بهم التذمر مبلغه حتى استقر رأى الاشخاص الأربعة على أن يقتلوا الخالق• ولكن الخالق نفسه نصحهم بأن يعدلوا عن محاولتهم الجاحدة ، وقال لهم فى وضوح بالغ : انه أولى بهم ألا يفكروا فى القيام بهذه المحاولة،لأنه صلب صلابة الخشب ، ولن تؤثر فيه سهامهم • ولو أنهم جرؤوا بعد ذلك على أن يمسوه بأصابعهم ، فانه سيلوثهم بدماء كل ابن وبنت تولد لهم • وقد كان لهذا التهديد أثره فيهم ، فرضخوا لمصيرهم • وتنازل الخالق الذى هدأت ثورة غضبه بعد ذلك فشرح لهم فى أسلوب هادىء أن الناس هم الذين جلبوا الطوفان لأنفســـهم بعصيانهم أوامره • واذا هم كرروا هذه الاساءة فى المستقبل ، فانه سيقابلها بعقاب ملائم لها • وقد كانت هذه هى المرة الأخيرة التى ظهر فيها الخالق للبشر وخاطبهم وجها لوجه ، فمنذ ذلك الوقت لم ير سكان جزر « أندمان » الخالق قط ، ولكنهم واظبوا على طاعته منذ ذلك اليوم فى ورع وخوف •

٩ ـ حكايات استرالية عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة «كورناى» ، وهى قبيلة استرالية أصلية تسكن فى «جيبلاند» فى ولاية «فيكتوريا» ، أنه منذ زمن سحيق حدث طوفان أغرق البلاد جميعا ، كما أغرق الشعب الزنجي بأسره عدا رجلا وامرأتين أو ثلاثا • وقد لاذ هؤلاء بجزيرة موحلة تقع بالقرب من ميناء « ألبرت » ، وكانت المياه تحيط بهم من كل مكان • وفى هذا الوقت كان طائر البجع — أو « بونجيل بورون » كما يسميها « الكورنانيون » تسير فى قاربها بالقرب منهم ، عندما أبصرت ما كان عليه هؤلاء من غم ، فأسرعت لتقدم لهم العون • وقد كانت من بين النساء امرأة جميلة للغاية الى درجة أن أغرم بها الطائر ، فأخذ ينقل هؤلاء واحدا تلو الآخر فى قاربه الى بلدهم الأصلى، عدا المرأة الجميلة التى كانت كلما خطت الى القارب قال لها : « ابقى أنت، فان دورك لم يأت بعد » ، وهكذا ظلت وحدها فى الجزيرة • ولما خشيت أن يعود اليها الطائر ، فتمكث معه بمفردها ، لم تنتظر رجوعه من رحلته الأخيرة وسبحت الى الشاطىء وبذلك هربت منه • ولكنها قبل أن تترك الجزيرة ، ألبست قطعة من الخشب دثارها المصنوع من جلد الحيوان «الأوبوسوم» ، روضعتها بجوار النار ، بحيث أصبح هذا الشكل يشبهها تماما • وعندما وصل الطائر لينقلها الى الشاطىء صرخ بها قائلا : « والآن قد أتى دورك » • ولكن قطعة الخشب لم تعره جوابا • فتملكه الغضب واندفع الى الشكل الذى حسبه امرأة وركله بشدة . وطبيعى أنه لم يؤذ سوى رجله • ويالهما من ألم وغم انتابا الطائر عندما أدرك أن الخدعة قد تمت عليه . عند ذاك أخذ يلون نفسه بلون أبيض حتى يتنكر به ومضى ليحارب زوج تلك المرأة الفاجرة الوقحة التى خدعته • وبينما كان يستعد للمعركة ، ولم يكن قد لون سوى نصف ريشه ، ظهر له طائر بجع آخر • ولما لم يستطع هذا الطائر الجديد أن يتعرف على هذا المخلوق الغريب الذى كان نصفه أبيض ونصفه أسود ، فقد أخذ ينهشه بمنقاره حتى قتله ، وهذا هو السبب فى أن طائرالبجع يتوزع لونه بين الأبيض والأسود ، فى حين أن لونه قبل الطوفان كان أسود فحسب •

أما السكان الاستراليين الأصليون الذين يسكنون حول بحيرة « تيريس » ، فى ولاية « فيكتوريا » فيروون حكاية الطوفان على النحو التالى : حدث ذات مرة أن شربت ضفدعة مهولة مياه العالم جميعها بحيث لم تترك لأحد جرعة من المياه يروى بها ظمأه . وقد شق هذا الأمر على الكائنات الحية . بخاصة السمك الذى أخذ يتجول لاهثا فى

الأرض الجافة وهو يتوق الى قطرة ماء . وعند ذاك اجتمعت الحيوانات وتدبرت أمرها معا ، واستقرت على أن الطريقة الوحيدة التى تدفع الضفدعة الى أن تمج الماء ، هى مداعبة خيالها فتضطر الى الضحك . ومن ثم فقد اجتمعت صنوف الحيوان أمام الضفدعة وأخذت تتصرف بحماقة وتمزح بطريقة تجعل الشخص العادى يغرق فى الضحك ، ولكن الضفدعة لم تصطنع حتى الابتسامة ، بل جلست هادئة متجهمة تحملق بعينيها الجاحظتين وخديها المتورمين ، صارمة صرامة القاضى . وعند ذاك وقف الثعبان على ذنبه ، ليحاول المحاولة الأخيرة ، وأخذ يتلوى ويرقص بطريقة تثير الضحك . وكان هذا المنظر أكثر مما تحتمله الضفدعة فانفرجت أساريرها وضحكت حتى جرت الدموع على خديها ، وتدفقت المياه اثر ذلك من فمها . على أن الحيوانات نالت نصيبا من المياه أكثر مما كانت تنتظر ، حيث ان المياه التى مجتها الضفدعة كانت من الكثرة بحيث تحولت الى طوفان أغرق كثيرا من الناس . وقد كان مصير الناس جميعا الى الهلاك لو لم تكن البجعة قد رحلت فى قاربها والتقطت من كان لا يزال منهم على قيد الحياة .

١٠ ـ حكايات عن الطوفان الكبير فى نيو غينيا وميلانيزيا :

يحكى أهالى مقاطعة «كابادى» فى «غينيا الجديدة البريطانية» ، أن رجلا بعينه يدعى «لوهيرو» غضب هو وأخوه الأصغر من الناس ، ووضعا عظمة انسان فى مجرى مائى صغير . فتدفقت المياه فى سرعة ، وأغرقت الأرض ، فاندفع الناس الى الجبال وأخذوا يصعدونها شيئا فشيئا حتى وصلوا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا . وهناك استقروا حتى انحسر الطوفان . وعند ذاك هبط بعضهم الى السهول ، فى حين ظل البعض الآخر يسكن منحدرات الجبال وابتنوا البيوت وفلحوا الأرض . ويحكى « الفالمانيون » سكان « ميناء برلين » الذى يقع على الساحل الشمالى فى «نيو غينيا» ، أن زوجة رجل طيب رأت ذات يوم سمكة كبيرة تسبح فى اتجاه الشاطىء . فصاحت بزوجها الذى لم يتمكن من رؤية السمكة لأول وهلة . فسخرت منه زوجته وأخفته وراء شجرة موز حتى يتمكن من أن يرمق السمكة من وراء الاشجار . فلما أبصرها تملكه الخوف وأرسل الى ابنه وابنتيه وأطلعهم على السمكة ومنعهم من اصطيادها وأكل لحمها . ولكن أناسا آخرين أخذوا سهما ورمحا وخيطا وأصابوا السمكة وجروها الى الشاطىء . وعلى الرغم من أن الرجل الطيب حذرهم من أكل لحم السمكة ، فانهم لم يكترثوا لتحذيره . فلما رأى الرجل ماهم عليه من عناد ، أسرع وجعل زوجا من كل نوع من

أنواع الحيوان يتسلق شجرة ثم تسلق هو وعائلته فى النهاية شجرة جوز الهند . أما الناس الأشرار ، فما كادوا يلتهمون لحم السمكة ، حتى تدفقت المياه من باطن الأرض فى قوة بالغة الى درجة أن أحدا لم يجد الوقت الذى ينقذ فيه نفسه ، ومن ثم فقد غرق الناس والحيوانات جميعا . وماكاد يصل ارتفاع المياه الى مستوى أعلى شجرة حتى انخفضت فى سرعة ، كما كان قد سبق لها أن ارتفعت فى سرعة . وعند ذاك هبط الرجل الطيب مع أسرته من أعلى قمم الاشجار وعمر الأرض وفلحها .

وقد قيل ان سكان نهر «ماسبرانو» الذى يقع فى «غينيا الجديدة» التابعة لهولندة ، يروون حكاية عن الطوفان الذى تسبب عن فيضان هذا النهر الذى ارتفعت مياهه حتى غطت جبل «فانيسا» ولم ينج منه سوى رجل وزوجته ومعهما خنزير وطائر الشبنم وحيوان الكانجرو وحمامة . وقد تناسل عن الزوجين الجنس البشرى ، كما تناسلت عن هذين الحيوانين والطائرين سائر أنواع الطيور والحيوانات . ولا يزال هناك على جبل « فانيسا » بقايا عظام الحيوانات الغرقى .

ويحتفظ «الفيجانيون» برواية عن الطوفان الذى يسمونه «فالافو ـ ليفو» . وبينما يحكى بعضهم أن الطوفان غمر جزءا من الأرض ، فان البعض الآخر يحكى انه غمر الأرض جميعا . وقد حدثت الكارثة على النحو التالى : كان للاله الكبير «ندينجاى» طائر مهول اسمه «توروكاو». وقد اعتاد هذا الطائر أن يوقظه بهديله فى ميعاد محدد كل صباح . وذات يوم صوب أحد حفيديه ، سواء عن طريق الصدفة أم عمدا ، سهامه الى الطائر فأرداه قتيلا ، ثم دفنه ليخفى معالم جريمته . وفى اليوم التالى لذلك ، نام الاله طويلا ولم يستيقظ فى ميعاده المحدد . وغضب الاله كل الغضب لاختفاء طائره المحبب اليه ، وأرسل رسوله «أوتو» ليبحث عنه فى كل مكان ، ولكن دون جدوى . وأبلغ الرسول الاله بأنه لم يعثر للطائر على أثر . ولكن عندما عاود الرسول البحث مرة ثانية ، اكتشف الجريمة عند عتبة باب حفيدى الاله . ولكى يجنب الحفيدان نفسيهما عاقبة غضب الاله الثائر ، هربا الى الجبال واحتميا عند قبيلة من النجارين تطوعت أن تبنى حاجزا منيعا تعيش بداخله مع الحفيدين، لكى يحول بينهم جميعا وبين الاله «ندينجاى» وأتباعه ، فلايجعلهم يتجاوزون الخليج . وقد كانت القبيلة عند وعدها حقا ، فشيدت الحاجز الذى وقف عنده الاله وأتباعه يحاولون اقتحامه دون جدوى . ولما يئس الاله من غزو القبيلة بوسائل الحرب العادية ، سرح جيوشه

وفكر مليا فى اجراء عمل انتقامى حاسم . فأمر السحب الدكناء بأن تتجمع وتفجر مافيها من أمطار غزيرة وتسقطها بغزارة على الأرض الملعونة . وأغرقت الأمطار البلاد ومن بعدها التلال ثم الجبال . ومع ذلك فقد ظل المتمردون ينظرون الى أسفل من قلعتهم المنيعة غير مكترثين بارتفاع المياه . ولكن عندما حطمت الأمواج سورهم الخشبى واقتحمت المياه قلعتهم ، صاحوا باله من الآلهة أن يقدم لهم العون . فأرشدهم أحد الآلهة ، وفق احدى الروايات ، الى أن يصنعوا منصة عائمة من ثمار شجر الليمون الهندى ، أو انه أرسل لهم ، وفقا لرواية اخرى ، قاربين لنجاتهم ، أو انه علمهم كيف يبنون مركبا يهربون فيه من الطوفان . وقد كان هذا الاله الذى خف لنجدتهم هو «روكورو» ، وكان قد جاء فى صحبة كبير رجاله «روكولا» . وبعد هذا أبحر الحفيدان فى قاربين كبيرين ، وأخذا يلتقطان أجساد الغرقى ويحتفظان بها فى مركبيهماحتى انحسر الطوفان . على أن هناك رواية تذكر أن الأحياء قد أنقذوا بأن وضعوا أنفسهم فى أوعية كبيرة طفوا فيها على سطح الماء . ومهماتعددت روايات الأسطورة «الفيجيانية» ، فانها تتفق جميعا فى أن الطوفان أغرق الأرض وأخذ يرتفع حتى غطى أكثر الأماكن ارتفاعا ، وأن من أنقذ من الجنس البشرى هرب فى مركب من نوع ما ترك فى جزيرة «مبينجها» بعد أن انحسر الطوفان . وقد بلغ عدد الأفراد الذين أنقذوا ثمانية أفراد . وقد فنيت قبيلتان عن آخرهما فى الطوفان . وقد كانت احدى هاتين القبيلتين تتكون من النساء فقط ، فى حين كان أفراد القبيلة الثانية لهم أذناب كأذناب الكلاب . وحيث ان الذين أنقذوا كانوا قد استقروا بعد الطوفان على جزيرة «مبينجها» ، فان سكان هذهالجزيرة يدعون أنهم أعلى مرتبة من سائر «الفيجيانيين» ، كما يدعون أن زعماءهم كانوا يقومون على الدوام بدور بارز فى تاريخ «الفيجيانيين» . وهؤلاء يسمون أنفسهم «رعايا السماء وحدها» . وقد قيل : ان « الفيجيانيين » كانوا فى سالف الزمن يحتفظون على الدوام بقوارب كبيرة استعدادا لحدوث أى طوفان آخر ، ولم يكفوا عن اتباع هذه العادة الا فى الزمن الحاضر ..

ويحكى «الميلانيزيون» سكان جزر الهيبريد الجديدة أن بطلهم الأسطورى الكبير «كات» قد اختفى من الوجود مع الطوفان الذى أغرق العالم . وهم يشيرون على وجه التحديد الى المكان الذى أبحر منه فى رحلته الأخيرة ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة تقع فى وسط جزيرة جاوة . وقد كانت هذه البحيرة فى عهد البطل «كات» سهلا فسيحا تكسوه

الغابات . وكان «كات» قد قطع أطول شجرة فى الغابة وصنع من جذعها مركبا . واقترب منه اخوته وأخذوا يرقبونه وهو عاكف على بناءالمركب والعرق يتصبب منه سواء كان جالسا أو واقفا فى ظلال الغابات الاستوائية الكثيفة . ثم سألوه فى سخرية : «كيف يمكنك أن تجر هذا المركب الكبير الى البحر وسط الغابات الكثيفة ؟» ولكن «كات» لم يكن يرد عليهم سوى بقوله : «انتظروا حتى تروا ماأفعله» . فلما أتم صنع المركب ، وضع فيه زوجته وأخوته ، وكل الكائنات الحية التى تعيش بالجزيرة حتى أصغر النمل حجما ، وصنع للمركب غطاء أغلقه دونه ودون أسرته والكائنات التى جمعها • وبعد ذلك أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، فامتلأ تجويف الجزيرة بالماء ، وأخذت المياه تتدفق خلال سلسلة التلال فى المكان الذى لا تزال شلالات جاوة تتدفق فيه فى اتجاه البحر ، محدثة هديرا صاخبا وسط ستار من الرذاذ . وهناك انزلق مركب « كات » على المياه المتدفقة عبر حواجز التلال ومنها الى البحر حيث اختفى عن الأبصار • ويقول الأهالى : ان البطل «كات» قد أخذ معه من كل شيء أجوده عندما اختفى عن الأعين ، ومازالوا ينتظرون عودته السعيدة حتى اليوم •

١١ ـ حكايات عن الطوفان فى «بولونيزيا» و «ميكرونيزيا» :

وتنتشر أساطير الطوفان الكبير الذى أغرق حشدا هائلا من الناس بين أهالى مجموعات الجزر التى يجمعها اسما «بولونيزيا» و « مكرونيزيا » وتنتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • وقد قيل لنا : « ان الروايات المختلفة التى تنتشر بين مجموعات السكان المختلفة تتفق فى عناصرها الأساسية ، وان اختلفت فى عدد من التفصيلات • فتحكى مجموعة من هذه المجموعات أن الاله «تا أورا» (وهو خالق العالم وفقا لأساطيرهم) غضب فى العصور الأولى على الناس لعصيانهم أوامره ، فحول العالم الى بحر غرقت الأرض تحته عدا بعض النتوءات البارزة (أوروس) التى ظلت فوق سطح الماء مكونة مجموعات الجزر الأساسية. وأما مايحتفظ به سكان ولايات «أيميو» من ذكرى هذه الحادثة ، فهو أن رجلا رسا بقاربه بعد أن انحسر الطوفان بالقرب من بلده «تياتايبوا» التى تقع فى جزيرتهم ، وشيد معبدا أو (ماراى) تكريما لآلهه » •

وتروى أسطورة الطوفان فى تاهيتى ، على النحو التالى : لقد حدث أن أغرق البحر « تاهيتى » عن آخرها ، بحيث لم يعش فيها رجل أو خنزير أو كلب أو دجاجة . وقد أطاحت الرياح بحدائق الأشجار

والأحجار وقلبت باطن الأرض ظاهرها . ولم ينج من هذا الدمار سوى رجل وامرأة ، فعندما بدأ الطوفان يزحف الى البلاد ، حملت المرأة أفراخها الصغيرة وكلبها الصغير وقطتها الصغيرة فى حين حمل الزوج معه خنزيره الصغير . (وهذه هى كل أنواع الحيوانات التى كان يعرفها الأهالى قديما . وحيث ان كلمة « فاثاوا » أى الصغير تستعمر للمفرد والجمع ، فان عدد الحيوانات هنا قد يكون مفردا وقد يكون جمعا .) وقد اقترح الزوج على زوجته أن يأوى الى جبل « أوروفينا » ، وهو جبل عال فى « تاهيتى » ، حيث ان هذا الجبل ، كما قال لها ، شاهق لا تصله مياه البحر . فعارضته الزوجة فى ذلك ورأت أنه من الأفضل ان يأويا الى جبل « أوبيتوهيتو » حيث يكونان فى مأمن من الطوفان ، لأن المياه يمكن أن تصل الى جبال « أوروفينا » . فامتثل الرجل لرأى زوجته التى كانت على حق فى تصورها ، اذ أن المياه غمرت جبل « أوروفينا » بحق ، فى حين وقف جبل « أوبيتو هيتو » شامخا فى عرض المياه ، وأصبح ملاذهم . وهناك أخذا يرقبان الفيضان ثمانى ليال حتى بدأ الجزر وبرزت قمم الجبال فوق الأمواج . فلما تراجع البحر الى مكانه الأصلى ، ترك الأرض يبابا بلا محصول أو اناس ، بل ان السمك كان قد هرب الى الكهوف والجحور التى بالصخور . وقد كانت من الأمثلة التاهينية المشهورة : « احفر جحرا للسمكة فى الماء » . فعندما سكنت الريح وأصبح كل شىء هادئا ، أخذت الأشجار والأحجار تتساقط من عل حيث كانت الريح قد أطاحت بها هناك . ذلك أن الزوابع كانت قد مزقت الأشجار وحملتها الى أعلى فى شكل دوامة . ونظر الاثنان من حولهما ، وقالت المرأة للرجل : « لقد نجينا من البحر ولكن ها هى ذى الأحجار المتساقطة تحمل الينا الموت ، فالى أين نلجأ الآن ؟ وعند ذاك حفر الاثنان حفرة وفرشاها بالحشائش وغطياها بالأحجار ، ثم زحفا الى داخلها ، وقبعا فيها وهما يستمعان الى صوت الصخور الساقطة من السماء . وهى تهدر وتتصادم . ثم أخذ سقوط الأحجار يقل تدريجيا بعد ذلك، سوى بعض الصخور التى كانت تسقط بين الحين والآخر ، أعقبها سقوط أحجار متناثرة حتى كف كلية عن السقوط . وعند ذاك قالت المرأة للرجل : « قم لترى ما اذا كانت الأحجار لا تزال تتساقط » . فأجابها الرجل : « لا لن أخرج حتى لا تردينى الأحجار قتيلا » . ثم انتظرا يوما وليلة . وفى الصباح التالى لذلك قال الزوج لزوجته : « لقد سكنت الريح حقا وكفت الأحجار وجذوع الأشجار عن السقوط ، كما أنه لم يعد يسمع للأحجار صوت »

فبرحا جحرهما وأبصرا أكوام الأشجار والأحجار المتساقطة وكأنها جبل صغير . أما الأرض فلم يبق منها سوى التراب والصخور ، كما لم يعد هناك أثر للأشجار ، اذ كان البحر قد دمرها . ثم هبطا الجبل ونظرا من حولهما فى دهشة عندما لم يريا أثرا للبيوت أو لأشجار جوز الهند والنخيل أو لثمار الخبز أو لنبات الخبيزة أو للحشائش ، اذ كان البحر قد أتلفها عن آخرها . وعاش الزوج مع زوجته وأنجبا ابنا وابنة . وانتابهما الحزن اذ لم يجدا طعاما . على الرغم من ذلك فقد ظلت المرأة تنجب أطفالا. ولكن لم تلبث أشجار جوز الهند وثمار الخبز أن أينعت وكذلك سائر الأشجار الأخرى . ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت الأرض قد غطيت بكافة أنواع الأطعمة . ثم امتلأت على مر الأيام بالناس الذين تناسلوا عن هذا الأب وتلك الأم .

وقد حدث الطوفان فى رواية سكان جزيرة « راياتيا » وهى احدى جزر « ليوارد » فى مجموعة الجزر التاهيتية ، بعد أن عمرت الأرض بنسل « تا آتا » بقليل . فقد كان الاله « رواهاتا » يخلد الى الراحة بين شعب المرجان فى أعماق المحيط عندما أقض مضجعه صياد كان يجدف فى قاربه فوق المكان الذى كان ينام فيه الاله ، ثم أدلى خطاطيفه ، وهو غافل أو جاهل بوجود الاله وسط الشعب المرجانية التى تقع فى قاع المياه الرائقة الشفافة . فاشتبكت الخطاطيف بشعر الاله ، بحيث لم يستطع الصياد أن يخلصها من خصلات شعر الاله المعطرة الا فى صعوبة بالغة ، وأخذ يسحبها فى رفق شيئا فشيئا . وغضب الاله لأنه لم يجد راحته فى النوم وصعد الى السطح وهو يرغى ويزبد ، ورفع رأسه فوق سطح الماء وأخذ يعنف الصياد لقلة ورعه ، وهدده بأنه سوف يدمر الأرض انتقاما من فعلته . وتملك الصياد الفزع وخر ساجدا أمام الاله ، واعترف له بجريرته ، وتوسل اليه أن يعفو عنه وأن يغير الحكم الذى نطق به أو على الأقل ينقذه هو من هذا الدمار . وحركت توبة الرجل وكثرة الحاحه مشاعر الاله « رواهاتو » وطلب منه أن يعود الى زوجته وولده ويصطحبهما الى « تواماراما » ، وهى جزيرة صغيرة تقع بين الصخور فى الجانب الشرقى من « را آتيا » ، ووعده بأن يحميه هناك من الدمار الذى سوف يلحق بالجزر المحيطة به . وأسرع الرجل الى بيته واصطحب زوجته وولده ولجأوا الى الجزيرة . ويقول البعض أنه اصطحب معه كذلك صديقا له كان يسكن معه تحت سقف واحد ، كما أخذ معه كلبا وخنزيرا وزوجا من الطيور ، بالاضافة الى الحيوانات الأليفة التى كان يعرفها أهل هذه الجزر آنذاك . ووصل

الجميع الى المرسى وقد أوشك النهار على الانتهاء . وعندما غربت الشمس أخذت مياه المحيط تعلو حتى اضطر السكان المجاورين لشاطىء المحيط أن يتركوا مساكنهم ويلوذوا بالجبال . وظلت مياه المحيط ترتفع طوال الليل ، وفى الصباح لم يكن يبرز من البحر الشاسع سوى قمم الجبال العالية التى اختفت فيما بعد ، وقد هلك سكان الجزر جميعا . ثم أخذت المياه تتراجع بعد ذلك . وعند ذاك ترك الصياد ورفاقه المكان الذى كانوا قد لاذوا به ، ورحلوا الى بلادهم ، وعنهم تناسل سكان الجزر الحاليون .

ولا يبلغ ارتفاع الجزر المرجانية التى لجأ اليها أجداد الجنس البشرى ، فى أكثر أجزائها ارتفاعها أكثر من قدمين فوق سطح البحر ، بحيث يصعب علينا أن نتصور كيف أن الطوفان لم يغرقها ، فى حين أنه غمر الجبال الشاهقة التى ترتفع قممها آلاف الأقدام عن شاطىء هذه الجزر المجاورة . ولكن هذه المشكلة لم تكن تمثل حجر عثرة فى سبيل ثقة الشعب بتراثه ، فهم لايميلون الى مناقشة هذه الآراء ـ المتشككة ، وانما يشيرون ، بقصد تأكيد حكايتهم ، الى الشعب المرجانية والقواقع وغير ذلك من المواد التى يلفظها البحر ، تلك التى عثر عليها بين الفينة والفينة على سطح قمم جبالهم الشاهقة ، ويؤكدون فى اصرار أن هذه الفضلات ، لابد أن يكون البحر قد لفظها عندما أغرق الجزر .

ومن الملاحظ ، كما سنرى فيما بعد ، أن الأساطير التاهيتية عن الطوفان تعزو حدوثه الى فيضان البحر وحده ، ولا تعزوه الى سقوط الأمطار التى لم يرد ذكرها على الاطلاق فى هذه الأساطير . ويعلق « وليم اليس » الذى ندين له بتدوينه لهذه الأساطير ، يعلق على ذلك بقوله : « وكثيرا ما تحدثت مع الناس ، سواء كانوا من سكان الشمال أو من سكان الجنوب ، حول هذا الموضوع ، ولكننى لم أسمع منهم رواية قط عن انفتاح نوافذ السماء ، أو سقوط المطر فى أى شكل من الأشكار . وانما يعزى الطوفان فى كل من أسطورة « رواهاتو » و « تواماراما » فى تاهيتى ، و « كاى كاهينارى » فى « هاواى » الى فيضان البحر . كما أنها جميعا تعزو هذا الفيضان الذى أغرق العالم وأهلك الجنس البشرى ، الى غضب الآله على الناس » .

وعندما كان « اليس » يعظ فى سكان « هاواى » عام ١٨٢٢ م ،

ويتحدث اليهم عن قصـــة طوفان نوح ، روى له الأهالى حكاية شبيهة بحكاية نوح كانوا قد توارثوها أبا عن جد ، « فقالوا له ان آباءهم حكوا لهم أن البحر غمر الأرض جميعا ذات يوم ، سوى جزء من ذروة جبـل « موناكيا » ، حيث كان شخصان يأويان اليها هروبا من الطوفان الذى أغرق من عداهم . ولكنهم قالوا انهم لم يسمعوا من قبل قط عن سفينة أو عن نوح نفسه ، حيث انهم تعودوا أن يطلقوا على الحكاية عنـوان « كاى كاهينارى » (أى بحر كاهينارى) » .

ويروى عن « الماوريين » سكان نيوزيلنده أســـطورة طويلة عن الطوفان . فهم يقولون انه مع تكاثر النـــاس على وجه الأرض وتعـدد القبائل ، انتشرت الشرور فى كل مكان ، فقد تنازعت القبائل فيمـــا بينها واشتعلت بينها الحروب ، وأهمل الناس عبـــادة الاله الكبــــير « تانى » الذى خلق أول رجل وامرأة ، وأنكروا تعاليمه جهرا . حقـــا انه كان هناك نبيان يعظان الناس ويرشدانهم الى العقيدة الصادقـــة التى تتصل بانفصال السماء عن الأرض ، ولكن الناس سخروا منهما واتهموهما بأنهما معلمان مزيفان ، اذ أن الســـماء والأرض متصلتان على نحو ما يرون منذ بداية الخلق . وقد كان اسما هذين النبيين هما « بارا وهنوا » ، و « توبو ـ نوى آ ـ أوتا » . وقد استمر النبيان فى وعظهما الى أن لعنتهما القبائل قائلة لهما : « انكما تستطيعان أن تلوكا ألفاظ تاريخكما كما تلوكان طعامكمـــا ، وتأكلان رءوس ألفاظ هـــذا التاريخ » . واستاء النبيان لسماع هذه العبارة الحمقاء « انكما تأكـلان الرءوس » . وأخذ يهويان بفأسيهما الحجريتين على الأشجار وجـــرا جذوع الأشجار الى منبع نهر « توهينجا » وربطا بعضهما ببعض عن طريق خيوط النباتات المتسلقة والحبال حتى صنعا منها قاعدة عريضة ، ابتنيا عليها بيتا واختزنا فيه الطعام الكثير ، وجذور نبات السرخس والبطاطا كما أخذا معهما فيه بعض الكلاب . وبعد ذلك أخـذا يتلوان التعـاويذ ويبتهلان الى الاله الكبير « تانى » حتى يسقط الأمطار بكميات هـــائلة بحيث تقنع الناس بوجوده وقوته ، وترشدهم الى ضرورة العبـــادة ان شاءوا أن يعيشوا فى سلام . ثم دخلا بيتهما ذاك وأخـــذا معهما رجلين أحدهما يدعى « تيو » والآخر « ريتى » ، وامرأة تدعى « واى ـ بونا ـ هاو » ، بالاضافة الى نساء أخريات . وقام « تيو » بدور الكاهن وأخذ يصلى وينطق بالتعاويذ حتى يسقط المطر . واستجابة لدعواته ، ســقط المطر بكميات غزيرة ، وأخذ يهطل مدة أربعة أو خمسة أيام . ثم تــلا الكاهن تعاويذه مرة أخرى ، حتى يكف المطر عن السقوط ، فســكنت

الأمطار ، ولكن الفيضان استمر فى الزيادة حتى وصل فى اليوم التالى الى بيتهم العائم ، فرفعته المياه فوق سطحها ، وأخذ التيار يجرفه حتى وصل به الى نهر « توهينجا » • وحتى هذا الوقت كان الفيضان فى انتشاره كبحر كبير يتأرجح فوقه البيت العائم ذات اليمين وذات الشمال• وبعد أن مرت سبعة أشهر قمرية على هذه الحال قال لهم الكاهن ، « اننا لن نهلك وسوف نرسو حتما على الأرض » وبعد أن انقضى الشهر القمرى الثامن قال لهم « لقد انكمش البحر وأخذ الطوفان ينحسر » • فسأله النبيان : « وكيف عرفت ذلك ؟ « فأجاب : « ان مقياسى المدرج قد دلنى على هذا » • ذلك أن الكاهن كان قد وضع معبده على جانب من سطح القاعدة العائمة ، وهناك كان يقوم بطقوسه ويكرر تعاويذه ويراقب مقياسه المدرج • ثم قرأ علامات المقياس وقال لرفاقه : « لقد هدأت الرياح العاتية التى هبت فى الشهور الماضية ، كما سكنت الرياح التى هبت خلال هذا الشهر ، ومن ثم فقد سكن البحر » • وفى خلال الشهر الثامن لم يترنح البيت كما كان يفعل من قبل ، وانما أخذ ينزلق الى جانب ترنحه فى بعض الأحيان • وعند ذاك عرف الكاهن أن البحر قد انخفض ، وأنهم كانوا يبحرون بالقرب من الأرض • فقال لرفاقه : « اننا سنرسو على الأرض الجافة فى خلال هذا الشهر القمرى ، لأن مقياس المدرس أطلعنى على أن البحر ينخفض تدريجيا « فأخذت الرفقة تكرر تعاويذها طوال الوقت وتحيى الطقوس تكريما للاله « تانى » • وفى نهاية الأمر رسا البيت العائم على أرض جافة فى « هاوايكى » • وقد كانوا يحسبون أنهم سيقابلون بعض الأحياء ، وان الأرض ستبدو لهم كما كانت قبل الطوفان ، ولكن كل شىء كان قد تغير ، فقد تشققت الأرض وتصدعت فى بعض الأماكن ، وانقلبت ظهرا على عقب فى بعض الأماكن الأخرى • أما الكائنات الحية فلم يكن لها أثر على وجه الأرض، وكان هؤلاء الأحياء الذين نجوا هم الذين انقذوا من بين القبائل التى كانت تعيش على وجه الأرض • فلما رسا البيت بهؤلاء ، كان أول ما فعلوه أن قاموا بتأدية الشعائر واعادة التعاويذ : وعبدو الاله « تانى » والسماء (رانجى) والاله « رهوا » ، وسائر الآلهة الأخرى • وقدموا لكل اله فى أثناء العبادة قدر ابهامين طولا من حشيش البحر • وقد كان كل اله يعبد على حدة فى مكان مختلف ، كما كان لكل اله معبد تتلى فيه التعاويذ ، عبارة عن جذر من الحشائش أو جذر شجيرة أو شجرة أو خصلة من خيوط الكتان ، فقد كانت معابد الآلهة على نحو هذا فى ذلك العصر • واذا سارت مجموعة من أفراد قبيلة من القبائل بجوار هذه المعابد فى العصر الحاضر ، فان الطعام الذى بداخل معدتهم يتضخم

ويقتلهم ، ولا يسمح لأحـــد أن يذهب الى هذه الأمكنة المقدســة سوى الكاهن • أما اذا زارها عامة الناس ثم ظهوا الطعام بعد ذلك فى قراهم، فان الشخص الذى يتناول هذا الطعام يموت • ذلك أن اللعنة تحــل بالطعام من جراء ارتكاب الناس الاثم فى تدنيسهم قدسية هذه المعابد ، ويكون عقاب آكلى الطعام بسبب اثمهم هو الموت • وبعد أن قام الناس الذين نجوا بكل الشعائر اللازمة لازالة الدنس الذى أثقلوا به ، أشعلوا النار عن طريق الاحتكاك باحدى الاماكن المقدسة ، ثم أشعل الكاهن حزما من الحشائش ، ووضع كل حزمة مشتعلة عند كل معبد بجوار قطعــة النبات المخصصة للاله • وبعد ذلك قدم الكهنة للآلهة أعشاب البحـــر شكرا لها على انقاذهم من الطوفان وعلى حفظ حياتهم فى البيت الذى طافوا فيه ••

وكما دونت حكاية الطوفان فى « بولونيزيا » ، فقد دونت كذلك فى « ميكرونيزيا » • فيحكى « البيلوريون الأيسلنديون » ، أن رجلا صعد ذات يوم الى السماء ، حيث تنظر الآلهة بعيونها البراقة ـ وهى النجوم ـ كل ليلة الى الأرض ، وسرق أحد هذه النجوم وحمله معه الى الأرض • ومن هذه العين البراقة صنع « البيلوويون الايسلنديون » نقودهم منــذ ذلك الحين • ولكن الآلهة غضبت لهذه السرقة ، ونزلت الى الأرض لتسترد ممتلكاتها المسروقة وتعاقب السارق • ولكى تفعل هذا تنكرت فى شكل عامة الناس ، وأخذت تنتقل من بيت الى بيت تسأل الناس طعاما ومأوى ولكن الناس كانوا أفظاظا فى سلوكهم معها وطردوها دون أن يقدموا اليها عشاء أو كسرة خبز • ولكن أمرأة عجوزا أحسنت اســـتقبالها ، وقدمت لها أطيب ما عندها من طعـــام وشراب • وعنــد خروج الالهة من كوخ المرأة العجوز ، نصحتها أن تصنع لوحا من خشب المامبو بحيث يكون معدا عند اكتمال القمر التالى وتنام عليه فى الليلة بعينها التى يكتمل فيها القمر • فصنعت المرأة العجوز ما نصحت به • فلما كانت ليلة اكتمــال القمر هبت عاصفة وهطلت الأمطار ، وأخذت مياه البحر ترتفع تدريجيا حتى أغرقت الجزر ، وصدعت الجبــال ، وهدمت مساكن الناس الذين لم يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم ، فهلكوا عن آخرهم • أما المرأة العجوز الطيبة فقد راحت فى سبات عميق على لوح الخشب وطفت على ســطح الماء وجرفها التيار حتى تشابكت خصلات شعرها بفروع شجرة كـانت تقع على قمة جبل « أرميليميو » • وهناك استقرت حتى انحسر الطوفان وانخفضت المياه تدريجا حتى وصلت الى سفح الجبل • وعند ذاك هبطت الآلهة من السماء لتبحث عن المرأة العجوز الطيبة التى تعهدت بحمايتها ، ولكنها وجدتهـا ميتة • فاستدعت الالهــة امرأة من بين شعبهم النسائى

الذى يسكن السماء ، فدخلت هذه المرأة فى جسد العجوز المتوفاة وأحيتها ثم أنجبت الالهة بعد ذلك خمسة أطفال عن طريق هذه المرأة العجوز التى بعثت الى الحيـــاة ، وبعدها عادت الالهة الى السماء وكذلك المرأة الالهة التى تطوعت وأعادت الحياة الى المرأة العجوز بعد أن توفيت • وقد عمر الأولاد الخمسة الذين ولدوا من آباء الهيين وأم انسانية جزر « بيلو » ، ومنهم تناسل سكان هذه الجزر الحاليين •

١٢ ـ حكاية عن الطوفان الكبير فى أمريكا الجنوبية :

كان هنود البرازيل ، وقت أن اكتشفوا فى المكان الذى تقع فيه اليوم مدينة « ريو ـ دى ـ جانيرو » يروون أسطورة عن طوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى أخوين مع زوجتيهما • وقد أغرق هذا الطوفان ، وفقا لاحدى روايات هذه الاسطورة جميع بقاع العالم وأهلك الناس جميعا فيما عدا أجداد هؤلاء الهنود الذين تسلقوا شجرة عالية • ووفقا لرواية أخرى ، نجا هؤلاء من الطوفان فى قارب •

أما الحكاية التى رواها « أندريه تيفيه » الفرنسى ، الذى زار البرازيل فى منتصف القرن السادس عشر ، نقلا عن الهنود الذين كانوا يسكنون بالقرب من « كيب فريو » فتجـرى على النحـو التالى : كان لطبيب عظيم اسمه « سوماى » ولدان ، أحدهما اسمه « تاميندونارى » والآخر اسمه « أريكونت » • أما « تاميندونارى » ، فكان يقوم بفلاحة الأرض ، وكان أبا وزوجا صالحا ، وله زوجة وأولاد • وأما الابن الثانى فلم يكن يهتم بشىء من هذه الأمور ، بل كان منصرفا الى الحرب • وقد كان الشىء الذى يجلب السرور الى نفسه ، هو اخضاع القوم المجاورين له لسطوته ، بل اخضاع أخيه الشقيق • وذات يوم ، أحضر هذا المحارب الشرس لأخيه المسالم ذراعا مبتورة لأحد قتلاه فى معركة من المعارك ، وقال له فى الوقت نفسه فى كبرياء : « اغرب عن وجهى أيهـا الجبان ، اننى سـآخذ منك زوجك وأولادك ، حيث انك غير قادر عن الدفاع عنهم » • فنظر اليه أخوه الطيب آسفا لعنجهيته ورد عليه فى سخرية لاذعة وقال له : « اذا كنت على هـذا النحو من الشـجاعة ، فلم لم تحضر معك بقية رمم أعدائك » ؟ • وعند ذاك رمى « أريكونت » الذراع المبتورة على عتبـة باب أخيه ، وهو ساخط على تعنيفه اياه • وفى هذه اللحظة انتقلت القرية التى يسـكنها الأخوان الى السماء ، ولم يبق على الأرض سـوى الأخوين • فلما أبصر « تاميندونارى » ما حدث ، دق الأرض برجله فى عنف بدافع الدهشـة أو الغضب ، فتدفق نبع من المياه ، وأخذت المياه تعلو حتى غطت قمم

التلال وكادت تصل الى سحب السماء · ثم استمرت فى تدفقها حتى غطت الأرض جميعا · فلما رأى الأخوان أن الخطر قد أحدق بهما ، أسرعا وصعدا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا ، ثم أخذا يتسلقان الأشجار هروبا من الماء مع زوجتيهما · أما « تاميندونارى » فقد تسلق شجرة تسمى شجرة « بيندونا » وهى تلك التى رأى الرحالة الفرنسى منها نوعين ، أحدهما ثماره أكبر وأوراقه أعرض من النوع الآخر · ولم يأخذ « تاميندونارى » معه سوى زوجة من زوجاته فى أثناء هروبه من الطوفان · أما الآخ الثانى « أريكونت » ، فقد تسلق هو وزوجته شجرة أخرى تسمى شجرة « جينيبير » · وهناك على قمة هذه الشجرة ، قدم « أريكونت » بعض الثمار لزوجته وقال لها : « اكسرى هذه الثمار وارمى بها فى الماء » · فلما فعلت أدركوا من صوت رشاش الماء أن المياه لا تزال عالية ، وأنه لم يحن الوقت بعد لكى يهبطوا الى الوادى · ويعتقد الهنود أن الناس جميعا غرقوا فى هذا الطوفان فيما عدا الأخوين وزوجتيهما · ومنهما تناسل شعبان مختلفان هما شعب « توناسيرى » وكنيته « توبنامبو » ، وشعب «تونايتزهويانا» وكنيته «تومينى» ·وكلا الشعبين يعيش فى حرب على الدوام مع الآخر · ويميل شعب « توبينامبو » الى أن يعلى من قدره فوق أقرانه وجيرانه فيقول : « اننا من نسل « تاميندونارى » أما أنتم فمن نسل « أريكونت » · وهم يعنون بذلك أن « تاميندونارى » كان أفضل من أخيه « أريكونت » ·

وقد روى الأب اليسوعى « سيمون دى فاسكونسلوس » رواية أخرى لهذه الأسطورة تختلف بعض الشىء عن الرواية السالفة · ففى رواية الأب اليسوعى نجت أسرة واحدة من الطوفان · كما أنه ليس بها ذكر لأخ شرير · وتحكى هذه الرواية أنه كان فى سالف الزمن طبيب ماهر أو عراف يدعى « تاماندوار » ، أفشى اليه الاله بسر قدوم طوفان كبير يغرق الأرض ، ثم يظل يعلو حتى يغطى الأشجار وقمم الجبال فيما عدا قمة واحدة توجد عليها شجرة نخيل تطرح ثمارا كثمار جوز الهند· وقد نصح الاله الطبيب بأن يلوذ بهذه الشجرة مع أسرته فى ساعة الشدة · ولم يتوان « تاماندوار » لحظة ولجأ الى المكان المذكور مع أسرته· وما كاد يستقر هناك حتى بدأت الأمطار تهطل حتى أغرقت الأرض ، ومن بعدها وصلت الى قمم الجبال · وعند ذاك تسلق الرجل وأسرته شجرة النخيل وظلوا هناك طوال مدة الطوفان يعيشون على ثمارها · فلما انحسر الطوفان هبطوا الى الأرض وأنجبوا أولادا وأحفادا عمروا الأرض التى كان الطوفان قد تركها خرابا ·

وبالمثل تروى قبيلة « كاينجانج » أو « كورودو » التى تقطن فى اقليم « ريو جراندى دى سول » ، الذى يقع فى أقصى جنوب البرازيل، حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق الأرض التى كان يسكنها أجدادهم من قبل · ولم يبرز فوق سطح الماء سوى قمة سلسلة الجبال الساحلية التى تسمى « سيرا دو مار » وقد سبح أفراد القبائل الهندية الثلاث وهى قبيلة « كاينجانج » وقبيلة « كايوروكرى » وقبيلة « كامى » ، فى اتجاه هذه الجبال ، وهم يحملون شعلات من النار بين أسنانهم · وسرعان ما شعر أفراد قبيلتى « كاينجانج » ، و « كامى » بالتعب ، فغاصوا تحت الأمواج وغرقوا وفارقتهم أرواحهم لتسكن الجبال · أما أفراد قبيلة « كايوروكرى » وبعض أفراد قبيلة « كوروتون » فقد شقوا طريقهم بين الأمواج الى الجبال، وهناك اتخذوا لأنفسهم مأوى ، بعضهم فى الجبال وبعضهم بين فروع الأشجار · ثم مرت بعد ذلك عدة أيام دون أن تنخفض المياه ، كما لم يجد هذا الحشد فى أثنائها ما يأكله · وبينما كان الجميع يتمنى الموت ، سمعوا غناء طيور « ساراكورا » ، وهى نوع من الطيور المائية ، وقد جاءتهم سلالا مملوءة بالتراب · ثم رمت الطيور بهذه الأتربة ، فهبطت الى قاع الماء بطبيعة الحال · وعند ذاك صاح الناس على الطيور أن تسرع ، كما نادت الطيور بدورها البط،وأخذ الجميع يعمل معا لتهيئة مكان يعيش فيه كل الناس غير أولئك الذين كانوا قد استقروا على الأشجار ، وقد تحول هؤلاء فيما بعد الى قردة · وعندما انحسر الطوفان هبطت قبيلة « كاينجانج » واستقرت عند سفح الجبل · أما أرواح الغرقى من قبيلتى « كايوروكرى » و « كامى » ، فقد تسربت من أحشاء الجبل الذى كانت سجينة فيه · فلما خرجت الى الخارج أشعلت النيران ، وصنع أحد أفراد قبيلة « كايوروكرى » من رمادها أشكالا للنمور ، وحيوانات التابير وآكلى النمل والنحل وغير ذلك من صنواف الحيوان ، ثم بث فيها الحياة وأرشدها الى الطعام الذى تأكله · ثم جاء أحد أفراد قبيلة « كامى » وقلده وصنع أشكالا لسبع الجبل والحيات السامية والذنابير لكى تتصارع مع الحيوانات التى صنعها أحد أفراد القبيلة الأولى ، على نحو ما تتصارع معها اليوم ·

وبالمثل يروى عن قبيلة « كارايا » وهى قبيلة هندية برازيلية تسكن وادى نهر « أراجواى » الذى يكون مع نهر « توكانتينز » ، أهم الأنهار الشرقية التى تصب فى الفروع الجنوبية لنهر « الأمازون » ، حكاية عن الطوفان الكبير · ويقال : ان هذه القبيلة تختلف عن جيرانها فى الأخلاق والعادات ، كما تختلف عنها فى خصائصها الفيزيائية ، بل ان لغتها

ليست لها علاقة ــ فيما يبدو ــ باللغات الاخرى المعروفة التى يتحدث بها الهنود البرازيليون · وتجرى حكاية قبيلة « كارايا » عن الطوفان على النحو التالى · خرج « الكاراياويون » ذات يوم ليصطادوا الخنازير المتوحشة ، فاختبأت الخنازير فى مغاراتها · وعند ذاك حاولوا أن يخرجوها من مخبأها ، فكانوا كلما أخرجوا خنزيرا قتلوه فى الحال · وفى أثناء اخراجهم للخنازير ، اعترضهم غزال وحيوان التابير ، وغزال أبيض · فلما توغلوا داخل الكهف اعترضتهم قدم انسان · وأفزعهم هذا المنظر ، وراحوا يبحثون عن ساحر قدير له علم بصنوف حيوانات الغابة · وجاء هذا الساحر واجتهد فى اخراج صاحب القدم من التراب · وكان اسم هذا الرجل « أناتيوا » ، وكان نحيلا وان كان ذا بطن ضخم ·

أخذ « أناتيوا » يغنى ويقول : « أنا أناتيوا ، أحضروا لى دخانا كى أدخن » ولكن القبيلة لم تفهم لغته ، وأسرع أفرادها الى الغابة وأحضروا له كل أنواع الزهور والثمار ولكنه رفضها جميعا وأشار الى رجل كان يدخن · فعرفوا مطلبه فى الحال وأحضروا له الدخان · فتناوله منهم وأخذ يدخن حتى سقط مغشيا عليه · فحملوه فى قاربهم ورجعوا به الى قريتهم · وهناك أفاق من غفوته وأخذ يرقص ويغنى · ولكن مسلكه ولغته الغريبة أخافت قبيلة « كارايا » ، فحملت أمتعتها ورحلت من القرية ، مما أغضب « أناتيوا » · ودفعه لأن يحول نفسه الى « بيرانها » ، وأن يلحق بهم على هذا النحو حاملا معه ثمار القرع المجوفة بعد أن ملأها بالماء · ثم صاح بأفراد القبيلة أن يتوقفوا ، ولكنهم لم يكترثوا لندائه · وعند ذاك هشم ثمرة من ثمار القرع التى كانت معه وفى الحال تدفق الماء وأخذ يعلو فى الوقت الذى كانت فيه القبيلة تواصل هروبها · فهشم « أناتيوا » ثمار القرع واحدة تلو الأخرى · وكان كلما هشم ثمرة ، ازداد ارتفاع الماء حتى أغرق الأرض جميعا ، ولم يعد بارزا منها فوق سطح الماء سوى قمم الجبال التى تقع عند نهر « تابيرابى » · فلاذت القبيلة بقمتين من قمم هذه السلسلة الجبلية · وعند ذاك صاح « أناتيوا » على كل أنواع السمك أن يجرف هؤلاء الناس الى الماء · فحاول سمك « الباهو » و « البنتادو » ، و « الياكو » أن يفعل هذا دون أن ينجح فى اغراقهم · وفى النهاية حاولت سمكة « بيكودو » (وهى سمكة ذات منقار طويل كالخرطوم) أن تتسلق الجبل من الخلف ، وقذفت بأفراد القبيلة فوق قمة الجبل الى الماء · وما زال هناك مستنقع كبير يشير الى المكان الذى سقط أفراد قبيلة « كارايا » فيه · ولم يبق فوق قمة الجبل سوى بعض الأفراد الذين لم يهبطوا منه الا بعد أن انتهى الطوفان · وقد علق الكاتب الذى دون هذه

الحكاية عليها بقوله : « على الرغم من أن الفيضانات التى تحدث بانتظام ، مثل فيضانات نهر أراجواى ، لا ينشأ عنها فى العموم حكايات عن الطوفان، كما أشار أندريه الى هذا بحق ، الا أن الظروف المحلية لوادى نهر أراجواى مناسبة لأن ينشأ عنها مثل هذه الحكاية · فالمسافر الذى يجد نفسه فجأة، بعد رحلة طويلة بين شواطىء النهر المنخفضة الممتدة الى غير نهاية ، أمام تلك الجبال الصلبة ذات الشكل المخروطى التى تقع عند نهر « تابيرى » ، والتى تعلو أمامه فجأة بين السهول ، يستطيع أن يفهم فى يسر الظروف التى دفعت قبيلة « كاراياس » ، التى عانت كثيرا من الفيضانات ، لأن تحكى مثل هذه الحكاية · وربما كانت هذه الجبال بحق بمثابة ملجأ لسكان الأحياء المجاورة » · ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : « وكما هو الحال فى معظم أساطير الفيضان فى أمريكا الجنوبية ، فان هذا الفيضان الغريب الذى تحكى عنه هذه الأسطورة ، لم يحدث نتيجة سقوط الأمطار ، بل حدث نتيجة تحطيم أوعية كانت ممتلئة بالمياه ·

وبالمثل يحكى « الباماريون » و « الأبيديريون » و « الكتاوشيون » الذين يسكنون عند نهر « بوروس » أنه قد حدث فى زمن من الأزمنة أن سمع الناس صوت قعقعة ينبعث من فوق الأرض ومن تحتها ، ثم استحال لون الشمس والقمر الى لون أحمر وأزرق وأصفر ، واختلطت الوحوش فى غير فزع بالناس · وبعد مضى شهر ، سمع الناس هديرا ، كما أبصروا الظلمة تصعد من الأرض الى السماء ، تصاحبها الرعود والأمطار الغزيرة · فغشى ضوء النهار ، كما غرقت الأرض تحت المياه ، وفقد بعض الناس كما مات بعضهم ، دون أن يعرف الناس سببا لهذا ، اذ كان كل شىء فى حالة اضطراب مفزعة · ثم ظلت المياه ترتفع حتى لم يعد بارزا من الأرض سوى فروع الأشجار الشاهقة · وعند ذلك أخذ الناس يبحثون عن مأوى لهم ، وهلكوا من البرد والجوع وهم جاثمون بين فروع الأشجار ، ذلك أن الظلام كان يعم الكون طوال الوقت ، كما كانت الأمطار تسقط بصفة مستمرة · ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل يدعى « أوآسو » مع زوجته · فلما هبط هذان من أعالى الأشجار بعد أن انتهى الطوفان ، لم يجدا أثرا لجسد انسان ، اللهم الا كومة من العظام البيضاء · وبعد ذلك أنجب هذان عددا كبيرا من الأبناء · ثم قال أحدهما للآخر : « هيا نبتنى بيوتنا فوق الماء ، فاذا علا الماء طفت بيوتنا على سطحه ونحن بداخلها » · ولكنهما لم يعاودا التفكير فى هذا الأمر ، بعد أن وجدا أن الأرض قد جفت وأصبحت متماسكة · ومع ذلك فان « الباماريون » ما زالوا يبنون مساكنهم فوق الماء حتى اليوم ·

ويروى « الموراطيون » وهم فرع من « الجيباريين » الذين يسكنون فى « أكوادور » ، حكاية خاصة بهم عن الطوفان ، يقولون فيها ان موراطيا هنديا خرج ليصطاد فى مجرى نهر « باستازا » الضحل . فابتلع تمساح صغير الطعم من سنارته ، فقتل الصياد التمساح اثر ذلك . فغضبت أم التمساح أو بالأحرى أم التماسيح ، وأخذت تضرب الماء بذيلها حتى فاضت المياه وأغرقت ضواحى النهر ، وغرق الناس جميعا فيما عدا رجل واحد استطاع أن يتسلق نخلة ومكث هناك بضعة أيام كان الظلام يخيم فيها على الكون كله . وكان الرجل يقذف بين الحين والآخر بثمرة من ثمار النخلة فى الماء ، ولكنه كان يسمع لها على الدوام صوت ارتطام قوى . وفى اليوم الأخير رمى ثمرة على الأرض محدثة صوتا مصمتا ، فأدرك لحينه أن الماء قد انحسر . فهبط من الشجرة وابتنى بيتا وأخذ يفلح له حقلا . وقد كان الرجل بدون زوجته ، لكنه سرعان ما صنع لنفسه واحدة بأن قطع جزءا من جسده وغرسه فى الأرض ، فأخصبت التربة هذا الجزء ونمت منه امرأة تزوجها فيما بعد .

ويحكى « الأروكانيون » سكان شيلى حكاية عن الطوفان الذى لم ينج منه سوى بضعة أشخاص . وكان هؤلاء الأحياء المحظوظون قد لجأوا الى قمة جبل شاهق يسمى جبل « ثجثج » ومعناه الجبل المرعد أو المتلألىء . وقد كان لهذا الجبل ثلاثة نتوءات ، كما كان له خاصية الطفو على الماء . « ومن ثم كان من الممكن الاستدلال » ، كما يقول مؤرخ أسبانى ، « على أن هذا الطوفان قد حدث نتيجة بعض الانفجارات البركانية التى صحبتها هزات أرضية شديدة . فهو طوفان يختلف فيما يبدو عن طوفان نوح . وأينما تحدث هذه الهزات الأرضية العنيفة ، فان الناس يهربون ، طلبا للأمان ، الى هذه الجبال التى يحسبونها طافية ، ومن الطبيعى أنها تتصف حقا بخاصية الطفو على الماء ، ووفقا لتصورهم . وسبب هذا أن الناس يخافون بعد حدوث هزة أرضية ، أن البحر يفيض مرة أخرى ويغرق العالم . وفى مثل هذه الحالات يأخذ كل فرد معه مقدارا من الزاد ، وأطباقا خشبية يضعها فوق رأسه لكى تحميه من حرارة الشمس . ذلك لأن المياه عندما ترفع جبال « ثجثج » نتيجة ارتفاع المياه ، فمن الطبيعى أن الجبال تقترب عندئذ من الشمس . فاذا قيل لهم ان الأطباق المصنوعة من الطين أكثر ملاءمة لهذا الغرض من تلك المصنوعة من الخشب التى قد تحترق بتأثير حرارة الشمس ، فان جوابهم المألوف عن هذا بأن أجدادهم قد فعلوا هذا من قبل » .

ويحكى « الأكاويون » سكان « جيانا البريطانية » حكاية عن الطوفان

الكبير غنية بتفصيلاتها • فهم يقولون:ان الروح الكبير «ماكونيما» خلق في بداية الحياة الطيور والوحوش ، ثم عين ابنه « سيجو » حاكما عليها • وفضلا على هذا فقد أنبت في الأرض شجرة ضخمة رائعة تحمل على كل فرع من فروعها ثمارا مختلفة ، بينما كان ينبت حول جذعها الموز والطلح والكاسافا والذرة والقمح في وفرة ، كما انتشر نبات اليام حول جذورها• وباختصار ، فقد ازدهرت فوق تلك الشجرة العجيبة أو حولها أو أسفلها كل النباتات التى تنمو على سطح الأرض • ولكى يعم خير تلك الشجرة العالم أجمع ، قرر « سيجو » أن يقطع تلك الشجرة وأن يغرس بذورها وشظاياها فى كل مكان • وقد فعل هذا بمساعدة كل الوحوش والطيور باستثناء القرد ذى اللون البنى ، الذى رفض بسبب كسله وولعه بايذاء الناس ، أن يساهم فى هذا العمل الكبير • ولهذا فقد أرسل « سيجو » هذا القرد ليحضر الماء من النبع فى سلة مخرمة لكى يصرفه عن التفكير فى أى عمل شرير ، اذ أنه قدر أن هذا العمل يستغرق حيويته لبعض الوقت ، تلك الحيوية التى يستنفذها خلاف هذا ، فى الأعمال الشريرة • وفى أثناء هذا انشغل « سيجو » بقطع الشجرة ، واكتشف أن بطن الشجرة كان مجوفا وممتلئا بالماء الذى يسبح فيه كل أنواع السمك • وعند ذلك رأى « سيجو » الطيب أن يمد أنهار وبحيرات العالم أجمع بكميات وافرة من هذه الأسماك ، حتى يتوالد فى كل مياه كل نوع من أنواع هذا السمك • ولكن هذا العمل الطيب لم يتم كما كان متوقعا ، لأن المياه المخزونة فى بطن الشجرة بدأت تتدفق لأنها كانت متصلة بخزان كبير فى جوف الأرض • ولكى يحول «سيجو» دون تدفق المياه ، سد الجزء الباقى من الشجرة بعد قطعها ، بسلة محكمة النسج ، فتوقفت المياه حقا عن التوفق • ولكن لسوء الحظ جاء القرد خلسة الى مكان الشجرة ، بعد أن تعب من العمل الذى كلف به ، وأثارت هذه السلة المقلوبة فضوله ، وتصور أنها يمكن أن تخفى طعاما طيبا ، فرفعها فى حذر واختلس النظر بداخلها ، واذا بالماء يتدفق فى قوة مكتسحا القرد أمامه وأغرق الأرض جميعها • وعند ذلك جمع « سيجو » صنوف الحيوان التى لم يغرقها الطوفان ، وقادها الى أعلى مكان فى البلد حيث تنبت بعض أشجار جوز الهند الطويلة ، ثم ترك الطيور والحيوانات القادرة على التسلق تصعد أكثر هذه الأشجار ارتفاعا • أما تلك الحيوانات التى لم تكن تتمكن من تسلق الأشجار وليست من الأنواع المائية أو البرمائية ، فقد حبسها فى كهف ذى مدخل ضيق غطاه بالشمع بعد أن سلم الحيوانات شوكة طويلة تثقب بها الشمع لكى تتأكد من انحسار الطوفان • وبعد أن اتخذ « سيجو »

هذه الاحتياطات لضمان سلامة هـذه الحيوانات الضعيفة ، تسـلق مع الحيوانات الأخرى شجرة النخيل ، واحتجب بين فروعها ، وأخذ يقاسى معها آلام البرد والجوع بسبب الظلام الدامس وهبوب العاصفة التى أعقبت تدفق الفيضـان • أما سائر الحيـوانات فقد تحملت متاعبها فى رباطة جأش • وأما القرد الأحمر ، فقد أخذ يصرخ من الألم صرخات مفزعة حتى انتفخت رقبته ولا تزال منتفخة حتى اليوم • كما أن هذا هو السبب فى أن القرد لا تزال له حتى اليوم طبلة ناتئة العظام فى رقبته • وفى هـذه الأثناء ، كان « سيجو » يقذف بين الحين والآخر بثمار شجرة النخيل فى الماء ليختبر من صوت ارتطامها به عمق المياه • فكلما انخفضت المياه ، كانت تزداد المسافة الزمنية بين سقوط الثمرة وارتطامها بالماء • وفى النهاية سمع صوتا مصمتا بدلا من صوت الارتطام ، وكان هذا الصوت هو صوت اصطدام الثمرة بالأرض اليابسة • وعند ذلك علم «سيجو» أن المياه قد انحسرت عن الأرض ، وأخـذ يستعد مع من معـه من حيوانات وطيور للهبوط من أعلى الشجرة • على أن الطائر النافخ كان فى سرعة من أمره فى أثناء هبوطه ، بحيث اقتحم عش نمل • فهجم النمل الجائع عليه وأخذ ينهش رجليه وعراهما من اللحم • وهذا هو السبب فى أن الطائر النافخ ما زالت له رجـلان عاريتان من اللحم حتى اليـوم • واتعظت الكائنات الأخرى بفعلة هذا الطائر ، فهبطت فى حذر وخوف • وبعد ذلك أخذ سيجو قطعتين من الخشب ، وحك احديهما بالأخرى لكى يولد النار • وما كادت تتطاير الشرارة الأولى ، وكان « سيجو » قد ولى وجهه عنها صدفة ، حتى أخطأها الديك الرومى وابتلعها وطار • فأحرقت الشرارة رقبته • وهذا هو السبب فى أن الديك الرومى له غبب أحمر حتى يومنا هذا • وكان التمساح يقف فى هذا الوقت الى جانب الديك الرومى دون أن يتسبب فى ايذاء أحد • ولكن لما كان سلوكه فى هذا الوقت لسبب ما غير عادى ، فقد اتهمته الحيوانات الأخرى بسرقة الشرارة وابتلاعها • ولكى يسترد « سيجو » الشرارة من بين فكيه فتح فمه ومزق لسانه • وهذا هو السبب فى أن التماسيح الأمريكية لم يعد لها ألسنة منذ ذلك اليوم •

ويعتقد « الأراواكيون » سكان « جيانا البريطانية » أن الحياة أصيبت بالدمار مرتين منذ خلقها ، مرة بسبب النار ومرة بسبب الفيضان • وكلا الدمارين أحدثهما « أيومون كزندى » ساكن السماوات العليا » ، بسبب فساد الجنس البشرى • على أنه أنذر الناس قبل حدوث الدمار الأول ، فأخـذ القوم الذين اسـتمعوا لتحذيره ، يسـتعدون للهروب من النار الكبيرة ، بأن أخذوا يحفرون تحت جبل رملى • وابتنوا لأنفسهم مسكنا

تحت الأرض ذا سقف خشبى ويقوم على أعمدة خشبية · ثم غطوا سقف المسكن بالتراب وطبقة سميكة من الرمل · وبعد ذلك لجأوا اليه بعد أن أبعدوا عنه كل المواد القابلة للاشتعال · وهناك مكثوا فى هدوء حتى خمدت ألسنة النيران التى اكتسحت أمامها كل شىء على سطح الأرض · أما الدمار الثانى الذى حل بالأرض ، فقد تسبب عن الطوفان · وقد كان زعيم حكيم ورع يدعى « ماريريوانا » يعلم به قبل وقوعه ، ومن ثم فقد نجا مع أسرته فى مركب كبير · ولما كان يخشى أن يجرف التيار مركبه بعيدا عن الشاطىء وبعيدا عن مسكن آبائه ، فقد صنع حبلا طويلا من الألياف وربط به مركبه فى جذع شجرة ، فلما انحسرت المياه ، لم يجد نفسه بعيدا عن مكان سكنه الأصلى ·

وبحكى «الماكوسيون» الذى يسكنون «جيانا البريطانية» أن الروح الطيب « ماكونيما » والذى يعنى اسمه « الذى يعمل بالليل » ، خلق فى بداية الحياة السماء والأرض · وبعد أن ملأ الأرض بالأشجار والنباتات ، هبط من مسكنه فى السماء وتسلق شجرة وأخذ يكشط لحاء الشجرة بفأس حجرية كبيرة ، فتساقط اللحاء فى النهر عند جذر الشجرة ، وتحول فى الحال الى صنوف من الحيوان · وبعد أن فرغ من خلق الحيوان شرع فى خلق الرجل · وراح الرجل الذى خلقه فى سبات عميق ، فلما استيقظ وجد امرأة تقف الى جواره · على أن الروح الشرير سيطر على الأرض بعد ذلك · لهذا فقد أرسل « ماكونيما » الروح الطيب طوفانا الى الأرض لم ينج منه سوى رجل واحد هرب فى مركب · ثم بعث هذا الرجل فأرا فيما بعد ليعرف ما اذا كان الطوفان قد انحسر عن الأرض ، فرجع الفأر اليه بحفنة من القمح · فلما تراجعت المياه الى منسوبها الطبيعى ، عمر هذا الرجل الأرض على نحو ما فعل « دويكاليون » و « بيرها » ، بأن كان يرمى الأحجار من وراء ظهره فتتحول الى شخوص· وتتضمن هذه الحكاية وجوها من الشبه يثير الشك بينهما وبين حكاية الكتاب المقدس · وتتمثل وجوه الشبه هذه فى خلق المرأة على هذا النحو الغريب ، وفى ذكر الروح الشرير ، وحادثة ارسال الفأر لاستكشاف عمق الطوفان · وربما كان مرد هذا التشابه الى تأثير المبشرين المسيحيين ، أو الى تأثير أوربى بصفة عامة · على أن الطريقة التى خلق بها الذين نجوا من الطوفان الجنس البشرى بعد أن انتهى الطوفان ، تشبه الحادثة المماثلة لها فى القصة الاغريقية عن « دويكاليون » و « بيرها » ، مما يصعب النظر الى الحكايتين بوصفهما مستقلتين احداهما عن الأخرى ··

ويروى « هنود أورينوكو » كذلك أساطير عن الطوفان الكبير · وقد

دون «هومبولت» ملاحظاته حول هذا الموضوع فقال : «ولا يمكنى أن أترك هذه السلسلة الأولى من جبال « انكمـــاردا » دون أن أذكر واقعة لم يكن يعرفها الأب « جيلى » ، وكثيرا ما كانت تحكى لى فى أثنـــــاء اقامتى مع الجماعات الارسالية فى « أورينكو » • فقد احتفظ سكان هذه البـــلاد الأصليين بعقيدة تتلخص فى أن أمواج البحر ارتطمت بصخور جبـــال « انكماردا » فى أثناء فترة الطوفان الكبير الذى هرب منـــه آباؤهم فى قوارب بحثا عن النجاة • ولا تعيش هذه العقيدة منفصلة بين شـــعب « التاماناكويين » وحدهم ، وانما تكون جزءا من تراث تاريخى اكتشفت مقتطفات متفرقة منه بين « المايبوريين » سكان الشلالات الكبيرة ، وبين الهنود الذين يسكنون عند شلالات « ريو اريفانو » التى تصب فى نهـر «كاورا» ،وبين كل القبائل على وجه التقريب التى تسكن أعالى «أورينوكو»• فاذا سئل « التاماناكويبون » عن الوسيلة التى هرب بها الجنس البشرى من هذا الطوفان الكبير أو من « عصر الماء » كما يسميه المكسيكيون ، فانهم يجيبون بأنه لم ينج من هذا الطوفان سوى رجل واحد وامرأة واحدة لاذا بجبل شاهق يسمى جبل « تاماناكو » ويقـــع عند شـــواطىء نهـــر « أزيفيرو » • وبينما كان هذا الرجل وهذه المرأة يرميان بثمار شـجرة نخيل « ماورينيا » من وراء ظهورهما ، أبصرا رجالا ونساء يخروجون من بذور الثمار ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان ، وكانا قـــد ملأهما الأسى للخراب الذى حل بالعالم • أما بذور الثمار التى رماهـــا الرجل فقد تحولت الى ذكور وأما بذور الثمار التى رمتها المرأة فقـــد تحولت الى اناث •

ويحكى «الكناريون» وهم قبيلة تسكن فى اكوادور ، أن طوفانا كبيرا حدث فى عهد مملكة «كرينو» القديمة ، ونجا منه أخوان بأن هربا الى جبال شاهقة للغاية تسمى جبال «هواكا ـ أينان» • وكانت كلما ارتفعت المياه، ارتفعت معها الجبال ، وبذلك لم يصل الماء قط الى الأخوين • فلما انخفضت المياه وكانت مئونتهما قد نفدت ، هبطا من أعلى الجبـل وأخذا يبحثان عن طعام لهما بين التـلال والوديان • ثم ابتنيا بيتا صغيرا عاشا فيه وكانا يحتالان على الحياة بتناول طعام شحيح من الأعشاب وجذور النباتات ، ومن ثم فقد قاسيا كثيرا من آلام الجـوع والتعب • وذات يوم رجعا الى بيتهما بعـد بحث مضنى عن الطعـام فوجدا به طعاما ، كمـا وجدا به « الشيشة » ، دون أن يعلما شـــيئا عمن أعد لهم ذلك أو أحضره لهم • وتكرر حدوث هذا عشرة أيام متتالية أخذا يفـكران من بعدها فى وسيلة للتعرف على هذا الشخص الذى يقوم بهـذا العمل الطيب فى تلك الأيام

القاسية • فاختفى الأخ الأكبر فى مكان ما ، واذ به يبصر ببغاوين قادمين يرتديان زى الكناريين • فلما دخلا البيت أخذا يعدان الطعام الذى أحضراه معهما • ولما أبصر الأخ الاكبر ما هما عليه من جمال ، وأن لهما وجهى امرأتين ، خرجا من مخبئهما • فلما وقع بصر الطائرين عليهما ، غضبا وطارا دون أن يتركا لهما شيئا يأكلانه • فلما عاد الأخ الاصغر من بحثه عن الطعام ، ولم يجد الطعام معدا كما كان يحدث فى الأيام السابقة ، سأل أخاه الأكبر عن سبب هذا التغير فقص عليه ما حدث ، فجلسا معا مكتئبين • وفى اليوم التالى قرر الأخ الأصغر أن يختفى بالمثل ويرقب قدوم الطائرين • وبعد ثلاثة أيام عاد الطائران وأخذا يعدان الطعام • فتريث الأخوان حتى فرغ الببغاوين من اعداد الطعام ، وأغلقا الباب عليهما • فغضب الطائران أشد الغضب لوقوعهما فى الشرك ، وتمكن الطائر الكبير من الهروب ، بينما وقع الطائر الصغير فى الفخ • فتزوج الأخوان هذا الطائر وأنجبا منه ستا من البنين والبنات تناسلت عنهم قبيلة «كانارى» • ولهذا فان الهنود يعدون تل «هواكا ـ اينان» الذى سكنه الأخوان بعد أن تزوجا الطائر ، مكانا مقدسا ، كما أنهم يقدسون الببغاء الأمريكى ويقدرون ريشه تقديرا عاليا ويستخدمونه فى احتفالاتهم •

ويحكى هنود « هواروشيرى » وهو اقليم فى « بيرو » يقع فى «الأندس»(١) فى الشرق من « ليما » ، أن العالم فى سالف الزمان كاد أن يفنى عن آخره ، فقد حدث أن هنديا ترك بقرته ترعى فى مكان غنى بالمرعى ، ولكن البقرة رفضت أن تأكل وأخذت تئن فى حزن على نحو ما تفعل الأبقار • وعند ذاك قال لها صاحبها : « أيتها الحمقاء • لماذا تئنين وترفضين الطعام ؟ ألم أتركك ترعين فى مكان يطيب فيه المرعى ؟» فأجابته البقرة قائلة : « وماذا تعرف أنت أيها الأحمق عن هذا الأمر ؟ اننى لا أحزن بدون سبب يستدعى الحزن ، ففى خلال خمسة أيام سيفيض البحر ويغرق الأرض جميعا ويخرب كل ما عليها • وتعجب الرجل من سماعه الحيوان يتكلم على هذا النحو ، وسألها ما آذا كانت هناك وسيلة تنقذهما من الطوفان • عند ذاك طلبت منه البقرة أن يأخذ معه مئونة تكفيه خمسة أيام وأن يتبعها الى قمة جبل «فيلسا ـ كوتو» الذى يقع بين بيعة «سان داميان» وبيعة «سان جيرونيمو دى سوركو» • فحمل الرجل مئونته على ظهره وتبع البقرة • وعندما وصل الى قمة الجبل المعنى ، وجد أنواعا

---

(١) احدى سلاسل الجبال الشامخة فى العالم • تبدأ من شمال أمريكا الجنوبية على طول ساحل فنزويلا • (المترجمة)

متعـــددة من الطيور والحيوانات مجتمعة هناك . وما كاد يصل الى هذا المأوى حتى أخذت مياه البحر ترتفع وتفيض حتى أغرقت الوديان وغطت قمم التــلال جميعا عدا قمة جبل «فيلسا ـ كوتو» ، بل ان الامواج كانت تتلاطم بالقرب من هذه القمة ، الى درجة أن الحيوانات تزاحمت فى مساحة ضيقة ، ولم يجد بعضها مكانا لأرجله . وانغمس طرف ذيل الثعلب فى الماء ، فاسود لونه . وهذا هو السبب فى أن أطراف ذيول الثعالب سوداء حتى اليوم . وفى اليوم الخامس من الفيضان أخذت المياه تتراجع ، وعاد البحر الى حالته الأولى بعد أن أغرق الناس جميعا عدا هذا الهندى الذى تناسلت منه جميع الأمم التى تعيش على وجه الأرض .

وكذلك روى عن « الانكاسيين » الذين كانوا يسكنون فى « بيرو » رواية عن الطوفان . فقد حكى هؤلاء أن المياه فاضت وغمرت أعلى الجبال المستقرة على وجه الأرض ، فهلك الناس جميعا وكل كائن على وجه الأرض. ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل وامرأة طفوا داخل صندوق على سطح المياه . وبعد أن انحسر الطوفان ، جرفت الرياح الصندوق والرجل والمرأة بداخله ، وقذفت به عند « تاهواناكو » التى تبعد عن « كوزكو » بما يقرب من سبعين فرسخا .

وقد حكى المؤرخ الأسبانى «هيريرا» أساطيرا من «بيرو» عن الطوفان الكبير ، فقال : «لقد ذكر الهنـــود القدماء أنهم حفظوا هذه الأساطير عن أجدادهم ، فقد حدث طوفان كبير قبل أن يظهر أى فرد من «آلأنكاويين» فى «بيرو» بعد سنوات ، وعندما كانت البلاد مزدحمة بالسكان ، حطم البحر حواجزه وغمر الأرض بالمياه وأهلك آلناس جميعاً . ويضيف «الجوانكيون» سكان وادى «اكسوكسا» وأهالى «تشيكوينو» الذين يسكنون اقليم «كالاو»، الى ذلك ، أن بعض الناس لجأوا الى جحور وكهوف تقع فى أكثر الجبال ارتفاعا ، وهؤلاء هم الذين عمروا الارض بعد أن أهلكها الطوفان . ويؤكد قوم آخرون من سكان الجبال ، ان الناس جميعاً هلكوا فى هذا الطوفان عدا ستة أفراد طافوا على عوامات . ومن هؤلاء تناسل سكان هذا البلد. ويمكننا أن نصدق أنه قد حدث فى هذا البلد فيضان على نحو ما ، لأن كل سكان الأقاليم المتعددة يتفقون حول هذا الخبر » .

وتحكى قبيلة « تشريجوآنو » الهنـدية التى كانت تتمتع ذات يـوم بنفوذ قوى فى جنوب شرق «بوليفيا» الحكاية التالية عن الطوفان الكبير: حدث أن كائنا مهولا شريرا بعينه كان يدعى «أجوارا تونبا» ، أعلن الحرب

على الاله الحقيقى «تونبايتى» خالق « التشريجوانيين » ٠ ولا يعرف سبب اعلان هذا الكائن الحرب على الاله ، وان كان يعتقد أن هذا يرجع الى مجرد ضغينة أو الى مجرد اختلاف فيما بينهما ٠ ولكى يضايق هذا الكائن الاله الحقيقى «تونبايتى» ، فقد أشعل النار فى كل المروج فى بداية الخريف أو فى منتصفه ، بحيث هلكت النباتات والأشجار وهلكت معها الحيوانات التى كان يعتمد عليها الهنود فى معيشتهم فى ذلك الوقت ، لأنهم حتى ذلك الحين ، لم يكونوا يزرعون القمح وسائر الحبوب كما يفعلون الآن ٠ وكاد الهنـــود يهلكون بعد أن حرموا من وسائل معيشتهم ، كما أخذوا يتراجعون أمام ألسنة النيران الى شواطىء الأنهار ٠ ولما كانت الأرض لاتزال مغلفة بدخان النيران ، فقد بذلوا قصارى جهدهم فى اصطياد السمك من الأنهار لكى يتغـذوا به ٠ وتحـــير «أجوارا ـ تونبا» عندما رأى أن بنى الانسان أوشكوا على الهروب من مخالبه ، وعمد الى حيلة أخرى يحقق بها دسيسته اللعينة ضد الجنس البشرى ، فجعل الأمطار تهطل من السماء ، على أمل أن يغرق كل أفراد قبيلة « تشيريجوانو » ٠ وكاد «أجورا ـ تونبا» أن ينجح فى مهمته ، لولا أن سعى « التشيريجوانيون » لحسن حظهم ، فى احباط محاولته ٠ فقد أخذوا يبحثون ، بناء على اشــارة تلقوها من الاله الحقيقى «تونبايتى» ، عن ورقة عريضة من نبات «الماتى» ، ووضعوا فوقها طفلين من أم واحدة ، أحدهما ذكر والآخر أنثى وجعلوا القــارب الصغير يطفو بنزلائه فوق صفحة الماء ٠ واستمرت الأمطار تهطل فى غزارة ، فعلا الفيضان حتى غمر الأرض الى مسافات بعيدة ، وأغرق «الشيريجوانيين» عن آخرهم عدا ورقة نبات الماتى التى كان يطفو فوقها الطفلان ٠ على أن المطر كف عن السقوط بعد ذلك ، وانخفض الفيضان ٠ تاركا وراءه كتلا من الطين ٠ وعند ذاك ترك الطفلان قاربهما الصغير ، لأنهما لو كانا قد ظلا يطفوان فوقه ، لكانا قد هلكا من البرد والجوع ٠ ومن الطبيعى أن الطوفان لم يغرق السمك وسائر الحيوانات المائية ، بل انها ظلت تسبح فى الماء ، وأصبحت ملائمة لأن تكون طعاما شهيا للطفلين ٠ ولكن كيف كان يتسنى للطفلين أن يطهيا السمك الذى اصطاداه ؟ هذه كانت مشكلتيهما ، لأن كل النيران كانت قد خمدت بســبب الطوفان ٠ على أن الضـفدع البرى جاء لنجدتهما فى اللحظة الحاسمة ٠ وقد كان هذا الحيوان الحكيم قد اتخذ حيطته قبل أن يغرق الطوفان الأرض ، ولجأ الى جحر بعد أن أخذ فى فمه بعض قطع الفحم المتقدة ، وظل ينفخ فيها طوال الوقت حتى تظل مشتعلة٠ فلما رأى أن سطح الأرض قد جف مرة أخرى ، قفز من جحره والفحم المتقد فى فمه ، وجاء مباشرة الى الطفلين وقدم لهما هدية النار ٠ ومن ثم

تمكن الطفلان من شواء السمك واستدفأ جسماهما المرتعشان من البرد ٠ وكبر الطفلان على مر الزمن وأنجبا أطفالا تناسلت منها قبيلة « تشيرينجوانو » بأسرها ٠٠

ويحكى أهالى « تيراديل نيجو » التى تقع فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية حكاية غريبة وغامضة عن الطوفان الكبير ٠ فهم يقولون : ان الشمس غطست فى الماء ففاضت المياه بشدة حتى أغرقت الأرض جميعا عدا جبلا واحدا شاهقا للغاية ٠ والى هذا الجبل لجأ قلة من الناس استطاعت أن تنجو من الطوفان ٠

١٣ ـ حكايات عن طوفان كبير فى أمريكا الوسطى والمكسيك :

وقد عرف الهنود الذين سكنوا بالقرب من « باناما » حكاية طوفان نوح على نحو ما ، وقالوا أن رجلا واحدا هرب من هذا الطوفان فى مركب مع زوجته وأولاده ٠ وقد تناسل الجنس البشرى كله من هذه الأسرة وعمر الأرض » كما اعتقد هنود « نيكاراجوا » أنه بعد أن تمت عملية خلق الكون ، ابتلى العالم بطوفان أصابه بالدمار ، فاضطرت الآلهة أن تخلق الانسان والحيوان مرة أخرى » ٠

ويقول المؤرخ الايطالى « كلافيجيرو » ، « ان المكسيكيين ، شأنهم شأن الأمم المتحضرة الأخرى ، لهم تراثهم الروائى الواضح عن خلق العالم ، وعن الطوفان الذى أغرق العالم ، وعن اختلاط الألسنة وتفرق الناس ، وان يكن هذا التراث ينحو منحى خرافى ٠ وقد صور المكسيكيون كل هذه الحوادث بحق فى فنهم التصويرى ٠ فقد رووا أن الطوفان أغرق الجنس البشرى كله ، ولم ينج منه سوى رجل واحد كان يدعى «كوكس كوكس» ، (ويطلق عليه البعض اسم « تيوسيباكتيلى ») وامرأة واحدة تدعى « اكسوشيكوتزال » ٠ وقد نجا هذان من الطوفان بعد أن لجآ الى مركب صغير ذى ثلاثة صوار ٠ وبعد أن استقر هذان على قمة جبل يسمى جبل « كولهواكان » أنجبا أولادا ، ولكنهم كانوا جميعا مصابون بالصمم ٠ وظلوا على هذا النحو حتى جاءهم طائر من شجرة عالية ، وحمل اليهم لغات كانت مختلفة كل الاختلاف الى درجة أنه لم يكن بعضهم يفهم البعض الآخر ٠ وقد ادعى « التلاسكالانيون » أن الناس الذين نجوا من الطوفان مسخوا فى شكل قردة ولكنهم أخذوا يستعيدون بعد ذلك لغتهم ومداركهم تدريجيا ٠

وقد رويت كذلك عن أهالى « ميشوواكان » وهو اقليم فى المكسيك، حكاية عن الطوفان ذكر فيها أن رجلا كان يدعى « تيزبى » لجأ الى سفينة كبيرة مع زوجته وأولاده عندما بدأ الطوفان يفيض على البلاد ، وأخذ معه عددا من الحيوانات وكمية من الحبوب تكفى لتزويد الحيـاة بالخير بعد انتهاء الطوفان · وبعد أن انحسر الماء ، أطلق الرجل نسرا فى الفضاء · فلما صادف النسر رمما أثارت شهيته ، لم يعد الى السفينة مرة أخرى · فأطلق الرجل طيورا أخرى ، ولكنها لم تعد كذلك · وفى النهـاية أطلق طائرا طنانا ، فعاد وفى منقاره فرع أخضر · ومن الواضح تماما أن اطلاق الطيور خارج السفينة بعد انتهاء الطوفان ، يعد أثرا لحكاية نوح وارساله الغراب والحمـامة ، تلك الحكاية التى ربما سمعها الأهالى عن المبشرين الأجانب ·

وكذلك يروى الهنود « الهويشوليون » الذين يسكنون المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من « سانت كاترينا » فى غرب المكســيك أسطورة عن الطوفان · فهم يقولون ان هنديا من قبيلتهم كان يقطع الأشجار ليعد حقلا للزراعة ، ولكنه كان يصاب بكدر فى اليوم التالى عندما يجد أن الاشجار التى قطعها بالأمس قد نمت مرة أخرى على النـحو الذى كانت عليه · فاستشاط الرجل غضبا ، كما أنه مل هذا العمل الذى لم يكن يؤدى الى نتيجة · ولكنه قرر فى اليوم الخامس أن يعاود المحاولة ، وأن يستكشف حقيقة هذا الأمر · وفى الحال برزت له امرأة عجوز من وسط الغابة تحمل فى يدها عصا · ولم تكن هذه المرأة سوى «الأم الكبرى ناكاوى» ، وهى الهة الأرض التى تنبت كل نبات أخضر من باطن الأرض المظلم · على أن هذا الرجل لم يكن يعرفها · وأخذت المرأة العـجوز تشير بعصاها ذات اليمين وذات الشمال ، والى أعلى والى أسفل · وفى الحال نهضت الأشجار الهاوية وانتصبت كما كانت · وعند ذاك أدرك الرجل السـبب فى نمو الأشجار مرة أخرى ، رغم كل محاولاته فى ازالتها وتطهير الأرض منها · وعند ذاك قال الرجل لتلك المرأة فى غضـب : « أأنت اذن التى تضيعين جهودى هباء طوال الوقت ؟ » فأجابته المرأة قائلة : « نعم أنا الذى أفعل هذا ، لأننى أود أن أتحدث اليك » · ثم أخبرته أنه يقوم بعمل لا جدوى وراءه » لأن هناك فيضانا كبيرا سوف يغمر الأرض فى خلال خمسة أيام على الأكثر · وسوف تصحب الطوفان رياح حادة حدة الفلفل الحار وتسبب لك السعال · فاصنع لك تابوتا من خشب شجرة التين فى قدر قامتك واجعل له غطاء محكما · ثم خذ معك خمس حبات من الذرة من كل لون ،

ومثلها من البقول ، وخذ معك كذلك شعلة من النار ، وخمسة فروع من الغضا لتغذيتها ، وخذ أيضا كلبة سوداء » • وفعل الرجل ما نصحته به المرأة ، وفى خلال خمسة أيام كان قد أعد الصندوق ووضع فيه الأشياء التى ذكرتها له المرأة ، ثم دخل الصندوق بصحبة الكلبة السوداء • وعندذاك غطت المرأة الصندوق وسدت شقوقه بالغراء ، وطلبت منه أن يشير الى الشقوق التى يراها من الداخل حتى تسدها بالغراء كذلك قبل أن يطفو الصندوق فوق الماء • وبعد أن أحكمت المرأة طلاء الصندوق بحيث لم يعد ينفذ فيه الماء والهواء ، صعدت الى سطحه وجلست فوقه بعد أن وضعت ببغاء على كتفها • وظل الصندوق يطفو فوق سطح الماء على هذا النحو طيلة أعوام خمسة : ففى العام الأول طفا جهة الجنوب ، وفى العام الثانى طفا جهة الشمال ، وفى الثالث طفا جهة الغرب وفى الرابع طفا جهة الشرق • فلما كان العام الخامس استقر الصندوق فوق الماء بعد أن غمر الطوفان الأرض جميعا • وفى العام التالى لذلك انحسر الطوفان ، ورسا الصندوق على جبل بجوار « سانتا كاترينا » حيث لايزال يمكن رؤيته حتى اليوم • وعند ذلك رفع الرجل غطاء الصندوق فوجد أن الأرض مازال يغرقها الطوفان • على أن الببغاوات بدأت تعمل فى همة فى نقر الجبال بمناقيرها حتى حفرت فيها أودية تدفقت اليها المياه التى تشعبت الى خمسة بحور • فلما جفت الأرض ، أخذت الأشجار والحشائش تنمو مرة أخرى ، أما المرأة فقد تحولت الى ريح واختفت • واستأنف الرجل عمله الذى كان قد اعترضه الطوفان وأخذ يقتلع الأشجار لكى يعد حقلا للمزراعة ، وهناك عاش مع الكلبة فى كهف واحد ، فكان يخرج كل صباح الى العمل ويعود الى كهفه فى المساء • أما الكلبة فلم تكن تغادر الكهف طول الوقت • وعندما كان يعود الرجل الى بيته كان يجد الكعك معدا له ، فدفعه الشغف لأن يعرف صانع هذا الكعك • وبعد مضى خمسة أيام ، اختبأ وراء بعض الشجيرات بجوار الكهف وأخذ يراقب ما يحدث • فرأى أن الكلبة خلعت جلدها وعلقته ، وركعت وهى فى هيئة امرأة وأخذت تطحن الحب لتصنع منه الكعك • فاقترب الرجل خلفها خلسة وانتزع الرداء ورماه فى النار • فصرخت المرأة وأخذت تعول كالكلاب وهى تقول : الآن ، « لقد حرقت ردائى » • ولكن الرجل أخذ بعض الدقيق الممزوج بالماء الذى كانت المرأة قد أعدته للكعك ، وغسل لها رأسها فيه • فشعرت المرأة بانتعاش وظلت امرأة كما هى منذ ذلك الوقت • وتزوجها الرجل وأنجب منها أولادا كثيرين تزوجوا بعد ذلك • وبذلك عمرت الأرض بالناس الذين سكنوا الكهوف •

ويحكى « الهنود الكوراويون » ، وهم قبيلة تدين بالمسيحية اسما وتتاخم حدودها حدود « الهويشوليون » فى الغرب ، حكاية شبيهة بالحكاية السالفة ، اذ وردت فيها حادثة قاطع الأخشاب الذى حذرته امرأة من حدوث الطوفان ، والذى تزوج كلبة تحولت الى امرأة بعد أن انحسر الطوفان · ووجه الاختلاف بين الروايتين هو أن الرجل فى الرواية الثانية طلب منه أن يأخذ معه فى السفينه طائر النقار ، وطائر زمار الرمل وببغاء الى جانب الكلبة · وعندما بدأ الطوفان ، استقل الرجل سفينته عند منتصف الليل · فلما انحسر الطوفان ، مكث الرجل فى السفينة خمسة أيام أخرى ، وأرسل زمار الرمل ليرى ما اذا كان من الممكن السير على الأرض · فطار الطائر رعاد وهو يصرخ « أى – وى – وى » · ففهم الرجل من عبارة الطائر أن الأرض لا تزال مبتلة فانتظر خمسة أيام أخرى ، ثم أرسل طائر النقار ليرى ما اذا كانت الأشجار قد جفت وتماسكت فطار الطائر ووقف على شجرة ، ودفع منقاره فى خشبها وأخذ يهز رأسه يمنة ويسرة ، ولكن الخشب كان مبتلا بالماء بحيث انه لم يستطع أن ينتزع منقاره من الخشب · وأخيرا شد منقاره فى عنف الى درجة أنه فقد توازنه وسقط على الأرض · ثم عاد الى السفينة وهو يصيح « تشو – بى تشو بى » · ففهم الرجل من عبارته أن الأرض لا تزال مبتلة · فانتظر خمسة أخرى أطلق من بعدها زمار الرمل المرقط · وكانت الأرض قد جفت هذه المرة بحيث لم تغص أرجل الطائر فى الطين ، فعاد وأخبر الرجل بأن كل شىء أصبح على ما يرام· فترك الرجل السفينة وخطا بحذر خارجها حتى اطمأن الى أن الأرض أصبحت مستوية وجافة ·

وفى رواية أخرى تروى عن « الهنود الكورايين » وتقع فى مقتطفات هرب الذين نجوا من الطوفان فى قارب · فلما انحسر الطوفان ، أطلق الاله النسر ليرى ما اذا كانت الأرض قد جفت · ولكن النسر لم يعد الى القارب لأنه انشغل بافتراس أجساد الغرقى · فغضب الآله من فعلة النسر ، وأحل به اللعنة ، فجعل لونه أسود بعد أن كان أبيض ، ولم يترك له سوى علامة سوداء فى طرفى جناحيه حتى يتعرف الناس منها على اللون الذى كان عليه قبل حدوث الطوفان · ثم أرسل الاله بعد ذلك حمامة مطوقة لكى تستكشف أحوال الأرض · فعادت الحمامة وأخبرته بأن الأرض قد جفت وان كانت الأنهار لا تزال تفيض · عند ذاك أمر الاله صنوف الحيوان أن تبتلع المياه · فجاءت الطيور والحيوانات جميعا لتشرب من المياه ، عدا الحمامة الباكية (بالوما الورونا) التى تخلفت عنها · ولهذا

فان هذه الحمامة لا تزال تخرج كل يوم عند المساء لتشرب ، لأنها تخجل من أن يبصرها أحد وهي تشرب في وضح النهار ، أما طوال اليوم فهي تنوح وتبكي • ويبدو أن موضوع الطيور فيهذه الأساطير الكوراييبة ، وبصفة خاصة ذلك الذى يحكى عن دور النسر والغراب فى هذه الحادثة ، يكشف بوضوح عن تأثير آلتعاليم التبشيرية •

١٤ ـ حكايات عن الطوفان الكبير فى أمريكا الشمالية :

ويحكى « البابا جو » الذين يسكنون فى جنوب غرب « أريزونا » أن « الروح الكبير » خلق الأرض وسائر الكائنات الحية قبل أن يخلق الانسان • ثم هبط الى الأرض وأخذ يحفر فى الأرض فعثر على بعض الأوانى الفخارية ، فحملها معه الى السماء وجعل يقذفها من عل فى الحجر الذى كان قد حفره • فجاءه البطل « مونتيزوما » عى الفور كما جاءت القبائل الهندية تباعا لمعاونته • وأخيرا جاء « الأباتشيون » يسرعون الخطى وهم فى هيئتهم على نحو ما خلقوا • فى هذه الأيام الأولى لخلق الكون كان الناس يعيشون فى سعادة وسلام • وقد كانت الشمس آنذاك أقرب الى الأرض مما هى الآن • ولذلك فقد كانت فصول السنة متساوية ، كما كان الناس فى غير حاجة الى الملابس • وقد كان الناس والحيوانات يحد بعضهم بعضا ، اذ جمعت بينهم لغة واحدة فى رباط من الأخوة • ثم حدثت بعد ذلك كارثة مفزعة وضعت حدا لهذه الأيام السعيدة ؛ فقد حل بالأرض طوفان أغرق كل كائن حى فيما عدا البطل « مونتيزوما » وصديقه الذئب اللذين تمكنا من الهروب • ذلك أن الذئب كان قد تنبأ بحدوث الطوفان قبل وقوعه ، وأخبر « مونتيزوما » بذلك فصنع الأخير مركبا ووضعه معدا للطوارىء على قمة جبل « سانتاروزا » ، وكذلك صنع الذئب قاربا له ، بأن أخذ يقضم قصبة من الخيزران عند شاطىء النهر ودخل فيها بعد أن طلاها بالمطاط • فلما أخذت المياه ترتفع استقل كل منهما مركبه وبذلك أنقذا • فلما انتهى الطوفان تقابلا على الأرض الجافة • ولما كان الرجل شغوفا لأن يعرف حجم الأرض التى جفت ، فقد أرسل الذئب ليستعلم له عن هذا الأمر • وبعد فترة عاد وأخبره بأنه لم يجد أثرا للماء جهة الشمال على الرغم من أنه أخذ يتجول حتى أعياه التعب ، فى حين أنه رأى البحر جهة الشرق والغرب والجنوب • وفى هذه الأثناء كان الروح الكبير قد عمر الأرض بمساعدة « مونتيزوما » بالانسان والحيوان •

وتحكي قبيلة « بيما » ، وهي قبيلة مجاورة « للباباجويين » وترتبط بهم بصلة قرابة ، أن شخصا بعينه يدعى « تشيووتماهكى » ومعنـــاه « نبى الأرض » ، خلق الأرض والانسان · وكان لهذا الخالق ولد يدعى « سيزويكها » كان يعيش في وادى « جيلا » ، بعد أن أصبحت الأرض تغص بالناس · وكان يسكن في هذا الوادى نفسه وفي ذلك الوقت بعينه، نبى عظيم نسى اسمه فيما بعد · وذات ليلة بينما كان هذا النبى نائما ، سمع صوتا خارج بابه أيقظه من نومه · فلما فتح الباب لم يجد أمامه سوى نسر كبير خاطبه قائلا : « هيا استيقظ وانظر حولك · فلقد حــل الطوفان بالأرض » · ولكن النبى ضحك مستهزئا به ، ولف رداءه حوله ونام مرة أخرى · ومرة أخرى جاءه النسر وحذره ، ولكنه لم يعبأ به · وأعاد الطائر المتعب عليه تحذيره للمرة الثالثة ، وأخبره أن وادى «جيلا» سوف يغرقه الطوفان ، ولكن هذا التحذير كله لم يجد عند الرجل آذانا صاغية · وفي هذه الليلة نفسها بدأ الطوفان يغرق الأرض · وفي اليوم التالى لم يكن هناك وجود لأى كائن حى عدا رجلا واحدا ، ان كان يعــد رجلا بحق ، لأنه كان « سيزويكها » ابن الخالق الذى أنقذ نفسه بأن طفا على كرة من المطاط أو الراتنج · فلما انخفض الطوفان رسا بقاربه بالقرب من منبع نهر الملح حيث أقام في كهف على الجبل · ولا يزال هذا الكهف موجودا حتى اليوم ، وكذلك العدد التى كان « سيزويكها » يستخدمها في حياته · وعلى الرغم من أن النسر الكبير حذر « سيزويكها » قبل وقوع الطوفان حتى ينجو بحياته ، الا أنه غضب من النسر كل الغضب لسبب أو لآخر · ومن ثم فقد تسلق الجبل بحبل بعد أن انتهى الطوفان ، حتى وصل الى مكان النسر وقتله في وكره · ثم أبصر في هذا الوكر ومن حوله عددا هائلا من أجساد بشرية متراكمة عفنة ، كان النسر قد حملها الى وكره وانهال عليها يفترسها · فأعاد « سيزويكها » الحيـــاة الى هذه الأجساد وعمر بها الأرض ·

أما « الهنود الأكاجشيميون » الذين يسكنون بالقرب من « سانت جوان كابســترانو » في كاليفورنيـــا « فلم يكونوا يجهلون كلية حكاية الطوفان الذى أصاب العالم · على أننى لم أستطع أن أتبين على الاطلاق كيف وصلتهم هذه الحكاية بعينها ومن أى مصدر سمعوها · والى هذه الحكاية تشير بعض أغانيهم · وهم يروون أن البحر فاض في زمن بالغ في القدم وأغرق السهول وملأ الوديان حتى غطى الجبال · ومن ثم فقد هلك الجنس البشرى كله وصنوف الحيوان ، ولم ينج من هؤلاء جميعا سوى عدد قليل

من الناس والحيوان الذين كانوا قد لجأوا الى جبل شاهق لم تصل اليه المياه ٠٠

وكذلك يحكى « الهنود اللويزينيون » الذين يسكنون « كاليفورنيا الجنوبية » حكاية عن طوفان غطى الجبال العالية وأغرق معظم الناس ، ولم ينج منه سوى قليل من الناس كانوا قد لجأوا الى أكمة تقع بالقرب من « نونسال » ٠ وقد كان الأسبانيون يسمون هذا المكان « مورا » ، أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » ٠ وقد غرق هذا المكان بأكمله تحت سطح الماء فيما عدا هذه الأكمة التى أقام فيها الهنود حتى انحسر الطوفان ٠ ويمكنك أن ترى حتى هذا اليوم على قمة التل الصغير أكواما من أصداف البحر والقش والرماد والأحجار بعضها بجانب بعض ، وهى تشير الى المكان الذى كان يطهو فيه الهنود طعامهم ٠ أما الأصداف فهى أصداف السمك الصدفى الذى كانوا يأكلونه ، وأما الرماد والأحجار فقد تخلفت عن مواقدهم ٠ ويضيف الكاتب الذى حكى هذه الرواية فيقول : « وتحتوى التلال القريبة من « ديل مار » ، وأماكن أخرى تقع بمحاذاة الساحل على أكوام كثيرة هائلة من أصداف البحر من النوع الذى مازال موجودا على الشاطىء ٠ وما زال « اللويزونيون » يغنون أغنية الطوفان التى يرد فيها ذكر أكمة « كاتوتا » ٠

وقد حكت امرأة هندية من قبيلة « سميث ريفر » التى تسكن فى « كاليفورنيا » ، الرواية التالية عن الطوفان : لقد هطلت مياه غزيرة فى زمن من الأزمنة ، وظلت تهطل حتى غمرت الوديان ٠ ولجأ الهنود الى النجاد المرتفعة ٠ ولكن المياه ظلت ترتفع حتى أغرقت هؤلاء الهنود جميعا عدا رجلا وامرأة تسلقا الى أعلى قمة وبذلك نجيا من الغرق ٠ وقد عاش هذان على السمك بعد طهيه تحت ابطيهما ، اذ لم يتمكنا من اشعال النار لأن كل شىء كان مبتلا للغاية ٠ وبعد ذلك أخذت المياه فى الانخفاض بعد أن أغرقت كل من عليها عدا هذا الرجل وتلك المرأة اللذين تناسل عنهما كل الهنود الذين يعيشون اليوم على وجه الأرض ٠ وقد تحولت أزواج الهنود الذين غرقوا فى الطوفان الى غزلان ودببة وثعابين وحشرات وأيائل وغير ذلك من صنوف الحيوان التى عمرت بها الأرض كما عمرت بالانسان ٠

وقد كانت حكاية الطوفان تروى ، وفقا لقول « دى براتز » مؤرخ « لويزايانا » الفرنسى المتقدم ، بين قبيلة « ناتشيز » ، وهى قبيلة هندية كانت تسكن عند أعالى نهر المسيسبى ٠ فيخبرنا هذا المؤرخ بأنه سأل حارس المعبد الذى يحتفظ فيه فى ورع دينى ، بالنار المقدسة مشتعلة على

الدوام ، عن موضوع الطوفان ، فأخبره بأن الكلمة القديمة علمت الهنود الحمر جميعا أن كل الناس على وجه التقريب غرقوا فى الطوفان ، سوى عدد قليل منهم لجأوا الى جبل شاهق للغاية • وفيما عدا هذا فهو لايعرف شيئا عن هذا الموضوع سوى أن الذين أنقذوا عمروا الأرض من بعد » •
ويضيف « دى براتز » الى هذا قائلا « وحيث اننى قد استمعت لهذا القول نفسه من شعوب أخرى ، فقد دفعنى هذا لأن أتأكد من أن كل الأهالى كانوا ينظرون الى هذه الحادثة النظرة نفسها » وأنهم لم يحتفظوا بأية ذكرى لطوفان نوح • ولم أتعجب لهذا الأمر كثيرا ، حيث ان الاغريق أنفسهم ، رغم علمهم الواسع ، لم تكن معلوماتهم حول هذا الموضوع أفضل من معلومات هذه الشعوب • بل اننا نحن لم نكن لنعرف أكثر منهم ، لو لم نقرأ عن هذا الموضوع فى الكتابات المقدسة » • ثم يحكى المؤرخ الفرنسى الرواية اللويزيانية فى مكان آخر بطريقة أكثر اكتمالا فيقول : لقد ذكر الأهالى أن مطرا غزيرا هطل من السماء لمدة طويلة حتى غمر الأرض جميعا عدا جبلا شاهقا لجأ اليه بعض الناس هروبا من الطوفان • ولما كانت النار قد خمدت جميعها من على وجه الأرض ، فان طائرا أحمر اللون يسمى « كويى ـ أوبى » (وهو الطائر الذى يسمى فى « لويزيانا » بالطائر الغرد) أحضر النار من السماء•وقدأدركت من حديث هؤلاء الناس ، أنهم كادوا ينسون كلية الرواية التاريخية عن الطوفان » •
ويروى الهنود « الماندانيون » رواية عن الطوفان الذى هلك فيه الجنس البشرى كله عدا رجلا واحدا هرب فى قارب عند جبل يقع فى الغرب • ومن ثم فان هؤلاء يقومون كل عام بتأدية طقوس معينة فى ذكرى انتهاء الطوفان التى يسمونها « مى ـ نى ـ رو ـ كا ـ ها ـ شا » أى انخفاض المياه أو استقرارها • وتؤدى هذه الطقوس عندما تمتد أوراق الصفصاف امتدادا كاملا على طول شواطىء النهر • وبسبب هذا ، ووفقا لروايتهم « أن الغصن الذى أحضره الطائر كان غصنا من شجر الصفصاف• وأما الطائر الذى أحضر هذا الغصن ، فهو اليمامة أو الحمامة النائحة • وكثيرا ما يقف هذا الحمام عند جوانب أكواخهم المغطاة بالتراب ، دون أن يتعرض له أحد من الهنود لايذائه أو قتله• بل انهم قد مرنوا كلابهم على عدم ازعاجها • وقد كان سكان قرية « مادان » يحرصون على الاحتفاظ بهيكل خشبى يمثل القارب الذى نجا فيه الرجل الوحيد من الطوفان • ويقول الرسام « كاتالين » : ان فى وسط القرية ميدانا يبلغ قطره مائة وخمسين قدما ، يحتفظ به على الدوام خاليا نظيفا بوصفه مكانا شعبيا تقام فيه الأعياد والاحتفالات الى غير ذلك • وحول هذا الميدان تلتف أكواخهم ذات

الشكل المخروطي ويلتصق بعضها بجانب بعض متجهة أبوابها جهة هذا المكان الشعبى • وفى وسط هذا الميدان الذى مهد فأصبح كالرصيف الصلب ، حاجز (اشبه بالبرميل المرتكز على حافته) من الألواح الخشبية ، تحيط به أطواق يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ثمانية أو تسعه أقدام ، ويحافظ عليها الأهالى فى ورع دينى ، ويقومون على صيانتها من عام لآخر حتى تظل نظيفة خاليه من الخدوش والعلامات • وهم يطلقون عليها اسم « القارب الكبير » • ومما لاشك فيه أن هذه الأطواق تعد تجسيدا رمزيا لجزء من تاريخهم الشعبى عن حادثة الطوفان التى يبدو تماما من هذا الهيكل ومن الملامح الأخرى العديدة لهذا الاحتفال الكبير ، أن الأهالى قد عرفوها بشكل أو بآخر ، ويحاولون تخليدها عن طريق تذكير الناس بها بطريقة حية • ويعد هذا الموضع الخرافى ، نظرا لموقعه المتوسط فى القرية ، مكان تجمع الأهالى جميعا • ففيه يقومون بتقديم واجبات التقديس فى المناسبات والأعياد المختلفة والممارسات الدينية طوال السنة » •

وفى الاحتفال السنوى الذى حضره « كاتالين » فى ذكرى حادثة الطوفان ، شخص الرجل الوحيد الذى نجا من الطوفان واسمه « نو – موهك – موك – آ – ناه » فى هيئة مهرج يرتدى جلد ذئب أبيض يتدلى على كتفيه ، بينما يغطى رأسه بغطاء زاه لجلدى غرابين ، ويحمل فى يده اليمنى غليونا طويلا • ويدخل هذا المهرج القرية من جهة المروج ويقترب من مكان العلاج أو كما يعرف بالمكان السرى • وهو يملك وسائل فتح هذا المكان الذى يحكم اغلاقه طوال السنة ، ولا يفتح الا من أجل تأدية الطقوس الدينية • ثم يتجول هذا المهرج طوال اليوم فى القرية ، ويقف أمام كل كوخ ويصيح حتى يفتح له صاحب الكوخ ويسأله عمن هو ، وعن سبب مجيئه • وعند ذاك يجيبه برواية حكاية الكارثة المحزنة التى أغرق فيها الفيضان الأرض ويقول : « انه الشخص الوحيد الذى نجا من هذه الكارثة التى انتابت العالم وأنه رسا بسفينته الكبيرة على جبل شاهق يقع جهة الغرب ، وهو ما زال يقيم هناك وقد جاءهم فى هذا اليوم ليفتح مكان العلاج • ومن ثم فهو فى حاجة لأن يقدم له صاحب كل كوخ آلة حادة هدية لتقدم ضحية للماء ، لأنهم ان لم يفعلوا هذا فسوف تصاب الأرض بطوفان آخر لن ينجو منه أحد كما نجا صاحب السفينة الكبيرة التى صنعت ذات يوم بمثل هذه الآلات الحادة » • وبعد أن يزور هذا المهرج كل كوخ فى القرية طوال اليوم ، ويتسلم من صاحب كل كوخ سكينا أو فأسا أو أية

آلة حادة أخرى ، يضع هذه الأشياء فى مكان العلاج حيث تترك هناك حتى عصر اليوم الأخير من الاحتفال · وفى نهاية الطقوس ترمى هذه الآلات فى أعماق النهر من شاطىء يرتفع ثلاثين قدما فى حضرة أهل القرية جميعا · « وهذه الآلات تقدم بدون شك ضحية لروح الماء ، ومن ثم فهى لا تسترد مرة أخرى » · ومن بين طقوس الاحتفالات التى يقوم بها «الماندانيون» فى عيد الربيع ، رقصة الثيران ، ويرقصها رجال متنكرون فى هيئة الجاموس، والهدف من هذه الطقوس أن تمدهم الطبيعـة بنتاج وافر من الجاموس فى العام التالى · وفضلا على هذا فان الشباب يعرض نفسه اختيارا لأنواع من العذاب المبرح حتى يرضى عنهم «الروح الكبير» · على أنه لايتضح فى كتابات الكتاب الذين اعتمـدنا عليهم ، الى أى حد تتصل هـذه الطقوس الغريبة الغامضة بحادثة الطوفان ·

وقد كان يسمى هذا الاحتفال عند الماندانيين باسم «أو ــ كى ــ با»· وكان « احتفالا دينيا يقام كل عام · ولم يكن هذا الاحتفال بالنسبة لهذا الشعب الجاهل الذى يؤمن بالخرافات مجرد متعة فى حياتهم ، بل كان جزءا من كيانهم بحق ، ذلك أن تراثهم المروى ، وهو بالنسبة لهم تاريخهم الوحيد ، قد أورثهم الاعتقاد فى أن شعائر هذا الاحتفال تزيد من ثروتهم فى الجاموس الذى يعتمدون عليه فى معيشتهم ، وأن اهمال هذا الاحتفال السنوى بما يتضمنه من تقـديم الضحية للماء ، قد يتسبب فى حدوث الكارثة مرة أخرى ، تلك الكارثة التى حلت بهم ذات مرة ، كما أخبرهم تراثهم المروى ، وأهلكت الجنس البشرى بأسره ، عدا رجلا واحدا استطاع أن يرسو بمركبه على جبـل شـاهق يقع جهة الغرب · على أنه ليس من الغريب أن تسـمع هذه الرواية من قبيلة « ماندان » ، اذ ليست هناك قبيلة من القبائل المختلفة التى زرتها فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو الوسـطى والتى يبلـغ عددها مائة وعشرين قبيلة ـ لم ترو لى حكايات واضحة أو غامضة عن مثل هذه الكارثة التى نجا منهـا شـخص أو ثلاثة أشخاص أو ثمانية ، بأن لجأوا الى الجبال العالية · وبعض هذه القبائل التى تسكن عند سفح الجبال الصخرية وفى سهول «فنزويلا» و « بامبا ديل ساكرامنتو» فى أمريكا الجنوبية ، يحج كل عام الى هـذه القمم الوهمية التى لجأ اليها من أنقذ من الطوفان فى سفينة أو ما أشـبه ذلك ، وهناك يصلون الى «الروح الكبير» ويقدمون له التضحيات وفقا للتعـاليم الملغزة لرجالهم العارفين بأسرار الدين ، حتى يؤكدوا حصانتهم ضد مثـل هذه الكارثة ·

وقد قيل : ان «الهنود الشيروكيين» يروون حكاية عن الطوفان ، مؤداها أن الأرض ظلت غارقة تحت الطوفان حتى هلك الجنس البشرى بأسره عدا اسرة واحدة • وقد كان كلب قد أخبر سيدة بهذه الكارثة قبل حدوثها؛ فقد حدث أن هذا الكلب الحصيف كان يذهب يوما بعد يوم الى شواطىء النهر، حيث يقف ويحملق فى الماء وينبح نباحا مثيرا للشفقة • فلما نهره سيده وأمره أن يعود الى البيت فتح الكلب فاه وحذر سيده من الخطر المحدق به وقال له : « يجب عليك أن تبنى مركبا وتختزن فيه كل ما يمكن أن تدخره ، لأن مياها غزيرة سوف تهطل حتى تغرق الأرض » • ثم ختم الكلب نبوءته بأن أخبر سيده بأن نجاته تتوقف على رمى سيده له هو نفسه ــ أى الكلب ــ فى الماء • ثم رجاه أن ينظر الى خلف رقبته لكى يرى علامة صدق قوله • فنظر الرجل خلف رقبة الكلب فرأى حقا أنها مسلوخة جرداء وقد برز منها اللحم والعظم • وعند ذاك صدق الرجل كلبه ، وعمل بنصيحة هذا الحيوان المخلص وبذلك نجا هو وأسرته التى تناسلت عنها شعوب الأرض التى تعيش عليها اليوم •

وتنتشر حكايات الطوفان الكبير انتشارا واسعا بين الهنود الذين ينتسبون الى أصل «الجونكوين» الكبير • كما أن هذه الحكايات تتشابه مع بعضها البعض فى بعض التفاصيل • فقبيلة «ديلاوارى» وهى قبيلة تنتمى الى أصل «الجونكوين» وكانت تسكن حول خليج «ديلاوارى» ، روت حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا ، ولم ينج منه سوى بعض أفراد قلائل امتطوا ظهر سلحفاة بلغت من الكبر عتيا الى درجة أن ظهرها العظمى أصبح رخوا مثل شاطىء الجدول • وبينما كانوا يطفون فى يأس على ظهر السلحفاة ، طار طائر مائى أمامهم ، فرجوه أن يغطس فى الماء ، ويحضر لهم الأرض الغرقى من أعماق المياه • فغطس الطائر ولكنه لم يهتد الى قاع الماء • فطار بعد ذلك بعيدا ثم عاد وأحضر معه بعض التراب فى منقاره • فسارت السلحفاة فى اثره حتى وصلت الى قطعة من الأرض الجافة • فنزل الناس من على ظهرها وسكنوا هذه الأرض وعمروها المياه •

وكذلك حكى « المونتانايون » وهم مجموعة من القبائل الهندية التى كانت تسكن فى كندا ، وهم ينتمون بالمثل الى أصل «الجونكوين» الكبير، حكت لمبشر يسوعى عاش بينهم فى زمن مبكر ، أن كائنا قويا ، أطلقوا عليه اسم «ميسو» ، أعاد الحياة الى العالم ، بعد أن كان الطوفان قد قضى عليها • فقد خرج «مسو» ذات يوم للصيد ومعه ذئاب بدلا من كلاب

الصيد . فغاصت الذئاب فى بحيرة واختفت . وأخذ «مسو» يبحث عنها فى كل مكان ، حتى أخبره طائر بأنه قد رأى الذئاب الضالة فى عرض البحيرة . فغاص «مسو» فى الماء لينقذها . ولكن البحيرة فاضت حتى غمرت المياه الأرض وأغرقت العالم . فدهش «مسو» لما حدث وأرسل غرابا ليبحث عن كتلة من الطين ليعيد عن طريقها خلق الأرض ، ولكن الغراب لم يجد أثرا لطين . فأرسل بعد ذلك كلب البحر ليقوم بنفس المهمة ، فغاص فى الماء ولم يحضر معه شيئا . وفى النهاية أرسل « مسو » فأر المسك فأحضر معه كتلة من الطين استخدمها فى اعادة خلق الأرض التى نعيش عليها اليوم . ثم صوب سهاما الى سيقان الأشجار ، فتحولت السهام على التوالى أغصان . ثم انتقم بعد ذلك ممن أغرق ذئابه فى البحيرة ، وتزوج فأر المسك وأنجب أولادا تناسلوا فيما بعد وعمروا الأرض .

وفى هذه الحكاية لا نجد ذكرا لانسان . ويمكننا أن نفترض بناء على الدور الذى لعبته الحيوانات فيها ، أن الطوفان حدث فى عصور مبكرة . لم تكن الحياة قد دبت فيها بعد على وجه الأرض . على أن هناك مبشرا كاثوليكيا آخر أخبرنا بعد ذلك بقرنين من الزمان أن «المونتانيين» الذين يسكنون ولاية « خليج هدسون » يروون حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق العالم ، ولم ينج من هذا الطوفان سوى أربعة أشخاص ومعهم بعض الحيوانات والطيور ، وقد لجأوا جميعا الى جزيرة عائمة .

وهناك مبشر كاثوليكى آخر روى الأسطورة المونتانية فى شكل أكثر اكتمالا على النحو التالى : عندما غضب الاله من الشياطين ، أمر رجلا ببناء قارب كبير . وما أن فعل الرجل هذا واستقل بقاربه ، حتى أخذت المياه تفيض من كل جانب والقارب يطفو فوقها ، حتى لم تعد العين تبصر أى أثر للأرض . ولما تعب الرجل من رؤية مساحات المياه الهائلة من حوله ، ومن كلب البحر فى الماء ، فغطس وأحضر معه كتلة من الطين . فأخذ الرجل قطعة الطين فى يده ونفخ فيها ، وفى الحال أخذت قطعة الطين تتضخم . فوضعها على سطح الماء وحال دون سقوطها فيه . وأخذت قطعة الأرض هذه تكبر تدريجيا حتى أصبحت جزيرة . ثم شاء الرجل أن يعرف ما اذا كانت الجزيرة من الكبر بحيث تتسع لاقامته عليها . فأرسل أيلا طاف حولها فى وقت قصير ، ثم عاد اليه ، فعلم الرجل أن الجزيرة ليست متسعة بما فيه الكفاية . ومن ثم أخذ ينفخ على سطحها حتى تكونت فيها الجبال والبحيرات والأنهار . وعند ذاك ترك مركبه وعاش عليها . ويحكى

هذا المبشر نفسه أسطورة عن الطوفان تنتشر بين قبيلة «كرى» وهى قبيلة أخرى تنتمى الى أصل « الجونكوين » الذى يقطن فى كندا • ولـكن هذه الحكاية « الكريبيه » تكشف عن تأثيرات مسـيحية • اذ يروى فيها أن الرجل أطلق من سفينته غرابا فى بادىء الأمر ، ثم أطلق حمامة برية بعد ذلك • أما الغراب فقد تغير لونه فأصبح أسود بعد أن كان أبيض بسبب عدم اتباعه أوامر الرجل • وأما الحمامة فقد عادت والطين عالق بمخالبها، فعرف الرجل من ذلك أن الأرض جفت وبذلك رسا على الأرض •

ويبـدو أن «هـ١٠٠ ماكينزى» • هو الذى دون أسطورة جمـاعة «الجونكوين» عن الطوفان كاملة لأول مرة • وقد أمضى « ماكينزى » جزءا كبيرا من حياته المبكرة بين الهنود «السالتوويين أو التشيباويين» • وهم يكونون فرعا كبيرا قويا من أصل «الجونكوين» • وقد حكى « ماكينزى » هذه الرواية الى النقيب البحرى «و٠هـ٠ هوبر» الذى كان يقيم فى «فورت نورمان» بالقرب من «بحيرة بير» فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى •

كان بعض الهنود يعيش فى زمن من الأزمنة ، ومن بينهم طبيب كبير يدعى «ويس ـ كاى ـ تشاش» • وكان يعيش معهم ذئب وابنان له فى مودة واخاء • وكان «ويس ـ كاى ـ تشاش» ينظر الى الذئب بوصفه أخا له ، كما كان ينظر الى أولاد هذا الذئب بوصفهم أبنـاء أخيه ، ذلك لأنه كان ينظر الى الحيوانات جميعا بوصفها أقرباء له • ثم حدث أن أخذ الجميع يعانون من الجوع فى فصل الشتاء • ومن ثم فقد عزم الذئب على أن ينفصل عن الجماعة مع ولديه حتى يبحث عن طعام • فشاء « ويش كاى تشاش » أن يرافقه ، ورحل الجميع معا • وفى أثناء السير صادفا آثار قدم أيل • فوقف الذئب العجوز والطبيب «ويس» (كما سنسميه اختصارا) عنـد هذا الأثر وأخذا يدخنان ، بينما سار الذئبان الصغيران يقتفيان أثر أقدام الأيل • ولم يعد الذئبان الصغيران بعد مضى وقت ، فسار الذئب الأب مع «ويس» ليبحثا عنهما • وسرعان ما أبصرا أثر دماء على الثلج • فعلما من ذلك أن الأيل قد قتل • ثم تقابلا بعد ذلك مع الذئبين الصغيرين ، ولكنهما لم يجدا أثرا للأيل ، لأن الذئبين الصغيرين كانا قد افترساه • ثم توسل الذئبان الى «ويس» لكى يشعل نارا • فلما فعل ذلك ظهر جسد الأيل وكان مقطعا الى أربعة أقسام • وكان الذئبان قد قطعا الغنيمة الى هذه الأقسام الأربعة ، بعـد أن احتفظ أحدهما لنفسـه باللسان ، والآخر بشفة الأيل العليا ، وهما الجزءان الرئيسيان الشهيان فى هذا الحيوان • ولما اعترض

«ويس» على هذه القسمة « قدم الذئبان هذين الجزءين له · وبعد أن أكل كل نصيبه تطوع أحد الذئبين أن يصنع لهم حساء دسما من عظام الحيوان المهشمة · على أنهم سرعان ما أحسوا بالجوع بعد أن هضم هذا الطعام · فاتفقوا على أن يفترقوا مرة أخرى · فرحل الذئب الكبير فى هذه المرة مع أحد أبنائه ، ورحل «ويس» مع الابن الآخر ·

ثم تترك الحكاية الحديث عن الذئب الكبير ، وتحـــكى عن مصير «ويس» وابن أخيه الذئب · فقــد حدث أن قتـــل الذئب الصغير بعض الغزلان وابتلعها ثم تقيأها كما هى عند وصوله ، وأخبر عمه أنه لم يستطع أن يصطاد من الوحوش أكثر من ذلك · فجلس «ويس» طوال الليل يصنع الدواء أو يستخدم التعاويذ · وفى الصباح توسل الى ابن أخيه أن يخرج للصيد ، ولكنه حذره أن يحرص على أن يضع عصا عبر أى واد أو مكان أجوف قبل أن يعبر هو نفسه ، والا فســوف تلحق به بعض الشرور · فرحل الذئب · وفيما كان يجرى وراء غزال ، نسى أن يتبع تعليمات عمه· فلما حاول أن يقفز عبر مكان أجوف سقط فى نهر ومات على الفور وابتلعته حيوانات الماء · ولم يذكر القاص شيئا عن طبيعة هــذا الحيوان ، ولكنه اكتفى بذكر أن الذئب الصغير قد قتل وابتلعته هذه الكائنات · وبعد أن انتظر «ويس» عودة الذئب الصغير فترة طويلة ، خرج ليبحث عنه · فلما وصل الى المــكان الذى قفز عنده الذئب ، أدرك توا أن الذئب قــد أهمل نصيحته ، ولهذا فقد سقط فى الماء · ثم أبصر «ويس» طائر القاوند يجلس بأعلى شجرة ويحملق بشدة فى الماء · فلما سأله عن هذا الشىء الذى ينظر اليه بهذا الاهتمام ، أجاب الطائر بأنه ينظر الى جلد ابن أخى «ويس» الذى يستخدم الآن مساحة للأرجل عند بيت الحيوانات المائية التى ابتلعته · اذ لم تكتف هذه الحيـــوانات القاسية بقتل هذا الذئب وابتـــلاعه ، بل أضافت الاساءة الى جريمتها فاستخدمت جلد الذئب على هـــذا النـــحو الوضيع · فأسدى «ويس» الشكر للطائر على المعلومات التى قدمها له ، وذلك بأن طلب منه أن ينزل اليه ، وأخذ يمشـــط له رأسه ويصنع له طوقا من الريش حول رقبته · ولكنه قبل أن يفرغ من عمله ، طار الطائر· وهذا هو السبب فى أن طائر القاوند لا يحيط رقبته سوى جزء من الشعر خلف الرأس · على أن طائر القاوند أسدى الى «ويس» نصيحة قبل رحيله، وقال له : ان هذه الحيوانات المائية كثيرا ما تخرج من الماء وتستلقى على الشاطىء ، فان شاء أن ينتقم منهـــا ، فعليه أن يحول نفسه الى كتلة من الخشب ويستلقى بجـــانبها ، وأن يكون حريصا كل الحرص على أن يكون جسمه متصلبا للغاية ، حتى لا تشده الضفادع والثعـــابين التى لا بد أن

ترسلها الحيوانات المائية لكى تزحزحه من مكانه · وبعد أن استمع «ويس» لهذه الارشادات عاد الى خيمته وأخذ يعاود تعاويذه · كما أنه أعد كل ما يلزمه لهذه المغامرة ، ومن بينها قارب كبير يسع كل الحيوانات التى تستطيع العوم ·

وقبل أن تشرق الشمس ، كان «ويس» قد أعد عدته واستقل مركبه مع الحيوانات المذكورة آنفا · ثم أخذ يجدف فى هدوء حتى وصل الى مقربة من الحيوانات المائية · وعند ذاك أرسى مركبه عند نتوء فى البحر ، ونزل من المركب وحول نفسه الى كتلة من الخشب وأخذ ينتظر ، وهو على هذا النحو المصطنع،ظهور الحيوانات المائية · وسرعان ماظهر حيوان أسود أخذ يزحف حتى استلقى على الرمل · ثم أعقبه حيوان رمادى اللون فعل ما فعله الحيوان الأسود · وأخيرا أطل الحيوان الأبيض الذى كان قد قتل الذئب الصغير ، برأسه من الماء · ولما أبصر كتلة الخشب تسرب الشك الى نفسه وصاح بأخويه وقال لهما : انه لم يبصر كتلة الخشب هذه من قبل · ولكنهما ردا عليه فى غير اكتراث بأن هذه الكتلة الخشبية لابد أنها كانت موجودة فى هذا المكان على الدوام · ولكن الحيوان الأبيض الحذر الذى كان الشك ما زال يساوره ، أرسل الضفادع والثعابين لكى تزحزح كتلة الخشب · ولكن «ويس» قاوم بشدة حتى يحتفظ بانتصابه،ونجح فى ذلك· عند ذاك خمد شك الحيوان الأبيض ، واستلقى على الرمل ونام · أما «ويس» فقد انتظر بعض الوقت ، ثم عاد الى شكله الأصلى ، وأخذ رمحه وزحف فى بطء الى الحيوان الأبيض · وقد كان طائر القاوند قد نصح «ويس» أن يصوب رمحه نحو ظل الحيوان والا فشلت محاولته · ولكن «ويس» نسى هذه النصيحة ، وصوب سهمه نحو جسم الحيوان مباشرة ، فأخطأ الهدف واندفع الحيوان أثر ذلك الى الماء · وكانت لدى « ويس » فرصة أخرى لكى يضربه ، وفى هذه المرة صوب سهمه نحو ظله فأصاب الحيوان نفسه بجرح بالغ · ومع ذلك فقد حاول الهروب الى الماء وتبعه أخواه · وفى الحال بدأ الماء يفور ويرتفع فى الوقت الذى استقل فيه «ويس» مركبه وسار به فى أقصى سرعة · وأخذت المياه ترتفع حتى غطت الأرض والأشجار والتلال · أما مركب « ويس » فقد أخذ يطفو على سطح الماء · ولما كان «ويس» قد جمع فى مركبه كل الحيوانات التى لا تستطيع العوم ، فقد أخذ يجمع هذه المرة الحيوانات التى كانت تسبح من حوله وهى تصارع هذا التيار المائى الجارف ·

وقد فات «ويس» وهو منشغل فى تلاوة تعاويذه لمواجهة الأخطار المحدقة به ، أن يفكر فى طريقة عاجلة يسترجع بها الأرض بعد أن أغرقها

الطوفان • ولم يكن لديه أى قدر من التراب ، ولا حتى ذرة منه تصلح أن تكون نواة لارض جديدة تتكون من بقـايا الارض الغرقى تحت المياه • فلما تذكر هذا الموضـوع ، شرع فى الحصول على كمية من الطين فربط خيطا فى رجل طائر ، « آكل السمك » وطلب منه أن يحاول أن يسبر غور الماء وأن يثابر على ذلك ، ولو أدى هذا الى هلاكه • ثم قال له : « لاتفكر فى أمر غرقك ، لأنك اذا غرقت ، ففى وسعى أن أعيد اليك الحياة فى يسر • فشجع هذا القول الطائر واندفع فى الماء كما يندفع الحجر ، وجرى معه الخيط الذى كان «ويس» ممسكا بطرفه • فلما كف الخيط عن الجريان شد «ويس» الخيط من الماء ، واذا بالطير قد مات وهو مربوط فى نهايته• فأعاد «ويس» الحياة اليه فى بطء • وعند ذاك أخبره الطائر أنه لم يهتد الى قاع الماء •وبعد ذلك أرسل «ويس» كلب البحر ليقوم بهذه المهمة نفسها، ولكنه لم يكن أسعد حظا من الطائر الأول • وفى المرة الثالثة أرسل حيوان السمور الذى أخبر « ويس » بعد أن مات وبعث للحياة مرة أخرى ، أنه قد غاص حتى وصل الى قمم الأشجار ، ولكنه لم يتمكن من الغوص أبعد من ذلك • وفى نهاية الأمر أرسل «ويس» فأرا ربطه فى حجر ، فغطس الفأر والحجر وارتخى الخيط عن آخره • وعند ذاك شد «ويس» الخيط وكان الفأر ميتا فى طرفه ، ولكنه كان يحمل قطعة من الطين بين أظافره • وكان هذا هو كل ما كان يسعى اليه «ويس» ، فأعاد الحياة بعد ذلك الى الفأر ونشر قطعة الطين حتى تجف ثم أخذ ينفخ فيها حتى تمددت الى حد كبير ، وهو يتصور أن حجم الأرض على هذا النحو كاف لأن يحيا عليها هو ومن معه من صنوف الحيـوان • ثم أرســل الذئب ليستكشف له حجم الأرض • ولكن الذئب عـاد على وجه السرعة وأخبره أن مساحة الأرض صغيرة • فأخذ «ويس» ينفخ فيها فترة طويلة ، ثم أرسل غرابا ليعرف له قدر مساحتها • فلما لم يعد الغراب مرة أخرى ، تأكد «ويس» أن الأرض أصبحت من الاتساع بحيث تكفى الحيـاة عليهـا • وعند ذاك نزل اليها «ويس» ومن معه من صنوف الحيوان ••

وقد دونت لهذه الحكاية رواية أكثر اختصارا من الرواية السالفة ، وتختلف عنهـا بعض الاختـلاف • وهـذه الرواية الأخيرة كان يرويهـا « الأوجيبويون » الذين يسكنون فى جنوب شرق «أونتاريو»(١) • وتجرى

---

(١) مدينة فى ولاية كاليفورنيا وتبعد عن لوس أنجلوس بحوالى خمسة وثلاثين ميلا •

(المترجمة)

هذه الرواية على النـــحو التالى : كان « نينيبوجو » يعيش مع أخيه فى الغابات ، وكان يخرج كل يوم للقنص ، بينما يبقى أخـوه فى البيت • وذات يوم عاد « نينيبوجو » من القنص فى المســاء ولم يجد أخاه فخرج ليبحث عنه ، ولكنه لم يعثر له على أثر • ثم خرج فى صباح اليوم التالى ليواصل البحث عن أخيه • وبينما كان يسير بجوار شاطىء بحيرة لم يبصر سوى طائر القاوند وهو جالس على فرع شـــجرة يتدلى فى الماء • وكان الطائر يحملق باهتمام فى الماء أسفل الشجرة • فسأله « نينيبوجو» قائلا : «علام تحملق فى الماء ؟» ولكن القاوند تظـاهر بأنه لم يسمعه • فقال له «نينيبوجو» : «ان أنت أخبرتنى فسأجعل منظرك جميلا ، اذ أننى سأقوم بتلوين ريشك» • فوافق القاوند على ذلك، وقال له بعد أن لون له ريشه: «اننى أنظر الى شقيق «نينيبوجو» الذى قتلته أرواح المياه وفرشت جلده عند عتبة البـــاب» • فسأله «نينيبوجو» بعـد ذلك : «وفى أى مكان على الشاطىء تستلقى هذه الأرواح لتدفىء نفسها بأشعة الشمس ؟ » فأجاب القاوند : «انها تستلقى على الدوام هناك عند أحد الخلجان حيث الرمل جاف كل الجفاف » •

وعند ذاك ترك «نينيبوجو» طائر القاوند وقرر أن يذهب الى الشاطىء الرملى الذى أرشده اليه الطائر ، وهناك يتحين الفرصة كى يقتـل أرواح الميـاه • وأخـذ بادىء الأمر فى الشكل الذى يتنكر فيه حتى لا تتعرف عليه هذه الأرواح ، وقال لنفسه : « سأحول نفسى الى كتلة خشب قديمة عفنة » • وبالفعل حول «نينيبوجو» نفسه الى هذا الشكل مستعينا بعامود طويل كان يحمله معه على الدوام • فلما خرجت الأسود من الماء لتستدفىء فى الشمس ، أبصر أحدها كتلة الخشب وقال لأحد رفاقه : «لم يسبق لى أن أبصرت هذه الكتلة الخشبية فى هذا المكان ، ولا يمكن أن تكون هى «نينيبوجو» • فرد عليه الأسد الثـانى قائلا : «لا ، بل اننى رأيتهـا من قبل» • عند ذاك قدم أسد ثالث لينظر الى كتلة الخشب ويتأكد منها • فكسر قطعة منها ووجدها عفنة • فاطمأنت الأسود وخلدت الى الراحة • فلمـــا رأى «نينيبوجو» أن الأسود راحت فى سبات عميـق ، هوى على رءوسها بعصاه • وبينما كان يضربها كانت الميـاه ترتفـع • فولى هاربا ولكن الأمواج اقتفت أثره • وبينما كان يجرى والأمواج تلاحقه ، تقابل مع طائر النقـــار الذى أرشده الى جبل تنبت عند قمته شـجرة صنوبر عالية • فتسلق «نينيبوجو» الشجرة ، وأخـذ يصـــنع لنفسه لوحا من الخشب • وما كاد يفرغ من صنعه حتى كانت المياه قد وصلت الى رقبته•

فوضع على لوح الخشـــب زوجا من كل صنف من صنوف الحيوان وطفا الجميع على سطح الماء ٠

وبعد أن سار «نينيبوجو» بقاربه بعض الوقت فوق سطح الماء ، قال لنفسه : « لا أعتقد أن المـاء سوف ينحسر على الاطلاق ، ولذلك كان من الأفضل أن أقوم بخلق أرض جديدة » ٠ فأرسل كلب البحر ليغوص فى الماء حتى القاع ويحضر له قطعة من الطين ٠ ولكن كلب البحر رجع خاوى الوفاض ٠ فأرسل بعد ذلك حيوان الســمور ليقـوم بنفس المهمة ولكنه لم يأت له بشىء كذلك ٠ وفى المرة الثالثة أرسل فأر المسك ليحضر له من قاع الماء قطعة من الطين ٠ فلما رجع وجده قابضاً يده باحكام ٠ فلما فتحها وجــد فيها ذرات من الرمل ، كمـا وجد ذرات أخرى فى فمه ٠ فجمع الذرات بعضها الى بعض وجففها ونفخها فى البـحيرة ببــوقه الذى كان يستخدمه فى نداء الحيوان ٠ فكبرت حبـــات الرمل فى البحيرة وكونت جزيرة ٠ وعنــد ذاك أرسل «نينيبوجو» غرابا ليكتشف مساحة الجزيرة ولكن الغراب طار ولم يعد اليه ٠ فأرسل بعد ذلك الصقر الذى يسرع فى طيرانه أكثر من أى طائر آخر ٠ وبعـــد فترة عاد الصقر ٠ فلمـا سأله «نينيبوجو» عما اذا كان قد رأى الغراب ، أجاب بأنه قد رآه يأكل جيفة عند شاطىء البحيرة» ٠ فأجاب «نينيبوجو» : « من الآن فصاعدا لن يجد الغراب ما يأكله ســوى ما يسرقه » ٠ ثم انتظر «نينيبوجو» بعض الوقت وأرسل «الكاريبو» ليكتشف له حجم الجزيرة ٠ فجاءه وقال له : انها ليست متسعة بما فيه الكفاية ٠ وعند ذاك نفخ «نينيبوجو» مزيداً من الرمل فى البحيرة واكتفى بعد ذلك بهذا القدر من مساحة الأرض ٠

وتحكى قبيـــلة ذوى الأقدام الســـود « بلاك فوت » وهى قبيلة «جونكونيه» أخرى ، كانت تنتشر فى المنحدرات الشرقية لجبال روكى ، وفى البرارى التى تقع عند سفحها ، تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة عن الطوفان الأول الكبير ٠ فهم يقولون : « ان الأرض كانت تغمرها المياه فى بداية الحياة ، وكان « الرجل الشيخ » يطفو مع الحيوانات على ظهر لوح من الخشب ٠ وذات يوم طلب «الرجل الشيخ» من السنور «أن يغوص فى الماء ويحاول أن يحضر معه قدرا من الطين ٠ فغاص «السنور» ومكث فيه وقتا طويلا دون أن يصل الى قاع الماء ٠ ثم قام كلب البحر ومن بعده عجل البحر بهذه المحاولة نفسها ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول الى قاع الماء كذلك ٠ وأخيرا غطس فأر المسك ومكث وقتا طويلا الى درجة أن الرجل الشيخ ظن أنه قد غرق ٠ ولكنه عاد فى النهاية وقد أوشك على الموت ٠

فلما انتشله من الماء ووضعه فوق الرمث ، وجد فى أحد فكيه قطعة من الطين . ومن هذه القطعة خلق « الرجل الشيخ » الأرض ، ثم خلق الناس بعد ذلك » .

ويبدو أن مثل هذه الحكايات تنتشر انتشـــارا كبيرا بين القبائل الهندية التى تسكن فى شمال غرب كندا . ولا تقتصر رواية هذه الحكايات على القبائل التى تنتمى الى الأصل « الجونكوينى » ، وانما تنتشر كذلك بين جيرانهم الشماليين وهم « التينيهيون » أو « الدينيون » ، الذين ينتمون الى أسرة « أثا باسكان » الكبيرة ، وهى أكثر الأسر اللغوية الهندية انتشارا فى أمريكا الشمالية ، فهى تنتشر من ساحل « أركيتيك » الى المكسيك ، كما تنتشر من الباسفيك الى « خليج هدسون » ، ومن « ريو كلورادو » الى منبع نهـر « ريو جراندى » . فقبيلة « كرى » وهى قبيلة جونكوينيه ، تحكى أنه فى بداية الحياة ، كان يعيش ساحر عجوز اسمه «ويساكيتشاك» وكان يصنع المعجزات بتعاويذه . على أن كائنا مهولا من كائنات البحر كان يبغض هذا الساحر وعزم على أن يقتله . فبينما كان الساحر فى عرض البحر على ظهر لوح من الخشب ، ضرب هـــذا الكائن البحر بذيله حتى ارتفعت الأمواج وفاضت المياه وأغرقت الأرض . فأسرع الساحر وصنع لوحا عريضا من الخشب جمع عليه أزواجا من كـل صنف من صـــنوف الحيوان والطيور ، وبذلك أنقذ نفسه ومن معه من الكائنات الحية من الفناء. واستمر الكائن المهول يضرب الماء بذيله حتى غمرت المياه الأرض ، بل أكثر الجبال ارتفاعا ، بحيث لم يعد يرى البصر شبرا واحدا من الأرض الجافة . وعند ذاك أرسل « ويساكيتشاك » البطة الغطاسة لكى تغوص فى الماء ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى قاع الماء وغرقت . فأرســـــل « ويساكيتشاك » أثر ذلك فأر المسك الذى مكث طويلا تحت الماء ، ثم طلع بعد ذلك وقد لطخت رقبته بالطين . فأخذ « ويساكيتشاك » الطين وشكله على هيئة قرص صغير وضعه فوق الماء فطفا فوقها . وكان هذا القرص الطينى يشبه أعشاش فئران المسك التى تبنيهـــا فوق الثلج . ثم نفخ « ويساكيتشاك » فى هذا القرص حتى تمدد وأصبح تلا صغيرا . فواصل عملية النفخ ، وكان كلما نفخ فيه تمدد أكثر وأكثر ثم احترق الطين بتأثير الشمس وأصبح كتلة صلبة . وعند ذاك وضع « ويساكيتشاك » فوقه الحيوانات لتعيش عليه . وفى النهاية ترك لوحه الخشبى ، ووقف على هذا القرص وسكنه . وقد أصبح هذا القرص فيما بعد الأرض التى نعيش عليها .

وشبيهه بهذه الحكاية حكاية أخرى يرويها الهنود « الدوجريبيين » ،

و « السلافيون » ، وهم يكونون قبيلتين من القبائل « التينيهية » . ولا تختلف هذه الرواية عن سالفتها سوى فى أن اسم الرجل الذى أنقذ من الطوفان فى هذه الرواية الأخيرة هو « تشابيوى » . وتذكر هذه الحكاية أنه بينما كان هذا الرجل يطفو فوق الماء على لوحه الخشبى ومعه زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات التى أنقذها ، جعل كل الحيوانات البرمائية بما فى ذلك السنور وكلب البحر تغوص فى الماء لتحضر له قطعة من الطين ، ولكنها لم تتمكن جميعا من احضارها عدا فأر المسك الذى كان آخر من غاص وعاد وعلى مخلبه قطعة صغيرة من الطين . فنفخ «تشابيوى» فى هذه القطعة حتى تمددت وأصبحت الأرض التى نراها الآن . عند ذلك أنزل « تشابيوى » الحيوانات عليها ، وعاش هو معها كما كان يعيش قبل أن يحدث الطوفان . ثم انه دعم الأرض بدعامة قوية حتى جعلها صلبة متينة .

ويحكى الهنود « الهاريسكيثيون » ، وهم يكونون قبيلة « تينيهية » أخرى أن رجلا بعينه يدعى « كونيان » ومعناه الرجل الحكيم ، قرر ذات مرة أن يصنع لوحا خشبيا عريضا . فلما سألته أخته ، وهى فى الوقت نفسه زوجته ، عن السبب الذى من أجله يصنع هذا اللوح قال لها : «اذا انتاب الأرض طوفان ، كما أتنبأ بذلك ، فاننا سنطفو على هذا اللوح». ثم كشف عن خطته لغيره من أهل الأرض ، ولكنهم استهزءوا به وقالوا له : « اذا حدث طوفان سنأوى الى الأشجار » . ومع هذا فان الشيخ الحكيم صنع اللوح الخشبى العريض بأن ربط الدعائم الخشبية بعضها الى بعض بأحبال مصنوعة من ألياف الشجر . وفجأة زحف طوفان الى الأرض ، كما لم يحدث قط من قبل ، وكأن المياه كانت تتدفق من كل جانب . وأخذ النـــاس يتسلقون الأشجار ، ولكن الميـــاه كانت فى أثرهم ، حتى أغرقتهم عن آخرهم . أما الشيخ الحكيم فقد طفا فوق لوحه الخشبى القوى المحكم الصنع . وبينما كان يسير فى عرض الماء ، أخذ يفكر فى المستقبل ، فجمع من كل صنف من صنوف الحيوان آكل العشب ، ومن الطيور ، بل من الوحوش المفترســة ، وصاح بهـا قائلا : « هيا اتخذى مكانك على اللوح الخشبى ، فلن يترك الطوفان شبرا من الأرض دون أن يغمره » . واختفت الأرض حقا تحت المياه ، وظلت هكذا زمنا طويلا دون أن يفكر أحد فى البحث عنها . وكان أول من غاص الى قاع الماء ليبحث عن الأرض هو فأر المسك . ولكنه لم يتمكن من الوصول الى قاع الماء . ولما طفا على السطح،كان قد أوشك على الغرق،وقال للشيخ الحكيم : اننى لم أجد أثرا للأرض . ثم عاد فغاص مرة أخرى . ولما رجع قال : لقد شممت رائحة

الأرض ولكننى لم أهتد اليها » • ثم جاء دور السنور ، فغاص وغاب فترة ثم ظهر أخيرا وهو يسبح على ظهره فاقد الوعى والأنفاس ، ولكنه كان يحمل فى منقاره قطعة من الطين سلمها للشيخ الحكيم الذى وضعها بدوره على سطح الماء ونفخ فيها وقال : «لن أكون الا حيثما كانت الأرض» • وفى الوقت نفسه ملأ يده بالطين ونفخ فيه ، ولشدة سعادته أخذ يتمدد • فوضع على قطعة الطين طائرا وأخذ ينفخ فيها فأخذت تتسع رقعة الأرض تدريجيا • ثم وضع عليها ثعلبا دار حول رقعة الأرض فى يوم واحد • ثم عاد الثعلب وطاف حولها وهى تزداد اتساعا حتى أكمل ست دورات ، وفى الدورة السابعة عادت الأرض الى شكلها الطبيعى قبل الطوفان • عند ذاك أنزل الشيخ الحكيم الحيوانات عليها ، كما فعل هذا هو وزوجته وابنه من بعد وقال لهما : « ان الأرض سوف تعمر بأولادنا » • وهذا ما حدث بحق • ثم بقيت هناك مشكلة أخرى كان على الشيخ الحكيم أن يجد حلا لها • وهذه المشكلة هى كيفية ابطال الطوفان الذى كان ما زال مستمرا • فلما رأى طائر « الواقة » ما كان عليه الرجل الحكيم من حيرة ، جاء لانقاذه • فابتلع الماء كله ثم استلقى على الشاطىء على دعامة من الخشب وقد تضخمت حوصلته تضخما مفزعا • وقد كان هذا أكثر مما كان يتوقعه الشيخ الحكيم ، فبعد أن كان الماء كثيرا كل الكثرة،أصبح قليلا كل القلة• فتحدث الشيخ الحكيم ، وهو فى هذه الحيرة ، مع طائر الشرشق وقال له : « ان طائر الواقة يستلقى فى الشمس وحوصيلته منتفخة بالماء كل الانتفاخ ، فاذهب اليه واثقبها » • عند ذاك ذهب طائر الشرشق الى الواقة التى لم تكن تتوقع قدومه ، وقال لنفسه فى نغمة ، ملؤها الشفقة : « لاشك أن جدتى تعانى من ألم فى معدتها » • ثم تحسس بيده فى رقة الجزء المتورم فى جسم الواقة ، كما لو كان يريد أن يسكن الألم • ولكنه وخز هذا الجزء الملتهب فى غير عمد بمخالبه وخزة شديدة ، وفى الحال سمع صوت قرقرة تدفق على اثرها الماء من معدة الطائر وهو يرغى ويزبد • ثم انساب الماء مكونا البحيرات والأنهار ، وبهذا أصبحت الأرض قابلة للسكنى مرة أخرى •

ويؤكد بعض الهنود التينيهيين أن الطوفان تسبب عن سقوط كميات هائلة من الثلوج فى شهر سبتمبر • ولم يتنبأ بهذه الكارثة سوى رجل واحد كهل وحذر رفاقه ، ولكنهم لم يأبهوا لقوله وقالوا له : « سوف نهرع الى الجبال اذا انتابنا الطوفان » • ولكنهم غرقوا جميعا فيما بعد • أما الرجل الشيخ فقد ابتنى مركبا أبحر به وأنقذ معه كل الحيوانات التى صادفها حية • ولما تعب من الحياة فى المركب على هذا النحو ، أرسل

السنور وكلب البحر وفأر المسك والبطة ، كى يغوصوا فى الماء ، ويبحثوا على الأرض الغرقى • على أن البطـة هى التى صعدت الى سطح الماء وفى مخالبها قطعة صغيرة من الطين • فبسط الشيخ هذه القطعة على سطح الماء ونفخ فيها • وبعد ستة أيام رست الحيوانات على سطحها • فلما كبرت الأرض وأصبحت فى حجم الجزيرة ، خطا هو بنفسه عليها • ويحكى بعض « التينيهيين » أن الرجل الشيخ أرسل أول الأمر غرابا انهمك فى افتراس الأجساد الطافية على سطح الماء ، ولم يعد الى الرجل الشيخ مرة أخرى • فأرسل من بعده اليمامة التى طارت حول الأرض مرتين ثم عادت • وفى المرة الثالثة عادت فى المساء وقد أنهكها التعب، وفى فمها فرع من الشجر ذو براعم • وقد يبدو لنـا تأثير التعاليم المسـيحية فى هـذه الرواية الأخيرة •

وقد كانت قبيلة « سارسى » ، وهى قبيلة هندية أخرى تنتمى الى أصل « تينه » الكبير أمة قوية فى سالف الزمن ، ثم انقرضت ولم يعد عددها اليوم يتجاوز بضعة مئات من الأفراد • وهى تنتشر فى مساحة غير صغيرة من أرض البرارى ، بالأضافة الى انتشارها فى « بلاكفيت » فى « ألبيرتا » التى تقع على وجه التقريب جنوب « سكك حديد الباسفيك الكندى » • وتتفق رواية هذه القبيلة عن الطوفان فى ملامحها الأساسية مـع روايتى قبيلتى « أوجيبواى » و « كرى » وسـائر القبائل الكندية الأخرى • وتحكى هذه القبائل أنه عندما أغرق الطوفان الأرض ، لم ينج منه سوى رجل وامرأة طفيا على لوح من الخشب بعد أن وضعا عليه صندوقا من الحيوانات والطيور • ثم أرسل الرجل بعد ذلك السنور لكى يغوص الى قاع الماء • فغاص السنور وعاد ومعه قطعة من الطين عجنها الرجل فى يده لكى يصنع منها أرضا جديدة • وقد كانت هذه الأرض صغيرة فى بادىء الأمر ، الى درجة أنه كان فى وسع العصفور أن يطوف بها • ولكنها أخذت تكبر تدريجيا بعد ذلك • ويضيف راوى هذه الحكاية الى هذا قائلا : « وكان أول من عاش على وجه هذه الأرض هو أبونا الشيخ ، ثم ظهر عليها بعد ذلك رجال ونساء وحيوانات وطيور • ثم خلق أبونا الشـيخ الأنهار والجبال والأشجار وكل الأشياء التى نراها أمامنا الآن » • وبعد أن فرغ الراوى من روايته لفت الرجل الأبيض الذى دون هذه الحـكاية نظر قبيلة « سـارسى » ، أن رواية قبيلة « أوجيبواى » شـديدة الشبه بروايتهم ، فيما عدا أن الحيوان الذى أحضر قطعة الطين فى هذه الرواية الأخيرة ليس هو السـنور وانما فأر المسك • وقد أثارت هـذه الملاحظة صـيحة الموافقة من خمسـة أو ستة أفراد من القبيلة كانوا يجلسـون

القرفصاء داخل خيمتهم . فصاح هؤلاء فى صوت واحد : « نعم ، نعم ، لقد كذب الرجل ، فلقد كان الحيوان هو فأر المسك . لقد كان حقا هو فأر المسك » .

ويلعب غراب بعينه أو كما يسمى « ييل » دورا كبيرا فى ديانة قبيلة « التيلنجيت » أو « التيلنكيت » وأساطيرها ، وهى قبيلة هندية ذات شأن فى « ألاسكا » . ولا يعد هذا الغراب جدا لأسرة الأغربة فحسب ، وانما كان خالق الجنس البشرى ، ومنبت النبات وواضع الشمس والقمر والنجوم فى أماكنها . وقد كان لهذا الغراب خال شقى قتل اخوته العشر بأن أغرقهم أو أنه سطحهم على لوح خشبى وجز رءوسهم بسكين . وقد كان دافعه لارتكاب هذا العمل الشرير هو الغيرة . ذلك لأنه كان متزوجا بامرأة شابة كان يحبها كل الحب . وكان يعلم ، وفقا لقانون قبيلة « تيلنجيت » ، أن أولاد أخته يرثون زوجته . بعد موته . فلما شب « ييل » عن الطوق وأصبح رجلا ، حاول خاله أن يقتله كما قتل اخوته من قبل ، ولكنه لم ينجح فى هذا ، لأن ييل لم يكن طفلا عاديا . فقد حملت فيه أمه عن طريق ابتلاعها حصاة عثرت عليها عند جزر البحر . ثم ابتلعت حصاة أخرى أصبح « ييل » بعدها لا يؤثر فيه الطعن . فلما حاول خاله أن يقتله ، لم تؤثر فيه السكين . ولكن الخال لم ييأس ، وحاول أن يعرضه لأخطار أخرى . فنطق فى سورة غضبه : « ليكن هناك طوفان » . فتدفقت المياه بحق حتى غمرت الجبال . عند ذاك استخدام « ييل جناحيه وريشه اللذين كان يستخدمهما كيفما شاء ، فنشرهما حتى وصل الى عنان السماء ، وهناك ظل معلقا فى السماء من منقاره مدة عشرة أيام ، بينما ظلت المياه تعلو حتى غطت جناحيه . فلما انخفضت المياه طار كالسهم الى البحر ، حيث سقط فى هدوء على جرف تنبت فيه الأعشاب . وهناك أنقذه من الخطر كلب البحر ، وأوصله الى الشاطىء فى أمان . هذا ما تذكره رواية قبيلة « تيلنجيت » . أما ما حدث للناس فى أثناء الفيضان ، فلا تذكر عن هذا شيئا .

وهناك أسطورة أخرى لقبيلة « تيلينجيت » تروى بطريقة أخرى كيف أن الغربان تسببت فى حدوث الطوفان الكبير . فلقد وضع هذا الغراب امرأة تحت الأرض لكى تراقب مد البحر وجزره . وذات يوم شاء الغراب أن يعرف كل شىء يجرى تحت البحر فطلب من المرأة أن ترفع المحيط حتى يمكنه أن يسير تحت المحيط دون أن تبتل قدماه ، ولكنه نصحها فى حذر أن ترفعه ببطء حتى يكون لدى الناس متسع من الوقت ،

اذا ما حل بهم الطوفان ، أن يحملوا فى مراكبهم المؤن اللازمة لهم ، وأن يصعدوا الى ظهرها • وبعد ذلك أخذت مياه المحيط ترتفع تدريجيا ، حاملة الناس فى مراكبهم على سطحها • وبينما كانوا يرتفعون تدريجيا فوق سطح الماء ، كانوا يبصرون الدببة وسائر الوحوش تتجول على قمم الجبال التى لم يكن الطوفان قد أغرقهم بعد • وأخذ يسبح الكثير من الدببة من حول المراكب حتى تقفز اليها لأنها كانت ترغب فى الحياة على البر • ولكن الناس الذين كانوا من بعد النظر بحيث اصطحبوا معهم كلابهم ، سعدوا بتصرفهم هذا ، لأن الكلاب حالت دون صعود الدببة الى ظهر المراكب • وقد رسا بعض الناس على قمم الجبال وشيدوا من حولهم سورا ليحجز عنهم المياه ، وذلك بعد أن ربطوا مراكبهم داخل السور • على أن الناس لم يكونوا قد تمكنوا من أن يأخذوا معهم كمية وافرة من خشب الوقود لأن مراكبهم لم تتسع لذلك • ولقد مر الناس بوقت عصيب خطير فوق قمم الجبال ، اذ كانوا يبصرون الأشجار وهى تقتلع من جذورها وتنجرف مع التيار ، كما كانوا يبصرون شيطان البحر وسائر المخلوقات الغريبة وهى تطفو على صفحة الماء • وعندما انحسرت المياه ، اقتفى الناس أثر الجزر وهو يتراجع عن جوانب الجبال • ولما لم يجدوا أثرا للأشجار ، وكان وقودهم قد نفذ فى الوقت نفسه ، فقد هلكوا من البرد • وعندما عاد الغراب من تحت الماء ، أبصر السمك جافا مطروحا على الجبال وفى الشقوق ، فقال له : « قف حيث أنت وتحول الى حجر » • فتحول السمك الجاف الى حجر • فلما أبصر الناس وهم هابطون من فوق قمم الجبال ، صاح بهم فى نفس اللهجة قائلا : «لتحولوا الى أحجار حيثما كنتم»، فتحول الناس فى الحال الى أحجار كذلك • ثم عاد وخلقهم مرة أخرى من أوراق الشجر • ولما عرف الناس فيما بعد أنهم قد خلقوا من أوراق الشجر ، أدركوا أن الغراب لا بد أنه كان قد حول من نجا من الطوفان من الجنس البشرى الى أحجار • وهذا هو السبب فى أن كثيرا من الناس حتى يومنا هذا يموتون فى فصل الخريف مع تساقط الأوراق • ويقول الأهالى انهم يموتون كما تذبل الأوراق وتتساقط •

وهناك حكاية أخرى تحكى عن الطوفان الذى انتاب العالم ، تروى عن قبيلة « تيلينجيت » أو « كولوش » كما تعود الروس أن يسموها • وقد نجا الناس فى هذه الحكاية فى فلك عائم كبير رسا بعد أن انخفضت المياه ــ على صخرة ، ثم انشطر الى شطرين • وهذا هو السبب من وجهة نظرهم ، فى اختلاف لغات الناس ، ذلك أن قبيلة « تيلينجيت » التى ركبت الفلك ، تمثل نصف سكان العالم ، فى حين أن من بقى من الناس

على سطح الأرض يمثلون النصف الآخر • وربما كانت هذه الأسطورة الأخيرة تعتمد على أصل مسيحى ، حيث انها تمثل نوعا من الخلط بين حكاية نوح وحكاية برج بابل •

ويحكى الهنود « الهايدا » الذين يسكنون جزر « كوين شارلوت » أنه « قد حدث فى سالف الزمان طوفان مهول غرق فيه الناس والحيوانات جميعا ، ولم ينج منه سوى غراب واحد • على أن هذا الغراب لم يكن طائرا عاديا تماما ، وانما كان يمتلك الى حد كبير ـ شأنه شأن كل الحيوانات فى الحكايات الهندية القديمة ـ خصالا انسانية • فقد كان فى وسعه ، على سبيل المثال ، أن يرتدى رداءه الريشى وأن يخلعه ، كما يرتدى الانسان ملابسه ويخلعها • بل انه ولد وفقا لرواية من روايات هذه الحكاية ، من امرأة لم يكن لها زوج ، وأن هذه المرأة صنعت له الأقواس والسهام التى كان يقتل بها الطيور عندما كبر ، وكانت تخيط له من جلود هذه الطيور رداء أو غطاء • وكانت تتألف هذه الطيور التى كان يقتلها الغراب بسهامه ، من الطائر الثلجى الصغير ذى العنق والرأس الأسودين ، ومن الطائر الثلجى الكبير ذى اللون الأسود والأحمر ، ومن طائر النقار المكسيكى وقد كان اسم هذا الغراب هو « نى ـ كيل ـ ستلاس » • وبعد أن انحسر الطوفان ، نظر « نى ـ كيل ـ ستلاس » من حوله ، ولكنه لم يجد زوجة أو رفيقا ، ومن ثم أصبح يشعر بالوحدة • فأخذ حيوانا من الحيوانات الرخوة (Cardium Nuttalli) من شاطىء البحر وتزوجه وأخذ يفقس على الدوام وهو ما زال يفكر جديا فى أن يكون له رفيق • ثم سمع فى النهاية صراخا خافتا للغاية شبيها بصراخ الطفل الوليد • وأخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا ، وفى النهاية بزغت طفلة أخذت تكبر تدريجيا فيما بعد ، ثم تزوجها الغراب • ومن هذا التزاوج تناسل الهنود الذين عمروا الأرض من بعد » •

ويحكى هنود طومسون الذين يسكنون « كولومبيا البريطانية » ، أنه قد حدث طوفان ذات مرة ، وغمر بلادهم جميعا فيما عدا قمم بعض الجبال العالية • ويظن هؤلاء الهنود ، وان كانوا غير واثقين من ظنهم هذا ، أن هذا الطوفان تسبب عن ثلاثة أخوة يدعون « كواكلكال » • وقد كان هؤلاء يتجولون فى البلاد ليقدموا معجزاتهم ويحولوا الأشياء الى أشكال أخرى ، حتى تحولوا هم فى النهاية الى أحجار • ومهما كان من أمر هؤلاء الأخوة ، فان الطوفان أغرق الناس جميعا عدا ذئبا وثلاثة رجال • أما الذئب فقد أنقذ لأنه حول نفسه الى قطعة من الخشب طفت

فوق الماء ، وأما الرجال الثلاثة فقد نجوا لأنهم استقلوا مركبا جرفه التيار حتى رسا بهم عند جبال « نزوكسكى » ، وهناك تحولوا ومركبهم فيما بعد الى أحجار . ويمكنك أن تراهم هناك على هذا النحو فى هيئة أحجار حتى اليوم . وأما الذئب فقد ظل مطروحا على الشاطىء بعد أن انحسر الطوفان ، وهو على هيئة قطعة الخشب التى استطاع أن يحول نفسه اليها بمهارة فى وقت الشدة . ثم عاد واسترد شكله الأصلى وأخذ ينظر فيما حوله ، فرأى أنه فى بلد نهر طومسون . وعند ذاك اتخذ من الأشجار زوجات له ، ومن هذا الزواج تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم . ولم يكن هناك ، قبل أن يحدث الطوفان ، بحيرات أو أنهار بين الجبال ، ومن ثم لم يكن هناك سمك . أما بعد الطوفان فقد امتلأت الكهوف بالمياه وأخذت تتدفق منها المجارى المائية الى البحر . وهذا هو السبب فى أننا نجد الآن بحيرات فى الجبال . وسمكا فى هذه البحيرات . ويبدو أن حكاية « طومسون ريفر » قد اخترعت لتفسر سبب وجود البحيرات فى الجبال . وقد عزا الفيلسوف البدائى وجودها الى الطوفان الكبير الذى خلف وراءه مياها فى تجاويف الجبال تماما كما يترك جزر البحر وراءه أحواضا من المياه فى تجاويف الصخور التى تقع على شاطىء البحر .

ويبدو أن أساطير الطوفان الكبير كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن فى « ولاية واشنطون » . فقد حكت قبيلة « توانا » التى كانت تسكن « بوجيت ساوند » أن الناس أصبحوا آثمين فى عصر من العصور . وعقابا لهم على اثمهم انتاب الأرض طوفان أغرق الأرض جميعها عدا جبلا واحدا . فهرب الناس فى قواربهم الى أعلى جبل فى بلدهم ، أى الى قمة سلسلة جبال « أولمبيك » . فلما غمرت المياه هذه الجبال ، ربط الناس قواربهم بحبال متينة فى أعلى شجرة . ولكن المياه أخذت فى الارتفاع حتى غمرت الأشجار . فتحطمت بعض المراكب وجرفها التيار جهة الغرب حيث تعيش اليوم سلالات الذين أنقذوا ذات يوم من الطوفان . وهم قبيلة تتحدث لغة شبيهة بلغة قبيلة « توانا » . وهذا هو السبب ، كما يدعى الأهالى ، فى أن أفراد هذه القبيلة قلائل . وهم يطلقون على هذا الجبل اسما ، معناه « المربط » ، لأنهم ربطوا قواربهم عنده آنذاك . وبالمثل يحكى الأهالى عن حمامة أطلقت لتستكشف أحوال الغرقى .

وقد وجد المبشرون الأول فى أثناء اقامتهم بين القبائل الهندية « سبوكانا » و « نيزبيرسى » و « كايوزى » ، هؤلاء الذين ألفوا أن

يستوطنوا ، مع قبيلة « ياكيما » شرق ولاية واشنطون ــ وجدوا أن هؤلاء الهنود يرون حكايات خاصة بهم عن الطوفان الكبير ، الذى نجا منه رجل وزوجته على لوح من الخشب ٠ وكل قبيلة من هـذه القبائل الثـلاث ، بالاضافة الى قبائل « فلات هيد » ، تحكى عن جبل خاص بها هو جبل « أرارات » الذى لجأ اليه من أنقذ من الطوفان ٠

وبالمثل روى هنود ولاية واشنطون الذين ألفوا أن يسكنوا عند المجرى الأدنى لنهر كولومبيا ، وكانوا يتحدثون لهجة « التشينوك الكاتلامية » ــ رووا حكاية عن الطوفان الكبير ٠ وهذه الحكاية تتشابه بصفة خاصة مع الأسطورة « الأجونجكوينية » ٠ فهم يقولون : ان طائر « الثرثار الأزرق » نصح فتاة بعينها أن تتزوج النمر الأرقط الذى كان يصطاد الأيائل ، وكان رئيس بلده فى الوقت نفسه ٠ فرحلت الفتاة الى مدينة النمر الأزرق ، وهناك تزوجت خطأ السنور بدلا من النمر الأزرق ٠ وذات يوم عندما رجع زوجها السنور من الصيد ، ذهبت لتستقبله ، فطلب منها أن تنتشل السمك الذى اصطاده ٠ ولكنها رأت أن ما معه ليس سمكا ، وانما فروع شجر الصفصاف فحسب ٠ فولت عنه مشمئزة مما رأته ، وتزوجت فى النهاية النمر الأرقط الذى كان ينبغى عليها أن تتزوجه بادىء الأمر ٠ فلما وجد السنور أنه فقد زوجة شبابه ، جلس وبكى مدة خمسة أيـام حتى فاضت دموعه على الأرض وأغرقتها جميعا ، بما عليها من بيوت ٠ أما الحيوانات فقد استقلت قواربها هروبا من الغرق ٠ ولما أوشك الطوفان على أن يصل الى السماء ، تدبرت الحيوانات أمرها فى احضار قطعة من الطين من أعماق المياه ٠ فقالت لطائر الثرثار الأزرق : « الآن اغطس فى المياه أيها الثرثار الأزرق ، وأحضر قطعة من الطين » ٠ فغطس الثرثار الأزرق ولكنه لم يغص الى قاع الماء ، لأن ذيله ظل ملتصقا بسطح الماء ٠ ثم حاولت الحيوانات من بعده أن تغوص الى قاع الماء ، فغاص النمس أولا ومن بعده كلب البحـر ، ثم عادا دون أن يتمكنا من الوصـول الى قاع المياه ٠ ثم جاء دور فأر المسك فقال للحيوانات : « اربطوا القوارب بعضها بجانب بعـض ٠ فربطت الحيوانات المراكب بعضها ببعـض ، ووضـعت ألواحا من الخشب عبر القوارب ٠ عند ذاك خلع رداءه ، وغنى أغنيته خمس مرات ، ثم غطس فى الماء دون أن يطيل الوداع واختفى عن الأبصـار ٠ وهناك مكث مدة طويلة ٠ وفى نهاية الأمر ظهر زهر السوسن على صفحة المياه ٠ ولما حل الصيف ، هبطت المياه وهبطت معها القوارب حتى رست على أرض جافة ٠ وعند ذاك قفزت الحيوانات من القوارب ٠ وبينما كانت تفعل هذا ، خبطت أذيالها بحافة المركز ، فانقطعت أذيالها ٠ وهـذا هو

السبب فى أن الدب الرمادى والدب الأسود لهما ذيل قصير حتى اليوم . أما النمس وكلب البحر وفأر المسك والنمر الأرقط ، فقد رجعوا الى القوارب واستردوا أطراف ذيولهم ولصقوها فى مكانها . وهذا هو السبب فى أن هذه الحيوانات لا تزال لديها ذيول ذات طول لائق حتى اليوم ، على الرغم من أنها كانت قد قطعت عند حدوث الطوفان . هذا ولم تذكر الحكاية سوى الشىء اليسير عما حدث للجنس البشرى وكيف هرب من الطوفان . ولكن الحكاية تنتمى ، كما هو واضح ، الى نمط الحكايات البدائية التى لا تميز تميزا واضحا بين الانسان والحيوان . فالمخلوقات الدنيئة تفكر وتتكلم وتتصرف تصرف الانسان وفقا للتصور البدائى ، بل انها تعيش على قدم المساواة معه . وهذه الطبيعة المشتركة تشير اليها الحكاية « الكاثلاميتية » بوضوح بزواج الفتاة بالسنور أولا ، ثم بالنمر الأرقط ثانيا . كما يتضح هذا كذلك فى الوصف العرضى للسنور على أنه رجل منتفخ الحويصلة . ومن ثم ، فربما تصور القاص أن وصفه لنجاة الحيوانات من الطوفان يعد اشارة كافية لنجاة الجنس البشرى كذلك .

ولا تقتصر أساطير الطوفان الكبير على القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، وانما يحكيها كذلك الاسكيمو وأقرباؤهم سكان جرينلاند . فقد ذكر القائد « جاكوبسين » نقلا عن سكان « أورويجناراك » فى « ألاسكا » ، أن الاسكيمو يروون حكاية عن طوفان مهول أغرق الأرض فى سرعة مذهلة اثر هزة أرضية مفاجئة ، بحيث لم يتمكن من النجاة منه سوى أفراد قلائل استطاعوا أن يهربوا فى قواربهم المصنوعة من الجلد ويلجأوا الى قمم أكثر الجبال ارتفاعا . وكذلك يحكى الاسكيمو الذين يسكنون « تورتون ساوند » فى « ألاسكا » ، أن الطوفان أغرق الأرض جميعا فى بداية الحياة الأولى سوى جبل شاهق كان يتوسط الأرض . وحتى هذا الجبل غمرته المياه عدا قمته التى لجأ اليها بعض الحيوانات . كما حاول قلة من الناس الهروب من هذا الطوفان ، بأن طافوا على الماء فى قواربهم وعاشوا على السمك الذى كانوا يصطادونه . فلما انخفضت المياه بعد ذلك ، برزت الجبال من وسط المياه ، ورسا الناس بقواربهم فوقها . ثم أخذوا يتتبعون الطوفان المتراجع تدريجيا حتى وصلوا الى الشاطىء . وكذلك استقرت على هذا الشاطىء الحيوانات التى كانت قد لاذت بالجبال وعمرت الأرض بنتاجها ..

ويحكى الاسكيمو « التشيجليتين » الذين يسكنون ساحل محيط « أركتيك » بين « بوينت بارو » فى الغرب الى « كيب باثروست » فى

الشرق ، أن طوفانا كبيرا تدفق على سطح الأرض ، ودفعته الرياح فغمر مساكن الناس · فربط الاسكيمو عددا من القوارب بعضها الى بعض ، فكانت أشبه بلوح خشبى كبير طافوا عليه فوق سطح الماء وهم يتزاحمون طلبا للدفء فى خيمة نصبوها · ولكنهم كانوا يرتعشون من لفحات الهواء الباردة وهم يرقبون الأشجار والرياح تقتلعها من جذورها · وفى نهاية الأمر رمى ساحر يدعى « أن ــ أودجيون » ومعناه « ابن البومة الصغيرة » ، بسهمه فى البحر وهو يقول : « كفى أيتهــا الرياح ، لتهدئى الآن » · ثم رمى بعد ذلك قرطه ، وكان هذا كافيا لأن يجعل الطوفان ينحسر ·

أما الاسكيمو الذين يسكنون وسط بلاد الاسكيمو ، فيحكون أن مياه المحيط ارتفعت فجأة منذ زمن طويل واستمرت فى الارتفاع حتى أغرقت الأرض جميعا · بل انها أغرقت قمم الجبال ، وهى تجرف الثلوج فوقها · وعنــدما انحسر الطوفان ، ترك الثلوج وراءه ، التى لا تزال تغطى قمم الجبال حتى اليوم · وقد تخلف فوق قمم الجبال كثير من الأسماك الصدفية ومن الأسماك العادية وعجول البحر والحيتان ، وقد جفت هذه الحيوانات المائية فيما بعد ، ولا تزال قشورها وعظامها بادية للعيان حتى اليــوم · وقد غرق كثير من الاســكيمو ، ولــكن الــكثير منهــم هرب من الطوفان فى قواربهم ·

أما فيما يختص بسكان جرينلاد ، فيحكى لنا مؤرخهم « كرانتز » أن « الشعوب الوثنية كلها على وجه التقريب تعرف شيئا عن طوفان نوح ، وأن المبشرين الأول سمعوا عن « الجرينلاديين » روايات بســـيطة طريفة تتصل بهذا الموضوع · تتلخص هذه الروايات فى أن الطوفان أغرق الأرض ومن عليها فى سالف الزمان ، ولم ينج من الناس سوى رجل واحد ، كما تحول بعضهم الى أرواح نارية · وضرب هذا الرجل بعصاه الأرض بقوة ، فبرزت من باطنها امرأة تزوجها الرجل ، وعمرا الأرض بنسلهما · ومما يؤكد من وجهة نظرهم ، أن الطوفان قد أغرق الأرض جميعا ، أنه قد عثر على عظام الحيتان فوق الجبــال العالية » · وقد أيد هذه الأســطورة الرحالة « س · ف · هول » بما رواه عن « الانويتيين » أو « الاسكيمو » الذين عاش بينهم · فقد أخبرنا هذا الرحالة أن « هؤلاء الاسكيمو يروون حكاية عن الطوفان الذى يعزونه الى مد غير عادى للبحر · وبينما كنت أتحــدث فى مناسبة من المناســبات مع امرأة تدعى « توكوليتو » حــول قومها ، قالت لى : « ان « الانويتيين » كلهم يعتقدون أن الأرض جميعا قد غمرها الطوفان ذات يوم · فلما سألتها عن سبب اعتقادهم فى هذا

الحادث ردت على قائلة : « ألم تر أحجارا صغيرة على الجبال تشبه الحيوانات الرخوية وغيرها من الحيوانات التى تسكن البحار ؟ » ٠

١٥ ـ حكايات افريقية عن الطوفان الكبير :

انه لمن الغريب حقا أننا لا نكاد نعثر على حكايات الطوفان الذى أغرق العالم فى افريقيا ، بينما تنتشر هذه الحكايات انتشارا واسعا فى كثير من جهات العالم ٠ حقا ان الشك يمكن أن يساورنا فيما اذا كانت هناك رواية واحدة أصلية عن الطوفان الكبير دونت فى هذه القارة الشاسعة ٠ بل انه من الصعب أن نجد آثارا لمثل هذه الرواية ، فلم يكتشف أثر لهذه الحكاية فى الأدب المصرى القديم ٠ وقد قيل لنا أن سكان « غينيا الشمالية » يروون « حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا ٠ ولكن هذه الحكاية ممتزجة بالخرافات والمعجزات ، بحيث يصعب علينا أن نقرنها بحكاية الكتاب المقدس » ٠

وحيث ان المبشر الذى روى هذه الحكاية لم يذكر تفاصيل عنها ، فاننا لا نستطيع أن نحكم بما اذا كانت هذه الحكاية قد نشأت أصلا عن سكان « غينيا الشمالية » أم أنها نقلت عن الأوربيين ٠ على أن هناك مبشرا آخر صادف اشارات لحكاية الطوفان الكبير بين حكايات أهالى نهر الكونغو الأعلى ٠ فهم يقولون : ان الشمس والقمر تقابلا ذات يوم ، فلطخت الشمس جزءا من وجه القمر بالطين ، وبذلك حجبت بعض ضوئه ٠ وهذا هو السبب فى أن جزءا من القمر يكون مظلما فى كثير من الأحيان ٠ وقد حدث الفيضان عندما تقابل الشمس والقمر ٠ وحمل الناس القدامى الجذور التى يصنعون منها حساءهم (لوكو) على ظهورهم وتحولوا الى قردة ٠ فالجنس البشرى الذى يعيش الآن على وجه الأرض يعد خلقا جديدا ٠

وهناك رواية أخرى تقول : ان الرجال قد تحولوا بعد حدوث الطوفان الى قرود كما تحولت النساء الى سحالى ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل ٠ وقد نفهم من هذه الرواية أن هذا التحول قد حدث ، وفقا لتصور هؤلاء الأهالى ، من زمن متأخر للغاية ٠ وليس لدى أهالى الكنغو حكايات تحكى عن سبب دخول البندقية الى بلادهم ٠ كما أنهم لا يمتلكون أخبارا تحكى عن الزمن الذى استخدموا فيه صيدهم وحروبهم الرماح والدروع والأقواس والسهام والسكاكين » ٠ ويقال : ان قبيلة « بابيدى »

وهى قبيلة « باسوتوية (١) » تسكن جنوب أفريقيا ، تروى أسطورة عن طوفان أغرق الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وقد قام المبشر المحنك الدكتور « روبرت موفات » باستفسارات مثمرة حول أساطير الطوفان لدى أهالى افريقيا الجنوبية • وقد تبين أن أحد الأهالى الذى صرح بأنه قد سمع حكاية الطوفان من أجداده ، قد سمعها فى الحقيقة من مبشر يدعى « شيميلين » • ويضيف الدكتور « موفات » الى هذا ، « أن مثل هذه الحكايات كان يسمعها الأهالى أصلا من المبشرين أو من بعض الرحالة المتدينين • وهذه الحكايات اختلطت مع مرور الوقت اختلاطا كبيرا ، واكتسبت أفكارا وثنية ، بحيث أصبحت تشبه الى حد كبير للحكايات الأهلية • ويعلق الدكتور « لفنجستون » حول هذا الموضوع بعد أن دون أسطورة حول نشأة بحيرة « ديلولو » فى « أنجولا » التى أغرقت قرية بأكملها بما فيها من سكان وطيور وكلاب ، يعلق قائلا : « وربما كانت هذه الحكاية أثرا باهتا لحكاية الطوفان • والجدير بالذكر أنها الأثر الوحيد الذى سمعته فى هذا البلد » • وقد أخبرنى صديقى المجرب «جون روسكو» المبجل ، الذى قضى ما يقرب من عشرين عاما فى علاقات ودية مع سكان افريقيا الوسطى وبصفة خاصة مع أهالى محمية أوغندا ، أخبرنى أنه لم يستمع الى حكاية عن الطوفان ترويها القبائل التى تعرف عليها •

على أن الكتاب الألمان اكتشفوا حكايات عن الطوفان الكبير بين سكان « افريقيا الشرقية » ، ولكن هذه الحكايات ليست سوى روايات لحكاية الكتاب المقدس التى تسربت الى هؤلاء البدائيين بتأثير المسيحيين أو من المحتمل بتأثير المسلمين • وقد دون ضابط ألمانى احدى هذه الروايات عن قبيلة « ماساى » ، وهى تجرى على النحو التالى :

كان « تومباينوت » رجلا مستقيما ، ولهذا فقد أحبه الله • وقد تزوج هذا الرجل امرأة تدعى « نايباندى » ولدت له ثلاثة أبناء هم « أوشومو » و « بارتيمارو » و « بارماو » • ولما توفى أخو « تومباينوت » تزوج ، وفقا لعادة قبيلة « ماساى » أرملة أخيه التى كانت تدعى « ناهابا ــ لوجوينجا » • ويشير اسمها الى رأسها الطويل الدقيق وهو علامات من علامات الحسن عند هذه القبيلة • وولدت هذه المرأة من زوجها الثانى ثلاثة أبناء كذلك • ولكنها تركت بيت زوجها نتيجة خلاف نشأ بينها وبين زوجها ، بعد أن رفضت أن تعطيه جرعة من اللبن فى المساء •

---

(١) نسبة الى باسوتو احدى ولايات جنوب أفريقيا • (المترجمة)

ثم ابتنت لنفسها بيتا أحاطته بسور من النباتات الشائكة كى تحميها من الوحوش • فى هذه الأيام كانت الأرض تضيق بالناس الذين لم يكونوا أخيارا وانما كانوا على العكس أشرارا لا يطيعون أوامر الله • ولكن مهما كانت درجة شرورهم ، فقد أحجموا عن ارتكاب جرائم القتل • وفى ذات يوم مشئوم ، ضرب رجل يدعى « نامبيجا » رجلا آخر يدعى « سواجى » على رأسه • كان هذا أكثر مما يحتمله الاله ، ومن ثم فقد قرر أن يهلك الجنس البشرى بأسره عدا « تومباينوت » الذى أشفق عليه الاله وأمره أن يبنى فلكا من الخشب ، وأن يلجأ اليه هو وزوجتاه وأولاده الستة ، وأن يأخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف • فلما استقل الجميع الفلك واختزن فيه « تومباينوت » مئونة كبيرة ، أسقط الاله المطر بغزارة ولمدة طويلة حتى نجم عنه طوفان كبير أغرق الناس والحيوانات جميعا فيما عدا هؤلاء الذين أووا الى الفلك العائم • وأخذ «تومباينوت» ينتظر بشغف نهاية سقوط المطر ، لأن مئونته كانت قد أوشكت أن تفرغ • وفى النهاية كف المطر عن السقوط • وشاء « تومباينوت » فى شغف أن يعرف حال الفيضان ، فأطلق حمامة من الفلك عادت اليه منكهة آخر النهار • فأدرك « تومباينوت » من ذلك أن الطوفان لا بد أنه ما زال مرتفعا لأن الحمامة لم تجد مكانا تستريح عنده • فأطلق النسر بعد ذلك ببضعة أيام • ولكنه قبل أن يطلقه ، أخذ حيطته بأن ربط رمحا فى ذيله حتى اذا استقر النسر فى مكان ليأكل ، فان الرمح يجرجر وراءه • فاذا أعاقه معوق فى أثناء جره ، فانه يلتصق بهذا الشىء ، وينفصل عن ذيل النسر • وقد أثبت ما حدث صحة ما توقعه « تومباينوت » ، ذلك أن الطير عاد فى المساء بدون الرمح والريش الذى كان مرتبطا به • فحدس أن الطائر قد انقض على جيفة ، وان الطوفان لا بد قد انحسر • فلما تراجعت المياه عن الأرض ، رسا الفلك على أرض البرارى ونزل منه ركابه • فلما خطا « تومباينوت » خارج الفلك ، أبصر ما لا يقل عن أربعة من أقواس قزح يتجه كل منها فى جهة من الجهات الأربع • فنظر اليها « تومباينوت » على أنها علامة على زوال غضب الاله •

وهناك رواية أخرى لحكاية الطوفان دونها مبشر ألمانى كان يسكن المنطقة نفسها • وقد حصل المبشر على هذه الرواية فى محطة تبشير « مكولوى » التى تقع عند « سايسى » أو « نهر مومبا » على بعد عشرين ميلا من مصب النهر فى بحيرة « روكوا » • وقد اعترف الراوى للمبشر أنه قد سمع هذه الحكاية من جده ، وأكد له فى اصرار أنها رواية قديمة أصلية نشأت بينهم ولم ترد اليهم من الخارج • وقد أكد هذا القول رجل

آخر من الأهالى اشتهر بحبه للصدق ولم يختلف هذا الراوى فى روايته عن رواية الراوى الأول سوى أن نوحا الافريقى أرسل حمامتين بدلا من حمامة واحدة • وهذه الرواية تجرى على النحو التالى :

فى زمن بالغ فى القدم فاضت الأنهار • فقال الاله للرجلين : «ادخلا» السفينة وخذا معكما كل نوع من أنواع الحبوب ، وكل صنف من صنوف الحيوان ، الذكر منه والأنثى • ففعل الرجلان ما أؤتمرا به • ثم فاضت المياه حتى أغرقت الجبال ، وطافت السفينة فوقها • أما الناس والحيوانات فكانوا قد هلكوا عن آخرهم • فلما تراجعت المياه ، قال أحد الرجلين لرفيقه : « دعنا نرى - فربما لم تجف الأرض بعد » • فأطلقا حمامة رجعت للفلك بعد حين • فانتظرا بعض الوقت ثم أطلقا صقرا لم يعد ثانية الى الفلك ، لأن الأرض كانت قد جفت • عند ذاك خرج الرجلان من المركب ونزلا الى الأرض وأنزلا حيواناتهما وحبوبهما •

١٦ - انتشار حكايات الطوفان جغرافيا :

ربما كان العرض السابق لحكايات الطوفان كافيا لأن يثبت أن هذا النمط من الحكايات سواء سميناه نمطا أسطوريا أم خرافيا ، كان منتشرا فى جميع أنحاء العالم • وربما كان من الأفضل قبل أن نتساءل عن علاقة الحكايات بعضها ببعض ، وعن السبب أو الأسباب التى دعت الى روايتها ، أن نشير مرة أخرى باختصار الى الأماكن التى عاشت فيها هذه الحكايات • فاذا بدأنا بآسيا ، فاننا نذكر أننا قد صادفنا نماذج من هذه فى بابل فلسطين وسوريا وفيريجيا (١) وفى الهند القديمة والحديثة ، وفى بورما ، والهند الصينية • وفى شبه جزيرة الملايو وكامشكا ، أى أنها باختصار ، تنتشر فى جنوب آسيا • وتختفى بوضوح فى آسيا الشرقية والمتوسطة والشمالية • والجدير بالذكر أن شعبى آسيا الشرقية اللذين بلغا من الحضارة شأوا بعيدا ، ونعنى بهما الصينيين واليابانيين ، لم يحتفظا ضمن آدابهما القديمة الهائلة ، فى حدود ما يتسع اليه علمى ، بحكاية أهلية عن الطوفان الكبير من النوع الذى نحن الآن بصدده ، ذلك الذى يحكى عن طوفان أغرق العالم ، كما أغرق الجزء الأكبر من الجنس البشرى •

---

(١) احدى مدن آسيا الصغرى فى الزمن القديم وكان سكانها يرتبطون بالأرمينيين من الناحية الاثنولوجية • (المترجمة)

وفى أوربا تندر حكايات الطوفان الأهلية عنها فى آسيا ، ولكنها رويت عند الاغريق القدماء ، كما رويت فى « ويلز » و « ليتوانيا » ، وعند غجر ترانسلفانيا ، و « الفوجوليين » سكان روسيا الشرقية • أما الحكاية الأيسلندية التى تحكى عن الطوفان الذى تسبب عن انسكاب دم العفريت ، فلا تدخل ضمن هذه الحكايات •

وفى افريقيا بما فى ذلك مصر تختفى الأساطير الأهلية عن الطوفان الكبير بشكل ملحوظ ، اذ لم تدون فى هذه القارة حقا حكاية أهلية واحدة من هذا النوع •

وفى جزر الأرخبيل الهندى وجدنا حكايات عن الطوفان الكبير فى جزر سومطرة الكبيرة ، وفى « بورنيو » و « سيليبس » ، كما وجدناها فى الجزر الأصغر منها وهى جزيرة « نياس » و « انجانو » و « سيرام » ، و « روتى » ، و « فلوريس » • كما روت هذه الحكايات القبائل الأهلية فى جزر الفيلبين وفرموزا ، وكذلك الأندمانيون الذين يعيشون منعزلين فى جزر خليج البنغال •

كما صادفتنا بعض حكايات الطوفان الكبير فى الجزر الكبيرة مثل جزر « غينيا الجديدة » وفى قارة استراليا ، كما وجدنا أساطير هذا النمط تعيش فى أطراف الجزر الأقل حجما مثل جزر « ميلانيزيا » التى تلتف فى شبه قوس حول جزر « غينيا الجديدة » و « استراليا » فى الشمال والشرق •

فاذا أوغلنا فى المحيط الهادى شرقا فاننا نجد أن حكايات الطوفان تنتشر انتشارا كبيرا بين البولونيزيين الذين يعيشون منتشرين فى أصغر جزر هذا المحيط من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلندة جنوبا • كما دونت أسطورة عن الطوفان عند « الميكرونيزيين » الذين يسكنون « جزر بيلو •

وتنتشر روايات الطوفان انتشارا كبيرا فى جنوب أمريكا ووسطها وشمالها ، من « تيراديل فويجو » جنوبا الى الاسكا شمالا ، ومن الشرق الى الغرب فى كلتا القارتين • ولا تنتشر هذه الحكايات بين القبائل الهندية فحسب ، فقد رويت نماذج منها كذلك بين الاسكيمو الذين يعيشون من غرب ألاسكا الى شرق جرينلاند •

فاذا كان هذا هو الانتشار الجغرافى لحكايات الطوفان بوجه عام ، فانه يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن علاقة هذه الحكايات بعضها ببعض

فهل هناك علاقة أصلية فيما بينها ، أم أن هذه الحكايات متميزة ومستقلة بعضها عن بعض ؟ وبتعبير آخر ، هل ترجع تلك الحكايات جميعا الى أصل واحد ، أم انها نشأت مستقلة فى بقاع كثيرة من العالم ؟ لقد كان الباحثون يميلون سالفا متأثرين بحكاية الكتاب المقدس ، الى أن يقرنوا أساطير الطوفان الكبير ، أينما وجدت ، بحكاية طوفان نوح المعروفة • كما افترضوا أننا نجد بين هذه الأساطير روايات مشوهة ومشكوك فيها لهذه الكارثة المهولة التى تعد أكثر روايتها ثقة ، تلك التى يتضمنها سفر التكوين • على أن وجهة النظر هذه لم تعد تؤيدها الأدلة • وحتى اذا سلمنا بوجوه التشويه العديدة ، وشتى التغيرات التى تتعرض لها الرواية الشفاهية بالضرورة فى أثناء انتقالها من جيل الى جيل ومن مكان لآخر عبر الأزمنة اللامتناهية ، فما زلنا نواجه صعوبة لأن نتعرف فى هذا الحشد الهائل من حكايات الطوفان الكبير التى غالبا ما تتسم بالغرابة والطابع الطفولى ، على النماذج الانسانية لأصل دينى واحد • وقد تضاعفت هذه الصعوبة منذ أن أثبت البحث الحديث أن حكاية سفر التكوين ليست هى الحكاية الأصلية على الاطلاق ، وانما هى نسخة قديمة نسبيا لرواية بابلية أكثر قدما منها أو بالأحرى سومرية • على أنه ليس هناك مسيحى مدافع عن دينه ، يميل لأن ينظر الى الحكاية البابلية بلونها الوثنى ، بوصفها وحيا أوليا من الله للانسان • واذا كانت نظرية الوحى الالهى لا تنطبق على الأصل ، فهى بالأحرى لا تنطبق على صورة هذا الأصل •

فاذا تغاضينا عن نظرية الكشف أو الوحى الالهى التى تتعارض مع تلك الحقائق المعروفة ، فما زال أمامنا أن نتساءل عما اذا كانت الأسطورة السومرية أو البابلية التى تعد بكل تأكيد ، أقدم روايات الطوفان ، هى الأصل الذى استمدت منه سائر الروايات • ومثل هذا السؤال من الصعب أن توجد له اجابة ايجابية ، حيث انه يفتقر الى دليل، وحيث ان النتيجة التى تنتهى اليها ترتكز على احتمالات عدة تختلف باختلاف وجهات النظر اليها•ومن الممكن بدون شك أن نحلل الحكايات جميعا الى عناصرها ، وأن نصنف هذه العناصر ، وأن نحصى عدد العناصر التى تعد قاسما مشتركا بين الروايات المختلفة ، ومن ثم يمكننا ، بناء على عدد هذه العناصر التى تحتوى عليها رواية من الروايات ، أن ننتهى اما الى احتمال تفرعها من حكاية أخرى أو كونها هى نفسها رواية أصلية • وهذا فى الحقيقة ما قام به أحد الذين سبقونى فى هذا المجال من البحث ، ولكننى لا أرى هناك داعيا لأن أعيد ذكر النتائج التى توصل

اليها • وفى وسع القراء الذين يميلون الى الاتجاه الرياضى أو الاحصائى اما أن يرجعوا الى أعمال هذا الكاتب نفسه (١) ، أو أن يستخلصوا هذه النتائج من المادة التى قدمت لهم فى الصفحات السابقة • أما الآن فسأكتفى بتقديم نتائجى العامة ، تاركا للقارىء مهمة التأكد من صحتها أو تصحيحها أو معارضتها ، معتمدا على الشواهد التى زودته بها • ومن ثم فاننا اذا صرفنا النظر عن الحكاية العبرية التى تعد بدون شك مستقاة من الرواية البابلية ، واذا صرفنا النظر عن النماذج الحديثة التى تكشف بوضوح عن تأثير واضح للمبشرين المتأخرين أو عن تأثير مسيحى بصفة عامة ، فاننى لا أعتقد فى أننا نملك أدلة قاطعة تعيننا على ارجاع أية رواية من روايات الطوفان الى الحكاية البابلية بوصفها أصلا لها جميعا • حقا ان بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث ، قد انتهوا الى أن كلا من الأسطورة الاغريقية أو الهندية القديمة مستمدة من الأسطورة البالية • وربما كان هؤلاء الباحثون على حق فى هذا ، ولكن التشابه بين الروايات الثلاث ، من وجهة نظرى ، ليس كاف لأن يبرر لنا أن ندعى التعرف على الأصل • حقا ان الاغريق كانوا فى العصور المتأخرة ، يعرفون كلا من حكاية الطوفان العبرية والبابلية ، ولكن حكايات الاغريق أنفسهم عن الطوفان أقدم بكثير من عصر انتصارات الاسكندر الأكبر التى كشفت للباحثين لأول مرة عن كنوز الشرق ولا تكشف هذه الروايات الاغريقية فى أقدم أشكالها أى تأثر بأصول أسيوية • ففى أسطورة « ديوكاليون » ، على سبيل المثال ؛ التى تعد أقرب الروايات للحكاية البابلية ، لم ينج من الطوفان سوى « دويكاليون » وزوجته • وبعد أن انحسر الطوفان اكتشفا حاجتهما الى خلق الجنس البشرى بطريقة معجزة من الحجر • وليس هناك ذكر بعد ذلك الى اعادة خلق الحيوانات التى كانت قد هلكت فى الطوفان بطبيعة الحال • وفى هذا تختلف الرواية الاغريقية عن كل من الرواية البابلية والعبرية كل الاختلاف ، هاتين الروايتين اللتين اهتم فيهما الانسان بتكثار الجنس البشرى والحيوانى معا عندما ينتهى الطوفان وذلك بأن احتفظ فى الفلك بعدد من الركاب من كل من الجنس البشرى والحيوانى •

---

(١) M. Winternitz, Die Flutsagen, pp. 312-333.

(نقلا عن النسخة الأصلية ـ المجلد الأول ـ ص ٣٣٥) •

(المترجمة)

وبالمثل فان مقارنة الرواية الهندية القديمة بالرواية البابلية ، نبرز تناقضا خطيرا فيما بينهما . فالسمكة العجيبة التى تبرز بوضوح فى كل الروايات الهندية القديمة ليس لها مايناظرها فى الرواية البابلية ، وان كان بعض الباحثين قد جادل فى حذق ، أن الاله الذى تجسد فى شكل سمكة حذرت مانو من قدوم الطوفان فى الاسطورة الهندية ، ليس سوى صورة مطابقة للاله «ايا » الذى حذر أوتنابشتيم كذلك من الطوفان فى الأسطورة البابلية . وحجة هؤلاء الباحثين فى نظريتهم ، هى أن الاله «ايا» هو اله الماء ، وكان يصور أحيانا فى شكل انسانى ، وأحيانا أخرى فى شكل سمكة . واذا كان من الممكن أثبات هذا التشابه بين الأسطورتين ، فانه يمكننا آنذاك أن نربط بين الأسطورتين ربطا وثيقا . ومن جهة أخرى ، فان أقدم شكل للحكاية الهندية وهو الموجود فى «ستاباثا براهمانا» ، يحكى أن «مانو» هو الانسان الوحيد الذى نجا من الطوفان . وكان عليه أن يعيد خلق المرأة بطريقة معجزة بعد هذه الكارثة ، من الأشياء التى قدمها ضحية وهى اللبن الرائب وشرش اللبن والجبن ، وذلك لكى يتمكن بعد الزواج منها ، من العمل على استمرار النوع البشرى . ولم تصور الحكاية الهندية «مانو» وقد أخذ معه مجموعة من الحيوانات والنباتات الا فى الروايات المتأخرة من هذه الحكاية . بل ان هذه الروايات لم تذكر شيئا عن انقاذ «مانو» لزوجته واولاده ، على الرغم من أنها تصوره على ظهر السفينة بصحبة مجموعة من اخوانه الحكماء الذين انقذهم من كارثة الطوفان . وهذا الحذف لايكشف عن فجوة فى العاطفة العائلية فحسب ، وانما يكشف كذلك عن نقص فى حكمة الفيلسوف ، فضلا على أنه يبرز التناقص البالغ بين البطل الهندى والبطل البابلى ببعد نظره العملى ، ذلك البطل الذى كان أقل عزاء له فى تلك المحنة المحزنة ، أنه كان محاطا بأسرته وسط المياه المصطخبة ، ومن ثم كان يعلم أنه بمجرد أن ينخفض الطوفان ، سيكون قادرا ، بمساعدة أسرته ، أن يعين على استمرار الجنس البشرى عن طريق العمليات العادية للطبيعة . أليس من الغريب أن نكتشف من خلال هذا الاختلاف البين بين الحكايتين ، التناقض بين الحكمة الدنيوية للعقل السامى والزهد الحالم للعقلية الهندية ؟ .

وخلاصة القول ان الشواهد التى تثبت أن كلا من أسطورتى الطوفان الهندية والاغريقية مستمدتان من الحكاية البابلية ، ليست

كافية . فاذا تذكرنا أن البابليين فيما نعلم لم ينجحوا على الاطلاق فى نقل حكايتهم عن الطوفان الى المصريين القدماء الذين كانوا على اتصال مباشر بهم طيلة قرون طويلة ، فليس هناك ما يدعو الى العجب أنهم قد فشلوا فى نقلها الى من كانوا أكثر بعدا منهم من المصريين ، وهم الهنود والاغريق الذين كانوا حتى زمن الاسكندر الأكبر متصلين بهم على نطاق ضيق . ثم انتقلت الحكاية البابلية بحق فى جميع أنحاء العالم فى عصور متأخرة . وكان لها صدى فى الحكايات التى كانت تحكى تحت أشجار النخيل فى جزائر المرجان ، وفى أكواخ الهنود ووسط ثلوج القطب الشمالى . وصقيعه ويبدو أن هذه الحكايات انتقلت بدون وساطة مسيحية أو اسلامية فيما وراء حدود بلادها الأصلية والمناطق السامية المجاورة .

واذا بحثنا عن أدلة فيما قدمناه من روايات أخرى متعددة عن الطوفان ، تثبت أن هذه الروايات قد استمدت من أصل معروف ، ثم انتشرت بعد ذلك ، فاننا لن نعجز فى الحصول على دليل واضح على هذا متمثلا فى الحكايات الالجونكوينية فى شمال أمريكا . فحكايات الطوفان المختلفة التى دونت بين القبائل الكثيرة التى تنتمى لهذا الأصل الذى كان ينتشر على نطاق واسع ، تتشابه فيما بينها تشابها كبيرا الى درجة اننا نعدها مجرد روايات متنوعة لحكاية واحدة بعينها . وما زال السؤال مطروحا عما اذا كانت حادثة الحيوانات المختلفة التى غطست فى الماء لتحضر قطعة من الطين ، قد نبعت أصلا بين أهالى هذه المنطقة ، أم أنها ترتكز على ذكرى حادثة الطيور فى حكاية نوح التى وصلت الى الهنود عن طريق الرجل الأبيض .

وقد رأينا أكثر من ذلك ، أن هناك تشابها عاما يمكن اقتفاء أثره وفقا لرأى «هومبولت» بين روايات الطوفان التى انتشرت بين هنود «أورينوكو» ، كما أن هناك كذلك تشابها بين الأساطير البولونيزية وفقا لرأى «وليام اليس» . ومن المحتمل أن الحكايات انتشرت بين هؤلاء الهنود وكذلك بين البولونيزيين من مركزين محليين ، أى أنها ، بتعبير آخر ، تعد روايات مختلفة لأصل واحد .

على اننا اذا كنا قد استمحنا لأنفسنا أن نعد الروايات السالفة منتشرة من مراكز محلية ، فانه من المحتمل كذلك أنه لا تزال هناك أساطير عن الطوفان نشأت مستقلة .

١٧ ـ أصل حكايات الطوفان الكبير :

مازال علينا أن نتساءل : ماالشكل الذى كانت عليه الحكاية الأصلية التى تفرعت عنها روايات الطوفان ؟. وكيف ألف الناس أن يصدقوا أن الأرض جميعا أو بالأحرى الجزء المأهول منها بالسكان قد غمرته مياه فيضان عتى فى وقت أو آخر ، واغرق معها الجنس البشرى كله على وجه التقريب ؟ والاجابة القديمة عن هذا السؤال ، هى أن الكارثة قد حدثت بالفعل ، وأن سفر التكوين احتفظ لها بسجل تاريخى كامل . كما احتفظ العدد الهائل من أساطير الطوفان التى انتشرت انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية بذكرى هذه الكارثة المهولة . فصورتها فى كثير أو قليل تصويرا مهوشا مختلطا غير دقيق . ومما يؤيد وجهة النظر هذه ، تلك الاصداف والمخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى افترض الناس أنه قد عثر عليها مبعثرة فى الأماكن المرتفعة والصحارى وعلى قمم الجبال ، بعد أن تراجعت مياه طوفان نوح عن تلك الأماكن .

وقد اتخذ « تير توليان » من قواقع البحر التى عثر عليها فوق قمم الجبال شاهدا على أن المياه قد أغرقت الأرض ذات مرة ، ولكنه لم يربط هذا بحادثة الطوفان التى وردت فى سفر التكوين . وبينما كانت تتم عمليات الحفر عام ١٥١٧ م لاعادة بناء مدينة فيرونا ، بدت للعيان مجموعة من المتحجرات الغريبة . وقد أدى هذا الكشف الى تأملات عديدة كان أهمها ، بطبيعة الحال ، حادثة نوح وفلكه . ولكن هذه التأملات لم تترك دون أن تتعرض للمعارضة ، ذلك أن عالم الطبيعة الفيلسوف الايطالى «فراكاستورو» ، كان من الشجاعة بحيث أشار الى الصعوبات التى يتعرض لها هذا الافتراض الشائع . فقد لاحظ «أن هذا الطوفان كان عابرا للغاية ، اذ كان يتكون أساسا من مياه الأنهار . واذا كانت المياه قد خلفت وراءها الأصداف على مسافات بعيدة ، فلابد أنها قد خلفتها على السطح ، ولم تدفنها فى أعماق بعيدة داخل الجبال . وقد كان من الممكن أن ينهى الجدل حول هذا الموضوع هذا العرض الواضح لهذا الشاهد ، لو لم تتدخل العواطف الانسانية فى هذا الموضوع» . وفى نهاية القرن السابع عشر ، غزا حشد من علماء اللاهوت المجال الجيولوجى فتجمعوا من ايطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا وجعلوا الظلام يخيم على الرأى فى هذا الموضوع ، حتى تركوه أكثر ابهاما . ومن ثم فان كل من كان يرفض أن يقتنع بأن مخلفات البحر

العضوية دليل على طوفان نوح الذى ورد فى الشريعة الموسوية ، كان معرضا لتهمة الكفر بالكتابات المقدسة . ونادراً ماعبر العلماء منذ عهد «فراكاسنورو» ، عن آراء تصل الى حد النظريات السليمة .

وبذلك انقضى مايقرب من مائة عام فى الجدل الذى تلخص فى أن ماعثر عليه من مخلفات عضوية متحجرة لم يكن سوى عمل من أعمال الطبيعة . كما انقضت فترة أخرى تقرب من قرن ونصف قرن فى تأكيد نظرية أن المخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى عثر عليها مدفونة فى طبقات الأرض الصلبة ، هى تلك التى خلفها طوفان نوح . ولم يتدخل بعد ذلك أى منطق نظرى فى أى فرع من فروع العلم بطريقة أكثر جدية من هذا ، وبملاحظة أكثر دقة ، وبتصنيف تنظيمى للحقائق . ويحق لنا فى العصر الحديث أن نعزو تقدمنا السريع أساسا الى تحديدنا الدقيق لنظام تتابع الكتل المعدنية عن طريق محتواها العضوى المتفرع وتطابق أشكالها المنتظم . ولكن الباحثين القدماء فى الرواسب الطوفانية كانوا مدفوعين بوسائلهم الى الخلط بين مجموعات الطبقات الأرضية ، كما كانوا يعزون كل ظواهرها الى سبب واحد ، ويرجعونها الى فترة زمنية قصيرة واحدة ، ولايرجعونها الى مجموعة أسباب حدثت خلال فترة طويلة من تعاقب العصور . لقد كانوا ينظرون الى الظاهرة فى حد ذاتها فحسب ، وكما يحلو لهم أن ينظرون اليها ، مشوهين الحقائق فى بعض الأحيان ، ومستخلصين النتائج الخاطئة من المعلومات الصحيحة فى أحيان أخرى .. وباختصار فان مجمل التقدم الجيولوجى منذ بداية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كان صراعا قويا دائما بين الأفكار الجديدة من ناحية ومعتقدات الأجيال المتلاحقة التى يكرسها الايمان التأويلى الذى فرض فيه الاستناد على نصوص مقدسة ».

ولم يكن الخطأ الذى ارتكبه «سير تشارلزليل» قد نسى حقا ، ففى أقل من قرن مضى ، عين «وليام بوكلاند» مدرسا للجيولوجيا فى جامعة أكسفورد ، وكان لا يزال يؤكد لمستمعيه فى حفل توليه « أن الحقيقة الكبرى للطوفان الذى انتاب العالم منذ زمن ليس بعيدا للغاية ، قد دعمت بأسس حاسمة لانزال فيها ، بحيث أننا لو لم نكن قد قرأنا عن هذا الطوفان فى الكتاب المقدس أو فى أى مصدر آخر ، فان علم الجيولوجيا نفسه كان سيفترض حدوث مثل هذه الكارثة ليفسر ظاهرة الحدث الفيضانى» .

كما كتب فى عصرنا عالم جيولوجى آخر مرموق يقول (١) : « لقد كنت أعتقد لزمن طويل ان حكاية الطوفان التى تقع فى الاصحاح السابع والثامن من سفر التكوين لا يمكن أن تفهم الا اذا افترضنا أنها سجل لشاهد عيان دونه فيما بعد مؤلف سفر التكوين . فتحديد وقت ارتفاع المياه وسقوطها ، وسبر غور المياه من أعلى قمم التلال عندما بلغ الفيضان أقصاه ، وغير ذلك من التفاصيل ، فضلا على الايقاع الكلى للحكاية ، كل هذا يبدو أنه يتطلب هذا الفرض ، فضلا على أنه يزيح كل الصعوبات فى سبيل فهم الحكاية ، تلك الصعوبات التى كثيرا ما كان يحس بها القارئ . ولكن اذا كانت حكاية الطوفان فى سفر التكوين تعد سجلا لشاهد عيان، فكيف يمكننا أن نفسر المتناقضات الواضحة التى تحتوى عليها الحكاية فيما يختص بمدة الطوفان وعدد الحيوانات التى سمح لها نوح بدخول السفينة ؟ ان مثل هذه النظرية ، فضلا على أنها لم تحل المشكلات التى أثارتها الحكاية ، فانها على العكس جعلتها متعذرة كلية على الفهم ، اللهم الا اذا تبنينا بالمثل افتراضات غير عادلة ومسيئة لصدق المؤلف أو لوقاره .

ولن نسهب كذلك فى عرض تفسير آخر لحكايات الطوفان تمتع بشعبية كبيرة فى السنوات الأخيرة فى ألمانيا . فحكاية الطوفان ، وفقا لهذا التفسير ، ليست لها علاقة بمياه أو بفلك ، وانما هى أسطورة تتصل بالشمس أو القمر أو النجوم ، أو بها جميعا . على أن هؤلاء العلماء الذين توصلوا لهذا الكشف الغريب ، لم يتفقوا فيما بينهم بحال من الأحوال حول تفاصيل نظريتهم الفلكية ، فى الوقت الذى اتفقوا فيه على رفض التفسيرات الدنيوية الشائعة . فبعضهم رأى أن الفلك يمثل الشمس ، والبعض الآخر رأى أنه يمثل القمر ، وأن القار الذى طلى به الفلك تعبير تجسيدى لخسوف القمر ، كما تمثل طوابق الفلك الثلاث مراحل مدار القمر . وقد حاول آخر المدعين لهذه النظرية أن يوفق بين كل المتناقضات فى وحدة واحدة ، بأن جعل الناس يركبون القمر بينما تركوا الحيوانات تفعل ما يحلو لها بين النجوم . حقا انه لما يشرف هؤلاء كثيرا أن تناقش مثل هذه السخافات جديا بطريقة علمية . وانما حرصت على أن أشير اليها لما أحدثته من بهجة خففت من ملل المناقشة الطويلة الجادة .

(Sir) John William Dawson, The Story of the Earth and Man, Sixth Edition (London 1880), p. 290 note *

(نقلا عن الطبعة المطولة ـ ج ٢ ص ٣٤٠ حاشية ٣) (المترجمة)

على اننا اذا اهملنا هذه التصورات الخيالية ، وهذا هو ماتستحقه بحق ، فمازال امامنا ان نواجه السؤال عن أصل حكايات الطوفان . فهل هذه الحكايات تعبر عن حقيقة صادقة أو عن كذب ملفق ؟ وهل هذا الطوفان الذى تصفه الحكايات باصرار ، قد حدث حقا أو لم يحدث ؟ اننا يمكننا أن نقول بشيء من الثقة ان هذه الحكايات فى حدود وصفها للطوفانات التى أغرقت العالم جميعا حتى المرتفعات الشاهقة ، كما اغرقت الناس والحيوانات جميعا على وجه التقريب ، حكايات كاذبة . ذلك أنه اذا كان يمكننا أن نثق فى أكثر الشواهد ثقة لعلم الجيولوجيا الحديث ، فان مثل هذه الكارثة لم تحدث قط طوال عصور سكنى الانسان على وجه الأرض . أما ما يفترضه بعض الفلاسفة من ان محيطا كونيا غمر الأرض جميعا قبل أن يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهذه مسألة أخرى تماما . فقد تصور « ليبنتز » ، على سبيل المثال ، أن الأرض « كانت فى الأصل كتلة مضيئة مشتعلة ثم أخذت تتعرض لعمليات التبريد منذ ذلك الوقت . فلما بردت القشرة الخارجية بما فيه الكفاية ، بحيث سمحت للبخار بأن يتكثف على سطحها ، تساقطت الأبخرة المتكثفة مكونة المحيط الكونى الذى غطى أعلى الجبال ارتفاعا وأحدق بالأرض جميعا » . ومثل هذه النظرية التى تقوم بتكون محيط أولى من الأبخرة المتكثفة بينما كانت المواد المنصهرة فى كوكبنا الأرضى تفقد حرارتها تدريجيا ، هذه النظرية تتبع بالضرورة فرض « نيبيولار » الشهير الذى نادى به « كانت » لأول مرة مفسرا به أصل الأجرام الكونية ، ثم وسعه «لابلاس» فيما بعد . كما كان لامارك كذلك « متأثرا بعمق بالاعتقاد الذى كان سائدا بين الطبيعيين القدامى وفحواه أن المحيط الأولى أحدق بالكوكب الأرضى بعد أن سكنتها الكائنات الحية بزمن طويل » . على أنه اذا كانت مثل هذه التأملات قد راودت الانسان البدائى ، فانها تختلف بوضوح عن حكايات الطوفان الذى قضى على الناس جميعا على وجه التقريب ، لأن مثل هذه الحكايات افترضت وجود الجنس البشرى على وجه الأرض قبل حدوث الطوفان ، ومن ثم فهى لا ترجع الى عصر سبق عصر البلايستوسين .

ولكن على الرغم من أن حكايات الطوفان الكبير ذات طابع خرافى صرف ، فمن الممكن ، بل انه من المحتمل حقا ، أن كثيرا منها يخفى بذرة من الحقيقة تحت غلافها الأسطورى . اى أن هذه الحكايات من الممكن انها تحتوى على ذكرى حوادث الطوفان الذى غمر أحياء بعينها بحق . ثم صور هذا الطوفان المحلى بشيء من المبالغة فى أثناء انتقال الروايات ،

فأصبح كارثة حلت بالعالم . وسجل التاريخ غنى بأمثلة عن الفيضانات الكبيرة التى جلبت معها الدمار هنا وهناك . وقد كان الأمر يكون غريبا حقا، اذا لم تكن ذكرى بعض هذه الحوادث قد عاشت طويلا بين سلالات الأجيال التى عاصرت هذه الحوادث . واذا شئنا أن نسوق أمثلة لمثـل هذه الفيضانات المدمرة ، فاننا لن نبعد بعيدا ونشير الى البلد المجاور لهولندا ، الذى كثيرا ما تعرض للفيضـانات فى القرن الثـالث عشر ، فكثيرا ما هددت الفيضاناتالأراضى المنخفضة التى تقع على طول «فلى» حتى غمرتها الأمواج فى نهاية الأمر . وبالمثل طغى المحيط الألمـانى على بحيرة « فليفو » ــ الداخلية . وقد بدأ بحر « زويدرزى » وجوده بأن غمر آلافا من القرى الفريزيانية ، وأغرقها بمن فيها من السكان ، ثم فصل بين الأهالى عن طريق أخدود حفره وسط بلادهم . وبذلك طمس هذا الطوفان الكبير معالم هذه البلاد الجغرافية والسياسـية معـا . وهكذا انعزل الهولنديون عن أقربائهم فى الشرق عن طريق هـذا البحر الخطير الشـبيه بذلك البحر الذى عزلهم عن اخوانهم الأنجلوسكسونيين فى انجلترا . ثم حـدث أن هبت عاصـفة من الشـمال فى بداية القرن السادس عشر ، فدفعت مياه المحيط الى شاطىء زيلنـدة المنخفض فى سرعة هائلة بحيث لم تتمكن الميـــاه أن تتـدفق فى مضيق دوفر . وقد تحطمت حواجز « بيفلاندة الجنوبية » وغمرت مياه البحر البلاد ، وأغرقت مئات القرى ، وانفصل جزء من البلد عن الضواحى ودفن تحت الأمواج، وبذلك أصبحت « بيفلاندةالجنوبية » جزيرة ، ومنذئذ أصبح الشريط المائى الذى فصلها عن سائر القارة يعرفَ « بالارض الغرقى » .

ولم يتسبب الطوفان الذى أغرق بقاعا من هولنـدا فى هذه الظروف وغيرها عن سـقوط الأمطار الغزيرة ، وانما تسبب عن ارتفـاع ميـاه البحر . وعلى نحـو هـذا نرى أن الطوفان فى غير قليـل من حكايات الطوفان لا يعزى الى سقوط الأمطـار ، وانما يعزى الى ارتفاع ميـــاه المحيط . فارتفاع مياه البحر هو سبب الفيضان الذى حكى عنه أهالى جزر «نياس» و «انجـانو» و «روتى» و «فرمـوزا» و «تاهيتى» ، و «هاواى» و «راكانجا» وجزر «بيلو» ، وفيما روته القبائل الهندية التى تقطن الشاطىء الغربى من أمريكا من « تيراديل فويجو » فى الجنوب الى « ألاسكا » فى الشمال ، وما رواه « الاسكيمو » الذين يسكنون شواطىء المحيط المتجمد .. ومن الواضح كل الوضوح أن مثل هـذه الحكايات تنتشر على نطـاق واسع عنـد شواطىء جزر المحيط الهـادى وفى داخل هذه الجزر ، ذلك لأن المحيط الهادى يتعرض من وقت لآخر للهيـاج

الناجم من الزلازل العنيفة ، ذلك الهياج الذى كثيرا ما تسبب فى اغراق الشواطىء والجزر التى حكت عنها حكايات الطوفان الكبير الذى نجم عن ارتفاع مياه البحر . أفلا يحق لنا بعد هذا ، بل أفلا يتحتم علينا ، أن نفسر نشأة بعض هذه الحكايات على الأقل بحدوث مثل هذه الفيضانات ؟ . أليست كل الاحتمالات تؤيد العلاقة السببية لا العرضية بين هذه الحكايات والفيضانات التى حكت عنها ؟ .

ومن الطبيعى ان أول دافع عند الأهالى الذين يسكنون الشواطىء التى تتعرض للزلازل وما يتبع هذا من ارتفاع مياه البحر ، أن يلجأ هؤلاء الأهالى عندما يشعرون بالهزات الأرضية الى المرتفعات العالية طلبا للحماية من مياه الفيضان . ولقد رأينا أن الهنود الأراوكانيين ، سكان «شيلى» الذين يروون حكاية عن الطوفان الكبير ، والذين يخشون من تكرار هذا الدمار ، يأوون الى الجبال عندما يشعرون بهزات أرضية عنيفة . كما تعود « الفيجيانيون » الذين رووا بالمثل حكاية عن الطوفان المهول ، أن يعدوا قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر شبيه بما حكوا عنه . فاذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الحقائق ، فربما قبلنا تفسير العالم الاثنولوجى الامريكى المشهور « هوراشيو هالى » ، الذى فسر به الرواية الفيجيانية عن الطوفان ، بوصفه تفسيرا معقولا ومحتملا . فقد كتب تعليقا على ما ورد من أن « الفيجيانيين » كانوا فيما مضى يعدون قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر فقال :

« ان هذا التقرير ـ الذى سمعناه من اناس آخرين بنفس التعبير ـ ربما دفعنا الى أن نتساءل عما اذا كان قد حدث فى تاريخ هذه الجزر حوادث حقيقية كانت دافعا على نشأة هذه الحكايات ، وعلى عادة الاحتفاظ بالقوارب معدة لحدوث أية كارثة . ففى السابع من نوفمبر عام ١٨٣٧ تغير مجرى المحيط من الشرق الى الغرب بتأثير الأمواج العاتية التى سببتها حدوث الزلازل فى شيلى ، وشعر بها سكان جزر « بونين » . كما ارتفعت المياه عند جزر « ساندوتش » عند شاطىء « هاواى » الشرقى ، وفقا لما ذكره « جارفيس » فى تاريخه (صفحة ٢١) وبلغ ارتفاعها عشرين قدما فوق سطح البحر، فغمرت الأراضى المنخفضة كما غمرت عدة قرى ، وأهلكت كثيرا من الكائنات الحية . وقد تكرر حدوث مثل هذا الفيضان فى هذه الجزر فى ظروف أخرى . فاذا افترضنا ، وهو *أمر ليس بعيد الاحتمال* ، *انه فى غضون ثلاثة الاف أو* اربعة آلاف سنة ، ان أمواجا بلغ ارتفاعها أضعاف ما ذكره «جارفيس» قد تجاوزت المحيط الى جزر « فيتيان » (فيجيان) ، فمن المؤكد أن

مثل هذه الأمواج قد أغرقت السهول الخصبة التى تقع على الجانب الشرقى من « فيتيليفو » التى تعد أكثر الجزر ازدحاما بالسكان . ولا يساورنا شك فى أن يغرق عدد كبير من السكان فى هذه الظروف ، وأن يهرب البعض فى قواربه ، ويلجأ الى جزيرة « مبينجا » الجبلية التى تقع بالقرب من هذه المنطقة .

ومثل هذا التفسير يمكن أن ينطبق بوضوح على سائر أساطير الطوفان التى دونت فى جزر الباسفيك ، حيث ان هذه الجزر جميعا قد تعرضت على هذا النحو فيما يبدو ، الى غزو الأمواج العالية التى تتبع الهزات الأرضية . وقد يبدو أنه من الأسلم على الأقل ، فى حدود معلوماتنا الراهنة ، أن نقبل بصفة مؤقتة ، وجهة نظر العالم الاثنولوجى الأمريكى المرموق ، بدلا من أن نقبل نظرية عالم اثنولوجى ألمانى بارز نزع الى تفسير كل الحكايات البولوينزية بوصفها أساطير تجسد حركة الأجرام السماوية وهى الشمس والقمر والنجوم .

واذا كانت بعض حكايات الطوفان التى نشأت بدافع فيضان البحار تعتمد على هذا النحو ، على أساس تاريخى ، فليس هناك ما يمنع من أن حكايات الطوفان الذى تسبب عن سقوط الأمطار الغزيرة ، ترتكز بالمثل على هذا الواقع الطبيعى . فها نحن هؤلاء الذين يسكنون البقاع المنبسطة من بريطانيا ، قد تعودنا حدوث فيضانات محلية تسببها الأمطار الغزيرة . فقد حدث ، على سبيل المثال ، منذ بضع سنين أن غمرت المياه التى تجمعت من سقوط مطر غزير مفاجىء كان أشبه بالوابل ، أجزاء كبيرة من « نورفولك » بما فى ذلك « نورويتش » . وبهذا السبب نفسه غرقت الأجزاء المنخفضة من « باريس » منذ بضعة سنوات مضت ، مخلفة الرعب والفزع لا بين سكان باريس وحدهم ، بل بين عشاق المدينة الجميلة فى جميع أنحاء العالم . ولعله من اليسير أن ندرك بعد هذا ، كيف يمكن أن تكبر ذكرى كارثة من هذه الكوارث بين شعب جاهل أمى لا يتجاوز تفكيره حدود رؤياه ، فتصبح فى خلال أجيال أسطورة تحكى عن طوفان عالمى لم يهرب منه سوى أفراد مفضلين بطريق أو بآخر . بل أن المسافر أو المقيم الأوربى الذى استمع من جماعة من البدائيين الى حكاية عن طوفان محلى صرف غرق فيه كثير من الناس ، يمكن أن يبالغ فيها الى حد كبير ، ويفسرها فى ضوء حكاية طوفان نوح التى ألف هو نفسه أن يسمعها منذ صغره .

وعلى هذا النحو رأى بعض الباحثين أن يفسروا كلا من الحكاية البابلية والعبرية عن الطوفان الكبير من خلال ظاهرة الفيضانات التى

يتعرض لها وادى نهر الفرات ودجلة فى كل عام بسبب سقوط الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج على جبال ارمينيا . فقد قيل ان أساس الحكاية البابلية هى ظاهرة سقوط الأمطار وموسم العواصف فى كل عام ، تلك الأمطار والعواصف اللتان كانتا تدومان عدة شهور تغرق فى أثنائها أحياء كاملة فى وادى نهر الفرات . وقد كانت الأمطار والعواصف تسببان دمارا مروعا يستمر حتى ينتظم مجرى نهر دجلة والفرات مرة أخرى وتحل البركة محل اللعنة ، عندما يحل الخصب الذى اشتهرت به بلاد بابل . وتذكرنا حكاية الطوفان العبرية بموسم بعينه حل فيه دمار ترك تأثيرا عميقا فى النفوس . وتؤكد مقارنة الحكاية العبرية بأختها البابلية التى عثر عليها مدونة على ألواح الطين فى مكتبة آشور بانيبال ، وجهة نظر نشأة الحكاية محليا .

وبناء على هذا الفرض ، فان الطوفان الكبير قد تسبب عن سقوط أمطار غزيرة غير عادية وعن ذوبان الثلوج . ولم يكن هذا سوى صورة غير مألوفة لظاهرة عادية . وقد ترك هذا الدمار الذى حل بالوادى أثرا لا يمحى فى ذاكرة الأحياء وذاكرة الأجيال من بعدهم . وقد يقال انه مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن كلا من الحكاية البابلية واقدم صيغة للحكاية العبرية ، تؤكد أن السبب الوحيد الذى يعزى اليه حدوث الطوفان هو سقوط الأمطار الغزيرة .

ويمكن الاستشهاد كذلك ، تأييدا لهذه النظرية ، بما تتعرض اليه البلاد حتى اليوم من فيضانات خطيرة بسبب العوامل الطبيعية . فعندما وصل « لوفتوس » أول عالم آثار عمل فى حفريات مدينة «وركا» القديمة فى الخامس من مايو عام ١٨٤٩ م وجد أن السكان فى أقصى حالات الفزع وتوقع الخطر ، ففى أعقاب ذوبان الثلج السريع على جبال الأكراد ، وتدفق المياه من نهر الفرات عبر قناة « السجلاوية » ارتفعت مياه دجلة فى ربيع هذا العام الى مستوى لم تصل اليه من قبل ، اذ بلغ ارتفاعها اثنين وعشرين قدما ونصف ، أى بزيادة خمسة أقدام عن المستوى العادى الذى كان يرتفع اليه النهر فى السنوات السالفة . بل انه ارتفع عن أقصى منسوب وصل اليه عام ١٨٣١ م ، عندما حطم النهر الجسور ، واغرق مالا يقل عن ألف مسكن فى ليلة واحدة ، فى وقت كان الوباء ينشر اكبر خراب مروع بين السكان . وقبل وصول البعثة الانجليزية ببضعة ايام ، دعا الباشا التركى ، حاكم بغداد ، الشعب كله دعوة رجل واحد ليقوم على حماية البلاد من الخطر الداهم بتشييد جسور حول الأسوار . فغرس الناس فى الأرض جداثل من البوص لكى تمسك التربة مسكا

محكما ، وبذلك حيل بين الماء وبين تدفقه داخل البلاد ، وان كانت المياه قد تسربت الى الأرض الطينيـة الرخوة وارتفعت فى المطـامير الى عدة أقدام . أما خارج المدينة فقد ارتفعت المياه الى قدمين فوق الشاطىء . ولم يحل دون تدفق المياه داخل البلد سوى البيوت التى كانت تقف على الشاطىء ومعظمها كان واهيا ، بالغ القدم . لقد كان وقتا حرجا للغاية ظل الناس فيه ساهرين ليلا ونهارا يرقبون الحواجز . ولو كان الخزان أو احدى الحواجز قد فشلت فى حجز المياه ، لغرقت بغداد عن آخرها . ولكن التحصينات صمدت لحسن الحظ حتى انحسرت الميـاه تدريجيا . أما أطراف المدينة فقد غمرها الماء بحيث تعذر الوصول وراء الحواجز الا عن طريق القوارب التى استخدمت وسائل انتقال فى الأماكن التى غمرتها المياه . وهكذا ظلت المدينة لبعض الوقت كالجزيرة وسط بحر داخلى . وقد استمر الحال على هذا النحو مدة شهر قبل أن يتمكن النـاس من السير وراء الحواجز . وعند مقدم الصيف تسببت الأبخرة المتصـاعدة من المياه المتراكمة فى انتشـار المـلاريا على نطاق واسع بحيث مات من الناس الذين كان يبلغ عددهم سبعين ألفا ، مالا يقل عن اثنى عشر ألف نسمة بسبب الحمى .

فاذا كانت الفيضانات التى تتسبب عن ذوبان الثلوج فوق جبـال ارمينيا من الممكن أن تهدد البـلاد الواقعـة فى وادى النهر حتى العصر الحديث ، فليس بعيدا أن نفترض أنها كانت تفعل هذا أيضا فى العصور القديمة ، ومن ثم فان الحـكاية البـابلية التى حكت عن دمار مدينـة « شوريباك » بسبب الطوفان ترتكز على أصل واقعى . حقا انه يبدو أن المدينة قد دمرت بسبب النار لا الفيضان ، ولكن هـذا يتفق تماما مع افتراضنا أن الفيضان كان قد دمر المدينة فى عصر أكثر قدما ، ثم أعيـد بناؤها بعد هذا .

وفى العموم ، فانه يبدو أن هناك سببا معقولا يدعونا لأن نفكر أن بعض حكايات الطوفان ، ومن المحتمل الكثير منها ، ليست سوى أخبار مبالغ فيها عن الفيضانات التى حدثت بالفعل، اما بسبب الامطار الغزيرة أو بسبب الأمواج الثائرة التى تعقب الهزات الأرضية أو لأى سبب آخر. ومن ثم فان مثل هذه الحكايات تعـد مزيجا من الحقيقة والأسـطورة . فهى حقيقية بقدر ما تحتفظ بذكرى الفيضانات التى حدثت حقا ، وهى أسطورية بقدر ما تصف الفيضانات العالمية التى لم تحدث قط . على اننا صـادفنا فى أثنـاء عرضنا لحـكايات الطوفان ، حكايات ذات نزعة أسطورية صرفة ، لأنها تتحدث عن طوفان لم يحدث قط . ومثـال ذلك

الحكايات « الساموثراسيانيـــة » و « الثيسـاليانية » التى ربط الاغريق بينها وبين اســمى « داردانوس » و « دويكاليون » . ومن المحتمــل أن الحكاية « الساموثراسيانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من المعالم الجغرافية الطبيعية للبحر الأسود وحدوده ، ونعنى البوسفور والدردنيل . وبالمثل فان الحكاية «الفيساليانية» ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من الحقائق الجغرافية الطبيعية لحوض تسيسماليان الذى تحيط به سلسلة من الجبال ، ويحده أخدود « تيمبى » . ومثل هذه الحكايات ليست حقيقية وانما هى أسطورية صرفة ، فهى تصــف كوارث لم تحــدث على الاطلاق • ولهــذا فهى تعــد نماذج من هذا النوع من الحكايات الأسطورية التى أطلق عليها « سير ادوارد تايلور » ، حكايات الملاحظة حيث انهـــا تعتمد على ملاحظــة الظواهر الطبيعية ، وتخطى فى تفسيرها .

وهناك مجموعة أخرى من حكايات الطوفان التى تندرج تحت صنف أساطير الملاحظة ، وهى تلك الحكايات التى تعتمد على ملاحظـــة المخلفات الحيوانية والنباتية التى عثر عليها فوق الجبال وفى الأماكن النائيـــة من البحر • ومثال هذا النوع كما رأينا ، ما روى عن سكان منغوليا وسكان « وسيليبس » الذين يتحدثون اللغة البارية ، والتاهيتيين والاسكيمو ، وسكان جرينلاند • فحيث أن هذه الحكايات تعتمــد على فرض خاطىء مؤداه أن مياه البحر لابد أنها ارتفعت حتى غمرت المرتفعــات التى عثر فوقها على المخلفات الحيوانية والنباتية ، فهى تعــد حكايات اســتدلال خاطئة ، أى أنها تندرج تحت صنف أساطير الملاحظة • ولو أنهم افترضوا هبــوط هذه المرتفعات سالفا تحت سطح البحر ، لكان ذلك اســتدلالا حقيقيا ، أو حدسا علميا ..

ومن ثم فانه اذا كان هناك سبب معقول يجعلنا نعتقد أن كثيرا من حكايات الطوفان التى انتشرت فى أنحاء العالم ترتكز على ذكرى كوارث حدثت بالفعل ، فانه ليس هناك أدلة مؤكدة تجعلنا نعتقد أن أيا من هذه الروايات أقدم من ثلاثة آلاف سنة على الأكثر . وحيثما وجدنا روايات تصف التغيرات الكبيرة التى طرات على شكل الكرة الأرضية ، وهى تغيرات حدثت فى زمن ما فى العصور الجيولوجية القديمــة ، فان تلك الروايات لا ترتكز على سجل شاهد عيان معاصر لتلك التغيرات ،وانما ترتكز على تأملات مفكرين عاشوا فى عصور متأخرة عن عصور هذه التغيرات بزمن طويل . فالانسان ، بالقياس الى الملامح الطبيعية الهائلة لكوكبنا الأرضى ليس سوى ابن الأمس ، كما أن ذاكرته ليست سوى حلم ليلة ..

الفصل الخامس

برج بابل

من بين المشـــكلات التى وقفت عقبة دون أية محـاولة للبحث عن فجر تاريخ الجنس البشرى ، مسألة أصل اللغة ، وهى فى الوقت نفســه من أكثر المسائل اثارة وأكثرها صعوبة . على أن الكتاب الذين ضمنوا الفصول الأولى من سفر التكوين آراءهم الساذجة عن الأصول البشرية لم يذكروا شيئا عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد تصوروا أن الانسان قد حصل بها على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان وهى القدرة على الكلام البين . بل انهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو، أن الانسان قد منح تلك المقدرة التى لا تقدر بثمن ، منذ الأزل . نعم ، بل تصوروا أن هذه المقدرة كانت قاسما مشتركا بين الانسان والحيــوان ، اذا كان لنا أن نستدل على ذلك من خلال حديث الانسان مع الحيوان فى جنـــة عدن . ومهما يكن الأمر ، فان اختلاف اللغات التى تحدثت بها الأجناس الانسانية المختلفــة ، قد جذبت بطبيعة الحـال أنظار العبريين القــدماء وفسروها من خلال الحكاية التالية .

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة . ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة الشرق ، حتى وصلوا الى سهول « شنعار » الفسيحة أو الى أرض بابل ، وهناك حطوا رحالهم . وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد ان الصقوا

بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين ، حيث انه كان يتعذر عليهم الحصول على الأحجار فى التربة الرخوة للمسطحات المستنقعية الشاسعة . على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، بل رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم . والسبب الذى دفعهم الى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى لايتفرق الناس على سطح الأرض من ناحية أخرى ، ذلك أنه اذا تجـول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السـهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعـكست عليـه أضواء سماء المساء البراقة . أو انه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب . وعند ذاك يسـلك طريقـه مسترشدا بهذا المعلم حتى يصـل الى بيتـه . وقد كانت هـذه الخطة سليمة ، لولا انهم لم يكونوا قد وضعوا فى حسـابهم قوة الرب وغضبه عليهم . فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعلون به فى سرعة فائقة . فساءه هذا المنظر وقال لهم : « ها هم أولاء شـعب واحـد له لسـان واحد ، وهـذا ما شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شيء من تحقيق غرضهم » . ويبـدو أن الرب كان يخشى أنه عنـدما يكتمـل بناء البرج ويصل الى عنان السماء ، يتسلقه الناس ويقضون مضجعه ، وهو الأمر الذى لم يفكر فيه الناس . ولذلك فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها . وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبط الى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » . وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم على وجه الأرض . ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج . وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة ، لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعا .

وقد زخرفت رواية عبرية متأخرة مادة هـذه الحكاية البسـيطة بتفاصيل تصويرية غنية . من هذه التفاصيل نعلم أن فكرة تشييد برج بابل لم يكن يقصد بها سـوى التمرد على الاله ، وان لم يتفق المتمردون على هدف واحد . فبعضهم كان يرغب فى ارتقاء السماء واعلان الحرب على شخص الاله ، واحلال أصنامهم محله . والبعض الآخر قصر هدفه على فكرة أكثر تواضعا ، هى الحاق الضرر بالقبـو السـماوى ، وذلك بضربه بالرماح والسـهام . وقد ظل النـاس يشيدون البرج عدة سنين حتى شمخ عاليـا ، وأصبح على البنـاء أن يقضى عاما كاملا فى سـبيل الوصول الى أعلى البناء وهو يحمل وعاء الملاط فوق ظهره . فاذا هوى البنـاء ساقطا وكسرت رقبته ، لم يبال أحد بذلك ، وانما ينفجر الجميع

فى البكاء على الطوب الذى لم يستخدم فى استكمال بناء البرج ، اذ يتحتم عليهم أن ينتظروا عاما آخر حتى يتمكنوا من اضافة قوالب أخـــرى الى البناء . وقد كانوا يعملون فى حماسة بالغة الى درجة أن المرأة لم تكن تكف عن اعداد الطوب ساعة ولادة طفلها . فاذا ولدت الطفل ربطتـــه حـــول بطنها بملاءة ، واستأنفت عملها فى تشكيل قوالب الطوب وكأن شيئا لم يحدث . وهكذا استمر العمل ليل نهـــار دون توان . وهنـــاك من أعلى البرج صـــوبوا سهامهم نحو الســـماء ، فكانت سهامهم ترتد الى الذين يقفون أســـفل البرج وهى ملوثة الدماء . وعنـــد ذاك صـــاحوا قائلين « لقـــد قتلنا كل من فى الســـماء » . وهنـــا نفـــد صبر الرب وتوجه الى الملائكة السبعين الذين يحيطون بعرشه ، وأمرهم أن يهبطوا الى الأرض ويبلبلوا ألسنة الناس . وفعلت الملائكة ما أمروا به ، ونجم عن ذلك سوء تفاهم دائم ومؤلم بين النـــاس ، فاذا طلب رجل ، على ســـبيل المثال ، الملاط من رجل آخر ، قدم اليه هـــذا قالبا من الطوب بدلا من الملاط ، فيغضب الأول ويقذف بقالب الطوب فى وجهه فيقتله . وهكذا مات كثير من الخلق على هـــذا النحو . ومن لم يمت عاقبه الرب جـــزاء جريمة التمرد التى دبرت ضده . أما عن البرج الذى لم يكن قد اكتمـــل بناؤه بعـــد ، فقد هوى جزء منه ، كما التهمت النار جزءا آخر ، ولم يظل واقفا منه سوى ثلثه . هذا ولم يفقد هذا المكان خاصيته العجيبة قط ، فكل من مر به نسى كل ما كان يعرفه .

ان مشهد هذه الأسطورة قد صور فى أرض بابل . ذلك أن كلمـــة بابل هى الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه المدينة . أما كون الكلمة هى الصيغة الشائعة المستخلصة من العقل « بلل » (بلبل بالآرامية) بمعنى بلبل ، فهذا خطأ . أما المعنى الحقيقى للكلمة ، كما يتضح من الصيغة التى دون بها الاسم فى المخطوطات فهو فيما يبدو « بوابة الرب » (باب ــ ايل أو باب ــ ايلو) . وربما كان الشـــارحون على حق فى ارجاع دافع الحكاية الأصلى الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقـــول البدو الساميين السذج . فهـــؤلاء الذين كانوا قد اعتـــادوا الوحدة وســـكون الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشـــوارع والأســـواق ، وبهرتهم الألوان المتغيرة فى الزحام المصطخب ، كما دهشوا لضجيج الأصوات التى تنطلق من السنة غريبة ، وذعروا لرؤية المبانى الشـــاهقة وبصفة خاصـــة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق وهى تعلو طابقا فوق الآخر حتى كانت تبدو قممها البراقة المبنية من الطوب المصـــقول وكأنها تمس صفحة الســـماء الزرقاء . وليس بعيدا بعد هذا أن يتصور ساكنو الخيـــام أن هـــؤلاء

الذين تسلقوا هذا البرج الهائل عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون فى النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ، أنهم كانوا قد اقتربوا من الآلهة بحق ٠

ولا تزال الآثار الترابية لمعبدين هائلين من هذه المعابد ترى حتى اليوم فى بابل ٠ ومن المحتمل أن أسطورة برج بابل تتصل باحدى هذه المعابد أو بالآخر ٠ ولا يزال أحد هذين المعبدين يبرز بين حطام بابل نفسها ويحمل اسم بابل ٠ أما المعبد الآخر فيقع حطامه عند النهر قرب « بورسيبا » على بعد ثمانية أو تسعة أميال جهة الجنوب الغربى ويعرف باسم « بيرز نمرود » . وقد كان الاسم القديم لهذا المعبد الذى كان يقع فى مدينة بابل ، هو « اى (١) ــ ساجيل » ، وكان مخصصا لعبادة الاله « مردوك » . أما الاسم القديم للمعبد الذى كان يقع قرب « بورسيبا » فهو « اى ــ زيدا » ، وكان مخصصا لعبادة الاله « نبو » . ولم يتفق الباحثون حول أى من المعبدين كان فى الأصل هو برج بابل ، فالحكايات المحلية واليهودية تربط بين البرج الأسطورى وحطام « بئرز نمرود » الذى يقع عند « بورسيبا » ٠ ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه فى هذا المكان ، أن الملك البابلى القديم الذى بدأ فى بناء برج المعبد عند « بورسيبا » ، تركه ناقصا بدون قمة . وربما كان منظر هذا الصرح الهائل فى شكله غير المكتمل هو الدافع وراء نشأة أسطورة برج بابل ..

وعلى كل ، فقد كان فى بابل الكثير من أبراج المعابد ، وربما كانت الأسطورة ترتبط بأحد هذه الأبراج . فحطام مثل هذه المعابد ، على سبيل المثال ، لا يزال قائما فى « أورو » أو « أور الكلدانيين » التى التى هاجر منها ابراهيم ، فيما يقال ، الى أرض كنعان ٠ ويعرف هذا المكان الآن باسم « المقير » أو « المجير » وهو يقع على الشاطىء الأيمن لنهر الفرات على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق بابل ٠ ولا تزال مجموعة من الروابى المنخفضة ذات الشكل البيضاوى تشير الى مكان المدينة القديمة . وأرض هذه المدينة التى تلتف حول الروابى مسطحة للغاية بحيث ان مياه فيضان نهر الفرات كثيرا ما تغمرها فى الفترة ما بين شهر مارس الى شهر يونيه أو يولية . وعند ذاك تبرز هذه الروابى كالجزيرة وسط مستنقع كبير ، ولا يمكن الوصول اليها الا بواسطة القوارب . وتمتد أشجار النخيل على طول شاطىء النهر دون انقطاع

---

(١) كلمة أى فى اسمى المعبدين سومرية ومعناها « بيت » ٠

(المراجع)

حتى نختفى فى الخليج الفارسى • وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا المكان ، تشمخ أطلال برج المعبد الى ما يقرب من سبعين قدما . ويتكون هذا الصرح من طابقين فى شكل متواز قائم الزوايا يتجه جانباه الكبيران جهة الشمال الشرقى والجنوب الغربى ويبلغ طول كل منهما حوالى مائتى قدم • أما الجانبان الأصغران فيبلغ طول كل منهما مائة وثلاثين قدما • وتتجه احدى زوايا الصرح جهة الشمال تقريبا ، كما هو الحال فى جميع الأبنية المماثلة له . ويرتكز الطابق الأسفل الذى يبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين قدما على دعائم قوية . أما الطابق العلوى الذى يبتعد عن طرف الطابق الأسفل بحوالى ثلاثين الى سبعين قدما ، فيبلغ ارتفاعه أربعين قدما وتتوجه أنقاض من الطوب يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام على وجه التقريب • أما مرتقى هذا الصرح فقد كان من جهة الشمال الشرقى • ويشير نفق محفور فى الرابية الى أن الصرح كله كان مبنيا من الداخل من الطوب المجفف فى الشمس ، تحيط به طبقة سميكة بعضها من الطوب المحروق ذى لون أحمر فاتح ، وتفصل بين بعضه وبعض عيدان الغاب . ويبلغ سمك هذا كله عشرة أقدام حيث انه مغلف بحائط مرصع بالطوب المحروق فى الأفران • وقد عثر على اسطوانات محفور عليها كتابات فى الزوايا الأربع من هذا المبنى ، وكل اسطوانة كانت موضوعة فى كوة هى عبارة عن قالب منزوع من الطوب • وقد أثبتت الحفريات التى تمت بعد ذلك أن الكتابات التذكارية على هذه الاسطوانات ، فيما يبدو ، كان البناوءون أو الذين يقومون بترميم المعابد البابلية والقصور يضعونها فى اركان الصروح الأربعة •

وقد علمنا من احدى هذه الكتابات أن المدينة كان اسمها « أور » ، وأن المعبد قد خصص لعبادة الاله « سين » اله القمر البابلى (١) • كما علمنا أن الملك أور — أوك أو «أورينجور» ، كما ينبغى ان ينطق اسمه ، الذى شيد برج المعبد ، قد تركه غير كامل ، وان هذا الصرح قد أكمله ابنه الملك « دونجى » من بعده . ويختلف تاريخ حكم الملك «أور — أوك» أو « أورينجور » ، فهو يتحدد بعام ٢٧٠٠ ق.م. أو بعام ٢٣٠٠ ق.م. وفى كلتا الحالتين فان بناء المعبد قد سبق التاريخ الذى يحدد عادة لميلاد ابراهيم ، ربما بمئات من السنين • فاذا كان ابراهيم قد هاجر حقا من « أور » الى « كنعان » ، كما تذكر ذلك الرواية العبرية ، فان هذا البناء

---

(١) هو الاله الذى تحمل اسمه شبه جزيرة سينا فى الأراضى المصرية •

(المراجع)

بعينه الذى ما تزال آثاره المقدسة قائمة بهذا المكان حتى اليوم ، والذى كان مسيطرا بارتفاعه الشامخ على طبيعة البلاد المسطحة التى يخترقها نهر الفرات متجها الى البحر ـ كان يألفه ابراهيم منـذ نعومة أظفاره ، وربما كان آخر ما وقع عليه بصره فى بلده ، عندما رحل ليبحث عن أرض الميعاد ، فودعه وهو ينظر وراءه الى وطنه ، والصرح يختفى على البعد وراء غابات النخيل ٠

ولم يذكر كاتبو سفر التكوين شيئا عن طبيعة اللغة المألوفة التى كان يتحدث بها الجنس البشرى كله قبل أن تتبلبل ألسنته ، تلك اللغة التى يفترض أن أبوينا الأولين قد تحدثا بها مع بعضهمـا بعضا ، ومع الحية ، ومع الرب فى جنة عدن ٠ وقد افترض جدلا فى العصور المتأخرة أن اللغـة العبرية كانت هى الأولى للجنس البشرى . ويبـدو أن آباء الكنيسة لم يعارضوا هذا الرأى . وفى العصر الحديث عنـدما كان علم اللغة ما يزال فى مهده نشيطا وان كان ناقصا ، بذلت الجهود لارجاع كل أشكال اللغات الانسانية الى اللغة العبرية على اعتبار أنها أصـل هـذه اللغات ٠ ولم يختلف الباحثون المسـيحيون فى تبنى هـذا الفرض الساذج ، عن علماء الأديان الأخرى ، الذين رأوا أن لغة كتبهم المقدسة لم تكن لغة آبائهم الأولين فحسب ، وانما كانت لغة الالهة أنفسهم . وقد كان أول من وخز هذا الرأى بطريقة مؤثرة هو « ليبنتز » ، الذى لاحظ « انه كما أن هناك من الأسباب ما يدعو لافتراض أن اللغـة العبرية هى اللغة الاولى للجنس البشرى ، فان هناك من الأسباب كذلك ما يدفعنـا الى تبنى وجهة نظر « جوروبيوس » الذى نشر مؤلفا فى « آنتويرب » عام ١٥٨٠ يثبت فيه أن اللغة الهولنـدية هى اللغـة التى كان يتحدث بها فى الجنة » . وهناك كاتب آخر ادعى أن اللغة التى كان يتحدث بها آدم فى الجنة هى اللغة الباسكية (١) . وتحدى آخرون الكتاب المقدس صراحة وادعوا أن اللغات المختلفة كانت موجودة فى جنة عدن نفسها، فآدم وحواء كانا يتحدثان اللغة الفارسية ، كما كانت الحية تتحدث اللغة العربية وأما جبرائيل الملك المفضل فقد تحدث مع أبوينا الأولين باللغـة التركيـة . وهناك باحث شاذ آخر ، يرى جديا أن الرب قد تحدث الى آدم باللغة السويدية ، وان آدم أجاب خالقه باللغة الدانمركية ، وان الحية تحدثت

---

(١) الباسكيون هم شعب مجهول الأصل يقطن مناطق البرانس الغربية فى فرنسا واسبانيا ٠

(المترجمة)

مع حواء باللغة الفرنسية . كل هذه النظريات منشوءها التعصب الوطنى والتنافر بين علماء اللغات •

وتحكى قبائل افريقية عديدة حكايات تتشابه مع أسطورة برج بابل فى وجوه محدده . فبعض أهالى زمبيزى الذين يسكنون فيما يبدو بجوار سلالات فيكتوريا ، «يحكون حكاية تتصل بحكاية بناء برج بابل ولكنها تنتهى بأن البنائين الجرآء انفلقت رءوسهم عندما سقطت بهم السقالات» وهذه الحكاية التى رواها دكتور «لفنجستون» بايجاز ، دونها مبشر سويسرى فى شكل أكثر اكتمالا . فقبيلة «أ ــ لوبى» التى تسكن عند أعالى نهر الزمبيزى ، تحكى أن الههم ، نيامبى « الذى يعد اله الشمس عندهم ، تعود فى سالف الزمن أن يسكن فى الأرض ، ثم صعد الى السماء بعد ذلك متسلقا خيوط العنكبوت . وهناك تحدث الى الناس من عليائه وقال لهم آمرا : « اعبدونى » . فتحدث الناس الى بعضهم بعضا وقالوا : « دعونا نقتل الاله نيامبى » . فذعر الاله لتهديدهم ولاذ هاربا الى مسكنه السماوى الذى كان قد هبط منه من قبل . وعند ذاك قال الناس : « لتنصب الآن أعمدة نصل عن طريقها الى السماء » فنصبوا أعمدة ربطوها بأعمدة أخرى تعلوها ثم أخذوا يتسلقونها . فما أن وصلوا الى ارتفاع كبير حتى سقطت بهم الأعمدة ، وهووا صرعى الى الأرض ، وكانت هذه هى نهايتهم . وتحكى قبيلة « بامبالا » التى تسكن فى الكنغو ، أن « الوانجونجيين » رغبوا ذات مرة أن يروا القمر على حقيقته . فدكوا عمودا فى الأرض تسلقه رجل يحمل عمودا آخر فى يده ثبته فى نهاية العمود الأول ، ثم صعد رجل آخر يحمل عمودا ثالثا ثبته فى العمود الثانى ، وهكذا حتى وصل البرج الى ارتفاع كبير للغاية بحق ، اذ أن كل فرد من أفراد الشعب تسلق ومعه عمود ربطه بالعمود الأخير. ثم هوى هذا الصرح فجأة ، فهوى الأهالى صرعى وراحوا ضحية حب استطلاعهم الطائش . ومنذ ذلك الوقت لم يحاول أحد أن يتعرف على القمر . وتحكى أهالى «مكولوى» الذين يسكنون فى شرق افريقيا حكاية شبيهة بالحكاية السالفة • فقد قال الناس ذات يوم لبعضهم بعضا ، وذلك وفقا لرواية هؤلاء الأهالى :

« دعونا نبنى بناء عاليا حتى نصل الى القمر » • وعند ذاك غرسوا شجرة ضخمة فى الأرض ، ووضعوا فوقها شجرة ثانية وثالثة وهكذا حتى هوت بهم الاشجار وقتل بعض الأهالى . فقال بعضهم الآخر : « لا تيأسوا من هذه المحاولة » . فرصوا الأشجار بعضها فوق بعض حتى هوت بهم وقتلوا هم كذلك . وعند ذاك كف الناس عن محاولة

الصعود الى القمر . ويحكى الأشانطيون أن الاله القديم كان يعيش بين الناس ، ولكن امرأة عجوزا الحقت به الاهانة ، فصعد غاضبا الى مسكنه فى السماء . فحزن الناس لفراقه وقرروا أن يبحثوا عنه . فأخذوا يجمعون أرجل الخنازير ورصوا بعضها فوق بعض . فلما علا برجهم وكاد أن يصل الى السماء ، اكتشفوا فى فزع أن ما لديهم من أرجل الخنازير لا يكفى لاتمام البرج . فماذا يفعلون ؟ عند ذاك هب رجل حكيم وهم فى هذا المأزق ، وقال لهم : « ان المسألة فى غاية البساطة . خذوا الرجل السفلى وضعوها فوق العليا ، واستمروا فى هذا الفعل حتى نصل الى الاله » . فلما بدءوا ينفذون اقتراحه ، وانتزعوا الرجل السفلى ، هوى البرج كما يمكن أن نتوقع . على أن بعض الأهالى يعزون سقوط البرج الى النمل الأبيض الذى أخذ يقرض الأرجل من أسفل . وعلى كل فان الاتصال بالسماء لم يتم ولم يتمكنوا قط من الصعود الى الاله .

ويحكى فى المكسيك عن بناء هرم «كولولا» ، أضخم عمل للسكان الأصليين فى امريكا بأسرها ، حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس عن برج بابل . ويقع هذا العمل الضخم الذى مازال المسافر فى العصر الحديث يقف أمامه متأملا اياه فى اعجاب ، بالقرب من المدينة الحديثة الأنيقة «بويبلا» ، فى الطريق من «فيراكروز» الى العاصمة . وهذا الهرم يشبه فى شكله الأهرام المصرية ، ولكنه يضارعها فى أبعاده . ويبلغ ارتفاع سطحه المنحدر حوالى مائتى قدم ، أما قاعدته فيبلغ طولها ضعف قاعدة هرم خوفو . ويتخذ هذا الهرم شكل الـ «تويكاليس» المكسيكى ، أى أنه هرم أقطع . وتتجه جوانبه الأربع نحو الجهات الأصلية ، كما أنه يتكون من أربعة مصاطب . على ان خطوطه الأصلية انمحت بمرور الزمن وبتأثير الجو ، بينما أصبحت الشجيرات الكثيفة والأشجار تغطى سطحه ، بحيث يبدو وكأنه تل طبيعى أكثر منه رابية صنعتها يد الانسان . وهذا الهرم مشيد من الطوب الأحمر الملصوق بالملاط الذى عشقت فيه قطع الأحجار الصغيرة وأجزاء من السكاكين والأسلحة المصنوعة من الزجاج البركانى الأسود . وبين قوالب الطين وضعت طبقات من الصلصال . وتطل قمة هذا الهرم المسطحة التى تبلغ مساحتها حوالى الفدان على منظر رائع ، هو منظر الوادى الخصب المترامى الأطراف الذى تحيط به الجبال البركانية الضخمة التى تغطى منحدراتها المنخفضة الغابات الكثيفة . أما قمتها الرخامية فهى عارية ومجدبة ، وتغطى أعلى أجزائها الثلوج على مدار السنة .

وقد دون المؤرخ الأسبانى «دوران» الأسطورة التى تتعلق بهذا الصرح الضخم فكتب عام ١٥٧٩ يقول : «فى بداية خلق الحياة ، كانت الأرض مظلمة عابسة قبل أن تخلق الشمس والقمر ، كما كانت خلوا من كل المخلوقات ومسطحة ليس بها جبال أو تلال أو أشجار وتحيط بها المياه من كل جانب . فلما خلقت الشمس وبزغت من الشرق ، ظهر بعض الناس على سطح الأرض فى هيئة شياطين غلاظ وأصبحوا أصحاب الأرض . ثم دفعهم الفضول لأن يبصروا الشمس وهى تشرق وتغرب . فاتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا للبحث عنها . فقسموا أنفسهم الى مجموعتين ، المجموعة الأولى اتجهت الى الشرق والأخرى الى الغرب وظلوا سائرين حتى وقفوا عند شاطىء البحر . وعند ذاك قرروا أن يعودوا من حيث أتوا . فوصلوا الى المكان الذى يسمى «ازتاكشولين أنيمينيان» . ولما احتاروا فى طريقة توصلهم الى الشمس التى استمتعوا بدفئها وجمالها ، قرروا أن يشيدوا برجا عاليا تصل قمته الى السماء. وبينما كانوا يبحثون عن مواد للبناء عثروا على طين خزفى وقار سميك استعانوا بهما على العمل فى تشييد البرج . فلما ارتفعوا به عاليا حتى كاد أن يصل الى عنان السماء ، غضب منهم الاله وقال لساكنى الجنة : هل رأيتم كيف شيد سكان الأرض هذا البرج الشامخ وأصابهم الزهو فشاءوا أن يتسلقوه اذ بهرتهم الشمس بضوئها وجمالها ؟ دعونا الآن نفرقهم فى الأرض ، اذ لايصح أن يختلط بنا البشر بأجسامهم الدنيوية». وفى لمح البصر كان سكان السماء منتشرين فى جهات الأرض الأربع ، وحطموا الصرح الذى شيده الناس بضربة كالصاعقة . عند ذاك فزع هؤلاء العمالقة وملأهم الرعب وتفرقوا فى كل جهات الأرض .

ولايتمثل تأثير حكاية الكتاب المقدس على هذه الحكاية فى تفرق مشيدى البرج فى انحاء العالم فحسب ، وانما يتمثل كذلك فى بناء البرج من الطين والقار . اذ بينما نجد أن برج بابل قد شيد ، كما قيل، من هاتين المادتين ، نجد أن المكسيكيين لم يستخدموا قط مادة القار فى مثل هذا الغرض ، هذا فضلا عن أن القار لا وجود له فى أى مكان قريب من «كولولا» . «على أنه يبدو أن حكاية بلبلة الألسنة قد انتشرت فى المكسيك بعد غزو الأوربيين لها بزمن قصير ، اذ أنه من المحتمل انها قد ذاعت بتأثير المبشرين . ولايبدو أن الحكاية العبرية لها صلة بأسطورة برج «كولولا» . ولكنه من المحتمل على الأقل ان هناك حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس مدونة فى قائمة «جيميلى» للمهاجرين المكسيكيين، تلك القائمة التى نسخت فى «هومبولت» . وتحكى هذه الحكاية أن طائرا

كان يقف على شجرة ارسل عددا من اللغات الى حشد من الناس كانوا يقفون أسفل منه» . وربما كان «تايلور» على حق فى اتهام أسطورة «كولولا» بأنها «ليست أصيلة ، أو أنها على الأقل جزء من تلفيق متأخر » .

وربما انطبق مثل هذا الحكم على حكاية تروى عن قبيلة «كارن» فى «بورما» ، وهى قبيلة ابدت ميلا غريبا لاستعارة الحكايات المسيحية بعد أن كانت تخلع عليها طابعا محليا شفافا . وتجرى حكاية برج بابل كما تروى عن «الجايكهوويين» ، وهم فرع من هذه القبيلة على النحو التالى :

«يرجع «الجايكهوويين» سلسلة نسبهم الى آدم . وعندما بنى برج بابل كان قد تناسل منهم ثلاثون جيلا ، وفى هذا الوقت انفصلوا عن «الكاريين الحمر» . وفى عصر «بان – دان – مان» ، استقر رأى هؤلاء على أن يشيدوا هيكلا متعدد الأدوار يصل الى عنان السماء . أما المكان الذى شيد فيه هذا الهيكل فهو ، فيما يرون ، كان يقع فى مكان ما فى بلاد «الكاريين الحور» . وقد كان الكاريون ، كما يذكرون ، على صلة بهذا المكان حتى زمن حادث هذا البرج . ولما اتموا بناء نصف هذا الهيكل ، هبط الاله من السماء وبلبل السنة الناس ، بحيث لم يعد بعضهم يفهم البعض الآخر . ومن ثم تفرق الناس ، واتجه «ثان – ماو راى» جد قبيلة «جايكو» جهة الغرب ومعه ثمانية من الزعماء ، واستقر فى وادى «سيتانج» .

وقد عادت حكاية برج بابل وبلبلة الألسن الى الظهور بين قبيلة «ميكير» احدى قبائل «التبت البورمانية» المتعددة التى سكنت فى أسام فهم يقولون ان نسل «رام» كان قويا فى الزمن القديم . ولما لم يقتنع هؤلاء بسيادتهم على الأرض ، فكروا فى غزو السماء . ومن ثم فقد بدءوا فى تشييد برج يوصلهم الى السماء . وأخذ البرج يعلو تدريجيا حتى خشيت الآلهة والشياطين أن يسيطر هؤلاء المردة على السماء كما سيطروا من قبل على الأرض . فبلبلت الآلهة ألسنتهم وشتتهم فى اركان الأرض الأربعة . ومن ثم فقد تعددت لغات الجنس البشرى .
ومرة اخرى نجد الحكاية القديمة بعينها تنتشر فى شكل خفى بعض الشىء بين «الأيسلنديين» و «الأميراليين» . فهم يقولون : ان تعداد أسرة أو قبيلة «لوهى» كان يبلغ مائة وثلاثين نسمة ، وكان زعيمهم يسمى «موريكيو» . ثم قال هذا الزعيم لقومه : «دعونا نشيد بيتا يطاول السماء» . فبدأوا فى تشيد هذا البيت . وما كادوا يقتربون من السماء

حتى أتاهم رجل من «كالى» يدعى «بواوى» منعهم من الاستمرار فى بناء البيت وقال «لمويكيو» : «من الذى أمرك أن تشيد بيتا عاليا على هـذا النحو ؟» . فأجاب مويكيو اننى زعيم اللوهيين . ولقد قلت لقومى : «دعونا نشيد بيتا يطاول السـماء» . ولو اننى كنت طـوع ارادتى ، لشيدت بيوتنا جميعا عالية تطاول السماء . أما الآن ، فقد نفذت رغبة قومى ، وأصبحت البيوت منخفضة» . وبعد أن انتهى من كلامه نثر الماء على قومه ، فتبلبلت السنتهم ، ولم يعد الواحد منهم يفهم الآخر ، وتفرقوا فى بقاع الأرض ، وبذلك أصبح لكل بلد لغته . وقد لايساورنا أدنى شك فى أن هذه الحكاية ليست سوى صدى لتعـاليم المبشرين المسيحيين .

على أن هناك غير قليل من الشعوب حاولت أن تفسر اختـلاف اللغات عن طريق حكايات لاتمت لحكاية برج بابل بسبب أو بأية حـكاية أخرى تشبهها فى تكوينها المعمارى . فقد حكى الاغريق أن الناس عاشوا أحقابا طويلة فى سلام . ولم يكونوا آنذاك يعيشون فى مدن أو يحكم بينهم قانون سوى حكم الاله زيوس ، ولايتحدثون سوى لغة واحدة . ولكن الاله «هرمس» ، جعل لغة الناس مختلفة ، وقسم الجنس البشرى الى شـعوب . فلما دب النزاع بين الناس فى بادىء الأمر ، اسـتاء « زيوس » لخلافاتهم ، فاعتزل العرش وتركه للبطل اليونانى «فورونيوس» ، أول ملك حكم من بين الناس . وتحكى قبيلة « واسانيا » التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية ، أن القبائل كلها لم تكن تتحدث فى الزمن القـديم سوى لغة واحدة . ثم حدثت مجاعة قاسية أصابت الناس بالجنون ، فتفرقوا فى كل بقاع الأرض وهم يثرثرون بألفاظ غريبة ، فنشأت اثر ذلك اللغات المتعددة . وتفسر قبيلة «كاشثاناجاس» ، وهى قبيلة تسكن التلال فى أسام ، اختلاف اللغات على نحو آخر . فقد كان الناس جميعا ، وفقا لروايتهم ، جنسا واحدا ثم قدر لهم بعد ذلك أن ينقسموا الى أمم متعددة . وقد كان للملك الذى كان يحكم بين الناس ابنة تدعى «ستيولى» ، وكانت تتميز بسرعة معجزة فى السير . وكانت «ستيولى» تحب التجول فى الأحراش طوال النهار بعيدا عن البيت ، الأمر الذى كان يسبب قلقا لأبويها ، اذ كانا يخشيان أن تفترسها الوحوش . وذات يوم فكر أبوها فى حيلة ليبقيها فى البيت ، فأرسل فى طلب سلة مملوءة ببذر الكتان ، ثم نثر الحب على الأرض ، وأمر ابنته أن تجمع البذور بذرة بذرة وتضعها فى السلة وتعدها فى الوقت نفسه . ثم تراجع عنها وهو يحسب أن هذا العمل سيشغلها اليوم كله . ولكن الفتاة فرغت

من العمل عند الغروب ، وعدت الحبوب ووضعتها فى السلة ، ثم اسرعت على التو الى الأحراش فلما عاد والداها وتفقداها ، لم يعثرا لها على اثر . فأخذا يبحثان عنها اياما عديدة حتى اعترض طريقهما تنين مهول كان يأكل فى نهم فى ظل الأشجار . فاجتمع الناس حول التنين وطعنوه برماحهم وسيوفهم . وما أن فعلوا هذا حتى تغيرت اشكالهم ووجدوا انفسهم يتحدثون لغات مختلفة . ثم انفصلت كل جماعة تتحدث لغة واحدة عن الجماعات الأخرى ، واصبحت هذه الجماعات المختلفة اجدادا للأمم المختلفة التى تعيش الآن على وجه الأرض . على أن الحكاية لم تذكر شيئا بعد هذا عن الأميرة ومصيرها . وعما اذا كانت قد عادت لوالديها الحزينين أم أن التنين قد ابتلعها [10]

ويفسر «الكوكيون» فى «مانيبور» وهم عنصر آخر يسكن تلال « أسام » ، اختلاف اللغات فى قبائلهم من خلال الرواية التالية : كان ثلاثة أحفاد لزعيم بعينه يلعبون معا ذات مرة داخل البيت ، عندما طلب منهم جدهم أن يصطادوا له فأرا . وبينما كانوا منصرفين الى اصطياد الفأر أصيبوا بلعثمة فى ألسنتهم ، وأصبح كل منهم يتحدث لغة لا يفهمها الآخر، ولهذا فقد هرب منهم الفأر . أما أكبر هؤلاء الأخوة فقد تحدث اللغة «اللاميانجية» ، وأما الأوسط فقد تحدث اللغة «التهادوية» . وأما الثالث فقد قيل أنه تحدث اللغة « الوفيبية » ولكن البعض يعتقد أنه قد تحدث بلسان «مانيبور» . وعلى كل فقدأصبح الثلاثة أجدادا لثلاثة قبائلمميزة. وترجع قبلة «انكونترباى» التى تسكن فى جنوب استراليا أصل اللغات الى امرأة عجوز حادة المزاج ، توفيت منذ زمن بعيد . وقد كان اسم هذه المرأة « وروري » ، وكانت تسكن جهة الشرق ، وتسير فى العادة وهى تحمل عصا فى يدها تفرق به النار التى ينام الناس من حولها . فلما ماتت ابتهج الناس لتخلصهم منها ، الى درجة أنهم أرسلوا الرسل فى كل مكان لتعلن نبأ وفاتها . ومن ثم فقد اجتمع الرجال والنساء لا لتأبينها ، ولكن ليبتهجوا بموتها ويقيمون وليمة كانيبالية . وكان « الرامينجيراريون » هم اول من سقطوا على الجسد وأخذوا يلتهمون لحمه . وما كادوا يفعلون هذا ، حتى أخذا يتحدثون لغة واضحة . أما القبائل الأخرى التى كانت تسكن جهة الشرق ، فقد وصلت متأخرا ، ومن ثم فقد أخذت تلتهم الأمعاء ، ولهذا فقد أخذت تتحدث بلغة تختلف بعض الشىء عن لغة القبيلة الأولى . وما لبثت أن وصلت القبائل التى تسكن جهة الشمال فى نهاية الأمر ، فأتت على سائر الأمعاء وما تبقى من الجسد ، فتحدثت بلغة تختلف عن لغة « الرامينجيراريين » . أكثر من اختلاف لغة القبائل الثانية منها .

ويحكي الهنود الانديون في كاليفورنيا أن الناس جميعا كانوا يتحدثون لغة واحدة حتى زمن معين · وبينما كان الناس يشعلون النار ، وكان كل شيء معدا لليوم التالي ، أخذ كل منهم في الليل يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان كان كل زوجين كانا يتحدثان بلغة واحدة · وفي تلك الليلة ظهر الاله الذي يسمونه « الأرض الأولى » لرجل بعينه اسمه « كوكسي » ، وأخبره بما حدث ، وأرشده الى ما ينبغي عمله في اليوم التالي عندما يبدأ الناس يتحدثون لغات مختلفة · ومن ثم فقد جمع « كوكسي » الناس جميعا وتحدث اليهم ، اذ كان يعرف اللغات جميعا ، فعلمهم أسماء الحيوانات المختلفة ، وغيرها من أسماء الأشياء باللغات المتعددة كما علمهم كيف يطهون طعامهم ويقتنصون حيواناتهم ، وشرع له القوانين ، وحدد لهم أوقات الرقص والاحتفالات · ثم سمى كل قبيلة باسمها ووزعهم في جهات الأرض المختلفة بعد أن حدد مكانا لسكنى كل منها · وقد سبق أن رأينا أن « التيلينجيين » في « ألاسكا » يفسرون اختلاف الألسنة من خلال حكاية الطوفان التي ربما أخذوها عن المبشرين المسيحيين أو من التجار · وقد حكى « الكويتشيون » في « جواتيمالا » عن زمن ما في بداية الحياة ،كان الناس فيه يعيشون معا ويتحدثون لغة واحدة، ولا يعرفون آنذاك عبادة الحجر أو الخشب ، ولا يذكرون سوى كلمة الخالق « قلب السماء والأرض » · وبمرور الزمن تكاثرت القبائل وتركوا موطنهم الأصلي ووصلوا الى مكان يسمى « تولان » · وهناك في هذا المكان ، وفقا لرواية « الكويتشيين » تغيرت لغة القبائل ، ونشأت اللغات المختلفة · وعند ذاك لم يعد الناس يفهم بعضهم بعضا وتفرقوا في بقاع الأرض بحثا عن مساكن جديدة لهم ·

هذه الحكايات الأخيرة التي تنحو الى تفسير اختلاف الألسنة لا تمت بحكاية برج بابل بسبب · ومن ثم فاننا يمكننا أن نعهدها باستثناء الحكاية التيلنجية ، حكايات مستقلة حاول العقل الانساني عن طريقها أن يتصارع مع المشكلات المعقدة ، مهما يكن مقدار النجاح الذي أحرزه في سبيل حلها ·

الباب الثانى

عصر الأنبياء

الفصل الأول

ميثاق إبراهيم

يختتم سفر التكوين التاريخ العام للجنس البشرى فى العصور الأولى منذ بدء الخليقة بحكاية برج بابل ، وتفرق الناس فى شتى بقاع العالم من هذا المركز الذى كانوا يجتمعون فيه • ثم يضيق الكتاب نطاق حكاياتهم ويركزونها حول الشعب العبرى وحده • وهنا يتخذ التاريخ شكل سلسلة من التراجم يصور من خلالها مصير هذه الأمة لا فى هيئة خطوط باهتة عامة ، وانما فى مجموعات من الصور الملونة البراقة التى تسجل مغامرات الرجال الأفراد ، أجداد هذا الجنس . والوحدة التى تربط بين حياة هؤلاء الشيوخ الأجداد ليست مجرد سلسلة من الأنساب ، وانما تربط بين هؤلاء الأجداد المصالح المشتركة بقدر ما تربط بينهم رابطة الدم ، فقد كان هؤلاء الشيوخ جميعا بدوا رعاة يتنقلون بقطعانهم من مكان لآخر بحثا عن المرعى الخصب ، ولم يكونوا قد ركنوا بعد لحياة الزراعة الرتيبة ، وفى نفس الحقل الذى كان يعمل فيه آباؤهم وأجدادهم من قبل •• وباختصار فان كتاب سفر التكوين يصورون عصر الرعى بملامح واضحة وألوان حية لم يعتمها الزمن ، وما تزال هذه الملامح تأسر القارىء بسحرها الذى يفوق الوصف على الرغم من التغييرات التى عشناها فى حياتنا الحديثة • ويتصدر هذا المعرض التصويرى الذى صورت مناظره بخلفية من الطبيعة الهادئة ، شخصية ابراهيم الجليلة • فبعد أن ترك

ابراهيم بابل ، موطن ميلاده ، قيل انه رحل الى أرض كنعان . وهناك ظهر له الرب وأكد له المستقبل الباهر والمجد لبنى جنسه . ولكى يؤكد الرب هذا الوعد لابراهيم ، ارتضى ، كما قيل ، أن يعقد بينه وبين ابراهيم عهدا مقدسا ، متبعا فى ذلك كل المظاهر المألوفة التى كانت تتبع بين الناس فى مثل هذه الظروف . وتقدم لنا حكاية هذا العهد لمحة ممتعة عن الوسيلة التى كان يتبعها المتعاهدون فى المجتمع البدائى بقصد عقد ملزم بين الطرفين المتعاقدين .

فنحن نقرأ فى سفر التكوين أن الرب أمر ابراهيم قائلا : « لتضح لى ببقرة عمرها ثلاث سنين ، ونعجة عمرها ثلاث سنين وكبش عمره ثلاث سنين ويمامة وحمامة صغيرة » . فأخذ ابراهيم البقرة والنعجة والكبش ، وشطر كلا منها الى شطرين ووضع كل شطر على الشطر الآخر . أما اليمامة والحمامة فلم يشطرهما وعندما تزاحمت الطيور الجارحة على لحم الذبائح طردها ابراهيم . وبينما كانت الشمس تغرب ، راح ابراهيم فى نوم عميق وقد تملكه الفزع من الظلام الحالك . فلما غربت الشمس تماما وأظلم الكون ، أبصر ابراهيم أتونا يتصاعد منه الدخان ، وشعلة من النار تمر بين أجزاء الضحية ، وهنا أعلن الرب عهده لابراهيم .

ونلاحظ من خلال هذا الوصف أن الفزع الذى انتاب ابراهيم عند مغيب الشمس كان نذيرا بقدوم الرب الذى مر بين أجزاء الضحية فى هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار . وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقاليد الشرعية التى كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق على العهد . فنحن نعرف عن النبى «ارميا» أنه كانت من عادة الطرفين المتعاهدين أن يذبحوا بقرة يشطروها الى شطرين ويمروا بينهما . ومما يؤكد كل التأكيد أن هذا كان هو النظام المتبع فى هذه المناسبة ، العبارة العبرية التى تستخدم فى عقد عهد بين طرفين وهى « قطع العهد » . كما يؤكد هذا الاستدلال ما يشبه هذا فى اللغة والطقوس الاغريقية ، ذلك أن الاغريق يستخدمون عبارات شبيهة بعبارة العبريين ، كما يمارسون طقوسا شبيهة بطقوسهم . فهم يتحدثون عن « قطع اليمين » بمعنى القسم به ، وعن «قطع العهد» بمعنى عقد العهد . وهذا التعبير ، وبالمثل التعبير العبرى واللاتينى ، مستمد بدون شك من عادة ذبح الضحية وشطرها الى شطرين بوصفها وسيلة لخلع المهابة على القسم أو العهد .

فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أنه عندما كان أغاممنون على وشك ان يقود الاغريق الى طروادة ، أحضر العراف «كلخاس» خنزيرا بريا الى

ميدان السوق وذبحه وشطره الى شطرين ، شطر جهة الشرق وشطر جهة الغرب ، ثم مر كل رجل شاهرا سيفه بين شطرى الخنزير وهو يغمس طرف سيفه فى دمه · وبهذا أقسموا على عدائهم « لبريام » (١) · وقد كانت الطقوس الاغريقية تفرض على المتعاهدين فى بعض الأحيان — وان لم يكن هذا أكثر شيوعا — أن يقف قاسم اليمين على جسد الضحية ، بدلا من أن يمر بين شطريها · فقد كان المتهم فى المحاكمات التى كانت تجرى فى محكمة « أريوباحوس » فى « أثينا » ، يقسم اليمين وهو واقف على أجزاء من جسد خنزير برى ، وكبش وثور قام بذبحها أشخاص بعينهم فى أيام محددة · وعندما كثر خطاب « هيلين » الشقراء ، خشى والدها من انتقام الأحبة الذين ترفضهم ابنته ، فجعلهم جميعا يقسمون اليمين على حمايتها وحماية من تختاره من بينهم ليكون زوجا لها مهما يكن كنهه · ولكى يخلع على القسم نوعا من الرهبة ضحى بفرس وقطعه الى أجزاء ، وطلب من جميع الخطاب أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الفرس · وقد كانت هناك فى حجرة المداولات فى الأولمب صورة للاله « يوس» الذى كان يكنى باله القسم . وكانت من عادة الرياضيين وآبائهم وأخوتهم وكذلك المدربين ، أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الخنزير البرى المذبوح على ألا يقوم اللاعبون بألعاب غادرة · وقد كان هناك فى «مسينيا» مكان يسمى «قبر الخنزير البرى» ، لأن هرقل ، فيما يقال ، كان قد أقسم عنده هو وأبناء « نيليوس » وهو واقف على قطع من جسد خنزير برى مذبوح ·

ومثل هذه الشعائر التى تتبع عند القسم أو عند عقد معاهدة سلمية كانت تتبعها القبائل البربرية فى الزمن القديم · فقد اعتادت قبيلة « مولوسيان » أن يقطعوا جسد ثور الى أجزاء صغيرة عند عقد معاهدة ، ويقسمون اليمين على هذه الأجزاء على ألا ينقضوها · على أننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا كانوا يصنعون بأجزاء الحيوان المذبوح فى احتفالاتهم · واذا رأى رجل من «السكيثيانيين» أن شخصا آخر قد أخطأ فى حقه ، وأحس أنه أعزل ازاءه ، يتوسل الى أصدقائه أن يعاونوه على النحو التالى : يذبح ثورا ويقطعه الى أجزاء ويغلى لحمه · ثم يبسط جلده المدبوغ على الأرض ويجلس فوقه وذراعاه مكتوفتان خلفه كما لو كان مكبلا · وقد كانت هذه هى أكبر أشكال التضرع العاجل عند «السكينيانيين» . فاذا

---

(١) هو ملك طروادة وفقا للأسطورة الاغريقية وزوج « هيبوكا » وأشهر أولاده « هكتور » و « باريس » ·· وقد قتل بريام هذا فى حرب طرواده ·

(المترجمة)

جلس الرجل على هذا النحو ، والى جانبه اللحم المطهى ، فان كل فرد من أصدقائه أو أقربائه أو أى شخص آخر يختاره لمساعدته ، يأخذ قطعة من اللحم ويضع قدمه اليمنى على الجلد ويعده فى الوقت نفسه بأن يمده بالعديد من رجال الحرب والأفراس وبكل ما يمتلكه ما لم يكن رهينة عنده ، وذلك لكى يساعد المشتكى فى الانتقام من عدوه . وقد يعده البعض بأن يقدم له خمسة من الرجال أو عشرة أو أكثر من ذلك . أما أفقر رجال قومه فيعدونه بتقديم مساعدتهم الشخصية . وبهذه الطريقة تتألف قوة كبيرة يحسب حسابها فى شىء من الفزع لأن كل فرد فى هذه القوة قد أقسم اليمين على أن يقف فى صف صديقه . وينص قانون المحاكم « التبتية » حتى اليوم على «أن من يقسم اليمين الكبير ، وهو مايحدث نادرا ، فان حالف اليمين يقسم به وهويضع كتابا مقدسا على رأسه ويجلس على جلد ثور مدبوغ ، ويأكل قطعة من قلب هذا الثور المضحى به . وتكاليف هذه الشعيرة تتحملها الجماعة التى تقوم برفع الدعوى على المتهم .

وما تزال القبائل البدائية فى افريقيا والهند تتبع مثل هذه الشعائر عند اعلان حالة السلم بين طرفين متنازعين . فعندما يعلن « الكافيروندبون » فى افريقيا الشرقية البريطانية حالة السلم بعد الحرب ، فان الجانب المغلوب يذبح كلبا ويقطعه الى جزئين . ثم يحمل ممثلون من الطرفين المتحاربين لحم الزند ولحم المؤخرة بصفة خاصة فى أيديهم ، ويقسمون فوق هذه الأجزاء على اشاعة السلم والصداقة فيما بينهم . ومثل هذه الشعيرة تقوم قبيلة « نأندى » بتأديتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن المنطقة نفسها ، وذلك عند عقد معاهدة سلمية . فهى تأتى بكلب وتذبحه وتشطره شطرين ، ويحمل كل شطر ممثل عن الطرفين المتحاربين ، ثم يأتى رجل ثالث ويقول : « ليقتل من ينقض هذه المعاهدة كما قتل هذا الكلب» . وعندما تشن عشيرتان من قبيلة «باجيسو» ـ وهى قبيلة من قبائل « البانتو » التى تقطن عند جبل « الجون » فى « افريقيا الشرقية البريطانية» ـ الحرب بعضها على بعض ثم ترغبان فى اقرار السلام بعد ذلك ، فان ممثلين من كلتا العشيرتين يحملان كلبا يمسك أحد الطرفين برأسه ، بينما يمسك الطرف الثانى برجليه الخلفيتين ، ثم يأتى رجل ثالث ويشق الكلب بضربة واحدة الى شقين ، ويرمى جسد الكلب فى الأحراش حيث يترك هناك . وبعد هذا يمكن لأفراد ـ العشيرتين أن يختلط بعضهم بالبعض الآخر دونما خوف من متاعب أو أخطار .

واذا شاء حيان فى قبيلة « واتشاجا » التى تسكن المنطقة نفسها ، أن يعقدا حلفا صارما ، أو معاهدة سلمية فان الشعائر التى تؤدى للتصديق

على هذا الحلف أو تلك المعاهدة تجرى على النحو التالى : يجتمع المتحاربون من كلا الحيين ويجلسون متزاحمين فى شكل دائرى فى مكان ما فى الخلاء • ثم يلف حبل حول الجالسين ويعقد طرفاه السائبان ، بحيث يبدو الجالسون كأنهم مكبلين بالحبل • وقبل أن يعقد الحبل من طرفيه السائبين ، يحرك الحبل ثلاث أو سبع مرات حول الجالسين بعد أن يربط فيه جدى صغير يتحرك مع الحبل وفى النهاية يمر الحبل من طرفه المعقود فوق جسد الجدى الذى يحمله رجلان بينهما وهو ممدد تماما • بحيث يكون الحبل والجدى متوازيين • ويقوم بهذه العملية ولدان لم يختتنا ، وبالتالى لم يتزوجا وليس لديهما أولاد • ومغزى هذا العمل واضح ، فالصبيان يرمزان الى عدم الاخصاب ، أو الى موت الشخص دون أن ينجب، وهو الأمر الذى تنظر اليه القبيلة على أنه أكبر لعنة يمكن أن تحل بانسان ، كما أنها تعزى فى العادة الى ارادة القوى العليا • وفى معظم هذه المعاهدات يدعون باحلال هذه اللعنات على من يحنث باليمين ، وفى الوقت نفسه يدعون بكثرة الانجاب لمن يبقى على يمينه • والهدف من قيام الصبية غير المختونين بهذه الشعائر ، ليس مجرد الاشارة بالرمز الى مصير الحانث باليمين ، وانما التأثير عليه كذلك عن طريق السحر الانجذابى • ومن أجل هذا السبب نفسه ، يقوم الرجال العجائز أنفسهم بتلاوة عبارات اللعنة والبركة ، لأن هؤلاء قد تجاوزوا سن الاخصاب • وهذه الدعوات هى : « اذا قمت بايذائك بعد هذا العهد ، أو دبرت مكيدة ضدك دون أن أحذرك، فلأنشق الى نصفين كما انشق هذا الحبل وذاك الجدى» . ثم يرد الكورس قائلا : « آمين » • « ولأقتل كما يقتل ولد صغير ويموت دون أن يترك ذرية وراءه» . فيرد الكورس قائلا «آمين» . «وليفن قطيعى عن آخره» . ويرد الكورس قائلا : « آمين » • « وليكن عدد أولادى كعدد النحل » فيرد الكورس بقوله : « آمين » • الى آخر هذه الدعوات • فاذا انتهى ممثلو الحيين المتعاهدين من حلف اليمين ، يقطع الحبل ويشق الجدى الى نصفين فى آن واحد بضربة واحدة ، وينثر الدم المنسكب على الطرفين المتعاهدين ، بينما يحل شيوخهم اللعنات والبركات على كلا الطرفين دون تحيز عن طريق ترديدهم لعبارات شاملة • ثم يأكل الشيوخ الذين جاوزوا سن الانجاب لحم الجدى ويقطعون الحبل الى جزئين يتسلم كل طرف من المتعاهدين جزءا منه ، ويحافظ عليه فى حرص . فاذا انتشر وباء أرجعه الكهنة الذين يقومون بتفسير ارادة القوى العليا ، الى نقض سكان البلد الموبوء العهد بعمد أو غير عمد ، فلابد من التكفير ذنب الحبل أو كما يعبر عن ذلك الأهالى «بتبريد الحبل» . ذلك أن القوة السحرية التى خلعها العهد على الحبل تمارس نشاطها ، حسب اعتقادهم ، فى ذلك الانتقام ممن دنس

قدسية هذا الحبل .ويتمثل هذا التكفيرفى ذبح شاة وتلطيخ الحبل بدمها وروثها ، بينما تتلى الكلمات الآتية : «هؤلاء الناس قد ارتكبوا الخطأ دون علـم ، ومن ثم فأنا أكفر اليوم عن ذنبهم أيهـا الحبل ، فلتقبل التكفير · لتقبل التكفير . لتقبل التكفير» . ثم يكفر الطبيب عن هؤلاء الذين نقضوا العهد بأن ينثر عليهم دواء سحريا يتكون من دم سلحفاة وحيوان العزير ، ظبى ، بالاضافة الى قدر من النباتات . وكل هذا يبث فيه الطبيب السر بأن يضع فيه حـزمة من الأعشـاب المتنوعة ويتلو عليه بعض الكلمات السحرية .

وتتفق شعائر عقد معاهدة السـلام التى تتبعها بعض القبائل فى افريقيا الجنوبية مع هذه الشعائر فى شكلها العام ، وان اختلفت عنهـا بعض الشيء · فاذا شاء زعيم قبيلة « بارولونج » أن يعقد معاهدة سلمية مع زعيم آخر لجأ اليه طلبا للحماية ، فهو يأخذ معدة ثور ويبقرها ، ثم يزحف الزعيمان واحدا تلو الآخر من خلال فتحة المعدة ، فيعلنا بذلك أن قبيلتيهما قد أصبحتا اثر ذلك كلا واحدا · وتتبع قبيلة « بتشوانا » مثل هذا النظام « اذا ما عقد زعيمان من زعمائها (تشوارنجا موشوانج) حلفا أو اتفاقا بينهما » · فهما يذبحان حيوانا ، ويمسك الطرفان المتعاهدان ببعض أجزاء أمعائه بحيث تتقابل أيديهما وتكون مغطاة بمحتوى أمعـاء الحيوان المضحى به · ويبدو أن هذا الاجراء هو أكثر صور الاتفاق مهابة ويعرفه الجمهور فى هذا البلد . فلقد أقيمت هذه الشعائر أكثر من مرة فى « شوشـنج » بينما كنت هناك ، وذلك عندما لجـأ بعض الزعماء الى « شيكهوم » ووضعوا أنفسهم تحت حمايته » ·

ومثل هذه الشعائر تتبعها بعض القبائل التى تسكن تلال «أسام» ، وذلك عندما يقومون بعقد معاهدة سلمية . فقبيلة «ناجا» تتبع عـدة وسائل فى تأدية اليمين · وأكثر هذه الوسائل شـيوعاً وقدسية ، أن يمسك أحد الطرفين برأس كلب أو دجاجة ، بينما يمسك الطرف الآخر بالذيل أو الأرجل ، ثم يذبح الحيوان أو الطير بآلة تسمى « داو » ، وهذا رمز لمصير الحانث باليمين »·ومن بين الشـعائر التى تتبعهـا قبيلة « ناجا » وفقا لمصدر آخر ، الشعيرة الآتية : « اذا أقسم أفراد القبيلة على المحافظة على السلم أو على اى وعد آخر ، فانهم يضعون قصبة البندقية أو الرمح بين أسنانهم . وهم يقصدون بذلك أنهم اذا لم يبقوا على اتفاقهم ، فانهم يكونون على استعداد لأن يقتلوا بأحد هذين السلاحين · وهناك شكل آخر بسيط من أشكال القسم ، وان يكن ملزما على حد السواء ، وهو أن يمسك الطرفان بطرفي رمح حجرى ، ثم يكسر هذا الرمح من الوسط بعد أن تترك قطعة منه فى يد الذين يمسـكون به · على أن أكثر الأيمـان

قداسة يكون ، فيما يقال ، عندما يأتى كل طرف من الطرفين المتعاهدين بدجاجة ، ويقبض أحد الطرفين على رأسها بينما يمسك الطرف الآخر بأرجلها ثم تمزق اربا ، مشيرين بذلك الى المصير الذى سيلقاه المخادع أو ناقض العهد » . وتتبع قبائل أخرى فى « أسام » تنتمى الى مجموعة « ناجا » طرقا أخرى تختلف بعض الشىء عن الطرق السابقة فى سبيل فض النزاع . «اذ يمسك كل طرف من الطرفين المتقاضيين بطرف سلة مصنوعة من الخيزران بداخلها قطة حية ، ثم يهوى رجل ثالث على القطة عند صدور اشارة اليه ، فيشقها بسلاح حاد بحيث يلطخ الدم السلاح . وعندما كنت أشهد هذه الشعائر فى مناسبة من المناسبات ، قيل لى :ان هذا الاجراء هو شكل من أشكال اقرار السلام أو عقد معاهدة ، وأن ذبح القطة يربطهم فى رباط من العهد . ويعد القسم على الصداقة بين الزعماء» عند عشائر «لوشاى كوكى» ، فى أسام امرا خطيرا . اذ يربط حيوان المثان (وهو من فصيلة الثور الأمريكى) فى عمود ، ثم تأتى الجماعة التى تنوى القسم ، ويمسك كل فرد منها برمح فى يده اليمنى ويطعن المثان خلف رقبته بقوة بحيث يتدفق الدم ، ويكررون عبارة فحواها انهم سيظلون أصدقاء طالما جريت الأنهار فى الأرض . ثم يذبح الثور بعد ذلك وتدهن جباه المقسمين وأرجلهم ببعض دمه ، كما يأكلون قطعا صغيرة نيئة من كبده لكى يكونوا أكثر ارتباطا بالقسم » .

والآن علينا أن نتساءل : ما معنى ذبح الضحية عند عقد عهد أو عند حلف اليمين ؟ .. ولماذا يصبح العهد أو القسم مصدقا عليه من الطرفين عن طريق التضحية بحيوان وقطع جسده الى أجزاء يمشى الطرفان بينها أو يقفان عليها ، ثم يلطخان أنفسهم بدم هذا الحيوان ؟. ان هناك نظريتين تجيبان عن هذه التساؤلات . النظرية الأولى تسمى نظرية « الجزاء » ، والأخرى تسمى نظرية « السر المقدس » أو نظرية « التطهير » . ولنبدأ بالنظرية الأولى . وذبح الضحية ، بناء على هذه النظرية ، ثم تقطيعها الى أجزاء ، يرمز الى الجزاء الذى سيحل بالشخص الذى يخون العهد أو يحنث باليمين ، فمصير هذا الشخص كمصير الحيوان ، هو القتل . ومن المؤكد أن هذا التفسير يبدو أنه التفسير الصحيح للشعائر تتبعها بعض الشعوب. فقبيلة الواتشاجا تقول فى أثناء تأديتها لشعائرها : « لأنشق الى نصفين كما ينشق هذا الحبل وذلك الجدى» . كما تقول قبيلة « ناندى » عندما تذبح كلبا وتشطره الى شطرين فى هذه المناسبة : « ليقتل من ينقض العهد كما يقتل هذا الكلب » .

ومثل هذه الشعائر كان يتبعها « الأومبيون » ، وهم شعب يسكن

دلتا نهر «النيجر» ، ويعرفون باسم « الكالابازيون الجدد » وقد كان هؤلاء يقومون بتأدية هذه الشعائر مصحوبة بالدعوات الشريرة لاكساب هدنة السلام شيئا من الرهبة • فكانت اذا سئمت بلدتان أو عشيرتان من العشائر القتال الدائر بينهما ، فانهما كانتا ترسلان رسولا الى بلدة «كى» القديمة التى تقع بالقرب من الساحل ، شرق نهر « سومبريرو » ، حيث يعيش كاهن فيتيشى أو « جوجو » يدعى « كى ـ نى أوبورسو » • وفى مثل هذه الظروف يدعى الكاهن الفتيشى ليحضر اليهم ليشرف على التصديق على المعاهدة السلمية بين المتحاربين • ومن ثم ، فان هذا الكاهن كان يحضر فى قاربه المغطى بفروع صغيرة من أشجار النخيل ، ويتفق مع المتخاصمين على يوم يعقدون فيه العهد فيما بينهم • فاذا حان اليوم المحدد ، فان المتخاصمين يجتمعون كما يحضر أهالى بلدة «كى» ومعهم الأشياء اللازمة لتقديم الضحية التى تتكون من شاة وقطعة من القماش الأسود أو الأزرق ، وقدر من البارود ، وحشائش أو بذور الحشائش • ويقسم المتخاصمون فوق هذه الأشياء على السلام والمودة • ثم يقول الكاهن : «اليوم ، نحن أهالى «كى» نجلب السلام لبلدكم • ومن الآن فصاعدا لن يفكر أحد من المتخاصمين فى اساءة الطرف الآخر » • ثم يأتى بالشاة ويشطرها شطرين ويقول : « فاذا شنت احدى البلدتين الحرب مرة أخرى على البلدة الأخرى ، فلتنشق اجسام أفرادها كما انشق جسد هذه الشاة » • ثم يرفع قطعة القماش ذات اللون الداكن ويقول : «وليعم بلدة المسيئين ظلام حالك مثل حلكة هذه القطعة من القماش» • ثم يشعل النار فى البارود ويقول : « وكما يحترق هذا البارود فلتحترق بلدة المذنبين» • ثم يحمل فى النهاية الحشائش ويقول: « ولتغط الحشائش بلد من يشن الحرب مرة أخرى » • وقد كان هناك قانون «كالابارى» قديم يمنع أى بلد من أن تشعل الحرب على قرية « كى » ، لما تقدمه هذه القرية من خدمات فى سبيل اقرار السلام • واذا حدث أن أشعلت بلدة الحرب عليها فانها تقع تحت طائلة النفى ، أو تحت طائلة العقاب الجماعى من جميع أفراد القبيلة • ونلاحظ أن هذه الطقوس الكالابارية تكشف فى غير غموض عن القصد الجزائى من وراء شطر الشاة الى شطرين • كما يؤيد هذا تلك اللعنات التى تصحب الشعائر الرمزية الأخرى •

ومثل هذا التفسير ينطبق على الطقس المشابه لهذا الذى تؤديه قبيلة « ناجا » ، كما تؤيده الصيغ المختلفة لحلف اليمين الذى يعد أنسب تفسير له هو الجزاء الذى يلحق الحانث باليمين • ويمكننا أن ندعم نظرية الجزاء

بشواهد مستقاة من العصر الكلاسيكي القديم · « فعندما قام الرومانيون والألبانيون بعقد معاهدة فيما بينهما وهي أقدم معاهدة مدونة فيما يقول «ليفي» ، تضرع ممثل عن الشعب الروماني الى الاله «جوبيتر» قائلا : « اذا نقض الشعب الروماني هذه المعاهدة عن عمد ، فلتحق بهم الضربات عند ذاك أيها الاله «جوبيتر» ، كما أضرب هذا الخنزير البرى اليوم » · وبعد أن قال هذا ، هوى على الخنزير وذبحه بالسكين · ثم اننا نقرأ في أعمال «هومير» ، أنه عندما عقد الاغريق والطرواديون هدنة فيما بينهما ، ذبحت الأغنام وسكب أغاممنون عليها قربان الخمر وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ، بينما كان الاغريق والطرواديون يدعون على من يحنث باليمين أن تهشم رأسه ويسيل مخه كما تسيل هذه الخمر على الأرض.

ويتضح هذا المغزى الجزائي من تقديم الضحية في مثل هذه الأحوال كل الوضوح من خلال مخطوط أشوري دون فيه القسم المقدس الذي أعلن فيه « ماتو ــ ايلو » ، أمير « بيت ــ أجوزى » ولاءه «لأشور ــ نيرارى» ملك « آشور » . وهاهو ذا بعض مادون في هذا المخطوط : «ان هذا الكبش لم يؤخذ من القطيع بقصد تقديمه ضحية ، ولا من أجل « الالهة هشتروت » الشجاعة المولعة بالحرب ، ولا من أجل الالهة المسالمة «عشتروت» ، كما أنه لم يجلب من أجل مرض أو لمجرد ان يذبح وانما أحضر لكي يقسم « مانع ــ أيلول » على ولائه « لآشور ــ نيرارى » ملك « أشور » ·فاذا حنث « ماتع ــ ايلو » بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير هذا الكبش · فكما أن هذا الكبش قد أبعد عن قطيعه · ولن يعود اليه مرة أخرى ليسيطر عليه ، فان « ماتع ــ ايلو » سيؤتى به كذلك من بلده مع أبنائه وبناته وبني قومه ، ولن يعود اليهم مرة أخرى ليتزعم قومه . فهذه الرأس ليست رأس كبش ، وانما هي رأس «ماتع ــ ايلو» ورأس أولاده ونبلاء قومه ، ورأس شعبه بأسره ، فاذا قطع « ماتع ــ ايلو » عهده ، كما تقطع رأس هذا الكبش ، فان رأس « ماتع ــ ايلو » ستقطع بالمثل · وهذه الرجل اليمنى ليست رجل الكبش اليمنى ، وانما هي يد « ماتع ــ ايلو » اليمنى ، ويد أولاده ونبلاء قومه وشعبه · فاذا قطع « ماتع ــ أيلو » العهد كما تقطع رجل ذلك الكبش ، فان يده اليمنى ستقطع ، وكذلك أيدى أولاده ونبلاء رجال بلده » · ثم يلى هذا فجوة كبيرة في المخطوط · ونحن نحدس بأن مكان هذه الفجوة كان وصفا لأعضاء الكبش الأخرى ، واستمرارا في التعليق على أنه كلما قطع عضو من أعضائه ، فانه لن يكون سوى رمز لقطع العضو المماثل له عند « ماتع ــ ايلو » وأولاده ونبلاء بلده وقومه ، اذا ما أثبتوا خيانتهم لسيدهم الموالين له وهو ملك « آشور » ·

ومثل هذه التضحيات التى تصحبها وتفسرها دعوات بالشر شبيهة بالدعوات السابقة ، تصادفنا فى طقوس الشعوب البدائية التى ماتزال تعيش حتى اليوم • فطريقة عقد العهد أو حلف اليمين فى جزيرة «نياس»، هى أن تجز رقبة خنزير رضيع ، بينما يدعو الشخص على نفسه بمثل هذه القتلة اذا ما نقض العهد أو حنث باليمين • والطريقة التى تتبع فى جزيرة « تيمور » لتقديم بينة على الحلف باليمين هى : أن يمسك الشاهد بدجاجة فى يد ، وفى اليد الأخرى بالسيف ويدعو قائلا : «الهى فى السماوات والأرض، انظر الى، ان كنت أشهد شهادة زور تؤذى قومى ، فلتلحق بى العذاب • اننى أؤدى اليمين فى هـــذا اليوم ، فاذا لم أكن صـــادقا فى شهادتى ، فلتقطع رأسى كما تقطع رأس هذه الدجاجة » • فاذا فرغ من دعائه هذا فانه يهوى على رأس الدجاجة ويقطعها على كتلة من الخشب• وعندما يجتمع زعماء « الباتاكيون » فى « سومطرة » ليعقدوا صلحا أو عهدا مقدسا فيما بينهم ، فانهم يأتون بخنزير أو بقرة ويقف الزعماء من حول الحيوان وفى يد كل منهم رمح • ثم تقرع الطبول ، ويقطع أكبر الزعماء سنا أو أكثرهم هيبة ، رقبة الحيوان بسكين • ثم يبقر الحيوان وينزع من جوفه قلبه وهو مازال ينبض ، ويقطع الى قطع صغيرة بعدد الزعماء • ثم يرشق كل زعيم نصيبه من القلب فى سيخ ، ويشـــويه أو يدفئه على النار وهو يقول : « اذا حدث أن حنثت بيمينى ، فلأقتل كمـــا قتل هذا الحيوان المسجى أمامى وهو يدمى، وليلتهم لحمى كما يلتهم قلبه الآن » • ثم يأكل قطعة اللحم اثر ذلك • وبعد أن يفرغ الرؤساء من تأدية هذه الطقوس يوزع لحم الحيوان الذى مازال مضرجا بالدم بين النـــاس ليحيون به وليمة •

واذا شاءت قبيلتان من « الشينيين » الذين يسكنون التلال التى تشرف على حدود « أسام » و « بورما » ، أن تحلفا اليمين أو تعقدا أواصر الصداقة فيما بينهما • فانهما تتقابلان ويحضران معهما ثورا أليفا • ثم يصب شيوخ كل قرية عليه الخمر ، ويسرون الى أرواحهم المقدسة بكلمات لكى تشهد على هذا الاتفاق • ثم يمسك زعماء كل طرف برمح ، ويقفان على جانبى الثور ، ويصوبان الرماح الى قلبه • فاذا اســتخدمت البنادق بدلا من الرماح فان الطرفين يطلقان النار فى رأس الثور أو فى قلبه فى آن واحد .وبعد أن يسقط الثور طريحا تقطع رقبته ،ويجمع دمه المسكوب فى وعاء • ثم يقطع ذيله ويغمس فى الدم ، كما يغمس زعماء الطرفين وشيوخهم أيديهم فى دمه ويلطخ كل منهم وجه الآخر، فى الوقت الذى يتمتم فيه حكماؤهم بالكلمات الآتية : « ليمت من ينقض هذا العهد ميتة هذا

الحيوان وليدفن جسده خارج القرية ، ولا تهدأ روحه أبدا . ولتمت أسرة كل من ينقض العهد ، وليلحق بها كل حظ عثر» .

وعندما كان يرغب « الكاريون » سكان « بورما » فى عقد حلف سلمى مع أعدائهم فى الزمن القديم ، كان يجتمع ممثلو كل جانب ويتصرفون على النحو التالى : تمزج برادة سيف ورمح وبارود وحجر فى فنجان به ماء ، ويضاف اليه دم كلب وخنزير ودجاجة تذبح جميعا لهذا الغرض . ويسمى هذا المزيج من الدم والماء والبرادة « بماء السلام » . ثم تشطر جمجمة الكلب الى شطرين ، ويأخذ ممثل الطرف الأول فك الحيوان السفلى ويعلقه بخيط حول رقبته ، بينما يأخذ ممثل الطرف الثانى الجمجمة بما فيها الفك العلوى ويعلقها كذلك حول رقبته . ثم يعد الممثلان فى صرامة أن قومهما سيعيشون بعد ذلك فى سلام بعضهم مع بعض . ولكى يؤكدا هذا الوعد ، فانهما يتناولان جرعة من «ماء السلام» ويقولون «الآن قد عقدنا عهد السلام . فاذا نقض شخص هذا العهد ولم يكن صادقا فيه فيتسبب فى اشعال نار الحرب مرة أخرى ، واثارة البغضاء ، فليشق الرمح صدره ، وليفتت البارود أمعاءه ، وليشج السيف رأسه ، وليلتهمه الكلب والخنزير البرى وليحطمه الحجر » . ونلاحظ هنا أن هؤلاء الناس يفترضون أن السيف والرمح والبارود والحجر ، وبالمثل الكلب والخنزير المذبوحين ، تعين جميعا على الانتقام ممن يحنث باليمين ، ذلك بعد أن شرب ممثلا الطرفين جرعة من مزيج «ماء السلام» .

وترجع قدرة الضحية على الجزاء فى كل هذه الأمثلة بدون شك الى الدعوات التى تصطحب ذبح الحيوان : فذبح الحيوان يرمز الى ذبح الحانث باليمين ، أو هو بالأحرى جزء من سحر تقليدى يقصد به الحاق الموت بالمذنب جزاء جريرته .

على أننا يمكننا أن نتساءل بعد ذلك عما اذا كانت فكرة الوظيفة الجزائية لتقديم الضحية تكفى لتفسير الملامح البارزة فى الطقس العبرى والاغريقى الذى يتمثل فى المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح أو الوقوف فوقها . وهنا رأى « و . روبرتسون » أن نفسر هذا الطقس بما يمكن أن نسميه نظرية التطهير أو السر المقدس . فقد افترض أن « مرور الجانبين بين أجزاء الحيوان المذبوح يرمز الى انتمائهم الى حياة الحيوان الروحية » ولكى يؤكد روبرتسون وجهة نظره ، أشار الى استخدام هذا الطقس نفسه فى حالات أخرى لا يصلح قانون العقاب أو الجزاء ، فيما يبدو ، تفسيرا لها ، فى الوقت الذى يفسر بعضها على الأقل بنظرية التطهير الشعائرى . فمن أشكال التطهير الشائعة فى «بويوتيا» ، أن يذبح كلب ويشق شقين

يمر الناس بينهما . ومثل هذه الشعيرة كان يؤديها الجيش المقدونى . اذ كان يذبح كلب ويشطر شطرين . ثم يوضع رأسه والجزء الأمامى منه جهة الشمال، بينما توضع أمعاؤه وجزؤه الخلفى جهة اليمين، وبين هذين الجزئين تمر جماعات الجيش . ومن المألوف فى نهاية الاحتفال أن ينقسم الجيش الى قسمين يتشابكان معا فى حرب صورية . وقد قيل : انه عندما أغار «بيليوس» على «أيلوكس» ونهبها ، قتل زوجة الملك وتسمى «أستى داسيا»، وقطعها اربا، وجعل جيشه يمر بين أجزاء جثتها وهو فى طريقه الى المدينة . ومن المحتمل أن هذا الاجراء كان ينظر اليه بوصفه شكلا من أشكال التطهير الذى يضفى عليه الانسان الضحية درجة كبيرة من الرهبة . ويؤكد هذا التفسير ، تلك الطقوس التى يتبعها الألبانيون فى القوقاز فى معبد القمر . فهؤلاء قد تعودوا أن يضحوا بعبد مقدس بين الحين والآخر ، بأن يطعنوه برمح . ثم يحمل جسد هذا العبد الى مكان معين حيث تدوسه الأقدام كاجراء تطهيرى . أما اجراء التطهير بين «الباسوطويون فى افريقيا الجنوبية فيجرى على النحو التالى : يذبح حيوان ويصنع فيه تجويف ويطلب من الشخص الذى يراد تطهيره أن يمر فيه . وقد سبق أن رأينا قبيلة « بارولونج » تؤدى نفس الشعيرة عندما تعقد عهدا ، فالمتعاهدون يمرون خلال تجويف يحدثونه فى معدة الحيوان المقتول . فهذه العادات التى تتبع فى افريقيا الجنوبية تؤكد معا أن المرور بين أجزاء الحيوان الضحية يعد بديلا للمرور خلال تجويف يحدث خلال جسد الحيوان نفسه ..

والتفسير التطهيرى أو بالأحرى الوقائى لمثل هذه الطقوس ، يؤكده عادات عرب موآب الذين لا يزالون يقومون بمثل هذه الشعائر فى أوقات الكوارث التى تلم بهم مثل القحط أو الوباء . وهم يقولون : ان المقصود من هذه الشعائر هو تخليص الناس من الشر الذى يتهددهم . فاذا كانت القبيلة تعانى من وباء الكوليرا على سبيل المثال ، فان الشيخ يقف وسط خيمته ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » . عندئذ تأخذ كل اسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة ، أو على عمودين أمام الخيمة . ثم يمر أعضاء الأسرة جميعا بين شطرى الضحية . أما الأبناء الصغار الذين لا يقدرون على المشى ، فيحملهم أبواهم . وفى كثير من الأحيان يمر أفراد الأسرة أكثر من مرة بين جزئى الشاة الداميين اعتقادا منهم أن شطرى الضحية لهما القدرة على طرد الأرواح الشريرة ، أو طرد الجن الذى يمكن أن يؤذى القبيلة . وهم يستعينون بمثل هذا العلاج فى مواسم القحط عندما تذبل

الأعشاب وتموت الماشية بسبب قلة مياه الأمطار . وتعد الضحية فدية للانسان والحيوان معا . ويقول هؤلاء العرب فى هذه المناسبة : « هـذه فديتنا لنا ولمواشينا » . وعندما سئلوا عن الوسيلة التى تؤثر بها هذه الشعائر مثل هذا التأثير المجدى ، أجابوا بأن الضحية تقـابل الـكارثة وتقاتلها . فالوباء والقحط أو أيا كانت الكارثة ينظر اليها بوصفها ريحا تهب على السهول وتحصد أمامها كل ما تصادفه . حتى تقابل الضحية التى تعترض طريقها كالأسد الرابض . وعند ذاك ينشأ صراع مفزع بينهما ، يقهر على اثره الوباء أو القحط ويرجع ادراجه مخذولا ، بينما تظل الضحية المنتصرة مسيطرة على الحقل . وهنـا نلاحظ انه ليست هناك ثمة تفكير فى الجزاء ، اذ ليس من المعقول ، لا من قبل التفسـير الرمزى أو السحرى ، أن موت الشـاة يتسبب فى موت النـاس الذين يمرون بين أجزائها ، بل ان الناس يعتقدون على عكس هذا ، ان الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر .

ومثل هذه العادة تماما تتبع فى ظروف متشابهة عند « التشينيين » الذين يسكنون البلد الذى يكثر فيه التلال ويقع على حدود أسام وبورما » . فاذا اعتقد شخص من بين هؤلاء القوم ، أن شخصا تتعقبه روح ثائر ، مثل روح مرض الكوليرا ، فانه من المألوف عندهم أن يذبح كلب ويشطر دون أن تنتزع أمعاؤه ، ويترك النصـف الأمامى منه على جانب من الطـريق والنصف الخلفى على الجانب الآخر منه ، ويصلون بينهما بأمعاء الكلب التى يمدونها عبر الطريق . وهم يفعلون هذا بقصد اسكان غضب الروح الثائر واثنائه عن عزمه فى اقتفاء أثرهم » . وهكذا يحرص « الشينيون » على تشخيص وباء الكوليرا بوصفه روحا خطيرا ، الى درجة أنه اذا قامت جماعة منهم بزيارة منطقة « رانجون » وقت انتشار الوباء ، فانهم يحملون سيوفهم مشهرة أينما ساروا ليدرأوا عنهم الشيطان ، كما يقضون وقتهم مختبئين بين الأحراش حتى لا يعثر عليهم هذا الشيطان . وقد تعود «الكورياكيون» الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية ، أن يصرفوا الأوبئة والطاعون عنهم على هذا النحو . فهم يذبحون كلبا ويربطون الأمعاء حول عمودين ويمرون تحتها . ومما لا شك فيه أنهم يعتقدون بالمثل أنهم بهذه الوسيلة يطردون روح المرض الذى يجد فى أمعاء الكلب حاجزا لا يقهر . ويسود الاعتقاد فى أن النساء بعد الولادة يكن نجسات ، ومن ثم يكن عرضة لأن تتملكهن الكائنات الشريرة المهولة . فاذا تركت المرأة عند غجر ترانسلفانيا فراشها بعد الولادة ، فانه يتحتم عليها أن تمر بين شطرى ديك مذبوح اذا

كان المولود ذكرا ، أما اذا كان المولود أنثى فانها تمر بين شطرى دجاجة • ثم يأكل الرجال هذا الديك فيما بعد ، كما تأكل النساء الدجاجة •

ويتضح من هذه الأمثلة أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح يقصد به الوقاية لا العقاب . كما أن لحم الضحية ودمها تشكل عقبة فى طريق القوى الشريرة ، وفقا لتصور هؤلاء الناس ، ومن ثم فهم يحولون بينها وبين اقتفاء أثر الشخص الذى مر خلال الطريق الضيق ، وبالتالى فهو لا يتعرض لايذائها • وبناء على ذلك فان هذه الشعائر يمكن أن تسمى بشعائر التطهير بأوسع معانى الكلمة ، اذ أنه يقصد بها تطهير الشخص أو تخليصه من تأثير القوى الشريرة •

فاذا عدنا من حيث بدأنا ، فانه يحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت الوسيلة التى كان يتبعها العبريون القدماء عند عقد عهد بين طرفين ، عن طريق المرور بين أجزاء الضحية ، يقصد بها العقاب أو التطهير • وبتعبير آخر هل كانت تعد وسيلة رمزية لاحلال الموت بالحانث باليمين، أم كانت وسيلة سحرية لوقاية المتعاهدين من تأثير القوى الشريرة ، ومن ثم فهى تحميهم من أخطار بعينها يمكن أن يتعرضوا لها ؟ ان الأمثلة الأخرى التى سبق أن ذكرتها عن مرور الأشخاص بين أجزاء الضحية المذبوحة ، تبدو وكأنها تدعم التفسير التطهيرى أو الوقائى للطقس العبرى، اذ بينما لا يتطلب مثال من هذه الأمثلة التفسير الجزائى ، فان بعضها يستبعده صراحة • ومن ناحية أخرى نجد أن بعض هذه الأمثلة لا يفسر الا على أساس نظرية التطهير أو الوقاية التى تدعيها فى الحقيقة بعض الشعوب مثل العرب «والتشينيين» صراحة ، هؤلاء الذين يتبعون هذه العادة • حقا ان أية محاولة لتفسير هذه الشعيرة العبرية ، لابد أن يراعى فيها تفسير الشعيرة المماثلة لها عند العرب المحدثين ، نظرا لتشابه شعائرهما فى الشكل • كما أن هذين الشعبين اللذين يقومان بتأدية هذه الشعيرة أو كانا يقومان بتأديتها ، ينتميان الى أسرة سامية واحدة ، ويتحدثان لغتين ساميتين متقاربتين ويقيمان فى البلد نفسه ، حيث أن أرض موآب التى مازال العرب يتبعون فيها هذه العادة القديمة ، كانت تكون جزءا من موطن بنى اسرائيل حيث رحل ابراهيم وعقد عهدا مع الرب على نحو ما ذكرناه (١) • ويبدو أن هذا الاستدلال حتمى ، وهو أن هذه الشعيرة التى اتبعها العبريون القدماء والتى

---

(١) يعنى فريزر ما يفهم من أساطير العبريين التى روجوها بينهم وتناقلوها ثم دونوها فى العهد القديم ، ولا يبدو أنه يريد بذلك التقرير التاريخى •

(المراجع)

مازال يتبعها الموآبيون ، ترجع الى أصل سامى ومايزال هدفها التطهيرى أو الوقائى واضح فى أذهان عرب موآب .

على أنه لايزال هناك سؤال ينبغى أن نتساءل عنه وهو: فيم تتمثل القدرة على التطهير فى مثل هذه العمليه ؟ ولماذا يعتقد أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح من شانه ان يحمى الانسان من الخطر ؟ أما رد « روبرتسون سميث » عن هذه التساؤلات فيتلخص فيما يمكن ان يسمى بتفسير السر المقدس لهذه العادة . فهو يفترض أن الذين يمرون بين أجزاء الضحيه أو يقفون فوقها ، يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم ، أى أنه يعتقد فى الحقيقة أن مثل هـذا العهد ليس سوى شكل مختلف لعادة تنتشر على نطاق واسـع وتعرف بعهـد الدم الذى يخلق المتعاهدون عن طريقه ، بطريقة صورية ، رباطا من القرابة العصبية فيما بينهم ، وذلك بأن يمزجوا حقا قدرا من دمائهم بعضها ببعض . والاختلاف المادى الوحيد بين شكلى هذا العهد ، بناء على هذا الفرض ، هو أن دم الحيوان فى أحـد الشكلين يعد بديلا لدم المتعاهدين أنفسهم فى الشكل الآخر . على أن هناك كثيرا من الجدل يمكن أن يثار حول هذه النظرية . وأولى نقاط هذا الجدل ، هو أن الشواهد فى افريقيا الجنوبية تشير الى النتيجـة التى مؤداها أن المرور بين أجزاء الضحية ليس سوى بديل للمرور خلال جسـد الحيوان المذبوح . ويؤيد هذه النتيجة أن «الشينيين» عندما يذبحون الكلب الضحية لا يفصلون شطرى الكلب أحدهما عن الآخر كلية ، وانما يحتفظون بالنصف الأمامى والنصف الخلفى متصلين عن طريق حبل أمعاء الحيوان الذى يمر تحته الناس . ويبدو أن « الكورياكيون » كانوا يتبعون هذه العادة ، وان تكن بطريقة أقل وضـوحا من طريقة « الشينيين » . فالابقـاء على حبل الأمعاء بوصفه رابطا بين شطرى الضحية يبدو بوضوح أنه محاولة للربط نظريا بين وحدة الحيوان المقتول وبين الملاءمة العملية بشطره ، حتى يتسنى للناس أن يمروا خلال جسده . والا فما معنى أن يوضع الناس داخل جسد الحيوان ما لم يكن الغرض من ذلك اكساب الشخص بعض خصائص الحيوان التى يعتقد أنه يمتلكها ، والتى يمكن ــ وفقا لتصور هذه الشعوب ــ أن تنتقل الى الشخص الذى يطابق بين نفسه فيزيائيا وبين الحيوان عن طريق الدخول فيه حقيقة ؟ .

ومما يؤكد أن هذه الفكرة حقا هى أساس هذه الشعيرة ، تلك العادة المشابهة المنتشرة بين الهنود « الباتاجونيانيين » . ففى « بعض الحالات » اذا ولد لهؤلاء طفل ، تذبح بقرة أو فرس وتنتزع منه معدته ثم تبقر ويوضع

بداخلها الطفل وهى ما تزال دافئة . ثم تقيم القبيلة وليمة على سائر أجزاء الحيوان .

على أن الأشكال الاخرى لشعائر هذا الميلاد ، ما تزال أكثر همجية . فاذا ولد للأب طفل ذكر ، فان قبيلته تأتى بفرس أو مهر حسبما يتفق وحالة الوالد المادية ، فان كان غنيا مرموقا بين قومه ، أحضرت له القبيلة فرسا ، وان لم يكن كذلك أحضرت له مهرا . ثم يربط وهق (١) حول كل رجل من أرجل الحيوان ، ورباط حول رقبته ، ورباط آخر حول جسمه . ثم ينتشر أفراد القبيلة حول أطراف هذه الأحبال ويمسكون بها ، وبذلك لا يتمكن الحيوان من السقوط . ثم يتقدم والد الطفل ويشق الفرس أو المهر من رقبته الى أسفل . ثم ينتزع قلب الحيوان وغير ذلك من الأجزاء ويوضع الطفل فى تجويفها . والغرض من هذا الفعل هو وضع الطفل فى تجويف الحيوان وهو ما زال ينتفض ، اعتقادا منهم أن الطفل سيصبح بكل تأكيد فى المستقبل فارسا ماهرا » .. وهنا تتمثل لنا بوضوح هذه العادة والسبب الذى يعزى لاتباعها . فاذا شئت أن يكون طفلك فارسا ماهرا ، كما يجادل هؤلاء الهنود ، فان أفضل وسيلة لذلك هى الربط بينه وبين الحصان عند ولادته ، وذلك بأن يوضع داخل تجويف فرس أو مهر وهو ما زال على قيد الحياة . فاذا وضع الطفل على هذا النحو بين لحم الحيوان ودمه ، فانه يصبح شبيها به جسديا ، ويصبح له مقعد صيد القنطور (١) الذى يتكون جسمه من جسم انسان وجسم فرس معا . وباختصار فان وضع الطفل داخل تجويف الفرس أو المهر ليس سوى صورة من صور المشاركة الذى يقصد به اكساب الانسان صفات خاصة .

ويمكننا أن نفسر وفقا لهذا الأساس — كما أشار روبرتسون سميث الى ذلك — الشعيرة « السكيثيانية » عند عقد عهد ، عندما يدوس أفراد القبيلة بأقدامهم على جلد ثور مذبوح . فكل الذين يدوسون بأقدامهم اليمنى على جلد الثور يصبحون هم والحيوان شيئا واحدا ، بحيث تربط بينهم رابطة الدم التى تؤكد اخلاصهم لبعضهم بعضا . اذ من المحتمل أن الدوس بقدم واحدة على جلد الثور يعد شكلا مختصرا للف الشخص بالجلد لفا كليا ، تماما كما تعود المتعبد فى محراب الآلهة السورية فى «هيرابوليس» ، أن يجثو على جلد الشاة التى قدمها ضحية للآلهة ، ويسحب رأسها وأرجلها فوق رأسه وكتفيه ويصلى للآلهة وهو فى هيئة الشاة ، لكى تقبل الشاة التى قدمها ضحية لها .

---

(١) حبل فى طرفه أنشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار . (المترجمة)

(١) كائن خرافى . (المترجمة)

وهذا التفسير الذى قدمه «روبرتسون سميث» لتلك العادة تؤكده كل التأكيد عادة افريقية مماثلة لها ٠ فمن عادة صبية قبيلة « واتشاجا » فى « أفريقيا الشرقية أن يهيئوا بعد عامين من ختانهم لما يمكن أن يسمى بالتعميد الحربى ٠ ومن أجل هذا الغرض يجتمع الصبية مع آبائهم وشيوخ قرية زعيمهم ، ويقومون بذبح ثورين ونعجتين وتجمع دماؤها فى جلد ثور يحمله عدة رجال ٠ ثم يعرى الصبية أنفسهم ويطوفون وهم واقفون فى صف طويل أربع مرات حول جلد الثور الممتلىء بالدم ٠ ثم يصطفون بعد ذلك ويمر عليهم شيخ ويحدث قطعا فى أسفل أكمامهم ٠ ثم يخطو كل صبى الى الجلد الممتلىء بالدم ويخز ذراعه حتى تسقط قطرات من دمه فوق دم الحيوان، ثم يملأ يده بهذا الدم الممتزج بدمه ويشربه ، ويرتدى ملابسه بعد ذلك ٠ ثم يجلس الصبية القرفصاء حول زعيمهم ٠ وبعد حديث طويل معه يسمى كل والد ابنه باسم حربى ٠ فان لم يكن للصبى والد ، فانه يتسلم لقبه من شيخ كهل يقوم بدور الأب ٠ ثم يخطب فيهم الزعيم معلنا أنهم لم يعودوا بعد أطفالا ، وانما أصبحوا جنودا ، ثم يرشدهم الى تبعاتهم الجديدة ، كما يقدم لهم جميعا لافتة لدروعهم تبرزهم أنهم قد أصبحوا ينتمون الى جماعة واحدة بعينها ٠ وهنا نلاحظ أن الصبية الذين أصبحوا محاربين فى جماعة واحدة ، قد ارتبطوا جميعا برباط مزدوج من الدم هو عبارة عن دمهم ودم الحيوان المقتول ، اللذين مزجا فى جلد الثور ، ثم شرب كل منهم من هذا الدم المختلط نخب فروسيته المستقبلة ٠ وليس هناك مثال يشير بوضوح أبعد من هذا الى صحة وجهة نظر « روبرتسون سميث » ، من حيث أن الغرض من استخدام جلد الثور فى الطقس « السيكثيانى » هو كذلك ربط المحاربين برباط دموى واحد ٠

وربما مكنتنا مناقشتنا هذه لعهد ابراهيم ، من القاء الضوء حول نقطة مظلمة فى تاريخ الكنعانيين ٠ فقد اكتشف الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » فى حفرياته فى « جيزر » فى فلسطين مكانا للدفن يستلفت النظر ٠ وهذا المكان هو ببساطة حجرة اسطوانية يبلغ ارتفاعها عشرين قدما ، واتساعها خمسة عشر قدما ٠ وقد نحتت هذه الحجرة فى الصخر وترك مدخلها فى قمتها على هيئة فتحة دائرية ٠ ويبدو أن هذه الحجرة كانت فى الأصل مخزنا للمياه قبل أن تتحول الى مدفن ٠ وقد عثر فى أرض تلك الحجرة على خمسة عشر هيكلا آدميا ، أو بالأحرى أربعة عشر هيكلا ونصف هيكل ٠ ذلك أنه لم يعثر لهيكل من هذه الهياكل سوى على جزئه العلوى ، فى حين لم يعثر على جزئه السفلى ٠ وهذا الهيكل لفتاة

تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، وقد قطع جسدها أو نشر من الوسط عند الفقرة الثامنة من عمودها الفقرى عند التجويف الصدرى . وحيث أن الأجهزة الأمامية من الضلوع قد هشمت عند هذا المستوى ، فانه من الواضح أن هذا التهشيم قد تم فى مرحلة كانت العظام تستند فيها على الأجزاء الرخوة من الجسم . وأما سائر الهياكل فهى هياكل رجال ، اثنان منها لشابين يبلغان من العمر الثامنة عشرة أو ربما التاسعة عشرة والباقى لرجال كاملى النمو معتدلى القوام ، قويى البنية . ويدل وضع الهياكل على أن أصحابها لم يطرحوا فى الحجرة من خلال فتحتها العلوية ، وانما هبط بهم رجال الى داخل الحجرة . كما أنه يعتقد أن كميات الفحم الكبيرة التى عثر عليها بين العظام تدل على أن حفلا جنائزيا أو تضحية أو أى طقس مقدس آخر قد ادى داخل حجرة الدفن . كما نظر علماء الآثار الى بعض الأسلحة البرنزية الدقيقة ، مثل رءوس الرماح وفأس وسكين، تلك التى عثر عليها بجانب الجثث ، بوصفها شاهدا أن هذا الدفن قد حدث قبل ظهور بنى اسرائيل ، اى أن أصحاب هذه الهياكل كانوا ينتمون الى عنصر سبق ظهور العبريين فى فلسطين . كما استدل العلماء من شكل عظام هذه الهياكل وتجاويف الجماجم الواسعة ، ومن أنوفهم المقوسة ، وبعض الخصائص التشريحية الأخرى ، أن الذكور يمثلون نماذج لعنصر لا يختلف عن عرب فلسطين اليوم .

فاذا كان هذا التشابه الجسدى بين هؤلاء الرجال القدماء وسكان فلسطين المعاصرين كافيا لأن يبرر لنا أن نعدهم أفرادا ينتمون الى أصل واحد ، فربما حق لنا أن ننتهى الى أن كليهما ينتمى الى الأصل الكنعانى الذى كان يستوطن فلسطين قبل غزو العبريين لها ، والذى لم ينجح العبريون قط فى ابادته على الرغم من محاولتهم اخضاعه لسطوتهم . فوجهة نظر الخبراء أن الفلاحين المعاصرين أو المزارعين الفلسطينيين الذين يتحدثون اللغة العربية ، انما هم سلالة القبائل الوثنية التى سكنت فلسطين قبل الغزو الاسرائيلى وارتبطوا بأرضهم منذ ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن موجات الغزو المتعاقبة على فلسطين قد غمرتهم ، الا أنها لم تنجح فى القضاء عليهم . فاذا كان الأمر كذلك ، فانه يحق لنا أن نفترض أن الهيكل النصفى للفتاة الذى عثر عليه فى « جيزر » ، يعد أثرا باقيا لعادة التضحية بانسان ، تلك العادة التى لعبت دورا بارزا فى الديانة الكنعانية . ونحن نستدل على ذلك بالعادة المشابهة لها التى أشار اليها الأنبياء العبريون ، وكتاب العصور الكلاسيكية القديمة . وقد دعم هذا الافتراض ما عثر عليه من هياكل لأطفال عثر عليها فى « جيزر » محفوظة فى جرار تحت أرض

المعبد ، فقد اعتقد الباحثون فى العادة ، أن هذه المخلفات تشهد على عادة التضحية بالابن الأول تكريما للاله المحلى · وقد عثر على مزيد من هؤلاء الأطفال المدفونين فى جرار حول معبد منحوت فى الصخر فى بلدة «تعنك» فى فلسطين ، وقد فسر تحنيط هؤلاء الأطفال على النحو الذى أشرنا اليه ·

ولكن اذا كان هيكل الفتاة الذى عثر عليه فى مقبرة « جيزر » ، يمثل حقا بقايا عادة التضحية بانسان فما زال علينا أن نتساءل : لماذا شق جسد الفتاة أو نشر على هذا النحو ؟ ان عهد ابراهيم الذى نقيس عليه وبالمثل الطقوس المتشابهة التى تحدثنا عنها ، تشير الى أن شطر الفتاة الضحية الى شطرين ربما كان يقصد به الوقاية الجماعية ، أو التصديق على عهد . أو أننا نفترض — حتى تكون أكثر وضوحا من هذا — أن جسد البنت قد قطع الى نصفين وأن الناس مروا بين هذين النصفين ، أما بقصد تضليل قوى شريرة كانت تعيش بينهم أو تتهددهم أو بقصد تأكيد معاهدة سلمية تأكيدا يتسم بالرهبة · ولنبدأ الآن بالتفسير التطهيرى أو الوقائى ·

لقد سبق أن رأينا أنه عندما استولى «بيليوس» على مدينة «أولكس» ، قيل : انه أسر زوجة ملك المدينة وقطعها الى نصفين وترك جيشه يمر بين هذين النصفين قبل أن يدخل المدينة · ولا يبدو أن هذه العادة المتوارثة من قبيل الاختراع الصرف،فربما كانت بقايا عادة بربرية متخلفة كان يتبعها الظافرون عند دخول المدينة المندحرة ، ونحن نعلم أن الانسان فى العصور الأولى كان يخشى كل الخشية من سحر الغرباء ، وأنه كان يقوم باحتفالات عديدة لكى يحصن نفسه ضد هذا السحر ، سواء عندما يسمح لغرباء أن يدخلوا بلدته ، أو عندما يخطو هو نفسه الى أرض قبيلة أخرى · وربما كان خوف مشابه لهذا من سحر الأعداء يدفع المنتصر أن يصطنع احتياطات غريبة بقصد حماية نفسه وجيشه من مكايد أعدائه ، وذلك قبل أن يجرؤ على دخول المدينة التى استولى عليها منهم بسيفه · وربما تمثل هذا الاحتياط الغريب فى أسر أسير ، وشق جسده أو جسدها الى نصفين ، وجعل الجيش يمر بين النصفين وهو فى طريقه الى المدينة · ووفقا لتفسير السر المقدس لهذا الطقس ، فان التأثير الذى يحدثه المرور بين جزئى الضحية من شأنه أن يخلق عهدا دمويا بين الظافرين والمنهزمين معا ، ومن ثم فهو يؤمن المنتصرين ضد كل المحاولات العدائية من جانب المنهزم · وهذا يفسر ما قام به « بيليوس » عند دخوله مدينة « أولكس » عندما أسر الملكة وشق جسدها الى شقين ، فقد كان هذا الاجراء وسيلة مقدسة لخلق وحدة بين الغزاة والمغزويين · فاذا كان هذا التفسير مقبولا ، فانه يتبع

هذا فيما يبدو، أن يكون هناك توافق بين وجهات نظر الطقوس التطهيرية أو الوقائية وطقس عقد العهد ، فالغزاة يطهرون أو يحمون أنفسهم من تأثير أعدائهم الشرير بالدخول ضمنا معهم فى عهد دموى .

ومن المحتمل أن عادة سامية مشابهة لهذه العادة يمكن أن تفسر هيكل الفتاة المشطور الذى عثر عليه فى « جيزر » . ونستطيع أن نحكم من خلال البقايا الآدمية التى عثر عليها فى هذا المكان ، أن المدينة احتلتها أجناس مختلفة فى عصور مختلفة ، ففى العصور الأولى احتلها قوم قصار الجسم أقوياء البنية ، نحفاء ، ذوو رءوس بيضاوية ، لا ينتمون الى العائلة السامية ، بل انهم لا صلة لهم بأى جنس من أجناس البحر الأبيض المتوسط . فاذا كان الكنعانيون قد غزوا هذه المدينة فيما بعد ، هؤلاء الذين استوطنوها فيما بعد ، فربما احتفلوا بدخولهم المدينة بأن أسروا الملكة أو أية امرأة أخرى وقتلوها وشقوا جسدها الى نصفين ومروا بينهما وهم فى طريقهم الى المدينة . ولكن كيف نفسر فى هذه الحالة عدم وجود النصف السفلى من جسد الفتاة ؟ اننا لسنا فى حاجة لأن نفترض ، كما افترض المستكشفون ، أن الغزاة الكانيباليين قد أحرقوه أو التهموه . وانما ربما دفن هذا الجزء فى مكان آخر ، ربما فى المكان المواجه لهذا المكان من البلد ، وذلك بقصد نشر مفعول سحر الضحية فى كل المساحة الواقعة بين المكانين ، حتى تصبح المدينة بأسرها آمنة بالنسبة للغزاة ويكونون فى الوقت نفسه فى مأمن من ضربات أعدائهم . وقد قيل ان ملكا قديما من ملوك بورما قد أكسب مدينته الحصانة ، بأن قطع جسد خائن الى أربعة أقسام ، ودفن كل جزء فى ركن من أركان المدينة . وعبثا حاول أخو الخائن أن يستولى بجيشه على المدينة . وقد ظل يحاول ضربها دون جدوى ، حتى أخبرته أرملة القتيل أنه لن يتمكن من الاستيلاء على المدينة طالما كان جسد زوجها يحرس أسوارها . عند ذاك أخذ الأخ يحفر الأرض بحثا عن أشلاء أخيه حتى عثر عليها . بعد ذلك استسلمت المدينة دون مقاومة . وشبيه بهذا الطقس يتبعه « اللوشايين » فى « أسام » عندما تكون المرأة فى حالة الوضع . فلكى يخفف عنها أصدقاؤها آلام الوضع يأتون بدجاجة ويذبحونها ويشطرونها شطرين متساويين . أما الشطر الذى يحتوى على الرأس فيوضع عند الطرف الشمالى من المدينة مع سبعة عيدان من الخيزران توضع فى شكل حزم . وأما الجزء السفلى من الدجاجة فيوضع عند الطرف الجنوبى من القرية مع خمس حزم من الخيزران . وفضلا عن ذلك فان جرعة من الماء تقدم للمرأة لتشربها . ويطلق على هذه الشعائر اسم (أرتى ــ بومفيلنا) ، ومعناه : « فتح البطن بمساعدة

دجاجة » ، لأنهم يعتقدون أن شطر الدجاجة الى شطرين يسهل عملية الولادة . على أنه لم يذكر شيء عن الوسيلة التى يحدث بها هذا الطقس هذا التأثير المفيد ، ولكننا نحدس أن الناس يعتقدون أن جزئى الدجاجة الموضوعين عند طرفى القرية يحرسان المساحة الواقعة بين المكانين من غزو القوى الشريرة ، وبخاصة تلك القوى الشيطانية التى حاولت دون ولادة الطفل .

وربما تأكد هدف التطهير أو الحماية من التضحية بالفتاة التى عثر عليها فى « جيزر » ، باكتشاف آخر تم فى المكان نفسه · فقد كشفت الحفريات المتأخرة فى هذا المكان عن نصف هيكل غلام فى السابعة عشرة من عمره · وقد شق جسد هذا الغلام كما حدث مع الفتاة ، من وسطه بين الضلوع وتجويف الحوض · ولم يعثر كما هو الحال مع الفتاة ، على الجزء السفلى من جسد الغلام · والى جانب الهيكل النصفى للغلام عثر على هيكلين كاملين لرجلين ، الى جانب مجموعة من الأوانى الفخارية وضعت فوق الهياكل ومن حولها · وقد عثر على هذا الكشف تحت أساس بناء ، ان لم يكن أسفله مباشرة · ومن ثم فقد أشار الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » الى أن هذه الهياكل هى بقايا جثث آدمية ضحى بأصحابها وفقا للعادة المنتشرة ، ودفنوا تحت أساس البناء لاكسابه قوة ومناعة أو لحمايته من الأعداء · وتتضح هذه العادة كل الايضاح من خلال نماذج مستمدة من بلاد متعددة ، بحيث أننا نرى أنه ليس من الضرورى أن نسهب فى ايضاحها ، وانما سأكتفى بتقديم مثال واحد سجله شاهد عيان · وقد حرصت على تقديم هذا المثال لأنه يشير بوضوح الى سلسلة التفكير التى أدت الى رسوخ هذه العادة · فقد عاش بحار انجليزى هارب منذ سبعين أو ثمانين عاما مضت ، طيلة عامين وحده بين «الفيجيانيين» الذين مازالوا متبربرين ملحدين . وقد خلف لنا هذا البحار حكاية تجاربه الساذجة وان كانت لا تخلو من قيمة · فبينما كان يقيم مع هؤلاء المتبربرين ، تصادف ان كان يبنى بيت الملك أو الزعيم المحلى · ثم أبصر « جاكسون » ذات يوم ، بينما كان يقف بالقرب من مكان البناء ، رجالا يساقون ويدفنون أحياء فى الجحور التى كان سيقام فيها أعمدة البيت · وقد حاول الأهالى أن يصرفوه عن رؤية هذا المنظر ، ولكنه أسرع الى أحد هذه الجحور ، حتى لا تتم عليه الخديعة ، فأبصر رجلا يقف فى الجحر ويداه تعانقان العمود ورأسه ما زال بارزا من بين التراب · فلما سأل الأهالى عن سبب دفنهم الرجال أحياء عند أسفل الأعمدة ، أجابوه بأن البناء لا يصمد طويلا مالم يمسك الرجال بدعائمه على الدوام . فلما سألهم : وكيف يتسنى

لهؤلاء الرجال أن يمسكوا دعائم البيت بعد أن يموتوا ، أجابوه : بأنه اذا ضحى الرجال بأرواحهم فى محاولة الامساك بالأعمدة فان فضيلة التضحية تحض الآلهة على المحافظة على سلامة البناء بعد أن يموت الرجال ٠

وهذا المجرى من التفكير يصلح تماما لأن يفسر وضع هيكل الذكرين اللذين عثر عليهما تحت أساس البناء فى « جيزر » ، ذلك أن أحد هذين الهيكلين قد عثر عليه وهو يمد يده الى آنية ، كما لو كان يعين نفسه على تناول الطعام وبذلك يصبح قادرا على القيام بهذا العمل الشاق وهو الامساك بالحائط ٠ ولكنه ليس من اليسير على هذا النحو أن نفسر وجود نصف هيكل الغلام الذى عثر عليه فى المكان نفسه ، ونصف هيكل الفتاة الذى عثر عليه فى المقبرة الاسطوانية ٠ لانه اذا كان الشخص حقا مكلفا بحمل أساس البناء حتى لا يهوى ، فمن الطبيعى أن يختار لهذا العمل المضنى رجالا أشداء ٠ ولكن كيف يقوم نصف جسد صبى ونصف جسد فتاة بهذا العمل ؟ وكيف يمكن للحائط أن يقف راسخا وهو يرتكز على صبية وفتيات ليس لديهم أرجل ؟ ومن ثم فان النظرية التى تقول ان هؤلاء الضحايا قد قتلوا وشقت أجسادهم الى نصفين بقصـــد تقديمهم ضحية لأساس البناء ، لا يمكن أن تكون مقنعة ٠

والى هذا الحد ينتهى نقاشنا حول نظرية الوقاية أو التطهير فى تفسير وجود هذه الهياكل الغامضة التى عثر عليها فى « جيزر » ٠

ولننتقل الآن الى مناقشة نظرية العهد لنرى ما اذا كانت أكثر ملاءمة لهذه الحقائق٠ووفقا لهذه النظرية أن الغلام والفتاة قد قتلا وشطر جسداهما الى شطرين ، لا بقصد تطهير البناء من الأرواح الشريرة أو حمايته منها ، وانما بقصـــــد التصديق على عهد من العهـــود ، وذلك بأن يمر الطرفان المتعاهدان بين شطرى القتيل ، تماما كما كان العبريون يصدقون على العهد بأن يمروا بين شطرى العجل المذبوح ٠ وربما أيدت الموازنة التالية وجهـــة النظر هذه ٠ لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « الواتشاجا » التى تسكن افريقيا الشرقية ، تخلع الرهبة على العهد أو هدنة السلام التى تعقد بين طرفين ، بأن يشطر جدى حى وحبل بضربة واحدة ويدعون فى الوقت نفسه على من يحنث باليمين بأن ينشق جسده الى نصفين كما انشق الجدى والحبل معا ٠ ولكنه قيل ان هذه القبيلة كانت تتبع وسيلة أخرى فى عقد الحلف ، وأن هذه الوسيلة كانت تعتمد منذ العصور البالغة فى القدم ؛ فهم يأخذون غلاما وفتاة ويطلب منهما أن يطوفا ثلاث مرات أو سبع مرات حول المتعـــاهدين المجتمعين ، بينما تتلى دعوات اللعنة أو البركة لتحل تباعا على من يحنث

باليمين أو يبقى عليه . ثم يشطر الغلام والفتاة الى شطرين من الوسط ، وتدفن أجزاؤهما الأربعة عند حدود الحيين اللذين يسكنهما الطرفان المتعاهدان . ثم يسير ممثلون من كلا الطرفين على قبر القتيلين ، ثم يتفرقون بعد ذلك عائدين الى بيوتهم . والفكرة فى هذه الشعائر ، فيما قيل لنا ، هى تلك اللعنة المتضمنة التى تحل بحانث اليمين ، فينشق جسده الى شقين كما حدث للغلام والفتاة ، وأن يموت دون أن يخلف وراءه ذرية كما حدث للغلام والفتاة كذلك . وقد قيل انه لكى نفهم المغزى العميق لهذه اللعنة ، فمن الضرورى أن نعرف ما تحتوى عليه ديانة « الواتشاجا » من عبادة أرواح الأجداد . فالرجل الذى يتوفى دون أن ينجب أبناء ، لن يترك وراءه من يقوم بتقديم الضحية له التى تعد الوسيلة الوحيدة لاستقبال الأموات له استقبالا حسنا ، وتضمن له تأييدهم على الدوام .

فالرجل الذى يموت دون أن يخلف وراءه ذرية قد كتب عليه أن يعيش الى الأبد حياة الوحدة فى العالم الآخر ، فلا يجد من يلبى رغبته فى تناول قطعة من لحم البقر يشبع بها رمقه ، أو جرعة من الجعة يروى بها ظمأه ، ذلك أن الجعة ولحم البقر ولحم الضأن هى الأشياء التى ترغب الأرواح الراحلة فى تسلمها من أيدى أقربائهم الأحياء ..

فاذا كانت الموازنة بين طقوس « الواتشاجا » والطقوس السامية تتفق فيما بينهما ، فانها تهيىء لنا أن نفهم السبب فى شطر الضحايا التى عثر عليها فى « جيزر » وأن نفهم لماذا كانت هذه الضحايا غلاما وفتاة وليسا رجلا وامرأة كاملى النمو . فلسنا فى حاجة سوى أن نفترض أنهما قد قتلا وشطرا الى شطرين بقصد التصديق على عهد مقدس ، وأن الطرفين المتعاهدين قد مرا بين شطريهما ، وأن كلا منهما قد أخذ نصف الغلام أو نصف الفتاة وعاد به الى بلده كضمان لصدق الآخر فى عهده ، تماما كما حصل كل طرف من الطرفين المتعاهدين فى قبيلة الواتشاجا على نصف الحبل كضمان لصدق الطرف الآخر فى عهده . واذا كنا قد أشرنا الى انه قد عثر فى « جيزر » على نصفى الغلام والفتاة وأن كلا النصفين هو النصف العلوى من الجسدين ، فليس بمستبعد كلية أن المزيد من الحفريات المستقبلة فى فلسطين قد يكشف عن مصير الجزئين السفليين من جسديهما اللذين حملهما معه الطرف الآخر من الطرفين المتعاهدين الى بلده ودفنهما هناك . وأكثر من هذا فربما استطعنا أن ندرك الآن لماذا وقع الاختيار على غلام وفتاة لكى يقدما ضحية ، ولم يقع على رجل وامرأة . واذا كانت الموازنة بين الشعائر العبرية وشعائر «الواتشاجا» تقوم على أساس سليم ، فان الهدف من

وراء هذا الاختيار هو اللعنة الضمنية ، فيموت من يحنث بالقسم دون أن يخلف وراءه ذرية ، كما مات الغلام والفتاة اللذان مر المتحالفون بين أجزاء جسديهما من قبل أن ينجبا ذرية . واذا تذكرنا رغبة الساميين الملحة فى انجاب الأطفال ، استطعنا أن ندرك هول تلك اللعنة بالنسبة للمتعاهدين ، وبالتالى مدى حرصهم على الارتباط بالعهد .

وأخيرا ، فان من الجدير بالنظر ، أن الموازنة بين شعائر الواتشاجا عند عقد العهد بالشعائر العبرية التى تقام فى مثل هذه المناسبات ، سواء كانت الضحية التى تشطر الى شطرين هى جدى أو انسان ، فان هذه الموازنة من شأنها أن تدعم التفسير الجزائى فى الطقوس العبرية ، حيث أن المثالين اللذين أشرنا اليهما عند قبيلة « الواتشاجا » يفهم منهما أن شطر الضحية الى شطرين يرمز الى مصير الحانث باليمين • ومع ذلك فما زال الباب مفتوحا لأن نفسر المرور بين أجزاء الضحية على نحو ما أشار اليه « روبرتسون سميث » ، أعنى أن هذا المرور يعد وسيلة للربط بين الأشخاص والضحية بقصد اكساب هؤلاء الأشخاص صفات خاصة يظن أن الضحية تمتلكها ، كما يظن أنها تنتقل الى هؤلاء الذين يدخلون فى رباط مع الحيوان ، اما عن طريق المرور خلال أجزاء جسده أى بأى وسيلة أخرى كأن يلطخ الأشخاص أنفسهم بدمه ، أو يرتدى جزءا من جلده • وفى حالة عقد العهد ، فان الغرض من ربط المتعاهدين بالضحية هو التأكد فيما يبدو ، وذلك عن طريق السحر المتبادل ، أنه اذا حنث أى طرف من الطرفين المتعاهدين بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير الضحية ، فالسحر المتبادل اذن هو الذى يخلق بين المتعاهدين والضحية قوة تربطهم وتكون أكبر ضمان على تحقيقه •

وبناء على ذلك ، فاذا صح تحليلنا لعهد ابراهيم ، فان الشعيرة التى قام به تتكون من عنصرين متميزين ، وان كانا متلازمين ، أما العنصر الأول فهو شطر الضحية الى شطرين ، وأما العنصر الثانى فهو مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية • والعنصر الأول يفسر بنظرية الجزاء ، وأما العنصر الثانى فيفسر بنظرية السر المقدس وكلتا النظريتين تكمل احداهما الأخرى، كما أنهما معا تقدمان تفسيرا متكاملا لهذه الشعيرة •

الفصل الثانى

إرث يعقوب
أو نظام وراثة
الابن الأصغر

١ ـ آثار وراثة الابن الأصغر عند بنى اسرائيل :

ان الروايات التى تتعلق بشخصية « يعقوب » تعد أكثر اكتمالا من تلك التى تتعلق بشخصية أبيه « اسحق » وجده ابراهيم • وهى فضلا عن ذلك ، أكثر غنى فى مادتها الفولكلورية ، أى فيما تكشف عنه من بقايا معتقدات وعادات قديمة • وقد كان من الطبيعى أن تتجمع فى شدة الذكريات والخيالات حول شخصية الجد البطل الذى ينتسب اليه بنو اسرائيل سواء من ناحية الاسم أو من ناحية الدم •

ومع ذلك فان شخصية الجد الكبير ، كما تصور فى سفر التكوين ، ليس فيها ما يمتع القارىء الحديث أو يجذبه اليها الا القليل ، كما أنها تتعارض بطريقة غير مستحبة مع الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم ، كما تتعارض مع الورع التأملى الذى اتسم به أبوه اسحق • فاذا كان ابراهيم يعد مثالا للشيخ السامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة

واللطف ، فان يعقوب كان مثالا للتاجر السامي اللين الحذق ، والوافر الحيلة ، الذي يحرص على المكسب، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة ، بل بالحذق ، دون أن يتردد كثيرا في اختيار الوسائل التي يبز بها منافسيه ويتفوق بها عليهم • هذا الجمع غير المرغوب فيه بين الجشع والمكر ، تكشف عن نفسها في الحوادث المبكرة في حياة يعقوب التي دونها سفر التكوين ، أعني تلك الحيل التي سعى عن طريقها لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ، ويسلب منه حقه في الارث ، كما يسلبه من بركة أبيه • فقد كان يعقوب وعيسو توأمين، ولكن حيث أن عيسو كان أكبرالأخوين، فقد كان من حقه وفقا للنظام الشائع ، أن تخلع عليه بركة أبيه ، وأن يرثه • أما الوسائل التي سعى يعقوب عن طريقها أن يسلب أخاه الأكبر من حقوقه ، فكانت ببساطة مواقف حادة من المؤامرات ؛ فقد استغل في بداية الأمر جوع أخيه، فاشترى منه حقه في الوراثة مقابل أكلة من الثريد ، ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيه واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ، ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هو عيسو وبذلك اغتصب بركة أبيه التي كان يعنى بها أخوه • حقا ان الموقف الثاني من الخديعة التي تمت على الأب الكهل ، لم تكن من صنع يعقوب ، وانما أوحت به اليه أمه « رفقة » التي كانت تسمى قبل زواجها «لبيبة» ، وذلك لكي تختبر مهارتها في خداع زوجها . ومع ذلك ، فان استعداد يعقوب السريع في تقبل الخدعة ، يبرهن على أن ماكان يعوقه في خداعه لأبيه ليس هو الشعور بالود وانما الحيلة السريعة •

وقد يثير مثل هذا التواطؤ في مرحلة معينة من التطور الأخلاقي بعض الاستهجان ، وقد لا يثير هذا الاحساس على الاطلاق ، اللهم بين الذين يعانون منه • فقد يميل الشخص غير المتحيز المعاصر لهذا الفعل ، الى أن يثني على هذا التواطىء الذي يدل على المهارة والذكاء اللذين مكنا صاحبهما من الانتصار على شخصية لا تتسم الا بالصدق والغباء • ولكن بعد أن تغيرت المقاييس الأخلاقية ، فقد أصبح الرأي الجماهيري يقف في صف الصادق الغبي ، ويولي ظهره لمثل هذا الانسان الماهر الحاذق • ذلك أن التجربة قد أثبتت أن أي تواطؤ مهما تكن درجة ذكاء صاحبه وبعد نظره ، فانه لا يسيء الى الأفراد فحسب ، وانما يسيء الى المجتمع بوصفه كلا ، وذلك لأنه يخلخل رباط الثقة المتبادلة بين الناس ، تلك الثقة التي تربط وحدها بين جماعة الناس في وحدة واحدة • وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بوجه عام ، بدأ المؤرخون يقيمون أعمال الرجال في العصور الماضية بمقاييس أخلاقية لم يكن يتسنى لهؤلاء الرجال المخادعين أنفسهم أو لمعاصريهم أن يستخدموها في الحكم على أفعالهم . فاذا وجد الناقد الطيب أن الشخصيات

البطولية التى عاشت فى الزمن الماضى تهبط دون هذا المستوى الأخلاقى ، فانه ، بدلا من أن يعترف صراحة بالبون الشاسع الذى أوجده التطور الأخلاقى بينه وبين هذه الشخصيات ، فانه يحاول أن يتغافل هذا ، بالتماس المعاذير لهم ، وادعاء المبررات التى يرفضها هو نفسه بناء على مقاييسه الأخلاقية • فالميل الى تبرأة الفرد من الأعمال الشائنة ، اذا كان دافعه القلب الطيب وليس الغرور الكاذب فى ادعاء المتناقضات ، يعد عملا جديرا بالاكبار ، وربما كان غير مؤذ لغيره ، وهو فى ذلك يختلف عن المحاولة الأخرى التى تهدف الى طمس أكثر الشخصيات شهرة ، حيث أن مثل هذا العمل البغيض وان يكون مألوفا ، لا يصيب الشخص البرىء بضربة فى ظهره فحسب ، وانما يسىء الى المجتمع كذلك ، ويهبط بمستواه الأخلاقى ، حيث أنه يسلبه نماذج للفضيلة قلما نعثر عليها . وربما كان التأمل فى هذه النماذج أكثر ملاءمة للانسان الذى يتوق الى مثل الفضيلة ويعجب بها ، من الكثير من الأبحاث التجريدية التى تتحدث عن الفلسفة الأخلاقية ..

وفى السنوات المتأخرة أخذ مواطن يدعى « يوسف يعقوب » على عاتقه مهمة الدفاع عن شخصية يعقوب ، فقد حاول أن يزيل تلك الوصمة عن الجد النبيل ، بأن أشار الى أن يعقوب ، وفقا للقانون القديم ، كان أحق بالارث ، بوصفه الابن الأصغر ، وأن الاحتيال الذى لجأ اليه للحصول على مأربه ، وفقا للرواية العبرية ، ليس سوى تفسير خاطىء من قبل المؤرخ لعملية لم يفهمها هذا المؤرخ نفسه . ولست أود أن أخاطر بالقول بما اذا كان هذا الاعتذار سليما أم غير سليم ، ولكن من المؤكد أن مثل هذا القانون الوراثى القديم كان ينتشر ، كما افترض هذا المدافع عن يعقوب ، بين كثير من الشعوب ، وليس هناك ما يدعو لأن نفترض انه لم يكن منتشرا فى هذا الزمن البعيد بين أجداد بنى اسرائيل • وقد عرفت هذه العادة أو القانون ، باسم حق الابن الأصغر ، أو حق وراثة الابن الأصغر ، وذلك فى مقابل حق وراثة الابن الأكبر ، لأن الارث يؤول وفقا لهذا القانون ، الى الابن الأصغر بدلا من الابن الأكبر • وفى هذا الفصل أود أن أوضح هذه العادة من خلال الأمثلة ، وأن أبحث أصلها •

ولنبدأ بالبحث عن آثار أخرى ممكنة لحق الابن الأصغر أو حق وراثة الابن الأصغر فى العهد القديم نفسه • وربما كان أول ما يسترعى نظرنا أنه اذا كان يعقوب قد سلب أخاه الأكبر حقه ، فانه لم يفعل الا ما فعله أبوه اسحق من قبل • ذلك أن اسحق كذلك كان ابنا أصغر ، وكان قد عزل

أخاه اسماعيل من حقه في وراثة أبيهما ابراهيم • وهذا المبدأ الذى اتبعه يعقوب فى معاملته لأخيه وأبيه ، اذا كان من المستطاع أن نسميه مبدأ ، يبدو أنه اتبعه بعد ذلك مع أبنائه وأحفاده . فقد قيل لنا : أن يعقوب كان يحب يوسف أكثر مما يحب أبنـاءه الكبار ، « لان يوسف كان ابن شيخوخته » • ولقد أبدى تفضيله ليوسف بطريقة أثارت الحقد فى قلوب اخوته الكبار ، الى درجة أنهم دبروا مؤامرة للقضاء عليه • حقا ان يوسف ، وفقا لرواية التوراة التى بين أيدينا ، لم يكن أصغر أبناء يعقوب ، حيث أن « بنيامين » قد ولد من بعـده • ولكن ربما افترضنا أن يوسف كان حقيقة هو الابن الأصغر فى الرواية الأصلية • فالعاطفة القوية التى أبداها نحوه أبوه ، والرداء ذو الألوان المتعددة ، أو بالأحرى الرداء ذو الأكمام الطويلة الذى كان يميزه بين أخوته ، ثم تلك المكانة المرموقة التى تمتع بها بعد هذا كله ، كل هذا يؤيد أن يوسف كان أحب أبناء يعقوب اليه • ولكننا نجد من ناحية أخرى أن اسم « بنيامين » أصغر أبناء يعقوب معناه «ابن اليمين» • وهذا اللقب الذىيبرز بنيامين بوصفهصاحب الحق الشرعى فى الارث ، تؤيده الرواية المشـهورة التى تحـكى أن يعقوب عندما كان يبارك حفيديه ، ولدى يوسف ، فضل متعمدا (١) حفيده الأصغر على الأكبر ، بأن وضع يده اليمنى على رأس حفيده الأصغر « أفرايم » ، ويده اليسرى على رأس حفيده الأكبر « منسى » ، وذلك على الرغم من معارضة أبيهما يوسف الذى قدمها لأبيه فى وضع بحيث يكون الابن الأكبر مقابل اليد اليمنى ، والابن الأصغر مقابل اليد اليسرى • ولكن الشيخ اضطر الى أن يضع يديه على صدره فى وضع متقاطع، حتى تصل يدهاليمنىالى رأس حفيده الأصغر ، ويده اليسرى الى رأس حفيده الأكبر • ومن ثم فان الباحث الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن يعقوب ، يمكنه أن يقول بحق أن يعقوب كان يتمسك ، على الأقل فى أثناء حياته ، بمبدأ تفضيل الأبنـاء الصغار على الكبار ، وأنه كان يغفل هذا المبدأ عندما يجد أنه لا يخـدم أغراضه الشخصية •

---

(١) « فلما رأى يوسف أن أباه وضع يده اليمنى على رأس افرايم ، ساء ذلك فى عينيه • فامسك بيد أبيه لينقلها عن رأس افرايم الى رأس منسى • وقال يوسف لأبيه ليس هذا يا أبى ، لأن هذا هو البكر • ضع يمينك على رأسه • فأبى أبوه وقال علمت يا بنى علمت • هو أيضا يكون شعبا وهو أيضا يكون كبيرا ، ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ، ونسله يكون جمهورا من الأمم » •

(سفر الخروج • الاصحاح الثامن والأربعون من آية ١٧ الى ١٩) •

على أن هناك شواهد أخرى تؤيد هذا المبدأ ، وبتعبير آخر تشهد على أن عادة حق الابن الأصغر القديمة ، أو حقه فى الارث كانت متبعة فى بنى اسرائيل • فنحن نقرأ فى سفر التكوين أن « تامار » ابنة يهوذا أنجبت ولدين توأمين، أحدهما كان يدعى «فارص» والآخر «زارح» . وعلى الرغم من أن « فارص » كان هو الأسبق فى ولادته ، فان هناك رواية غريبة تحكى عن ميلاد الطفلين وتميل الى أن تؤكد أن « فارص » كان حقا ، شأنه شأن يعقوب وأخيه عيسو ، أصغر الطفلين وليس أكبرهما كما يظن ذلك بعض الناس • على أنه لا يبدو من ظاهر الرواية أن « فارص » كان حقا ، شأنه شأن يعقوب وأخيه عيسو ، أصغر الطفلين وليس أكبرهما كما يظن ذلك بعض الناس • على أنه لا يبدو من ظاهر الرواية أن « فارص » كان هو الأصغر ، ولكن هذا يتضح اذا تذكرنا أن « فارص » كان الجد المباشر للملك « داود » وأن « داود » نفسه كان أصغر أبناء أبيه ، وقد رشحه «صموئيل» عن عمدللملك مفضلا اياه على كل اخوته الكبار. ومن ثم فان هدف حكاية سفر التكوين من ذكر التفاصيل قد تبدو غير أساسية فى الحكاية ، ان لم تكن عارضة ، عن ميلاد التوأم ، هو فيما يبدو اثبات أن الملك داود لم يكن أصغر أبناء أبيه فحسب ، بل ينتسب كذلك الى أحفاد يهوذا ، أصغر التوأمين . وقد أورث داود بدوره الملك من بعده الى أحد أصغر أبنائه وهو سليمان ، وأبعد عن عمد أحد أبنائه الكبار وهو « أدونيا » ، الذى كان قد طالب بالعرش . واذا اجتمعت معا كل هذه الحقائق ، فقد تثير افتراض أن عادة ارث الابن الأكبر ، أو تفضيل الابن الأكبر على أخوته قد تلت ، عند الاسرائيليين ، عادة حق ارث الابن الأصغر ، أو عادة تفضيله على اخوته ، بوصفه وريثا لأبيه . وقد يتأكد هذا الفرض اذا رأينا أن عادة مشابهة لهذه العادة كانت تنتشر فى بقاع كثيرة من جهات العالم .

٢ ـ حق الابن الأصغر فى الميراث فى أوروبا :

ومن بين هذه البلاد التى اتبعت هذه العادة وما تزال تتبعها ، بريطانيا. فماتزال هذه العادة القديمة ، أو كانت حتى عهد قريب ، هى قانون الأرض فى كثير من جهات انجلترا . وهذا القانون يعرف باسم Borough English . وقد استمد هذا الاسم لتلك العادة من كلمة محلية استخدمت فى محاكمة من المحاكمات تمت فى زمن « ادوارد الثالث » . اذ يبدو من تقرير فى الكتاب السنوى فى السنة الأولى من حكم الملك

« ادوارد الثالث » أنه كان فى « نوتنجهام » اقطاعيتان اســـم احداهما « Borough English » ، والأخرى « Borough French » وقد كانت المساكن كلها تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الأولى الى أصغر الأبناء ، كما كانت تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الثانية الى أكبر الأبناء . وقد قيل ان نوتنجهـــام ظلت حتى عام ١٧١٣ م منقســـمة الى الاقطاعيـــة الانجليزية والاقطاعية الفرنسية ، وان كل اقطاعية كانت تسير وفقا لعاداتها . بل ان عادات مشابهة لهاتين العادتين ماتزال تنتشر فى الأقاليم المجـــاورة لهما .

أما عن الأماكن التى كانت ينتشر فيها نظام « Borough French » أو نظام حق الابن الأصغر فى الارث ، فى انجلترا ، فكانت تنتشر على وجه التقريب على طول امتداد الشاطىء السكسونى من « واسن » الى الأماكن المجاورة لـ «سولنت» بما فى ذلك ممتلكات الكونت الجنوبية الشرقيـــة بأسرها . ولكى نكون أكثر دقة ، فان هذه العـــادة كانت أكثر ما تكون انتشارا فى « كنت » و « ساسكس » و « سارى » وفى مجموعة الأقاليم التى كانت تحيط بلنـــدن القديمة . كما أنهـــا كانت أقل انتشـــارا فى «اسكس» ومملكة «ايست انجيليان» . وقد كانت تنتشر بصفة عامة فى « ساسكس » بالنسبة للأراضى التى تمتلك بالالتزام ، بحيث أنهـــا كانت تسمى القانون العام للمقاطعة . أما فى منطقة « ريب لويس » فكانت تنتشر على وجه التقريب انتشارا عاما بحق . وهناك أمثلة قليلة تدل على انتشار هذه العادة فى « همبشاير » ، ولكن كان هناك جزء كبير من « سومرست » يقع فى أقصى الغرب ، وهو عبارة عن مساحة متصلة من الأرض ، يخضع لعادة قصر الارث على الابن الأصغر . وكانت هذه العادة تقل نسبيا فى « مقـــاطعة ميدلاند » ، فهى تنتشر فى وحـــدة ادارية من بين كل وحدتين اداريتين أو ثلاث ، فى حين أنها تنتشر فى أربع من المدن من بين المـــدن الخمس الدنماركية الكبيرة وهى : «ديربى» و «ستامفورد» و «لايكستر» ، و «نوتنجهام» . بالاضافة الى بعض المقاطعـــات المهمـــة الأخرى مثـــل «ستافورد» و «جلاوسستر» . ويبدو أن هذه العادة لم تكن معروفة فى الشمال فى مجموعة المقاطعات التى كانت تقع بين «همبر» و «ميرسى» . .

على أن هـــذه العادة لم تكن مقصـــورة على الأماكن السكسونية فى انجلترا ، بل كانت تنتشر كذلك فى البـــلاد الكلتية مثـــل « كورنوول » و «ديفون» و «ويلز» . وتقضى قوانين « ويلز » القديمة بأنه « اذا تقاسم الأخوة الارث ، فان أصغرهم يملك المسكن وما يتبعه من أرض ومنشآت

وكل منشآت الأسرة ، وثمانية فدادين على وجه التقريب ، كما يملك البلطة والمرجل والمحراث ، اذ أن الأب لايمكن أن يمنح هذه الأشياء الثلاثة الا الى أصغر أبنائه • فاذا كانت هذه الأشياء مرهونة ، فانها لا تستبعد من الارث على الاطلاق » • أما قانون ويلز فلا ينص فى حق الابن الأصغر فى الارث الا على العقار والأرض ، وهو عندئذ يرث بيتا مأهولا على الأقل • فاذا وزعت سائر الممتلكات بين الاخوة ، فلا يتمتع الابن الأصغر بأى استثناء فى ذلك • ويبدو أنه ليست هناك أية شواهد تشير الى انتشار عادة حق ارث الابن الأصغر فى أى مكان فى اسكتلندة ، ولكنه كان من المألوف فى جزر « شتلاند » ، أن يرث الابن الأصغر ، ذكرا كان أم أنثى ، عند تقسيم التركة ، مسكن الأبوين •

ويبدو أن عادة حق ارث الابن الأصغر كانت مرتبطة فى القانون الانجليزى القديم بسيطرة السادة على ملكية الأرض • وقد كتب الى الأستاذ الراحل « ف•و•ويتلاند » حول هذا الموضوع فقال : « أما عن انتشار عادة حق ارث الابن الأصغر فقد اطلعت على كثير من شواهدها فى الوثائق التى ترجع الى القرن الثالث عشر • وسواء أكانت هذه الوثائق مطابقة للحقيقة أم لا ، فانه ينظر اليها على الدوام بوصفها شاهدا ، ان لم تكن دليلا قاطعا ، على سيطرة السادة على ملكية الأرض • ويبدو ، وفقا لهذا النظام ، أن مساكن موالى السيد لم تكن تورث على الاطلاق ، ولكن هذا النظام كان يتطلب من السيد أن يختار أحد أفراد أسرة المستأجر المتوفى • ليحل محله • ولم يكن من الأمور غير الطبيعية أن يختار هذا السيد أصغر أبناء المستأجر المتوفى • أما سائر الأخوة فيضربون فى الحياة كما خلقوا فيها ، فى حين يبقى الابن الى جانب أبيه فى بيته ساعة احتضاره • ووفقا لكثير من العادات التى تراعى تقسيم التركة بالتساوى بين الأخوة ، يختص الابن الأصغر بوراثة بيت الأسرة وما حوله ، والمدفأة • على أننى لا أدعى بذلك أننى قد توصلت الى اثبات مبدأ العبودية فى نظام حق الابن الأصغر فى الارث ، ولكن من المؤكد أن وراثة الابن الأصغر لأبيه فى الأرض كانت تخضع لنظام العبودية فى القرن الثالث عشر • وفى وسعى أن أقدم اثباتا كافيا على ذلك • وكان هذا المبدأ يرتبط بنظام الاتاوة Merchetum (١) ، اذ كثيرا ما يذكران معا ، كما هو الحال فى المثال

---

(١) كان هذا هو اسم الاتاوة التى يدفعها الملتزم للسيد الاقطاعى عند تزويجه ابنته •

(المراجع)

التالى (١) : «أنتم عبيد أرضى ، فرضت عليكم الجزية ، ودفعتم لى الاتاوة فى زواج بناتكم ، وقد كان كل منكم أصغر أبناء أبيه فورثه فى التزامه » .

ومما هو جدير بالذكر أن نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى انجلترا لايقتصر على الذكور . فهناك عشرات ، أن لم يكن مئات ، من الأحياء الصغيرة التى يمتد فيها هذا الحق من الذكور الى الاناث . وفى هذه الحالة تفضل أصغر البنات أو أصغر الأخوات أو الخالات على شريكاتها الأخريات .

وكذلك ينتشر نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى بعض جهات فرنسا . « ففى بعض نواحى ممتلكات الكونتات فى « كورنواى » فى « بريتانى » ، يتمتع أصغر الأبناء بحق يختص به وحده يساوى حق الابن الأكبر تماما . فأصغر الأبناء ، ذكرا كان أم أنثى ، يرث الأرض التى تسمى « quevaise » ، دون اخوته وأخواته » . ويعرف هذا الحق فى فرنسا بقانون « mainete » . وعلى الرغم من أن هذه العادة تنتشر فى المقاطعات الممتدة الكثيرة التى كانت تابعة للأشراف فى « بريتانى » ، فاننا لا نستطيع أن نتعرف بذلك على أصل انتشارها فى فرنسا . ذلك أن المحامين الاقطاعيين عندما كانوا يشرعون العادات فى الأقاليم ، كان النبلاء يولون ظهورهم للعادة غير المألوفة لديهم . كما أننا نعلم أن المنطقة التى كانت تنتشر فيها هذه العادة فى القرن السابع عشر كانت تتضاءل يوما بعد يوم على وجه التقريب . أما الأحياء التى كانت تروج فيها تلك العادة ، فكانت تتضمن « دوقية روهان » ، ومقاطعة « بلاكريك » وممتلكات الأديرة فى «ريليك» و « بيجار » . أما فى « بريتانى » كما هو الحال فى كثير من جهات انجلترا فقد كان نظام حق الابن الأصغر فى الارث يتبع نظام ادارة الأرض بالسخرة . واذا توفى الأب فى « بريتانى » كما هو الحال فى انجلترا دون أن يترك أولادا ذكورا ، فان الارث يؤول الى أصغر البنات . وقد كانت تعيش هذه العادة تحت اسم Madelstad, mainete فى « بيكاردى » و « أرتوا » ، « هينو » ، وفى « يونثيو » ، و « فيفير » ، وفى الأحياء التى تقع حول « أراس » و « دواى » و « أميان » و « ليل » و « كاسل » ، وفى الأقاليم المجاورة من « سنت أومير » . ويتفاوت حق ارث الابن الأصغر فى كل هذه الأحياء ، بين أن يرث هذا الابن التركة

---

(٢) من رسالة ف. و. ميتلاند F.W. Maitland بتاريخ ١/١١/١٨٨٧ .

(المراجع)

جميعها ، أو أن نتميز عنهم فقط فى ارث أثاث البيت • وهذا النظام نفسه فى الارث ، كان يتبق كذلك فى « جريمبرجن » فى « برابانت » •

وقد انتشرت مثل هذه العادات فى كثير من جهات « فريزلاند » • وأشهر هذه العادات ، تلك التى كانت تعرف باسم « جوس ثيلاكتيكوم » أو تشريع «أراضى ثيل» ، وهى تلك الأراضى التى كانت مقسمة أو موزعة فى الشمال فى شرق « فريزلاند » غير بعيد من منبع نهر « امز » • وقد ظل المزارعون فى هذا الحى حتى القرن التاسع عشر يحتفظون بحصصهم وفق نظام من القوانين المعقدة التى وضعت لتحول دون تجزئة الأراضى ، تلك التجزئة التى لا تعود عليهم بفائدة • فحصة الأرض التى تورث لم تكن تقسم ، وانما يرثها الابن الأصغر كاملة بعد موت أبيه . فاذا مات هذا الأب دون أن يترك وراءه ذرية ، فان هذه الحصة من الأرض تصبح ملكا للجماعة .

وهناك أمثلة أخرى لعادة حق ارث الابن الأصغر يمكن أن تستخلص من العادات المحلية التى ألغاها القانون المحلى فى « وستفاليا » وفى بلاد نهر الراين التى كانت تخضع « للقانون السكسونى » ، وفى دوائر « هيرفورد » التى كانت تقع بالقرب من « ميندن » ، والتى كان سكانها يدعون أنهم ينتمون الى العنصر السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان الزارعين كانوا يتمسكون بتلك العادة الى درجة « أنه حتى زمن قريب لم يكن يطالب الابن الأكبر بحقه القانونى الالزامى قط ، وانما كان الأبناء يرضون بحق أخيهم الأصغر فى الارث ، وان لم يترك لهم أى نصيب يرثوه . ولم يكونوا يحلمون قط بالمطالبة بحقوقهم فى ظل قانون الارث الذى لم يكن قابلا للنقض • وحتى اذا توفى الزارع دون أن ينص على هذه الوصية المألوفة ، فان الأبناء يرضون بعدم مشاركتهم لأخيهم الأصغر فى الارث » . وشبيه بهذه العادة تلك العادة التى ازدهرت فى « سيليزيا » وفى جهات بعينها من « فورتنبرج » ، حيث فشلت قوانين الوراثة الجديدة فى القضاء على الامتياز القديم المقدس للابن الأصغر الذى كانت تراعى حقوقه فى تسوية سرية أو بقوة الرأى المحلى • وهناك فى غابة « أودين فالد » ، وفى الحى الذى لا يزدحم بالسكان ويقع الى الشمال من بحيرة « كونستانس » ، ممتلكات من الأراضى يطلق عليها اسم « هوف جوتر » غير قابلة للتقسيم ، وانما تؤول الى أصغر الأبناء الذكور • فان لم يكن هناك أبناء ذكور آلت الى البنت الكبرى • وهناك أماكن أخرى كثيرة تنتشر فيها عادة حق الابن الأصغر فى الارث • فقد قيل لنا انها توجد فى سوابيا ، وفى سويسرا ، والالزاس ، وغير ذلك من البلاد الألمانية أو

تلك التى يخضع جزء منها للبلاد الألمانية . ففى هذه الأماكن ما تزال هذه العادة لها تأثيرها على الزراعيين على الرغم من أنها فقدت صفتها الشرعية .

وليس هناك دليل على أن هذه العادة كانت منتشرة فى الدانمارك والنرويج والسويد . ولكن الابن الأصغر كان يتمتع بهذا الحق فى جزيرة « بورنهولم » (التى كانت مملكة ذات يوم) وهى جزيرة ملحقة للتاج الدانماركى ، كما أن آثارا لهذه العادة قد سجلت فى مقاطعة جمهورية « لوبيك القديمة » .

أما فى جنوب روسيا وغربها ، فان النظام يتجه الآن الى تحطيم وحدة العائلات القديمة عن طريق سكنى الأبناء فى بيوت مستقلة يملكونها . وقد قيل انه ينظر الى الابن الأصغر فى هذه الحالة بوصفه وريثا لمنزل الأسرة . واننى لمدين للسيدة « م.أ.تزابليكا » العالمة الاثنولوجية البولندية المرموقة ، لأنها أمدتنى بالمعلومات الآتية التى قالت فيها : « من المعروف أن حق الابن الأكبر أو الابن الأصغر فى الارث ، كان هو العرف الذى يسير وفقه الزارعون الروس منذ الزمن الذى ظهر فيه التشريع الروسى « روسكايا برافدا » ، وهو التشريع الروسى الأول الذى شرع فى عهد « باروسلاف » الأكبر . بل ان هذا النظام ما زال هو السائد فى قانون الزارعين العرفى ، الأمر الذى يجعل من الممكن اقتفاء أثر أصل هذا القانون فى نظام الوراثة . ولا يعد حق الابن الأصغر امتيازا وانما هو أمر طبيعى . وذلك نظرا لما يحدث فى الواقع وهو انفصال الأبناء الكبار فى العادة عن منزل أبيهم وعن أسرهم ، فى حين أن الابن الصغير أو الأصغر لا ينفصل عن أبيه قط طالما كان الأب على قيد الحياة . على أنه اذا ورث الابن الصغير ، بالاضافة الى مسكن الأب ، ممتلكات أخرى ، الأمر الذى يضر باخوته الكبار ، فانه يرث كذلك أعباء بعينها . وتلك الأعباء هى أن يرعى أبويه العاجزين ، كما يرعى فى الغالب اخواته غير المتزوجات . فاذا لم يكن الأبناء الكبار قد انفصلوا عن منزل أبيهم عند وفاته ، فان منزل الأسرة يؤول كذلك الى الابن الأصغر ، على أن يكون من واجبه أن يساعد اخوته الكبار فى تأسيس مساكن لأنفسهم » . كما أخبرتنى السيدة « تشابليكا » بأنه « ليس هناك أثر لعادة حق الابن الأصغر فى الارث فى غير طبقة الزارعين فى روسيا . ويقتصر الارث فى هذه الحالة على بيت الأسرة وعلى قطعة من الأرض التى تملكها الأسرة ، لا تلك التى تملكها الجماعة » .

وبهذا نكون قد ألقينا نظرة على انتشار عادة حق ارث الابن الأصغر

بين الشعوب الآرية فى أوربا • فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الشعوب الأوربية التى لا تنتمى الى الأصل الآرى ، فاننا نعرف « أن قانون الضــواحى فى هنغاريا يقضى بأن يرث الابن الأصغر بيت الأسرة على أن يعوض الابن الأصغر اخوته عن هــذا الامتياز . وعلى الرغم من أن رب الأسرة عنــد « التشوديين الشماليين » يمكن أن ينيب عنه الابن الأكبر أو الأصغر فى ادارة شئونه ، وربما أناب عنه شخصا غريبا اذا شاء ، الا أنه يتحتم عليه أن يورث أصغر أبنائه المسكن الذى يسكن فيه •

٣ ـ مسألة أصل حق الابن الأصغر فى الميراث :

بعد أن قدمنا نماذج لانتشار عادة حق الابن الأصغر فى الارث أو تفضيل الابن الأصغر على اخوته فى الارث ، يحق لنا أن نتساءل : ماذا كان أصل هذه العادة التى تفاجئنا اليوم بغرابتها وباجحافها بحقوق الأبناء ؟ ان الآراء التى تعرضت لهذا الموضوع وافرة ، ومن الأفضل أن نبدأ برأى العالم ورجل القانون «سيروليم بلاكستون» الذى عبر عنه فى شروحه الشهيرة للقانون الانجليزى • ففى أثناء حديثه عن نظام ملكية الأراضى فى الاقطاعات أو البلاد التى لها حق التمثيل فى البرلمان ، وازن بينه وبين نظام ملكية الأرض فى ظل النظام الحربى ، أو خدمة الفروسية ، وعده من مظاهر بقايا الحرية السكسونية التى أبقى عليها هؤلاء الأفراد الذين لم يرهنوا أرضهم ولم يضطروا الى استبدالها ، « ذلك أنه كلما كانت ملكية الأراضى أكثر شرفا ، كما كانوا يدعون ذلك ، كلما زادت أعباؤها » • والحرية السكسونية من وجهة نظره « تشمل أيضا التنوع الكبير فى العادات التى تؤثر على نظام الملكيــة التى تعــد أهمهــا وأبرزها النظام الانجليزى الذى يعرف باسم Borough English تمييزا لها عن العادات النورمندية ، تلك التى أشار اليها « جلانفيل » و « ليتلوتون » وغيرهما وشرحوها ، بأن الابن الأصغر لا الأكبر هو الذى يرث مسكن الأسرة بعد موت أبيه • أما السبب الذى قدمه « ليتلتون » لاتباع هذه العادة ، فهو أن الابن الأصغر نظرا لصغر سنه ، لن يكون قادرا على اعالة نفسه كما يفعل اخوته الكبار • وهناك مصادر أخرى قدمت سببا آخر أكثر غرابة بحق ، هو أن سيد الاقطاعية كان فيما يبدو ، من حقه أن يتخذ محظية له فى ليلة زفافه من زوجتــه الأصلية التى تنتمى الى هذه الاقطاعية • ومن ثم فان مسكن الأسرة لايؤول الى أكبر الأبناء بل الى أصغرهم الذى يكون انتمــاؤه الى الاقطاعية أكثر ترجيحا من انتماء الابن الأكبر لها • ولست أعرف أن هــذه العادة كانت تنتشر فى انجلترا ، وان كانت قد انتشرت بالفعل فى اسكتلندا (تحت

اسم (Mercheta) او (Marcheta) ، حتى قضى عليها « مالكولم الثالث ».
وهناك سبب ثالث ربما كان أكثر منطقية من السببين الأولين استخلص من عادات التتار الذين كانت تنتشر بينهم ، وفقا لما ذكره الأب « دوهالدى » عادة حق ارث الابن الأصغر . وقد كان الشعب التترى يتكون أصلا من الرعاة وأصحاب القطعان وكان الأبناء الكبار يهجرون اباهم، بمجرد أن يصبحوا قادرين على أن يعيشوا حياة رعوية بمفردهم. وفى هذه الحالة يصحبون معهم عددا من القطعان ويبحثون عن مسكن جديد لهم . أما الابن الأصغر ، الذى يعيش فيما بعد مع أبيه ، فهو يصبح وارث بيت الأسرة بعد موت أبيه ، ويتحمل سائر الأعباء . وهكذا نرى أن العادة التى كانت متبعة بين كثير من الشعوب الشمالية هى أن يهجر الأبناء جميعا آباءهم فيما عدا الابن الأصغر الذى يصبح وريثه فيما بعد ، بحيث يمكننا أن نستخلص أن هذه العادة ، حيثما وجدت ، يمكن أن تكون بقايا النظام الرعوى لأجدادنا البريطانيين والجرمانيين ، ذلك النظام الذى وصفه كل من قيصر وتاكيتوس » .

على أننى لم أعثر على عبارة « دوهالدى » التى أشار اليها «بلاكستون» ولكن هذه العبارة يؤكدها مؤرخ محدث أخبرنا أن « أهم ما يميز القانون القديم الذى كان سائدا بين الأتراك والمغول ، وهو الذى يلقى ضوءا حيا على تاريخهم ، تلك العادة التى سأطلق عليها ، نظرا لاحتياجى الى اصطلاح آخر ، عادة « التبنى المعكوس » . فالعادة المتبعة عند الأتراك فى الارث ، تضع له نظاما على نحو غريب للغاية . فالوريث الدائم الذى يرتبط على نحو ما بتربة وطنه هو أصغر الأبناء . وهو الذى يطلق عليه المغول اسم « أوت ـ ديزيكين » ، كما يطلق عليه الأتراك اسم « تيكين » أى « حارس الدار » . فالى هذا الابن الأصغر يؤول نصيب الأرض الذى لا يتغير ، ذلك الذى ذكره المؤرخون الصينيون والرحالة الغربيون . فالأبناء الكبار يوزعون فيما بينهم المنقولات وأهمها المال الذى هو القطعان والماشية » . وفضلا عن ذلك كانت عادة حق ارث الابن الأصغر مألوفة لدى مجموعة من القبائل المغولية التى تسكن الصين الجنوبية الغربية والجهات المتصلة بها فى الهند وبورما . وربما أدى البحث عن أحوال هذه القبائل الاجتماعية الى القاء الضوء على مشكلة الارث هذه . ولكننى أود أن أشير ، فى بداية هذا البحث الى أنه ليست هناك قبيلة من هذه القبائل تشتغل بالرعى ، على عكس ما كنا ننتظره وفقا لنظرية « بلاكستون » ، هذا اذا افترضنا أن نظريته صحيحة ، وانما تعتمد هذه القبائل كلية فى معيشتها على ما تنتجه الأرض المستفلحة .

٤ ـ توريث الابن الأصغر فى آسيا الجنوبية :

ولنبدأ بقبيلة «لوشاى» التى تسكن فى جزء كبير من تلال أسام . وأناس هذه القبيلة قصار أشداء أقوياء العضلات ، ذوو وجوه عريضة جرداء من الشعر ، وعظام بارزة فى الصدغين ، وأنوف قصيرة مفلطحة وعيون صغيرة لوزية الشكل ، وبشرة تختلف بين اللون الأصفر والبنى . ومن ثم فان الرائى لا يخطىء أصلهم المغولى . وهذا الدليل الذى يشير اليه مظهرهم الجسمانى ، تؤكده اللغة التى يتحدثون بها ، تلك اللغة التى تنتمى الى فرع « التبت ـ البورمانى » ، وهو أحد فروع لغة « التبت ـ الصينية » . وهؤلاء القوم مزارعون وغذاؤهم الأساسى هو الأرز . ولكنهم وفقا لنظام الزراعة الذى يتبعونه ، اضطروا لأن يكونوا قوما مهاجرين ، اذ قلما يستقرون فى مكان واحد بضعة سنوات . ونظامهم الزراعى يعرفه الكتاب الانجليز فى العادة ، هؤلاء الذين يكتبون عن الهند ، باسم jhuming أو Jooming . فهم يقطعون أشجار الغابات أو أشجار الخيزران فى مساحة من الغابات أو الأحراش . فاذا جفت أشجار الغابات أو أشجار الخيزران قاموا بحرقها واستخدامها سمادا للأرض . ومن ثم فهم لايعزقون الأرض بعد تسبيخها على هذا النحو الا سطحيا . فاذا تجمعت السحب منذرة بأن فصل الجفاف قد أوشك على الانتهاء ، وأن المطر أوشك على السقوط ، خرج كل فرد منهم يحمل فوق كتفه سلة ممتلئة بالحبوب ، كما يحمل سكينا عريضا (دار) فى يده . فاذا استعد الجميع على هذا النحو، أخذوا يبذرون الحب بأن يشقوا الأرض بسكاكينهم شقوقا سطحية يبذرون فيها الحب . ومحصولهم الرئيسى هو الأرز ، ولكنهم يزرعون كذلك البقول والدخان والذرة والدخن والقطن . وهذه الطريقة فى الزراعة مضياعة للمحصول الزراعى ، حيث أنهم قلما يحصلون على محصولين من قطعة واحدة من الأرض فى سنين متتالية . وعند ذاك تترك الأرض بورا حتى تكتسى بالأحراش أو الشجيرات النامية مرة أخرى . فاذا كانت الأرض التى كانوا قد أزالوا عنها الأشجار جزءا من أحراش الخيزان ، فانه يتحتم مرور ثلاث أو أربع سنوات قبل أن تصبح الأرض ملائمة للزراعة . أما اذا كانوا قد أزالوا أشجار غابة فانه ينبغى أن تمر فترة تتراوح بين سبع وعشر سنوات قبل أن تتكرر عملية قطع الأشجار مرة أخرى . ويقال ان أرض الغابة تدر محصولا أوفر من أرض الأحراش ، ولكنها تتطلب جهدا أكبر فى ازالة الأشجار منها وتطهيرها من الأعشاب الضارة بالزرع . وبهذه الطريقة تستنفد، بمرور الوقت ، الأراضى الصالحة للزراعة التى تحيط بقرية كبيرة ، ويصبح من الضرورى أن يبحث السكان عن مكان آخر يستوطنونه .

واختيـار مكان جديد أمر يثير قلقهم ، فهم يرسلون منـدوبين عنهم من شيوخهم ليناموا فى المكان الذى يقع عليه الاختيار ، ويأخذون معهم ديكا يتكهنون عن طريقه فيما اذا كانوا يستقرون فى هذا المكان أم لا • فاذا صاح الديك قبل الفجر بساعة ، فانهم يتفاءلون بذلك ويستقرون فى هذا المكان ، فان لم يفعل الديك هذا ، تركوا المكان الى غيره • وهم يستقرون فى القرية الجديدة مدة أربع أو خمس سنوات • وقد كان من الممكن فى الزمن القديم أن تبعد القرية الجديدة عن القرية القديمة بمسافة تستغرق يومين أو ثلاثة أيام • وكان يتحتم على المواطنين أن يحملوا على ظهورهم أمتعتهم الدنيـوية من مكان لآخر ، وكان من الطبيعى أن يحول التوقع المستمر للانتقال المضنى دون زيادة منقولاتهم ، وبالتالى كان يحول دون نمو ثروتهم وتجارتهم • كما كان من الطبيعى فى ظل هذا النظام للزراعة المتناوبة ، ذلك النظام الذى تألفه أغلب القبائل التى تسكن تلال هـذه المنطقة ، ألا يطالب الزارعون بملكيتهم للأرض ، بل ان زعماءهم لم يكونوا يطالبون بحق فى ملكية الأرض أو الغابات ، ولم يكن للزعيم سلطان سوى بين رجال قبيلته أينما ساروا وحيثما استقروا استقرارهم المؤقت • ويقوم العبيد بين القبـائل الأكثر بدائية بالجانب الأكبر من استصلاح الأرض وزراعتها . وهؤلاء العبيد تأسرهم القبائل فى غاراتهـا حتى يقوموا بدلا منهم بهذا العمل المهين •

وقد كانت قرى « اللوشاى » تقع فى الغالب على قمم سلاسل التلال وتمتد على جوانبها المنحدرة • وهى فى الغالب قرى كبيرة تتألف من مئات البيوت. علىأن حاجة الأهالى الىالتجمع فى قرى كبيرة حصينة قدانقضت نظرا لما كفلته لهم الحكومة البريطانية من حماية ونظام للملكية ، ومن ثم أخذ يتضاءل حجم القرى الكبيرة تدريجيا ، كما أخذ السكان يتفرقون فى شكل قرى صغيرة ، بل فى بيوت منعزلة بين الأحراش ، بعيدة عن الأماكن الآهلة • ومن أبرز الملامح فى قرية « آللوشاى » هو « الزولبوك » أو الفناء الذى ينام فيه الرجال غير المتزوجين، والغلمان ابتداء من سن النضوج . ذلك لأن هؤلاء لا يسمح لهم بالنوم فى بيوت آبائهم • كما يأوى المسافرون من القرى الأخرى كذلك الى هذه الأفنية التى تتعدد فى القرية الواحـدة الكبيرة • وهذا النظام مألوف بين القرى التى تسكن التلال فى « أسام » •

وكل قرية من قرى « اللوشاى » تعد دولة مستقلة يحكمها زعيمها • وعندما يكبر كل ابن من أبناء زعيم من الزعماء ويصل الى سن الزواج ، يزوده أبوه بزوجة ويقوم بتكاليف الزواج ، كما يمده بعدد معين من أفراد

أسرته يرحل بهم لكي يؤسس معهم قرية تكون ملكا له . وهناك يحكم بوصفه زعيما مستقلا ، ويعتمد نجاحه أو فشله في سياسة قريته على موهبته في الحكم • وهو لا يدفع جزية لأبيه ، ولكن أباه يتوقع منه أن يساعده في نزاعه مع جيرانه من الزعماء • فاذا عمر الآباء طويلا ، لم يكن من غير الطبيعي أن يتبرأ الأبناء حتى من هـذا القدر القليل من تبعيتهم لآبائهم • أما الابن الأصغر فقد كان يبقى في قرية أبيه ويرثها من بعده كما يرث سائر ممتلكاته . وهكذا نجد أن عادة « اللوشاى » هذه تؤكد في قوة تفسير « بلاكستون » النظرى لنظام حق الابن الأصغر في الارث • ذلك أنه يبدو أن الابن الأصغر بين هؤلاء القوم يرث أباه لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه في مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ويخرجون الى الحياة بحثا عن مساكن جديدة لهم • فاذا شئنا أن نستعين بمزيد من الأمثلة لتأكيد هذا الرأى فاننا نجدها فيما اعترى هذه القبيلة من تغيير في العصر الحديث . فنحن نقرأ في آخر تعداد في أسام « أن تضاءل حجم القرى عند « اللوشاى » قد أدى الى تغيير على جانب كبير من الأهمية في عادة حق الابن الأصغر في وراثة قرية أبيه وممتلكاته • فقد كان المبرر لهذا النظام القديم في الارث هو أن الأبناء الكبار كانوا يستقلون بقراهم عند زواجهم • ولكي يكون هذا الأمر ميسرا لهم ، فان عددا من كبار رجالهم (أوباس) وعددا من عامة الناس يؤمرون بأن يرافقوا الزعيم الشاب لكي يكونوا معه نواة لقرية جديدة • وليس غريبا عندما يستقر الأبناء الكبار على هذا النحو ، أن يرث الابن الأصغر قرية أبيه وممتلكاته وأن تقع عليه مسئولية حماية والدته • ولكن بينما نجد أن عدد أسرات الزعماء لم يكن يميل الى الانخفاض ، فان متوسط حجم القرى كان يتضاءل الى النصف ، كما لم يكن هناك بيوت تكفى لايواء الأبناء جميعا • وبناء على ذلك فلم يكن أحد من الأبناء يتمكن بحق من الاستقلال في قرية جديدة • ومن الواضح في مثل هذه الحالة أن تؤول التركة الى الابن الأكبر ، وقد قبل الناس عن رضى هذا التغير في نظام الارث » •

وبناء على ذلك فانه يبدو لنا أن عادة حق ارث الابن الاصغر عند هـؤلاء النـاس تتحـول الى عادة حق ارث الابن الأكبر ، لأن الدوافع الاجتماعيـة التى تطلبت تبنى النظام الأول ، أصبحت في سـبيلها الى الاختفـاء . حقـا ان قانون الوراثة كان يطبق الى حد بعيـد بين أسر الزعماء فقط ، ولكن هذا القانون نفسه كان يسود كذلك بالنسبة لوراثة الملكية الخاصة بين عامة الناس . فوفقـا لاحـدى الروايات « ان الارث يقسم بين الأبناء على أن يختص الابن الأصـغر بأكبر الأنصبة ، في حين

يحصل سائر الأبناء على أنصبتهم بالتساوى » . ووفقا لرواية أخرى متأخرة عن الرواية السابقة ، « أن القاعدة العامة أن يختص أصغر الأبناء بالأرض ، ولكن الأكبر يطالب فى بعض الأحيان بنصيبه فى الارث » . والسبب فى تطبيق هذه العادة بين أسر عامة الناس هو فيما يبدو السبب فى تطبيقها فى أسر الزعماء . فقد رأينا أنه عندما كان يستقل ابن الزعيم ويخرج الى الحياة ليبحث له عن قرية جديدة ، فانه كان يأخذ معه عددا من عامة الناس لكى يكونوا تابعين له فى مكانهم الجديد . ويحق لنا أن نفترض أن سكان المستعمرات يتألفون من كبار أبناء الأسر ، لأن صغار الأبناء يظلون مع أبائهم فى مسكن الأسرة ويرثون ممتلكات الأسرة .

وتنتشر عادة حق ارث الأصغر فى شكل محدود بين «الأنجاميين» وهم قبيلة مغولية تسكن فى « أسام » . « فاذا تزوج الأبناء فى حياة أبيهم فانهم يتسلمون انصبتهم من الأرض التى يملكها أبوهم . فاذا توفى الأب، تاركا عددا من الأبناء غير متزوجين ، فان هؤلاء يقتسمون الارث بينهم بالتساوى . وعندما يتزوج هؤلاء فانهم يتركون بيت أبيهم ويبنون مساكن خاصة بهم . ومن ثم فان الابن الأصغر يرث فى العادة دائما بيت الأسرة » . وهنا نلاحظ مرة أخرى أن وراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة تعتمد ببساطة على ظروف بقائه فى بيت أبيه ، بعد أن يتزوج اخوته الكبار ويستقلون بمساكنهم . فاذا حدث أن الأبناء كانوا لا يزالون فى بيت الأسرة قبل شروعهم فى الزواج حين وفاة الأب ، فان الابن الأصغر لايفضل عندئذ فى الارث على اخوته الكبار .

ومما هو جدير بالذكر أن قبيلة « الأنجامين » التى تعد أكبر قبائل « ناجا » فى « أسام » ليست قبيلة مهاجرة ، كما أنها لا تفلح الأرض بالطريقة البدائية المضياعة التى تتبعها معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، أعنى عن طريق ازالة الأشجار والشجيرات من رقعة من الغابات أو الأحراش ، ثم زراعتها لبضع سنين ثم تركها لتعود الى طبيعتها البرية التى كانت عليه من قبل ، وانما تقوم هذه القبيلة على عكس هذا بزراعة محاصيلها فى مدرجات دائمة تنحتها بمهارة على جوانب التلال . وتروى هذه المدرجات عن طريق قنوات صناعية تحفر على طول انحدارات التلال بميل تدريجى مريح . كما أن هذه القبيلة تقطن قراها الحصينة الكبيرة على الدوام ، ذلك لأن أفرادها يرتبطون بمساكنهم كل الارتباط ويرفضون تغييرها .

ويرجع « المايثيون » الذين يكونون العنصر المسيطر فى « مانيبور » فى « أسام » الى أصل مغولى ، وهم يتحدثون لغة «التبت البورمية» . وعلى الرغم من أن هؤلاء يرتبطون بالقبائل المتوحشة التى تسكن التلال المحيطة بهم برباط الدم واللغة ، الا أنهم قد وصلوا الى درجة كبيرة من الحضارة الاجتماعية ، بحيث أصبحوا أشبه بواحة فريدة يعيش الناس فيها حياة حضارية نسبيا ، وفى ظل مجتمع منظم وسط قفار من الأحوال المتبربرة ؛ فهم يقيمون فى قرى مستقرة ويعيشون أساسا فى الأرز الذى يزرعونه فى حقولهم الدائمة . ومعنى هذا أنهم قد تجاوزوا مرحلة الهجرات الموسمية ، تلك التى يسببها ما وصلت اليه الأرض المجاورة لهم من انهاك . أما بالنسبة لقانون الوراثة المنتشر بين الماثيين ، فان مؤرخى « مينيبور » لم يمدونا بمعلومات كافية تؤكد نظام الوراثة فى الممتلكات الخاصة ، كما أن أحوال الدولة الاقتصادية فى العصر الحاضر تقع فى أطراد سريع تحت تأثير الأفكار السياسية والاجتماعية الحديثة . فالأرض ينظر اليها على أنها تخضع لارادة القوة الحاكمة فى الدولة . أما بالنسبة للممتلكات المنقولة فانها تؤول فيما يبدو ، وفقا للعرف الشائع، الى الأبناء فى أثناء حياة أبيهم . كما أن هذا العرف ينظر الى الابن الأصغر بوصفه الوارث بصفة عامة ، اذا كان مازال يعيش فى منزل أبيه عند وفاة أبيه . فاذا كان قد انفصل عن بيت الأسرة حين وفاة الأب تقسم التركة عندئذ بالتساوى بين الأبناء . وينفصل الأبناء عن بيت الأسرة بسبب زواجهم بطبيعة الحال ، وهذه هى المناسبة التى يتعين على الآباء أن يزودوا أبناءهم وبناتهم بالعون فى حياتهم الجديدة » . ويعتمد حق وراثة الابن الأصغر لأبيه عند «المايثيانيين» وبالمثل عند «الانجاميين» سكان أسام ، على ما اذا كان هذا الابن مازال يعيش فى بيت الأسرة بعد أن انفصل عنه اخوته جميعا بسبب زواجهم ، وبحثوا لهم عن مساكن مستقلة . أما اذا كان الابن الأصغر قد تزوج واستقل بمعيشته حين وفاة والده ، فانه عندئذ لا يميز عن اخوته فى الارث ، وانما يقتسم معهم التركة بالتساوى . وتعيش عادة حق ارث الابن الأصغر فى شكل محدود فى « أسام » و « انجلترا » بعد أن كف الشعب عن الهجرة ، واستقر فى قرى دائمة تحيط بها الحقول ، وتظل على هذا النحو جيلا بعد جيل .

و « الكاشينيون » أو كما يسمون أنفسهم «الشينجبويون» أو « السينجفويون » يرجعون الى أصل مغولى ويسكنون شمال أعالى بورما . وقد كانت مساكنهم القديمة تقع عند أعالى نهر « أراوادى » ،

ولكنهم انتشروا شرقا فى الأقاليم الصينية فى يونان وغـربا فى الأقاليم الهندية فى « أسام » . واسم « شينجبو » أو « سينجغو » الذى يسمون به أنفسهم يعنى ببساطة «الرجال» . أما «البورميون» فيطلقون عليهم اسم « الكاشينين » أو « الكاخينيين » . وهؤلاء سكان جبال متوحشون وهمجيون وينقسمون الى عدد من الجمـاعات الصـغيرة أو الى عدد من القبائل ليست بذات شـأن ، وكل قبيلة يحكمهـا زعيمهـا . وقد كان « الروميون » و « الشانيون » ، الأكثر مسالمة منهم يخشون غاراتهم قبل عهدهم بالاستعمار الانجليزى . ومع ذلك فهم يشتغلون بزراعة الأرض ، بل انهم خبراء فى فلاحتها . وغالبا ما تقع حقولهم فى أعماق الوديان، بينما تقع قراهم فوق التلال . وليس هنـاك شـك كبير فيما يقـال ، فى أن « الكاشينيين » ينتمون الى الأصل التتارى . ويشـير تراثهم الى موطنهم الأول الذى يقع فى مكان ما جنـوب صـحراء « جوبى » ، كمـا كانت تحركاتهم تتجه دائما الى الجنوب . ولكن اختلاف لون بشرتهم وملامحهم اللذين نلمسهما حتى فى الأماكن التى لم تتأثر قط بالتأثير «الشانى» و « البورمى » ، يشير الى اختلاطهم بالأجناس الأصلية التى حل محلهـا «الكاشانيون» .

وقانون الوراثة عند « الكاشينيين » ، كما ينص على ذلك فى كثير من الأحيـان ، يربط بين عادتى حـق ارث الابن الأكبر وحق ارث الابن الأصغر . ذلك أنه يروى « أن التركة تقسم بين أكبر الأبناء وأصغرهم . بينما يترك الأبناء المتوسطون لمصيرهم . ويرث الابن الأكبر لقب الأسرة واقطاعيتها ، فى حين يحمل الابن الأصغر الممتلكات الشخصية والمنقولات ويذهب ليبحث لنفسه عن مسكن جديد » . ووفقا لهذه الرواية التى اكدها الكتاب العديدون الذين تركزت أبحاثهم حول « الكاشانيين » ، فان الابن الأكبر يبقى فى بيت أبيه مالكا لاقطاعيـة أبيـه ، فى حين يأخذ الابن الأصغر الممتلكات الشخصية ويخرج من بيت أبيه ليشق طريقـه فى الحياة . وهذا يختلف تماما عما يتبع ، فيما روى ، بين أقربائهم من القبائل المنغولية التى تسكن هذه المنطقة . ويحق لنا أن نتشكك فى أن تلك الرواية التى يرجح أن القائد « حـ . ب . نويفيللى » قد رواها ، أساسها الفهم الخاطىء . وعلى كل فقد قدم لنا « سير جورج سكوت » الذى كانت لديه الوسائل الوافرة للتعرف الوثيق على العادات الكاشانية ، رواية عن قانون الارث عند هؤلاء الناس . فهو يقول : « لقد كان هناك

ميل دائم بين الكاشانيين الى التفرق ، كما هو الحال بين « التاينيين » ، كما أن الطابع التلالى لبلادهم جعل الأنصبة من الأراضى المقسمة ضئيلة للغاية . وقد كان هذا التفرق يرجع فى العصور القديمة أساسا وبدون شك الى ضرورة الهجرة التى تسببت عن زيادة عدد السكان والنظام المتلاف لزراعة التلال . فقد أصبحت العادة أن يرث الابن الأصغر أباه الزعيم عند موته ، بينما يخرج الأبناء الكبار مصطحبين أكبر عدد من الأتباع ليقيموا لأنفسهم مساكن جديدة . فاذا قدر لهم النجاح فى موطنهم الجديد ، فانهم يصبحون على مر الزمن قبائل بارزة تسمى كل منها باسم مؤسسها . فالقانون « الكنتى » للاقطاعيات الانجليزية يعد بدون شك بقايا عادة مشابهة تنتشر بين القبائل «الأنجلو» .

وفى مكان آخر يقدم لنا « جورج سكوت » رواية قيمة عن نظم الملكية المختلفة ، تلك النظم التى تتصل بالملكية الفردية والجماعية وتنتشر بصفة خاصة فى التلال والوديان . ويقوم الاختلاف فى هذه الملكية على أساس الاختلاف بين نظم زراعة المهاجرين ونظم الزراعة الدائمة التى تتبع فى التلال والوديان . يقول « جورج سكوت » : « فيما يختص بنظام زراعة التلال أو « تاونجيا » ، فان نظام الملكية الفردية لا يعرف فى هذه الأماكن وانما تعد الأرض ملكا للجماعة كما يصرح بهذا زعيمها (دووا) . كما أن نظام الزراعة لا يسمح باستغلال قطعة واحدة من الأرض استغلالا دائما . ولكن الأمر يختلف حيث تكون الأرض ممتلكة فى الوديان بحيث يزرع الأرز فى الجو الرطب . ففى هذه الحالة يسمح للمالك الفرد أن يملك الأرض على أساس الا يسلم الأرض لغريب . ويحصل الزعيم (دووا) على سلة أو سلتين مملوءتين بالأرز كل عام رمزا للاعتراف بملكيته الاسمية للأرض جميعا . والأرض تتبع أهل البيت جميعا ، كما أنها تستغل فى العادة لصالح الجميع . ومن ثم يفقد حق المشاركة فى الأرض من يترك بيت الأسرة . فاذا حدث انفصال اضطرارى بين أهل البيت ، فان قسمة التركة لا تتبع نظاما محددا فيما عدا أن الابن الأصغر يحصل على نصيب «بنيامين» ، كما يرث بيت أجداده وملحقاته» .

ويبدو أن هذه الرواية تميز فى وضوح بين الأراضى المرتفعة حيث الزراعة تتبع نظام الهجرة ، والأراضى المنخفضة حيث الزراعة دائمة . فالأرز يزرع فى التلال وفق النظام الجاف ، أما فى الوديان فيزرع بطريقة الرى الغزير . ولا يعد الارتباط بين نظام الزراعة الجاف وزراعة الهجرة من ناحية ، وبين نظام الزراعة الذى يحتاج الى الرى والزراعة الدائمة من ناحية أخرى من قبيل الصدفة . اذ بينما نجد النظام الجاف مناسب

للاقامة المؤقتة فى الأرض ، فان نظام الرى يعد من ضرورات الاقامة الدائمة . ففى « جاوة » على سبيل المثال ، حيث كان الأرز يزرع فى منحدرات مرتفعة ويروى ريا صناعيا ، نجد أن الأرض كانت تغل محصولين فى كل عام وذلك وفقا لذاكرة الأحياء . فالشىء الواضح اذن ، أن الأراضى التى تزرع زراعة مؤقتة عند «الكاشانيين» هى ملك للجماعة، فى حين أن الأراضى التى تزرع زراعة دائمة هى ملك للأفراد . وقد سبق أن رأينا أنه ليست هناك ملكية فردية بين «اللوسهانيين» الذين يتبعون نظام الزراعة المؤقتة .

والسبب فى هذا واضح ، فالاقامة الدائمة فى الأرض تتطلب أساسا نظام الملكية الفردية ، ولا تلائمها الملكية الجماعية أو القبلية . وحيث ان الثابت فى تاريخ الانسانية ، أن حياة الصيادين وأصحاب قطعان الماشية ، وحياة الزارعين المتنقلين قد سبقت حياة الزراعة المستقرة التى ازدهرت فى ظل النظم الأكثر تقدما لفلاحة الأرض ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن الملكية الفردية للأرض كانت فيما بعد أكثر انتشارا من الملكية الجماعية أو القبلية ، وأن هذه الملكية الفردية لا يقرها القانون الا اذا زرعت الأرض على الدوام . أى أن الملكية الجماعية ، باختصار ، أقدم من الملكية الفردية ، وأن تحول نظام ملكية الأرض من الملكية الجماعية الى الملكية الفردية ، قد ارتبط بتقدم طرق فلاحة الأرض الى حد كبير ، ذلك التقدم الذى يسهم بقوة فى تطور المجتمع بوجه عام ، شأنه شأن كل وسائل التقدم الاجتماعى .

ويمارس الكاشانيون فى الصين وكذلك اخوانهم فى « بورما » كلا من نظام الزراعة المؤقتة والزراعة الدائمة . واذا ألقينا نظرة على بلادهم من فوق قمة جبل شاهق ، فاننا نجد بلادهم تمتد من كل جانب فى حدود ما تصل اليه العين ، وكأنها بحر من التلال التى تكسو الغابات قممها ومنحدراتها على وجه العموم ، اللهم الا فى بعض الأجزاء التى تشير الى مواقع القرى ، أو حيث تخترقها الأنهار خلال واد ضيق متجه الى أسفل . وتقع القرى على الدوام بالقرب من مجرى مائى دائم يقع على الجبل وفى الغالب فى وهدة محمية . وقد تنتشر هذه القرى بحظائرها على المنحدر المعتدل فى انحداره ، وتغطى مساحة من الأرض تبلغ الميل . وتبنى البيوت التى تتجه فى العادة شرقا وفق نظام واحد ، فهى تبنى من عيدان البامبو ويتراوح طولها بين مائة وخمسين قدما ومائتى قدم ، كما يتراوح عرضها بين أربعين وخمسين قدما . ويحتفظ بالحجرة الأولى فى كل مسكن جماعى من هذه المساكن الكبيرة لاستقبال

الغرباء ، أما سائر الحجرات فتكون مساكن لأسر متعددة ترتبط بين بعضها بعضا برباط الدم أو الزواج اللذين يكونان المجتمع الأسرى . أما الأفاريز البارزة التى ترتكز على أعمدة فتكون شرفات يعمل فيها الرجال والنساء أو يستريحون فيها بالنهار ، كما يبيت فيها الجاموس والبغال والخنازير والخيل والدجاج .

والى جوار المنازل توجد حظائر مسيجة تزرع فيها النيلة ذات الزهور البيضاء ، ونبات الخشخاش والطلح . أما الأرز والذرة فيزرعان فى المنحدرات المتاخمة والروابى التى تسوى بعناية فى هيئة شرفات مكونة فى الغالب شكل مدرج . ويحجز المجرى المائى عند أعلى مكان يقع فيه المجرى ، ثم يوجه مجراه بحيث يروى هذه الشرفات ، وبعد ذلك يتجه الى أسفل حيث يصب فى حوضه الذى يقع فى الوادى . وفى بعض الأحيان تترك المياه تتدفق فى قنوات البامبو لتروى حقول الأرز والبيوت النائية . وفى كل عام تقطع أشجار الغابات التى تنمو على جوانب التل وتحرق . ومن الممكن رؤية ممرات مهملة تقع بالقرب من كل قرية ، كانت قد أزيلت منها الأشجار وأصبحت تجرى فيها قنوات مائية صغيرة . وتستخدم الفئوس فى قطع الأشجار ، كما تستخدم المحاريث الخشبية فى زراعة الشرفات . ويخشى هؤلاء المزارعون الأجلاف المطر الغزير أشد من خشيتهم من الجفاف . ولكن طبيعة الأرض الخصبة فى العموم تعوضهم بكميات وافرة من الأرز والذرة والقطن والدخان . وبجوار القرى توجد البساتين التى تزرع فيها أشجار الخوخ والرمان والجوافة ، كما تمتلأ الغابات بأشجار جوز الهند والبرقوق والكرز ، وأنواع متعددة من شجر التوت البرى . وفى المنحدرات الأكثر ارتفاعا تزدهر أشجار البلوط والبتولا ، كما تغطى أشجار «سيناموموم كوداتوم» و «س . كاسيا» مساحات كبيرة ، ومنها يستخلص الزيت الذى يعرف بزيت القرفة . وتقطع مئات من هذه الأشجار لتهيئة الأرض للزراعة ، وتحوق جذوعها وفروعها حيث تهوى على الأرض .

ويتضح الأصل المغولى لهؤلاء « الكاشينيين الصينيين » من ملامحهم الطبيعية وان كانوا ينقسمون الى نمطين . والملامح العامة للنمط السائد فيهما هى الوجه القصير المستدير والجبهة المنخفضة وعظام الخدود البارزة والأنف العريض والشفاه البارزة الغليظة والذقن المستدير العريض والعينان اللوزيتان المتباعدتان . ويخفف من قبح هذه الملامح تلك البشاشة التى تشيع فى وجوههم . أما لون الشعر والعينين فهو فى الغالب اللون البنى الداكن ، كما أن لون البشرة هو الأصفر المغبر . أما ملامح النمط

الثانى فهى أكثر رقة ، وهى تذكر بملامح وجوه نساء « الكاشاريين » و «الليبشا» فى «سيخيم» • وأهم ما يميز هذا الوجه تلك العينان اللوزيتان والوجه الذى يميل الى الطول أو هو بالأحرى يميل الى الشكل البيضاوى المفرطح • ومن ملامحه كذلك الذقن المدببة والأنف الأقنى والخدود ذات العظام الناتئة . أما لون البشرة فأبيض ، وهو فى بعض الحالات يشبه لون بشرة الأوربيين . وربما كان أصحاب هذا النمط خليطا من الدم «الشانى» و «البوزمى» • ويميل هؤلاء «الكاشينيون» الى القصر كما أن أطرافهم نحيلة وان تكن متناسقة ،أما أرجلهم فقصيرة غير متناسقة .وعلى الرغم من أن «الكاشينيين» ليست لديهم قوة عضلية الا أنهم رياضيون ونشيطون ، فهم يحملون الى أسفل الجبل أحمالا من خشب الوقود وكميات من الأخشاب الأخرى ، وهى ما لا يستطيع الرجل الأوربى أن يفعله الا بجهد جهيد • وتثب بناتهم الصغار فى الممرات كالغزلان ، بينما تتطاير خصلات شعورهن السائبة فى الهواء •

ويسود نظام الحكم الأبوى بين سكان الجبال هؤلاء حتى اليوم • فكل عشيرة يحكمها زعيم ورث الحكم عن أبيه الزعيم ويساعده نواب قد توارثوا هذه الوظيفة كذلك • والأمر الذى يبعث على العجب أنه بينما تراعى وراثة الابن الأكبر لمنصب نائب أبيه الزعيم فى صرامة ، «فان الابن الأصغر يرث زعامة العشيرة عن أبيه • فاذا كان أصغر الأبناء قد توفى ورثه أصغر الأبناء الأحياء • وهذا النظام يتبع فى وراثة الأرض ، فالابن الأصغر هو الذى يرث الأرض فى كل الأحوال ، بينما يرحل الأبناء الكبار ويستصلحون أراضى يمتلكونها» . ومن ثم فان حق الابن الأصغر فى الأرض يرتكز على عادة خروج الأبناء الكبار الى الحياة ليبحثوا عن رزق لهم ، بينما يبقى الابن الأصغر مع والديه فى بيت الأسرة القديم .

وقد تعرف دكتور « جون أندرسون » على عادة شبيهة بتلك العادة منتشرة بين «الشانيين» فى الصين وهم جيران الكاشينيين فى حى «يونان» • فالزعماء ـ كما يقول ـ يمارسون سلطة الأبوة فى مقاطعاتهم بمساعدة مجلس الزعماء ، فهم يقضون بين الناس فى جميع الأحوال المدنية والجنائية • والزعيم (تساوبوا) هو المالك الاسمى للأرض جميعها ، ولكن كل أسرة تضع يدها على قطعة محددة منها تزرعها وتقدم عشر المحصول ضريبة للزعيم • ولا يجرؤ أحد على أن يزعج هذه الأسرة فى أرضها ، كما أن هذه الأرض تؤول بعد الأب الى الابن الأصغر ، بينما يبحث الأخوة الآخرون لهم عن عمل آخر أو عن تجارة اذا كانت مزرعة الأب صغيرة

للغاية • ومن ثم فان الشانيين يميلون الى الهجرة والاقامة فى أرض خصبة كما يحدث فى «بورما البريطانية» .

وأغلب «الشانيين الصينيين» ينصرفون الى الزراعة وربما وصلوا الى مستواهم فى الزراعة مستوى البلجيكيين ، فهم يزرعون كل شبر من أرضهم ، ومحصولهم الرئيسى هو الأرز الذى ينمو فى حقول صغيرة مستديرة تجاورها السدود ، كما تمر بها الممرات وبوابات المياه لريها • ففى فترة الجفاف تترك المياه لتتدفق من أقرب نبع وتنساب خلال القنوات التى لا يحصى لها عدد حتى يتسنى لهم أن يرووا كل حقل من الحقول فى راحة • وفى بداية شهر مايو يبدو الوادى من أحد طرفيه الى الطرف الآخر بقعة من المستنقع المائى الذى يمتلىء بسيقان الأرز الذى يتلألأ فى أشعة الشمس • أما حوض النهر فيكاد يبدو نصفه عاريا نتيجة خلوه من المياه التى تدفقت فى الحقول .

و «الشانيون» أو بالأحرى «الشاى» هم أكثر العناصر كثرة وانتشارا فى شبه جزيرة الهند الصينية ، فهم ينتشرون فيما بين « أسام » الى « كوانج ــ سى» فى الصين ، ومن «بانكوك» الى داخل «بونان» • و «سيام» هى الولاية المستقلة اليوم بين الولايات الشانية • ويرتبط « الشانيون » بالصينيين ارتباطا وثيقا فى الملامح الشكلية وفى اللغة • حقا ان اللغة الصينية واللغة الشانية تعدان اختين سواء فى التركيب اللغوى أو من ناحية الثروة اللغوية ، وهما فى ذلك تختلفان اختلافا كليا عن كل من لغة «بورما» و «التبت» اللتين تنتميان ــ رغم هذا الاختلاف ــ الى هذه الأسرة اللغوية العامة التى يطلق عليها علماء اللغة اسم اللغة «الصينية ــ التبتية» • وعلى الرغم من أن الطبيعة الجبلية تغلب على بلاد الشانيين ، الا أنهم لا يعترفون بأنهم سكان تلال ، وذلك لأنهم يفضلون الارتباط بالوديان المسطحة الغرينية ، وبطون الوديان التى تتخلل الجبال • وفى كل مكان تجد الزارعون الكادحون ، كما تخترق السهول الأكثر اتساعا قنوات الرى ، بينما تحول السدود المجارى المائية الى قنوات تروى المنحدرات • وقد تستخدم العجلات المصنوعة من المامبو فى رفع المياه الى الحقول ، حيث ترتفع شواطىء الأنهار ، وحيث توجد الأراضى المسطحة بوفرة بحيث تعوضهم جهودهم : البدنية والمادية . فاذا كانت الاقامة غير ميسرة فى السهل ، فقد يلجأ الشباب فى بعض الأحيان الى قطعة من الأرض تكثر فيها الأحراش وتقع على جانب التل بعيدا عن القرية . ولايعانى الأهالى من نقص فى هذه الأراضى التى تكثر فيها الأحراش ، ولكن هذه الأراضى لا تصلح لزراعة الأرز ، وانما تستغل فى زراعة بساتين الفاكهة وأشجار

الموز ، ومن الممتع أن نلاحظ أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر بين شعب متقدم تقدما نسبيا مثل الشانيين .

ويقال : ان عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر كذلك بين «الشانيين» الذين يسكنون التلال الواقعة على مشارف بورما وأسام . ولم يتحدد بعد نسب هؤلاء الشانيين على وجه التحديد ، ولكنهم ينتمون فيما يبدو الى الأسرة المنغولية ويتحدثون لهجات متفرعة من لغة « بورما ـ التبيتية » . ومازال معظم «الشانيين» يعيشون حياة بالغة فى الهمجية ، كما أن العداء يشيع بينهم وبين جيرانهم . وهم ينقسمون الى عشائر صغيرة كثيرة يغير بعضها على بعض أو على القرى البورمية المجاورة ، كما أنهم يعتمدون أساسا على الزراعة . ومحاصيلهم الرئيسية هى الأرز والبقول والسمسم والدخان . على أن بلادهم ليست صالحة كلية للزراعة ، حيث أن التلال تغطيها الأحراش الكثيفة ، كما تتخللها الوديان الضيقة الصغيرة الشديدة الانحدار . على أن السكان قد طهروا بعض المناطق القريبة من القرى من الأحراش وأعدوها للزراعة . ومن أبرز قوانينهم فى الزواج والارث ، تلك العادة التى تعطى الرجل الحق الأول فى الزواج من ابنة عمه . والقاعدة هى «أن الابن الأصغر هو الذى يرث أسرته ، وهو ملزم بالبقاء فى منزل أبيه ورعاية والديه وأخواته » ولكنه يبدو أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث فقد تحولت بين «الهاكاشين» أو هى فى طريقها الى التحول ، الى عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، وان كان الابن الاصغر فى أسرتين أو عشيرتين على الأقل من بين عشائر هذه القبيلة ، هما «الكنلاوت» و «كلارسيوسونج» ، لا يزال على الدوام يرث مسكن الأسرة ، ما لم يتنازل عن حقه ، أو يكون فى حالة نزاع مع أبيه أو يكون مجذوما أو مجنونا . وقد كان القانون الثابت فيما مضى بين جميع عشائر « الهاكا » أن يرث الابن الأصغر مسكن الأسرة . ولكن رجلا بعينه كان يسكن فى «سانجتى» ويدعى «لين نون» أورث مسكنه الى ابنه الاكبر بدلا من أن يورثه الى ابنه الأصغر ، ومنذ ذلك الوقت اتبعت معظم العشائر هذا النظام . «أما فيما يختص بملكية الأرض (لاى رام) ، التى تقع فى نطاق حوزة قبيلة «هاكا» فان ثلثى الأرض يرثها الابن الأكبر والثلث المتبقى يرثه الابن الأصغر » .

وقانون الوراثة السائد بين قبيلة «كامى» أو «أهكامى» ، وهى قبيلة تسكن تلال أراكان على حدود «بورما» ، هو أنه «اذا توفى الأب تاركا ولدين أو أكثر ، فان التركة تقسم على النحو التالى : تقسم التركة بالتساوى اذا كان قد ترك ولدين . فاذا كانوا أكثر من اثنين فان كلا من الابن الأكبر والأصغر يأخذ نصيبين من التركة، أما سائر الاخوة فيأخذ كل منهم نصيبا

واحدا» . ويبدو أن هذا النظام فى الارث يوفق بين عادتى حق ارث الابن الأصغر وحـــق ارث الابن الأكبر ، ذلك ان الابن الأكبر والابن الأصغر يفضلان على قدم المساواة على سائر الأخوة المتوسطين . وربما اشار هذا التوفيق بين النظامين الى مرحلة الانتقال من عادة حق ارث الابن الاصغر الى عادة حق الابن الأكبر .

وقد قيل : ان عادة حـق ارث الابن الأصـــغر تنتشر كذلك بين «اللوليين» ، وهم جنس أصلى ذو شــأن ينتشر فى اقليم يونان الصينى ، وينتمى الى الأسرة المنغولية ويتحدث فرعا من فروع لغة «بورماالتبينية» ووفقا لما رواه رحالة انجليزى « ان نظـــام وراثة الممتلكات والخلافة فى الزعامة غريب عند هذا الشعب ، فالابن الأصغر يرث أباه عادة ، ومن بعده الابن الأكبر» .

وبهذا نكون قـد فرغنا من الحديث عن القبائل المغولية التى يسود فيها نظام حق ارث الابن الأصغر . والآن نتعرض لقبيلتين يؤول الارث فيهما أساسا الى الابنة الصغرى . وهما قبيلتا «كهاسى» ، و «جارو» فى «أسام» . ولا يزال موضوع أصل قبيلة «كهاسى» وعلاقاتها العنصرية محل نقـــاش . فمن المؤكد أن هذه القبيلة تتـحدث لغـة لا تنتمى الى الأسرة المغولية على عكس كل القبائل المحيطة بها . ويبدو أن لغتهم تنتمى الى لغات «مون ـ كمير» التى يتحدث بها فى «الهند الصينية» ، تلك اللغات التى يعتقد الآن أنهـــا تؤلف بدورها فرعا من أسرة لغوية كبـــيرة هى أسرة «أوستريك» التى يتحدث بها من مدغشقر فى الغرب الى جزيرة «ايستر» فى الشرق ، ومن نيوزيلندة فى الجنوب الى البنجاب فى الشمال . على أن تحـدث قبيلة بلغة غـير مغولية لايعنى عدم انتمائها العنصر المغولى . ذلك لأن اللغة اذا لم تثبت عن طريق الكتابة عند الشعب الذى يتحدث بها ، فانه من السهل أن يهملها هـذا الشعب ويستبدل بهـا لغة أخرى يستعيرها من عنصر مسيطر اختلط به هذا الشعب . وهناك أمثلة صائبة تشير الى هذا الانتقال السريع من لغـة لأخرى ، دونت عن قبـائل بورما الذين يتحـــدثون لغات ولهجات مختلفة . وتشير الملامح الطبيعية لأفراد لقبيلة «كهاسى» وبالمثل طبائعهم الى أصلهم المغـولى ، فمظهرهم الخارجى لا يخطئـــه انســـان بحق كمـا يقول « سير وليم هنتر » . فهم قصار قويو العضلات ذوو رءوس كبيرة ، وخدود ذات عظام عالية عريضة، وأنوف مفلطحة ، وذقون ذات شعر قصير ، وشعور مسدلة سوداء ، وعيون ذات لون بنى أو أســـود ، وجفـــون منحرفة وان لم يكن انحرافها على نحو جفون ـ الصينيين وبعض القبائل المغولية الأخرى . أما بشرتهم فتتنوع

من مكان لآخر ، من اللون البنى الفاتح الذى يميل الى الصفرة الى اللون البنى الداكن • وهم مرحون بطبعهم ، جذلون ، سمحو الطباع ويميلون كل الميل الى النكتة وكل هذه الخصائص تؤكد بحق وجهة النظر التى تقول : ان قبيلة «خاسى» تنتمى الى المجموعة المغولية أكثر من انتمائها الى مجموعة الشعوب الجنوبية والاستوائية فى أساسها ، تلك المجموعة التى تنتمى قبيلة «خاسى» بلغتها اليها .

ومهما يكن الأمر ، فان قبيلة «خاسى» لا تختلف فى وسائل حياتها ومستواها الحضارى بشكل عام عن القبائل المغولية التى تسكن جنوب شرق آسيا وتتبع فى نظام ارثها عادة حق ارث الابن الأصغر • فأفراد هذه القبيلة يعيشون فى قرى مستقرة قلما يغيرونها ، وهم يعتمدون أساسا على الزراعة حيث انهم مزارعون نشيطون وان كانت الوسائل التى يتبعونها فى فلاحة الأرض بدائية على نحو ما • وهم يقومون بقطع أشجار الغابات وحرقها كما تفعل معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، وبذلك يحصلون على أراض جديدة يعدونها للزراعة • أما غذاؤهم الرئيسى فهو الأرز والسمك الجاف .

ويعتمد النظام الاجتماعى لقبيلة «خاسى» على صلة القربى بالأم ، أى على الرجوع بسلسلة نسبهم الى النساء فحسب • فكل عشيرة من عشائر هذه القبيلة تدعى صلة نسبها الى جدة ما لا الى جد ، كما أن كل رجل يرجع بسلسلة نسبه الى أمه فجدته وهكذا ، ولا يرجع به الى أبيه فجده• وكما أنهم ينتسبون الى أمهاتهم ، فان الارث كذلك يؤول الى نساء الأسرة لا الى ذكورها • والابنة الصغرى هى التى ترث أمها وليست الابنة الكبرى • فاذا توفيت الابنة الصغرى فى حياة أمها ، فان أختها الأكبر منها مباشرة هى التى ترث الأم • فاذا لم يكن للأم بنات ، فان التركة تؤول الى أصغر أخواتها التى ترثها بدورها أصغر بناتها • حقا ان البنات الكبار لهن حق المشاركة فى الارث عند وفاة الأم ، ولكن الابنة الصغرى تحصل على النصيب الأكبر بما فى ذلك جواهر الأسرة ومسكنها ، بالاضافة الى أكبر نصيب من محتويات البيت • ومع ذلك فانه لا يحق لها أن تتصرف فى مسكن الاسرة دون موافقة اخواتها الكبار اللاتى يكلفن بدورهن باصلاح هذا المسكن على نفقتهن • أما عن الأرض فانها تؤول الى الابنة الصغرى وحدها على أن تشاركها اخواتها فى محصول الأرض • وغالبا ما تعيش الجدة وبناتها وحفيداتها تحت سقف واحد أو فى منازل منفصلة تقع فى محيط واحد • والجدة هى التى تدير أمور البيت طالما كانت على قيد الحياة • وفى مثل هذا المسكن الذى يسيطر فيه العنصر النسائى ، ليس

هناك وجود للرجل ، فالرجل ليست له أدنى أهمية ابنا كان أو أخا . ذلك لأنه يترك البيت عندما يتزوج ويعيش مع أسرة زوجته • فاذا كان زوجا لاحدى نساء البيت ، فان هذا لا يرفع من قدره فى هذه الأسرة ، لأنه لا يعد عضوا من أعضائها كما أن ليس له أى حق فى الارث ، وانما ينظر اليه بوصفه مجرد والد • وكل الممتلكات التى يكونها بعرق جبينه تؤول الى زوجته بعد وفاته ، ثم تؤول من بعدها الى الأبناء على أن تحصل الابنة الصغرى على أكبر نصيب كالعادة • وهو يظل فردا غريبا طالما كان يعيش فى مسكن زوجته ، فاذا توفى فانه لا يدفن فى مدافن الأسرة بجوار قبر زوجته ، بل لايمس رماد جثته رماد جثتها •

وعادة ارجاع النسب الى المرأة ، وانتقال الارث بين النساء بدلا من الرجال عادة مألوفة بين الأجناس غير المتمدينة • وربما يرجع السبب فى أصل نشأتها الى التأكد من صلة النسب بالأم بالمقارنة الى عدم التأكد من الانتساب الى الأب ، وذلك فى مجتمع يبيح فى حرية الاتصال بين الجنسين • على أن هذه مشكلة كبيرة صعبة تبعدنا مناقشتها عن موضوعنا الرئيسى • وكل ما يهمنا هو أن العادة المتبعة بين قبيلة «خاسى» فى الوقت الحاضر ، بصرف النظر عن مدى قدم هذه العادة بينهم ، ترتبط بنظام تبقى البنات وفقا له فى بيت الأسرة ، فى حين يخرج الأبناء ليعيشوا مع أسر زوجاتهم • فالنساء اذن فى ظل هذا النظام ، هم الافراد الذين يبقون مدى الحياة فى بيت الأسرة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يسيطرن على البيت ومحتوياته بدلا من أن يسيطر عليهما الرجال الذين يتركون بيوت اسرهم ليعيشوا فى أسر زوجاتهم ، وبذلك يقضون فترة من حياتهم فى كل بيت • وهذا السبب نفسه يفسر وراثة النساء للأرض ، اذا كانت الأرض تقع بجوار مسكن الأسرة الذى يتركه الأبناء الذكور لينضموا الى أسر زوجاتهم فى قرى نائية • ولعله من السهل الآن أن نفهم فى ظل هذه الظروف السبب فى أن البنات لا الأبناء ، هى اللاتى يرثن ممتلكات الأسرة، الحقيقية منها والشخصية .

على أننا اذا كنا قد قدمنا السبب فى تفضيل النساء على الذكور فى الارث ، فما زال علينا أن نبحث عن سبب تفضيل الابنة الصغرى عن اخواتها اللاتى يكبرنها فى الارث • وتفسر قبيلة «كهاسى» نفسها هذا التفضيل ، بأن الابنة الصغرى هى التى يلقى على عاتقها القيام بالواجبات الدينية • فهى التى تبقى على الدين على حد تعبيرهم ، أى أنها مكلفة بأن تؤدى شعائر الأسرة وأن تسترضى أجدادها • ومن ثم كان من العدل أن ترث الابنة الصغرى النصيب الأكبر فى تركة الأسرة لما تتجشمه من القيام

بالتزامات الأسرة • ولهذا السبب نفسه تفقد الابنة الصغرى هذا الامتياز كما لو كانت قد توفيت ، وتمنحه أختها التي تكبرها مباشرة ، وذلك اذا هي غيرت دينها أو ارتكبت دنسا بانتهاكها حرمة شيء مقدس • على أن هذا السبب الذي يعزى لتفضيل الابنة الصغرى على أخواتها على هذا النحو غير مقنع ، اذ ما زال علينا أن نتساءل عن سبب كون الابنة الصغرى أكثر ملاءمة من اخواتها في القيام بواجب تقديس الأجداد • ويبدو انه ليست هناك أي اجابة عن هذا التساؤل . كما أن السبب الذي تعزوه القبائل الأخرى في تفضيل الابن الأصغر في الارث ، لأنه يبقى في بيت الأسرة بعد خروج الاخوة الكبار منه ليستقلوا بمعيشتهم ، لايصلح تفسيرا لتفضيل الابنة الصغرى في قبيلة «كخاسي» ، حيث أن البنات جميعا يمكثن ، كما رأينا ، في بيت الأسرة ، وفيه يستقبلن أزواجهن • ومع ذلك فقد كان من الطبيعي أن نتوقع أن سبب تفضيل الابنة الصغرى ، يناظر السبب في تفضيل الابن الاصغر • وبناء على ذلك فان النظرية التي تفسر حالة ، ولا تفسر الحالة المشابهة لها ، لا تعد نظرية مقنعة •

أما القبيله الثانية في «آسام» التي تتبع عادتي الانتساب الى الأم وتفضيل الابنة الصغرى بالارث ، فهي قبيلة «جارو» التي تسكن التلال غير الشاهقة التي تغطيها الغابات الكثيفة وتسمى باسم القبيلة • وليس هناك شك في انتماء هذه القبيلة للأصل المنغولي ، ذلك أن أفراد هذه القبيلة قصار البنية ، أقوياء الأطراف نشيطون وملامحهم شديدة الشبه بملامح الصينيين . وهم يتحدثون لغة «بورما ـ التبتية» التي تنتمي الى أسرة لغات «الصين ـ التبتية» . حقا انه يروى عنهم رواية مشهورة «عن هجرتهم من التبت ووصولهم الى السهول التي تقع في سفح جبال الهملايا، وعن تجوالهم شرقا الى وادى « براهمابوترا » ، وعن تعقبهم مرة أخرى لآثار خطواتهم حتى وصولهم الى السهول التي تقع بين هذا النهر والتلال التي يسكنونها اليوم • ويبدو أنهم استقروا في هذا المكان بعض الوقت قبل أن يقوموا بتجوالهم الأخير الى البلد الجبلي الذي يعد اليوم موطن هذه القبيلة » • وقد أزيلت كل الغابات البكر التي كانت فيما سلف تغطي تلال «جارو» ، وذلك بقصد تهيئة الأرض للزراعة • ولكن البامبو والأشجار الصغيرة حلت محل الغابات ، ذلك أن البلد كله على وجه التقريب قد غطته الأحراش الكثيفة فيما عدا مساحات من الأرض أزيلت منها هذه الأحراش وأعدت للزراعة . والرجل «الجاروى» هو في الأصل رجل مزارع ، ففلاحة الأرض هي أول وآخر عمل يقوم به في حياته ، وهو العمل الذي يبذل فيه قصارى جهده .وطريقته في فلاحة الأرض ساذجة،

فهو يختار قطعة من الأرض غالبا ما تقع على جانب التل ، ثم يزيل منها الأحراش فى الجو البارد الذى يدوم من شهر ديسمبر الى شهر فبراير . وتظل الأرض مغطاة بالأشجار او البامبو ، حيث ان معظم أحراش التلال ينمو فيها البامبو وحده ، حتى نهاية شهر مارس حيث تحرق وهى راقدة فى مكانها . ثم تبذر البذور فى شـــهرى ابريل ومايو بمجرد أن تسقط قطرات المطر الأولى . وهم فى ذلك لا يعزقون الأرض أو يحرثونها ، وانما نحفر فيها حفرا بعصاه مدببة وتوضع بعض بذور الأرز فى كل حفرة . أما الذرة العويجة فترمى بذوره ببســـاطة بين رماد الأحراش المحترقة . فاذا أعدت الأرض على هذاالنحو ، فانهم يستمرون فى زراعتها مدةعامين ثم تهجر وتترك بورا مدة سبعة أعوام على الأقل . وتبنى القرى عادة فى الوديان أو فى الأغوار التى تقع على جوانب التلال حيث تتدفق المياه فى وفرة . أما حول القرى فتمتد الاحراش من كل جانب الى مالا نهـاية . وتشيد البيوت على أعمدة طويلة يبلغ ارتفاعها مائة قدم . وحيث ان البيوت تخلو من النوافذ ، فان الظلمة والكآبة تشيعان فيها من الداخل . وتشغل حجرة العائلة الجزء الأكبر من المبنى . وفى هذه الحجرة تنام النساء غير المتزوجات ، كما تجتزأ منها أجزاء لينام فيها البنات المتزوجات وأزواجهن . أما رب الأسرة وزوجته فلهما حجرة نوم خاصة بهما . أما الرجال العزب فلاينامون فى بيت الأسرة ، بل ينـامون فى مسكن منفصل يبيت فيـه كل رجال القرية غير المتزوجين . ويأوى الزائرون الأغراب الى فناء هـذا المسكن المنفصل ، كما يعقد فيه رجال القرية اجتماعاتهم . وهذه العنابر التى يبيت فيها الرجال العزاب مألوفة لدى قبائل «النجا» فى «أسام» ، ولكنها لاتوجد عند «الخاسيين» الذين يسكنون النجاد .

وتنتشر عادة الانتساب الى الأم بين قبيلة «كارو» كما تنتشر بين قبيلة « كهاسى » . فالزوجة هى ربة الأسرة ، وكل ممتلكات الأسرة تورث من خلالها . وتنقسم القبيلة الى مجمـــوعات من الأسر العـــديدة التى تمتد بسلسلة نسبها الى الأم ، وتسمى «ماشونج» . وأفراد كل مجموعة من هذه المجموعات يرفعون نسبهم الى جدة ما ، لا الى أبيهم الذى تكاد تجهله أسرته . ويتبع هذا النظام فى الارث كذلك ، اذ أن الارث يقتصر على فرع النساء . ولا يحق للرجل أن يمتلك ممتلكات الا عن طريق ما يكسبه بعرق جبينه ، أما ممتلكات الأسرة فليس له حق فيها بأية حال من الأحوال . «فقانون الارث يمكن أن يتلخص فى أن الممتلكات متى أصبحت فى حوزة سلسلة الأمومة ، لا تخرج منها . واذا كان أولاد الأم ينتسبون اليها ، فقد يبدو لأول وهلة أن الابن يؤكد هذا النظام . ولكن الذى يحـدث أن

الابن يتحتم عليه أن يتزوج امرأة من عشيرة أخرى ، فاذا أنجب أبناء ، فانهم ينتمون الى أسهم • ومن ثم فان الارث يؤول الى الابنة ثم الى ابنتها من بعدها وهكذا . فاذا لم يكن للأم ابنة ، فان التركة تؤول الى امرأة أخرى من نفس العشيرة يعينها بعض أفراد هذه العشيرة» • على أنه على الرغم من أن اقطاعية الأسرة وممتلكاتها تنتمى الى المرأة من الوجهة القانونية ، فان الزوج هو الذى يستفيد عمليا من هذه الممتلكات فى أثناء حياتها • فأرض قرية من القرى — على سبيل الايضاح — هى ، على وجه التحديد ، ملك لزوجة رئيس القرية ولكنه على ألسنة الناس وفى أذهانهم ، هو مالك هذه الأرض . وعلى الرغم من أنه يستمد حقوقه كلية من زوجته ، فان اسمها لا يذكر فى الدعوات القضائية ، اللهم الا اذا كان من صالح المدعى أن يذكر اسمها • فالمرأة عمليا ، ليست سوى الوسيلة التى تنتقل من خلالها الممتلكات من جيل لجيل وذلك لمصلحة الذكور فى المصاف الأول .

على أن كل ما سمعناه من الثقات الذين اعتمدنا عليهم فى أقوالنا هذه ، يختص بتفضيل الاناث على الذكور فى الارث بين قبيلة «جارو» ، ولكن شيئا لم يذكر عن تفضيل الابنة الصغرى على سائر أخواتها • اذ لم يذكر الرائد «بلايفير» الذى أمدنا بوصف قيم لهذه القبيلة ، شيئا حول هذا الموضوع • وربما استطعنا أن نعزو عدم ذكره لهذا الموضوع ، أن عادة حق ارث الابن الأصغر بين قبيلة « جارو » قد انقرضت فى عصرنا الحاضر ، أو هى فى سبيلها الى الانقراض • ولكنه يبدو أن هذه العادة كانت تتبعها هذه القبيلة على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب . ذلك أن باحثا انجليزيا زار هذه القبيلة عام ١٧٨٨م وعكف على دراسة أحوالها ، ودون عنها هذه العادة • فبعد أن وصف هذا الباحث حفل زواج رآه رأى العين عند هذه القبيلة ، قال : «لقد درست ظروف احتفال الزواج عند قبيلة « جارو » من خلال مشاهدتى لحفل زواج «لونجرى» ، ابنة الزعيم « أوداسى » الصغرى التى تبلغ من العمر سبع سنوات ، من ابن رجل من عامة الشعب فى قبيلة « جارو » ، هو «بوجلون» الذى يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما • ويحق لى أن أدلى بملاحظتى فى هذا الموضوع ، وهو أنه على الرغم من عدم تكافؤ السن والمستوى الاجتماعى فى هذا الزواج ، فانه من حسن حظ «بوجلون» أن يتم له هذا الزواج ، حيث انه سيرث الزعامة والأرض معا • ذلك أن الابنة الصغرى عند قبيلة «جارو» هى على الدوام صاحبة الحق فى الارث وليس لأحد من اخوتها الذين ولدوا قبلها أن يرثوا شيئا عند موت والدها الزعيم• والأغرب من هذا ، أنه اذا توفى الزوج «بوجلون» ، فان «لونجرى» تتزوج

أحد اخوته . فاذا لم يكن له اخوه تزوجت أباه . فاذا كان الأب كهلا ، رفضته وتزوجت ممن تختاره» .

وبهذا نكون قد أشرنا الى انتشار عادة حق ارث الابن الأصغر بين عدد من القبائل التى تسكن «الصين الجنوبية الغربية» والمناطق المجاورة لها فى « بورما » و « أسام » . وتنتمى هذه القبائل جميعا فيما عدا قبيلة «كهاسى» التى يساورنا الشك فى أصلها ، الى الاسرة المنغولية . ويعتقد الباحثون أن الموطن الأصلى لهذه القبائل كان الصين الشمالية الغربية فيما بين أعالى نهرى «يانج ـ تسى ـ كيانج» ، و «هو ـ أنج ـ هو» ، ومن هذا المكان انتشروا الى كل الجهات . وقد مروا مقتفين أثر وديان النهر فى أثناء هجرتهم بأنهار «شين دومين» ، و «اراوادى» و «سالوين» ، حتى وصلوا الى «أسام» . وقد هاجرت هذه الشعوب المغولية فى ثلاث هجرات متعاقبة كانت آخرها هجرة «الكاشينيين» أو «السينجفونيين» .

وقد كانت هذه الهجرة الأخيرة لا تزال مستمرة عندما أوقفها الاحتلال البريطانى لبورما الشمالية . وقد كانت وديان نهرى « براهما بوترا » و « اراوادى » الكبيرين هى بحق المنافذ التى تدفق منها الغزاة الشماليون الجسوسون من مواطنهم الشمالية الباردة الجرداء فى قلب آسيا ، ليقوموا بغزو بقاع فى الجنوب أكثر دفئا وأكثر غنى من موطنهم الأول . وقد استطاعوا ، عن طريق هذا المسلك الطبيعى ، أن يحولوا جانب الحاجز الطويل الذى لا يخترق فى يسر ، والذى يتمثل فى جبال الهملايا ، الى ممر مباشر لغزو الهند من جهة الشمال . على أنه يبدو أن جماعات هؤلاء الغزاة لم تتقدم على الاطلاق فى أثناء سيرهم جنوبا ، فيما وراء جبال «أسام» المتجهمة التى تكثر فيها الغابات وتهطل عليها الأمطار الغزيرة . فهناك توقف سيرهم ، وهناك استقروا وما زالوا مستقرين فى هذا المكان حتى اليوم ، كما لو كانوا ، طليعة من جيش كبير تتطلع الى قمم التلال الباردة وأطراف صعيدها المرتفع عبر الوديان الحارة والسهول اللافحة التى يكسوها بساط سندسى أخضر يمتد الى أسفل الى آلاف الأقدام حتى يختفى مع الأفق ، أو يتصل بسلسلة من جبال ترتطم بزرقة السماء فى الأفق البعيد . ومن المحتمل أن حرارة الهند كانت أشبه بدرع واق ضد هؤلاء الغزاة أكثر فعالية من أسلحة السكان الضعيفة ، هؤلاء الذين لم يكونوا مولعين بالحرب . أما فى البقاع التى استوطنوها ، فقد كانوا يتنسمون فى حرية عبير أشجار البلوط وجوز الهند ، والتنوب ، تلك التى تنمو فى هذه الغابات ، وكانوا يخشون أن يهبطوا الى أسفل حيث تنمو أشجار النخيل والسرخس والخيزران .

على أن عادة حق ارث الابن الأصغر أو الابنة الصغرى لم تكن تقتصر فى هذه البقاع على القبائل المغولية . فالمتبع عند قبيلة «مرو» ، وهى قبيلة صغيرة تسكن التلال الواقعة بين «أراكان» و «تشيتاجونج» ، انه اذا تزوج الأبناء والبنات فان الأب يعيش مع ابنه الأصغر أو ابنته الصغرى . وعند موته يرثهذا الابن أو تلك الابنة تركته من بعده» . ورجال الموريين طوال أقوياء ذوو بشرة دكناء ، وليست لهم ملامح مغولية . وهم يزرعون الأرز ويشربون اللبن ويأكلون لحم البقر أو لحم أىحيوان آخر . وهم شعب مسالم بطبعه . جبان وبسيط ، ويميل لأن يفض منازعاته عن طريق التضرع الى الأرواح أكثر من أن يفضها عن طريق الحرب . والشاب عندهم يخدم مدة ثلاث سنوات من أجل زوجته فى بيت أبيها . فاذا كان غنيا ، ففى وسعه أن يدفع لأهل الزوجة مبلغ مائتين أو ثلاثمائة روبية مقابلهذه الخدمة .

وكذلك تنتشر عادة حق الابن الأصغر فى الارث بين «الهوويين» أو «اللاركا كوليين» (لوركا كول) ، الذين يسكنون حى «سينجبهوم» فى البنغال الجنوبية الغربية . وينتمى «الهوويين» الى الجنس الأصلى ذى اللون الداكن الذى يسكن الهند . وهم يشبهون «الدرافيديين» فى ملامحهم الطبيعية ، وان كانوا يتحدثون لغة تختلف كلية عن لغتهم ، وهى لغة يعتقد فى أنها فرع من أسرة «أوستريك» التى تعد لغة قبيلة « كهاسى » التى تسكن أسام فرعا منها كذلك . أما الجنس الذى ينتمى اليه «الكوليون» ، فقد ألف الناس أن يسموه «الكولاريين» . أما اليوم فهو يسمى فى العادة « موندا » نسبة الى القبيلة التى تسمى بهذا الاسم . و «الهوويون» أو «اللاركوليون» شعب زراعى صرف، وقد تطورت أساليبه الزراعية الى درجة أنه يستخدم المحاريث الخشبية ذات الرءوس الحديدية. ويبدو أنهم كانوا يسكنون فى الأصل اقليم «شوتا ناجيور» ، وهو الصعيد الشاسع المنعزل الذى يقع فى الشمال من موطنهم الحالى ، والذى ما زال أقرباؤهم الموندانيون يسكنونه . ويعترف «الهوويون» بصلة قرابتهم الى «الموندانيين» كما يحتفظون بروايةعن هجرتهم من «شوتا ناجبور» .ووفقا لما ترويه قبيلة «أراون» وهى قبيلة لا تزال تعيش فى حالة أكثر بدائية من «الهوويين» وتسكن اقليم «شوتا ناجبور» ، أن غزو «الهوويين»للنجد المرتفع هو الذى دفعهم الى البحث عن موطن جديد لهم فى الجنوب . على أنه ليس من اليسير أن نعتقد أن « الهوويين » قد تنحوا لجنس دونهم حضارة ، وغير مولع بالحرب مثل «الأوراونيين» وافسحوا لهم الطريق .

ومهما تكن أسباب هجرة «الهوويين» ، فانهم يسكنون الآن بلادا أكثر وحشة ووعورة من التلال الرومانسية ووديان «شوتاناجبور» التى هجرها أجدادهم منذ زمن طويل • أما الاقليم الذى يسكنونه ويعرف باقليم «كولهان» أو «كوليهان» فتموج فيه فى كل مكان كتل متجهمة من الصخور البركانية المتكسرة • وفى كل مكان يصطدم البصر بسلسلة من الجبال تبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم . وأكثر الأماكن خصوبة وازدحاما بالسكان وأعلاها مستوى فى الزراعة ، تلك الأراضى المنخفضة التى تحيط «نشايبازا» • أما فى الغرب فتمتد منطقة من التلال والأحراش الشاسعة التى تخترقها بعض الوديان اليانعة ، بينما تغطى المنطقة التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى كتلة من الجبال المتجهمة ذات الغابات الكثيفة ، تلك التى تعرف باسم «سارندا ذات التلال السبعمائة» • وهناك يسكن سكان القرى القليلة الغفيرة المنعزلة فى وهاد عميقة غير قادرين على مقاومة النمور التى تجوس الأحراش الكثيفة خلسة • «والهوويون» الذين يسكنون هذه الأماكن المرتفعة المنعزلة أكثر همجية وأشد قسوة من اخوانهم الذين يسكنون الأماكن المنخفضة ، كما أن وسائلهم فى الزراعة بدائية ، فهم يقطعون الأشجار فى مساحات صغيرة فى الغابة أو الأحراش التى تحيط بقراهم الصغيرة • ويعدونها للزراعة • وعلى الرغم من أن التربة السوداء تدر لهم محصولا فى بادىء الأمر ، الا أنهسا سرعان ما تستهلك بسبب الأساليب البدائية التى يتبعها «الهوويون» فى زراعتهم • ومن ثم فهم يضطرون بعد ثلاث أو أربع سنوات من زراعتهم لتلك الأرض أن يعدوا على النحو نفسه ، أرضا جديدة للزراعة وأن يبنوا لأنفسهم مسا لن جديدة فى مكان آخر من البرارى المترامية • فاذا لم تسعفهم مواردهم الغذائية فى أوقات المجاعات ، فان هؤلاء المتوحشون سكان الأماكن المرتفعة ، يغيرون على جيرانهم ويحضرون معهم الى حصونهم المنيعة كل مايمكن أن تقععليه أيديهم من غنائم • على أن الأمر أحسن حالا بالنسبة لأقربائهم الذين يسكنون الأحياء الخصبة المنطلقة التى تقع فى الشمال • فهناك تقع القرى رشيقة فوق التلال وتطل على حقول الأرز المنبسطة فى هيئة شرفات ، وعلى الأراضى المرتفعة المتوجة • ومما يزيد معالم البلد الجميلة بها ، أشجار التمر هندى العتيقة النبيلة التى تزين جوانب التلال مختلطة بأشجار المانجو والبامبو • أما بيوتهم الفسيحة المتينة فتقف بسطوحها المسقفة بالغاب وشرفاتها الأنيقة فى المكان المخصص لها مكونة مع الأبنية التابعة لها أشبه بميدان يقف وسطه برج الحمام • وتضم القرية الخضراء التى يكسوها بساط من العشب الأخضر ، وتظللها أشجار التمر الهندى

الضخمة ، ألواحا من الأحجار «يرقد تحتها أجداد القرية الفلاظ» . وهناك تحت ظل الأشجار الذى يثير فى النفس الرهبة ، يروق لشيوخ القرية أن يجتمعوا بعد الفراغ من عناء العمل وبعد أن تهدأ حرارة النهار، فيجلسون على الأحجار التى سوف يرقدون تحتها مع أجدادهم رقدتهم الاخيرة ، ويستمتعون بالأحاديث والتدخين .

وكل قرية من قرى قبيلة «هو» يحكمها زعيم يسمى «موندا» ، وقد يحكم زعيم واحد مجموعة من القرى يبلغ عددها من ست الى اثنتى عشرة قرية ، ويسمى هذا الزعيم «مانكى» . ومن الغريب أن النظام الذى يتبع فى خلافة الزعماء يختلف عن ذلك الذى يتبع فى ارث الملكية الخاصة ، اذ بينما تتحكم عادة حق ارث الأكبر فى خلافة الزعيم ، نجد أن حق الابن الأصغر فى الارث هو الذى يتحكم فى وراثة الممتلكات . وهذه التفرقة بين النظامين يؤكده دكتور «وليم دونبار» الذى أخبرنا «أن العادة التى يتبعها «الكوليون» فى الارث فريدة فى نوعها . وقد شرحت لى هذه العادة لأول مرة من خلال الاشارة الى ظروف «مانكى» ، كما يسمى بذلك، الذى تجاور قراه معسكرات «تشايباسا» . فعلى الرغم من أن هذا الزعيم يحكم عددا كبيرا من هذه القرى ، وكان يعد رجلا قويا بين أقرانه ، فقد فوجئت بأنه يسكن بيتا صغيرا فقيرا . وأن أخاه الأصغر يقيم فى أكبر بناء فى هذه القرى ، وكان ملكا لأبيه «المانكى» المتوفى . فلما استفسرت عن سبب هذا ، علمت أن الابن الأصغر يرث بانتظام أكبر نصيب فى الملكية الخاصة . ومن ثم فانه على الرغم من أن «المانكى» يخلف أباه فى الزعامة ويكون هو الشيخ الحاكم ، الا أنه كان ملزما بأن يسلم الى أخيه الأصغر الممتلكات والمتاع» . واذا كان الدكتور « دوبنار » لم يكن له علم من قبل بمثل هذا النظام فى الارث ، فان الرائد «تيكيل» قد ذكر هذه العادة نفسها التى يتبعها «الهوويون» أو « اللاركاكوليبون » فى ارث الملكية الخاصة ، وذلك قبل أن يذكرها ، «دونبار» بعدة سنوات ، فقال : « ان الابن الأصغر هو الذى يرث ممتلكات أبيه ، لأنه يكون عاجزا على أن يعول نفسه عند وفاة والديه على عكس اخوته الكبار الذين سبق لهم أن أعانهم أبوهم فى أثناء حياته ، فى سبيل الاستقلال بحياتهم » . أما عن سبب اختلاف النظام فى ارث الزعامة وارث الملكية الخاصة ، فلا يحتاج الى البحث العميق ، اذ بينما نجد أنه ليس هناك ضرر من أن تؤول التركة الى الابن الأصغر لينتفع بها مهما يكن صغيرا ، فان الحكمة تتطلب أن يترك حكم الجمهور لأكثر الأبناء خبرة ، أى الى الابن الأكبر .

وقد روى أن عادة حق ارث الابن الأصغر تتبع كذلك عند «البهيليين»

وهم جنس أهلى بدائى يسكن الهند الوسطى . وهؤلاء قوم قصار ذوو بشرة سوداء وأجسام مكتنزة قوية ، ولهم مقدرة كبيرة على التحمل . وقد قيل : أن اسمهم مشتق من اللفظ الدرافيدى الذى يعنى القوس ، وهو السلاح المميز لهذه القبيلة . وقد فقدت هذه القبيلة لغتها الأصلية ، ولكن من المحتمل ان هذه اللغة كانت تنتمي، اما الى الأسرة الموندانية(الكولارية) أو الى الأسرة الدرافيدية . وكان أفراد هذه القبيلة يتجولون فيما سبق في الغابات التى تغطى جبالهم المحلية بوصفهم صيادين ، أما الآن فقد اضطروا أن يهجروا لعبة القنص وتجوالهم الحر فى الغابات التى كانوا يسببون لها تلفا بالغا . ويعيش الكثير منهم فى العصر الحاضر فى البلد المفتوح وأصبحوا خدما فى المزارع وعاملين فى الحقول ، كما أن بعضهم يعمل مؤاجرا فى الأرض ، والقليل منهم يمتلك قرى . وقد قيل : انالذين يسكنون منهم فى حى « باروانى » فى الهند الوسطى على سبيل المثال ، لم يتأثروا بالحضارة حتى اليومالا قليلا ومازالوا يعيشونحياة بدائيةللغاية. وليست لهؤلاء قرى محددة ، اذ أن مجموعات الأكواخ التى يمكن أن تعد قرى ، تهجر لأدنى فزع ينتاب الاهالى ، فيكفى أن يسمعوا بمجىء رجل أبيض حتى يولوا هاربين تاركين أكواخهم . كما أن هذه الأكواخ تقع متباعدة بعضها عن بعض فى نطاق مايمكن أن يسمى قرية ، لأن كل رجل يخشى خديعة جيرانه له ، ومايمكن أن يدبروه من شر ضد زوجته . والبهيلى رجل غابة من الطراز الأول ، فهو ذو دراية بأقصر الطرق بين التلال ، كما أنه يستطيع أن يسير فى أكثر الممرات وعورة وأن يتسلق أكثر الصخور الشامخة انحدارا دون أن تزل قدمه أو يشعر بتعب . وكثيرا ما يطلق عليه فى الأعمال السنسكريتية القديمة اسم « فينابوترا » ، أى « طفل الغابة » ، أو يسمى « بال اندرا » ، أى « سيد الطريق » . وهذه الصفات توحى بشخصية « البهيلى » بحق ، فهو لم يكن يسمح لغريب أن يجتاز الشعب الضيقة « بال » المؤدية لبلده الا باذن منه ، كما كان يحصل على الجباية من المسافرين عن طريق التهديد. بل انه مازال حتى اليوميفرض على المواطنين الذين يقومون برحلة ، الاعتراف بما يراه حقا شرعيا له . وفضلا على ذلك فانه صياد جرىء وماهر ، فهو يعرف كيف يصيد النمور والأسود والدببة ، وكيف يقتفى أثرها حتى يقتلها . وفى وسع جماعة من البهيليين أن تهاجم ، وهى مدججة بالسيوف وحدها ، فهدا هنديا وتقطعه اربا .

ويتحدد نظام الارث عن « البهيليين » الذين يسكنون «مالوا الغربية» واقليم « فيندهيان ــ سابوتارا » الذى يقع على طول وادى « ناربادا » فى

الهند الوسطى ، وفقا لعادة القبيلة ، فالابن الأصغر يرث نصف التركة ؛ وهو مكلف بدفع نفقات الاحتفال الجنائزى الذى يقام فى اليوم الثانى عشر من وفاة أبيه ، كما عليه أن يعول اخواته • أما النصف الثانى من التركة فيؤول الى الأبناء الآخرين • فاذا كان الأبناء يعيشون معا ، الأمر الذى قلما يحدث ، فان الأبناء يقسمون التركة بينهم بالتساوى • وهنا نجد مرة أخرى أن تفضيل الابن الأصغر فى الارث يعتمد ، فيما يبدو ، على بقائه وحده فى بيت الأسرة حين وفاة أبيه • فاذا حدث أن الأبناء جميعا كانوا يقيمون فى بيت الأسرة ساعة حدوث الوفاة ، فان الابن الأصغر لا يتمتع بأى امتياز ، وانما يرث مع اخوته على قدم المساواة .

ويبدو كذلك أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر فى شكل محدود بين « البداجايين » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة ويعيش مع « الكوتايين » الذين يشتغلون بالزراعة كذلك ، و « التودايين » الذين يشتغلون بالرعى وحده فى تلال نيلجهيرى « فى الهند الجنوبية . وفيما يلى ما ذكره دكتور « ريفرز » حول هذا الموضوع : « لقد ذكر « بريكسى » أن من عادة « التودايين » أن بيت الأسرة يؤول الى الابن الأصغر بعد وفاة أبيه ، ومن الجلى أن هذا القول لا ينطوى على شىء من الصحة ، اذ أن هذه العادة لا يعرفها « التودايون » على الاطلاق ، ولكنها تنتشر بين «الباداجيين» . وقد قيل ان اتباع هذه العادة يرجع الى أن الأبناء يتركون بيت الأسرة بعد زواجهم ، ويبتنون لهم بيوتا فى مكان آخر • وعندئذ يكون لزاما على الابن الأصغر أن يظل مقيما مع أبويه وأن يعولهما وهما على قيد الحياة • فاذا توفيا ظل مقيما فى بيت الأسرة لأنه يصبح ملكا له» .

وقد قيل ان آثار انتشار عادة حق الابن الأصغر بالارث فى شبه جزيرة الملايو قليلة ، ففى ولاية «ريمباو» احدى ولايات شبه جزيرة الملايو ، أن ارث الأسرة يؤول الى النساء • فاذا كان هناك أكثر من ابنة فى الأسرة ، فان الابنة الصغرى هى التى ترث مسكن الأم ، وعليها فى مقابل هذا ، أن ترعى أمها فى هرمها • و « الباتاكيون » فى سومطرة شعب زراعى ، ومن عادته أنه اذا توفى رب الأسرة تاركا وراءه عددا من الأبناء أو الأخوة ، تقسم التركة فيما بينهم ، على أن يحصل أكبرهم وأصغرهم سنا على نصيب أكبر من أنصبة سائر الأبناء أو الأخوة ، وفى العادة يكون نصيباهما ضعف أنصبة الآخرين • ووفقا لفقرات تشير الى اتفاقية فى تشريع مدون وان لم ينشر فيما يبدو ، أن العادة المتبعة

فى اقليم « جورجيا » الذى يقع فيما وراء القوقاز ، أن الابن الأصغر يرث بالضرورة مسكن أبيه الأمير أو النبيل عند وفاته ، بما فى ذلك الأبنية الملحقة به والحديقة • فاذا كان هناك كنيسة ملحقة بتلك الأبنية ، فان الابن الأصغر يحتفظ بها كذلك بعد أن يقدر ثمنها وبعد أن يدفع لاخوته الكبار جزءا من ثمنها المقدر • أما عندما يتوفى الأب الزارع فان بيته ومزرعته تؤولان الى الابن الأكبر فى حين يرث الابن الأصغر مخازن الغلال •

د ـ عادة حق الابن الأصغر في الارث فى آسيا الشمالية الشرقية :

لقد رأينا أن كل الشعوب التى تنتشر بينها عادة حق الابن الأصغر فى الارث ، باستثناء قبيلة « بهيل » ، شعوب زراعية • على أن هذه العادة تنتشر فى نطاق محدود بين القبائل التى لا تزال فى مرحلة الصيد والرعى . فقد قيل انها تنتشر بين قبيلة «يوكاغير» ، وهى قبيلة مغولية تسكن سيبيريا الشمالية الشرقية ، ويعيش بعض أفراد هذه القبيلة على القنص وصيد الأسماك ، والبعض الآخر على رعى قطعان الأيائل .ويرجع عدم تمكن هذه القبيلةمن ممارسة حياةالرعى الى قسوة الجو البالغة ، فهذه المنطقة تعد أبرد بقاع سيبيريا ، ان لم تكن أبرد بقاع العالم • « واليوكاغير » الذين يعتمدون فى حياتهم على القنص وصيد الأسماك ويسكنون بجوار شواطىء النهر فقراء للغاية ، كما أنهم يتبعون فى حياتهم أكثر الوسائل بدائية ، الى درجة أنه ليست لديهم أدنى فكرة عن ملكية أى أداة فى نطاق الأسرة ، اذا صرفنا النظر عن نتاج غذائهم • فما يغنمونه من الصيد أو القنص يسلم الى نسوتهن فتوزعه أكبرهن سنا على أفراد الأسرة • ويعترف بالملكية الفردية الى حد ما فى حدود الملابس وأدوات الصيد مثل البنادق والسهام وغير ذلك من أدوات الصيد . فكل فرد من أفراد الأسرة له ملابسه الخاصة ، كما أن كل فرد يقوم فيها بالصيد أو القنص ، له أدواته الخاصة به•وتشمل الملكية الخاصة كذلك أدوات الزينة وأدوات الحياكة مثل الابر والمقص والخيط ، كما يدخل فى نطاقها أدوات التدخين مثل الغليون والقداحة وجراب الدخان وكذلك الزوارق • أما قوارب الصيد والشباك وبيت الأسرة وما يحتوى عليه من أدوات منزلية فتعد ملكا للأسرة بأسرها • أما فيما يختص بارث ممتلكات الأسرة ، فان المبدأ المتبع هو أنتؤول هذهالممتلكات الى الابن الأصغر، فاذا انفصل الأبناء الكبار عن الأسرة أو ذهبوا ليعيشوا مع عائلات زوجاتهم بعد وفاة والديهم ، فان ممتلكات الأسرة تبقى فى حوزة الابن الأصغر ،

كما أنه يمتلك بندقية أبيه • أما ملابس الأم وحليها فتؤول الى الابنة الصغرى • ولايترك الابن الأصغر بيت الأسرة ليعيش فى بيت زوجته كما سبق أن ذكرنا ، وانما يخدم والدها بعض الوقت مقابل زواجه من ابنته ثم يصطحبها الى بيت والديه . وتعلل قبيلة «يوكاجهير» تفضيلها للابن الأصغر فى الارث بأن الابن الأصغر يحب والديه أكثر من اخوته ، كما أنه مرتبط بهما أكثر من اخوته .

واذا صرفنا النظر عن السبب العاطفى الذى تعزوه قبيلة «بوكاغير» فى تفضيل الابن الأصغر فى الارث ، فانه يحق لنا أن نظن أن سبب هذا التفضيل عندهم ، كما هو الحال عند القبائل الأخرى التى سبق ذكرها ، يرجع حقا الى عادة بقاء الابن الأصغر فى بيت والديه بعد أن يتزوج اخوته الكبار ويبرحوا بيت الأسرة ليعيشوا فى بيوت أسر زوجاتهم • وهذا الظن يصل الى حد اليقين اذا لاحظنا أن الأبناء فى هذا الفرع من قبيلة « يوكاغير » الذى يعتمد فى معيشته على تربية قطيع الأيائل ، « لا يبرحون بيت الأسرة بعد زواجهم وانما يبقون فيه ويتقاسمون ممتلكاته فى العادة • والأبناء يبقون معا فى بيت الأسرة بدوافع روابط القربى من ناحية ، وبسبب قلة الأيائل التى يربونها من ناحية أخرى ، الأمر الذى يجعل تقسيم ما ينتمى للأسرة غير عملى » • وليس هناك مايمكن أن يلقى مزيدا من الضوء على عادة حق الابن الأصغر فى الأرض، من أننا نلاحظ أن الابن الأصغر فى نطاق حدود ضيقة فى هذه القبيلة الصغيرة ـ ذلك أن تعداد قبيلة « يوكاغير » فيا نعلم ، لا يتجاوز بضع مئات ـ يرث التركة جميعها ، اذا كان من الفرع الذى يبقى فيه الابن الأصغر فى بيت الأسرة بعد وفاة والدية • ولكنه لا يفضل عن اخوته فى فرع القبيلة الذى يبقى فيه الأولاد جميعا فى بيت الأسرة ، ويقتسم معهم التركة على حد السواء . ومن ناحية أخرى فان الابنة التى تتزوج فى فرع قبيلة «بوكاغير» الذى يعيش على تربية الأيائل ، تترك بيت أبيها لتعيش مع حميها ، ولهذا فانها لا ترث أى نصيب من التركة عند وفاة أبيها • أما تركة الأم من ملابس وحلى وأوان ، فترثها البنات اللاتى لم يتزوجن عند وفاة أمهن . فالأحوال الاجتماعية فى فرع قبيلة «يوكاغير» الذى يعيش على تربية الأيائل تعارض الى حد ما بطريق مباشر، تلك التى تنتشر بين «الحاسيين» ، فالأبناء فى قبيلة « يوكاغير » يعيشون فى بيت الأسرة طوال حياتهم ويرثون ممتلكات الأب ، فى حين تترك البنات بيت الأسرة عند زواجهن ولا ينلن من التركة شيئا • أما فى قبيلة « خاسى » فان البنات تمكثن فى بيت الأسرة طوال حياتهن ويرثن تركة الأسرة ، فى حين

يترك الأبناء بيت الأسرة عند زواجهم ولا يرثون شيئا · أى أن التركة فى كلتا الحالتين تؤول بطبيعة الحال الى الأبناء الذين يبقون فى بيت الأسرة ، ذكورا كانوا أم اناثا .

وتعطى قبيلة « تشوكشى » التى تعيش على تربية الأيائل وتسكن فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا ، أهمية كبيرة « للوح النار » ، وهو عبارة عن شكل بدائى محفور فى الخشب فى شكل انسان ويستخدم فى اشعال النار عن طريق الاحتكاك · وتخلع القبيلة على هذه الألواح صفات انسانية وتعدها مقدسة ؛ فهم يحسبون أنها تحمى قطيع الأيائل من الشرور وتحرسه بحق · وتملك أسر كثيرة عددا من هذه الألواح بعضها جديدة نسبيا ، والبعض الآخر توارثته عن الأجيال السالفة · ويعد أكثر الألواح قدما فى أى حال ارثا ثمينا ، وهو يؤول مع تركة البيت وكل ما يتبعه ، الى الوريث الرئيسى الذى يكون فى العـادة الابن الأكبر أو الأصغر . ومن الواضح أن السؤال عما اذا كان الوريث هو الابن الأصغر أو الأكبر يتحدد بالنسبة لمن يظل منهما فى بيت الأسرة بعد وفاة الأب . فقد قيل لنا أن «مسكن الأسرة يؤول الى الابن الأصـغر ، كما يصبح الوريث الرئيسى ، اذا ماترك الأخ الأكبر بيت الأسرة» .

وتنتشر عقيدة تبجيل ألواح النار بين « الكورياكيين » الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية · فهم يعدون هـذه الألواح آلهة نار البيت ، وحارسة مسكن الأسرة كما ينسبون لها المقدرة السحرية على حماية قطيع الأيائل ، وعلى مساعدة الرجال فى الصيد وقتلهم حيوانات البحر الثديية · « فلوح النار عند المجمـوعة التى تعيش على الصيد البحـرى فى قبيلة « كورياك » ، كما هو الحال عند المجموعة التى تعيش على تربية الأيائل ، يرتبط برخاء الأسرة ، ومن ثم يحرم نقله من بيت الأسرة الى بيت غريب · ولكن اذا حدث أن اجتمعت أسرتان لتعيشا فى مسكن واحد فى فصـل الشتاء لتقتصدا فى استهلاك وقود التدفئة ، فان كل أسرة تحتفظ معها بتعويذتها فى هذا المسكن المشترك دون أن تفقد كل تعويذة تأثيرها عن طريق نقل الأسرة اياها فى هـذا المسـكن · ويرث اللوح المقدس الابن الأصـغر أو البنت الصغرى على شرط أن يكون زوجهـا مقيما فى بيت والدها ، وذلك فى حالة ما اذا كان اخوتها الكبار قد استقلوا بمساكنهم أو استقلوا بقطيعهم » · وهنا يبدو مرة أخرى أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تتحـــدد باقامته وحـده فى بيت الأسرة بعد أن يكون اخوته الكبار قد برحوه · ولا تقتصر هذه العادة على جنس دون الآخـر ، فقد

يكون المتمتع بالارث ابنا أو بنتا بناء على من يظل فى بيت الأسرة وحده فى نهاية الأمر .

٦ - توريث الابن الأصغر فى افريقيا :

يقل انتشار عادة حق الابن الأصغر فى الارث الى درجة كبيرة بين القبائل الرعوية فى افريقيا . فهى تتبع فى شكل محدود عند «البوجو» ، وهم قبيلة تعتمد أساسا فى معيشتها على رعى قطعان الماشية وان كانوا يقومون بفلاحة الأرض فى نطاق محدود . وهم يعيشون فى أطراف جبال الحبشة النائية جهة الشمال ، وتفتقر بلادهم الى الغابات والمياه الجارية ، وان كانت تتمتع بجو معتدل صحى . وتتجول القطعان على مدار السنة على وجه التقريب بحثا عن المراعى الخضراء ويهاجر معهم ثلث السكان ، حيث يقيمون فى خيام مصنوعة من حصر النخيل . فاذا انتقلوا بخيامهم حملوها على ظهور الثيران . أما سائر الناس فيسكنون فى قرى دائمة فى كثير أو قليل ، حيث تبنى الأكواخ من القش . على أنهم يحرقون هذه الأكواخ الضعيفة عند الحاجة ويرحلون مع قطعانهم فى الليل بحثا عن مراع جديدة . ذلك أنهم يملكون مساحات شاسعة من الأراضى فى كل مكان . وتنتشر بين قبيلة «بوجو» عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، فالابن الأكبر هو عميد الأسرة ، كما أن زعامة القبيلة تنتقل من خلاله جيلا بعد جيل ، بل انه ينظر اليه بحق بوصفه شيئا مقدسا لا يجوز أن تنتهك حرمته ، وهو يعد ملكا وان كان لا يملك بهاء الملوكية . فاذا توفى الأب قسمت التركة بحيث يحصل الابن الأكبر على أفضل نصيب بما فى ذلك البقر الأبيض ذو القيمة الغالية ، وأثاث البيت كله وسائر المتاع المنزلى . وبعد ذلك يرث الابن الأصغر البيت نفسه خاليا . واذا توفى ملك « النويرين » وهم شعب يسكن عند النيل الأبيض ويعيش على الرعى ، ورث الابن الأصغر الحكم من بعده . أما عند قبيلة «سوك» ، وهى قبيلة تسكن فى شرق افريقيا البريطانى ، فان الابن الأكبر يرث معظم ممتلكات أبيه ، فى حين يرث الابن الأصغر معظم ممتلكات أمه . ويبدو أن « السوكيين » كانوا فى الأصل شعبا زراعيا صرفا ، ثم انقسموا فى عصر متأخر الى قسمين : قسم اشتغل بالزراعة والآخر بالرعى وكلاهما يتبع العادة السالفة فى الارث ، كما تتبعها قبيلة « توركانا » ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى هذا الاقليم نفسه .

وتنتشر عادة حق الابن الأصغر فى الارث بين بعض «الايبو» ، وهم شعب يشتغل بالزراعة فى جنوب نيجيريا . والشىء الغريب حقا عند

هؤلاء ، أن حق الابن الأصغر فى الارث يقتصر على ما تمتلكه الأم ، وليس له حق فى ممتلكات الأب • ولكن العادة حتى فى هذه الصورة المحدودة ، تعد استثناء وليست قاعدة .

٧ - أصل عادة حق الابن الأصغر فى الارث :

اذا ألقينا نظرة على الشواهد السابقة التى تشير الى عادة حق الابن الأصغر كما صادفتنا بين قبائل آسيا وافريقيا ، فاننا ننتهى الى أن هذه العادة تنتشر بين الشعوب الزراعية كما تنتشر بين الشعوب الرعوية • حقا ان غالبية القبائل التى تتبع عادة حق الابن الأصغر فى الارث تعيش أساسا على الزراعة ، ولكن نظام الزراعة الذى يقوم على الهجرة وهو الذى يتبعه هؤلاء ، نظام مضياع ، فضلا على أنه يتطلب مساحات من الأرض تفوق الحصر حين تكفى هذه الشعوب وفقا للنظام الذى يتبعونه فى حياتهم . فما ان يكبر الأبناء ، حتى يتركوا بيت الأسرة ، ويمهدون مساحة من الأرض فى الأحراش أو الغابات ليزرعوها • ولا يبقى فى بيت الأسرة بعد ذلك سوى الابن الأصغر الذى يعول والديه بطبيعة الحال ، ويرعاهما فى شيخوختهما • ويبدو أن هذا التفسير هو أبسط التفسيرات وأكثرها احتمالا ، على الأقل فيما يختص بحقوق الابن الأصغر • ويؤكد هذا التفسير تلك العادة التى يتبعها الزارعون الروس اليوم ، فهم يفضلون الابن الأصغر فى الارث • ويفسرون هذا التفضيل على نحو ما شرحناه • وترتبط هذه العادة عندهم بوراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة فى الغالب • فارثه لبيت الأسرة يعد حقا شرعيا له وان لم يرث سواه • وهو حق طبيعى وعادل اذا كان هو الذى يتخلف فى بيت الأسرة ويظل يسكنه حتى وفاة والديه .

وهذا الأساس نفسه يصلح أن يكون تفسيرا لعادة الانتساب الى الأم ، وخلافة الابنة الصغرى لها فى زعامة الأسرة ، تلك العادة التى تتبعها بعض القبائل مثل قبيلتى « خاسى » و « جارو » • فالابنة الصغرى هى آخر من يتزوج من البنات بطبيعة الحال ، بل انها تمنع من الزواج بحق عند بعض القبائل ، ومن بينها قبيلة « جارو » ، قبل أن تتزوج سائر اخوتها • من الطبيعى بناء على ذلك ، أنها تمكث مع والديها مدة أطول من تلك التى تمكثها اخواتها ، وتصبح عزاء والديها وسلوتهما فى شيخوختهما ، كما تصبح وريثة لهما بعد وفاتهما • وحتى ان بقيت البنات الأخريات فى بيت الأسرة بعد زواجهن ، كما يحدث بين قبيلة « خاسى » فيما يبدو ، فان رعاية أسرهن تستغرق كل وقتهن بالضرورة ،

بحيث لا يكون لديهن متسع من الوقت لرعاية أبويهن • ومن ثم يبدو أن تفضيل الابنة الصغرى بالارث فى هـذه الحالة كذلك ، ليس بالأمر غير الطبيعى •

وتتضح عادة حق الابن الأصغر فى الارث أكثر من ذلك ، كما لاحظ « بلاكستون » هذا منذ زمن طويل ، بين القبائل الرعوية • فمساحة المقاطعة الشاسعة التى يعيش فى نطاقها البدو والرعاة أو أصحاب القطعان ، تتيح للأبناء عندما يكبرون أن يخرجوا الى الحياة ويتجولوا بقطعانهم وماشيتهم ، بينما يظل الابن الأصغر آخر الأمر مع أبويه فيعولهما ويرعاهما فى هرمهما ثم يرث ممتلكات أبيه عندما يتوفى • وعلاقة الأب بأبنائه فى القبائل البدوية تسمح حقا بتفضيل الأب لابنه الأصغر على سائر اخوته • وقد كتب «بورخارت» الذى كان قد ألف حياة البدو ، حول هذا الموضوع فقال : « ان الخلافات اليومية التى تنشأ بين الأبوين وأولادهما تمثل أسوأ ملامح الحياة البدوية • فعند ما يصل الابن الى سن البلوغ يسأل أباه بزهو أن يمنحه أى عدد من رءوس الماشية حيث أنه فى وسعه أن يحصل بساعديه على ما يبتغيه ، وهو يعتقد بهذا أن أباه ملزم بأن يحقق له مأربه • أما الأب ، من ناحية أخرى فيستاء لسلوك أبنائه المتغطرسين نحوه ، ومن ثم تنشأ الخلافات بينه وبينهم • وتتسع هوة هذه الخلافات فى العادة بحيث تصعب معالجتها • وعند ذاك ينتزع الابن الشاب نفسه من سلطة أبيه ، اذا استطاع ذلك محتفظا له ببعض الاعتبار طالما كان يعيش معه فى خيمة واحدة • ولكنه متى استطاع أن يكون سيد الخيمة ، (وهو الأمر الذى يظل يسعى اليه) فانه عند ذاك لا يستمع لنصيحة ناصح ، اللهم الا الى صوت ارادته • أما الابن الذى لم يصل الى سن البلوغ بعد، فيبدى الاحترام لأبيه بألا يحاول الأكل معه فى طبق واحد، بله أن يأكل أمامه • وانها لتعد جريمة شنعاء عندما يقول أحد الأفراد : « انظر الى هذا الابن ، كيف يلتهم الأكل فى حضرة أبيه » • أما أصغر الأبناء الذى لم يكن قد تجاوز سنه الرابعة أو الخامسة فيدعى لتناول الطعام مع والديه ، وأن يأكل معهما من طبق واحد « • وهنا نلاحظ كما سبق أن رأينا فى أمثلة أخرى كثيرة ، أن نقطة التحول فى علاقة الأب بابنه تبدأ من اللحظة التى يهجر فيها الابن بيت والديه ليعيش فى مسكن مستقل • وطبيعى أن تلك الرغبة المتغطرسة فى الاستقلال ، تلك التى يبديها الابن البدوى لأبيه منذ اللحظة التى يبرح فيها الابن خيمة والديه ، تحول عنه عاطفة الأب وتدفعه لأن يحرم هذا الابن المتكبر العنيد الذى استقل عنه ، من التركة ، وأن يورث كل ما يملكه لابنه الأصغر الخنوع الذى احترم

رغبته وبقى معــه فى خيمته • حقا ان العرب يقســمون الآن التركة بين أبنائهم الذكور بالتساوى وفقا للتشريع الاسلامى ، ولكنهم ربما كانوا قبل ظهور الاسلام ، يســتجيبون لنزواتهم الطبيعية ، ويحرمون الابن الأكبر من التركة ارضاء للابن الأصغر .

وبناء على ذلك ، فان الظروف التى دعت الى نشأة عادة حق الابن الأصغر فى الارث سواء فى المرحلة الرعوية أو الزراعية التى يعيش فيها مجتمع من المجتمعات ، هى وجود مساحات شاســعة من الأراضى مع قلة عدد السكان • فلما لم يعد من السهل للأبناء أن ينفصلوا عن الأسرة ، وأن ينتشروا فى أرضهم طولا وعرضا ، اما بسبب ازدياد السكان أو لأى سبب آخر ، فان حق الابن الأصــغر الكلى فى الارث أصبح عرضــة لأن ينازعه فيه اخوته الكبار ، كما أصبح عرضة لأن يعطل ، بل أن تحــل محــله عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، كما يحــدث اليــوم بين قبيلة « لوشاى » فى « أسام » • وعلى الرغم من ذلك ، فربما استمرت العــادة القديمة فى الانتشار بدافع تأثيرها المتوارث ، وان اختفت ظروف الحياة التى نشأت فى كنفها • فلاتزال عادة حق الابن الأصغر فى الارث تعيش ، أو كانت تعيش حتى زمن قريب جنبا الى جنب مع عادة حق الابن الأكبر فى الارث فى جهات غير قليلة من انجلترا • فاذا عدنا الآن الى النقطة التى بدأنا منها بحثنا حــول هذا الموضــوع ، أمكننا أن ندرك السبب فى أن بعض آثار عادة حق الابن الأصغر فى الارث كان من المحتم أن تعيش بين العبريين القدماء بعد أن هجرها هذا الشعب بزمن طويل واستبدلوا بها عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، وذلك بعد أن عاش حياة الزراعة المستقرة فى فلسطين بعد أن كان شعبا راعيا متجولا فى الصحراء • وقد تعجب المؤرخ الذى يدون تاريخه فى عصر متأخر ، عندما كانت عادة حق الابن الأصغر فى الارث قد نسيت فيه تماما ، تعجب من أن يجد تراثا مرويا يحكى عن وراثة أصغر الأبناء لتركة آبائهم دون الأخوة الكبار • وقد حاول أن يفسر هذه الأحــوال التى كانت بعيدة عن مفهومه فى نظام الارث ، فقدم هــذه الأحوال بوصفها شواذ ترجع الى مجموعة من الأســباب العريضة ، كأن تصاحب ولادة الابن الأصغر حادثة معينة ، أو تفضيل الأب التعسفى له ، أو أنها ترجع الى جشع الابن الأصغر ومكره • وبناء على وجهة النظر هذه ، فان يعقوب لم يرتكب أى اساءة فى حق أخيه الأكبر «عيسو» ، وانما شاء أن يثبت لنفســه حقه فى الارث الذى كان القانون القديم يمنحه بصفة عامة لأصغر الأبناء ، لولا بدعة غزت مجتمعه فى عصره ونقلت هذا الحق فى أصغر الأبناء الى أكبرهم .

الفصل الثالث

يعقوب وجلد الجدى
أو الميلاد الجديد

١ - البركة المحولة :

فى الفصل السابق التمسنا سببا جعلنا نفترض أن يعقوب بوصفه الابن الأصغر لاسحق ، كانت له الأولوية فى ظل العادة القديمة ، فى المطالبة بحقه فى ارث أبيه اسحق ، وأن التحايل الذى قام به بقصد حرمان أخيه « عيسو » من حقه فى الارث ، لم يكن سوى محاولات من جانب المؤرخ بهدف تفسير عادة تفضيل الابن الأصغر على الابن الأكبر فى الارث ، تلك العادة التى كانت قد هجرت قبل عصره بزمن طويل ، وأصبح مغزاها غير واضح على وجه التقريب . وفى ضوء هذه النتيجة ، فاننى أرى أن نتدبر فى هذا الفصل ، الخدعة التى قام بها «يعقوب» متواطئا مع أمه « رفقة » ، بهدف خداع أبيه لكى يحول بركته من أخيه اليه ، حيث اننى أعتقد أن هذه الحكاية تتضمن بقايا طقوس قديمة كانت تتبع عندما حلت عادة حق الابن الأكبر فى الارث محل عادة حق الابن الأصغر ، وذلك بقصد تعيين الابن الأصغر خلفا لأبيه بدلا من أخيه الأكبر . فبعد أن دعمت عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، بوصفها قانونا للارث ، كان

التجاوز عن هذه العادة يعد نقصا لعادة متوارثة لا يكون فاعلها فى حل منها الا باتباع بعض الشكليات الغريبة التى كان الغرض منها تغيير نظام الارث بين الأخوين ، أو حماية الأخ الأصغر من بعض الأخطار التى يمكن أن يتعرض لها بسبب اقصائه أخاه الأكبر من حقه فى الارث . ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن يعقوب قد قام بهذه الشعائر الشكلية بقصد تدعيم موقفه من ارثه لأبيه . وذلك لأنه اذا كانت عادة حق الابن الأصغر لاتزال رائجة كل الرواج فى عصره ، فانه كان يعد الوريث الشرعى لأبيه ، ولم يكن فى حاجة لأن يقوم بتأدية شعائر معينة لاكتساب تلك الحقوق التى منحها لكونه أصغر اخوته. ولكن عندما حلت عادة حق الابن الأكبر فى الارث محل عادة حق الابن الأصغر فى عصره متأخر ، فربما رأى مؤرخ حياة يعقوب أن من واجبه تبرير حصول بطله على تلك المنزلة التقليدية ، بأن نسب اليه تأدية الشعائر التى كانت تتبع فى زمن المؤرخ بين الحين والآخر ، بهدف التصديق القانونى على تفضيل الابن الأصغر فى الارث . وربما كان قد غاب عن الكاتب الذى سجل حياة يعقوب فى زمن متأخر ، المغزى الشرعى لهذه الشعائر ، ذلك لأنها لم تكن مألوفة لديه ، فقدمها بوصفها مجرد خدعة ماكرة احتال بها يعقوب متواطئا مع أمه بقصد خداع أخيه حتى لا يحصل على البركة المقدرة له . ومن ثم فقد وصلتنا حكاية سفر التكوين فى هذه المرحلة الأخيرة من سوء الفهم والتشويه وفقا لهذا الغرض الذى افترضناه .

وأود أن ألفت نظر القارىء الى نقطتين فى حكاية سفر التكوين ، أولاهما اقصاء الابن الأصغر لأخيه الأكبر ، وثانيهما الوسيلة التى اتبعها فى سبيل تحقيق غرضه . فقد تظاهر يعقوب لوالده بأنه أخوه الأكبر ، وذلك بأن ارتدى ملابس أخيه وبأن غطى يديه ورقبته بجلد جدى لكى يصطنع ملمس جلد أخيه الذى يكسوه الشعر . وقد قام بهذا الفعل بدافع التحريض من أمه التى ساعدته فى القيام بهذا العمل الزائف ، بأن ألبسته ملابس أخيه من ناحية ، وغطت يديه ورقبته بجلد جدى من ناحية أخرى ، وبذلك نجح يعقوب فى تحويل بركة أبيه اليه ، تلك البركة كان المقصود بها أخاه ، وبذلك أصبح خليفة لأبيه . ومن المحتمل أن هذه القصة تحتوى على بقايا شعائر قانونية كانت تتبع عندما يصبح الابن الأصغر خليفة شرعيا لأبيه بدلا من أخيه الأكبر .

٢ - تقديم الجلد ضحية فى الشعائر :

هنـاك بعض القبائل فى افريقيا التى تتشـابه عاداتها مع عادات الساميين فى بعض جـوانبها الغريبة ، وربما سـاعدت على اسـتجلائها وتفسيرها . ذلك أن هـذه القبائل الافريقية قد تخلفت عن الشـعوب السامية فى مجرى التطور الاجتماعى البطىء ، ومن ثم فقد احتفظت فى وضوح بطابع عادات بدائية محددة ، فى الوقت الذى انقرضت فيه هذه العادات فى كثير أو قليل وبلبت بتأثير زحف المدنية . وهذه القبائل تسكن فيمايسمى بالقرن الافريقى الشرقى، أى أنها تنتشر علىوجه التقريب بين الحبشة وخليج عدن شمالا ،وجبل «كليمانجارو» وبحيرة فكتوريا نيانزا جنوبا . ولا تنتمى هذه القبائل الى مجموعة القبائل الزنجية الخاصة التى تتحدد اقامتها فى افريقيا الغربية ، كما أنها لا تنتمى الى مجموعة قبائل البانتو التى تحتل بشكل عام بقاع افريقيا الجنوبية جميعها ، من خط الاستواء الى رأس « الرجاء الصالح » . حقا ان بينهم قبائل ، مثل قبيلتى « أكامبا » و « وكيكويو » اللتين تتحدثان اللغات البانتوية ، وربما انتمت أصلا الى مجموعة قبائل البانتو . ولكن حتى هذه القبائل ربما ساورنا الشك فى مدى انتمائها لمجموعة قبائل البانتو ، وفى مـدى التغير الذى طرأ عليها نتيجة اختلاطها أو احتكاكها بعنصر غريب عنها . وفىالعموم فان العنصر المسيطر فى هذا الجزء من افريقيا هـو ما يطلق عليه العلمـاء الاثنولوجيون اسم الأثيوبيين ، وأخلص عنصر فى هؤلاء فيما يبدو ، هم الجاليون . كما يبدو أن قبيلة «باهيما» الرعوية التى تسكن فى «أنكولى» فى محمية أوغندا والتى تنتسب اليها فيما يقال ، الأسر الملكية فى «أوغندا» و «أونييورر» و «كراجوى» ، يبدو أنها كانت تكون القاعدة الأماميـة التى تقع فى الغرب . ومن بين القبائل الأخرى التى تنتمى الى هذه الأسرة وربما أشهرها ، قبيلتا ماساى ونادى اللتان تربط بينهما صلة قربة . ولحسن الحظ أننا نملك بحثين قيمين عن هاتين القبيلتين ، كتبهما لنـا الباحث الاثنولوجى « أ . س . هوليس » . ففيما يختص بعلاقة هاتين القبيلتين بالجاليين كتب يقول : « لست أعتقد أن الدور الذى لعبه الجاليون فى تكوين قبيلة « ماساى » وقبيلة « نائدى لومبو » وغيرهما من القبائل مثل قبيلة « باهيما » التى تسكن أوغندا ، كان دورا فعالا ، أو أن هذا التكوين كان له أثر فى الزمن الماضى . وكثيرا ما يشار الى تأثير الأجداد الجاليين على هذه القبائل فى المظهر الفيزيائى وفى دينها وعاداتها ، كمـا يشار اليه بصورة أقل فى لغات كثير من القبائل » . ولا يفصل موطن الجاليين فى افريقيا عن شبه جزيرة العرب ، مهـد الجنس السامى ، سوى بحر ضيق ، ومعنى هذا أن العلاقة بين هذين الموطنين وهـذين

الشعبين لا بد أنها كانت قوية منذ العصور القديمة • ومن ثم فانه ليس غريبا ، كما قد يبدو لأول وهلة ، أن نجد تشابها بين العادات السامية والعادات الاثيوبية • حقا ان الصيحة من فوق جبل زيون لم تكن لتصل الى جبل كليمنجارو نظرا لبعد المسافة فيما بينهما ، ولكنها ربما كانت تصل خلال محطات كانت تقع فيما بينهما على طول شواطىء افريقيا وشبه جزيرة العرب • على أنني لا أهدف من قولى هذا أن أقدم رأيا حول مسألة ما اذا كانت وجوه التشابه بين العادات الاثيوبية والسامية تفسر بأن هذه العادات مستمدة من أصل واحد ، أو أنها ترجع الى تأثير أحداث متشابهة تركت تأثيرها مستقلا على عقول الأجناس المختلفة ، وانما أهدف فحسب الى اثارة افتراض أصل واحد لهذه الأجناس ليس من السهل تجاهله •

وبعد هذه المقدمة المسهبة التى تحصنني ضد الشكوك التى يمكن أن تثار حول بحثى عن وجوه التشابه بين عادات جنسين عبر مسافة زمنية غير معقولة ، أدلى الآن ببعض الحقائق التى تشير الى مراسيم شرعية قديمة تتضمن قصة خداع يعقوب لأبيه •

فمن المألوف عند الجاليين أن يتبنى زوجان عاقران أطفالا • ويربط نظام التبنى الزوجين بالأبناء المتبنين برباط قوى ، الى درجة أنه اذا أنجب هذان الزوجان أولادا بعد ذلك، فان الابن المتبنى يحتفظ لنفسه بحقوق الابن الأصلى الأول كاملة • وتجرى الشعائر التالية عند انتقال الطفل من عند أبويه الشرعيين الى أبويه اللذين يرغبان فى تبنيه • فاذا كان هذا الطفل يبلغ من العمر حوالى ثلاث سنوات ، يؤخذ من حضن أمه ويحمل الى غابة حيث حيث يتخلى أبوه الأصلى من خلال اجراءات صورية عن حقه كاملا فى بنوته لابنه ، وذلك بأن يعلن أن ابنه يعد منذ تلك اللحظة ميتا بالنسبة له • وعند ذاك يذبح ثور ، وتطلى جبهة الصبى بدمه كما يوضع جزء من شحمه حول رقبته ، وتغطى يداه بقطعة من جلده • وهنا تتضح وجوه التشابه بين هذه الشعائر وبين الاجراءات التى قام بها يعقوب لخداع أبيه : ففى كلتا الحالتين غطيت رقبة الشخص المعنى ويداه بجلد الحيوان الضحية أو شحمه • على أن مغزى هذه الشعائر لم يتضح بعد • وربما اكتشفنا مغزاها من خلال فحصنا لشعائر مشابهة لها تؤدى فى مناسبات مختلفة عند قبائل افريقيا الشرقية •

فمن المألوف بين هذه القبائل أن يقدم حيوان ضحية ، غالبا ما يكون نعجة أو شاة ، ويسلخ جلده ويقطع الى شرائح تلف حول معصمى الشخص الذى يراد له الاستفادة بسحرها بطريق أو بآخر أو تلف حول

أصابعه رقد يكون الهدف من ذلك درء المرض عنه أو اكسابه مناعة ضده أو تطهيره من دنس أو تخليصه من قوى غريبة تتملكه • فعندما يولد طفل بين «الأكامبابين» ، تذبح نعجة ويسلخ جلدها وتقطع منه ثلاث شرائح تلف حول معصمى الطفل ومعصمى الأب والأم ، كل على حدة • وفى مثل هذه المناسبة يذبح الاكيكويون شاة ، ويقص شريط من جلد رجليها الأماميتين يلف حول معصم الطفل حتى تبعد عنه الحظ العاثر أو الدنس (ناهو) الذى يعتقد فى أنه يلازم الأطفال المولودين . ومثل هذه العادة تتبع كذلك بين « الأكيكويون » فى احتفال غريب، هو احتفال « الميلاد الجديد » (كو ـ تشى ـ آ ـ روو ـ أوكى ـ رى) ، أو « الميلاد من نعجة » (كو ـ تشى ـ آ ـ رى ـ ى ـ رو ـ أومبور ـ ى) كما يسمونه الأهالى ، وهو الاحتفال الذى يحتم أن يؤدى لكل طفل قبل ختانه • ويختلف عمر الأطفال الذى تقام فيه هذه الشعائر حسب الزمن الذى يمكن أن يقتنى فيه الأب النعجة أو الشاة اللازمة لتأدية الطقس ، ولكنه يبدو أن شعائر الميلاد الجديد تؤدى فى الغالب عندما يبلغ الطفل حوالى العاشرة من عمره ، وربما قبل ذلك • فاذا كان والد الطفل متوفيا أو والدته ، عين بدلا منهما رجل وامرأة يكونان بمثابة الوكيلين عنهما ، وفى هذه الحالة ينظر الطفل الى هذه المرأة بوصفها أمه • ثم تذبح شاة أو نعجة بعد ظهر هذا اليوم ويحتفظ بمعدتها وأمعائها • ثم يقام الاحتفال بعد ذلك فى المساء فى كوخ من الأكواخ حيث لا يسمح لغير النساء بالحضور • ثم تمرر قطعة ذات شكل دائرى من جلد النعجة أو الشاة فوق احدى كتفى الصبى الذى سيولد من جديد ، وتحت ذراعه من الجانب الآخر لهذا الكتف ، كما تمرر أمعاء الحيوان فوق الكتف الأخرى وتحت الذراع الثانية للصبى . ثم تجلس الأم أو من تقوم مقامها ، على جلد الحيوان المبسوط على الارض والطفل بين ركبتيها ، وتمرر حولها أمعاء الحيوان ثم توضح تلك الامعاء بعد ذلك أمام الصبى • ثم تأخذ الأم فى الأنين كما لو كانت تعانى آلام الوضع . وتأتى امرأة ثانية فتقطع أمعاء الحيوان الذى يمثل الحبل السرى . وعند ذلك يصطنع الصبى بكاء الطفل الوليد • ولا يجوز للصبى قبل أن تؤدى له شعائر الميلاد الجديد أن يشارك فى دفن جثة أبيه أو أن يساعد فى حمله الى الخلاء ليموت هناك • وقد كانت شعائر الميلاد الجديد سالفا ترتبط بشعائر الختان ، ولكننا الآن نبحث الظاهرتين منفصلتين •

هذه هى عادة الميلاد الجديد الغريبة كما تمارسها أو كانت تمارسها قبيلة « أكيكويو » ، وكما وصفها بعض المواطنين الذين تخلصوا من سيطرة

التقاليد وتعرضوا للتأثير المسيحى ، للسيد « روتلدج » وزوجته • ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا محجمين عن الحديث فى هذا الموضوع ، ولم يجد معهم الاغراء والرشوة فى السماح للباحثين الانجليز لمشاهدة هذه الشعائر • وعلى الرغم من ذلك فان مغزاها العام واضح كل الوضوح ، كما أنه يزداد وضوحا من خلال الاسم الذى يطلقه الأهالى على هذه الشعائر وهو « ميلاد الصبى من النعجة » • وجوهر هذه الشعائر فى الحقيقة هو تظاهر الأم بأنها النعجة التى يخرج من بطنها الصبى • وهذا يفسر نشر معدة الحيوان وجلده حول الصبى ، كما يفسر تمرير أمعائه حول الأم والطفل معا • وتتضح عملية تظاهر المرأة بأنها حيوان يلد ، أكثر من ذلك من خلال حكاية مستقلة رواها « س • و • هوبلى » عن هذا الاحتفال ، وان يكن الحيوان الذى تقوم المرأة بتقليده فى هذه الحالة شاة وليس نعجة • واسم هذا الاحتفال كما ذكر « هوبلى » « كو ـ تشسياريو ـ رينجى » ، وترجمته الحرفية « الميلاد مرة أخرى » • ثم يخبرنا « هوبلى » بعد ذلك أن قبيلة « أكيكويو » تنقسم الى فرعين هما « كيكويو » و « مساى » ، وأن اجراءات هذا الاحتفال تختلف على نحو ما من فرع لآخر . فاذا كان والدا الطفل ينتميان الى فرع «مساى»، فان طقوس الاحتفال تجرى على النحو التالى : «يذبح الأب خروفا بعد ميلاد الطفل ذكرا كان أم أنثى ، بحوالى ثمانية أيام ، ويأخذ معه لحمه الى البيت الذى يسكنه أم الطفل ، فتأكل الأم لحم الحيوان هى وجيرانها طالما كانوا ينتمون الى فرع « مساى » • وفى نهاية الوليمة تزين الأم بجلد رجل الخروف الأمامية اليسرى وبجلد كتفيه وذلك عن طريق ربط شريط من هذا الجلد بين معصمها الأيسر وكتفها اليسرى . وتظل الأم على هذا النحو مدة اربعة أيام ، وبعد ذلك ينتزع عنها هذا الشريط ويوضع فى سريرها حيث يظل فيه حتى يختفى• كما يحلق شعر الأم والطفل فى اليوم الذى تؤدى فيه هذه الشعائر . على أن هذا الاجراء ليس له صلة بتسمية الطفل ، اذ أنه يسمى يوم ميلاده » • وهنا نرى أن الهدف من هذه الاجراءات هو أن تقرن الأم بالخروف ، ويتم هذا عن طريق أكلها لحمه وأرتدائها جلده الذى يترك فى سرير الأم مدة ثمانية أيام قبل ميلاد الطفل • اذ من الملاحظ أن شعائر الميلاد الجديد على هذا النحو تتبع الميلاد الحقيقى بفترة لاتتجاوز بضعة أيام .

فاذا كان الأبوان ينتميان الى فرع « كيكويو » ، فان طقوس الميلاد الجديد فى جنوب بلد « الكيكويويين » تجرى على النحو التالى : « يذبح خروف بعد ميلاد الطفل بيوم ، ثم يغلى بعض دهن الحيوان فى وعاء يقدم للأم والطفل ليشربا منه • على أنه لم يذكر على وجه التحديد أن هذا العمل له صلة مباشرة بطقس الميلاد الجديد ولكنه يذكر فى بداية وصف

هذا الطقس . فاذا بلغ الطفل ما بين الثالثة والسادسة من عمره ، يذبح الأب خروفا ، ويزين الابن بجزء من جلده وجزء من جلد معدته وذلك بعد ذبحه بثلاثة أيام . ثم يربط هذا الجلد حول كتف الابن اليمنى ، أو حول كتف الخروف اليسرى واحدى أرجله . ويظل الابن مرتديا هذا الجلد
كتف الخروف اليسرى واحدى أرجله . ويظل الابن مرتديا هــذا الجلد
مدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يضاجع الأب والأم. على أن هناك ملاحظة على جانب من الأهمية ، وهى أن ينام الابن مع أمه فى سريرها ، قبل أن يزين بجلد الحيوان ، ويصرخ صراخ الطفل المولود . ولا يصح ختان الابن الا بعد القيام بهذه الشعائر . وبعد أن يختتن ببضعة أيام يعود الابن فينام فى سرير فى كوخ أمه ، أما الأب فلا يعود الى هذا الكوخ قبل أن يذبح خروفا ويقدم للصبى جرعة من دمه . وبهذه المناســبة ينبغى على الأب أن يضاجع الأم» .

فاحتفال الميلاد الجديد فى هذا الشكل الشــعائرى الذى وصــفه « روتليدج » وزوجته ، يؤجل بضعة سنوات بعد ولادة الطفل . وسواء أقيم هذا الاحتفال اثر ولادة الطفل مباشرة أو بعد ذلك بســنين ، فان جوهره واحد ، وهو أن تتظاهر الأم بأنها شاة تضع وليدها، على أنه ينبغى علينا أن نشير الى استبدال الخروف بالشاة فى هذا العمل التشريعى ، ذلك الاستبدال الذى ليس من السهل علينا أن نفسره فى هذا المقام .

وبعد أن انتهى « هوبلى » من وصف طقوس الميلاد الجديد فى شكلها كما نتبع عند فرعى قبيلة «اكيكويو» ، عاد فوصف لنا طقوس احتفال آخر شبيه فى شكله باحتفال الميلاد الجديد . ويطلق على هذا الاحتفال الأخير اسم مشابه للاحتفال الأول وليس مطابقا له كل التطابق (فهو يســمى «كو ــ شيآريو كونجى» بدلا من «كو ــ شيآريو رنجى»). وهذا الاحتفال الثانى هو احتفال التبنى . وقد قيل : انه يشبه الاحتفال « السواحيلى » الذى يسمى « ندوجو كو شانجايانا » . « فمن الطبيعى أن الشخص الذى ليس له اخوة أو والدان ، أن يجتهد فى أن يكون تحت حماية رجل ثرى وأسرته . فاذا وافق هذا الرجل الثرى على أن يتبناه ، فان كلا منهمــا يأخذ خروفا ويذبحه فى حضرة شيوخهما ثم يقطع هؤلاء الشيوخ جلد الرجل اليمنى من كل خروف وجلد صدريهما الى شرائح تلف حول يدى كل من المتبنى والمتبنى بحيث يزين كل منهما بشرائح جلد خروف الآخر . وعند ذاك ينظر الى الرجل الفقير بوصفه ابنا للرجل الغنى . فاذا شــاء

المتبنى أن يتزوج ، دفع الرجل الغنى عددا من الرءوس فى مقابل شراء زوجة له » . ومن الصعب فى هذا الاحتفال أن يكون هناك تظاهر بالميلاد الجديد ، حيث ان بطلى هذا الاحتفال من الذكور . ولكننا عندما نقارن هذه العادة بالعادات السالفة ، فانه يحق لنا أن نفترض أن كلا من المتبنى والمتبنى يتظاهر بأنه شاة .

وهناك شعائر أخرى تؤديها قبيلة « كيكويو » قبل الاحتفال بالختان . ففى صباح اليوم السابق على تأدية شعائر الختان ، يذبح جدى شنقا ثم يسلخ جلده ويقطع الى شرائح . ثم تلف شريحة منها حول معصم الصبى الأيمن ويسحب من خلف يده بحيث يدخل بنصره فى شق فى هذا الجلد . ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « واشامبا » ، وهى قبيلة تقطن فى افريقيا الشرقية . فقبل القيام باحتفالات الختان ، تقدم نعجة ضحية لروح أحد الأجداد ، ثم تقطع حلقات من جلد النعجة كى يلف بها الصبى الذى سيختن ، كما يلف بهـا أبواه وأقرباؤه . ثم يتضرع الأب الى الروح وهو يذبح النعجة ويقول : « لقد اجتمعنا كى نخبرك بأن ابننا سيختن اليوم . فلترع طفلنا وكن رحيما به ولا تكن غاضبا علينا . وها نحن نقدم لك نعجة » . وهنا يبدو أن أفراد الأسرة وهم يلتفون بالحلقات التى قطعت من جلد النعجة ، يقرنون أنفسهم بهذا الحيوان الذى يقدم ضحية لروح أحد الأجداد . وعند قبيلة «واتشاجا» التى تسكن جبل كيليمانجالو) يجتمع الصبية بعد شهرين من ختانهم فى قرية الزعيم حيث يجتمع كذلك العرافون والاطباء ، وهناك تذبح النعاج ويقطع الأولاد الذين ختنوا حديثا شرائح من جلدها ويدخلون أصابعهم الوسطى من أيديهم اليمنى فى شقوق طولية يحدثونها فى شرائح الجلد . وفى هذه الأثناء يصنع العرافون دواء مصنوعا من محتوى معدات النعاج بعد مزجها بالماء والمواد السحرية . ويرش الزعيم هذا المزيج على الصبية حتى يتم فيما يبدو اتحادهم السحرى أو المقدس بالنعاج . وفى اليوم التالى يقيم والد كل صبى وليمة لأقربائه ، فيذبح نعجة ، ويأخذ كل ضيف قطعة من جلد النعجة يلفها حول الاصبع الأوسط من يده اليمنى . ويحق لنا فى هذا المجال أن نقارن بين هـذا الاحتفال باحتفال آخر يقوم به « البورانيون الجاليون » عندما يصل الصبية عندهم سن البلوغ . وهذا الاحتفال يسمى « أدا » أو الجبهة وتفسره كلمة « جارا » ومعناها الختان . وفى هذه المناسبة يجتمع الغلمان الذين يحتفل بظهورهم ، مع آبائهم وأمهاتهم وشيوخ أقربائهم فى كوخ يبنى لهذا الغرض . ثم يذبح ثور على سبيل الضحية ويغمس كل فرد من الحاضرين اصبعه فى دم الثور بحيث يقطر منه الدم،

كما يدهن الرجال جباههم والنساء قصباتهن الهوائية ببعض هذا الدم • ثم تدهن النساء أنفسهن بدهن الضحية ، كما يرتدين شرائح رفيعة من جلدها حول رقابهن ويحتفظن بها على هذا النحو حتى اليوم التالى • وفى النهاية تقام مأدبه من لحم الثور الضحية •

ويستخدم جلد الحيوان على هذا النحو فى احتفالات الزواج عند بعض القبائل الافريقية • ويجرى جزء من هذه الاحتفالات عند قبيلة « واوانجا » التى تسكن مقاطعة « آلجون » فى افريقيا الشرقية البريطانية على النحو التالى : يذبح ذكر من الماعز ويقص شريط طويل من جلد معدته • ثم يشق والد العريس أو أى غريب آخر مسن له ، الجلد طوليا ويمرره فوق رأس العروس بحيث يتدلى على صدرها ويقول : « لقد وضعت الآن الجلد على رأسك ، فاذا هجرتنا لكى تتزوجى رجلا آخر ، فليتبرأ منك هذا الجلد ولتصبحى عاقرا » • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « وا ــ جيرياما » وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، اذ يذبح الزوج عنزة فى اليوم التالى لزواجه ويقطع شريطا من جلد جبهتها ويصنع منه تعويذة يقدمها لزوجته كى ترتديها فى ذراعها اليسرى• أما لحم العنزة فيأكله الحاضرون • ونلاحظ فى هاتين الحالتين أن جلد العنزة لا تستخدمه سوى الزوجة • على أن الزوج فى قبيلة « ناندى » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى يستخدمه كذلك • ففى يوم العرس تختار عنزة قوية سليمة من بين القطيع وتمسح بالزيت ثم تشنق • وبعد ذلك تنتزع أحشاؤها التى يتفاءل أو يتشاءم بالحالة التى تكون عليها • ثم يسلخ بعد ذلك جلد الحيوان ويصنع منه رداء على وجه السرعة ترتديه العروس فى الوقت الذى تشوى فيه النساء لحم الحيوان ويأكلنه . وفضلا على هذا فانه يصنع من جلد الحيوان خاتم وسوار . أما الخاتم فيرتديه العريس فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، وأما السوار فترتديه العروس فى معصم يدها اليسرى .

وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الخواتم التى تصنع من جلد النعجة الضحية ، يرتديها الأشخاص الذين يعقدون عهد الصداقة فيما بينهم . ويبدو ان هذه العادة مألوفة بين القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية • فأواصر الصداقة تعقد عند قبيلة « واشاجا » من خلال الاحتفال الذى يسمى « كيسكونح » . «ويتكون هذا الاحتفال من أخذ قطعة من جلد رأس عنزة الضحية وشقها بحيث يرتديها الشخص كما لو كانت خاتما فى اصبعه الأوسط » • وبالمثل فان تبادل الخواتم التى تصنع من جلد

الحيوان لضحية الذى يؤكل لحمه عادة ، من شأنه أن يدعم أواصر الصداقة بين أفراد قبيلة «أكامبا» .

وتقيم قبيلة « أكيكويو » مثل هذا الاحتفال ، وان يكن فى صورة أكثر اتقانا عندما يترك رجل حيه لينتمى رسميا لحى آخر . عند ذاك يحضر هذا الرجل شاة ،وكذلك من يقوم بتمثيل الحى الذى أوشك على أن ينتمى أليه الرجل المعنى ، وقد يحضر كل منهما ثورا ان كانا موسرين . ثم يذبح الحيوانان ، ويقطع شريط من جلد معدة كل حيوان وكذلك من رجل كل منهما . ثم يوضع دم الحيوانين معا فى وعاء كما توضع أحشاؤهما فى وعاء آخر . ثم يأتى شيوخ من قبل الطرفين ويشقون الشرائط التى قطعت من جلد الحيوانين ويصنعون من كل جلد سوارين يرتديهما الطرفان ، بحيث يرتدى كل طرف السوارين المصنوعين من جلد الحيوان الطرف الآخر . ثم يحضر شيوخ الطرفين الوعاءين المملوءين بالدم وأحشاء الحيوانين ، ويسكبون بعض الدم فى راحتى أحد الأطراف الذى يسكبه بدوره فى راحتى الطرف الآخر . وعند ذاك يستدعى الواقفون ليشهدوا على امتزاج دم الحيوانين ويستمعوا الى التقرير الذى يعلن أن الطرفين أصبح يجمعهما دم واحد » . وهذا المثال واضح كل الوضوح ، حيث انه يطلعنا فى غير لبس على أن الغرض من هذا الطقس هو ربط الطرفين المتعاقدين فى دم واحد . ومن ثم فنحن ملتزمون لأن نفسر بناء على هذا الأساس عادة احاطة المعاصم بشرائح من جلد الحيوان الذى يستخدم دمه فى شعائر هذا الاحتفال .

وتقوم قبيلة « واونجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى شرق افريقيا البريطانى بتقديم عدد من الحيوانات ضحية وذلك قبل أن يسمح للأهالى يزرع الذرة ، أما سائر قبائل هذه المقاطعة فتقوم بشنق كبش أمام كوخ أم الملك ، ثم تنتزع أحشاؤه وتوضع فى الكوخ بجانب السرير بحيث يكون مواجها لرأس السرير . وفى اليوم التالى لذلك تؤخذ الأحشاء وتقطع ، ويلف الملك وأبناؤه وزوجاته أجزاء منها حول أصابعهم . ويقوم شعب « النجاميين » ، وهو شعب مخلط يسكن فى أفريقيا الشرقية البريطانية برى زراعاتهم عن طريق قنوات تحفر فى موسم الجفاف . فاذا حان ميعاد رى الزرع عن طريق فتح القنوات حتى تتسرب منها المياه الى الحقول ، يقتلون شاة ذات لون محدد خنقا وينثرون شحمها المسلى وروثها ودماءها فى شقوق الأرض وفى مياه الرى . واثر ذلك تفتح القنوات ويؤكل لحم الشاة الضحية . وينبغى على الرجل الذى قام بخنق الشاة ، والذى يتحتم أن يكون منتميا لعشيرة معينة ، أن يرتدى جلد

الشاة حول رأســه مدة يومين . فاذا ثبت فيما بعد أن المحصول ليس وافرا ، أعيدت الشعائر مرة أخرى ، فيجتمع شيخان من شيوخ هــذه العشيرة المتسلطة التى يمكن مقارنتها باللاويين الاسرائيليين ، مع شيخين من أية عشيرة أخرى، ويعودون معاالى الحقول حاملين معهم شاة من نفس لون الشاة الأولى ويذبحونها ويأكلون لحمها ثم يقطعون جلدها ويأخذ كل منهم قطعة منه يلفها حول رأسه مدة يومين . فاذا فرغوا من ذلك ساروا حول الحقل فى اتجاهين متعارضين وهم ينثرون شحم الحيوان وروثه ، كما ينثرون العسل فى الحقل حتى يلتقوا مرة أخرى .

ويقــدم الفرد فى قبيلة « ماساى » ضــحية للاله حتى يحفظه هو وقطعانه سليما معافيا . وتقدم هذه الضحية بين الحين والآخر ، وهى تقدم فى بعض الأماكن كل عام . وعند ذاك تشعل النار فى القرية ، عن طريق حرق الخشب الجاف والأوراق ولحاء الشجر ، كما ينثر فيها مســحوق يثير عمــودا من الدخان المتصــاعد الذى تنبعث منه الرائحة العطرة . وعند ذاك تشتم الآلهة فى السماء هذه الرائحة الطيبة وتستريح لذلك. ثم يحضر كبش بدين أسود ويغسل بالعســل المتخمر ويرش عليه مسحوق خشب معين ثم يقتل خنقا ويسلخ جلده ويقطع لحمه ، ويأخذ كل فرد من الحاضرين قطعة من اللحم يشويها ويأكلها ، كما يتسلم شريطا من جلد الحيوان يصنع منه عددا من الخواتم يلبس أحدها فى اصبعه ويقدم الباقى لأفراد أسرته . وهــذه الخواتم هى بمثابة تعاويذ تحفظ من يرتديها من كل أنواع المرض . ويرتدى الرجال هــذه الخواتم فى أصابعهم الوسطى من الأيدى اليمنى ، أما النساء فيعلقنها فى أقراطهن الضخمة المصنوعة من أسلاك حديدية ذات شكل لولبى ، وهى تلك التى يزين بها صدورهن أو لنقل يشوهنها .

ومثل هذه العادة تتبع فى حالة المرض . فقد يحــدث بين قبيلة « واوانجا » على سبيل المثال ، أن يستدعى الرجل المريض وهو فى حالة الهذيان ، شــخصا من أقربائه المتوفين . فاذا فعــل ذلك ، فان هــذا معنــاه أن المرض قــد جارزه واستقر عنــد عتبة شــبح الميت ، ومن ثم فان أقرباءه يقومون باجراء من أجل القضاء على هذا المرض . وهنــا تقدم بعض النقود لرجل عجوز فقير لكى يقوم بالعمل الخطير وهو اخراج جثة هذا الميت من القبر ، ثم تحرق عظامها فوق عش من أعشاش النمل الأحمر ، ويجمع بعد ذلك الرماد فى سلة يطرح بهــا فى النهر . وقــد تختلف وسيلة تهدئة الشبح عن ذلك بعض الشىء . فبدلا من اخراج عظم الميت ، يزج سيخ فى القبر . ولكى يزدادوا يقينا من أنهم قد أصابوا

الشبح ، فانهم يصبون الماء المغلى اثر ذلك فى القبر • وبعد أن يشعروا برضائهم فى القضاء على الشبح على هذا النحو يذبحون كبشا أســود ويمسحون صدورهم ببعض روثه الذى يأخذونه من أمعائه ، ويلفون شرائح من جلده حول معاصمهم اليمنى • ثم يأتى زعيم الأسرة التى ينتمى اليها المريض ، ويأخذ قطعة من جلد الحيوان ويلفها حول سبابة يده اليمنى ، كما يلف المريض نفسه شريطا آخر من جلد الحيوان حول عنقه • وفى هذه الحالة لا يمكن أن يكون الهـدف من وراء التضحية بالكبش الأسود هو اسكان غضب الشبح ومصالحته ، حيث انه قد زج بالسيخ فى رأسه ، كما سكب الماء المغلى على عظامه . وأولى من ذلك أن نفترض أن التضحية بالكبش ترجع الى مزيد من الشك فى انه حتى هذه الوسائل العنيفة ربما لا يكون لها الأثر الفعال فى القضاء على الشبح • ومن ثم يحق لنــا أن نفترض ، اذا شـئنا أن نكون فى الجـانب الآمن ، أن الرجل المريض وأصدقاءه ، بذبحهم الكبش ، يحصنون أنفسهم ضد طعنات الشبح وذلك عن طريق ارتدائهم لجلده الذى يخدمهم فى هذا الغرض بوصفه تعويذة • فاذا اتهم شخص من بين أفراد هذه القبيلة بالسرقة ، فانه يذهب مع متهمه الى شجرة محددة هى شجرة (ارثرينا تومينتوزا) ، ويزج كل منهمـا برمحه فيها ، فيقع أثر ذلك المذنب منهما ، سواء أكان هو المتهم بالسرقة أم من اتهمه ، فريسة للمرض . على أنهم لم يقدموا سببا يعزى اليه مرض هذا الشخص ، وانما نرجح أن روح الشجرة التى استاءت بطبيعة الحال لطعنها بالسهام ، تنتقم لغضبها ، عن طريق التمييز الحصيف ، من المجرم وحده . ومن ثم فان الرجل الشرير يمرض ، ولاشىء يشفيه من مرضه الا اذا اقتلعت الشجرة من جذورها ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للقضاء على روح الشجرة • وبناء على ذلك فان أصدقاء المريض يأتون الى الشجرة ويقتلعونها ، وفى الوقت نفسه يقومون بذبح شاة ويأكلون لحمها توا ، كما يتناولون معه بعض الأدوية • ثم يلف كل فرد منهم شريطا من جلد الحيوان على معصم يده اليمنى • أما الرجل المريض نفسه الذى تقام هذه الشـعائر من أجله • فيلف شريطا من جلد الحيوان حول رقبته ، كما يمسح صدره بروث الحيوان المذبوح • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الغرض من ذبح الشاة ليس هو استرضاء الروح بحـال من الأحوال وانما هو بالأحرى حماية المريض وأصدقائه من نقمة روح الشجرة ، وذلك فى حالة ما اذا كانوا قد فشلوا فى القضاء عليه عن طريق تحطيم الشجرة •

كما تنتشر عادة ارتداء جزء من جلد الحيوان الضحية انتشـارا مألوفا بين قبائل افريقيا الشرقية ، وذلك عندما تقام شعائر التكفير عن

الذنب • فاذا ضرب رجل من قبيلة «واتشاجا» زوجته وخرجت من بيته اثر ذلك ثم عادت اليه ، فان الزوج يقطع أذن نعجة ويصنع منها خاتمين، ويقوم كل منهما بوضع خاتم فى اصبع الآخر • ولا يجوز للزوجة قبل ذلك أن تطهو له الطعام أو أن تأكل معه • وتنظر قبيلة واتشاجا وبالمثل كثير من القبائل الافريقية ، الى الحداد نظرة فزع، منشؤه التطير منه • ذلك لأنهم يعتقـــدون أن قوى غريبة تتملـــكه وترفعه فـوق مستوى الرجل العادى • ولا تقتصر هذه النظرة الغريبة الغامضة على شخص الحـــداد فحسب ، وانما تمتد الى آلات حرفته ، وبصفة خاصة المطرقة التى تمتلك وفقا لتصورهم ، قدرة سحرية أو روحية • ومن ثم فانه يتحتم على الحداد أن يكون حريصا فى استعمال هذه الآلة فى حضرة الناس ، والا تعرضت حياتهم بتأثير سحرها العجيب ، للخطر البالغ • فاذا أشار بها الى رجل على سبيل المثال ، فانهم يعتقدون أن هذا الرجل سوف يموت ، ما لم تؤدى شعائر مقدسة لابعاد الشر الذى قد يلحق به • وعند ذاك تذبح عنزة ويصنع خاتمان من جلدها ، أحدهما يلبسه الحداد فى الاصـــبع الأوسط من يده اليمنى ، والآخر يلبسه الرجل المعرض للخطر فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى كذلك ، ثم تتلى عبارة التطهير التقليدية • وتؤدى هذه الشعائر كذلك اذا أشار الحداد الى أحد بملقطة النار ، أو اذا رمى فى غير تعمد ، برادة حديده على أحد •

وتؤدى قبيلة « واتشاجا » التى تسكن فى مقـاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية البريطانية ، شعائر للتكفير من هذا النوع . فاذا اقتحم شـخص غريب كوخا من الاكواخ ، على سبيل المثال ، وسقطت عبـاءته الجلدية على الأرض ، أو كان قد اشترك فى مشاجرة ما أصيب على أثرها بجراح تساقطت منها قطرات من الدم على أرض الكوخ ، فان أحد سكان الكوخ يكون فى هذه الحالة معرضا للمرض ، ما لم تؤد شعائر معينة لدرء هذا المرض • وفى هذه الحالة يتحتم على هذا الشخص الغريب أن يحضر عنزة ويذبحها ويسلخ جلد صدرها وبطنها ويقطعه الى شرائط تقلب فى محتوى معدة الحيوان ، ثم يأخذ كل فرد من أفراد الكوخ شريطـا منها ويلفه حول معصم يده اليمنى . فاذا حدث أن وقع أحد أفراد الكوخ فريسة للمرض قبل أن يتخذ هذا الاجراء ، فان الشريط يلف فى هذه الحـالة حول رقبة المريض ، كما يمسح صدره ببعض روث الحيوان • ثم يأكل أفراد الكوخ نصف لحم العنزة والنصف الآخر يأكله القـــادم الغريب • وتعتقد قبيلة « واونجا » ، وبالمثل كثير من القبائل الهمجية ، أن الام التى تلد توأما ، تكون معرضة لأخطار بالغة ، ومن ثم يتحتم القيام بشعائـر

متنوعة قبل أن تتمكن من مغادرة الكوخ ، والا لحق بها من الأذى مالا داعى لذكره . ومن بين هذه الشعائر ، أن تقوم الأسرة باصطياد حيوان التليـا « الخلد » وقتله عن طريق وخزه بشوكة خشبية خلف رقبته ، ثم تشـق بطنه وتنتزع محتويات معدته ويمسح بها صدر الأم وصدرا الطفلين التوأم. ثم يقطع جلد الحيوان الى شرائط تلف حول المعصم الايمن من كل صبى كما تلف حول عنق الأم . وبعد خمسة أيام من ارتداء هذه الشرائط ، تخرج الأم لتستحم فى النهر وترمى بهذه الشرائط فيه . ثم يدفن لحم الحيوان تحت شرفة الكوخ ، كمـا يطرح جزء منه أمام باب الـكوخ وتوضع فوقه آنية مثقوبة من أسفلها فى وضع مقلوب .

وأخيرا ، ربما تسنى لنا أن نشير الى أن قبـائل افريقيا الشرقية تستخدم على هذا النـحو جلد الحيوان الذى يقدم ضـحية فى احتفالات مقدسة بعينها ، تقام بين فترات متباعدة وفقا لمراتب الاعمار التى يقسم اليها الشعب بأسره . فقبيلة ناندى على سبيل المثال ، تنقسم الى سبع مراتب . وبناء عليها يقام هذا الاحتفال كل سبع سنوات ونصف . وعند كل احتفال يتحول حكم البلد من رجال ينتمون الى مرتبة انقضت ، الى رجال أصغر منهم سنا وينتمون الى مرتبة قادمة من العمر . ويحضر رئيس الأطباء هذا الاحتفال الذى يبدأ بذبح ثور أبيض يقوم المحاربون من الشباب بشرائه لهذا الغرض . وبعد أن يأكل شيوخ القبيلة لحم الثـور ، يصنع كل شاب من شباب القبيلة خاتما من جلد الحيوان ويلبسه فى أحـد أصابع اليد اليمنى . وبهذه الطريقة تنتقل فى صورة شكلية قوة الشيوخ الى الشباب . وعند ذاك يخلع المحاربون الشباب أرديتهم الجلدية ويتشحون بأردية الشيوخ المصنوعة من الفرو . وفى الاحتفال المماثل لذلك عنـد قبيلة أكيكويو الذى يجرى عندهم كل خمسة عشر عاما ، يلف كل فرد شريطا من جلد جدى ، يقدم ضحية لهذا الغرض ، حول معصمه ، وذلك قبل أن يعود الى بيته .

وقـد نخلص بعد هـذا العرض الشامل للعادات السالفة ، الى أن الغرض من ارتداء الشخص لجزء من جلد الحيوان الضحية ، هو حمـايته من شر أصابه حقا أو قد يصيبه . أى أن جلد الحيوان يستخدم فى هذه الحالة بوصفه تعويذة . وربما انطبق هذا التفسير على الحالات التى تتبع فيها هذه العادة عند التصديق على عهـد من العهود ، حيث ان الطرفين المتعاهدين يحميان أنفسهما من خطر قد يلحق بهما اذا ما نقض أحدهمـا العهد . كما أننا يمكننا أن نفترض أن الغرض من طقس الميلاد الجديد أو

الميلاد من النعجة ، الذى تعودت قبيلة أكيكويو أن تؤديه قبل ختان الصبية ، هو حماية هؤلاء الصبية من بعض الشرور التى قد تلحق بهم اذا لم تؤد لهم الشعائر المناسبة · أما الطريقة التى يتأثر بها الشخص المعنى بهذه الشعائر ، فهى أن الشخص بارتدائه جلد الحيوان يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايذاء القوى الشريرة، له سواء كان ذلك عن طريق خداعها أو مداهنتها ، فتوجه تأثيرها الى الحيوان ، بدلا من الرجل . أو أنه يظن أن لحم الحيوان ودمه وجلده له خاصية سحرية معينة تحفظ الشر بعيدا عن الانسان · وتتضح فكرة مطابقة الانسان بالحيوان كل الوضوح فى شعيرة الميلاد الجديد عند قبيلة « كوكويو » · فبناء على هذه الشعيرة تتظاهر الأم بأنها نعجة وأن ابنها المولود هو الجدى الصغير المولود · ويحق لنا أن نفترض من خلال هذه الشعائر أن ارتباط الانسان بقطعة من جلد الحيوان الذى قدم ضحية يعد بديلا للفه فى جلد الحيوان كله · والغرض من هذا الفعل هو مطابقة الانسان بالحيوان ·

٣ ـ الميلاد الجديد :

ان حكاية يعقوب الغريبة التى تحكى عن الاحتيال والخديعة اللذين دبرهما الابن الماكر متواطئا مع أمه ضد الأب والزوج والخرف ، بقصد تحويل بركة الأب من عيسو الى يعقوب ، تحمل مظهرا آخر أكثر وقارا من ذلك الذى خلعه عليها كاتب القصة ، وذلك اذا افترضنا أن هذا الدور المعيب الذى لعبته القصة ، قد ضمنه اياها القاص الذى فشل فى الوصول الى الفهم السليم لطبيعة العمل الذى وصفه · فالعمل الذى قام به يعقوب ، ان كان فرضنا سليما ، ليس سوى عمل شرعى يحمل مغزى الميلاد الجديد فى شكل عنزة ، وذلك بهدف أن يعامل يعقوب شرعيا معاملة الابن الاكبر بدلا من كونه الابن الأصغر · وقد سبق أن رأينا أن عادة الميلاد من عنزة أو شاة قد لعبت فيما يبدو ، دورا مهما فى الحياة الاجتماعية والدينية عند قبيلة « أكيكويو » التى تسكن افريقيا الشرقية ، والتى ترجع فيما يبدو ، الى أصل عربى ، ان لم تكن ترجع الى أصل سامى · وفى وسعنا أن ندعم نظريتنا هذه اذا استطعنا أن نبين أن عادة التظاهر بالميلاد الجديد عن طريق امرأة أو حيوان ، كانت تتبع بين شعوب أخرى فى أحوال يظن فيها أنه من الأفضل للرجل أن ينسلخ من شخصيته القديمة ويصطنع شخصية جديدة يبدأ بها مرحلة جديدة فى حياته · وباختصار فان عادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى مرحلة مبكرة من تاريخ التشريع فى التأثير على

وضع من أوضاع الانسان والاشارة الى ما يعترى حياته من تغير فى هذا الوضع . والأمثلة التالية يمكن أن توضح هذا الغرض العام .

فعادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى المقام الأول استخداما طبيعيا فى أحوال التبنى ، أى بقصد جعل الابن المتبنى ابنا حقيقيا للأم المتبنية له . فالمؤرخ الصقلى « ديودورس » يخبرنا أن هرقل عندما ارتفع الى مصاف الآلهة ، أغرى أبوه الاله « زيوس » زوجته « هيرا » أن تتخذ من هذا الابن غير الشرعى ابنا حقيقيا لها. وقد حققت الآلهة النبيلة مطلب زوجها ، بأن نامت فى سريرها وضمت هرقل اليها ثم وضعته داخل ردائها ودفعته حتى سقط على الأرض ، مصطنعة بذلك أنها تلد حقيقة . ثم يضيف المؤرخ الى ذلك بأن البرابرة فى عصره كانوا يتبعون هذا الاجراء فى حالة تبنيهم طفلا . ويبدو أن هذه العادة كانت تتبع فى العصور الوسطى فى أسبانيا وفى بعض جهات أوربا . فكانت الأم أو الأب يضع الطفل المتبنى داخل ردائه ، وأحيانا يضعه فى طيات ردائه المنساب ، ثم يجعله يسقط على الأرض . ومن ثم فان الاطفال المتبنين كانوا يسمون « أطفال الاردية » . « وقد ذكر فى عدة مخطوطات من « التقويم العام » أن اليوم الذى عمد فيه « مودارا » وخلع عليه لقب فارس ، لبست زوجة أبيه قميصا فضفاضا فوق ردائها ، ووضعت الطفل فى أحد أكمامه ثم سحبته من فتحته وهى تعلن أنه قد أصبح ابنها ووريثها» . ويقال : ان هذا الاجراء هو الشكل المألوف الذى يتبع فى أسبانيا عند تبنى الأبناء . بل انه ما زال يتبع فيما يقال بين السلافيين الجنوبيين . ففى بعض جهات بلغاريا تضع الأم الطفل المتبنى داخل ردائها من أسفله وتخرجه من فتحته العليا عند صدرها . وعند «أتراك البوسنة» يجرى الاحتفال بتبنى الطفل على هذا النحو : تدفع الام المستقبلة بالابن المتبنى داخل سروالها مصطنعة بذلك أنها تلد بحق . كما قيل : « ان الطريقة المألوفة لتبنى الطفل عند الأتراك بوجه عام هو أن يمر الشخص المتبنى من ازار الشخص الذى يرغب فى تبنيه . ولهذا فان الاصطلاح الذى يستخدمه الأتراك للتبنى هو : « أن يمر الشخص المتبنى داخل ازار متبنيه » .

« ويقوم بعض الكلمانتانبين سكان بورما (وهم البروانيون والليلاكيون الذين يسكنون فى بارام) باحتفال رمزى غريب عند تبنى أسرة لطفل من الأطفال . فاذا استقر رأى رجل وزوجته على أن يتبنيا طفلا ، فانهما يتجنبان ، قبل القيام باحتفال التبنى ببضعة أسابيع ، تلك المحرمات التى تتجنب عادة قبل الشهور الأخيرة من حمل الزوجة . وكثير

من هذه المحرمات يمكن أن توصف بوجه عام بأنها الامتناع عن كل عمل يؤدى الى صعوبة فى وضع الطفل أو الى تأخير فى الوضع • ومثال ذلك ألا تزج يد فى جحر ضيق لاستخراج شيء منه ، وألا يثبت شيء فى وتد خشبى ، وألا يتردد الزوج أو الزوجة عند عتبة حجرة ، عند دخولهما أو خروجهما منها • فاذا حان اليوم الذى يجرى فيه احتفال التبنى، تجلس الأم مستندة الى سناد وملفعة بقماش على نحو ما تفعل دائما عند الوضع ، ثم يدفع الطفل من خلف رجليها الى الأمام • فاذا كان الطفل رضيعا ، فانه يوضع على صدرها ليمتص ثدييها، ثم يسمى بعد ذلك باسم . ومن العسير تماما أن يحصل الانسان على ما يثبت أن طفلا بعينه قد تبنى ، وأنه ليس ابنا حقيقيا لأبوين بعينهما • ولا يرجع هذا الى الرغبة فى اخفاء الحقيقة بقدر ما يرجع الى كمال عملية التبنى ، فالزوجان ينظران الى الطفل المتبنى بوصفه ابنا حقيقيا لهما بحيث انه يصعب علينا أن نعثر على ألفاظ تعبر عن التمييز بين الطفل المتبنى والطفل الحقيقى • ويحدث هذا بصفة خاصة اذا ما رضع الطفل المتبنى من الأم حقا » •

وهنا نلاحظ أن الوالدين يشتركان معا فى اتباع اجراءات الميلاد الجديد ، فكل من الأب والأم يتظاهران بمراعاة النظم التى يتبعها عادة كل أب وأم بين هؤلاء القوم بقصد العمل على تيسير ولادة الطفل الحقيقى ويقوم الوالدان المتبنيان لطفل ما بدورهما فى هذه المسرحية العائلية بجدية بالغة ، الى درجة أنه لم يعد يميز بين الادعاء والحقيقة ، والى درجة أننا لا نجد ألفاظا تعبر عن الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقى • وليست هناك وسيلة أبعد من ذلك تجعل الابن المتبنى يعتقد أنه الابن الحقيقى لأبويه المتبنيين له •

فاذا حدث عند قبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى افريقيا الوسطى « أن ورث رجل أولاد أخيه المتوفى ، فانه يأخذهم ويضعهم واحدا تلو الآخر ، فى حجر زوجته التى تستقبلهم بدورها وتقبلهم بوصفهم أولادها الشرعيين • ثم يحضر الزوج سيرا من الجلد يستخدم فى ربط الأبقار الجامحة عند حلبها ، يلفه حول وسط الأم بعد الوضع • وبعد هذا الاحتفال يتربى هؤلاء الأبناء فى كنف الأسرة ويصبحون من أفرادها» وتتضح ملامح شعائر الميلاد الجديد فى هذا المثال فى وضع الأطفال فى حجر الأم ، وفى ربط وسطها بالسير الجلدى على نحو ما تفعل القابلة مع الأم بعد ولادة الابن الحقيقى •

وتقام شعائر الميلاد الجديد لصالح الأشخاص الذين كان يظن

خطأ أنهم توفوا ، ومن ثم أقيمت لهم الشعائر الجنائزية غيابيـــا بهدف اهجاع أرواحهم الهائمة التى يمكن أن تتملك الأحياء وتضايقهم ما لم تؤد هذه الشعائر . فاذا حدث بعد ذلك أن عاد هؤلاء الأشخاص والتم شملهم بأسرهم ، فان هذا يخلق موقفا محيرا لهذه الاسرة ، حيث ان هؤلاء الأشخاص أصبحوا يعدون نظريا فى عداد الموتى ، بناء على طقوس السحر التقليدية أو شعائر الادعاء • وعندما واجه الاغريق والهنود القدماء هذه المشكلة ، وجدوا حلا لها عن طريق تأدية شعائر الميلاد الجديد • وهنا كان يتحتم على العائد أن يتظاهر فى رهبة ، قبل أن يختلط فى حرية بأقرانه ، أنه قد عاد الى الحياة مرة أخرى وذلك عن طريق ولادتــه من امرأة • وقد كان الاغريق يعدون هؤلاء أشخاصا نجسين قبل أن تؤدى لهم هذه الشعائر • فكانوا يرفضون الاختلاط بهم ولا يسمحون لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، ويمنعونهم بصفة خاصة من دخول معابد الآهات الانتقام • ومن ثم يتحتم على هؤلاء الأشخاص ، لكى يستردوا حقوقهم المدنية ، أن يخرج الفرد منهم من رداء امرأة ، ثم تغسل القابلة له جسمه وتلفه فى القماط وتضعه على صدر هذه المرأة ليمتص ثديها • ويعتقد بعض الناس أن هذه العادة ارتبطت فى نشأتها بشخص بعينه كان يدعى « اريستيفوس » • وقد حدث أن تغيب هذا الشخص وأقيمت له الشعائر الجنائزية فى أثناء غيابه • فلما عاد الى قومه رأى أن الناس جميعا يتجنبونه كما يتجنبون الشخص الطريد • عند ذاك لجأ الى نبوءة دلفى يلتمس النصيحة ، فأرشده الاله الى أن يقوم بتأدية شعائر الميلاد الجديد • على أن البعض الآخر يعتقد كل الاعتقاد أن هذه العادة أقدم فى نشأتها من عصر « أريستيفوس » ، وأنها وصلت اليهم من عصور بالغة فى القدم • أما عند الهنود القدماء ، فقد كان يتحتم فى مثل هذه الظروف ، على الشخص الذى كان قد ظن أنه قــد توفى ، أن يقضى الليلة التى يعــود فيها الى قومه داخل برميل ممتلىء بمزيج من الماء والدهن • وقبل أن يخطو داخل البرميل ، يتـــلو والده أو أقرب قريب له بعد الأب ، عبارة محددة يعتقد بعدها أنه قــد ارتد الى الحالة التى كان فيهــا جنينا فى رحم أمه • ولهذا فانه يتقمص شخصية الجنين ، فيجلس فى البرميل ساكنا قابضا يديه وتقام فوقـــه الشعائر التى تؤدى بانتظام للأم الحامل • وفى صباح اليوم التالى يخرج من خلف البرميل ثم يقوم بتأدية الشعائر التى سبق له أن أداهــــا منذ بلوغه مرحلة الشباب حتى ذلك الوقت ، وبصفة خاصة الاحتفـال فى قدسية بزواجه من امرأة جديدة ، أو من امرأته القديمة • ويبدو أن هذه العـــادة لم تختف كلية فى الهند حتى يومنا هـــذا • أما عند

« الكوماويين » ، فان الشخص الذى يعتقد فى أنه يلفظ أنفاسه الاخيرة ، يحمل خارج بيته لكى يؤدى له أقرب قريب له شعائر التطهير من الذنوب. فاذا شفى بعد ذلك ، فانه يتحتم عليه أن يقوم بكل الطقوس التى سبق أن قام بها منذ ولادته حتى ذلك اليوم ، كأن يرتدى الخيط المقدس ويتزوج النساء ، أو يعود فيتزوج زوجاته مرة أخرى ·

على أن شعائر الميلاد الجديد كانت تؤدى فى الهند قديما فى غرض آخر مختلف عن الغرض الأول وأكثر منه قدسية · فرب الأسرة البراهمانى الذى كان يقوم بتقديم الضحية بانتظام كل خمسة عشر يوما ، كان يعتقد فى أنه أصبح الها لوقت محدد · ولكى يتم تحويله من انسان الى اله ، ومن الفناء الى الخلود ، كان من الضرورى له أن يولد من جديد · وفى هذه الحالة يرش بالماء ، وهو عمل رمزى يشير الى الذرية · ثم يصطنع بعد ذلك أنه أصبح جنينا ، وذلك بأن يحبس نفسه داخل كوخ خاص يمثل رحم المرأة · ثم يرتدى حزاما تحت ردائه ، كما يرتدى فوق الرداء جلد بقرة وحشية سوداء · والحزام يرمز الى الحبل السرى ، كما يرمز الرداء وجلد البقرة الوحشية الى كل من الغشائين الداخلى والخارجى اللذين يغلفان الرحم · وعند ذاك يجب عليه أن يحرص على ألا يخدش نفسه بمسمار أو عصاة والا مات بوصفه جنينا · ولكنه يجوز له أن يتحرك داخل الكوخ ، حيث ان الجنين يتحرك داخل الرحم ، كما يجوز له أن يقبض على يديه حيث ان الجنين يفعل ذلك أيضا · فاذا استحم وخلع عنه الجلد الأسود وارتدى رداءه الخارجى بعد ذلك ، فذلك لأن الطفل يولد بالغشاء الداخلى لا الخارجى · وبهذا يكتسب البراهمانى من خلال هذه الشعائر جسدا جديدا متألقا ذا قوة خارقة ، الى جانب جسده الطبيعى الفانى ، كما يحاط بهالة من النار ، وبهذا يصبح الها من خلال عملية الميلاد الجديد ، ومن خلال تجديده لطبيعته الجسدية ·

وهكذا نرى أن شعائر الميلاد الجديد يمكن أن تخدم أغراضا مختلفة ، فهى تعيد الحياة الى الشخص الذى كان يظن أنه مات ، وهى ترفع الرجل الحى الى مرتبة الألوهية · وقد كانت هذه العادة تتبع فى الهند حديثا ، بل انها لا تزال تتبع حقا الى اليوم بين الحين والآخر ، بوصفها طقسا تطهيريا يكفر عن اهمال الناس لعادة من عادات الأجداد · وبهذا يتضح حبل التفكير الذى أدى الى ممارسة هذه العادة « فالمذنب الذى تقام له شعائر الميلاد الجديد يصبح رجلا جديدا ، ومن ثم فهو يكف عن أن يكون مسئولا عن ذنوبه التى ارتكبها قبل هذا الميلاد ، فعملية التجدد تعد فى الوقت نفسه عملية تطهير ، اذ أن مثل هذا الشخص قد خلع عنه طبيعته

القديمة واكتسب طبيعة أخرى جديدة • فالمجتمع القبلى فى قبيلة « كوركو » ، وهى احدى القبائل الاصلية فى المجموعة الكولاريانية أو « الموندانية » التى تسكن الاقاليم الوسطى فى الهند ، يعاقب من يرتكب جرما اجتماعيا مألوفا بالعقوبات العادية • ولكنه « فى بعض الأحوال الخطيرة مثل مخالطة الشخص للنبذة الأدنى منه ، فانه يتحتم على مثل هذا الشخص أن يقوم بشعائر الميلاد الجديد ، فيوضع داخل وعاء كبير مصنوع من الطين ويغلق دونه الوعاء • وعندما يخرج منه يقال انه قد ولد من جديد من رحم أمه • وعند ذاك يدفن فى الرمل ويخرج منه جسدا جديدا من التراب • ثم يوضع داخل كوخ مبنى من الأعشاب وتشعل النار فى هذا الكوخ فيجرى هاربا من النار ويغطس فى الماء ، وأخيرا يقص جزءا من خصلة من شعره التى تنمو على رأسه الحليق ، ويدفع غرامة ، قدرها روبيتان ونصف روبية » • وهنا يتضح أن شعائر الميلاد الجديد يقصد بها تخليص الشخص من تحمل مسئولية أعماله السابقة ، وذلك عن طريق تحويله كلية الى شخص جديد • ولكن ما ذنب تحمله لاساءة ارتكبها شخص آخر قبل أن يولد هو ؟ •

ويكون احتفال الميلاد الجديد أكثر دقة وأكثر تكلفة اذا كان المذنب الذى يراد القيام بالاحتفال من أجله ذا حسب أو صاحب مجد • ففى القرن الثامن عشر « حدث أن أرسل « راجهو ــ ناث ــ رايا » أو « راجوبا » اثنين من البراهمة بوصفهما رسولين له الى انجلترا ، فسافرا اليها عن طريق قناة السويس • ولكنهما عند عودتهما رجعا عن طريق بلاد الفرس وعبرا بطبيعة الحال نهر الهندوس • وعند عودتهما الى وطنهما عوملا معاملة المطرودين ، وذلك لأنهما سافرا عبر بلاد يسكنها « الميليشهانيون » أى القبائل النجسة ، وعاشا بينهم متبعين الشرائح الموضوعة فى كتبهم المقدسة • كما نسب اليهما كذلك أنهما عبرا بحر « أتاكا » • وعند ذاك عقدت الاجتماعات وتوافد البراهمة العلماء من كل حدب ، ولم يستطع « راجهو ــ ناثا ــ رايا » بنفوذه وتأثيره أن ينقذ رسوليه من هذه التهمة• وعلى كل فقد انتهى الاجتماع الموقر الى أن يقوم الرسولان بشعائر تجديد جسديهما ووسامتهما الكهنوتية معا ، وذلك اعتبارا لسلوكهما الكريم السالف الذى رفع بهما الى مستوى عالمى ، ونظرا للمهمة السامية التى قاما بها فى البلاد النائية من أجل مصلحة بلديهما • ولهذا الغرض طلب منهما أن يصنعا تمثالا من الذهب لاحدى القوى الطبيعية الأنثوية فى شكل امرأة أو بقرة • ثم يدخل كل منهما داخل هذا التمثال ثم يسحب من فتحة منه • واذا كان تكاليف هذا التمثال بأبعاده المحددة تعد باهظة ، فيكفى

أن يصنعا تمثالا للآلهة «يونى» المقدسة يمر من خلاله الشخص المعنى . ولكن «راجو ـ ناث ـ رايا» صنع لهما تمثالا من الذهب الخالص تمت بواسطته عملية الميلاد الجديد ، كما أجريت الشعائر الأخرى ، ومنح البراهمانيان الهدايا المتعددة لقبولهما مرة أخرى فى مجتمع المؤمنين الصادقين» .

« كما روى أن « تانجورى ناياكار » خدع « مادورا » وعانى المتاعب بسبب ذلك . فنصحه مستشاروه البرهمانيون أنه من الأفضل أن يولد من جديد . وعند ذاك صنعت له بقرة ضخمة من البرونز ، ودخل « ناياكار » فى تجويفها وأغلقت عليه . ثم استقبلته زوجة معلمة البراهمانى التى كانت تقوم بخدمته ، بين ذراعيها وأجلسته على ركبتيها وضمته الى صدرها ، بينما أخذ « ناياكار » يصرخ صراخ الطفل الرضيع » .

كما كانت تستخدم طقوس الميلاد الجديد فى الهند بهدف رفع رجل ينتمى الى بيئة وضيعة بحكم مولده الى مرتبة اجتماعية أعلى منها ، فمهراجيو «ترافنكورى» على سبيل المثال ، ينتمون الى طبقة «السودرا» ، وهى أدنى الطبقات الهندية الأربع . ولكنه يبدو أنهم يرفعون أنفسهم على الدوام الى طبقة البراهمانيين وهى أرفع هذه الطبقات ، وذلك عن طريق اجراء طقوس الميلاد الجديد من بقرة كبيرة مصنوعة من الذهب ، أو من زهرة لوتس كبيرة مصنوعة من الذهب كذلك . ومن ثم كان يسمى هذا الاحتفال « هيرانيا جاريهام » أى « الرحم الذهبى » ، أو « باتماجاربها دانام » أى « هدية رحم اللوتس » . وذلك وفقا للشكل الذى يولد منه المهراجا ، بقرة كان أم زهرة اللوتس . فعندما كان « جيمس فوربيس » فى « ترافانكورى » أبصر الحاكم وهو يخرج من تجويف بقرة مصنوعة من الذهب الخالص . ثم حطم التمثال الذهبى بعد ذلك ووزع على البراهمانيين. وعندما أقام «الراجا مارتاندا فورماه» هذا الاحتفال عام ١٨٥٤م ، كان التمثال الذى أجريت من خلال الطقوس هو زهرة اللوتس. وقد قدر ثمنه بحوالى ستة آلاف من الدولارات . وقد وضع داخل هذا التمثال قدر من المزيج المقدس الذى يتكون من العناصر الخمسة التى تكون محتوى جسم البقرة وهى « اللبن والزبد وشرش اللبن والبول والروث » مما يشير الى أن المهراجا قد ولد من جديد من بقرة مقدسة ، وليس من زهرة اللوتس المقدسة . وبعد أن دخل جلالته داخل تجويف التمثال ، مكث بداخله الوقت الذى حدد له ، بينما أخذ الكهنة الذين كلفوا بتأدية الشعائر يصلون مرارا الصلوات المناسبة لذلك .

ويمكننا أن نستدل من هذا الاحتفال الأخير على أن المهراجات قد

تحولوا منذعام ١٨٥٤م الى الشكل الثانى لشعائر الميلاد الجديد ، وهو الشكل الذى ربما كان أكثر قدسية من الشكل الأول ، ونعنى بذلك الميلاد من البقرة . ففى عام ١٨٦٩ م أعلن أن «احتفالا آخر ليس أقل غرابة من الاحتفال الأول يسمى « ارنجاجهربوم » سيقام فى العام القادم ، حيث يمر جلالته (أى المهراجا حاكم ترافانكورى) من خلال بقرة ذهبية تصبح فيما بعد ملكا للكهنة » . ومرة أخرى نقرأ أن المهراجا حاكم « ترافانكورى » ، وهى مقاطعة أهلية تقع فى أقصى جنوب الهند ، قد فرغ منذ حين من اجراء الاحتفال النفيس الثانى والأخير الذى يعرف باسم « المرور خلال البقرة الذهبية »، ذلك الاحتفال الذى كان يتحتم على المهراجا أن يقوم به لكى يقف على قدم المساواة فى قليل أو كثير مع البرهمانى ، حيث ان المهراجا يرجع فى أصله الى طبقة « سودرا » . ويعرف الاحتفال الأول من هذين الاحتفالين باسم « ثولا بورشا » . وكلمة « ثولا » باللغة السنسكريتية تعنى الميزان ، كما ان كلمة « بورشا » تعنى الرجل ، وكلمة « دانام » تعنى « منحة ذات طابع دينى » . ويتمثل هذا الاحتفال فى دخول المهراجا فى مكان ما ليقف على كفة الميزان ، فيوزن مقابل عملات ذهبية توزع فيما بعد على البراهمة . أما الاحتفال الثانى فيعرف باسم « هيرانيا جاربهام » . وتعنى كلمة « هيرانيا » السنسكريتية الذهب ، كما تعنى كلمة « جاربهام » الرحم . وجوهر هذا الاحتفال هو المرور خلال بقرة ذهبية . وهذه البقرة عبارة عن وعاء مصنوع من الذهب ، ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ومحيطه ثمانية أقدام . ويملأ هذا الوعاء حتى نصفه بمزيج يتكون من العناصر التى تتكون منها البقرة ، وعلى هذا المزيج يقوم البراهمة باجراء الطقوس المشروعة . ثم يصعد المهراجا الى قمة الوعاء عن طريق سلم مزين مصنوع لهذا الغرض ثم يغلق عليه الوعاء من أعلى . ثم يغطس المهراجا خمس مرات فى السائل الذى بداخل الوعاء ، بينما يتلو البراهمانيون تعاويذهم وأناشيد الفيدا . ويستمر هذا الاجراء مدة عشر دقائق يخرج بعدها المهراجا من الوعاء وينبطح أمام تمثال اله ملوك « ترافانكورى » . وعند ذلك يأتى الكاهن الكبير ويضع تاج «ترافانكورى» على رأس المهراجا الذى أصبح مقدسا بعد أن مر خلال البقرة الذهبية . والاحتفال الأول الذى يوزن فيه المهراجا بالذهب يجعله ملائما لأن يقوم بالاحتفال الثانى الذى يعد أكثر تبجيلا وأكثر تكلفة من الاحتفال الأول ، وهو مروره داخل تجويف البقرة الذهبية . وتكاليف هذه الاحتفالات باهظة ، ففضلا على قيمة الذهب الذى تصنع منه البقرة ، فانه ينفق الكثير من المال على اطعام حشد البراهمة الهائل الذين يجتمعون فى «تريفاندروم»

بهذه المناسبة . ويقوم مهراجيو «ترافانكورى» بهذا الاحتفال منذ زمن بعيد لا يذكر على وجه التحديد . ويعد أى اهمال من جانبهم لهذا الاحتفال اساءة لتراث البلد ، الأمر الذى يتطير به الهندوكيون كل التطير» .

على أنه لو اقتصر هذا الاحتفال على هؤلاء القادرين على دفع نفقات البقرة الهائلة المصنوعة من الذهب ، لانحصرت فكرة التجديد فى طائفة محدودة هى طائفة الأغنياء ، ولحلت بهؤلاء وحدهم البركة عن طريق دخولهم فى تجويف البقرة . ولكن البقرة الحية حلت ، لحسن الحظ ، محل البقرة الذهبية فى شعائر الميلاد الجديد . وبذلك أصبح فى استطاعة الفقير والوضيع أن يقوما بهذه الشعائر ، وبذلك فتحت أبواب الجنة لحشد هائل من الناس ، ولولا ذلك لظلت مغلقة دونهم . حقا انه يمكننا أن نفترض بشىء من الثقة ، أن الميلاد الجديد عن طريق البقرة الحية ، كان هو الشكل الأول لهذا الاحتفال ، وأن استبدال البقرة الحية ببقرة مصنوعة من الذهب، لم يكن سوى استرضاء لكبرياء الراجاه وغيره من كبار رجال القوم الذين ربما حسبوها وصمة فى جبينهم لأن يولدوا كسائر أفراد الشعب من البقرة الحية . ومهما يكن الأمر ، فانه من المؤكد أن البقرة الحية لا تزال تستخدم فى بعض جهات الهند فى اقامة شعائر الميلاد الجديد . ففى الأقاليم الشمالية الغربية من أحياء الهملايا «يؤدى احتفال الميلاد من فم البقرة عندما يتنبأ الطالع لأحد الأهالى بحدوث جريمة من جانبه أو بحدوث كارثه مفجعة له . وعند ذاك يأتى هذا الشخص ويلبس ملابس ذات لون قرمزى . ويربط فى غربال يمرر بين أرجل البقرة الخلفية حتى أرجلها الأمامية ومنها الى فمها ، ثم يمرر فى الاتجاه المضاد مشيرا بذلك الى عملية الميلاد الجديد . ثم يرش الطفل المصطنع بالماء المقدس ، ويتشمم الأب رائحة ابنه كما تفعل البقرة مع عجلها » . وهنا نلاحظ أنه لما كان من الصعب بالضرورة تمرير الطفل داخل البقرة الحية ، لم يبق سوى تمريره جيئة وذهابا بين أرجل البقرة . وبهذا يصبح الابن مطابقا لابن البقرة ، كما يقوم الأب بدور البقرة نفسها عن طريق تشممه لرائحة ابنه . ومثل هذا يحدث فى الهند الجنوبية عندما يطرد رجل من مجتمعه لسبب قهرى ، فانه يمكنه أن يعود اليه بعد أن يمر عدة مرات تحت بطن البقرة . وعلى الرغم من أن الكاتب الذى دون هذه العادة لم يذكر أنها احتفال بالميلاد الجديد ، فانه يحق لنا أن نعدها كذلك فى ضوء الشواهد السابقة . ومن المحتمل أن اعادة وضع طفل عثر الحظ فى سلة أمام بقرة حلوب يقف بجانبها ابنها ، والسماح للبقرة بأن تلعق الطفل ، يعد اجراء مبسطا للاحتفال الأصلى . « وبذلك تبرح الطفل الصفات الشريرة التى يولد بها عن طريق الوراثة» .

فاذا كان طقس الميلاد من بقرة يمكن أن يتخذ أشكالا مبسطة يصعب علينا تفهم مغزاها ، ما لم يكن لنا علم بتفاصيل الاحتفال الكامل ، فانه لا يبدو أنه من غير المحتمل أن تكونَ كذلك شعائر الميلاد من العنزة مثل تلك الشعائر التى تتبعها قبيلة « أكيكويو » عندما تربط يد الانسان الذى يولد من جديد بجلد هذا الحيوان صورة مصغرة لطقوس كاملة · ويتفق مع هذا الغرض أننا نجد قبيلة « أكيكويو » تؤدى هذه الشعيرة الأخيرة فى مناسبات مختلفة ، وهى بعينها تؤدى هذا الطقس كاملا فى مناسبات مقدسة .

أليس من الطبيعى بعد ذلك أن نفترض أن الشعوب اختصرت فى زحمة الحياة اليومية التى لم تكن تسمح بالقيام بهذا الاحتفال الشاق وبتفاصيله الدقيقة ، اختصرت هذا العلاج المتحكم فيهم ، الى شكل مبسط مريح يمكن اللجوء اليه دون أن تضطر الى تأجيل ضروريات الحياة الأقل شأنا من هذا الاحتفال ؟.

خاتمة :

فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها ، فاننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التى ارتكبها يعقوب مع أبيه اسحق ، تتضمن بقايا احتفال شرعي هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه ، أو يرغبون فى اتباعه عند ما يفضل الابن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى ما زال على قيد الحياة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه ، أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم ، اما نتيجة حظه العاثر أو بسبب سوء سلوكه · وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبريين كما بسط عند «الاكيكيو» ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى · فاذا كان افتراض هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وان كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه .

الفصل الرابع

يعقوب في بيت إيل

١ ــ حلم يعقوب : من الطبيعى أن تؤدى خديعة يعقوب لأخيه « عيسو » ، على نحو ما تصور فى حكاية الكتاب المقدس ، الى حدوث جفوة بين الأخوين . وقد تألم الأخ الأكبر نتيجة احساسه بخطأ لايحتمل، ودفعته طبيعته العاطفية لأن ينتقم من أخيه الأصغر الذى تمكن بحذقه أن يسلبه حقه فى الارث . أما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه ، كما شاركته أمه التى تواطأت معه فى جريمته ، مخاوفه . ومن ثم فقد استقر رأيها على أن تدع يعقوب يرحل الى مكان آمن ريثما يهدأ غضب أخيه ، الذى كان رغم غضبه ، متسامحا كريما . ورأت الام أن ترسل يعقوب الى خاله « لابان » فى « حران » . وقد أثار فى نفسها هذا القرار ذكرى موطنها الذى يقع فيما وراء النهر الكبير ، حينما زفت الى أسحق وهى فى أوج جمالها . وربما مست هذه الذكرى شغاف قلبها المادى القاسى على نحو ما . ولكم تذكرت فى متعة بالغة ، تلك الامسية البهيجة التى ترجلت فيها عن جملها لتقابل شخصا يمشى بخطى وئيدة بين الحقول ، ذلك الشخص الذى أصبح زوجها فيما بعد . والآن لقد أصبح هذا الشخص الذى كان مكتمل الرجولة ، كفيفا خرفا طريح الفراش . ولم تكن هذه الأم قد أبصرت وجهها من قبل الا فى تلك الأمسية التى

هيجت ذكراها ، عندما نظرت الى البئر ، فانعكست على صفحته صورة وجه مجعد وشعر أشعث ، ولم تكن هذه الصورة سوى شبح جمالها السالف وخياله . حسنا كم تمضي الأيام كانها البرق الخاطف ! ولكن ربما كان في عودة ابنها من وطنها مصطحبا زوجة شابة حسناء ترى فيها صورة شبابها الضائع ، سلوى لها عن نهب الأيام . هذه الأفكار ربما راودت الأم المعجبة بنفسها وهي تودع ابنها ، على الرغم من أنها لم تعبر له عن هذه المشاعر ، اذا كنا نعتمد على ماكتبه الكاتب اليهودي .

ورحل يعقوب متخذا طريقه من بلدة « بئر سبع » التي تقع عند مشارف الصحراء في أقصى جنوب بلاد الكنعانيين متجها الى الشمال مارا بالضرورة بمرتفعات أرض الميعاد الجرداء . واستمر في طريقه شمالا في طريق وعر شاق حتى وصل الى مكان ما والشمس أوشكت على الغروب . فقرر أن يبيت في هذا المكان ، اذ كان مجهدا وقد تقرحت قدماه من السير ، كما كان الظلام قدأوشك على مهاجمته . وقد كان هذا المكان منعزلا . فأخذ يصعده تدريجيا حتى بلغ قمته التي تعلو فوق سطح البحر ـ بمقدار ثلاث آلاف قدم . وكان الهواء حادا لافحا . فنظر من حوله ، فرأى ، حسبما أتاحت له الظلال المتساقطة ، قفارا تتناثر فيها الأحجار والصخور الرمادية التي كانت تتراكم في بعض الاحيان مكونة شكل اعمدة غريبة ، ونصبا تذكارية وأضرحة ، بينما كان يلوح على البعد تل قفر معتم تراءت جوانبه في شكل شرفات حجرية بعضها فوق بعض . لقد كان منظرا موحشا لا يغري المسافر بأن يجيل النظر فيه طويلا . وعند ذاك جلس يعقوب وقد أحاطت به الصخور الضخمة من كل جانب ، ثم وضع رأسه على احدى هذه الصخور كأنها وسادة ، وراح في نوم عميق . فرأى في منامه كأنه يبصر سلما يصل ما بين الأرض والسماء ، وكانت الملائكة تتحرك عليه صاعدة هابطة . ثم أبصر الرب يقف بجانبه ويعده بأن الارض التي تحيط به جميعا ستصبح له ولذريته من بعده . عند ذاك استيقظ من نومه مذعورا وهو يقول : «حقا ان الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم . وخاف وقال : ما أرهب هذا المكان . ما هذا الا بيت الله وهذا باب السماء »(١) . وظل يعقوب راقدا وهو يرتجف حتى أشرف الصباح على ذلك المكان المنعزل ، وقد كشف مرة أخرى عن المنظر المتجهم لتلك القفار الصخرية والصخور الرمادية التي كان بصره قد وقع عليها بالأمس . ثم هب يعقوب واقفا

---

(١) سفر التكوين . الاصحاح الثامن والعشرون آية ١٦ ، ١٧ .

واخذ الحجر الذى يسند عليه رأسه ونصبه فى هيئـة عمـود ، وصب عليه الزيت ، وأطلق على هذا المكان اسم « بيت أيل » أى بيت الرب .
ونحن نفترض انه على الرغم من هول الرؤيا التى رآها يعقـوب ، فقـد استأنف رحلته فى ذلك اليوم بروح عاليـة بسبب الوعد الذى وعده به الرب . بل ان المنظر الطبيعى نفسه تغير فى أثناء سيره وبدأ يأخذ مظهرا أكثر بهجة وانشراحا منسجما فى ذلك مع آماله الجديدة التى يمتلىء بها صدره . وترك يعقوب وراءه مرتفعات بنيامين الجرداء وهبط الى أرض « افرايم » المنخفضة الخصبة . واستغرق سيره أربع سـاعات الى أن هبط الى الوهدة الجميلة حيث تبدو جوانب التلال متدرجة حتى القمة ، وحيث تنمو أشجار الزيتون والتين وأشـجار السرخس التى تكسـو الصخور البيضاء ، وحيث يزين أطرافها نبات الزعفران ونبات بخـور مريم الابيض والبنى ، بينما كان طائر النقار وأبو زريق والبوم الصـغير يضحك أو ينقر أو يصفر بين فروع الاشجار ، كل حسب طبيعة صوته . وعند ذاك شق يعقوب طريقه بقلب مفعم بالأمل الى البلد البعيد .

٢ ـ الأحلام التى تتمثل فيها الآلهة :

ان حكاية حلم يعقـوب قد حكيت فيما يبدو ، وكما لاحظ النقاد ذلك ، لكى تفسر قدسية «بيت ايل» ، ذلك المكان البالغ فى القدم الذى ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون ، قبل أن يغزوها العبريون ويستقروا فيها بزمن طويل . والاعتقاد فى أن الآلهـة تتمثل للانسـان فى رؤياه وتكشف له عن ارادتها ، اعتقـاد كان ينتشر فى الزمن القـديم . ووفقا لهذا الاعتقاد كان الناس يلوذون بالمعابد والأماكن المقدسة الأخرى وينامون هناك حتى تظهر لهم القوى العلوية فى رؤياهم وتتحدث معهم ، اذ كان من الطبيعى أن يعتقدوا ان الآلهـة أو أرواح الأشـخاص المؤلهين أكثر ما تتمثل لهم فى تلك الأماكن المخصصـة لعبادتهـا . فقـد كان فى « أوروبوس » على سبيل المثال ، تلك المدينة التى كانت تقع فى «اتيكا» ، محراب للعراف الذى كان يدعى «أمفياراوس» ، حيث تعود المستفسرون عن مسائل تخصهم ، أن يذبحـوا الكباش ضحية له وللاشخاص المؤلهين الآخرين ، الذين كانت قد نقشت أسماؤهم فى المحراب . وبعد ذلك كان يفترش هؤلاء جلود الكباش وينامون عليها ، وهم يتوقعون أن يتمثل لهم هؤلاء الأشخاص فى رؤياهم . ويبدو أن أمكنة النبوءة هذه كان يزورها أساسا وبصفة دائمة المرضى الذين كانوا يبحثـون عن وسـيلة لتخفيف

آلامهم . فاذا توصلوا الى هذه الوسيلة من خلال رؤياهم التى يرونهـا فى تلك الأماكن المقدسة ، فانهم يعبرون عن شكرهم برمى قطع من النقود الذهبية أو الفضية فى النبع المقدس لهذا المكان . فقد أخبرنا « ليفى » أن معبد « أمغياراوس » القـديم كان يقع فى مكان جميل بين الينابيع والجداول . وقد تأكد هذا عن طريق استكشاف هـذا المكان فى العصر الحديث . فهذا المكان عبارة عن وهدة صغيرة جميلة ليست بالمتسعة أو العميقة ، تقع بين تلال منخفضة تكسـوها أشـجار الصـنوبر فى بعض أجزائها . ويجرى فى هذه الوهدة جدول صغير يشق طريقه بين شواطىء تنمو على حافتها أشجار الدفل والدلب لمسافة ميل حيث يصل الجدول فى البحر . وعلى البعد تحول جبال « أوبونيا » الشاهقة الزرقاء دون امتداد المنظر فيما وراءها . ولقـد كانت مجموعات الأشجار والشجيرات التى تتـكاثر عند جوانب الوهدة وتغرد عليهـا الطيـور ، وتلك المروج الخضراء الممتدة عند أسفلها ثم هذا السكون وتلك العزلة ، بالاضافة الى أشعة الشمس المتوهجة فى هـذا المكان المغلق ، كان كل ذلك ملائما لأن يجعل المكان ملاذا للمرضى الذين كانوا يتوافدون عليه ليلتمسوا النصيحة من اله الشفاء . حقا ان هذا المكان مغلق للغاية ، الى درجة أن الحرارة التى تشع فيه من شمس بلاد اليـونان التى تخلو سماؤها فى مثل هدا الوقت من السحب ، بالاضـافة الى خلو الوهدة من الهـواء ، لم يكن يتحملها الزائر القادم من بلاد الشمال . أما بالنسبة للمواطن اليونانى ، فهو مكان مناسب له فيما يبدو . ومن المؤكد أن مكان النبوءة هـذا لم يكن يفتح أبوابه للزائرين الا فى أشهر الصيف ، ذلك لأن الكاهن كان ملزما بأن يكون موجودا بهـذا المكان مدة عشرة أيام على الأقل من كل شهر ، ابتداء من نهاية الشتاء حتى يبدأ موسم الحرث الذى يتفق مع ظهـور نجوم الثريا . وفى هذه الفترة لم يكن يسمح للكاهن أن يتغيب أكثر من ثلاثة أيام دفعة واحـدة . وكان على المريض الذى يجىء لهـذا المكان يلتمس النصيحة من الاله ، أن يقوم قبل كل شىء بدفع رسم قدره تسع أوبولات على الأقل (أى ما يساوى شلنا على وجه التقريب) من الفضة الخالصة لخزينة المعبد فى حضرة حافظ غرفة المقدسـات ، الذى يقـوم بتدوين اسم هذا الشخص . واسم بلده فى السـجل العـام . فاذا كان الكاهن موجودا ، فان من واجبه أن يصلى فوق الحيوان الذى قدم ضحية وأن يضـع لحمه فوق المذبح . أما اذا كان الـكاهن متغيبا ، ففى وسع الشخص الذى قام بتقديم الضحية أن يؤدى هـذه الشعائر بنفسـه . ويحصل الكاهن على جلد كل حيوان يقدم ضحية كما يحصل على كتف من كتفيه ، بوصفهما منحة له ، ولكنه لا يسمح بأن ينقـل أى جزء من

لحم الحيوان خارج هذا المكان . فاذا قام الشخص بهذه الاجراءات يسمح له بعد ذلك بالمبيت بهذا المكان حتى يستقبل النبوءة . وفى المهجع ينام الرجال والنساء منفصلين بحيث يفصل بينهما المذبح . وترقد النساء جهة الشرق فى حين يرقد الرجال جهة الغرب .

وقد كان هناك مهجع شبيه بالمهجع السابق كان مخصصا للمرضى الذين كانوا يأتون الى معبد « أسكولابيوس » الكبير الذى كان يقع بالقرب من « ابيداوروس » . وقد اكتشفت فى العصر الحديث آثار هذا المعبد التى تنتشر فى مساحة كبيرة ، وهى تكون معا احدى الآثار الرائعة التى تشهد على حضارة الاغريق . وتقع آثار هذا المعبد فى واد مفتوح جميل تحيط به المرتفعات الشاهقة التى تبرز جهة الشمال الغربى فى شكل قمم ناتئة من الصخور الجرداء ذات اللون الرمادى ، فى حين تبدو وجهة الشرق والجنوب فى شكل تخوم مستوية بعض الشىء وفى شكل منحدرات مخضرة . وتنتشر زراعة الذرة فى فصل الربيع فى أكثر أمكنة هذا الوادى انخفاضا التى تتخللها مجموعات الأشجار والشجيرات . والأثر العام الذى يتركه هذا المكان فى النفس هو الاحساس بالسكون والرهبة ، ونوع من العزلة المحببة الى النفس ، وذلك لبعده عن المدن . وهناك وهدة متطرفة ذات جو رومانسى تغطيها الغابات الكثيفة ، تقود الطريق الى آثار « ابيداوروس » القديمة التى تقع فى موقع جميل فوق نتوءات صخرية تطل على البحر عبر سهل تغطيه حدائق الليمون وتحيط بها جبال عالية تكسوها الغابات . وقد تعود المرضى الذين سبق لهم أن ناموا فى معبد « أيسكولابيوس » فى « ابيداوروس » ، وشفوا من وهنهم عن طريق الكشف الذى ظهر لهم فى أحلامهم ، تعودوا أن يدونوا ذكرى هذا الشفاء على ألواح كانت توضع فى المكان المقدس بوصفها شاهدا ناطقا على قوة الاله القادر على الشفاء ، وتقديرا لهؤلاء الذين وضعوا ثقتهم فيه . وقد كان هذا المكان المقدس يزدحم فى العصر القديم بهذه الالواح التى اكتشف بعضها فى العصر الحديث . وقد أضفت هذه الكتابات سحرا عجيبا على هذا المكان الذى يشبه الى حد ما مستشفيات العصر الحديث .

ففى هذه الألواح نقرأ ، على سبيل المثال ، كيف ان رجلا كانت قد شلت أصابعه جميعا عدا اصبعا واحدا ، جاء لهذا المكان ليتضرع للاله ليشفيه . فلما وقع بصره على الألواح الموضوعة داخل المعبد وقرأ أخبار الشفاء العجيبة المدونة عليها ، بدأ الشك يساوره . على أنه نام فى مهجع المعبد ، فرأى فى منامه كأنه يلعب النرد فى المعبد . وبينما كان يرمى

الزهر ظهر له الاله ووضع يده على يد هذا الشخص وبسط له أصابعه اصبعا بعد الآخر ثم سأله ما اذا كان لا يزال يشك فى الكتابات المدونة على ألواح هذا المعبد . فأجاب الرجل بأنه حقا لم يعد يشك فيها . عند ذاك قال له الاله : « ولكن لأنك قد شككت فيها من قبل ، فانك ستدعى باسم الكافر من الآن فصاعدا . ثم برح الرجل فى صباح اليوم التالى المعبد وقد برىء من سقمه . ومرة أخرى زارت هذا المكان امرأة أثينية عوراء تدعى « أمبروزيا » لتلتمس النصيحة من الاله فى مرضها . وبينما كانت تسير فى أرجاء المعبد ، قرأت أخبار الشفاء المدونة على ألواح المعبد وسخرت من بعضها اذ وجدتها مستحيلة بعيدة عن العقل ، وقالت لنفسها : « كيف يمكن للاعرج أن يصبح سليم الساقين ، وللأعمى أن يسترد بصره لمجرد رؤيتهما لرؤيا ؟ » ثم نامت فى المهجع وهى على هذا النحو من الشك ورأت رؤيا فى منامها ، بدا فيها الاله يقف بجانبها ووعدها بأنها سوف تسترد بصر عينها المفقودة ، على شرط أن تقدم للمعبد خنزيرا من الفضة كذكرى لكفرها البالغ . وبعد أن وعدت الاله أن تفى بذلك ، فتح الاله عينها وصب فيها البلسم ، فرجعت فى اليوم التالى الى بيتها وقد ارتد اليها بصرها . ومرة أخرى جاء الى هذا المكان رجل من فيساليا يدعى « بانداروس » على أمل أن يتخلص من الحرف « A » (١) القرمزى اللون الذى وشم على جبينه . فرأى فى منامه كأن الاله يقف بجانبه وهو يربط جبينه برباط وأمره أن يهدى المعبد هذا الوشاح عندما يعود الى بيته فى اليوم التالى . فلما استيقظ «بانداروس» فى اليوم التالى ورفع الرباط عن جبينه ، ورأى أن الحرف « A » المشين قد زال من جبينه وانطبع فى الرباط . فوهب الرباط الى المعبد ورحل . ثم توقف فى أثناء سيره فى أثينا ، وأرسل خادمه « اخيدورروس » الى « ابيداوروس » بمبلغ من المال ليقدمه منحة الى المعبد . ولكن «اخيدورروس» الذى كان له مثل هذه العلامة على جبينه لم يقدم النقود لخزانة المعبد ، وانما احتفظ بها لنفسه . ثم نام فى المهجع وهو يأمل أن يتخلص من هذه العلامة كما تخلص منها سيده . فرأى فى منامه كأن الاله يقف بجانبه ويسأله عما اذا كان قد أخذ من « بانداروس » نقودا ليسلمها الى المعبد . ولكن الخادم أنكر أنه قد تسلم أى شىء من سيده ، ووعد الاله أن يرسم صورة لنفسه ويهبها للاله ، اذا ما أزال عنه هذه العلامة . وعند ذاك طلب منه الاله أن يأخذ رباط سيده ويربط به جبينه ، ثم يخلعه فى اليوم التالى عندما يغادر مهجعه ، ثم يغسل وجهه

(١) حرف كان يوشم به من يتهم بجريمة الزنا . (المترجمة)

فى النبع وينظر فى صفحة المياه . ففعل الخادم ذلك . ولكنه عندما كان ينظر بشغف الى الرباط متوقعا أن تكون العلامة قد طبعت عليه ، اذ به يجد أن الرباط لم ترتسم عليه أية علامة . فأسرع الى النبع ونظر الى وجهه على صفحة الماء فوجد أن علامة «بانداروس» قد طبعت على جبينه الى جانب علامته .

وقد كان هناك كذلك معبد مقدس مخصص للنبوءة يقع عند شاطىء « لاكونيا » الموحش الصخرى ، حيث تهبط سلسلة جبال «تايجيتوس» فى شكل صخور جرداء الى البحر . وفى هذا المعبد كانت الهة تكشف عن رغباتها الى الناس فى أحلامهم . وقد اختلفت الآراء فيمن تكون الالهة هذه . أما الرحالة الاغريقى « باوسانياس » الذى زار هذا المكان ، فقد أعتقد ان هذه الالهة هى « أنو » الهة البحر . ولكنه أقر انه لم يتمكن من رؤية تمثال لها فى هذا المعبد ، حيث أن المعبد كان ممتلئا عن آخره بأكاليل الزهر التى كان يقدمها فيما يبدو المتعبدون تعبيرا عن شكرهم لظهور الآلهة لهم فى رؤياهم . ومما يؤيد ان الالهة « اينو » هى صاحبة هذا الضريح ، قربه من البحر الذى كانت تصطخب أمواجه بالقرب منه . على أن البعض الآخر كان يرى أنها « باسيفاى » الهة القمر . وقد كان هؤلاء يؤكدون رأيهم هذا ، بأن الناس كانوا ينظرون الى القمر الفضى فى السماء قبل أن يأووا الى مضجعهم ثم ينظرون الى صفحة الماء ليروا انعكاس أشعة القمر الفضية عليه . ومهما تكن هذه الالهة ، فان كبار قضاة اسبرطة كانوا يترددون على هذا المكان التماسا للنصيحة الالهية من خلال رؤياهم . وقد قيل ان أحدهم قد رأى رؤيا أنذرته بحدوث كارثة تحل باسبرطة ، وقد حدثت هذه الكارثة المشهورة فى تاريخ اسبرطة .

وقد كان فى ايطاليا قديما مثلما كان فى بلاد الاغريق ، أمكنة للنبوءة كان يلجأ اليها من يريد أن يلتمس النصيحة أو يبحث عن السلوى من الآلهة أو القديسين عن طريق الأحلام . فقد كان العراف « كالشاش » ، يعبد فى معبد « دريبوم » فى « أبوليا » ، وكان كل من يذهب الى هذا المكان يلتمس النصيحة ، كان يذبح كبشا وينام على جلده . وكان هناك مكان مقدس آخر فى ايطاليا مخصص للنبوءة هو معبد « فاونوس » ، وكان الناس يتبعون الطريقة السابقة فى التماس النصيحة عنده . فاذا ذبح الشخص كبشا ونام على جلده فانه يستقبل الرد عن سؤاله فى رؤياه . فاذا تصورنا أن هذا المكان المقدس الأخير كان يقع وسط غابة مقدسة كانت تقع بدورها بالقرب من شلالات

« تيبور » ، حيث ان هناك من الأسباب ما يدعونا لهذا التصور ، فربما كان ظل الأشجار الرهيب وخرير المياه المتلاطمة يملآن نفس الحاج بالرهبة كما كانت تختلط بأحلامه . وربما كان المعبد الدائرى الذى ما زال يشرف على هذه الشلالات هو هذا المكان بعينه الذى كان الاله يهمس فى آذان النائمين الورعين ، كما كان يعتقد الناس .

٣ ـ سلم السماء :

لقد كان المكان الصخرى المنعزل بين التلال الجرداء الذى نام عنده يعقوب ورأى فى منامه أن الملائكة تهبط وتصعد على سلم يصل بين السماء والأرض ، يختلف كل الاختلاف عن أماكن النبوءة التى كانت تقع وسط الطبيعة الجميلة فى كل من بلاد الاغريق وايطاليا . والاعتقاد فى وجود مثل هذا السلم الذى تستخدمه الكائنات الالهية أو أرواح الموتى يصادفنا فى بقاع كثيرة من أنحاء العالم . فقد أخبرتنا « كنجلى » فى أثناء حديثها عن آلهة غرب افريقيا فقالت : « اننا نجد فى كل مجموعات الحكايات الشعبية الأهلية على وجه التقريب ، حكايات تروى عن زمن كانت فيه الآلهة أو الأرواح التى تسكن السماء على اتصال مباشر بالناس . وقد انقطعت هذه العلاقة بسبب اخطاء ارتكبها بعض الناس . فشعب « فرنادوبو » يحكى على سبيل المثال ، أنه فى زمن من الأزمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات على وجه الأرض ، حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذى يستخدمه الناس فى الحصول على ثمار جوز الهند من أعالى الشجر ، الا انه كان طويلا للغاية ، وعن طريق هذا السلم كانت الآلهة تصعد وتهبط لتشارك فى شئون الناس الدنيوية . ثم حدث أن تسلق ولد شقى هذا السلم حتى وصل الى ارتفاع شاهق عندما أبصرته أمه ، فصعدت فى اثره . فلما رأت الآلهة ذلك تملكها الخوف من تصورها أن الأولاد والنساء سوف يغزون السماء ، فأسقطت السلم . ومنذ ذلك الوقت ترك الجنس البشرى ليقاسى الحياة وحده» .

ويروى «الترود جانيون» الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » أنه فى الزمن القديم عندما كان الناس يعيشون جميعا معا فى مكان واحد ، كانت السماء ترتبط بالأرض عن طريق زحافة . وذات يوم ظهر شاب وسيم ينتسب الى أصل سماوى يدعى « الشمس » وفقا لقولهم ، وكان يركب جاموسة بيضاء . ووقع بصر هذا الشاب على فتاة تعمل فى حقل فأحبها ، وتزوجها وعاش معها فترة

من الزمن . وفى أثناء ذلك أخذ يعلم النـاس فلاحة الأرض كما أمدهم بقطعـان من الجـاموس . ثم حـدث ذات يوم أن الطفـل الذى ولد « للشمس » من زوجته ، سلك فى البيت سلوكا سـيئا ، الأمر الذى سبب ازعاجا للأب من قبل الجنس البشرى كله ، فعـاد الى السـماء عن طريق الزحافة . فلمـا حاولت الزوجة أن تصـعد على الزحـافة لتلحق به ، حطم الزحافة فهـوت بالمرأة على الأرض وتحـولت هى والزحافة الى حجر . ومن الممـكن رؤية المرأة والزحافة فى شـكل تل جيرى يقع غير بعيد من نهر « ويمبى » . وهـذا التل عبـارة عن حبل ملتف يسمى التل الزحافة . ومرة أخرى نقرأ فى الحكايات الترودجانية أن نباتا بعينه يسمى « الروطان المجدول » كان الناس يتسلقون عليـه ليصلوا الى السماء . وهذا النبات عبارة عن نبات متسلق شائك ينمو حول شجرة التين ، وفى كل عام يضيف لفيفة جديدة الى لفائفه . واذا شاء شخص أن يستخدم هذا النبات فعليـه أن يضرب نسـيجه المتين بهراوته حتى يوقظه من نومه . وعند ذلك يستيقظ النبات من سباته ويهتز ويأخذ بذرة من بذور الفـوفل ويسأل الانسـان عن مطلبه . فاذا طلب منه الشخص متوسلا أن يحمله الى السماء ، أرشده النبـات أن يتخذ له مقعدا اما على أشواكه أو على طرفه الأعلى ، وأن يحمل معـه سبعة أوعية مصنوعة من الخيزران ويملؤها بالمـاء لكى تحفظ توازنه بثقلها . ثم يأخذ النبات فى الصـعود وهو يتمايل يمنة ويسرى ، بينما يصب عليه المسافر بعض الماء فينتعش النبات ويسير فى خط مستقيم نحو السماء . فاذا وصل الى قبو السـماء اندفع من خلال فتحة فى قبة السماء وتشبث بشوكة فى أرض السماء ، وانتظر فى صبر ريثما يقضى المسافر أمره فى السماء ، ويرغب فى العودة الى الارض . وبهذه الوسيلة يصعد بطل الحكاية الشعبية الى الأجواء العليا ليحقق مأربا ، أيا كان هذا المأرب ، فاما أنه يسعى الى استرداد قرط مسروق ، واما أن يثير الزوابع والعـواصف فى قرية سـماوية ، أو أن يعيـد الحياة لرجـل مستعينا بحداد السماء .

ويحكى الباتاكيون سكان سومطرة أنه كان فى سالف الزمان فى وسط الأرض ، صخرة تصل قمتها الى عنان السماء . وعن طريق هذه الصخرة كان الناس المفضلون مثـل الأبطال والكهنـة يصـعدون الى السماء . وقد كانت تنمو فى السماء شجرة تين ضخمة تمتد جذورها حتى تلمس بالصخرة . وذات يوم قطع رجـل هـذه الشـجرة بدافع الغيظ ، أو أنه اجتث جذرها ، لأن زوجته التى كانت قد هبطت من

السماء ، عادت اليها وتركته وحيدا . ويعتقد « البتسيميساراكيون » سكان مدغشقر أن أرواح الموتى تصعد الى السماء عن طريق سلم من الفضة . وهذا السلم تستخدمه الأرواح السماوية فى تبليغ رسالات السماء الى الأرض .

على أن هناك سلالم حقيقية تختلف عن تلك السلالم المتخيلة ، ينصبها بعض الناس ليسهلوا عملية هبوط الآلهة والأرواح من السماء الى الارض . فأهالى «تيمورلاوت» و «بابار» وجزر «ليتى» التى تقع فى الأرخبيل الهندى يعبدون الشمس كل عام مع بداية موسم الأمطار ، بوصفها الاله الرئيسى الذكر الذى يخصب الأرض التى تعد بدورها الهة . ومن اجل هذا العمل الطيب ، يهبط الاله الى شجرة تين مقدسة . ولكى يسهل الناس له عملية الهبوط الى الأرض ، فانهم يضعون أسفل شجرة التين سلما يتكون من سبع درجات ، وقد حفر على حاجزيه شكلين لديكين . ربما كان الغرض منهما أن يعلنا بصياحهما من خلال بوقين ، وصول الاله . وعندما يقدم التوراد جانيون سكان سيليبس الوسطى التضحية للالهة عند بناء بيت جديد ، فانهم يضعون حزمتين من النباتات فى وضع منتصب ، تزينها سبعة أشرطة من قماش قطنى أبيض أو من قماش مصنوع من لحاء الشجر ، لتكون بمثابة سلالم يهبط عليها الالهة ليأخذوا أنصبتهم من الأرز والدخان والتنبول والنخيل التى يخصصها الناس لهم .

كما تصور الناس فى الزمن القديم والحديث أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم ، بل انهم كانوا يضعون سلالم مصغرة فى القبور لكى يسهلوا للأرواح عملية الصعود الى مكان البركة . ويكثر الحديث عن سلم فى كتابات أهرامات الجيزة ، وهى أقدم الكتابات المدونة فى العالم ، كان الملوك المصريون المتوفون يرتقون عليه الى السماء . بل انه قد عثر على سلالم فى قبور الفراعنة ، وربما كان الغرض منها مساعدة الأرواح عند الخروج من القبور ، وربما كان الغرض منها مساعدتهم على الصعود الى السماء ، كما كان يفعل الملوك المتوفون وفقا لاعتقاد الناس . وتحرص قبيلة « ماناجار » وهى قبيلة محاربة فى « نيباول » ، على وضع سلالم فى قبور موتاهم تمكنهم من الوصول الى مساكنهم فى السماء . « فهم يضعون كتلتين من الخشب يبلغ طول كل منها ثلاثة أقدام ، وكل كتلة توضع على جانب من جوانب القبر . أما الكتلة الأولى فهى مقسمة الى تسع درجات مكونة شكل سلم تصعد عليه أرواح الموتى الى السماء . أما كتلة الحجر الثانية فقد وضعت

لكى يحفر عليها كل من حضر الجنازة خطا عميقا دليلا على حضوره الجنازة . وعندما يخرج خال المتوفى من القبر بعد دفن الجثة ، فانه يودع المتوفى الوداع الأخير ويطلب منه أن يصعد الى السماء عن طريق السلم الذى يقف معدا له » . على أنهم يحرصون على سد الطريق بالأحراش الشوكية فى حالة اذا لم يشأ أن يكمل رحلته الى السماء و فضل أن يعود الى مأواه المألوف .

٤ ـ الحجر المقدس :

على الرغم من الجفاف والجدب اللذين يحيطان « ببيت ايل » ، فقد أصبح فى العصور المتأخرة أكثر الأماكن المقدسة شهرة فى عهد المملكة الشمالية . فهناك أقام « يربعام » عبادة أحد العجلين الذهبيين اللذين صنعهما ليكونا آلهة لبنى اسرائيل ، وهناك شيد معبدا وأنشأ للكاهن منصبا . وفى عصر النبى « عاموس » أصبح المعبد تحت الرعاية الملكية الخاصة كما كان يعد كنيسة ملكية . ومنذ ذلك الحين ازدحم المكان بالمتعبدين ، وتعددت المعابد ، كما روعيت الدقة فى اقامة الشعائر . وكان الناس يدفعون ضريبة العشر فى هذا المكان فى مقابل صيانة معابده . أما الأماكن المجاورة لهذا المكان فقد ازدحمت بمشاتى الأثرياء ومصايفهم الكثيرة الأنيقة . وقد كانت حكاية يعقوب وحلمه تحكى للمتعبدين فى هذا المكان على سبيل تأكيد قدسيته البالغة فى القدم ، عندما كان هذا المكان مهجورا بطبيعته ، ثم اكتسب على مر الزمن مظاهر البهاء والطهر . وطالما كان الناس يدفعون ضريبة العشر للكاهن، فانهم كانوا يعتقدون أنهم بذلك يوفون بالوعد الذى وعد به الرب يعقوب فى هذا المكان ، عندما استيقظ فزعا من نومه المضطرب ونذر بأن يقدم للرب العشر من كل شيء يمنحه اياه . كما ان الاعتقاد ساد فى أن الصخرة المنتصبة أو العمود هى بعينهما التى وضع عليها يعقوب رأسه المجهد بعد تجواله فى تلك الليلة الخالدة ، وهى بعينها التى نصبها فى صباح اليوم التالى ذكرى لرؤياه . ذلك أن مثل هذه الأحجار المقدسة أو الأعمدة الصخرية كانت تعد فى العادة معابد مقدسة عند الكنعانيين والعبريين فى الزمن القديم . وكثيرا منها قد اكتشفه الباحثون الأثريون فى أماكنه الأصلية ، هؤلاء الذين أزاحوا الستار عن هذه « الأماكن العالية » (المعابد) فى العصر الحديث . بل انه يبدو أن النبى «هوشع» كان يرى ضرورة وضع حجر منتصب أو عمود ليكون ملحقا ، لا غنى عنه ، لأى مكان مقدس يخصص لعبادة يهوه . ولم يحكم الاسرائيليون

على هذه الآثار الحجرية البسيطة بوصفها بقايا عبادات وثنية ، ودعوا الى هدمها ومنعوا تشييدها ، الا فى عصور متأخرة ، وذلك بدافع تطور جوهر ديانتهم . وقد كانوا يعتقدون فى الأصل ان الرب كان يسكن حقا فى هذه الأحجار ، وكان احساسهم بالرهبة من سكنى الرب لهذه الأحجار هو الذى يخلع عليها قدسيتها ، ومن ثم فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذى نصبه فى «بيت ايل» ينبغى أن يكون بيت الرب .

وفكرة أن الحجر يسكنه الرب أو اية قوة روحية اخرى لم تكن غريبة على الاسرائيليين القدماء ، بل كان يشاركهم فيها كثير من شعوب العالم . فقد كان العرب الجاهليون يعبدون الأحجار ، بل ان الحجر الأسود مازال يحتل مكانة أساسية بين شعائرهم المقدسة . وكما هو معروف أن النبى «أشعيا» ، أو الكاتب المتأخر الذى كان يسمى باسمه ، قد اتهم الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل الميـاه ، تلك التى كانت تقع فى الأخاديد الصخرية الجافة ، ويصبون عليها قربان الخمر ويقدمون لها الهبات ــ اتهمهم بالوثنية . وقد نقل عن الاغريق أنهم كانوا يعبدون الأحجار الطبيعية بدلا من الصور ، فقد كان هناك فى سوق « فاريا » الذى كان يقع فى « أشايا » ثلاثون حجرا مربعا كل منها سماه الناس باسم اله . ولما كان سكان « ثيسبيآى » فى «بويوتيا» يقدسون الهة الحب فوق كل الآلهة ، فقد كانت المدينة تزدان بالتماثيل التى شكلها المثالان « ليسيبوس » و « براكسيتيلز » من البرونز والمرمر لتمثل اله الحب . ولكن ، الى جانب هذه الأعمال الفنية التى تشهد على روعة الفن الاغريقى ، كان الناس يقدمون الهبات لصنم غريب فى هيئة حجر خشن يمثل الاله . وكذلك كان « الاينانيون » سكان « ثيسالى » يعبدون حجرا ويقدمون له الضحايا ويغطونه بشحم الضحية .

واذا كانت الأحجار الطبيعية تقدس فى جميع أنحاء العالم ، فانها لم تكن تقدس بشكل منتظم فى أى مكان من أنحاء العالم ، مثلما كانت تقدس فى « ميلانيزيا » . ففى جزر « بانك » وجزر « الهبريدالجديدة » الشمالية ، كانت الأرواح التى يقدم لها الطعام ترتبط فى أغلب الأحيان بأحجار تقدم عندها الهبات . وبعض هذه الأحجار كانت تتصل بعبادة بعض الأرواح القديمة ، كما أن الشخص بعينه الذى يمتلك لحسن حظه هذه الأحجار قد ورث طريقة استرضاء هذه الأرواح أبا عن جد . « على أنه اذا عثر شخص على حجر استرعى نظره اغرابته ، أو اذا عثر على أى شىء غريب آخر ، كان يكون أخطبوطا فى حجره أو سمك القرش أو

حية أو سمكة الأنقليس ، تلك الحيــوانات الغريبــة لديه ، فانه ينثر النقود على الحجر أو عند المكان الذى يجد فيه هذه الحيوانات ثم يعود الى بيته وينام . وعند ذاك يرى فى منامه كأن شخصا يأخذ بيده ويطلعه على منحة الخنازير أو النقود التى تقدم له وذلك لارتباطه بالشيء الذى عثر عليه . وهذا الشيء يسمى فى جزر «بانك» « تانو ــ أولولو » أى مكان التضحية . أما الشيء الذى ينتظر الشخص أن يحصل عليه من وراء ذلك ، فهو النقود والخنازير . فاذا علم جيران هذا الشخص أنه قد حصل على هذه الهبة ، وأن ثروته قد تزايدت ، فانهم يأتون اليه ليستعلموا منه عن الشعيرة التى توسل بها الى الروح الذى تعرف عليه . ولــكنه لايفشى هــذه المعــلومات الا الى ابنه أو ابن أخيه . فاذا مرض شخص ، فانه يقدم لشخص آخر يعرف بأنه يمتلك حجرا ذا قوة خارقة، ويعتقد أن الروح الذى يسكن هذا الحجر قد أساء اليه المريض ــ مبلغا من المال وقطعة من جذر نبات الفلفل (جيا) الذى يستخدم فى صنع مسكر من المسكرات . ويقال عندئذ ان الرجل يقدم الضحية (أولولو) لصاحب الحجر . ثم يأخذ صاحب الحجر هذه الأشياء ويحملهــا الى المكان المقدس وينثرها هنا ويتوســل للحجر وهو يقــول : « دع هــذا الشخص يشفى » . فاذا شفى هذا الرجل فانه يقدم ضريبة شــفائه . فاذا رغب شخص فى اكتساب منفعة من الحجر ، أو أى شيء آخر له قوة سحرية ويعرف لدى الآخرين بمقــدرته على زيادة ثروة المــال أو الخنازير أو الطعام أو يعين على الانتصــار فى معركة من المعــارك ، فان صاحب الحجر أو الشيء المقدس يصطحب الشخص الى المكان المقدس، حيث يوجد فيما يبــدو عدد من الأحجــار ، كل منهــا يحقق غرضا من الأغراض . وعند ذاك يقدم الشــخص قدرا من النقود قد تبلغ المــائة ويسلكها فى خيط يبلغ طوله بضع بوصات . ثم يقدم اليه صاحب الحجر الرئيسى حجرا من الأحجار ويقول له : « هــذا نبات اليام » . فيدفع الرجل اثر ذلك نقودا . ثم يقدم له حجرا آخر ويقول : « هذا خنزير برى » ، ويقول له عن حجر ثالث : «وهذا خنزير ذو أنياب» ، والرجل فى كل حالة يضع نقودا . والسبب فى هذا هو أن الروح « فوى » الذى يتصل بالحجر يحب النقود التى يسمح ببقائها فوقه أو الى جانبــه . فاذا أدت الضحية غرضها ، فان الشــخص المســتفيد من ذلك يدفع لصاحب الأحجار والأرواح ثمن ذلك » .

من هذه الرواية المفيدة نعلم أن المكان المقدس فى هــذا المــكان قد ينشأ اثر رؤية شخص لحجر ذى شكل غريب يسترعى نظره . فاذا نام

بجواره رأى رؤيا توحى له بأن هذا الحجر يسكن فيه روح قوى يعينه على قضاء حاجاته ، ومن ثم فانه وأبناءه من بعده يقومون بتقديم الهبات لهذا الحجر استرضاء له . واذا رأينا كيف أن مثل هذا المكان يظل يجذب المتعبدين اليه كلما ذاعت شهرته ، وبذلك تزداد موارده المالية من خلال الهبات التى يقدمها الشاكرون لصنيعه من ناحية ، وما يقدمه له الطامعون فى زيادة ثروتهم من ناحية أخرى . أفلا تعد المعابد الميلانيزية مطابقة فى هذه الحالة لما يروى عن « بيت ايل » ؟ اننا اذا استخدمنا طريقة أكثر قدما فى تفسير حكاية هذا المكان ، فربما رأينا فيها تزييفا كبيرا لروابط دينية أصلية .

وقد كان للاله « توريا » فى جزر « ساموان » ضريح فى شكل حجر أملس يقع داخل غابة مقدسة . وقد كان الكاهن يحرص على أن ينتزع الأعشاب من حول الحجر وأن يغطيه بفروع الشجر لكى يستدفىء بها الاله . وعندما كان المتعبدون يقومون بواجب الصلاة فى ظروف الحرب أو المجاعة أو الوباء ، فان فروع الشجر كانت تجدد بعناية . ولم يكن أحد يجرؤ على أن يمس الحجر والا شع منه تأثير سام مميت يصيب من يقترب منه . وقد كان فى قرية ساموانية أخرى حجران مستطيلان أملسان موضوعان على قارعة الطريق ، وكان الناس يعتقدون أن هذين الحجرين هما والدا الاله « ساتو » ، الاله الذى يتحكم فى المطر . فعندما كان الزعماء وعامة الناس يتأهبون للخروج لممارسة رياضة صيد الحمام لمدة أسابيع ، فانهم كانوا يضعون السمك المشوى على الحجرين ويتوسلون للاله أن يمنحهم جوا معتدلا خاليا من الأمطار . فاذا رفض أحدهم أن يقدم العطاء للاله ، فان رفقاءه يغضبون منه . فاذا حدث بعد ذلك أن سقط المطر فى أثناءرحلتهم فانهم ينسبون اللوم له ويعاقبونه لأنه أغضب الاله المتحكم فى الجو وبذلك أفسد عليهم رحلتهم الموسمية . واذا كان الناس فى طريقهم للبحث عن نبات اليام البرى فى أوقات القحط ، فانهم يقدمون ثمرتين منه للحجرين شكرا للاله على فضله ، معتقدين بذلك ان الاله يجعل هذا النبات ينمو ، وأنه يهديهم الى أفضل الطرق التى يعثروا فيها على الدرنات الصالحة للأكل . كما اعتاد الناس عندما يمرون بهذين الحجرين وهم يحملون سلالا ممتلئة بالطعام، أن يرموا قدرا من هذا الطعام للحجرين . فاذا أكلت الكلاب أو الفئران هذه الأطعمة فى أثناء الليل ، فانهم يعتقدون ان الاله قد تجسد لوقت محدد فى هيئة هذه الحيوانات لكى يأكل الطعام المقدم له .

ويهتم أهالى جزيرة تيمور ، احدى جزر الأرخبيل الهندى ،

اهتماما كبيرا بأرواح الأرض التى تسكن الصخور والأحجار التى تلفت النظر بشكلها الغريب . على ان مثل هذه الصخور والأحجار قد لا تكون مسكنا للأرواح . ولهذا فانه اذا عثر شخص على أحد هذه الأحجار أو الصخور فان الذى يقطع باحتواء هذا الحجر على الأرواح ، هو أن يرى الشخص رؤيا بجانبه . فاذا ظهر له الروح فى الرؤيا وطلب منه أن يقدم له انسانا ضحية أو حيوانا أو نبات التنبول ، فانه ينقل هذا الحجر ويضعه بالقرب من بيته . ومثل هذه الأحجار تقدسها أسرات بأكملها أو قرى ، وأحيانا أحياء بأكملها . والروح الذى يسكن الحجر يحرص على رخاء الناس ، ويقدم له فى مقابل هذا الأرز ونبات التنبول، وأحيانا الدجاج والخنازير والجاموس . وفى كثير من الأحيان تغرس الى جانب الحجر عصى مدببة تعلق عليها جماجم بعض الأعداء القتلى .

وفى « بوسوجو » وهو حى فى افريقيا الوسطى يقع الى الشمال من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، يعتقد الأهالى أن « كل حجر كبير أو قطعة من الصخر يسكنها روح يمارس نشاطه فى القرية اما خيرا أو شرا . فكثير من الأمراض وبصفة خاصة الأوبئة ، تعزى الى الشر الذى تضمره ارواح الصخور . فاذا انتشر مرض أو وباء ، فان الروح يتملك شخصا من هذا المكان رجلا كان أو امرأة . وعند ذاك يتسلق هذا الشخص الصخرة وهو واقع تحت تأثيرها ويصيح بالناس ، فيجتمع الزعيم والأطباء بالناس ، ويقدمون نعجة أو دجاجة ضحية للروح ، ثم يتلو عليهم الشخص الطريقة التى يتمكنوا بها من ايقاف المرض . فاذا أفصح الروح عن رغبته للناس على هذا النحو ، فانه يترك الشخص ويسكن الصخرة مرة أخرى . وعند ذاك يعود الوسيط الى بيته ليمارس عمله العادى حيث يكف الروح عن استخدامه وسيطا مرة أخرى » . ومعنى هذا أن هناك فى « بوسوجو » كثيرا من الصخور والأحجار المقدسة التى تعد آلهة محلية . والى هذه الصخور والأحجار يذهب الناس فى أحوال وظروف مختلفة يلتمسون العون من الآلهة . ويقدم « الميكرينيون » سكان السودان الفرنسى جنوب النيجر ، الضحية للصخور والأحجار . ففى « سابو » يملك زعيم القرية حجرا كبيرا يضعه عند باب بيته . كما يقدم الشخص الذى لم يستطع أن يحصل على زوجة ، أو لم يمنح أولادا من زوجته أن يقدم دجاجة ضحية الى الصخرة ، آملا أن يمده الحجر بالزوجة أو الأولاد . ويقوم هذا الشخص بتسليم الطير الى الزعيم الذى يقوم بذبحه وأكل لحمه . فاذا تحققت رغبة الرجل ، فانه يقوم بذبح دجاجة عند الحجر شكرا له على فضله .

وقد كان مكان النبوءة الكبير عند الهنود الماندين حجرا مساميا كبيرا يبلغ محيطه عشرين قدما • وكان هؤلاء البدائيون السذج يثقون ثقة عمياء فى أعمال هذه الصخرة المعجزة ؛ ففى كل ربيع وكذلك فى بعض شهور الصيف ، تقف وفود عند هذه الصخرة ويدخنون عندها فى وقار بالغ وهم يتبادلون الغليون فيما بينهم ثم يسلمونه الى الصخرة • وبعد أن يقوم الناس بهذه الشعائر فانهم يأوون الى غابة قريبة ويبيتون الليلة هناك ، تاركين الصخرة تتدبر الموقف وحدها • وفى صباح اليوم التالى تظهر نتيجة هذا التدبر فى شكل علامات محددة بيضاء ترتسم على الصخرة لا يصعب على بعض رجال الوفد أن يفكوا رموزها ، حيث انهم هم أنفسهم قد قاموا بنقشها على الصخر فى الظلام ، بينما كان رفقاؤهم يغطون فى نوم عميق • وقد روى عن الهنود الداكوتيين أن الرجل عندهم « يلتقط حجرا مستديرا أيا كان نوعه ويطليه ويسير به بعيدا عن مسكنه ببضعة خطوات ، ثم يقوم بتنظيف هذا المكان فى محيط يبلغ قدما أو قدمين • وفى وسط هذا المكان يضع الحجر أو الآله كما يمكن أن يسميه ، ويقدم له بعض الدخان وبعض الريش ويتضرع للحجر كى يجنبه بعض الأخطار التى قد حلم بها «أو تصورها» .

وقد كان سكان اسكتلندا يعتقدون فى وجود جنية بعينها يطلقون عليها اسم « جروواجاخ » • وهى فى نظر البعض ذكر ، وفى نظر البعض الآخر أنثى • ووظيفة هذه الجنية هى رعاية قطعان الماشية وابعادها عن الصخور • وهى تسكن الحقول التى ترعى فيها هذه القطعان ، كما تتردد على حظيرة كل سيد • وعلى هذا السيد أن يقدم لها اللبن كل مساء فى تجويف صخرة معينة يحتفظ بها فى الحظيرة تسمى صخرة «جروواجاخ» • فاذا لم يفعل السيد هذا ، فان أبقاره تمتنع عن ادرار اللبن ، كما أن القشدة لا تعلو سطح اللبن فى الاناء • ويقول البعض ان اللبن لا يسكب للجنية فى تجويف الصخرة الا عندما يرحل الناس بقطعانهم الى المرعى الصيفى أو يعودون منه ، أو عند ما يمر شخص فى الحظيرة وهو حامل وعاء به لبن • ولا تزال توجد حتى اليوم فى « هولم » ، «ايست سايد» ، و « سكورى بريك » التى تقع بالقرب من « بورترى » فى « يكى » تلك الأحجار التى كان يصب فيها قربان اللبن «لجروواجاخ» . على أنه من المحتمل أن هذه الأحجار كانت تعد أوعية تلعق منها الجنية اللبن ، أكثر مما كانت تعد مساكن لها • ويتصور الاسكتلنديون هذه الجنية فى العموم فى شكل رجل وسيم أو امرأة وسيمة يتدلى شعرها الذهبى على كتفيها • وقد اعتاد الزارعون فى بعض الأحياء الجبلية فى النرويج حتى القرن الثامن

عشر أن يحتفظوا بأحجار دائرية يغسلونها مساء كل خميس ويطلونها أمام النار بالزبد أو بأية مادة دهنية أخرى ، ثم توضع على القش النضر فى مكان الشرف • وفضلا على ذلك فان هذه الأحجار تغمس فى الجعة فى فصول معينة من السنة ، حيث انها على هذا النحو بناء على تصور هؤلاء الناس ، تجلب الحظ والطمأنينة للناس .

وتذكرنا عادة طلاء الأحجار بالزبد عند النرويجيين بما صنعه يعقوب عندما صب الزيت على الحجر الذى نصبه احياء لذكرى الرؤيا التى رآها فى «بيت ايل» وتعد هذه الأسطورة أصدق دليل على تقديس الحجر ، ومن المحتمل أنها تشير الى عادة قديمة هى عادة طلاء الحجر الذى يوضع فى المكان المقدس بالزيت • ومن المؤكد أن عادة طلاء الأحجار المقدسة بالزيت تنتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء العالم • فقد كان هناك فى دلفى بالقرب من قبر « نيوبتوليموس » حجر صغير كان يصب عليه الزيت كل يوم ، كما كان ينشر عليه الصوف غير المغزول فى كل احتفال • ووفقا لما رواه « ثيوفراستوس » ، أنه كان من سمات الرجل المتطير ، أنه اذا رأى أحجارا ناعمة عند مفترق الطريق ، فانه يصب عليها الزيت من قارورة يحملها معه ، ثم يسجد أمامها ويصلى لها قبل أن يستأنف سيره • كما يحكى « لوسيان » عن رجل يدعى « روتيليانوس » أنه كان كلما أبصر حجرا مطليا بالزيت ، أو له نتوء فى قمته ، فانه كان يسجد أمام الاله الأصم ثم يقف أمامه مصليا لبعض الوقت • وفى مكان آخر تحدث هذا الكاتب الشاك نفسه فى سخرية عن تلك الأحجار المطلية بالزيت وتلك التى تكللها أكاليل الزهر التى كان يعتقد فى أنها أماكن للنبوءة • أما الكاتب المسيحى « أرنوبيوس »فيقول فى معرض حديثه عن عبادة الأوثان فى أيامه بطريقة عمياء : « اننى تعودت كلما أبصرت حجرا مطليا بالزيت أن أعبده كما لو كانت فيه قوة تسكنه ، ثم أطريه وأتحدث اليه وألتمس الخير من تلك الكتلة الصخرية الصماء» .

وتعبد قبيلة « واراتى » ، وهى قبيلة تسكن أحراش « كونكان الشمالية» فى ولاية « بومباى » ، سيد النمور « واجهيا » الذى يتصورونه فى شكل حجر غير منتظم مطلى بالرصاص الأحمر والزبد النقى • وهم يقدمون له الفراخ الصغيرة والنعاج ، كما يكسرون على رأسه ثمار جوز الهند ويصبون عليه الزيت • وفى مقابل هذه الهبات فانه يقيهم أخطار النمور ويمنحهم محصولا وافرا ، ويحفظهم من الأمراض . وفى العموم فان الجهلة

والمطيرون فى رلاية بومباى بصــفة عامة وفى أحياء « كونكان » بصــفة خاصة يعبدون الأحجار الفتيشية ، حتى تبعد عنهم الشر وتشفى مرضاهم. ففى كل قرية توجد هذه الأحجار وكل حجر يسميه سكان القرية باسم اله من الآلهة أو روح من الأرواح ، تلك التى يقدسونها فى ورع لاعتقادهم أنها تتحكم فى الشياطين والأشباح • فاذا انتشر وباء فى قرية من القرى فان الناس يقدمون لها من الأطعمة لحم الدجاج والنعاج وثمار جوز الهند • وأحد هذه الأحجار المقدسة ، على سبيل المثال ، يوجد فى « بونا » ، وهو ملون بلون أحمر ومطلى بالزيت • وعند « التــوداويين » الذين يسكنون تلال « نيلجهيرى » فى جنوب الهند ، تهاجر قطعان البقر من مكان لآخر بين التلال فى فصول معينة من السنة • وقبل أن تحدث هذه الهجرة فان الأهالى يصبون اللبن على الأحجار المقدسة التى توجد فى أماكن حلب اللبن ، كما أنهم يطلونها بالزبد • فهناك أربعة من هذه الأحجار على سبيل المثال فى « مودر » وهى ملساء ذات شكل مستدير ، ومن المحتمل أنها أصبحت على هذا النحو بكعل اقامة الشعائر عليها بصفة مستمرة •

ويحتفظ رب كل أسرة فى جزر « كاى » التى تقع فى جنوب غرب « غينيا الجديدة » بحجر أســود عند رأس مضجعه • فاذا خرج فى حرب أو فى رحلة أو فى مهمــة من المهمات ، فانه يدهن الحجر بالزيت حتى يكون النجاح حليفه • أما فيما يختص بقبيلة « بتسيليو » ، وهى قبيلة تسكن وسط مدغشقر ، فقد قيل «ان هناك أحجارا كبيرة فى جهات كثيرة من البلد تلفت نظر كل سائح عندما يقع بصره عليها ، وقد كساها الشحم، أو سكب فوقهــا الزيت أو الدهن على أقل تقدير • ومن ثم فقد تصــور هؤلاء المسافرون الغرباء أن هذه الأحجار تمثل آلهة قبيلة « بتسيليو » • ولست أعتقد أنه يمكن القول بأن هذه الأحجار تقدس أو تعــامل معاملة الآلهة • فمما لا شك فيه أنها ترتبط بمعتقدات تطيرية • وفى ضوء هذه المعتقدات تنقسم الأحجار الى نوعين : أحجار تسمى « فاتوبيتروكا » ، وهى تلك التى يزورها النساء اللاتى لم يرزقن بأطفال ، وهؤلاء يحملن معهن بعض الدهن أو الزيت ليطلين به الحجر وهن يناجينه ويعدنه بأنهن سيعدن مرة أخرى لطلائه بمزيد من الزيت اذا رزقن بأولاد .

كما يقوم التجار كذلك بزيارة هذه الأحجار ويعدونها بأنهم سيعودون لطلائها مرة أخرى ، أو ليدفنوا عند قاعدتها قطعة من الفضة اذا لم تتعثر

تجارتهم فى بيعها ، واذا مابيعت بسعر مربح . وهذه الأحجار تكون فى بعض الأحيان مجرد أحجار طبيعية ، ولكنها فى أحيان أخرى ، وان كان هذا نادرا ، تمثل ذكرى قديمة للأموات » . وهناك فى مكان بعينه يقع فى ممر جبلى يصعب على قطعان الماشية اجتيـــازه ، يقف كل رجل من قبيلة « أكامبا » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى ، أمام صخرة بعينها ويطلوها بالزبد أو الدهن .

ولعله من المعقول فى ضوء هذه الموازنات أن نفترض أنه كان يوجد فى بيت ايل حجر مقدس تعـــود المتعبدون منذ زمن بالــغ فى القدم أن يصبوا فوفه الزيت ، لأنهم كانوا يعتقدون بحق أنه بيت الرب (بيت ايل) ، أى انه كان مأوى لروح مقــدس . ويعزى هــذا الاعتقاد وتلك العادة الى الوحى الذى ظهر ليعقوب فى هذا المكان قبل أن يتكاثر نسله ويستوطن هذه الأرض بزمن طويل . على اننا لا نستطيع أن نحــدد ما اذا كانت قصة يعقوب تعد رواية متوارثة لحــادثة حقيقيــة ، أم أنهــا وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذى كان يرتبط بهــذه العــادة من قبل . فمن المحتمل أنه كان بأرض كنعان كثير من هذه الأحجار المقدسة أو بيوت الأرباب ، وكان ينظر اليها جميعا على أنهــا مســاكن لأرواح قوية ، ومن ثم فقد كانت تطلى بالزيت . ومن المؤكد أن عبارة « بيت ايل » . أو بيت الاله كانت اسما مألوفا لأحجار مقدسة من نوع معين كان يوجد فى فلسطين . وقد استعار الاغريق هــذه العبارة وحوروها الى « بيتيل ــ وس » أو « بيتيل ــ لون » ، وهى تشير الى الأحجــار المستديرة السوداء التى تسكنها أو يتقمصها روح من الأرواح يتحرك فى الهواء وينطق بنبوءات فى صوت كالصفير فى وسع الساحر أن يترجمه . ومثــل هــذه الأحجار كانت ترتبط بآلهــة مختلفة ســماها الاغــريق « كرونوس » أو « زيوس » أو ــ « الشمس » الى غير ذلك من أسماء الآلهة . وعلى كل فاننا نستخلص من وصف هذه الأحجار انها لم تكن بالكبيرة بحيث كان يسهل حملها . وقد كان أحدها فيما قيل، مستديرا استدارة كاملة وكان قطره يبلغ شبرا وان كان هذا الحجم يزداد أو يقل بمعجزة ، كما كان لونه يتغير من الأبيض الى الارجوانى . فاذا نقشت عليه الحروف فانها تبرز فى هــذا اللون الأرجوانى . ومن المحتمــل من ناحية أخرى أن الحجر المقدس الذى ينسب الى يعقوب فى « بيت ايل » كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة ، أو احدى الأعمدة الخشنة التى كان العبريون يسمونها « ماسيبوث » ، وهى تلك الأحجار التى كانت ملحقة ، كما رأينا ، بمعــابد الكنعــانيين والاسرائيليين المبــكرة . وقد

اكتشف فى فلسطين فى العصر الحديث نماذج من هذه الأحجار فى حالة جيدة ، ونخص بالذكر منها ماعثر عليه فى معابد جيزر وتعنك . وفى بعض هذه الأحجارحفرت الجحور امافى قمتها أو فىجانبها . وربما كان الغرض من هذه الجحور هو صبالزيت أو الدم فيها . ويمكننا أن نفترض أن الحجر المقـدس الذى قيـل أن يعقـوب قد نصـبه فى بيت ايل وطلاه بالزيت ، كان شبيها بتلك الأحجار • ومن المحتمل كذلك أن نسل يعقوب كان يتقرب الى هذا الحجر على هذا النحو طيلة عصور طويلة من بعده .

الفصل الخامس

يعقوب عند البئر

سار يعقوب فى طريقه منشرح الصدر لرؤيته الملائكة فى حلمه ، ولما وعده به الرب من حمايته وحماية قومه ، حتى وصل الى أرض أبناء المشرق • هناك تقابل مع أقربائه ، وهناك وجد زوجاته ، وهناك أصبح يمتلك قطعان الماشية بعد أن كان فقيرا مشردا لامأوى له . على أن الكاتب لم يحدد بدقة المكان الذى جرت فيه تلك الأحداث التى تعد حاسمة فى تاريخ أبنائه من بعده • فقد تعمد المؤرخ ، أو بالأحرى الفنان الأديب أن يترك الطبيعة الجغرافية لهذا المكان باهتة ، بينما صور معايشة يعقوب لحبه الأول فى منفاه فى ألوان حية للغاية • وقد سطع هذا المنظر بتأثير قلمه فى عمق ، تماما كما سطع بريشة رفائيل ، ذلك الرسام الذى أكسب الحادث خلودا ثانيا بما أودع من تصويره فى متاحف الفاتيكان • ولم يصور رفائيل فى صورته حياة الحضارة ، وانما صور حياة الرعى ، ذلك أن الحبيبين لم يتقابلا فى زحمة الأسواق وضوضائها ، بل تقابلا فى هدوء المراعى الخضراء ووداعتها ، تلك التى كانت تقع فى تخوم الصحراء ، وقد انتشر فوق رأسيهما قطاع كبير من السماء ، ومن حولهما تستلقى قطعان الأغنام ، وهما ينتظران فى صبر حتى يحين دورها فى الورود • أما كاتب القصة من ناحية أخرى ، فقد حدد الساعة التى تقابل فيها الحبيبان ، ذلك لأنه ذكر أن الشمس الحارقة لم تكن قد توسطت السماء بعد ، وانما يدعنا نتنسم نسيم صباح يوم من أيام الصيف قبل أن تشع الحرارة

القائظة فى ظهيرة بلاد الجنوب · وهل يمكن أن يتقابل عاشقان شابان فى مكان وزمان أنسب من هذا الزمان وذاك المكان ؟ · لقد تحولت طبيعة يعقوب الجشعة بسحر هذا الوقت وذاك المكان الى شىء أشبه بالرقة ، فنسى فى الحال حسابات المكسب المكبوح ورضخ لانفعالات الحب ، بل انفعال الفارس العاشق ؛ فلقد هرول الى البئر عند رؤية الفتاة الجميلة قادمة مع قطيعها ، وأزاح الصخرة التى كانت تسد البئر وسقى لها خرافها ، ثم قبل وجه ابنة خاله الساحر وبكى · فهل بكى يعقوب لتذكره الحلم الذى رأى فيه الملائكة فى « بيت ايل » ورأى أن الحلم قد تحقق فى حلم حبه الشاب ؟ هذا ما لا نستطيع أن نقطع به · وانما الشىء المؤكد أن المحتال الأنانى قد تحول فيما يبدو لوقت قصير الى محب عاشق · وقد كان هذا الوقت الشاعرى الرومانسى الوحيد فى حياة يعقوب المادية بل الخسيسة .

وقد احتار شارحو سفر التكوين بعض الشىء فى تفسير اجهاش يعقوب بالبكاء عندما قبل ابنة خاله الجميلة راحيل · ومن ثم فقد افترضوا أنه فعل ذلك تعبيرا عن سعادته بخاتمة رحلته السعيدة . وهم يوضحون هذه الطريقة فى التعبير عن المشاعر السعيدة بأحاسيس الشعوب الشرقية العميقة ، أو بعدم قدرتهم على ضبط مشاعرهم . ولكن يبدو أن الشراح قد فشلوا فى ملاحظة أن البكاء عند غير قليل من الشعوب ، يعد طريقة تقليدية لتحية الغرباء أو الأصدقاء بخاصة هؤلاء الذين اجتمع شملهم بهم بعد غيبة طويلة ، وأن هذه التحية على هذا النحو هى فى الغالب تحية تقليدية لا تفوق فى العاطفة المصحوبة بها عادة السلام بالأيدى أو عن طريق رفع القبعة ، ومن شأن الأمثلة التالية أن توضح رأينا هذا .

فهناك فى العهد القديم نفسه أمثلة أخرى لتحية الأقرباء أو الأصدقاء على هذا النحو . فعندما كشف يوسف عن نفسه لاخوته فى مصر ، قبلهم وأجهش فى البكاء بصوت مرتفع الى درجة أن سمعه المصريون الذين يسكنون فى الجانب الآخر من البيت · ولكن يبدو أن بكاء يوسف فى هذه المناسبة كان تعبيرا طبيعيا عن مشاعره وليس مجرد عمل تقليدى · فمن المؤكد أنه اندفع فى البكاء متأثرا برؤية أخيه بنيامين لأول مرة بعد غيبة طويلة ، اذ لم يتمالك يوسف نفسه عند رؤيته أحب اخوته اليه الذى كان قد فقده زمنا طويلا ، فترك الحجرة التى كان الناس قد تجمعوا فيها ، واندفع مسرعا الى حجرته وأخذ يبكى وحده حتى استطاع أن يتمالك نفسه ويكف عن البكاء ، ثم غسل عينيه المحمرتين ، ومسح الدموع عن خديه ، وعاد الى اخوته بوجه صارم · ومرة أخرى بكى يوسف عندما

تقابل مع أبيه الهرم فى « جاسان » ، فقد مال على رقبة أبيه وأخذ يبكى وقتا طيبا (١) • وفى هذه المرة كذلك كانت دموع يوسف تنبع من قلبه عندما وقع بصره على الرأس الأشيب وقد نكس أمامه ، وعندما تذكر حب أبيه له فى أيام صباه • وعند ما تقابل الصديقان العزيزان داود ويوناتان فى ساعة حالكة لآخر مرة ، قبل أحدهما الآخر وبكيا معا فى صوت واحد حتى بلغ داود فى بكائه ، اذ كانا قد شعرا بأنهما لن يرى أحدهما الآخر بعد ذلك • ونحن نعتقد هنا كذلك • أن البكاء لم يكن مصطنعا • ومرة أخرى نقرأ فى سفر طوبيا كيف أن طوبيا عند ما وفد غريبا على بيت قريبه « رعوئيل » فى « اكباتان » وكشف عن شخصه لضيفه « قفز رعوئيل وقبله وبكى » • وربما كان البكاء فى هذا الموقف كذلك نتيجة المفاجأة السارة أكثر من كونه امتثالا لعادة اجتماعية .

ومهما تكن دوافع البكاء فى هذه الأمثلة عند العبريين فانه من المؤكد أن الاجهاش فى البكاء عند شعوب أخرى فى ظروف اجتماع الناس بعضهم ببعض أو افتراقهم عن بعضهم بعضا ، تلك الشعوب التى كانت تعيش فى مستوى حضارى أدنى من مستوى العبريين ، لم تكن فى كثير أو قليل سوى تقليد شكلى لسلوك فرضه المجتمع المهذب • ومن بين هذه الشعوب التى لا يمكن أن تدعى محافظتها على آداب السلوك ، وهى تعبر فى الوقت نفسه فى عنف عن عاطفتها بالبكاء ، سواء كان ذلك التعبير صادقا أم مصطنعا ، « الماوريون » سكان نيوزيلنده » • فقد روى عنهم « أن مزاجهم العاطفى يتضح أكثر ما يكون عند رحيل الأصدقاء بعضهم عن بعض أو عند اجتماع شملهم • فاذا خرج صديق فى رحلة قصيرة الى « بورت جاكسون » أو الى « فان ديمانز لاند » ، فانهم يقومون بعرض كبير للتعبير عن مشاعرهم السطحية • ويبدأ هذا العرض بأن ينظر المودعون الى بعضهم البعض نظرة غامزة ، ثم ينشجون ويصيحون صيحة رقيقة ، ثم تأخذ الدموع تترقرق فى أعينهم ، وتتجهم وجوههم ، ويدلفون الى جانب الشخص الراحل ويتعلقون برقبته • وعند ذاك يصرخون دفعة واحدة ويمسحون وجهه وذراعيه بحجر القداحة ، ويصرخون بطريقة لا تحتمل ويظلون يغمرون هذا الشخص بالدموع والقبلات ويلوثونه بالدم

---

(١) « فارسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان • ثم جاءوا الى أرض جاسان • فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال اسرائيل أبيه الى جاسان • ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زمانا » •

(سفر التكوين ، الاصحاح السادس والأربعون ٢٨ ، ٢٩) •

حتى يكاد يختنق ويتوق الى الهرب منهم · وعند عودة الأصدقاء أو عند القيام بزياراتهم لهم على بعد ، فانهم يقومون بهذه الأفعال نفسها ولكن بغير نظام · ومن العسير ألا تنسكب الدموع من عينيك عند رؤية هـذا المنظر المحزن وعند سـماع العـويل الصاخب والأصوات المتنافرة التى يطلقونها · وفى هذا كله مبالغة فى اظهار العواطف ، ذلك أنه فى وسع هؤلاء أن يظلوا واقفين أو جالسين على بعد من الشخص الذى يتحتم عليهم أن يبكوا على فراقه ، حتى يتهيأون لهذه اللحظة ويتدبرون أمرها ، التى يندفعون فيها نحوه فى شغف ظاهرى ويمسكون بفريستهم ، (فهذا هو أفضل تعبير عن ذلك) ويعملون على انهاك أنفسهم ونفاد صبره . والشىء الذى يستحق التنويه به فى هذه العملية ، هو أنه بالرغم من مقدرتهم على البكاء فى كل المناسبات ، فانهم يكفون عن البكاء كلية عندما يطلب منهم ذلك ، أو عند ما يأخذ منهم التعب مبلغه · لقد سبق لى أن استمتعت ذات مرة برؤية هذا المنظر فى قرية « كايكوهى » التى تبعد عن «وايمانى» بحوالى عشرة أميال · فقد كان قد عاد الى هذه القرية ست من الأصدقاء والأقرباء من زيارة « للتاميس » بعد غيبة سـتة شـهور · وبينما كان الجميع منصرفين الى البكاء التقليدى ، جففت امرأتان دموعهما فجأة اثر اشارة أشارت بها احداهما للأخرى ، وانتهيتا من ابداء عواطفهما ، وقالتا للجمع المحتشد فى سـذاجة بالغة : « اننـا لم نفرغ من العويل بعد · سنذهب لنضع ـ الطعام فى الفرن ونطهيه ونعد السـلال لنضعه فيها ، ثم نعود لنستأنف بكاءنا · فاذا لم نتمكن من العودة بعد حين فسنعود فى المساء لنواصل بكاءنا » · ثم ختمتا عبارتهما المعولة بأن توجهتا للحاضرين وقالتا : « أليس الأمر كذلك ؟ أليس الأمر كذلك ؟ » · وفى أعقاب هذا الحديث تحـدثت معهما حول نفاقهـم هذا بخاصة وأنهم يعلمون أنهـم لا يكترثون كثيرا ، عدم اكتراثهم بثمن ثمرة البطاطس ، بمـا اذا كانوا سـيرون هؤلاء الذين يبكون من أجلهم · وعند ذاك أجابتا قائلتين : « ها ! ان حب النيوزيلندى كله خارج قلبه ، انه فى عينيه وفى فمه » · وكثيرا ما وقع القـائد البحار « ب · ديللون » فريسـة لهذه المظاهرات العاطفية الصاخبة · وقد أخبرنا كيف أنه كان يجهد نفسه حتى يستطيع أن يتجاوب معهم بطريقة مناسبة لهم ، فقال : « ان من عادة النيوزيلانديين انه اذا اجتمع شـمل الأقرباء أو الأصدقاء بعد غيبة طويلة فانهم يذرفون الدمع ويلصـقون أنوفهم بعضها ببعـض · وكثيرا ما قمت معهـم بهذه الاحتفالات بدافع المجاملة · ولو أننى كنت أهمل أداء هذه الأفعال معهم ، لاتهمت فى صداقتى لهم ، ولنظروا الى نظرة أفضل من نظرتهم للبربرى بقليل ، وذلك لمخالفتى لقواعد آداب النيوزيلنديين · على أن قلبى الجامد

لم يكن يستجيب في كل المناسبات للبكاء ، اذ كان يختلف في طبيعة قلوبهم • ولكن كان يكفي لاصطناع الحب الحقيقي أن أضع منديلي على عيني لبعض الوقت وأن أعول بطريقتهم • ولم يكن هؤلاء القوم يحاسبون الأوربي الغريب على عدم مشاركتهم هذا الاحتفال ، أما بالنسبة لي ، فكان يتحتم على آداؤها ، اذ كنت بالنسبة لهم ، « ثونجاتا موري » أي مواطن نيوزيلندي كما كان يروق لهم أن يسموني » • على أننا نقرأ مرة أخرى أن « اظهار هذه العواطف كان يميز المقابلات النيوزيلندية ، بينما كانوا يقومون بوداع أحبتهم دون الاستعانة بهذه المجاملات الظاهرية • فاذا تقابل الرجال والنساء بعد غيبة طويلة فانهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ويعولون ويذرفون الدمع ، وفي الوقت نفسه يحكون لبعضهم بعضا عن أهم الأحداث التي حدثت لهم منذ غيابهم عن بعضهم البعض • ذلك لأنهم لا يعرفون الحزن الصامت • فاذا حدث لقاء بين أقرباء من الدرجة الأولى بعد غيبة طويلة ، فانهم يستمرون في لصق أنوفهم بعضها ببعض وفي العويل مدة نصف ساعة • أما اذا حدث لقاء عرضي بين طرفين فانهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ثم ينصرفون على التو • وتسمى هذه التحية عندهم « هونجي » ومعناها « الشم » • ومن شأن هذه التحية ، كما هو الحال في عادة أكل الملح عند الشرقيين ، أن تمحو العداوة بين الأعداء • ولاتتلاقى الشفاه في أثناء تأدية هذه التحية ، اذ أنهم كانوا يمتنعون عن تقبيل بعضهم البعض» •

« واذا تقابل الأقرباء » بين السكان الأصليين في جزر أندمان « بعد غيبة عدة أسابيع أو شهور ، فانهم يعبرون عن سعادتهم بهذا اللقاء بأن يجلسوا متقابلين وقد التفت اذرعتهم حول أعناق أقربائهم ، ثم يبكون ويعولون بطريقةتجعل الشخص الغريب يتصور أنحادثا مؤسفا قد حدث لهم • والواقع أنه ليس هناك أدنى فرق بين فرحهم بلقاء حبيب وحزنهم على فقد عزيز • وفي العادة تبدأ النساء بالعويل ، ثم تصاحبهن الرجال على التو • ويظل ثلاثة أو أربعة منهم يبكون في نغمة واحدة ، حتى يكفوا عن البكاء عندما يشعرون بالارهاق » • وعند شعب « مونجيلي تاهيل » الذي يسكن حي « بيلاسبوري » في الهند ، « لا تختلف عن ذلك تقاليد استقبال الأقرباء الذين كانوا متغيبين فترة طويلة ، فجماعة النساء في كل حالة يجلسن ويبكين بصوت عال • أما اذا عاد الابن الى بيت والديه بعد غياب عدة شهور ، فان أول ما يفعله أن يجلس عند قدمي والديه ويلمسهما • ثم يأتي اخوته وهو جالس على هذا النحو ، وكل يأتي بدوره ويضع يديه على كتفيه ويبكي بصوت عال ، ثم يحكي له في نغمة معولة

حدثا مهما حدث في أثناء غيـــابه » · ويتطلب آداب السلوك عنـــد « الشاوهانيين » الذين يسكنون الأقاليم الوسطى في الهند ، أن «تبكي النساء اذا تقابلن مع أقرباء لهن جاءوا لزيارتهن من مكان بعيد . فاذا تقابلت امرأتان في هذه الحالة ، فانهما تبكيان معا بعد أن تضع كل منهما رأسها على كتف الأخرى ، ويديها الى جانبها ، وفي أثناء البكاء تغير كل منهما وضع رأسها مرتين أو ثلاثا ، وتصيح بنوع قرابتها لها ان كانت أما لها أو أختا الى غير ذلك · أمااذاتوفى فرد في العائلة ،فان النساء يصرفن قائلات « آه يا أمي · أو آه يا أختي · أو آه يا أبي ·· لمـاذا لم أمت أنا الانسان السيء الحظ بدلا منك ؟ » فاذا بكت امرأة بمصاحبة رجل فانها تمسك بجانبيه وتضع رأسها على صدره · أما الرجـل فيصيح بهـــا بين الحين والآخـــر قائلا : « لاتبكي كفاك بكاء » · فاذا كانت امرأتان تبكيان معا ، فانه من آداء السلوك أن تكف كبراهما عن البكاء أولا ، ثم تطلب بدورها من زميلتها أن تفعل ذلك · فاذا لم يكن يعرف أيهما أكبر سنا ، فانهما تستمر أن في البكاء في بعض الأحيان مدة ساعة من الزمن حتى يثير بكاؤهما مشاعر المتفرجين الأصغر سنا . وهما تستمروان على هذا النحو من البكاء حتى يقدم شخص أكبر منهما سنا ، ويطلب من أحديهما أن تكف عن البكاء .

ويبدو أن عادة اذراف الدمع بوصفهـــا علامة على الترحيب ، كانت منتشرة بين القبائل الهندية التي كانت تسكن جنوب أمريكا وشمالها على حد سواء · فقد كانت تفرض الآداب الاجتماعية على « التوبيين » الذين يسكنون في البرازيل بالقرب من « ريو دي جانيرو » ، أنه عند دخول زائر غريب كوخا يتوقع أن يحتفي به ، فانه يجلس في أرجوحة مضيفة ،ويمضي بعض الوقت ساكنا متأملا · ثم تأتي النساء ويجلسن على الأرض حول الأرجوحة ، ثم يخفين وجوههن بأيديهن وينفجرن في البكاء ، وهن يرحبن به ويطرينه في الوقت نفسه · وينتظر من الضيف الغريب بدوره ، وسط هذه المظاهرات الصاخبة ، أن يبكي مشاركة لهن ، فاذا لم يســـتجب له الدمع الحقيقي ، فان أقل ما يجب عمله من جانبه ، أن يتنهد من أعماق قلبه ، وأن ينظر قدر الامكان نظرة ملؤها الأسى · فاذا قام الضيف بهـذه الشكليات على الوجه الأكمل وفقا لما تفرضه قواعد آداب « النوبيين » ، فان مضيفه الذي ظل حتى هذا الوقت متفرجا غير مبال وغير مكترث بما يراه ، يقترب من ضيفه ويبادله الحديث . وتتبع قبيلة «لينجوا» فيما بينها ، وهي قبيلة هندية تسكن في « شاكو » ، « شكلا من أشكال الآداب وذلك عنـدما يتقابلون مع شـــخص عـــزيز لديهم طالت غيبته عنهم .

فاذا تقابل هنـــدى مع عزيز لديه غاب عنه فترة من الزمن ، فانهمـــا يذرفان قليلا من الدمع قبل أن ينطق أحدهما بكلمة . فاذا تصرفا على غير هذا النحو ، فان هذا يعد اهانة للضيف أو يعد على الأقل دليلا على أنه غير مرحب به» .

وقد وصف المستكشف الاسبانى « كابيسادى ناكا » فى القـــرن السادس عشر عادة مشابهة للعادة السابقة كانت تتبعها قبيلتان هنديتان كانتا تسكنان جزيرة نائية ، يبدو أنها كانت تقع محل شاطىء تكساس فقال : « هناك فى هذه الجزيرة يسكن شعبان يتحدثان لغات مختلفة ، أحدهما يسمى « الكابوكويون » والآخــر « الهاتيون » . ومن عادة هذين الشعبين أنهما اذا تعرف شخصان أحدهما على الآخر ، أو اذا تقابلا مع بعضهما البعض بين الحين والآخر ، فانهما يبكيان ما يقرب من نصف ساعة قبل أن يتحدث أحدهما مع الآخر . ثم يهم الشخص المستقبل ويقدم كل مايمتلك لزائره الذى يتقبل هذه الأشياء ، ثم يمكث فترة ويأخذها ويرحل . وقد يحدث أن يبتعد أحدهما عن الآخر بمجرد تقديم الهدية دون أن ينطق أحدهما ببنت شفة » . وقد وصف رجل فرنسى كان يدعى «نيكولا بيروه » ، وكان قد عاش بين الهنود عدة سنوات فى نهاية القرن السابع عشر أنه عندما تزور جماعة « السيو » قرية من قرى أصدقائهم « الأوثاوا» يجهشون فى البكاء وفقا للعادة المتبعة ، أمام كل من يقابلهم من ســكان القرية ، تعبيرا عن ابتهاجهم بلقياهم « وقد كان هذا الرجل الفرنسى نفسه هدفا ، أو بالأحرى فريسة لهذه المظاهرات المحزنة . فعندما أرسله حاكم « نيوفرانس » نيتعامل مع القبائل الهندية التى كانت تعيش فيما وراء نهر المسيسبى ، اتخذ لنفسه مسكنا عند شاطىء هذا النهر ، وهناك استقبل رسلا من « الأيويين » وهم جيران « الشيو » وحلفاؤهم ، وكانت قريتهم تقع على مسيرة عدة أيام جهة الغرب . وقد كان هؤلاء يرغبون فى اقـــامة علاقة طيبة مع المندوب الفرنسى . وقد وصف مؤرخ فرنسى مقابلة هــؤلاء الهنود «لبيروه»المسكين، فقال : انهم ظلوا يبكون أمامه حتى جرت دموعهم على أجسامهم .. ثم أخذوا يمسحون رأسه ووجهه وملابسه باللعــاب والأوساخ الخارجة من أنوفهم وأفواههم حتى تقزز الرجل الفرنسى من هذه القاذورات وكاد يشعر بالمرض . وقد كان هؤلاء الرســل طوال هذا الوقت يولولون ويصرخون . ولم يجد الرجل الفرنسى مفـــرا من أن يشهر فى وجوههم السكاكين والمخارز . فما ان وقعت أبصارهم عليها حتى كفـــوا عن هذه الضوضاء . ولما لم يكن مع هذا الوفد مترجم ، فانهم لم يتمكنـــوا من الافصاح عن رغبتهم ، ومن ثم فقد عادوا من حيث أتوا دون أن يحققوا

غرضهم . وبعد بضعة أيام جاء الى الرجل أربعة من الهنود كان أحدهم يتكلم بلغة يعرفها الفرنسى . فقال له : ان قريتهم تبعد عن النهر بمقدار سبعة فراسخ ، وأنه جاء يدعوه لزيارتهم ، فقبل الفرنسى الدعوة . وعندما أبصرت النساء الرجال الفرنسيين قادمين ، جرين الى الغابات والجبال وهن يمددن أيديهن نحو الشمس . ولكن عشرين من الزعماء قدموا نحوهم وقدموا « لبيروه » غليون السلام ثم حملوه على جلد بقرة حتى أوصلوه الى كوخ الزعيم . وبعد أن وضعوه داخل الكوخ ، أخذوا يبكون هم وزعيمهم على النحو المألوف لديهم ، كما أخذوا يمسحون رأسه بلعابهم . وافرازات أنوفهم . وبعد ذلك جففوا أعينهم وأنوفهم وقدموا له غليون السلام مرة أخرى . ثم يضيف المؤرخ الفرنسى قائلا : « اننى لم أر شعبا بين شعوب العالم يبكى بكاء هذا الشعب . فلا تتم مقابلاتهم الا بالبكاء ، كما لا يتم فراقهم الا بالبكاء » .

الفصل السادس

العهد ..
(عند الحجر المنتصب)
على النصب

بعد أن قام يعقوب بخدمة خاله « لابان » عدة سنوات ازدادت فى أثنائها ثروته فى الأغنام والماعز بفضل نشاط يعقوب ومهارته ، مل الأخير هذه الخدمة الطويلة وقرر أيه على أن يعود بزوجاته وأولاده وكل ما معه الى أرض آبائه . ويحق لنا أن نفترض أن ما دفع يعقوب لاتخاذ هذا القرار ليس مجرد احساسه بالحنين لوطنه . حقا لقد كان يعقوب قد مل هذه الحياة ، هذا فضلا على أن نبض شبابه الدافىء ، ان كان قدعرف هذا النبض أصلا ، كان قد كف عن تحريك مزاجه الواقعى البارد فى جوهره . ومع ذلك فهو لم يتخذ هذه الخطوة مدفوعا بحنينه الى مرتع صباه وحبه لوطنه ، وانما المحتمل أكثر من ذلك أنه كان قد أخذ يحسب فى هدوء مكسبه المادى من خدمته لخاله . حقا انه كان سعيدا بأنه استطاع بفضل اجتهاده ومكره معا فى غضون هذه السنوات أن يحتفظ بثمرة قطعان الماشية فى حظيرته بدلا من أن يحتفظ بها فى حظيرة خاله ، ولكنه كان يرى أنه ما زال قادرا على أن يغنم أكثر من ذلك . ولقد كان قد اعتصر الرجل الكهل كما تعتصر الليمونة ، وكان الوقت قد أصبح مناسبا تماما لأن يستخدم موهبته فى مجال آخر يدر عليه مزيدا من

المكسب . ولكنه لما رأى بثاقب فكره أن خاله يمكن أن يعترض على رحيله بالجزء الأكبر من قطعان الماشــية ، فقد قرر فى شيء من التريث محاولة تجنب المشاحنات العائلية ، بأن يهرب فى أثناء الليل فى ضوء القمر . ولكى يقوم يعقوب بتنفيذ هذه الخطة ، كان يتحتم عليــه أن يطلع زوجاته على هذا السر . ولكنه يبدو أنه شك فى طريقة استقبالهن لهذا النبأ ، ولهذا فقد فاتحهن فى هذا الموضــوع فى شيء من الرفق ، فبدأ حديثه معهن بنغمة متملقة وأخبرهن بتغير سلوك أبيهن معه . ثم حكى لهن بعد ذلك فى ورع زائف كيف أن الرب ناصره فحول قطيع أبيهن من عنــده اليه . ولكى يخلع على المؤامرة مزيدا من الحبكة ، أخبرهن فى نهاية الأمر، والوميض يســطع فى عينيه ، فيمــا يبــدو ، كيف أنه رأى رؤيا فى الليلة الماضية ظهر له فيها ملاك الرب وطلب منه أن يرحل الى وطنه . ولم يجد يعقوب ضرورة بعد ذلك لأن يحوم حول هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لأن زوجاته أبدين الاســتعداد للموافقة على خطتـــه ، وأعلن فى صراحة يمازجها الريب ، بأنهن يضعن أنفسهن فى خدمته . بل انهن رفعن اصواتهن بالشكوى اليه من أن أباهن المبذر قد ضيع الثروة التى كان قد قبضها ثمنا لزواجهن ، ولم يعد لديه ما يمكن أن يعطيه أو يورثه لهن . ومن ثم فقد أبدين الاستعداد للتنكر لأبيهن ومرافقة زوجهن الى البــلاد الغريبة النائية التى تقع فيما وراء النهر الكبير . ولكنهن قبل أن يجهزن أمتعتهن استعدادا للرحيل تذكرت « راحيل » الذكية ، لحسن الحظ ، أن أباها على الرغــم من أنه لم يعــد يملك أى شيء ، الا أنه ما زال يحتفظ بالآلهة المنزلية التى ربما استاءت لهذا التدبير المدبر ضــد صاحبها ، فتحاول أن تدرأ عنه ما يلحق به من أذى وأن تعاقبهم جزاء اثمهم . ومن ثم فقد احتالت لسرقة هذه الآلهة وأخفتها بين أمتعتها دون أن تخبر زوجها بذلك ، اذ كانت تخشى أنه ربما وقع تحت وطأة وخز ضميره ، فيرد الآلهة المسروقة الى صاحبها .

وعلى هذا النحو كانت الأسرة على اســتعداد للرحيل ، وانتظرت اللحظة الحاسمة التى تتمكن فيها من الرحيل خلسة دون أن يقع عليهـــا بصر أحد . وقد حانت هذه اللحظة عندما رحل «لابان» ليقضى بضـعة أيام فى عيد جز الأغنام . عند ذاك همت القافلة بالرحيل ، أما النســاء والأطفال فقد ركبوا الابل وقد سارت من قدامهم ومن خلفهم قطعـــان الماشية التى ملأت الجو بثغائها . وقد كان سير القافلة بطيئا بالضرورة ، اذ لم يكن يتسنى للأغنام والماعز أن تسير سيرا حثيثا ، ولكنها كانت قد استمرت فى سيرها طيلة يومين ، عندما علم « لابان » فى اليوم الثـــالث

برحيلهم ، فخف مع اخوته ليلحق بهم · وبعد مسيرة شاقة دامت سبعة أيام تقابلوا مع طابور طويل من الهاربين يسير سيرا متثاقلا بين غابات جبل جلعاد الجميلة · وربما كان الهاربون قد وصلوا الى مكان فسيح فى الغابة ، حيث أخذت الأغنام ترعى فى المروج الخضراء ، وربما كانوا قد وصلوا الى وهدة عميقة حيث كانت الابل ترعى فى أجمة قصب ، أو حيث كان قطيع المواشى يشق طريقه فى مياهها · وعلى كل فقد نشب القتال بين الطرفين عند ذاك · وبدأ لابان حملته على يعقوب بتأنيبه بصوت جهورى على سرقة آلهته وسلب بناته كما لو كن أسرى حرب · ولم يكن يعقوب يعلم شيئا عن سرقة الآلهة ، فرد عن نفسه هذه التهمة فى حرارة بالغة ، وقال له انه ليس بلص أو مدبر لسرقة أشياء تعد ملكا له شخصيا وعليه أن يقوم بتفتيش أمتعتهم ، فان هو عثر على الآلهة فى أمتعة أحدهم فله الحق عندئذ أن يقتل السارق. وعند ذاك قام «لابان» بتفتيش الخيام خيمة بعد الأخرى فى دقة ، ولكنه لم يجد أثرا للآلهة ، لأن راحيل الذكية كانت قد أخفت التماثيل فى محفة الجمل وجلست فوقها وهى تضحك فى أكمامها ، بينما كان والدها ينقب بدقة فى خيمتها .

وقد كان فشل لابان فى العثور على الآلهة المسروقة دافعا لأن يسترد يعقوب ثقته فى نفسه تماما · اذ من المحتمل أنه كان قد شعر فى بداية الأمر بالخزى فى مواجهة خاله الذى خدعه وتركه فى موقف حرج للغاية · أما الآن فقد بدأ يشعر أنه قد كسب موقفا أخلاقيا ساميا ، ومن ثم فقد انقلب على خصمه الخجل ، فى حذق بالغ وانهال عليه يكشف له حقارته الأخلاقية · فرد عن نفسه التهمة التى دبرها له بسرقة الآلهة ، وصرح له بأن زوجاته وقطعانه حق له بعد أن قام بخدمته متفانيا طيلة سنين عديدة. ثم أسهب فى نغمة مثيرة للشفقة ، فى شرح الصعاب التى تحملها فى خدمة قطعان ماشيته ، وروح الشرف التى كان يباشر بها عمله · ثم ختم خطبته الملتهبة بتهديد خاله بأنه لو لم يكن يتقى الرب المعين له ، لجعل خاله خادما مخلصا له ، ولجعله يعيش بلا سترة على ظهره أو مليم فى جيبه · ولم يكن للخال أية وسيلة للمعارضة أمام هذه الفصاحة البالغة ، بل انه بدأ يشعر بأنه لم يبلغ باع زوج بناته فى الفصاحة والقدرة على الخداع · ولا بد للانسان ، لكى يقف منه موقف المناوىء ، أن يكون متزودا بأسلحته· ومن ثم فقد اكتفى « لابان » بأن رد عليه فى حزن بأن بناته وأطفالهن وقطعان ماشيته قد أصبحوا ملكا له ، أى أن كل ما غنمه يعقوب انما كان ملكا لخاله « لابان » · وقد كانت هذه الاجابة أكبر من محاولة الرد بالحجج اللبقة ، بل انها قد تجاوزت حدود امكان الدفاع عن النفس الرهين

بتلك الظروف . ولكن كلا من الطرفين لم يكن مستعدا للدخول فى معركة . ومن ثم فقد اتفقا على أن يرحلا فى سلام من قبل أن يصلا الى حد اشهار السيوف فى وجه بعضهما البعض ، فاستأنف يعقوب رحلته بغنيمته الكبيرة وعاد لابان خاوى الوفاض الى أهله . ولكنهما قبل أن يفترقا ، نصبا حجرا كبيرا على نحو ما ينصب العمود ، وجمعا فوقه ركاما من الأحجار الأقل حجما ، وأكلا الخبز معا وهما جالسان أو واقفان فوق هذا الركام . ومن شأن هذا الركام أن يشير الى الحدود التى لاينبغى أن يتعداها كل منهما بهدف ايذاء الطرف الآخر . وفضلا على ذلك فان هذا الركام كان بمثابة شاهد عليهما عندما يرحل كل منهما فى طريقه . ولهذا فان العبريين والسريانيين يطلقون عليه اسم « نصب الشهادة » . وفى نهاية الاتفاق قام الطرفان بذبح الضحية وتناول وجبة عادية ، ثم عاد كل الى خيمته وقد انتهيا الى الصلح ، وان كان صلحا زائفا . وقد كان يعقوب بدون شك سعيدا بكفاءته السياسية . أما « لابان » فلم يكن راضيا بطبيعة الحال بما حدث . وانما ظل ساكنا متظاهرا بالرضاء على كل حال . وفى الصباح الباكر ، استيقظ « لابان » وقبل أحفاده وبناته وتمنى لهم التوفيق وعاد الى أدراجه . أما يعقوب فقد استأنف رحلته الى بلاده .

ان السياق العام للحكاية السابقة ينحو الى أن يبين أن النصب الذى أقامه لابان ويعقوب فى المكان الذى افترقا عنده ، لم يكن نصبا يشهد بصداقتهما ومحبتهما ، وانما كان شهادة على شكهما وعدم ثقتهما فى بعضهما البعض . ومن ثم فقد استخدما ركام الأحجار ليكون ضمانا ماديا على رعايتهما لمعاهدة السلام التى عقداها فيما بينهما . أى أن هذا النصب كان بمثابة اجراء أو وثيقة فى هيئة حجر وضع عليه الطرفان المتعاهدان أيديهما ، حتى اذا نقض أحدهما العهد ، عوقب الخائن . فالنصب الحجرى لم يكن ينظر اليه بوصفه مجرد كومة من الأحجار ، بل بوصفه شخصا أو روحا قويا او الها ينظر بعين اليقظة الى الطرفين المتعاهدين ويذكرهما بعهدهما . ويتضح هذا من خلال الكلمات التى وجهها « لابان » الى يعقوب عند اتمام شعائر العهد فيما بينهما ، فلقد قال له : «ليراقب الرب بينى وبينك حينما يتوارى بعضنا عن بعض ، أنك لا تذل بناتى ولا تأخذ نساء على بناتى . ليس انسان معنا ، أنظر ، الله شاهد بينى وبينك(١) » . ومن ثم فقد سمى هذا الركام باسم «برج المراقبة» (المصفاة بالعبرية) ، كما سمى «صخرة الشهادة» ، لأنه كان يقوم مقام الرقيب والشاهد معا .

---

(١) سفر التكوين ٤٩ : ٥٠ .

وينتمى الحجر المنتصب وركام الأحجار اللذان حكت عنهما هذه الأسطورة المثيرة بدون شك ، الى طبقة الآثار الحجرية الطبيعية التى لاتزال ترى بكثرة فى المنطقة التى تقع فيما وراء نهر الأردن بما فى ذلك جبل جلعاد حيث كان الفراق بين يعقوب ولابان كما تحكى القصة . وقد أشار «كانون تريسترام» الراحل ، الى هذا الموضوع وذلك فى أثناء حديثه عن بلاد موآب فقال : « ان جزءا من طريقنا كان يقع الى جانب وادى « عتابيا» الذى يتجه جنوبا الى «الزرقاء» ، وهو واد صغير ينحدر انحدارا سريعا. وهناك فى هذا المكان صادفنا لأول مرة ، عند منحدر صخرى مرتفع ،ضريحا يتكون من أربعة أحجار خشنة عارية ، ثلاثة منها موضوعة على حافة المنحدر مكونة ثلاثة جوانب من شكل مربع ، أما الحجر الرابع فيقع فوقها كما لو كان غطاء لها . ويبلغ طول كل حجر حوالى ثمانية أقدام . وعندما اتجهنا شمالا ، وقعت أبصارنا مرارا على هذه الأضرحة ، بحيث اننا كنا نصادف مايفوق العشرين منها فى تجوال واحد ، ولكنها مشيدة على نحو واحد . وتقع هذه الأضرحة بدون استثناء على جوانب التلال الصخرية ، ولا يقع على قممها على الاطلاق . فالأحجار الثلاثة الكبيرة الموضوعة على حافة المنحدر ، يقع كل منها جهة الزاوية اليمنى للحجر الآخر ، وهى جميعا تكون دعامة للحجر الصلب الذى يغطيها والذى كان يبلغ طوله من ستةالى عشرة اقدام . وهذه الأضرحة تعد أمكنة يستريح عندها العرب الرعاه الذين طالما أبصرناهم مستلقين فوقها يراقبون قطيعهم . ويبدو أن هذه الأضرحة لا توجد الا فى الاقليم الذى يقع بين « زاره » (١) « كاليرهوى » و « حشبون » ، اذ أنها لا توجد على الاطلاق فى الأقاليم المشابهة لهذا الاقليم الذى يقع جنوبا فى هذه المنطقة . على أننى سبق أن رأيت هذه الأضرحة فى أثناء زياراتى لفلسطين ، وكان الكثير منها يقع فى الجهات الجرداء من جبل جلعاد فيما بين جبل « أوشع » و « الجرش » . ومن العسير علينا أن ندرك سبب تشييد هذه الأضرحة على جوانب التلال . والشيء الذى يلفت النظر فضلا على ذلك ، هو أننى لم أصادف ضريحا يتكون من اربعة احجار سفلية . فاذا وقع بصرنا على ضريح متهدم ، فان عدد احجاره عندئذ يتكون من أربعة أحجار لااكثر ولااقل . ونظرا لضحالة التربة ، لم يكن من اليسير اقامة هذه الأضرحة تحت الأرض . وعلى الرغم

---

(١) « زاره » هو الاسم الحالى لكاليرهوى . انظر :

P. Abel, Géographie de la Palestine, Paris-Lecoffre Gabada. 1938, Etudes Bibliques, tome I, p. 87.

(المراجع)

من أنني لم أجد أثرا لهذه الأضرحة أو أية أضرحة من نوع آخر في الأماكن المجاورة ، فانه من المحتمل أن السكان الأولين كانوا قد شيدوها في أماكن أخرى ، ثم نقلتها الأجناس التي جاءت من بعدهم حتى تستغل الأرض في الزراعة ، في حين أنهم لم يمسوا تلك الاضرحة التي كانت تقع على جوانب التلال الجرداء التي لم تكن تصلح للزراعة على الاطلاق . وهناك شيء آخر يجدر بنا أن نذكره ، هو أن الطبقات الثلاث من النصب الأولية التي عثر عليها في موآب ، أعني الحجر الدائري والأضرحة وركام الأحجار ، توجد في أعداد كبيرة في ثلاثة أمكنة مختلفة في هذا البلد ، ولكنها لا توجد مختلطة على الاطلاق ، فركام الأحجار توجد جهة الشرق في الطريق الذي يؤدي الى سلسلة الجبال العربية ، والأحجار المستديرة توجد في جنوب « كاليرهوى » ، وأما الأضرحة فتقع في شمال هذا الوادي . وربما أشارت هذه الظاهرة الى وجود ثلاث قبائل متجاورة كانت تعيش في هذه الأمكنة فيما قبل التاريخ ، وكان لكل منها احتفالاتها وطقوسها الدينية الخاصة بها . أما العرب المحدثين . فمن الطبيعي أن يربطوا بين هذه الأضرحة وبين الجن» .

لقد سبق أن رأينا أنه عندما وضع « لابان » و « يعقوب » ركام الأحجار فوق الحجر المنتصب ، جلسا (١) فوق هذه الاحجار وأخذا يتناولان االطعام . ومن المحتمل أن تناول الطعام فوق الأحجار يقصد به التصديق على العهد . وربما استطعنا أن نستوضح السبب في الاعتقاد في أن تناول الطعام على الأحجار يعد تصديقا على العهد من خلال عادة نرويجية وصفها المؤرخ الدانماركي القديم « ساكسوجراماتيكوس » فقال: « عندما كانت الشعوب في الزمن القديم تنصب ملكا عليهم ، كانوا يقفون على أحجار مثبتة في الارض ويدلون بأصواتهم معلنين بذلك أن اختيارهم صلب صلابة الحجر » . فربما كانت الشعوب تعتقد أن صلابة الحجر

---

(١) تترجم الرواية المنقحة هذه العبارة التي ترد في سفر التكوين الاصحاح الواحد والثلاثين صفحة ٤٦ على النحو التالي : « ثم تناولا طعامهما بجانب هذا الركام » . بينما تقول الرواية الأخرى المعتمدة « ثم تناولا طعامهما فوق هذا الركام » . على أن العبارة المقابلة لهذه العبارة التي ترد في النص ترجح صحة الرواية المعتمدة على الرواية الأخرى . اذ من المؤكد أن المعنى الأولى للظرف « عند » يعنى « فوق » وليس هناك داع اذن لأن نتجاوز هذا المعنى في هذا المجال » . (المؤلف) ويؤكد رأى المؤلف عبارة العهد القديم التي تقول « وقال يعقوب لاخوته التقطوا حجارة فأخذوا حجارة وعملوا رجمة وأكلوا هناك على الرجمة » . (سفر التكوين الاصحاح الحادي والثلاثون آية ٤٦) .

(المترجمة)

تمر الى الشخص الذى يقف عليه وبذلك تؤكد قسمه . فنحن نقرأ عن شخص أسطورى بعينه يدعى «راجاه الجاوى» كان يحمل لقب «راجاه سيلا بيرواتا» وهو يساوى لقب «واتو جوننج» . وقد خلع عليه هذا اللقب لأنه وقف ثابتا على الجبل كالحجر فاكتسب منه قوته وشجاعته بدون عون أو مساعدة» . وفى الهند عندما يحتفل براهمانى بزواجه ، يجعل الزوج زوجته تدور حول النار ثلاث مرات ، وفى كل مرة يجعلها تطأ بقدمها اليمنى على حجر الرحى وهو يصيح بها : « لتطىء بقدمك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته . ولتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك . وهذه الشعيرة القديمة التى وضعتها كتب الشعائر الآرية فى الهند الشمالية ، تبناها الناس فى الهند الجنوبية خارج نطاق الطبقة البراهمانية . فالزوجان فى هذه المنطقة « يدوران حول النار المقدسة ثم يرفع الزوج بيديه قدم زوجته اليمنى ويضعها على حجر الرحى ، ويكرر فعل هذا سبع مرات . وتعرف هذه الشعيرة باسم « سابتابادى » (أى سبعة أقدام) ، وهى تعد أهم شعائر الزواج وأكثرها تأكيدا للرباط الزوجى . ذلك أن الزوجة تحض على أن تكون صلبة على الدوام صلابة الحجر الذى تضع عليه قدمها » . ويحدث مثل هذا فى الاحتفال بدخول الغلمان فى مجتمع الرجال عند البراهمانيين . اذ أنهم يجعلون الغلام يطأ بقدمه اليمنى على حجر بينما يرددون العبارة الآتية : « لتطأ بقدمك هذا الحجر ، ولتكن صلبا مثل صلابته . لتحطم هؤلاء الذين يبحثون لك عن أذى ولتنتصر على أعدائك » . وعند الاحتفال بالزواج عند الكوكيين الذين يسكنون شمال « كاشار » . « يضع كل من الزوجين قدما على حجر كبير موضوع وسط القرية . ثم يأتى الزعيم (جاليم) ويرشهما بالماء وينطق بعبارة توجه النصائح العامة للمزوجين وتحضهما على الاخلاص . ثم يباركهما ويتمنى لهما الذرية الكثيرة » . ويعتقد سكان مدغشقر أنه من الممكن للشخص أن يتحصن ضد البركة الأرضية المتقلبة ، بأن يدفن حجرا تحت مكان رئيسى فى بيته أو تحت عتبة بابه .

ويمكننا أن نفسر بناء على هذا الأساس ، عادة القسم على حجر فى الوقت الذى يضع فيه الشخص فوقه قدما أو قدميه معا . والغرض من هذا فيما يبدو ، هو أن خواص الحجر التى تتمثل فى صلابته وتحمله، تنتقل على نحو ما الى حالف اليمين ، وبذلك يتأكد الناس من عدم حنثه بيمينه . فقد كان هناك فى أثينا حجر وقف عليه الرؤساء التسعة عندما أقسموا أن يحكموا بالعدل وفقا للقوانين . كما يقع على بعد من ضريح

القديس كولومبا فى « ايونا » حجر أسود . ولا يرجع وصف هذا الحجر بالسواد الى لونه ، اذ أن لونه رمادى فى الحقيقة . ولكنه وصف بهذا اللون نظرا لتأثيره على من يحنث بيمينه ، وذلك اذا مااتهم شخص بالخيانة بعد أن يكون قد وقف عليه وأقسم اليمين بالطريقة المألوفة ، فالأيمان التى تقسم عليه تكون قاطعة مهما تكن الخلافات بين المتعاهدين .

وقد سلم «ماك ــ درنالد» ملك الايسليين ، أتباعه ، حقوقهم فى أراضيهم التى تقع فى الجزر والقارة ، وذلك بأن رفع يديه وركع على الأحجار السوداء . ثم أقسم أمام كثير من الشهود وهو على هذا النحو ، أنه لن يعود فيطالب بهذه الحقوق التى منحها لهم . وقد كان هذا الاجراء بديلا عن امضائه على صك حقوقهم . ومعنى هذا أنه اذا كان الشخص واثقا مما قد عزم عليه ، فانه يقول بطريقة ايجابية : ان لدى الخيار فى أن أقسم على هذا الموضوع على الأحجار السوداء . وقد كان هناك فى جزيرة « فلادا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهيبريد ، حجر أزرق مستدير كان الناس يحلفون عليه أصدق الايمان . وقد كان من المألوف أن يوضع حجر داخل حائط ملتصق بأبرشية « ليرج » التى تقع فى « سوذر لاندر شاير » ، وكان يسمى حجر العهد . «وقد ذاعت شهرة هذا الحجر بوصفه وسيلة ، بل وسيلة مقدسة ، لعقد الصفقات وضمان الوفاء بالوعد وتوثيق العهود . فاذا أمسكت الأطراف المتفقة على أمر من الأمور بأيدى بعضها البعض فوق هذا الحجر ، فانهم يكونون بذلك قد ألزموا أنفسهم بعهد صارم لا تنتهك حرمته » .

وشبيه بهذه العادات تتبعها أجناس بدائية تعيش فى افريقيا والهند. فاذا اختلف شخصان من « البوجيين » الذين يسكنون افريقيا الشرقية عند حدود الحبشة ، فانهما فى بعض الأحيان يفضان نزاعهما عند حجر بعينه يقف فوقه أحدهما ثم يدعو عليه الشخص الآخر بأن تحل به أقسى اللعنات اذا هو حنث بيمينه . وكلما نطق بلعنة رد عليه رفيقه الذى يقف على الحجر بقوله « آمين » . ويقسم « الأكامبيون » الذين يسكنون فى افريقيا الشرقية البريطانية أغلظ الايمان عند شىء يطلقون عليه اسم «كيثيتو» . وهم يعتقدون أن هذا الشىء تتملكه قوى سحرية تقتل الحانث باليمين . وأمام هذا الشىء توجد سبعة أحجار يقف عليها حالف اليمين بحيث يضع كعبيه على حجرين منها . وفى « نايمو » احدى قرى « النانجهوليين » فى أسام ، توجد كومة من الأحجار الغريبة فى شكلها يقف عليها الناس ليقسموا أيمانهم المقدسة . وفى « جوشيجونح » التى تقع فى تلاد « جارو » فى أسام يوجد كذلك حجر يقسم عليه الناس أكثر أيمانهم قدسية .

فاذا قدم أحدهم ليقسم اليمين ، فانه يصافح الحجر أول الأمر ، ثم يصيح بالاله ، « ماهاديفا » ، ويداه مرفوعتان ومتشابكتان ، وعيناه مثبتتان على التلال ، لكى يشهد على صدق يمينه · وبعد ذلك يلمس الحجر والفزع يشيع فى وجهه ، ويحنى رأسه له ويصيح مرة أخرى بالاله ماهاديفا · وعندما يفصح عن رغبته بعد ذلك يحملق فى التلال ويضع يده اليمنى على الحجر · ويقسم « الجارويون » كذلك وهم واقفون على الأحجار الشهابية ويقولون « ليقتلنى الاله « جويرا » (اله الاضاءة) بأحد هذه الأحجار اذا كنت أقول كذبا » · ونلاحظ أن وظيفة الحجر فى هذه الحالة جزائية أكثر من كونها تأكيد العهد · فالحجر موضوع فى هذا المكان لا لكى يكسب القسم صلابة الحجر بل ليطلب انتقام اله الاضاءة من الحانث باليمين · وربما كان هذا هو الهدف نفسه من القسم « الساموآنى » · ويتلخص هذا القسم فى أنه حينما كان اللصوص يقسمون على براءتهم فى حضرة الزعماء ، فانهم « كانوا يضعون حفنة من الأعشاب على الحجر أو على أى شىء آخر يعتقد فى أنه يمثل اله القرية ثم يقول كل منهم وهو واضع يده على الحجر : « اننى أضع يدى على الحجر فى حضرة زعمائنا المجتمعين ، فاذا كنت قد سرقت الشىء المعنى فلأمت فى الحال » ·

فالحجر فى هذه الحالة الأخيرة ، وربما فى بعض الحالات الأخرى ، كان ينظر اليه على أنه ممتلك لروح الهى يمكنه من أن يسمع القسم وأن يحكم على صدقه وأن يعاقب الحانث باليمين · فالأيمان التى كان يقسم بها على الأحجار التى كان ينظر اليها على أنها آلهة على وجه التأكيد ، كانت كما هو واضح ذات طابع دينى ، حيث انها كانت تتضمن نداء الى القوى الخارقة للعادة أن تحل غضبها بالآثم · على أن الحجر فى بعض الأمثلة الأخرى السابقة ، كان يظن فيما يبدو ، أنه يؤثر تأثيرا مباشرا من خلال خواصه الطبيعية التى يتميز بها وهى الثقل والصلابة وخاصية القصور الذاتى · وبناء على ذلك فان القسم فى هذه الحالات ، أو فى أية احتفالات أخرى ، له طابع سحرى صرف · فالرجل يكتسب خواص الحجر القيمة ، تماما كما يكتسب شحنة كهربائية من بطارية · أى أن الشخص يصاب بالصاعقة فى الحالة الأولى ويكتسب شحنة من الكهرباء فى الحالة الثانية ، اذا أمكننا أن نستخدم هذا التعبير · على أنه ليس من الضرورى أن يكون كلا من المغزى الدينى والسحرى للحجر متميزين على هذا النحو فى أذهان المقسمين ، ذلك أن الغموض والاختلاط يعدان من مميزات الفكر البدائى · وربما كان من واجبنا على الدوام أن نحلل هذا الخلط الغريب الى عناصره ·

ويبدو أن هذين الضربين المختلفين من التفكير ، أعنى التفكيرالسحرى والتفكير الدينى قد تداخلا فى حكاية العهد الذى تم بين يعقوب ولابان عند ركام الأحجار كما تروى فى الكتاب المقدس · فمن الواضح أن الطـرفين المتعاهدين من ناحية ، قد خلعاصفتى الحياة والادراك على الأحجارعندما نادا عليها فى خشوع أن تشهد على اتفاقهم ، تماما كما سأل يوشـــع الحجر الكبير الذى كان يقع تحت شجرة البلوط لكى يكون شاهدا على العهد الذى تم بين الـــرب وبين بنى اسرائيل ، حيث ان الحجر كان قـد سبق له أن استمع الى كلمات الرب التى تحدث بها الى بنى اسرائيل.(١) فركام الأحجار أو الحجر الكبير الذى كان يوضع منتصبا وسطها ، كان أشبه بتمثال « يانوس » (٢) الذى كان له رأسان ينظر بهما فى اتجاهين لكى ينظر بعيون يقظة الى كل من الطرفين المتعاهدين · ومن ناحية أخرى فربما كان أفضل تفسير لتناول الطعام على ركام الأحجار ، ان كان يمكن لهذا التفسير أن يكون سليما ، هو أنه محاولة لاقامة علاقة ودية بين الطرفين المتعاهدين بتناولهما طعاما واحدا فى الوقت الذى يدعم فيه عهدهما عندما يكتسب من الأحجار التى جلسا عليها ، صفتى القوة والصلابة ·

واذا كان القارىء الذى ينحو تفكيره الى الشك ، ما زال يتشكك فيما اذا كانت الأرض التى يقف عليها الشخص يمكن أن تؤثر فى قيمة القسم الأخلاقية ، فاننى أذكره بعبارة «بروكوبيوس» التى يمكن أن تزيل شكه. فقد أخبرنا هذا المؤرخ المدقق عن طريقة اســـتطاع بها ملك فارسى أن يستخلص الحقيقة من شاهد ثائر ضده وكان يميل ، بل يسعى دائما ، لأن يحنث بايمانه · فعندما اعتلى « باكوريوس » عرش بلاد الفرس ساوره الشك فى أن « أرساكيس » ملك أرمينيا التابع له ، قد دبر ثورة ضده · فأرسل فى طلبه وواجهه بخيانته له · فرد ملك أرمينيا عن نفسه هذه التهمة بمهارة ، وأقسم بكل الآلهة بأن مثل هذا التدبير لم يطرأ على ذهنه قط · وعند ذاك دبر ملك الفرس خدعةأرشده اليها سحرته ، يتمكن بها

---

(١) من الأفضل أن نشير هنا الى نص التوراة وهو : « وكتب يوشع هذا الكلام فى سفر شريعة الله · وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التى عند مقدس الرب · ثم قال يشوع لجميع الشعب : ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » ·
(سفر يوشع · الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٦ ، ٢٧) ·

(المترجمة)

(٢) اله الأبواب والبدايات عند الرومان ·

(المترجمة)

من فضـــح الخائن ، فأمر بأن يفرش بلاطه الملكى بروث الحيوان ، بحيث يفرش نصفه بروث فارسى ، والنصف الآخر بروث أرمينى ، ثم ســـار مع مواليه على هذه الأرض وهو يؤنبه على نواياه المخادعة . وهنـــا بــدأ التناقض الغريب فى دفاع الملك الأرمينى عن نفسه ، اذ أنه كان كلمـا وطئت قدماه على الجزء المفروش بالروث الفارسى ، أقسم بأغلظ الأيمان بأنه أخلص خادم للملك الفارسى . ولكنه ما أن ينتقل الى الجزء المفروش بالروث الأرمينى حتى تتغير نغمة حديثه ، واذ به ينهال على مولاه ويهدده بالانتقام من اهانته له ، ويعدد له ما يمكن أن يفعله ضده اذا ما استرد حريته . فاذا عاد وداس بقدمه جزء الأرض المفروش بالروث الفارسى عاد الى تذلله وتضرعه ، واستخدم كل أساليب التذلل فى طلب العفـو من مولاه . وبهذا نجحت الخدعة وافتضح الخائن . ولكنه لما كان يجرى فى عروق هذه الخائن الدم الملكى حيث انه كان «أرساكيدى» ، فان ملك فارس لم يأمر بقتله ، وانما عاقبه كما يعاقب الأمراء المذنبين ، فحبس طيلة حياته فى سجن يسمى « قلعة النسيان » . وسبب هذه التســـمية هو أن السجين اذا اجتاز مدخله الكئيب وأغلق الباب دونه ، فلا ينبغى لأحد أن يذكر اسمه والا أعدم . وفى هذا السجن كان يدخل الخائنون ويظلون به حتى تفسد أجسامهم ، وفى هـــذا السجن قضى ملك أرمينيا الحانث باليمين بقية أيام حياته .

ويبدو أن عادة تشييد ركام الأحجار بوصفها شاهدا على العهـــد لم تنقرض فى سوريا حتى اليوم . فمن أشهر الأضرحة التى توجد هناك ضريح هارون الذى يقع على جبل هور (١) . ويزور الحجاج هذا القبر ويتضرعون للنبى هرون أن يشـــفى مرضاهم ، ثم يجمعون الأحجـــار ويشيدونها فى شكل قبوة لتكون شـــاهدا على الأيمان التى يقسمونهـــا على لسان مرضاهم .

---

(١) اسمه الحالى : جبل عكار ـ P. Abel, op. cit., I, p. 302. (المراجع)

الفصل السابع

يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق

بعد أن افترق « يعقوب » عن « لابان » عند ركام الأحجار ، سار في طريقه في رفقة زوجاته وأبنائه وقطعان ماشيته ، متجها الى الجنوب، تاركا وراءه جبال جلعاد الشاهقة الباردة التي تكسوها الغابات ، وشق طريقه في ربوع وادى يبوق العميق الذى يقع على بعد آلاف الأقدام أسفل الجبال • والهبوط الى هذا الوادى من فوق قمم الجبال يستغرق عدة ساعات • فاذا وصل المسافر الى أسفل تلك الوهدة العميقة بعد هذه الرحلة الشاقة ، فانه يشعر أنه قد مر فى أجواء طبيعية مختلفة ، فمن الجبال العالية التى يهب فيها النسيم البارد وتغطيها غابات الصنوبر يهبط الى قرية «برمة» ذات الجو الصحى المنعش خلال مسافة ساعة من الزمن ، حيث تنتشر أشجار الفاكهة والشجيرات والأزهار ، وحيث يطفىء المسافر ظمأه من المياه الباردة التى تتدفق من نبع جميل عندما يخلد للراحة فى الظهيرة • فاذا استمر فى الهبوط فانه يسير منحدرا الى مسافة ألفى قدم حيث يشعر بأنه يتنسم الهواء الحار وسط مزروعات غنية شبه استوائية تنتشر فى أعماق وادى نهر يبوق الكبير • وهذا الأخدود موحش ورائع كل الروعة ، وعلى جانبيه ترتفع الصخور فى شكل

عمودى على وجه التقريب الى ارتفاع شاهق ٠ فاذا نظرت الى أعلى من خلال الصخور الناتئة أو المنحدرات ، فان بصرك يصطدم بزرقة السماء ٠ أما عند أسفل هذا الأخدود العتى ، فيتدفق نهر اليبوق بتياره القوى ٠ وتختفى مياهه الزرقاء ، وان يكن لمسافة قصيرة ، وسط غابة كثيفة من أشجار الدفلى الطويلة التى تضفى أزهارها القرمزية لونا ذهبيا على الوهدة فى الصيف المبكر ٠ ويجرى النهر الأزرق ، كما اصطلح على تسميته اليوم ، فى سرعة وقوة ، اذ قد يصل ارتفاع مياهه ، حتى فى الأيام العادية الى سرج الفرس ، بل انه فى بعض الأحيان يتعذر الخوض فى مجراه حيث تفيض مياهه على الأعشاب والأحراش التى تنمو على شاطئيه المرتفعين٠ وطريق الصعود من مخاضة النهر عند الجهة المقابلة له ، اى فى الجانب الجنوبى ، منحدر للغاية ، ذلك أن الطريق يلتف فى أثناء صعوده ، بحيث يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه ٠ وفى هذا الطريق الصاعد الطويل كان يعقوب يسير وحده متلكئا الى جانب المخاضة وقت الغسق ، وهو يرقب البعير المتعب ويسمع صياح الرعاة وقد أخذت أصواتهم تخفت فوقه شيئا فشيئا ، حتى اختفى مرآهم كما اختفت أصواتهم على البعد وفى الظلام ٠

وربما ساعدنا هذا المنظر على تصور المغامرة الغريبة التى خاضها يعقوب عند عبوره النهر ٠ وكان قد أرسل قدامه زوجاته وأولاده وخادماته ليخوضوا النهر على ظهور الجمال ٠أما قطعان ماشيته ورعاتها فقد سبقت القافلة أو لحقت بها ٠ وبذلك بقى يعقوب وحده فى مخاضة النهر ٠ ولقد كان الوقت ليلا ، وكانت ليلة من ليالى الصيف يسطع فيها القمر فيما يبدو، اذ لم يكن من المعقول أن يحاول يعقوب عبور النهر بهذه القافلةالطويلة فى الظلام ، أو فى الشتاء ، عندما يكون مجرى النهر سريعا وعميقا ٠ ومهما يكن الأمر فقد بدا ليعقوب رجلا أخذ يناضل مع يعقوب طوال الليل حتى بزغ الصباح وأخذ ضوؤه يتسرب الى ذروة الغابات التى تنتشر فى أعلى جوانب الوادى فوق الرجلين المتصارعين فى ظلال الوادى ٠ ثم نظر هذا الشخص الغريب الى أعلى وأبصر الضوء فقال ليعقوب : « أطلقنى لأنه قد طلع الفجر » (١) ٠ وعلى هذا النحو كذلك انتزع جوبيتر نفسه من بين أذرع «الخمينا» المغرمة به قبل بزوغ الغسق ، كما اختفى شبح والد « هملت » عند صياح الديكة ٠ وكذلك حذر مفيستوفيليس فاوست وهو فى سجنه وضربات المشنقة ترن فى أذنه ، أن يسرع لأن

---

(١) سفر التكوين ٠ الاصحاح الثانى والثلاثون آية ٢٦ ٠

النهار ، وهو آخر نهار فى حياة « جريتشى » قد أوشك على البزوغ · ولكن يعقوب تعلق بالرجل الغريب وقال له: « لا أطلقك ان لم تباركنى»(١) وعند ذاك سأله الرجل الغريب عن اسمه ، وعندما ذكر يعقوب اسمه أجابه هذا الشخص قائلا : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » (٢) · ولكن عندما استفسر يعقوب عنه قائلا : « أخبرنى باسمك » (٣) · رفض هذا الرجل أن يذكر اسمه ولكنه منح يعقوب البركة التى طلبها واختفى · وعند ذاك أطلق يعقوب على هذا المكان اسم « فنيئيل » أى « وجه الرب » · فلقد فسر هذا الاسم بقوله : « لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٤) · وسرعان ماأشرقت الشمس بعد ذلك وسطعت على وجه يعقوب · ولكنه وجد نفسه يعرج اثر ذلك ، اذ كان خصمه قد مس عظمة فخذه فى أثناء صراعه معه . «لذلك لايأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ الى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا» (٥) ·

والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل ان مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا فيها رائحة الوثنية . ومن ثم فان أى تفسير لها انما يعتمد على الفرض . ولكننا اذا ربطنا هذه القصة بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها من ناحية ، واذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها التى سنعرض لها وشيكا من ناحية أخرى · فاننا نفترض بادىء ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه · وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان الماشية ، وبقاءه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر · وربما حسب يعقوب أن اله النهر المنعزل يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار الدفل التى تنمو على مسافة آمنة بعيدة ، حتى اذا ما مر الركب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت التيار الرتيب الهامس ، دفعه الفضول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ،

---

(١) سفر التكوين · نفس الاصحاح والآية ·

(٢) سفر التكوين · نفس الاصحاح آية ٢٨ ·

(٣) سفر التكوين · نفس الاصحاح آية ٢٩ ·

(٤) سفر التكوين · نفس الاصحاح آية ٣٠ ·

(٥) سفر التكوين · نفس الاصحاح آية ٣٢ ·

ويعرف سبب هذا الهرج والمرج · وعند ذاك يكون يعقـوب الماكر فى انتظاره ، فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على البركة التى يسعى اليها · وقد كان « مينيلاوس » قد أمسك على هذا النحو باله البحـر « بروتيوس » الذى كان يرقد منعزلا وقت الظهيرة بين الحواجز وفـوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته وهو ممتنع عن ذلك · وعلى هذا النحو كذلك أمسك «بيليبوس» بالهة البحر «ثيتيس» واتخذها زوجة له · وفى كلتا الأسطورتين الاغريقيتين حاول روح الماء ذو الجسد الطبع الأملس ، أن ينزلق من قبضة آسره مرة بعد الأخرى مغيرا شـكله من أسد الى حية ، ومن حية الى سائل وهكذا ، حتى وجد فى النهاية أن محاولاته تضيع هباء وأنه لن ينجح فى الانفلات من يد خصمه العنيد ، فرضخ لمطلبه وأعطاه المنحة التى يسعى اليها · وكذلك حول اله النهـر أشيليوش نفسه الى حية ثم الى شبح لكى ينفلت من البطل الجرىء هرقل الذى أمسك به لكى يستولى على « ديجانيرا » الجميلة ، ولكن محاولات اله النهر ضاعت هباء ·

وكل هذه الأساطير المشابهة لأسطورة يعقوب تؤكد أن غريـم يعقوب فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية قد حاول أن يغير شـكله لـكى يهرب من آسره اللحوح · وربما اتضح أثر هذا التحول فى الحكـاية التى تحكى عن ظهور الرب للنبى « اليا » عند جبل « حوريب » · فربما تحول الرب المتمنع فى الشـكل الأصلى لهذه الحكـاية الجلية الى ريح وزلزال ونار على التوالى لكى يهرب من النبى ، ولكنه هزم أمام اصراره، وكشف له عن نفسه فى صوت خافت رقيق (١) · ذلك أنه من الملاحظ أن أرواح المياه لا تنفرد من بين الكائنات الخارقة للعادة بمنحها البركـة أو النبوءة لهؤلاء الذين ينتظرونها ويمسـكون بها · فقد قيل ان الاله « الفريجيانى » « سيلينوس » كان يمتلك على الرغم من عاداته الطائشة ، مقدرة كبيرة على المعرفة التى لم يكشف عنها مضطرا الا الى «بروتيوس». وقد استطاع « ميداس » ملك « فريجيا » أن يمسك بهذا الاله فى لحظـة ضعف ، عندما قدم له الملك خمراممزوجا بماء نبعبعينه ، فشربه متلطفا. فلما صحا من سكره وجد « سيلينوس » نفسه أسيرا ، وكان عليه أن

---

(١) « واذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شـقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب · ولم يكن الرب فى الريح · وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة · وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار وبعد النار صوت منخفض خفيف » ·
(سفر الملوك الأول ــ الاصحاح التاسع عشر من آية ١١ ــ ١٣) ·

يؤنب الملك بحديث طويل عن الدنيا وغرور الانسان ، حتى أطلق الملك سراحه . وقد احتفظ لنا بعض كتاب العصر القديم المبجلين بنص دقيق فى قليل أو كثير لتلك الخطبة التى ألقاها الاله السكير المرح بجانب نبع أو بجانب حوض من الزهور . كما قيل ان « نوما » قد أمسك بالالهين الساذجين « بيكوس » و « فاونوس » عن طريق خدعة شبيهة بخدعة ميداس وارغماهما على ن يأتيا « بجوبيتر » من السماء عن طريق سحرهما وتعاويذهما .

وربما استطعنا أن ندعم وجهة نظرنا فى أن خصم يعقوب الذى ظهر له عند مخاضة نهر اليبوق ، هو اله النهر نفسه ، اذا لاحظنا أنه كان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التى تخشى لخطورتها وتقلبها . وينصح « هيزيود » من يعبر النهر قائلا : « عليك قبل أن تعبر النهر ، أن تنظر الى المياه الجارية وأن تصلى وتغسل يديك ، لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه ، فانه يتعرض لغضب الآلهة » . وعندما عزم « كليومينيس » ملك اسبرطة على غزو « أرجوليس » ، جاء بجيشه عند شواطىء «أراسينوس» وقدم ضحية للنهر . ولكن النبوءة نصحت بعدم عبور النهر . عند ذاك ، أشار الملك أنه على الرغم من اعترافه بوطنية اله الماء فى عدم خداعه قومه ، فانه يصر على غزو «أرجوليس» . ثم قاد جيشه الى الشاطىء وقدم ثورا ضحية للنهر ونقل جيشه فى سفن الى بلاد العدو . وعندما تجمع الفرس تحت زعامة « اكسيركس » عند نهر « ستريمون » قدم الماجيانيون أفراسا بيضاء ضحية للنهر كما قاموا بشعائر أخرى قبل عبوره . وبالمثل قدم « لوسولوس » على رأس الجيش الرومانى ثورا ضحية لنهر الفرات قبل أن يعبره . وكان «البروفيانيون» يقفون على شاطىء النهر ويأخذون جرعة منه ويشربونها ثم يتضرعون لاله النهر لكى يدعهم يعبرونه أو لكى يمنحهم السمك ، وبعد ذلك يرمون فيه حبوب الذرة لاسترضائه . بل ان الهنود الكولديلاريين ما زالوا حتى اليوم يقومون بشعيرة تجرع جرعة من مياه النهر قبل أن يعبروه سيرا على الأقدام أو ممتطين ظهور الأفراس » . وكان سكان ويلز القدماء «يدقون الأرض بأرجلهم ثلاث مرات قبل أن يعبروا المجرى المائى فى الظلام ، وذلك لكى يحولوا عنهم غضب الأرواح والسحرة » .

وتعتقد قبائل البانتو التى تسكن فى افريقيا الجنوبية الشرقية أن « الأنهار تسكنها الشياطين أو الأرواح الشريرة ، ومن ثم كان من الواجب

استرضاء هذه الأرواح قبل عبور مجرى مائى مجهول لديهم ، وذلك بالقاء حفنة من الذرة فيه أو أى شيء آخر ، وان لم تكن له أية قيمة فعلية » .
وعندما يعبر الماسيون الذين يسكنون افريقيا الشرقية مجرى مائيا ، فانهم يرمون فيه بعض الحشائش بوصفها هبة له ، ذلك لأن الحشائش التى تعتمد عليها ماشيتهم فى غذائها ، تلعب دورا أساسيا فى معتقدات الماسيين وطقوسهم . وقبل أن يخوض المسافر النهر عند « الباجانديين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى ، فانه يسأل روح النهر أن يجعل عبوره آمنا ، ثم يرمى له ببعض حبوب البن منحة له . فاذا جرف التيار شخصا الى عرض الماء ، فان أصدقاءه لا يحاولون انقاذه ، لأنهم يخشون أن يأخذهم روح النهر كذلك اذا ماحاولوا انقاذ صديقهم الغريق ، ذلك أنهم يعتقدون أن الروح الذى يحرس هذا الشخص قد تركه تحت رحمة روح النهر ، ومن ثم فهو ميت لا محالة . وقد كانت توجد فى أماكن معينة عند نهرى « ناكيزا » و « سيزيبوا » فى أوغندا كومة من الأعشاب والعصى على كل من شاطئيه ، وكان كل من يعبر أحد النهرين يطرح بعض الأعشاب أو العصى على تلك الأكوام قبل أن يعبر النهر . وكان هذا بمثابة منحة لروح النهر حتى تضمن له عبوره الآمن . وكان الناس بين الحين والآخر يضعون عند هذه الأكوام منحا أغلى ثمنا ، كأن يحضرون معهم بعض الجعة أو حيوانا أو دجاجة أو بعض الأقمشة المصنوعة من لحاء الشجر ، ويربطون هذه الأشياء فى كومة الأعشاب أو العصى ويتركونها هناك ثم يرحلون بعد أن يصلوا لروح الماء . بل ان الكاهن كان يقوم بواجب التقديس لهذين النهرين ، وان لم تكن توجد هناك معابد لهذا الغرض . وقد اشتهرت عشيرة « بين » بصفة خاصة بعبادتها لنهر « ناكيزا » ، وكان شيخ هذه العشيرة هو الكاهن . فاذا فاض النهر ، لم يكن يحاول أى فرد من أفراد هذه العشيرة أن يخوض فى النهر ، وكان الكاهن يمنعهم فى صرامة من العبور ، ومن كان يفعل ذلك منهم كان يقتل .

ويعترض مجرى نهر النيل عند مكان ما فى أعاليه يسمى « شلالات كاروما » ، صف من الأحجار العالية . وهناك تنحدر المياه عبر منحدر طويل أشبه بالبوابة الى عمق عشرة أقدام . وتحكى الرواية الشعبية أن هذه الاحجار وضعها «كاروما» الذى كان وسيطا أو أليفا للروح الكبير فى هذا المكان . فسر الروح الكبير بهذا الحاجز الذى شيده خادمه وكافأه بأن أطلق اسمه على هذه الشلالات . وقد تعود ساحر أن يقف عند هذا المكان ليقود مثل هؤلاء الأتقياء الذين يودون عبور النهر . وعندما كان

« سبيك » ورفقاؤه يعبرون نهر النيل عند هذا المكان ، ذبحت جماعة من «البانييوريين» الذين كانوا يسافرون معه ، جديا عند كل شاطىء من شاطئيه بعد أن شقه طوليا وسط صدره وأمعائه ، ثم بسطوا الجديين على ظهريهما فوق الحشائش وفرو الشجر على نحو ما يبسط النسر ، ثم خطت فوقهما الجماعة المسافرة حتى تضمن نجاح رحلتهـــا • وقد قام ساحر الشلالات بتوجيههم الى المكان المناسب لتقديم الضحية •

ويعد نهر «اتورى» أحد الروافد العليا لنهر الكنغو ، الحد الفاصل بين الأرض المعشبة والغابة الكبيرة • « وعندما كنت على وشك أن أعبـر بقاربى المياه الزرقاء المتدفقة فى سرعة ، تلك التى يبلغ اتساع مجـراها مائة وخمسين ياردة ، أبصرت على الشاطىء المقابل لى شكلين مصغرين لبيتين بنيا عند حافة النهر تماما ويشبهان فى كافة تفصيلاتهما أكواخ الفلاحين • وقد أعرض الزعيم الشيخ عن أن يفسر لى مغـــزى هـــذين البيتين ، ولكننى أخبرت بعد لأى أنهما قد شيدا ليكونا فيئا للزعيم السالف الذى أمر بأن يعوض أرواح النهر عن الجهد الذى تبذله فى حراسة طريق الذين يعبرون النهر • ومنذ ذلك الوقت ، عندما توشك قافلة على العبور عند شاطىء النهر ، يحمل قليل من الطعام الى بيتى الأشباح اشارة لهم بأن القافلة تطلب حمـايتهم لعبور النهر» • ويقوم « الأبويون » الذين يسكنون اقليم « أوكا » فى نيجيريا الجنوبية بذبح شاة ودجاجة وتقديمها ضحية للنهر ، اذا كانوا يقومون بدفن جثة ميت ،وكان عليهم أن يحملوها عبر النهر » •

ويعتقد الباداجيون وهم قبيلة تسكن تلال « نيلجهيرى » فى الهند الجنوبية فى وجود اله يسمى « جانجاما » « يتواجد عند كل مجرى مائى بخاصة عند نهرى « كوندى » و « بيكارى » • وقد كان من عادة كل مالك لقطيع من الماشية أن يرمى فى هذين النهرين ، أن شاء أن يعبرهما فى أثناء فيضانهما ، بربع روبية ، اذ كان يحدث دائما أن يجرف تيارهما قطعان ماشيتهم ويغرقاها • ومن بين الآثام الكبيرة التى كانت تعدد للشخص المتوفى فى أثناء القيام بشعائر جنازته ، أنه قد عبر النهر دون أن يدفع دية الولاء للاله جانجاما » • وكذلك كان ينظر « التودايون » وهـــم قبيلة صغيرة ، وان تكن أكثر شهرة من سائر القبائل التى تسكن هذه التلال نفسها ، الى نهرى «تايباكه ــ بايكارا» و «باكهوار ــ أفالانشى» بوصفهما الهين أو مأوى الهين • وقد كان يتحتم على كل من يعبر هـــذين النهرين أن يخرج يديه من ردائه علامة على التبجيل • وفى الزمن الماضى لم

يكن يسمح للناس بعبور هذين النهرين الا فى أيام محددة من الاسبوع ٠ فاذا عبر هدين النهرين المقدسين رجلان يكونان ابنين لأخ وأخته، فانه يتحتم عليهما أن يؤديا شعائر خاصة ، فاذا اقتربا من أحد النهرين فانهما يقطفان بعض الحشائش ويمضغانها ، ويقول أحدهما للآخر : « هل سأنتصر على النهر ؟ هل سأتمكن من عبور النهر ؟ » ٠ ثم يذهبان الى الشاطىء ، ويغمس كل منهما يده فى الماء ثلاث مرات ويملؤها بالماء ويرميه بعيدا عنه ٠ ثم يعبران النهر بعد ذلك وقد أخرج كل منهما يده خارج ردائه على النحو المألوف ٠

وقد أحرقت جثة زعيم مشهور من قبيلة « أنجونى » التى تسكن افريقيا الوسطى البريطانية ، بجوار نهر من الأنهار ٠ بل انه من عادة هذه القبيلة حتى اليوم أن يحيوا النهر عند عبورهم له بتحية عميقة تخرج من أعماق حناجرهم ولا يحيون بها الا ملوكهم٠ واذا عبر أحدهم أى نهر من الأنهار فى قارب ، فانه يعترف أمامه بكل آثام خيانته التى كان متهما بها فى حق رفاقه٠ وهو يفعل هذا فيما يبدو ، بناء على تصوره أنه ان لم يفعل هذا فسوف يغرق فى النهر ٠ ويعتقد « الترود جانيون » الذين يسكنون « سيليبيس الوسطى » أن أرواح المياه التى تتقمص أشكال حيات تسكن البحيرات العميقة ومنحدرات الأنهار ٠ ومن ثم فان الناس يتخذون حذرهم من هذه الكائنات الخطيرة ٠ فاذا كان التروورادجى على وشك أن يقوم برحلة عبر النهر ، فانه غالبا ما يصيح وهو واقف على الشاطىء ويقول : « لن أقوم بهذه الرحلة اليوم ، سأقوم بها غدا » ٠ فاذا استمعت الأرواح الى هذا القول ، وكان من بينهما روح يتربص بالمسافر ، فان هذا الروح يصدق أن رحلة هذا الرجل قد تأجلت حقا الى الغد ، ومن ثم فهو يؤجل كذلك طعنته له الى اليوم التالى ٠ وفى أثناء ذلك يهبط الترود جانى الماكر الى النهر فى هدوء ، وهو يسخر فى أكمامه من سذاجة روح الماء الذى استطاع أن يخدعه .

وعلى الرغم من أن الأسباب الحقيقية التى تدعو الى اتباع هذه العادات التى تختص بتقديس الأنهار ستظل مجهولة لنا ، الا أنه يبدو أن الدافع العام وراء اتباعها هو الخوف والفزع من الأنهار التى ينظر اليها اما على أنها كائنات مشخصة قوية أو أنها مأوى لأرواح قوية ٠ وتتضح كل الوضوح فكرة أن النهر كائن مشخص فى هيئة نهر من خلال عادة تنتشر بين « الكاكهيين » الذين يسكنون بورما الشمالية ٠ فاذا حدث أن غرق أحدهم فى النهر فى أثناء عبوره ، فان الشخص الذى يقع على

عاقته الانتقام من النهر يتردد على شواطىء النهر الآثم مرة كل عام ، ويملأ وعاء بمائه ويضربه بسيفه كما لو كان يضرب عدوا آدميا • وقد حدث ذات مرة فيما يقال ، أن فاض نهر النيل حتى غطى الأرض بمقدار ثمانية عشر ذراعا ، وأخذت الرياح القوية تقذف بالأمواج على بعد ، وعند ذاك أمسك فرعون برمحه وأخذ يضرب به التيار الجارف ، ولكنه عوقب بسبب اندفاعه وقلة ورعه بفقد بصره • ومرة أخرى نقرأ أنه عندما سار « كيروس » لغزو بابل ، وكان يعبر نهر « جينديس » ، جرف التيار أحد أفراسه البيضاء المقدسة التى كانت تصاحب الجيش فى مسيرته وأغرقه • فهدد الملك النهر وهو فى ثورة غضبه من ارتكاب النهر لهذا الجرم ضد مقدساته ، بأن يجعل مياهه ضحلة حتى يمكن للمرأة أن تخوض فيها دون أن تبتل ركبتاها • وبناء على ذلك أمر جيشه بحفر قنوات تحولت اليها مياه النهر من مجراه الرئيسى • وبهذا انشغل الجيش طوال الصيف فى تحقيق الرغبة الطفولية لهذا الطاغية المستطير ، بدلا من أن ينشغلوا بغزو بابل .

وليست أرواح الأنهار هى الكائنات الالهية الوحيدة التى حاربها الرجال الجريئون أو عاقبوها • فعندما أطاحت العاصفة بأول جسر شيده « اكسيركس » عند « هيليس بونت » ليمر عليه جيشه ، أصدر الملك حكمه على المضيق فى ثورة من غضبه بأن يضربه ثلاثمائة ضربة وأن يقيده بالسلاسل . وبينما كان الناس ينفذون هذا الحكم ويضربون المياه بأسواطهم ، كانوا يصيحون : « أيتها المياه المرة ، ان سيدك قد أنزل بك هذا العقاب لأنك أخطأت فى حقه ، وهو الذى لم يسبق له أن أخطأ فى حقك • وسوف يعبرك الملك اكسيركس طوعا أو كرها • وانك لتستحقين الا يقدم أحد لك الضحية لأنك مياه مخادعة ومذاقك مر» . وقد قيل : ان الكلتيين القدماء كانوا يخوضون وسط الأمواج وهى تتخبط على الشاطىء ، ويضربونها بسيوفهم ورماحهم ، كما كانوا يريدون اصابة المحيط نفسه بجراح أو بث الرعب فى نفسه • ويحكى الترودجايون الذين يسكنون « سيليبس الوسطى » أن قبيلة من قبائلهم كانت تشتهر بتصرفاتها الحمقاء ، جاءت الى شاطىء البحر فى أثناء جزره ، وابتنوا فى الحال كوخا عند شاطىء المياه مباشرة • فلما جاء مد البحر ، وهدد الكوخ ، تصوروا أن البحر كائن مهول يريد أن يبتلعهم، ومن ثم فقد حاولوا تهدئة غضبه بأن رموا له بكل مؤونة أرزهم • ولكن لما استمر المد فى الازدياد ، هووا على الماء بسيوفهم ، ورماحهم وسكاكينهم القاطعة ، بقصد اصابة الكائن الخطير بجراح أو افزاعه حتى يضطر الى التراجع • كما حدث ذات مرة أنه عندما

كانت جماعة من « الأرافوويين » ، وهم قبيلة جبلية تسكن الساحل الشمالى التابع لغينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهولندى ، تلهو بين الأمواج، جرفت موجة منحسرة ثلاثة منهم وأغرقتهم • ولكى ينتقم رفقاؤهم لغرقهم ، صوبوا بنادقهم وسهامهم ورماحهم عدة ساعات الى الأمواج المتلاطمة • وربما مكنتنا هذه الحكايات التى تشخص المياه بوصفها كائنا حيا يمكن أن يعتريه الفزع وأن تقهره القوة الجسدية ، من تفسير مغامرة يعقوب الغريبة عند مخاضة نهر اليبوق .

أما ما يحكى من أن يعقوب أصيب فى عصب معين فى فخذه أثناء صراعه مع خصمه الذى ظهر له فى أثناء الليل ، فمن الواضح أنها محاولة لتفسير امتناع العبريين عن أكل الجزء المقابل لهذا عند الحيوان • وكل من هذه الحكاية وتلك العادة ، لها مايماثلهما لدى بعض القبائل الهندية التى تسكن أمريكا الشمالية ، هؤلاء الذين يقطعون على الدوام باطن ركبة الغزال الذى يذبحونه ويرمونها • ويقدم الهنود الشيروكيون سببين لاتباع هذه العادة : أولهما «أنه عندما يتمزق هذا العصب ، يتقلص داخل اللحم ، ومن ثم فكل من يأكل ، لسوء حظه ، من هذا الجزء فان أطرافه تتقلص على هذا النحو » • أما السبب الثانى فهو أنه اذا أكل الصياد هذا الجزء ولم يفصله ويرمه ، سرعان ما يحل به التعب فى رحلته . وكلا السببين يشير الى عقيدة سحر المشاركة ، وان كان مفعول السحر يختلف فى كلا السببين ، فالسبب الأول يفترض أنه اذا أكل شخص من الجزء الذى تقلصت العضلة بداخله ، فان الجزء المقابل لذلك فى جسم الانسان يتقلص كذلك • أما السبب الثانى فيبدو أنه يفترض أنك اذا قطعت العصب الذى لا يستطيع الغزال السير بدونه ، فانك بالمثل تكون عاجزا عن السير على هذا النحو • وكلا السببين يرتبط كل الارتباط بفلسفة الانسان البدائى • وربما كان أحد التفسيرين كافيا لفهم مثل هذا التحريم عند العبريين • ويمدنا سفر التكوين ، وفقا لهذه النظرية ، بقانون دينى لعادة كانت ترتكز فى الأصل على عقيدة سحر المشاركة وحدها .

وحكاية صراع يعقوب مع الشيخ الذى ظهر له فى الليل ، بقصد انتزاع البركة من خصمه المتمنع قبل الغسق ، لها ما يناظرها فى خرافات المكسيكيين القدماء • فقد كان هؤلاء يعتقدون أن الاله الكبير «تزكاتليبوكا» تعود أن يتجول فى أثناء الليل فى هيئة مارد يلتف فى ملاءة ذات لون رمادى ويمسك رأسه بيديه • وعندما أبصر الناس الجبناء هذا الشبح المخيف . سقطوا على الأرض مغشيا عليهم ، وماتوا اثر ذلك • على أن

رجلا شجاعا من بينهم أمسك بالشبح وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس . فتوسل الشبح اليه أن يتركه ، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك فسوف يحل عليه اللعنة . وكان على الرجل ان شاء أن ينتصر على الشبح المخيف ، أن يظل ممسكا به بشدة الى أن توشك الشمس على البزوغ . فاذا نجح فى هذا غير الشبح من نغمته ، ووافق على أن يمنح الرجل أى هبة يطلبها مثل الثروة والقوة التى لا تقهر ، بشرط أن يرفع الرجل يده عن الشبح ويدعه يرحل قبل الغسق . وقد تسلم الانسان المنتصر من خصمه المهول الذى انهزم فى مشادة عنيفة مع الانسان أربع شوكات من نوع معين علامة على نصره . وطبيعى أن مثل هذا الرجل الجرىء ينتزع قلب الشبح من صدره ويلفه فى قطعة من القماش ويحمله معه الى بيته . ولكنه عندما عاد الرجل بغنيمته الى بيته ، وخلع النقاب عنها لم يجد شيئا سوى بعض الريش الأبيض أو شوكة أو ربما حفنة من الرماد أو طنفسة مهلهلة .

الفصل الثامن

قدح يوسف

عندما جاء اخوة يوسف الى مصر ليحصلوا على القمح فى أثناء فترة المجاعة ، وكانوا على وشك أن يعودوا الى فلسطين ، أمر يوسف أتباعه أن يخفوا قدحه الفضى الذى يشرب منه فى جوال أخيه بنيامين · وما كاد الاخوة يخرجون من المدينة ، وأصبحوا على بعد خطوات منها ، حتى أرسل يوسف خادمه فى اثرهم متهما اياهم بسرقة القدح · ومن ثم أخذ يبحث فى أجولتهم حتى عثر على القدح المفقود فى جوال بنيامين · وعند ذاك أخذ الخادم يعنف الاخوة على نكرانهم لجميل سيده الذى عاملهم فى كرم ، فاذا بهم يقابلون هذه المعاملة الطيبة بسرقة قدحه الثمين · ثم قال لهم الخادم «لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير . أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه وهو يتفاءل به · أسأتم ما صنعتم (١) » وعندما رجع الاخوة الى يوسف أعاد عليهم هذه العبارات التأنيبية وقال لهم : « ما هذا الفعل الذى فعلتم · ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاءل (٢) » · ويمكننا أن نخلص من هذه العبارة أن يوسف كان يتباهى بصفة خاصة بمقدرته على اكتشاف اللص عن طريق قدح التكهن ·

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الرابع والأربعون آية ٤ ، ٥

(١) سفر التكوين الاصحاح الرابع والأربعون آية ٤ ، ٥

وليست عادة استخدام القدح وسيلة للتكهن بالعادة غير المألوفة في الزمن القديم والحديث معا ، وان اختلفت طريقة استخدامه لهذا الغرض . فنحن نقرأ أن الفيلسوف «ازيدوررس» الذى كان من اتباع مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، تقابل مع امراة متدينة كانت تمتلك مقدرة غريبة على التكهن . وقد تعودت هذه المرأة أن تصب ماء رائقا فى قدح زجاجى ، وتتنبأ من خلال مايتراءى لها فى المياه بالحوادث التى ستحدث فى المستقبل وقد كان التكهن عن طريق النظر فى الماء يعد نوعا من أنواع التكهن ، وقد أطلق عليه الاغريق اسم «هيدرومانتيا» . وفى بعض الأحيان كان يوضع فى الماء حجر كريم من نوع معين لكى يستحضر عن طريقها صور الآلهة . وقد قيل ان الملك «نوما» كان يتكهن عن طريق صور الآلهة التى كانت تبدو له فى الماء ،وأنه كان يستخدم قدحا لهذا الغرض. ومن المحتمل أكثر من ذلك انه كان يرى صور الآلهة على صفحة مياه النبع المقدس « ايجيريا » ، وذلك عن طريق الروح الذى كان مقترنا به . وعندما كان « الترالیون » الذين كانوا يسكنون «كاريا» يرغبون فى التحقق من نتيجة الحرب «الميثريداتية»، كانوا يستخدمون صبيا يعلن ، عندمايحملق فى الماء ، أنه يرى صورة الاله « ميركورى » ، ثم يتغنى من خلال الكشف الالهى بالحوادث المستقبلة ، بمائة وستين بيتا من الشعر . وقد قيل ان الفرس كانوا يشتهرون بمقدرتهم على التكهن من خلال النظر فى الماء ، وقد انتقلت هذه الطريقة فى التكهن الى الغرب عن طريقهم بحق .

على أننا ليس لدينا علم بالطريقة التى اتبعها يوسف فى الكشف عن السارق أو أية أمور أخرى عن طريق قدحه السحرى ، ولكننا نعتقد أنه كان يستمد استدلالاته عن طريق الصور التى كانت تتراءى له فى الماء . ومن المؤكد أن هذه الطريقة فى التكهن لا تزال تتبع فى مصر ، وربما كانت منتشرة فى هذا البلد المحافظ على التقاليد منذ العصور القديمة . والاسم الحديث لهذه الطريقة فى التكهن هو « المرآة السحرية » . « وهى تستخدم على نطاق واسع على النحو التالى : يطلب من غلام ساذج (لا يزيد عمره على اثنى عشر عاما) أن ينظر فى قدح مملوء بالماء ومنقوش عليه بعض العبارات، بينما تلصق فى غطاء رأسه من الداخل ورقة منقوش عليها كتابات كذلك وتتدلى فوق جبينه . ثم يعطر هذا الغلام بالبخور بينما يتمتم المشعوذ ببعض العبارات . فاذا سئل الغلام بعد وقت عما يراه فى القدح ، فانه يقول انه يرى شخوصا تتحرك فى الماء كما لو كانت تتحرك فى مرآة . عند ذاك يطلب منه المشعوذ أن يصدر أوامر للروح بأن تنصب خيمة على سبيل المثال ، أو أن تحضر

القهوة والفليون ، فتلبى هـذه المطالب فى الحال . ثم يطلب المشعوذ من المتفرجين الفضوليين أن يذكروا اسم شخص يرغبون فى أن تظهر صورته على صفحة الماء فيذكروا له اسم شخص حى أو ميت ٠ وعند ذاك يأمر الغلام الروح أن تحضر له هذا الشخص ٠ وفى لحظات تظهر صورة هذا الشخص على صفحة الماء ويأخذ الغلام فى وصفه . ولكن الأوصاف التى يسردها كما رأينا ذلك بأنفسنا ، تبتعد دائما عن الحقيقة ٠ فاذا ووجه لغلام بذلك اعتذر بأن الصـورة التى ظهرت أمامه لم تتوسط القدح ، وظل نصفها دائما مختفيا ٠ على أنه كان يرى فى أحيان أخرى صور الشخوص كما هى ، بل كان يراها متحركة ٠ واذا حدثت سرقة ، سئلت المرآة السحرية فى بعض الأحيان عن السارق كما شاهدنا ذلك بأنفسنا فى احدى المناسبات ٠ (ويطلق على هذه العملية اسم ضرب «المندل» . وفى هذه المناسبة اتهم الصبى شخصا ثبتت براءته كلية بعد ذلك ، ولكن الصبى اتهمه عمدا بالسرقة ، كما اتضح لنا ، رغبة فى ايذائه ٠ ولهذا السبب فقد كافحت الحكومة هذه الشعوذة التى كانت منتشرة على نطاق واسع فيما مضى ٠ ومع ذلك فان الناس ما زالوا يمارسونها حتى اليوم .

وقد تكون المرآة السحرية التى تستخدم فى التكهن فى مصر حبرا يصب فى راحة يد المشعوذ بدلا من كونها قدحا ممتلئا بالماء، ولكن الاجراءات التى تتبع فى كلتا الحالتين واحدة ٠ فالمشعوذ يدعى أنه يرى صور الشخوص التى يطلب المتفرج استحضارها ، أحياء كانوا أم أمواتا ٠ كما تستخدم مرآة الحبر السحرية فى الكشف عن السارق وعن أمور أخرى، كما هو الحال مع القدح الممتلىء بالماء ٠ والأشخاص الذين يستعان بهم فى هذا الغرض هم الصبية دون البلوغ ، والفتاة العذراء ، وعبدة سوداء ، والمرأة الحامل . ولكن يبدو أن الصبى دون البلوغ كان أكثرهم استخداما فى هذا الغرض ٠ فيرسم فى راحة يد الصبى مربع سحرى بالحبر ، وفى وسط هذا المربع يصب الحبر الذى يكون المرآة السحرية ٠ وبينما يحملق المتكهن فى هذه المرآة ، يحرق البخور وتحرق معه ورقة مكتوب عليها بعض التعاويذ ٠ وعندما كان « كينج ليك » فى مصر أرسل فى طلب ساحر ليقدم له نموذجا من هذا السحر الذى يمارسه ٠ وكان هذا الساحر رجلا ذا هيبة وله لحية طويلة ، ويرتدى عمامة كبيرة تلفت النظر وملابس فضفاضة ٠ ثم جاء هذا الساحر بصبى وجعله يحملق فى الحبر الذى وضعه فى راحة يده ليصف شكل الرجل الانجليزى الذى يذكر اسمه « كينج ليك » ٠ وعند ذاك طلب « كينج ليك » استحضار

صورة ناظر مدرسته فى « اتون » واسمه « كيت » · وكان هـــذا الناظر شرسا مستبدا قصـــير الجسم ذا مزاج حـــاد ، وله حاجبـان أشعثان يضرب لونهما الى الحمرة ، الى غير ذلك من الملامح التى تتفق مع هذه الصفات · وعند ذاك قال الصبى أنه يرى فى مرآة الحبر صـــورة فتاة شقراء ذات شعر ذهبى وعينين زرقاوين ووجه شـــاحب وشـــفاة حمراء · فلما انفجر « كينج ليك » فى الضحك أثر هذا التصريح ، أعلن الساحر الذى انتابته الربكة ، بأن هذا الصبى لا بد أن يكون قد ارتكب اثما ، ومن ثم فقد ركله برجله وطرده ·

وقد كانت هناك أشكال أخرى من التكهنات تتبع فى جهات أخرى من انحاء العالم . فقد كان الناس قد تعودوا فى الدول الاسكندنافية أن يذهبوا الى منجم مساء كل خميس لكى يروا فى الدلو المتلىء بالماء صورة السارق الذى سرقهم . وليست عند التاهيتيين « سوى وسيلة واحدة لاكتشاف سارق أى نوع من السرقة ، وذلك بأن يلجأوا الى شخص تتملكه روح التكهن ، ويؤكد لهم على الدوام أنه قادر على رؤية وجه السارق ينعكس على صفحة ماء موضوع فى قرعة مفرغة » · ويدعى بعض المتكهنين فى نيو غينيـــا الجنوبية الشرقية أنهم يكشفون عن وجه الآثم فى صفحة المياه فى بركة يذاب فيها بعض زيت جوز الهند · واذا خرج رجل عند الاسكيمو فى رحلة بحرية ولم يرجع فى الوقت المحدد لرجوعه ، فانهم يلجأون الى ساحر يتعهد بأن يؤكد لهم ما اذا كان هذا الشخص ما زال على قيد الحياة أم أنه قد توفى · ومن ثم فانه يستدعى أقرب قريب لهذا الشخص المتغيب ، فيقوم برفع رأس الساحر بعصاه ويدعه ينظر فى برميل به ماء ، ثـم يعلن الساحر أنه يرى على صفحة الماء صورة البحار المتغيب وقد انقلب به القارب ، أو يراه جالسا فيه ويجدف بمجدافه · وبذلك يهدىء من نفس أقاربه القلقين عليه بأن يؤكد لهم سلامته ، أو أنه يحمل لهم نبأ وفاتـه فيدعهم لأحزانهم ·

على أن الوعاء المتلىء بالماء لا يمثل الوسيلة المادية الوحيدة للمرآة السحرية ، التى تستكشف الحقيقة عن طريقها · فالطريقة التى تتبع فى الهند لاكتشاف السارق هى أن تكتب كل اسم من أسماء الذين تقع عليهم التهمة على كرة منفصلة من العجين أو الشمع ، ثم ترمى هـــذه الكرات فى وعاء به ماء · فالكرة التى تحمل اسم السارق تطفو ، وفقـــا لاعتقادهم ، فوق سطح الماء ، فى حين تستقر سائر الكرات فى القاع · وقد تعود الشباب فى أوروبا أن يلجأوا الى أساليب عـــدة من التكهين فى « أمسية منتصف لصيف » ، لكى يتأكدوا من مصيرهم فى الحب · فالفتاة

فى « دورستشاير » تكتب الحروف الأبجدية على قصاصات من الورق قبل أن تذهب للنوم فى تلك الأمسية ، وتضعها فى وعاء به ماء ، بحيث تكون الأحرف مقلوبة • وهى تتوقع فى الصباح أن تجد الحرف الأول من زوج مستقبلها قد انقلب الى أعلى ، فى حين تظل سائر الحروف فى وضعها المقلوب •

وفى بعض الأحيان تقرر المصائر عن طريق اسقاط مادة ما فى وعاء به ماء ، ويحكم الشخص على مصيره من خلال الوضع أو الشكل الذى تتخذه المادة فى الماء • فالطبيب فى قبيلة «باهيما» أو «بانيانكولى» وهى قبيلة رعوية تسكن افريقيا الوسطى فى محمية أوغندا ، يأتى فى بعض الأحيان بوعاء به ماء ويرمى فيه بأعشاب معينة تحدث زبدا عندما توضع فى الماء. ثم يرمى كذلك أربع حبات من البن فى الماء ويراقب الوضع الذى تسير فيه • ومن خلال هذا الوضع أو من خلال طريقة انقلابها فى الماء فى أثناء طفوها ، يحدد ارادة الآلهة . وفى بعض الأحيان يتكهن الكاهن فى قبيلة « جارو » التى تسكن فى أسام ، عن طريق قدح ممتلىء بالماء وبضعة حبات من الأرز الجاف ، فهو يمسك بالقدح فى يده اليسرى ويسقط فيه حبات الأرز حبة حبة ويذكر اسم روح من الأرواح عند اسقاط كل حبة • فاذا حدث عند ذكر اسم روح من هذه الأرواح أن اصطدمت حبتان وهما تطفوان على سطح الماء ، فان هذه الروح هى التى ينبغى عليه أن يتضرع اليها • وفى مرتفعات سكتلاند يتكهن الناس عن طريق أوراق الشاى أو عن طريق رواسب الشاى التى تتبقى فى فنجان • بل ان النساء غير المتزوجات فى اسكتلندا يذهبن حتى اليوم زرافات الى أمثال هؤلاء المنجمين ، ليخبروهن ، مقابل اعطائهم قدرا من الشاى ، بالأزواج الذين يناسبنهن • وطريقة التكهن فى هذه الحالة تكون عن طريق مراقبة نظام أوراق الشاى المتخلفة فى الفنجان ، وذلك بعد أن تغطى الثمالة المتخلفة جوانب الفنجان جهة اليد اليمنى وتصب من الفنجان • كما يستعان فى انجلترا ببقايا الشاى أو القهوة المتخلفة فى فنجان للتعرف على النبوءات • وبالمثل يتكهن الناس فى مقدونيا من خلال القهوة المتخلفة فى الفنجان • » وقد تشير فقاعة واحدة تظهر فى وسط فنجان القهوة الى أن صاحب الفنجان له صديق واحد وفى مخلص • فاذا تجمعت عدة فقاعات عند حافة الفنجان ، فان هذا يشير الى أن الشخص متقلب فى مزاجه العاطفى ، مشتت فى عبادته الدينية . كما يختلف فى تفسير رواسب القهوة حسب الشكل الذى تتخذه ، فاذا انتشرت حول

جوانب الفنجان من الداخل فى شكل نهيرات وجداول ، فان هذا يعنى رخاء فى المال ، وهكذا ٠

وهناك وسيلة مستحبة للتنبؤ تتبع فى أوروبا ، وذلك عن طريق صب رصاص أو شمع منصهر فى وعاء به ماء ، ثم تراقب الأشكال التى يتخذها الرصاص أو الشمع وهما يأخذان فى التجمد ٠ وتتبع هـــذه الطريقة فى التنبؤ بالمستقبل فى كل من ليتوانيا والسويد واسكتلندا وأيرلندا ٠ كما أن الأيرلنديين يعتقدون أن الجنيات تتسببن فى احداث مرض يسمى « أسانى » ٠ ولكى يتنبأ المنجمون بما اذا كان هذا المرض سينتشر أم لا ، أو يتنبأون بطريقة للشفاء منه فى حالة انتشاره ، فانهم يستعينون فى ذلك بقطع من الفحم يضعونها فى وعاء به ماء رائق ٠

ويحق لنا أن نفترض بعد عرضنا لهذه الأمثلة أن يوسف كان يستعين بطريقة أو أخرى من هذه الطرق للتكهن عن طريق قدحه الفضى .

فهـرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة بقلم المترجمة	٣
مقدمة الطبعة المختصرة	١٣
الباب الأول	
عصر الحياة الأولى	٢٥
الفصل الأول	
خلق الانســـان	٢٦
الفصل الثانى	
سقوط آدم	٤٧
الفصل الثالث	
علامة قابيل	٧٣
الفصل الرابع	
الطوفان الكبير	٩١
الفصل الخامس	
برج بابل	٢٢٠
الباب الثانى	
عصر الأنبياء	٢٣٣
الفصل الأول	
ميثاق ابراهيم	٢٣٤
الفصل الثانى	
ارث يعقوب أو نظام وراثة الابن الأصغر	٢٥٨

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثالث

يعقوب وجلد الجدى أو الميلاد الجديد ٣٠١

الفصل الرابع

يعقوب فى بيت أيل ٣٢٥

الفصل الخامس

يعقوب عند البئر ٣٤٥

الفصل السادس

العهد .. (عند الحجر المنتصب) على النصب ٣٥٣

الفصل السابع

يعقوب عند مخاضـة نهـر اليبوق ٣٦٤

الفصل الثامن

قدح يوسف ٣٧٥